

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

PAIR



32101 023629213

كتاب الأول

غرائب الاتفاق

تعريب فقيد النظم والنثر

الروائي الشهير

المرحوم شاكر شقير

« اللبناني »

« مساعد في تأليف دائرة المعارف سابقاً »

طُبعت ثانية على نفقة مكتبة المعارف ومطبعها

لصاحبها **عبدالمجيد الزيني** بمصر

ان الحكايات كنزٌ يستفيد به ذو الجهد عقلاً واهل العلم آداباً
فاحرز حقائقها واذا ذكر بها حكماً

اسرارها فتحت للعقل ابواباً

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

مطبعة المعارف بأول شارع الفجالة بمصر

سنة ١٩٠٥

الفصل الاول

« الغريب والقينة »

قال الراوي : كنت منذ نحو مائة سنة في جزيرة كوبا القريبة من خط الاستواء وهي جزيرة عجيبة الشأن واقعة في مدخل خليج المكسيك بين الاثنتيك وبحر انثيلة قرب سان دومينكو وجمايك في شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٧٠ كان الحرّ شديداً جداً حتى لم يعد في طاقة الناس ان يتحملوه في مدينة هوانة قاعدة الجزيرة فخرجوا يوماً من كل فبحّ ينسلون وازدحموا على رصيف المرفأ فآرين من المدينة وقد خنقهم الحرّ وتفرق منهم جماعات على الرمل قرب مكسر الموج وكان البحر رائقاً هادئاً يقذف الامواج الخفيفة فتفرش عند مكسرها بقوة واهية وكان خروج الناس في الساعة الاولى من المساء بعد ان غابت الشمس تاركة آثار نيرانها متوهجة في المدينة وخارجها فلم يكن على الشاطئ الا برودة خفيفة غير ان الامل كان متعلقاً بهبوب نسيم البحر الرطب الذي ينعش الابدان فكانت حرارة النهار لا تزال تنبعث من الارض والرمال فيقاسي بها الناس اشد العذاب ولذلك كانوا بفروغ صبر ينتظرون هبوب تلك النسمات اللطيفة الباردة من جهة البحر الفسيح لكن طال زمن الانتظار وتضايقت الصدور وكاد الجمهور الكثيف يسقط عياء وقد ركذ البحر واجتمع سطحه حتى صار كالمراة الصقيلة لا تجعده نسمة يختلج بها ورق الشجر الذابل وكان على نحو فرسخين من الشاطئ مركب شراعي اسباني قاصد هوانة وهو من الصباح في مكانه قد رسخ كأنه صخر لا يتزعزع وتدلّت شراعهُ مسترخية كأنها مغرّات بسواريه لا تهزها نسمة فنزل جماعة من العبيد عراة في زوارق كثيرة وقصدوا تلك السفينة لكي ينزلوا ركبها الى البر لكن كان سيرهم بطيئاً لما نالهم من عياء الحر حتى ظن انهم لا يصلون ويرجعون في دون ٦ ساعات

وكان بين تلك الجماعات المزدهجة المختلفة الالوان والاجناس شاب ايض اللون
تلوح عليه هيئة الفرنسية وكان يظهر من منظره انه من الضابطة وان كانت ملابسة
لا تدل تماماً على وظيفته . وكان رشيق القوام لطيف الهيئة خفيف الروح على وجهه
بعض اصفرار يدل على مشقات قاساها ومع ذلك لم يخف عنه هيئة الاعتبار والجلال
والظرف . وعلى رأسه برنيطة قش كبيرة وعلى منكبيه رداء ايض وهو متقلد سيقاً
وفي رجليه حذاء احمر المؤخر له عرعى فضية اشبه بأحذية خواص بلاط الملوك
وكان هذا الفتى الظريف الشكل في وسط تلك الجماهير كأنه منفرد عنهم لانه
لم يكن يكلم احداً بل كان واقفاً متأملاً كأنه في شغل شاغل فلم يكن يلتفت الى
شيء ولا يبالي بمن حوله من الناس لكن اذا مرّ احد من العبيد او من مثلهم من
اسافل القوم ولطم به يدفعه عنه دفع متأنٍ رزين ذي صولة وأنفة وكان يظهر انه
يحقر اولئك العبيد الذين هم في درجة سفلى من سلم الانواع البشرية احتقار كريم
الاصل أباي النفس وكان جماعة من النساء الاسبانيات ينظرن اليه متأملات ويمررن
بالقرب منه تكراراً وبمضهنّ يروحن بمراوح مذهبة او مفضضة وهو مع ذلك لا
يكثرث ولا يلتفت ولا يفكر الا بنفسه ويتمشى متأملاً بين تلك الجماهير المزدهجة
ويقف برهة فبرهة ويرفع برنيطته بيده اليسرى ويمسح العرق عن وجهه بمنديل
في يده اليمنى

وفيا الناس في هذا الضيق الشديد اذا بنسمة رقيقة قد هبت فتنهد الجمهور تنهد
الاستراحة وعلت الوجوه علامات السرور والاطمئنان واخذت الرطوبة تنعش
الابدان وتشرح الصدور وبعد ذلك السكوت التام والسكون العجيب حدثت في
الجماعة حركة افراح عظيمة وانطلقت الالسنه باشتات الاحاديث كأنهم اموات نشروا
او غرق انتشاوا واختلطت لغة الاسبانيول بلغة العبيد اختلاط الليل بالتراب حتى
كان السامع لا يميز بين كلام وكلام ولا يسمع الا اصواتاً مختلفة الخارج مشبكة
اللهجة وفوق ذلك صراخ الباعة ينادون على بضائعهم ويعرضونها على الناس بين

نارنج وأترج وبطيخ ونارجيل ومشروبات مرطبة وروحية وهلم جرا حتى كان
مشهداً يستحق الالتفات ويستوقف النظر

وفي ذلك الوقت حلك ظلام الليل ولعت النجوم الشاسعة في قبة كثيفة الظلام
صافية الاديم وبعد هنيهة لاحت اوائل البدر من وراء اكمة صخرية ولم يلبث ان
خرج من وراء حجابٍ محمراً قليل اللمعان كأنه قرص من الارجوان . فحينئذ توجه
الشاب الفرنسي المذكور قاصداً المدينة بعد ان اتمش صدره وتنفس الراحة ودخل
اجمة ظليلة متمشياً الهويناء ثم دخل شارعاً طويلاً يقال له شارع الاو بسبوثم عطف
في شارع آخر يسمى شارع باسيو وكان هذا الشارع قليل الساكن غير ان محلاته
مشهورة بما يلقي في الخواطر بعض الريبة فوقف الشاب امام باب بستان فيه خمائل
لطيفة وازهار ظريفة وفي اغصان الاشجار قناديل من الورق معلقة لاستنارة الداخلين
الى البيت الذي في وسط ذلك البستان وكان البيت فيسجاً وتلوح من خلال نوافذه
انوار ساطعة وهناك ضوضاء ثور ثم تستكن وقتاً فوقتاً وتارة يتخلل ذلك الضجيج
قهقهة عظيمة واقسام وشتائم مألوفة ونحو ذلك . وبين ذلك صليل رنان يدل على
تحريك تقود ذهبية . فاصغى الشاب الغريب الى هذه الحركة قليلاً ثم ابرقت
اسرته بعد ان كانت عليه هيئة الضجر والكدر . فمد يده اليمنى الى جيبه فسمع فيه
صليل التقود فابتسم ابتسام الارتياح فدفع الباب واجتاز البستان حتى وصل الى
باب المنزل فوجد هناك تحت الرواق رجلاً اسود كبير الجثة منظره على سريره
فعرف انه حارس فلما رأى الشاب الغريب نهض حالاً وانحنى امامه مسلماً سلام
الوقار وفتح الباب آذناً له بالدخول فدخل واذا البيت قسمان يلعب في كل منهما
نوع من القمار ففي احد القسمين يلعبون لعبة تسمى لوتيريا المعروفة عندنا بالطمبلا
وفي الثاني لعبة شبيهة بلعبة الورق المسماة لنسكني . فكان دخوله عند انتهاء دور
الطمبلا وكان القارئ جالساً على كرسي عال وفي يده كيس جلد ابيض مطرز بالحرير
ياخذ منه النمر ويتلوها ثلاث مرات لثلاث يسهو عنها احد . فاسند الرجل ظهره الى

الحائط وانتظر دوراً جديداً يدخل فيه واخذ يتأمل في هيئة البيت فوجده على الطرز المكسيكي جدرانه مكلسة وليس عليها نقوش وخشب سقفه مدهون بلون احمر قاني واثاثه قائم بموائد مستديرة حمراء وكراسي من الخيزران والقنا واللاعبون شاغلون كل الموائد الا ثلاثاً وكلهم على اختلاف اشكالهم منهمكون في اللعب فكان منهم من اهل هوانة واسبانيا وجمايك وسان دومينيكو وفلوريدا وروساء مراكب لتجار السودان وملابسهم ايضاً مختلفة ما بين مزخرف وبسيط ثمين وقليل القيمة لان ذلك المنزل كان معداً لدخول كل من في جيبه دراهم من اصناف الناس . لان الغاية واحدة وهي لعب القمار وما يتعلق به . واما هيئة أولئك اللاعبين فلم يكن فيها شيء من الرضى ولا ما يسر النظر . عيون غارقة وحواجب كثيفة ووجوه نحيفة والوان كالخة وسحن قبيحة وهلم جرا . فلم يكن بينهم شاب لطيف المنظر الا ذلك الغريب ذو الحذاء الاحمر . وكانت عادة تدخين التبغ في هوانة شائعة من زمان طويل فكان دخان سيكارات أولئك المقاسرين يصعد اعمدة سوداء وينغرش على خشب السقف الاحمر . فلم يكن هناك من لا يتعاطى التدخين الا الشاب الفرنسي

فما انتهى الدور ارتفعت الضجة وقام الخدم وجمعوا الاوراق ليخلطوها وتقدم الراج وقبض الدراهم من الوكيل . وبعد فترة خمس دقائق قال الوكيل يا سادتي الساعة الآن ٩ ونصف وحسب عادة هذا المنزل يكون ثمن الورقة من الآن الى آخر الوقت اوقية من الذهب . فلم يعترض احد على هذا القانون غير ان الذين لم يكن معهم ما يكفي لهذا الطلب تأخروا واعتزلوا جانبا . ثم فرقت الاوراق وكان واحد يقبض قيمتها . فالشاب الفرنسي اخذ ورقتين ودفع قطعتين من الذهب ثقياتي العيار وجلس امام احدى الموائد وبسط ورقتيه ثم جلس الوكيل على كرسيه العالي واخذ يقرأ الاعداد وقد اجتمع في الصحن مبلغ جسيم جداً لان قيمة الورقة صارت ثلاثة اضعاف وكان عدد الاوراق مائة قيمتها جميعاً نحو تسعة آلاف ليرة فكان الجميع مصغين منتظرين بفروغ صبر سماع العدد الاخير الذي به يتعين راج

ذلك المبلغ وينماهم في هذه الحالة من اليأس او الرجاء العظيم والوانهم تتغير كتلون
 الحرباء وانفاسهم تنقبض وصدورهم تضيق كلما اخل العدد المطلوب لكل واحد واذا
 بصوت جهير لطيف قد ارتفع بين الجماعة صارخاً « طمبلا » فبهت الجميع وعلا
 اصفرار الهلع وجوههم ثم ارتفعت الجلبة بالتعجب والشم واللعن ونحو ذلك ونظروا
 شاخصين شخوص الحسد الى ذلك الراجح واذا هو الشاب الفرنسي غير ان هذا
 الفتى اجتهد ان يكتم حاسيات الفرح واظهر انه غير مندهش لهذا الراجح العظيم غير
 ان لوائح السرور لم تخف على وجهه لكنه لم ينهض بسرعة لقبض المبلغ بل قام من
 مكانه ومشى متأبناً رزيناً الى ان وصل الى محل الوكيل وكان قد جمع الذهب
 اساطين متساوية وضعها امامه على مائدة عالية فنظر اليه الوكيل باسمماً حسب عادته
 مع الراجح لانه كان صاحب المنزل فعليه طبعاً ان يبش في وجه كل من يربح . فالتقى
 الفرنسي ورقته امامه وقال ارجو ان تفحص هذه الورقة وترى هل وقع سهو في
 تطبيق الاعداد . فقال له العفو يا سيدي لا يليق بنا ان نفحص ورقة رجل مثلك
 عليه دلائل كرم النفس والاحترام وهذا يعدّ مني قحة لا تعتبر . واذا بصوت
 اجشّ قد خرج من الجماعة قائلاً افحص الورقة حسب القانون ومعلومك ان القانون
 يجري على الشريف والوضيع منا جميعاً وكان المتكلم بهذا الكلام الدال على
 الحفيظة والحسد رجلاً مكسيكياً قبيح المنظر خيث الطباع . فقال له الوكيل نعم ان
 القانون هكذا لكن ارجو سيادتك ان تسمح لي بحرقه مع مثل هذا الشاب الجليل
 القدر والا فيكون ذلك عاراً عليّ فارجوكم ان تمنع عني هذا العار . غير ان الجماعة
 طلبت فحص الورقة فلم يعد في طاقة الوكيل الامتناع ففحصها بتدقيق واذا هي مطابقة
 كل المطابقة فلما انتهى قال له الفرنسي هل حق لي ان اطلب ما ربحت فان كان
 فر لي بالمبلغ فقال له ها الدرهم هل تشاء ان تعدها . قال لا لزوم لان القانون ربما
 كان لا يسمح بالعدّ غير اني احب اذا شئت ان اخرق القانون واعدها كما لم يخرق
 باعفاء ورقتي من الفحص . ثم قال الوكيل هل في طاقتك ان تحمل هذا المبلغ الثقيل

او تحب ان ابعث به الى منزلك غداً على يد العبد الحارس فقال الشاب بل احب الي ان تحمل ثقلها لكن اذا سمحت بلفها في ورق يكون ذلك ايسر علي . فقال سمماً وطاعة ثم اشتغل بلفها لفاً محكماً وكان يدس بينها قطع الذهب التي معه وهي خفيفة العيار . وبينما هو مشتغل في عمله اذا بالبواب قد فتح ودخل شخصان في زي غريب وكانا غير قاصدي اللعب كما استفيد من هيتهما . واذا كان معظم مدار هذه الرواية عليهما وجب ان نشرح هيتهما وزيهما وصفاً مدققاً . وكان احدهما رجلاً والآخر امرأة وكلاهما من جملة أولئك القوم الذين من عادتهم الجولان في البلاد لضرب الطنبور والغناء والرقص كمادة النور في بلادنا المشرقية والبهيميين في اوروبا . وكان اسم الرجل قيناً والمرأة قينة اسمٌ على مسمى

فاما الرجل فكان شاباً لم يتجاوز الثلاثين سنة وهو مسمر اللون اشبه بعرب البادية نحيف الجسم رقيق اللحم حتى يُظن انه فوق السن المذكور . انفه طويل دقيق اعقف وعينه براقه خارقة النظر والاخرى معصوبة بعصابة عريضة سوداء تدل على انه اعور واما فمه فواسع الاشداق لكن رقيق الشفتين حتى اذا اطبقهما لا يظهر منها الا كآثر جرح من اذن الى اخرى وعلى رأسه عمامة اسبانية وبدنه مستطيل مسترق جداً وعليه قباء مخلي عتيق وسراويل اخلاق يصعب وصفه وساقفه من الركبة عريانة وفي رجله نعل من جلد الزنى وفي يده اليمنى طنبور وعلى صدره شريط مصلب معلق فيه من الجهة الواحدة قيثارة ومن الاخرى سيف عريض قد علاه الصداً . وبالجملة كان منظره مما يهيج الضحك وكان اذا تبسم لا يلبث ان يكظم ابتسامه . ومع ما كان عليه من الشناعة المضحكة كانت عليه هيئة الرعب لناظره لما يظهر من عينه من شعاع الشراسة وانخبت وكان افلج اذا ظهرت اسنانه تدل على وحشيته فلا يمكن ان يُظن الا انه اهل لارتكاب كل قباحة وفضيحة واما رفيقته فكانت معاكسة له في كل حال كل المعاكسة فطباق الوصف بينهما مما يحير الافكار لما سبى من صلة الرحم بينهما . فكانت في العشرين من عمرها

على ما يظهر قد اسدلت على وجهها قناعاً كثيفاً ذا اهداب على شكل الازهار تصل الى اربعة انفها . وكانت حسنة الهيئة رشيقة القوام لها شفتان تقطران عسلاً قد لونهما الخالق بلون الارجوان الشفاف . ولباسها بسيط لطيف يدل على حال غريب ولطف رقيق وظرف لا يكون لبنات الدلال وهي لابسة دراعية خفيفة النسج وكنفاها وذراعاها عريانة كأنها نسجت من الياف البلور تدل على قوام رقيق رشيق وعلى حقوئها كرىشة من عمل الصين حمراء لها اهداب متدلية وتحتها تنورة من الشاش الهندي مطوأة على زي لطيف مع غرابته مطرزة بازهار ارجوانية واصلة الى ركبتيها المستديرتين استدارة لطيفة وتحتها ساقان كأنهما اسطواناتان من الرخام منحوتتان بصنعة بديعة وفي رجليها حذاء من الابرسم الابيض عليه طراز من الحرير الاحمر ولها شعر اسود حريري الملمس قد تدلت جدائله كالافاعي البراقة من قمة رأسها الى مخلخلها تغشي كل بدننها اذا انحلت حتى تخال حجاب الظلمة قد انسدل على عمود الصبح وقد عقدت اطرافها بقدد من الحرير الدموي اللون واما لونها فايض مشرب صفرة وحمرة كأنه الذهب الابريز او قرص الشمس قبل الغروب . كما قال فيها بعض كبار الشعراء ما ترجمته

ما كنت بيضاء ولا سمراء لكن طليت من نضار ماء

كالشمس اذ تبارح السماء

وفوق صدغها الايسر زهرة ورد مشكوكة في قناعها ومن خلال هذا القناع تظهر عيناها اللامعتان الفتاتان . وعلى يدها اليسرى طنبور تضرب اوتاره بانامل كاقلام الفضة بيضاء دقيقة مستطيلة ترفة فتخرج من بينها نغمات تسحر الالباب واما النظر الى هيئتها العمومية وتكوينها اللطيف فهو كاف مغن عن الاسهاب في وصف سائر اعضائها فانها بالاجمال فتنة للناظرين . وتزايد روتقها وجذبها للقلوب حر كأنها السحرية فلما توسطت المحضر نظر اليها الشاب الفرنسي متفرساً وقال وتربة اجدادي ما هذه الا من حور الجنان هبطت الى الارض فتنة للعالمين . واقسم لم ار ابداع

من هذه المحاسن واللفظ الماروتي . ثم التفت الى الاعور النحس المصاحب لها وقال
 وبع الدهر ما أغرب اتفاقاته كيف يكون صاحب هذه الحماة اللطيفة هذا الغراب
 بل هذا البوم المشوم أو صاحب هذا الملاك الكريم هذا الشيطان الرجيم
 وقد ذكرنا ان هذين الشخصين كانت مهنتهما ان يعيشا من الغناء وضرب
 الطنبور وبناء على ذلك وقف الرجل ومد رجله اليمنى الى الامام واخذ الدف بيده
 اليسرى ورفعا الى قرب اذنه وضرب عليه ضربة التنبيه ثم قال يا سادتي قد
 قصدناكم في هذا المحضر لعلنا نشرح صدوركم انا عبدكم الفقير وهذه الست الحلوة
 وقد تعودنا ان نشتغل على الايقاع هي بطنبورها وانا بدفي الحاناً تطربون لها . الحاناً
 من الطرز الجديد . الحاناً لم يسمع احسن منها في قاعات اسبانيا ولا مراسم باريس
 فان شتم فانظروا واسمعوا . اصغوا وتفرسوا . اميلوا الينا آذانكم وعيونكم اتبهوا الينا
 بقلوبكم والتفتوا الى اعمالنا بكليتكم تأملوا في ما سنبدى من الحركات والالحان
 اللذيذة المطربة المنعشة القلوب . هذه الست الحلوة وانا عبدكم الفقير سنأتي العجب .
 هذه الست الحلوة سترقص رقصاً لم تره عين وستسمعون مني ومنها غناء لم تسمع
 به اذن وسترون حركات لم تخطر على قلب بشر تأملوا واصغوا . اصغوا والتفتوا .
 انظروا واسمعوا . ثم التفت الى رفيقته وقال . هيا يا ست الملاح
 اونا - دوي - تريا - تك - تم - تن

فشرعت تضرب طنبورها وهو ينقر دفه فظهرت منها انعام غريبة المألوف
 لكنها مرتبة

ثم قرنا صوتيهما وانشدا غناءً جديداً اسباني النشأة لكنه كان قد اختل قليلاً
 بانشاد نوتية قادس حين اتوا به جزيرة كوبا

ومع ما كان لصوت صاحب العصابة السوداء رفيق المرأة من غلاظة الحنجرة
 اذا تكلم كان صوته بعكس ذلك اذا غنى فعجب الناس لهذا الاتفاق الغريب .
 واما الفتاة فكانت اذا شدت هيجت الجواد بنغمات تحالها خارجة من آلة محكمة

الصنعة متقنة المبني . فطرب الجمهور لغنائها وطيبوهُ وقد التهاوا عن الطمبلا وانضم اليهم الذين في القسم التالي من المنزل وقد تركوا لعب الورق . ثم غنت الفتاة وحدها على ضرب طنبورها غناءً لطيفاً مستجاداً ثم غنت لحناً شجياً خيل فيه ان الدموع تتساقط من عينيها كاللؤلؤ المشور وفاضت قلوب الناس شوقاً وطرباً . وصفقوا لها تكراراً . فانحنت متشكرة وسلمت تسليم الدعاء وبسمت عن درّ منظوم في صدف من مرجان . واما رفيقها فلكي يحصل لها فترة تستريح بها اخذ يقلد بصوته الطير والبهايم تقليداً مضحكاً جداً غير ان الجمهور لم يطقه زماناً مظهرين شوقاً الى انجاز ما وعدوا به من رقص الفتاة وبه ينتهي الفصل .

ف عند ذلك وقف الرجل الدفاف ووضع احدى رجليه على اسكلمة ورفع دفة فوق رأسه واخذ ينقره وكانت الفتاة قد القت طنبورها جانباً واخذت بيديها صنوجاً من الابنوس وقرعتها واخذت ترقص بخطوات خفيفة تحطفها خطفاً لطيفاً وتلوى تارة وتنتصب اخرى وتب وثباً متخالفاً وتدور دورة الرحي على رجليه او على رجل واحدة ولم تنزل على ذلك وهي في نشاط وخفة واحتدام حتى حيرت النظر فلم يبق الا من بهت فيها وهو شاخص لها حتى اذا استكنت ووقفت ضج الجميع ضجيج الاستحسان وصرخوا بصوت واحد . اعيدي . اعيدي . فوضعت يدها على صدرها وانحنت شكراً وطوعاً . ثم نثرت ورقة من زهرة الورد المار ذكرها وخلعت احدى نعلها ووضعت الورقة في مؤخرها ولبست النعل كل ذلك بحفة عجيبة ثم صلصت بصنوجها وضرب رفيقها دفة وعادت الى حركات ارشق والطف من الاولى واستمرت على ذلك خمس دقائق ثم وقفت وانحنت الى نعلها واخذت ورقة الورد من تحت رجلها وأرتها للجماعة فاذا هي كما كانت في نضارتها ولونها كأن لم يمسه شيء البتة فصفقوا لها وضجوا ضجيجاً كهنيم الرعد استحساناً لرشاقها ولطف حركاتها وقد دهشوا واكبروا أمرها حتى كادوا لو تيسر لهم وجود السلك البرقي في ذلك الزمان يرسلون بخبرها الى سائر الاقطار وبيننا الجميع قد هاجوا شوقاً اليها وانتشر الدم ناراً

في عروقهم واسكرهم بصعوده غزيراً الى ادمغتهم وهم ينظرون اليها كأنهم يريدون ان يخطفوها بعيونهم كان الشاب الفرنسي قد شعر بخفقان قلبه وعلا الاصفرار وجهه وهو يتأمل فيها تأمل الهائم الوهّان

فلما انتهى المجلس احكم صاحب العصاية عصابته المزورة على عينه ومد يديه مسلاً يميناً وشمالاً ومن الامام والوراء وقال يا سادتي انا نحسب هذه الليلة من اسعد ليالينا لاننا نلنا في عينكم حظوة وقد تكرمتم علينا على غير استحقاق منا بكل ما من شأنه ان يدل على استحسانكم امرنا حتى حسبنا ذلك فضلاً منكم لا يكافأ وهذا اثن عندنا من الذهب والفضة حتى لم نعد نستطيع ان نطلب اجراً بعده . لكن اتم تعلمون يا سادتي ان الحاجة تأول بصاحبها الى ما لا يطاق ومن مثل افضالكم يعيش امثالنا فلا نستحي بقفرا الشريف وتقبل بممنونية وزيادة شكر كل فلس يخرج من ايديكم الكريمة التي حملتنا اثقل الجميل بتصفيقها لنا استحساناً

ثم التفت الى الفتاة وقال . هيا يا ست الملاح

- واحد - اثنان - ثلاثة - تن - تم . اجبي الاجر

فالقت الفتاة صنوجها في جيبها واخرجت منه طاساً من قصدير ثم طافت على الجماعة برشاقها المعهودة وانسها الرقيق وتخلت الصفوف والموائد وجعلت تقدم طاسها لكل منهم على حدة وهي لا تنطق بكلمة فلم تعد تسمع الا رنة الفضة وصلصلة الذهب وهم يطرحون لها القطع جزافاً . وكان رفيقها اذ ذاك منزوياً وهو ينظر ويتأمل وظهرت عليه علامات الجشع والانهال من كثرت ما احرزت من المال . ولم تم قينة نصف الحلقة حتى امتلأ طاسها فتقدمت نحو رفيقها وافرغت ما فيه في كيس كبير معه . فقال لها مدمماً واهاً لك يا قينونة . قينونة ما اغرب هذا الاتفاق . قينونة ارجعي (سماها قينونة تحبياً)

وكان الشاب الفرنسي لم يزل واقفاً قرب وكيل الطمبل كما تقدمت الاشارة وكان قد لف بالورق رُصف الذهب الا رصيفاً واحداً اهمله عند حدوث هذه

الصدفة الحسنة . فلما وصلت الفتاة الى الفتى الفرنسي اخذ ثلاثاً من تلك القطع
الكبيرة الباهرة وطرحها في طاسها . فاستغربت هذا الكرم الخاطي واحدقت
بالشاب برهة مبهوتة ثم بسمت بسمة ذهبت بعقله واحنت رأسها ثم اخذت يده
بخفة عجيبة وقبلتها . فسكر طرباً وخفق فؤاده اشد الخفقان ولم يصح حتى كانت
انعطفت كالغزال الشارد ووقفت امام رجل كأنه جبل من رفات جهنم كان قد قطب
حاجبيه الكثيفين عند ما قبلت الفتاة يد الشاب الفرنسي . وكان هذا الرجل
عظيم الجثة قاحل الجلد هزيل البدن جاحظي السحنة لا يكون قبح قين رفيق الفتاة
الا تقطة في بحر قبحه . غارق العينين جهنمي المنظر لا تقول اذا نظر في الظلام الا
ان عينيه عينا هرّ او نمر غضبان . صغير الرأس فظ الاعضاء مستدق الذقن طويل
الشاربين مبرومها كأنه من همج الارناوط . وعليه ثوب احمر ازراه من نحاس
قد اسود من طول الزمان

فلما وقفت قينة امامه قال لها بصوت خشن كزثير الضواري ويك يا قينة احب
ان اجزل لك العطاء لا على سبيل التصدق
قالت على اي سبيل اذن
قال انت قبلت يد ذلك الفتى لانه اعطاك ثلاث قطع من الذهب فانا اعطيك
ثلاثة اضعافها اذا قبلت خدي
فلما سمعت ذلك هزّت رأسها هازئة بكلامه
فقال لم تتمتعين وتمهزين آتخالين اني لا املك هذا المبلغ . ها انا ازيل ريبك .
ثم اخرج من جيبه كيساً من الحرير شبكي النسيج فلعمت فيه الدنانير وسمعت رتها
ثم قال كيف رأيت أتقبلين بما عرضت عليك
قالت لا فاني لست ممن يبيع قبلاته بالذهب
قال اذا لم تبيعي فبي
قالت اهب لكن لا لملك

فحرق من كلامها واستطال عليها ولف ذراعيه على عنقها ليقتصب تلك القبلة
 الثمينة فنفرت منه وطرحت برأسها الى الوراء وسقط طاسها من يدها ففرق ما فيه
 من النقود بين الموائد . ثم صرخت قائلة . النجدة النجدة يا اخي ادركني . قد
 افترسني الوحش فاشتد غضب ذلك الشيطان ورفعها بين يديه وضمها اليه بعنف
 حتى كاد يكسر ذراعيها وهي تمنع

واما الجماعة فلما رأت ذلك لم تبال بالمسكينة بل كانوا يضحكون من هذا المشهد
 الغريب . وكاد ينال اربعة من وجهها وهي تصيح وتستغيث باخيها . لكن من تنادي
 فان ذلك النحس لم يعد يهمله امر اخته وهي في تلك الشدة لان جشعه اوجبه ان
 يلتفت الى تلك النقود المشتتة تحت الموائد لثلا يقصد منها شيء فيكون بذلك ضياع
 فؤاده فكان قد دب على الاربع تحت الكرامى والموائد بين صفوف الجلوس
 وصار يلتقط ما يجد منها برغبة شديدة . وكانت زيادة اهتمامه بالدنانير التي اعطاها
 اياها الشاب الفرنسي فكان يلتهب اسفاً عليها ويبحث وينظر هنا وهناك وبهمهم
 ويدمدم ويحرق الارم وهو حائر في امره لا يدري ما يفعل ومع ذلك يلوم اخته
 على فعلها اشد اللوم

الفصل الثاني

« قتلة بقبلة »

وكانت قبلة قد اعيت ووهت قواها وهي تحاول التملص من ذلك الوحش الضاري
 وكاد يمس خدها القرمزي بخرطوميه الخبيث وقد رفع القناع عن وجهها وهو يقول
 لها تعالي الطاعة يا قبلة لم تبعيني ولم تهيني فانا اخذ رنماعتك . واذا بصوت مرتجف
 قد صاح به قائلاً . اليك عن الفتاة فلست لها بمولى . وكان الصارخ الشاب الفرنسي
 لان غيرته خنفته وتقدم الى الرجل ودفعه بكتفه فاضطرب ونظر اليه نظرة الاتمهان

وقال له ما الذي يعينك انت

فقال الغيرة لا تحتمل ان تعصب المرأة بين اهل المروءة . دع الفتاة واقتصر

فقال من اين لك ان تأمرني ويحك ومن تكون

- انا من لا يليق بشأنه ان يكلم سفيهاً مثلك . لكن انت من تكون من البشر

- ألا تعرفني انا الكولونل في عسكر المكسيك رامير المسلطن

- ولو كنت ابليس اللعين فانا آمرُك ان تكف عن الفتاة وتطلق سبيلها

- وما تفعل اذا لم افعل

- ازج هذه الحربة في صدرك وانت ترى اني الآن لا اقدر العواقب

ثم استل حربة صغيرة فنظر اليها المكسيكي نظر المستخف وضحك ساخراً ثم قال

ايها الفتى اغمد هذه المسلة . واعلم انك لا تكون لقمة في فم كولونل مكسيكي

فقال الفرنسي احذر لنفسك يا سيدي الكولونل فان مسلي حادة الرأس لا

احتاج لثلك الى اعظم منها . فاقول لك اخيراً دع هذه الفتاة كرهاً لا طوعاً والا

وذمة الفتوة الفرنسية لانجزن وعيدي . ثلاث مرات اعيد عليك الكلام

دعها - دعها - ألا تدعها

ثم رماه بحرته الرشيقة فرّت كالبرق وخرقت ثوبه وجرحته بصدده جرحاً

جانبياً . ولم يكن بالحقيقة كولونلاً لكنه قصد التهويل على الفتى

فلما شعر بألم الجرح صرخ حنقاً وجعل يهيمهم ويلعن . ثم ترك قينه واستل سيفه

الطويل زائراً زارة الضواري ثم صاح بالفتى قائلاً . اوصي بنفسك الخبيثة ابالسة النار

يا احق فانك لا محالة مقتول

فقال الفتى متهاكماً يا سيد رامير المسلطن الكولونل المكسيكي اسمح لي ان ارى

ذلك عياناً . انفذ كلامك

قال ذلك وقد احترس على نفسه لعله يكون صادقاً

فلما رأت قينه ان الامر جدّ بهما صرخت مرتعدة وظنت ان الرجل يستطيل

على الفتى لطول سيفه ثم خرجت مذعورة وتبعها اخوها وقد وجد الدنانير الثلاثة
 واما الجماعة فداخلهم هوس ورغبة في اتمام هذا المشهد الغريب الاتفاق الذي
 بعد ان كان مفتوحاً باللعب ومتخللاً بالفناء والرقص انتهى بالقتال وسفك الدم
 فلم يعد احد يفكر بالورق ولا الطمبلا ونسوا مسألة رقص الفتاة وغنائها وصعد كل
 منهم على كرسيه ليتمتعوا بالنظر التام الى هذين المتخاصمين

فلما رأى رامير ان الفتى الفرنسي قد اخذ لنفسه الاحتياط وحذر حذرا لابطال
 الجربين في القتال رجع خطوة الى الوراء وقطب حاجبيه ووقف وقوف من ضعف
 عزمه واضطرب فؤاده غير انه لما نظر الى طول حربته وقصر حربة خصمه اطمان
 بعض الاطمئنان لعله انه يستطيل عليه فرفع يده بجرته فظهرت عليها بقع من الصداء
 ثم هزها بشدة وضرب برجله الارض تكراراً وقال للفتى اقترب اليّ ان كنت من
 ذوي البأس

فقال الفرنسي بل انا مستعد للملاقاةك يا سيدي الكولونل

قال قد عرفت اذاً انك مدافع واذا اقتربت اليك تفر مني

اجابه بل خاب ظنك عار عليّ الفرار والدفاع فاني مقتحمك لنرى فعلك

ثم انحنى قليلاً ووثب وثبة الشهاب ودخل تحت حربة رامير بخفته وطعنه بجرته
 القصيرة في صدره فجرحه جرحاً آخر بليغاً . فذهل الرجل وارتعدت فرائضه ولم
 يستطع ان يطعنه بجرته لطولها فرجع الى الوراء ليتمكن منه فعدت بمائدة صغيرة
 فتضعض واقلب على ظهره فضج الناس ضحكاً قهض وهو يرغي ويزبد وقد
 استشاط غضباً ودمدم كالاسد الزائر قائلاً . اخيانة ايضاً وخروجاً عن سنة القتال
 فقال الفرنسي وهو لا يملك نفسه من الضحك وما الذي تريد يا سيدي الكولونل

قال انما قتلنا بالحرب وانت ضربتني كمن يضرب بالسكين

قال ان كنت تختار البديل فاني اقدم لك حربتي وتعطيني حربتك

فازداد الناس ضحكاً

ثم قال والا فاخبرنا ما الذي تشكوه من عدم المناسبة
قال ان المكان ضيق وليس لي مجال لالتوي وادب واروح واجي
قال صدقت ودليل حسن صناعتك وحدقك في الاتواء انك التويت لية كادت
تقصم ظهرك خفة ونشاطاً

فاحتدم رامير وصرّ باسنانه وقال أتتهكم عليّ ابضاً

- ربما لم يخطئ ظنك هذا ولِم لا

- لا بد من اخذ الثار

- فافعل متى بدا لك

- الآن الآن فلا تفت الفرصة على هذا الحال

- لك الامر لكن احذر على نفسك لعل هذه الطعنة تكون القاضية . واني ايضا

آتيك ما تختار فلنخرج الى الحديقة ليكون لك المجال الكافي للسكر والفر

- كراً لا فرّاً وانما انت من ابناء الفرّ . هلمّ نخرج واحتفظ مني

- الاولى لك ان تحتفظ يا سيدي الكولونل لان نشاطك الشديد وعظم خفتك

جلبا عليك هذين الجرحين فتأنّ ولا تعجل في العجلة ندامة

فلما سمع الجماعة هذا الكلام صفقوا اعجاباً به وهم يضحكون فاحترق قلب

رامير من غيظه وكاد يفمي عليه

ثم خرج الخصمان الى الحديقة وكر الجمهور وراءهما ووقفوا على مرتفع ليشاهدوا

ما يجري بينهما فوقف الواحد بازاء الآخر تحت شجرة قد علت في اغصانها

مصاييح ضعيفة النور فاخذ رامير يقبل حرته بالهواء ويلعب بها كما يلعب بقضيب

نحيف مؤملاً بهذه الرشاقة وطول الحربة انه يطول خصمه وهو بعيد عنه ويمنعه ان

يدنو منه ويصل اليه . لكن ساء فآله بمهارة الفرنسي ونشاطه لانه كان لين

المعاطف رشيق الحركة حاذقاً في فن السيف فكان دائماً يفر من اصابة تلك الحربة

الطويلة بسرعة عجيبة ولم يزل كذلك حتى كل الكولونل وخدر ساعده فانغمس

الفرنسوي تحت حربته كسابق عاداته وطعن خصمه بحربته فجرحته خده جرحاً بالغاً فطاش الرجل وظن ان روحه فارقت جسده فادبر مسرعاً ووثب نحو الباب النافذ الى الطريق فركض الفرنسي وراءه وهو يصيح به خسئت يا نذل الرجال فزاد بالمسكين الهلوع وصار عقبه يلطم شحمة اذنه عدواً فضج الناس ضحكاً واستهزاءً به وصار العبد يصرخ خسئت يا نذل الرجال . ولم يصل الكولونل الى الباب الاً ورأس حربته الفرنسي قد لعب بخاصرته . ثم نشط لشدة الخوف ووثب وثبة عجيبة وحلّق فوق سياج الحديقة وحصل في الطريق بعد ان اصابته الحربة مرة اخرى فشقت اليته . فلما توارى في الظلام كانت للناس جلبة عظيمة ونفرت الخفافيش حتى لم تعد تلك الليلة الى الحديقة المذكورة وركض بعض القوم الى الباب وخرجوا الى الطريق لينظروا ما حلّ بالجريح ويعودوا به اذا ادركوه طوعاً او كرهاً . لكن كان الليل حالكاً فلم يعرفوا له اثراً وعلّموا انه قصد شارع اوسبو طائراً باجنحة الوجل فعادوا عنه ثم تحول الجمهور الى منزل اللعب الى ما كانوا عليه من لعب الورق والطمبلا . فامتحن الفرنسي نصيبه مرتين فلم ينجح فقام وتقدم الى الوكيل وطلب منه تقوده المودعة من اول الليل عنده

فقال له لا مانع من اخذها يا سيدي الاً انه لا يوافق ان تحمل هذا المبلغ

الجسيم وتخرج وحدك في هذا الليل

- أفكثرت اللصوص عندكم

- كثيراً

- وما يفعل الدرك

- خوفهم من اللصوص اشد من خوف السابلة ولذلك اذا غابت الشمس

يفيب وجودهم من البلدة

قال الفرنسي اما انا فلا أخاف اللصوص واذا وجدتهم كان عليهم الوبال . ثم جمع المال في منديله وسار فلما وصل الى الباب عاد وقال للوكيل اسألك

سؤالاً آخر . هل تفيدني شيئاً عن هذين الشخصين المغنيين فضحك الوكيل
وقال أظن لك غرضاً مع قينة فهي بالحقيقة تستحق الالتفات لما لها من الجمال
والكمال

فعبس الفرنسي وقال ما هذا الجواب الذي انتظره ولا لهذا سألتك
- المعذرة يا سيدي اردت المزاح . والحق يقال لست اعرف هذين الشخصين
واظنهما غريبين لاني لم ارهما الا هذه الليلة وان شئت فانا استطلع امرهما
- لا حاجة الى ذلك

- لكن اخبرك يا سيدي ان معاشرة مثل هؤلاء القوم لا تخلو من الخطر
وخصوصاً في مدينتنا لاني علمت مراراً ان من يعاشرهما تكون آخرة امره جري
الدماء فلم يبال الفرنسي بهذا الكلام واظهر قلة الاكتراث به وقال
- اشكر فضلك على ارشادك غير اني لست ممن يعميهم الغرور فيضلون سبيل
الرشاد . ثم ودعه وخرج ولما مرّ بالعبد الحارس التي في يده قبضة من الدراهم ومضى
في سبيله الى ان خرج من باب الحديقة

وكان قين وقينة جالسين هناك على حائط الحديقة . وكان السبب في وجودهما
هناك في تلك الساعة انهما لما خرجا من المنزل عند اشتباك القتال بين الفرنسي
والمكسيكي كما سبق القول كانت قينة قد سبقت اخاها وجلست على الحائط واسندت
كوعها على ركبتيها وجعلت رأسها بين يديها فلما مرّ اخوها في الطريق لم يرها
فدعتهُ فوقف

- ما ذا تعملين يا قينة

- جالسة اأمل

- فيم تأملين

- اما تدري

- لا وحياتك الا ان يكون في ما ربحنا هذه الليلة من الفضة والذهب

- ليس هذا
- فما أدري اذن . واحذق الناس الذي يقدر ان يعرف اين يجول فكر المرأة
- أنا اخبرك اين يجول فكري . يطوف في طلب هذا الفتى الذي حماني بشجاعته حين تركتني انت يا جبان
- ما أراك إلا حمقاء وهو أرعن . كيف ترفضين مائة دينار لاجل قبلة حقيرة ما هذا الأحمق واني مؤأخذك به الى المات . واما الفتى فقد كلف نفسه امراً لاداعي له لانك كنت آمنة من كل سوء . ولكن لانه اعطاك ثلث قطع ذهب لا أطلب له مكروهاً فهو على ما يظهر فتى كريم النفس
- أتدري يا قين انه ربما كان الآن يختبئ بدمه ونحن نتكلم وما ذاك إلا لاجلي
- لا تخافي يا أختي فان رامير ليس ممن يهرب جانبهم
- هل أنت متحقق ذلك
- لا يخفى حاله على أحد من أهل هذه المدينة فانه كثير الحركة قليل البركة كالرحى التي تجمع ولا تطحن يتظاهر بالشجاعة والبطش وهو أجبن من ارنب اذا التفت الساق على الساق
- ألا ريب في هذا
- لا شيء من الريب واني اراهن على ما معي من الذهب بازاء درهم من النحاس انه الآن يرتجف وجلاً امام الفرنسي . ليطمئن بالك . والآن فلنمض في سبيلنا اذ لا شيء يجوجنا الى البقاء
- امض انت واما انا فلا أقوم من موضعي حتى أقف على الحقيقة
- أتبعين على الطريق
- نعم على قارعة الطريق
- هل جننت يا مشومة
- انا على ما كنت

- وما تعملين في البقاء هنا
- انتظر قدومه
- ويحك كيف تنتظرينه ولاي غاية . ألك معه كلام
- لا
- والأفأ أدري ما سبب انتظارك
- لذلك سببان الاول ان أراه بعيني خارجاً من المنزل سالماً على عهده والثاني ان أتأثره اذا مرراً لاعرف محله واعلم ما اسمه
- وما قصدك في هذا . . . هل شعرت بشيء من الميل اليه
- ما يعينك هذا
- كيف لا وانا أخوك اما لي حق ان امنعك عن ترهاتك
- من أخبرك اني اقصد الترهات
- هكذا يظهر لي
- انت مؤوم واما حقتك عليّ فلا اعترف به . نعم انا اختك لكن لا تعرف ذلك الا حين آتيك وردني ملائ دنانير كاني وجدت تلذمتك وسعد حظي فلولا وجودي ما ذا كان يحل بك فما لصوتك يطرب الناس ولا لقر دفك ولا بقبح منظرک يسرحون عيونهم فاذا تركتك يوماً واحداً اضطرت الى السؤال ممتهاً .
- وانت أخبر بذلك
- فوجم قين لهذا الكلام وطأطأ رأسه مفتحاً . ثم قالت
- فانف اذن من رأسك وهم سلطتك عليّ وتيقن انك لا تعيش من دوني فاذا قلت لك اريد الشيء الفلاني فبادر الى الطاعة منكس الرأس
- كفتي يا أختي توييخاً وعجباً بنفسك فلك امرك في كل ماتريدين اذ لا تنقادين لرأيي . فقصدك الآن ان تعرفي مسكن الشاب الفرنسي
- نعم هذا قصدي وعليه اصررت

- سمعاً وطاعة لكن ما ذا يقول خطيبك قارون

- لا يقول شيئاً

- والبرهان

- البرهان اني اعلم انه لا يعرف شيئاً من امرنا الا منك اذا جرك الويل ان تخبره

- حسن حسن يا قينة . فلا تشاء المرأة امرأاً الا اراده ابليلس وانا بريء من

سوء العاقبة فاعلمي بحماقتك

ثم جلس بجانبها واخذ يحسب بفكره ما في جيبه من الدراهم والدنانير فظهر له

ان المبلغ يفوق آماله . ولم يمض الا قليل حتى رأى قينة انتبهت وقلقت . وسمعا في

الحديقة جلبة عظيمة وكانت جلبة الناس عند قتال الرجلين كما ذكرنا ثم سمعا كلام

الفرنسوي للمكسيكي وهو خسئت بانذل الرجال وبعد هنيهة لمحت شبحاً ضخماً كأنه

قد سقط من السحاب على الطريق خارج الحديقة واختفى اثره فعرفا انه الكولونل

فقال قين اما قلت لك انه ليس ممن يرهب جانبهم فما هو يعدو عدو المدعور

وما احسن من خلا من الشجاعة ان لا يخلو من قوة الساق عند الهزيمة فما اخاله

الا قد وصل الى شارع اوبسبو

فقال قينة لم اره اخرج من هذا الزقاق

- ولا انا لكن اظنه مشى ملاصقاً للجدران والظلام كثيف

- تبا له ما اخسه لكن ما اظنه الا مترصداً لخصمه ليأخذ بثأره

- ليس هذا بعيداً عن الصواب

- فاذا كمن له ومراً به قتله لا محالة غدرراً

- ما اظنه فاعلاً هذه الليلة لان همه النجاة بنفسه والاستتار من خصمه لكن

ربما صدق ظنك غداً

- فيجب ان يحذّر الفرنسي من غدر الغد

- ومن يندره به

- انت اولى من غيرك
- لا لا
- لِمَ هذا الفشل
- ما من شأنى ان اوقع الخصومة بينى وبين قارون
- ألا تزال تذكر قارون
- لا أزال لانهُ شديد الغيرة ومديد الحيله
- لا تتوهم انى اكون امرأةً لهُ
- الامر لكِ لكنى اعلم انهُ خطيبكِ فلا افدى حياة الفرنسي بدرهم واحد اذا
- اتفق لقارون ان يعلم ما نحن فيه الآن
- افاكون أمةً لقارون اذا تزوجني وانت تحسب لهُ السلطان علينا وهو بعد
- خطيب لي
- لا احسب هذا لانهُ يحبكِ حباً لا قياس لهُ لكنهُ سيكون غيوراً عليكِ
- وهذا هو شأنهُ
- وانا اعاهدك انى لا اقترن به الى الابد فليفعل ما يرى
- كيف وقد وعدته
- اتقض وعدي
- لا يسلم لكِ بذلك
- سوف ترى وانت تعلم انى فتاة لا كالفتيات وان قلبي قلب الابطال وعزة نفسي
- لا يقدرها الاخساء مثلكِ ومثلهُ
- نعم هذا هو الحق لانى شهدت مواقعك العظمى ورأيت شيرين لديك ككلامه
- على كل حال انت تعلم انى خلقت لآمر لا لأمر وقد تحرك خاطرني والهممني
- اموراً غريبة ويلوح لي ان اسعى في احراز ثروة جزيلة وألقب بلقب شريف
- فضحك قين حتى استلقى على قفاهُ وقال لها ارى الغرور قد رفعكِ على اعرض

الاجنحة . ثروةً وشرفاً تحرزين يا لهُ من اتفاق غريب . واني يا اختي لمشتاق لمثل
هذا ولكنني ارى الكاس بعيدة جداً عن شفتي وما هي الا اضغاث احلام نراها
ونحن في اليقظة . فلا تطمعي ان نصيرا اكثر ما نحن الآن . من الرعاع اللثام

- من يعلم المستقبل يا أخي فمن تكون في جمالي وكالي وعمري وحذقي وحسن
تديري أيصعب عليها ان تصل الى اعلى الدرجات

- دعينا من هذه الاوهام واخبريني ما نتيجة هذا المجلس

- نتيجة اني لا اقترن بقارون

- اياك يا شقيقتي الانقياد الى تصوراتك الفارغة فانه شديد النعمة

- ويحك ايقدر عليّ وهل علمت رجلاً غلب امرأة بالحيل والخداع . ما اقل

عقلك واضعف رأيك فاذا خطر له ان يحاول ذلك لا تراه الا فاراً مذعوراً كهذا

الكولونل الشقي الاعمى البصيرة

فلما سمع قين هذا الجواب جعل يتفتق كلامه ولم يفصح بما في ضميره . وبينما هما

على ما ذكر اذا بصوت الفرنسي قد طرق اذن قينة وهو يترنم باغنية باريسية ترنماً

خفيفاً ثم خرج من باب الحديقة وسلك الطريق وبيده اليسرى منديل الملائن

ذهباً وباليمين حربته الصغيرة وهو لابس ثوباً ابيض لا يستره الظلام الخالك فهمست

قينة في اذن اخيها قائلة ها هو يا اخي

- نعم وانا اراه جلياً

- فلنمش على اثره

- مهلاً حتى يسبقنا مسافة كافية لان يخفى عليه صوت مشينا لئلا يرتاب بنا

فلما صار على نحو مائة خطوة قاما ومشيا على اثره وكانا لا يزالان سامعين صوته

ترنماً وان خفي عنهما احياناً في ظل الاشجار الكثيفة المظللة الطريق واما قينة

فكانت تفسح خطواتها لتقلل المسافة بينها وبينه

فلما رأى قين ذلك قال . آه من النساء آه من مكرهن . يحلوك يا قينة ان

تقادي الى ترهاتك واقع انا اخيراً تحت غائلة قارون . فوتر به اجدادي كان احب الي ان اخسر مائة دينار ولا تلتقي بهذا الفتى

وفياهما ماشيان اذا بقينة قد اسرعت الى اخيها وامسكت بيده وقالت له ويك انظر ما يجري هنا فد عينه وقال ويلها هذا نفس ما جرى هناك

وكان السبب في هذا الحادث الجديد ان الكولونل لما ركب الجادة مهرولاً وقد استظير فواده هلماً قاصداً الوصول الى شارع او بسبو كان يخال له لشدة الخوف وخفقان قلبه وقرع الطريق بشدة رجليه انه يسمع وراءه صوت مشي سريع فظن ان خصمه ملتحق به ليجهز عليه بتلك الحربة الخبيثة التي دعاها مسلة لقله اكثر اثاره بها فكان هذا الوهم يشدد عزمه ويزيد قوته في الركض بل يعيره جناحين للطيران . فلم تمض عليه الا بضع دقائق حتى انهدت حيله وكاد نفسه ينقطع من شدة الالم والتعب ولم تعد رجلاه تحملاه وظهر له انه ساقط واهي القوى وانه لم يعد يستطع ان يتقدم عشر خطوات ولو تحقق تلف حياته فاخذ يتأمل كيف التخلص من هذا العدو الالذ وكان حينئذ قد وصل الى الزقاق فرأى على شماله بيتاً مهجوراً مقارب الخراب وامام بابه رواق ظليل ضيق لا يمكن للمار امامه ان يرى من فيه فوثب عن الطريق ودخله

فكان قول قينة صحيحاً حين قالت لاختيها انها لم تره خرج من الزقاق . فجلس هناك راصداً ووجهه حربته الى مدخل الرواق وقال في نفسه اذا مر هذا الخضم من هنا وأراد ان يفتك بي لا يرى نفسه الا . طعوناً وانفذ هذه الحربة من صلبه فكيف يمكنه بعد ان يصل الي ويجهز علي . لكن لا أشك انه رأني دخلت هنا فحذر وركن لي خارج الباب حتى اذا خرجت دهمني وبطش بي فما الحيلة أبقى الى الصباح في هذا المكان الحرج مثلاً خائفاً حذراً ساهراً . لكن لننظر ما يكون من الامر وعلى الله التدبير

قد علم القارئ ان الفرنسي لم يقف اثره وان الذين خرجوا ليدركوه عادوا

عنه اذ توارى في الظلام ولم يعد احد يعبأ بامره . فلما مضى عليه نحو نصف ساعة وهو في تلك الحال ولم يشعر بحسيس عدوه عادت اليه قوته شيئاً واطمأن قلبه وعزم على الخروج ثم نهض وخطا خطوتين ومد رأسه من باب الرواق ونظر في الطريق مرتباً فلم يظهر له الا الظلام الخالك والسكينة التامة . فتحقق ان عدوه لم يتبعه ولا هو كامن له . فقال ها قد تخلصت ولم يجسر ان يتبعني فما يمنعني الآن عن الوصول الى منزلي فخرج ومشى قليلاً ثم خطر في باله شيء جديد . فقال ويحك يا رامير ما هذا الخمول اهو ذا الفرصة مناسبة للانتقام فان هذا الشاب قد أخرجك من باله وهو الآن مطمئن وقد ربح هذه الليلة مبلغاً جسيماً ولا بد له من المرور من هنا . فطرب لهذا الفكر ولبث مكانه لاصفاً بالجدار ويده حرته مترصداً مرور الفرنسي ليفتك به في ذلك الظلام الخالك وهو غير متنبه اليه . فلما وصل الفرنسي الى ذلك المكان وهو يتزعم اجفل الكولونل طرباً وقال ها هو وحده القليل التدبير فقد سلم نفسه اليّ كالتعمد فمن يقدر الآن ان ينجيه من يدي فلا بد من ان اسفك دمه وأسلم ماله . فلما انفصل عنه قليلاً انسل من مكانه حتى دنا منه فقال لا بد ان اضربه على رأسه ضربة تضعضه ثم اطعنه في صدره الطعنة القاضية . قال ذلك ورفع يده بتلك الحربة الضخمة ونزل بها على رأسه بكل قوته فسقط الرجل خامد النفس لا يعي من الدنيا على شيء

وكانت قينة تترقب كل ذلك فلما رأت الكولونل قد دنا منه قالت لاختيها ادركه ويحك والآن فقد هلك . ودفعتُه دفعة عنيفة . فاستل خنجره واسرع نحوها وكان الرجل لما سمع صوت قينة وشعر بركض اختيها قد خفق فؤاده واضطربت يده فضرب تلك الضربة وجمد ليرى ما الذي دهمه من ورائه ثم لما وقع نظره على شبح قين الهائل في الظلام اراد ان يلجأ الى حيلة الخلاص المألوفة وهي الهرب لكن ادركه قين قبل ان يبعد عن طريقه وطعنه بخنجره بين منكبيه فسقط معفراً بالتراب واندفق دمه حتى بل الثرى وتحدث انفاسه مبارحاً دنياه الشقية الى دنيا اشد شقاء .

وحينئذٍ وصلت قينة وهي تلهث وقالت لاختها ادركني ويك بالخبر ما ذا فعلت وفعلت

فقال قد قضي الامر . وجعل يمسح الدم عن خنجره بالحشيش

فظنت انه يعني الفرنسي فصرخت مولولة وهي تقول وا اسفاه عليه وا لهفي

فقال لها يا خبيثة هذا دأب النساء يطلبن قتل الانسان ثم ياسفن عليه فاذا كان

قصدك بارسالي اليه لاقتله اوليقتلني

- ويحك يا أخي ومن اخبرك اني مبالية بهذا الخبيث

- عنم تسألين اذن

- اما تدري يا نحس عنم . عنه . هذا الشاب المسكين أليس هو الذي قضي عليه

- لا لم يُقتل عزيزك يا فاجرة . لم ظننت انه قُتل

- العفو ظننت ان الخبيث قتله قبل ان تدركه

- لا نخافي انه ضربه بالحربة صفحاً على رأسه

- ولم اراه خامداً لا حراك به

- معني عليه أتخالين ان ضربة مثل هذه قتالة . طالما نالتني وانت تريبي امامك

حياً . ثم رجع كلاهما بجانب الفرنسي لكن بمقصدتين متباينتين فان قينة وضعت يدها

على صدره لتطمئن من ضرب قلبه عن حياته واما قين فاوّل ما مديده الى جيبه في

طلب النقود . وفي وقت واحد صاح كلاهما فرحين فان قينة شعرت بضرب قلبه

واخاها عثر على المنديل المملوء نقوداً

فقال قينة وافرّحاه لم تفارقه الحياة

وقال اخوها وافرّحاه قد وجدت الدنانير ثم حلّ عقدة المنديل وافرغ ما فيه

في جيبه الواسعة . ثم فطن لكيس الحرير الطويل الذي اخرج الكولونل من جيبه

عند ما عرض على قينة في السهرة ذلك المبلغ العظيم لاجل قبلة منها فاسرع الى شلوه

وقش جيبه فوجد الكيس فطار فؤاده من الفرح حتى كاد يفقد الادراك وصاح قائلاً :

قبنونة . قبنونة . بحادثتين مثل هذه اصير اغني خلق الله . بارك الله فيك ايها

الكولونل لانك سبب ثروتي

واما قينة فلم تكن تبالي بهزة الفرع التي أفلقت اخاها بل كانت لا تزال واضحة
يدها على قلب الفتى لترى كيف ينتهي الامر ويذمها هي كذلك اذ وقعت يدها على
جزدان كان قد سقط من جيبه حينما وقع وتعلق بين ازرار قميصه فاخذته ودسته
في جيبها

- ثم قالت لاختيها . لا يمكن يا اخي ان تترك هذا الرجل هنا في هذه الحالة
- وما تريد ان نعمل يا حبيبي
 - انت قوي البنية يا اخي فاحمله ولنذهب به
 - على رأسي وعيني لكن اين نذهب به لا نعرف مقره
 - نضعه في اول بيت نمر به ونراه مفتوحاً فلا يمنع احد عن الاعتناء بشأنه
 - لا اظن بيتاً مفتوحاً في هذا الوقت فقد مضى من الليل نحو ثلثيه
 - اذن نذهب به الى منزلنا
 - ما بقي علينا الا هذا . هه هه . ويلاك يا قليلة العقل اذا شعر قارون انك
ادخلت شاباً غريباً الى منزلك فاذا يفعل الا يقتله في الحال
 - ما الحيلة اذاً
- فصمت قين دقيقة ثم قال اما تسمعين حساً هناك في طرف هذا الزقاق لاني
اسمع كان جماعة قادمون نحونا
- وفيا هو يتكلم اذا بضوء قد سطع وهو يتقدم رويداً نحوهما
- فقال قين الحمد لله فقد تخلصنا من هذه الورطة فهؤلاء قوم يأخذونه عنا
ويعالجونه احسن منا
- لعلمهم اشرار يا اخي
 - كيف يمشي الاشرار يا غبية وامامهم الانوار
 - فلننتظرهم اذاً ونكلمهم بشأنه

- كيف يا حمقاء تنتظروهم هلمي واسرعي حالاً معي لنختبي فقد قربوا منا
 - لِمَ نَحْتَبِيْ
 - لاني اخلف ان اتهم بقتل هذين الرجلين طمعاً في السلب فنقع في شر عملنا وتكون
 العاقبة وخيمة عليّ وعليك
 - كيف يتهمونك وانت بريء

- انتِ تقولين اني بريء لكن هل يصدقونك . ومما يزيد يقينهم اني انا القاتل
 اولاً ان الفرنسي لا يعلم من صرعه . ثانياً اني قتلت المكسيكي بثار الفرنسي فلا
 يجدون غيري للتهمة . فقد علقت مرة فما احب العود الى مثلها . هلمي بنا . ثم
 امسك يدها وقادها كرهاً الى رواق ذلك البيت الذي كان الكولونل كامناً فيه

الفصل الثالث

« قين وقينه »

فلما صار الاخوان في مأمن ان يراها احد اقتربت تلك الانوار من المكان
 فنظروا واذا الجماعة ستة اشخاص عبدان بايديهما المشاعيل وآخران حاملان على
 منابكهما محفة عليها استار من حرير . وامامهم خادم ابيض عالي الجثة جليل الخطى
 تحت ابطه قرينة وفي منطقتيه اربع غدارات . وفي المحفة فتاة تبلغ الثامنة عشرة من
 عمرها كاملة الظرف والالطف متكئة اتكاء الدلال وفي يدها مروحة ملونة بالوان
 قوس السحاب يهب من خلالها نسيم لا يكون انعم من خدودها ولا ارق من
 خصرها . وعلى جسمها ثوب من الشاش الرقيق الناعم لا تجل بشرتها من بياضه
 الساطع وعلى منكبها عصا من حرير ارجواني وابيض تمثل الورد والياسمين في
 وجنتها وعنقها وقد اسدلت شعرها الاصبه كأنه نسالة الذهب على هلال جبينها
 المشرق على عينين

« قال الله كونا فكاتنا * فعولان في الالباب ما تفعل الخمر »

وحول معاصمها اساور عريضة من المرجان الكبير الحب يقول الناظرين ها هنا
السلك الفضي الذي تنتظم فيه القلوب

فحالما وصل الخادم الابيض الى مكان القتل والصريع وقف شعر بدنه ورجع
مذعوراً ومضطرباً وقد ابصر على ضوء المشاعل جثتين مطروحتين امامه تعترضان
المارة معفرتين بالتراب مصبغتين بالدماء فلما سمعت الجماعة صراخ الخادم المرتجف
ارتعدت فرائصهم فصرخ العبيد ايضاً لصراخه مع انهم لم يروا الشلوتين وتأخروا
ست خطوات على انه تأخر ثلاثاً . ونهضت الفتاة جالسة وسألت ما الخبر فلم يجيبها
العبيد فصاحت قائلة ما الخبر اجيبوا فتقدم الخادم الابيض اليها وقال :

يا سيدتي وجدنا هنا قتيلين قد غرقا في دمها فاقبض وجه الفتاة واقشعراً بدنهما
وقالت مضطربة ما هذا الويل في هذا الليل . افحصهما وتحقق هل ماتا حقيقةً
فلعل في احدهما بقية من الرمق لنعالجه عسى الله ان يرد اليه حياته فتقدم الخادم
والعبدان الحاملان المشاعل وفحصوا الطريحين فحسباً مدققاً ثم رجع الخادم الى
سيدته وقال لها احدهما يا سيدتي قتيل لا محالة لان حربة قد خرقت ظهره الى
صدره وما اراه ذا شأن يستحق الاتفات لانه كان رجلاً قبيح المنظر والخبر وقد
جمدت اصابعه على قبضة حربة لا يكون طولها اقل من اربع اقدام فهي حربة
شريرة . واما الآخر فغمي عليه واظن ان الخائن دهمه بضربة شديدة صفحاً على
رأسه . وعلى داخل برنيطته بقع صغيرة من الدم واما هيئته فبخلاف هيئة الآخر
لانه شاب ظريف الخلق واظنه غريباً شريف الاصل وفي احدى اصابع يده
اليسرى خاتم عليه علامة شرف وحرته صغيرة مغمدة فالمنظون انه دهم من ورائه
وان الذي دهمه هو ذلك القتل القبيح لكن لا ادري كيف قتل هذا الرجل لاني
لم ار دليلاً على ان الفتى قتله

فقالت الفتاة لا يعيننا البحث عن ذلك وانما الذي يهمننا اسعاف هذا الشاب الصريع
فقال هل معك يا سيدتي قينة مشموم تسمحين لي بها

قالت نعم ها هي . فاخذها الخادم وتقدم الى الفرنسي ونشقه منها فتحرك حركة خفيفة وفتح عينيه وانفض رأسه ثم انطبقت عيناه وسقط رأسه كما كان فقال الخادم يا سيدتي لا يكفي ما في القنينة فان دماغه في اختباط عظيم فيلزم على رأيي ان يفصد

قالت او تقدر على ذلك

قال نعم لكن ليس معي مبضع ولا عصابة

قالت فاحملوه اذن الى البيت حالاً ليراه ابي وها انا انزل من الحزمة فضعوه عليها وانا امشي الى البيت لا بد من ذلك فلا تتأخروا فاجابوها بالسمع والطاعة . وسار الجميع

فلما ابعدوا قليلاً خرج قين وقينه من مخبئهما . وقال قين لاخته الحمد لله يا سيدتي فقد اطمان بالك من جهة صديقك فقري عيناً فان الامر يأتي على ما تحبين فان البيت الذي سيصل اليه لا بد ان يحسن تمريضه اكثر مما تحسنين . فلم تجب قينة بكلمة ومشت مطأطئة رأسها

فقال لها اسألك يا شقيقتي بحق الالفة هل ساءك ملتي هذه الفتاة . اصدقيني كيف وجدتها ولو صعب عليك الامر قالت بارعة الجمال

قال واظنها ذات ثروة واسعة فوق هذا الجمال الفائق . واظن يا اختي ان صاحبك اذا افاق من غشيته يشعل الشموع الكثيرة على ضريح عدوه ويقدم عن نفسه تكراراً لانه اقاده فائدة لا تقدر

قالت بم افاده . بكونه كان قاصداً قتله

- نعم لا شك في ذلك

- ما ادري ما مرادك من هذا الكلام المبهم

- بل يجب ان تعرفي حق المعرفة فان هذا شاب لطيف ظريف دخل بيتاً فيه

فتاة فتاة فاذا رآها وعرف انها سبب خلاصه فماذا ينتج من ذلك

- الله اعلم

- وانا اعلم ايضاً . فاقول لك بتاكيد انهما سيتحابان ولا يعود شيء في الدنيا يفرق بين قلبيهما ولا تحول صعوبة دون مرامهما . فيكون القتل المقصود سبباً لقرانٍ من اشهى ما يكون

فهرت قينة رأسها وسكتت

فقال لها ما هذا السكوت الا تقولين شيئاً في هذا الشأن

- لا شيء يقال

- اظن اني فتحت لك باباً يسوك النظر اليه

- دعنا من مكرك وشرك الآن

- أتعلمين يا شقيقتي اني شرير ومكار هل اسأت اليك بكوني قدّرت لصديقك مستقبلاً حسناً فيجب عليك ان تسرّبي لسروره وتشكري فظنتي اذ اظهرت لك ما به صالح صديقك الاعز لان كل ما سيناله من النعم واللذة بسببك كان . كما سببت خصامه مع المكسيكي وسببت قتل هذا الشقي وسببت خلاص صديقك . لكن يا شقيقتي ابن آدم اسود الرأس فما اخاله يدعوننا الى وليمة الزفاف مع اننا نحن الواسطة الوحيدة لنعيمه واذا حضرنا تطفلاً يطردوننا خارجاً وان كنا شريفي الحسب وفي اثناء هذا الحديث الهزلي التهكمي كان الاخوان يسيران على اثر المحفة المذكورة . وبعد نحو ربع ساعة من الزمان وقفت الجماعة عند خميلة كثيفة فاخرج الخادم الابيض من جيبه مفتاحاً فتح به باب تلك الدار . فدخل الجميع واقفلوا الباب وكان ذلك في شارع اوبسبو وبقي الاخوان خارجاً لا يريان ولا يسمعان شيئاً في ذلك الظلام لان شوارع هوانة لم تكن تنار في ذلك الزمان الابنور النير الاصفر الذي هو لحكم الليل . فوقف قين وقينه قبل بلوغ ذلك الباب الذي دخل منه الرهط وجعل قين يقتل سيكارتة . واما قينة فسآها هذا الوقوف ودار بينها

الحديث الآتي

قالت قينة . لتتقدم يا أخي قليلاً

- وما المنفعة من تقدمنا

- مرادي ان اتحقق مدخل الدار حتى اذا قصدته نهراً لا اكون مرتابة

- بناء عليه احب الي ان لا تتقدم بلا طائل

- ما مرادك بذلك

- مرادي اني اعرف المنزل حق المعرفة واعرف لمن هو

- حبذا ما تقول اذا كان صحيحاً

- اكثر من الصحيح وها انا اخبرك اليقين هذا البيت من أجل البيوت ان لم

يكن اجملها في شارع او بسبو وهو ينخص رجلاً من ابنا ووطننا صاحب تجارة في

البحار فسيحة الاقطار وثروته لا تقدر وهذا الرجل يقال له السيد يوشع وقد أسن

وما له غير بنت وحيدة يقال لها أنيسة يقال انها بالنسبة الى بنات هذه المدينة

كالبدر بين النجوم وانت عرفت ذلك الآن لانها هي التي اخذت صديقك

الى منزلها

فأطرقت قينة برهة ثم رفعت رأسها وقالت :

- أتقول ان السيد يوشع جزيل الثروة

- ربما كان ما قلت وربما ادعى هو باكثر مما يملك . فله اشجار ومزارع قصب

سكر في كل انحاء الجزيرة وله عشرة مراكب كل مركب كاف ان يعد ثروة عظيمة

واما عبيده فاكثرتما تظنين اذا اجتمعوا كانوا اشبه بعسكر كثيف

- ومع كل هذا الغنى ليس له الا هذه البنت

- لا سواها فقد ظهر لك ان الذي يتزوج بها يكون اسعد الناس حظاً

فخفق فواء قينة وتقبضت اصابعها وتنهدت وقالت

- ألا رب في كل ما تقول . ما هذا الاتفاق الغريب تعطى الواحدة كل شيء

وتحرم الاخرى كل شيء . أنت ترى اني فتاة جميلة لطيفة حاذقة شريفة النسب فكيف قضي عليّ ان اكون مغنية وراقصة امددٌ يدي بالسؤال وهذه الفتاة ليست أجمل مني ولا اطرف ولا اشرف . لا تتوسد الآ الذهب . هنيئاً لك يا أنيسة . يتعشقك الناس ويهيم بك كل فؤاد . وأنا ايضاً تميل اليّ القلوب وقد دفع اليّ مبلغ جسيم لاجل قبلة واحدة . غير ان هذا الفرق المالي بيني وبينها قد قتلتني غيرة . فقد لاح لي ان استحل كل محرم واستبيح كل محظور . ولكل سافل حق ان يرتقي بأي وجه كان . فضحك اخوها لهذا الكلام وقال لها

قد رجعت يا قينة الي مبدائي . فانا ايضاً أحب ان اكون غنياً . ويحق لي ان اطلب الغنى ولو في كيس قريبي واسلبه حلالاً بلا لوم

- ويحك يا أخي هل انت مثلي وهل يتيسر لك ما يتيسر لي بهذا الحسن الشائق والرأي الصادق

- ولم لا يا عيني

- لاني حريصة وانت عيَّار . لاني جميلة وانت قبيح . لاني محبوبة وانت ممقوت

- الحق بيدك لكن ربما اتصل العيَّار الي ما لا يتصل اليه الحريص

- نعم هذا هو الصواب فلا يبعد ان ترتفع الي مكان يصعب عليّ ان أرفع اليه فالمشقة كل وقت معدة لك

- اشكر فضلك على انذارك

- لا يتوقف الاّ عليك تكذبي غير اني متحسبة لك

وكان الليل اذ ذاك هادئاً مستكنّاً لا يقلقه الا بناح كلاب الارقة وتقيق الضفادع وحفيف أجنحة الخفافيش الكبيرة . وحينئذٍ ضربت ساعة الكنيسة الكبرى ضربتين بعد نصف الليل

فقال قين لاخته اما حان لنا ان نمضي الي منزلنا

قالت نعم هلم بنا فمضيا حتى وصلا الى كوخ حقير قائم في وسط حظيرة تحدى بها الاشجار ارضها غير محروثة وقد غشيها العوسج والاعشاب البرية وكثفت وارتفعت حتى صارت مأوى للافاعي والوزغ . ولم يكن لباب المنزل قفل لانه لم يكن فيه ما يخشى عليه من طروق اللصوص الا ان له غلقاً بزنبك فكبس قين باصبعه على الزنبك فانفتح الباب فدخل وأورى الزناد وأوقد شمعة ودخلت أخته . والكوخ مؤلف من مسكنين خارجي لقين وداخلي لاخته وليس فيه من الاثاث شيء يذكر الا فراشان وقدور وبضعة صحون ومائدة حقيرة وسكينان وقدحان ونحو ذلك مما يحتاج اليه وكان في مسكن قينة مرآة صغيرة . وكان قين قد تخدر من النعاس فاعطى الشمعة لاخته وقال لها

اصبحت بخير يا أختي عسى ان تحلمي ان رجلاً غنياً خطبك وتزوجك فتنهضين صباحاً وانت من اشرف النساء

قالت عسى ان تحلم انك معلق قنستيقظ وانت رجل مؤدب . ثم دخلت مخدعها واغلقت الباب . واما قين فقبل ان ينام نهض ورفع ذيل فراشه واذا تحته حجر مربع فرفعه وكان تحته ثقب مساحته اربع اقدام مكعبة فالقى فيه النقود التي كانت معه وابقى في جيبه ما يكفي لمصروف غده وارجع كل شيء كما كان واستلقى على ظهره ونام اهنأ نوم . واما قينة فلما خلعت ثياب النهار وبقيت بثوب النوم اخذت بيدها جزدان صديقها الذي وجدته بين عرى قيصه وتأملته فاذا هو شبه كتاب له ثلاث عرى فضية ففتحته فوجدت فيه دفترًا للقيود الخفيفة وطبقتين عن الجانبين فنظرت واذا على اول صفحة من الدفتر هذه الكتابة « تنكريد النجكي . تولون سنة ١٧٠٠ » فطربت لذلك وقالت

قد عرفت اسمه وعلمت انه رجل شريف . وافرحاه . ثم مدت يدها الى احدى الطبقتين فوجدت تذكرة باسمه من وزارة البحرية علمت بها انه ضابط في احدى السفن الكبيرة

فقال قد كبر الحظ ان الضابط سيصير رئيساً والرئيس قبطاناً والقبطان اميرالاً
والاميرال وزيراً . واطرباه . ثم مدت يدها الى الطبقة الاخرى فوجدت ثلاث اوراق
مطوية فيها شيء ناعم وعلى الاولى مكتوب اسم سعدى وعلى الثانية اسم سلمى
وعلى الثالثة اسم رفقة . فدهشت لذلك ثم فتحت الاوراق فوجدت في كل منها
خصلة من الشعر كالحريز كل خصلة بلون مخالف للون الاخرى فقالت في نفسها
يظهر لي انه غير ثابت على عهد لكن ان ظفرت به اعرف كيف اقيده واستأسر
فؤاده . ثم نظرت في المرآة فرأت من وجهها اقوى دليل يؤيد كلامها ويوطد عزمها .
ثم ارجعت الخصل الى الاوراق ووضعت الاوراق في مكانها واغلقت الجزدان
كما كان واطفأت الشمعة وانطرحت على فراشها قلقه وغرقت في بحر الهواجس
والاماني وهي تحسب الف حساب وتضرب اخماساً لاسداس



الفصل الرابع

« خبر تنكريد ويوشع وانيسة »

ان ما ذكره قين لاخته بخصوص السيد يوشع وحسن بينه ليس فيه شيء من
المبالغة لان مدينة هوانة في ذلك العصر لم تكن كما هي الآن حسنة الابنية مزخرقتها
بل كانت الابنية الجليلة فيها قليلة جداً وكانت دار السيد يوشع ارفعها شأنًا واظرفها
منظرًا قد احدثت بها الحدائق وارتفعت جدرانها وشمخت قبابها واتسعت قناطرها
وزينت النقوش حيطانها والفسيفساء ارضها ونفيس الفرش قاعاتها ونصبت في وسط
خياتها الداخلية منظره حسنة الوضع جميلة الرسم مبنية بالحجارة البيضاء ومشرفة على
رياض مدبجة باشكال الازهار تتسلل في خلالها جداول من ماء زلال ترقص الاطيار
فوقها على اغصانها وتطرب النفوس بتغريدها المختلف الالحان وتبهج الانظار بتزويقها
المنمق وبين تلك الاشجار البهية المختلفة الانواع بركة فسيحة قد صفا ماؤها وسبحت

اسما كلها المتنوعة وفيها زورق غاية في الظرف تركبهُ اinese حيناً بعد حين ونحوض فيه بنفسها عباب ذلك الغدير المكلل بألوف من انواع الازهار الزاهية العطرة وعلى جوانب الدار من هنا وهنا منازل الخدم ومرابض الحيوانات الالهية ومرابط الخيول الاصيله

فهذه هي الدار التي أدخل اليها تنكريد وهو فاقد الرشد . فلما ارتفع الضحى وانبعثت اشعة الشمس على تلك المروج الفيحاء فتح تنكريد عينيه ولم يذكر شيئاً مما حصل له وظن نفسه على فراشه في منزله ثم شعر بالمر في رأسه وذراعهِ اليسرى نبهه من غفلته فرفع يده اليمنى الى رأسه فوجد كيساً فيه قطعة من الثلج تذوب شيئاً فشيئاً ونظر الى يده اليسرى فرأى رفاً من نسيج قطني ملطخة بالدم قد حزمت يده حزمًا شديداً لأنه كان قد فصد ولم يستفق على نفسه فاحتار في امره ولم يدري ما هذه الامور ولا كيف وقع له هذا الاتفاق الغريب . فبعد التأمل استفاق وعرف ما حدث له الليلة الغابرة وتذكر كل ما جرى له من اول الليل ودخوله منزل القمار الى الوقت الذي وصل فيه الى حيث دهمه خصمه الخائن . ثم تذكر كأنه في حلم انه سقط بضربة شديدة على رأسه وتحقق ان سبب ذلك الدنانير التي كانت في منديله فظن ان اللصوص فعلوا به هذا الفعل . ثم بقي عليه ان يعرف من اعتنى به ونقله الى هذا المنزل قمهض قليلاً واخذ ينظر الى ما حوله لعله يرى دليلاً يعرف به شيئاً عن هذا المنزل فرأى غرفة مفروشة بالبسط الصينية الدقيقة الصناعة عليها نقوش من صور الحيوانات والطيور والازهار والاشجار والصخور ونحو ذلك من المناظر الطبيعية وفي سقف الغرفة معلقة ثرياً هولندية الزبي في وسطها قرص من الصفر اللامع ولها ست فروع حسنة الشكل وتجاه تحته مرآة كبيرة جميلة النقش متقنة الصنعة ورأى من جملة الاثاث ادوات كثيرة مختلفة ظريفة وكراسي من الخيزران من صناعة اليابان فله كل ذلك على عظمة صاحب الدار وسعة يده فقال في نفسه لا ريب اني في دار جلييلة لقوم اشرف فمن اصحابها يا ترى

وبينما هو يتأمل في هذا الامر اذ فتح الباب ودخل ثلاثة اشخاص الاول منهم شيخ جليل الهيئة قد تجعدت جبهته وسالت عليها ناصيته البيضاء وتلوح عليه مع وقاره لوائح الحزن والبلبال لكن لم تحف الكآبة ما على وجهه من دلائل الجمال الصبائي وكان منحني الظهر عجزاً لا تستقر يداؤه من الارتعاش . ووراء هذا الشيخ الخادم الابيض المار ذكره الذي كان اول من رأى القليل الصريع على الطريق وهو سائر امام ابيسة في محبتها . واما الرجل الثالث فكان اشهر طيب في مدينة هوانه .. فتقدم الشيخ الى تنكريد ورآه قد فتح عينيه وارتفق على وسادته بلا انزعاج فبش في وجهه وقال له

شكر الله يا ولدي اذ استفتت سليماً من غيبوتك لاني كنت في ريب من سلامتكم حتى اتي لم استرح بالأب بكلام حضرة الطيب هذا فانه قال لي لا خوف من هذا العارض

فقال تنكريد ياسيدي الموقر ما ادري كيف اوذي لك فرائض الشكر والممنونية على ما كلفت نفسك له من هذه العناية الجليلة بشأن فتى غريب

فاجاب الشيخ لا داعي للشكر يا ولدي فليس هنا شيء من الجميل وان من الواجب عليّ مساعدة كل من كان في مركزك غريباً كان او قريباً ولا سيما اذ يظهر انك ابن شرف واحترام . لكن اشكر الله على سلامتكم وحضرة الطيب يؤكد لنا انك لا تمكث اكثر من ثلاثة ايام في الفراش . وكان الطيب قد رفع كيس الثلج عن رأس تنكريد وجس يده وقال

لا بثلاثة ايام بل غداً يقوم معافى فليس في جمجمته التهاب بداعي الثلج والنبض معتدل ولا ارى شيئاً من دلائل الحمى لله الحمد فثار الخادم من ساعته وقال بل الفضل لي انا الذي بحذقي ومهارتي وجدت لزوماً للفصد والا لم يسلم من الحمى فتبسم الحاضرون لحماسته وشكروه على مهارته

فقال تنكريد كلكم ياسادتي حملتموني من الجميل اثقله واوليتموني من الشكر احسنه

فقال الشيخ لا صنعة يا ولدي فكلُّ من عمل ما هو واجب عليه في مثل هذه الظروف

ثم قال الطيب لتكريد هل تشعر بالم

- خفيف

- وهل في رأسك ثقل

- لا يخالو الامر لكن اجد نفسي منحط القوى وان اعضاءي متخدره

- لا بأس من ذلك فلا بد ان يحدث مثله على اثر مثل هذه الضربة التي

اصابتك على الجموع العصبي فبعد ساعات لا يعود شيء مما تشعر به

فقال الخادم ولعل ذلك حصل على اثر الاستفراغ العظيم من الدم

فقال تنكريد لعل كلامك صواب فهذا هو سبب انحطاطي

فلم يقل الطيب شيئاً حينئذٍ

فسأله الشيخ قائلاً بم تأمر

قال براحة غابر اليوم ووضع قليل من الثلج على رأسه كل ساعتين وغذاء مقو

قليل المقدار ومساء قدح من خمر اسبانيا . واما غداً فيسقى الخمر المذكورة ثانية لكن

اكثر مما يشرب اليوم

ثم خرج الطيب والخادم وبقي الشيخ لدى تنكريد

فقال له يا ولدي هل يثقل عليك التكلم

قال لا وانما يلذ لي حديث رجل جليل اتشرف بوجوده وانسه

قال لا اظن اصلك اسبانياً لان لغتك فرنسوية فصحي

قال صواباً نطقت يا سيدي فانا من فرنسا ضابط في البحرية من الرتبة الاولى

في السفينة المسماة بالصاعقة واسمي تنكريد النجكي

فلما سمع الشيخ كلامه ظهرت عليه لوائح الانبساط والسرور ثم أخذ يديه وكبس

عليها وقال له بالفرنسوية المحضه

نعماً يا ولدي الف شكر لله اذ قاد اليّ من أحسب جميلي معه ألدّ جميل في حياتي لا يمكنني ان ابرلك عن حاسات السرور التي انعشت قلبي لاني وفيت جزءاً من المعروف الذي عليّ لابناء وطنك

- هل تعرف فرنسا يا سيدي

- أعرفها نعم واحبها لان الرجل الوحيد الذي لي في هذه الدنيا والذي وحدهُ بحسب اخي الحقيقي هو رجل فرنسوي واظنك الى الآن لم تعرفني يا ولدي مع شهرة اسمي في الاقطار انا السيد يوشع التاجر

- واهاً يا مولاي انت هو السيد يوشع التاجر المشهور صاحب المراكب التجارية ذو العشرة ملايين الذي ذاع ذكره في اقطار الدنيا

انا هو نعم انا هو قال هذا واطارة الاقتباس على وجهه

- اذن يا سيدي حيث قد عرف احدنا الآخر اسمح لي ان اسألك عن سبب وجودي في منزلك وما حديثي من حين وجدتي الى الآن

- اخبرك القليل الذي عرفتهُ

- معاً قلت اقبلهُ بكل شكر لعلني استنير به واعرف انا وانت حقيقة ما جرى لي

- في هذه الليلة كانت ابنتي انيسة الوحيدة عائدة في محبتها من عند صديقة عزيزة لها ومعها الخدم فوجدت في آخر زقاق او بسبو شلوين مطروحين على الارض معفرين بالتراب

- واعجباً كيف وجدت اثنين

- نعم اثنين انت ورجلاً آخر ضخماً شخناً يناهز الخمسين قبيح المنظر لابساً ثوباً احمر وفي يده حربة كبيرة . هل عرفتهُ الآن يا ولدي

- نعم نعم عرفتهُ هذا هو الكولونل بعينه اول ما رأيتهُ البارح مساءً واسمه رامير يدعى انه كولونل مكسيكي وجرى لي معه كيت وكيت (وحقى له قصته الى ان دهمه) فلا شك انه هو الذي فاجأني بهذه الخيانة اخذاً بثارم وطمعاً في سلب

واما سبب وجوده بالقرب مني فمن أغرب الامور وما أدري ما أتحن هذا الحادث

العجيب

- كيف عجيب . أعجيب ان يوجد بقر بك وهو قتيل
- يا للعجب هذا اغرب . أقتيلاً وجد
- نعم قتيلاً لا روح فيه ودمه حوله غدير
- وما الذي جرى له يا ترى
- خنجر طويل خرق ظهره الى صدره بين منكبيه
- هذا هو الاغرب والاعجب
- لم تعجب ألت انت الذي طعته هذه الطعنة القاضية
- كلاً يا مولاي فليس لي الا هذه الحربة القصيرة التي تراها (وأشار اليها)
- وكانت مغمدة حين دُهمت وما كنت اعلم قطعاً انه هو الذي دهمني حتى الآن
- من ترى اذن عاقبه هذا العقاب السريع ثم اهملك مطروحاً وفرّ
- الظاهر انه احد العيَّارين
- وكيف يعمل العيار هذا العمل وما مراده بقتل واحد وترك الآخر صريعاً
- اذا ظهر السبب بطل العجب وذلك اني كنت حاملاً في منديلي دنانير كثيرة
- والمكسيكي يعلم ذلك فكمن لي ليقتلني ويسلب مالي ولم يخطر على باله ان عياراً يتعقبه
- ويسلب ماله ايضاً لانه كان معه كيس حرير محشو دنانير فلما ادركه العيار وقد
- صرعي استلب كيسه ثم رأني طريحاً حامد الانفاس فظنني ميتاً فمد يده اليّ واخذ
- ما معي وانصرف بغنيمة باردة
- ليس هذا بعيداً عن الصواب فقد انجبت الحقيقة على ما يظهر فلا مرأ ولا
- خلاف . لكن عجبت من امرك كيف تجسر على الخروج وحدك ليلاً في مثل هذه
- المدينة ومعك هذا المقدار من الدنانير
- قد كان ما كان والانسان قد يضطر الى ما لا يريد وقد يسقط في الخطر مع

الحذر . فلم ارد ان اترك مالي في بيت القمار ولا خطر على مالي سرعة الوقوع في هذا المصاب

ثم ساق له الشيخ بقية القصة وما فعلت أُنيسة الى ان حصل في منزله . وقد سبق هذا الكلام في مكانه فقال له

اسألك يا سيدي هل يُسمح لي ان اشكر فضل هذه السيدة الملائكية
يسمح لك يا ولدي اما الليلة او غداً لا تعجل في الامر والوقت معنا فتى استقامت
حالك يكون ما تحب

- قد قويت وحسنت حالتي يا مولاي فلا تؤخر شفاء شوقي
- مهلاً يا ولدي . لكن ارجوك ان تخبرني عن امر . قلت لي انك ضابط من
الرتبة الاولى في سفينة الصاعقة . وهذه السفينة خرجت من فرضتنا منذ شهرين
فكيف اتفق بقاؤك هنا
- السبب في ذلك يا مولاي اني كنت على البر مع بعض اصحابي ليلة مسير
السفينة فطعننت بحربة ٠٠٠٠

- ما هذا يا ولدي اكل حياتك الوقوع في مثل هذه الامور
- كثيراً ما يحدث هذا . غير ان هذه الطعنة شرعية اصابني من الامام وجهاً
لوجه وذلك اني امسكت حربة بيد صديق لي مخلص جداً يقال له حنا الطرمبلي
وهو من احسن الضباط واصدقهم وداداً
- كيف اذن يقع مثل هذا بينكما مع فرط المحبة

- الله اعلم كيف وقعت هذه البغته وليس الداعي كبيراً فالسبب هو خصلة شعر
شقراء من شعر فتاة كنا كلانا نميل اليها فوق وقع الخصام ثلاث مرات وفي الثالثة اصابني
وهو في احتدام الغيظ غير انه لما جرحني ندم أشد الندم واخذ يبكي وينتحب
كالطفل فلما رأني جراح السفينة يئس من حياتي وحكم اني أموت بعد ٢٤ ساعة
اذا تقولني الى السفينة فامر الرئيس ان يتقلوني الى بيت تاجر فرنسوي من اصحابه

يقال لهُ الياس السندري

- هذا رجل معتبر انا اعرفه ولا بد انه خدمك خدمة صادقة

- نعم لا انكر فضله وفضل امراته فانهما عنيا بمعالجتي أشد العناء ولم يمض شهر حتى برئت من جرحي وعادت اليّ صحتي . لكنني كنت املُ حالة معيشتي لا شغل ولا لهو فكنت اصرف الزمان بالضجر والكدر . ولم أَر وقتاً راق لي منذ شفيت الى ان حصلت في منزلك يا سيدي . اذ لم يكن لي أنيس ولا مصافٍ ولا من أتهي بمعاشرته أو اشغاله وكنت قائماً فارغ الصبر لقدم سفينة اركبها الى اوربا ثم امتد الحديث بينها برهة غير قصيرة الى ان رأى يوشع لزوماً للانصراف عن الفتى لكي يأخذ راحته بالنوم فودعه وخرج

وكانت أنيسة في ذلك الوقت جالسة في انتظار ايها في قاعة قد جمعت كل اسباب الزينة والزخرف الشرقية والغربية . لابسة ثوبها الابيض متكئة على وسادة من الاطلس على وضع يجذب النظر ويستميل القلب حتى ان من يراها لا يظنها الاً ملاكاً هبط من السماء او دمية قصر مدت لناظريها شرك الهوى والصبابة . وفي يدها قنزعة طائر خضراء تغلبها وتتأمل في محاسنها

فلما دخل ابوها نهضت لاستقباله كالغزال النافر قبلها في جبينها واعتنقه هي

وقالت لهُ

أرأيت يا أبي ضيفنا الجريح

- نعم يا بُنيّة

- كيف هو الان

- على أحسن حال

- فليكن اسم الرب مباركاً

- لكن تركتهُ يا بُنيّة وهو في أشد الشوق ليخرج من غرفته ويراك

فلما سمعت انيسة ذلك صبغ الدم وجنتيها حياءً وقالت

- ما يريد مني يا ابي
- يريد ان يقدم لك فروض الشكر لحسن صنيعك . لانه على يقين ان حياته من انعامك ولعله مصيب في هذا
- هل اخبرك عن اسمه
- قال انه الكافير تنكريد النجكي
- اذن هو فرنسوي
- نعم وهو ضابط من الرتبة الاولى
- فالحمد لله يا ابي اذ قدرني على صنع جميل مع رجل تحب بلاده وقد شعرت انا ايضاً بميل الى فرنسا وان كنت لا اعرفها
- هل تخمين ان تدخلها يا بنية
- نعم يا ابي كيف لا وقد حامت في الليل الماضي اني ركبت سفينة سائرة بي وبك الى تلك البلاد العريزة الجميلة
- عسى يا عزيزتي ان يصحح في اليقظة ما رأيت في المنام
- او اتعلل بهذه الامنية
- لا ريب في بلوغك اياها ان شاء الله
- عسى ان يكون الوقت قريباً
- في اقرب وقت يمكن
- وهأله املأ اذا تحقق يا ابي الحبيب كم يكون مقدار سروري
- فلما قالت ذلك دمعت عينا الشيخ فانحرف بوجهه لثلاً تشعر بدمعته ثم مسحها والتفت اليها فقالت وهي تكاد تطير فرحاً وتسيل لطفاً
- يا ابي اذا دخلنا فرنسا فلا بد ان ترى صديقك الاعز . أما هذا احب
- القصد اليك
- نعم يا بنتي نرى حبينا فيليب لوليان وارجح انا نزل عنده

- يا له من نعيم لو تعرف كم اكون سعيدة اذا اعتنقت الرجل الذي تحبه
- اجعليه بمنزلة يا ولدي وفاء لجزيل معروفه معي . لان الاخ لا يصنع مع اخيه ما صنعه معي هذا الرجل الصدوق والخل الوفي وربما يصنع اكثر مما صنع في المستقبل . فاخلصي له الحجة كأنه ابوك بلا فرق البتة
- ما احسن ما تقول . منذ الآن اشعر ان قلبي يكاد يطير اليه حباً واحتراماً لكن يا ليتة كان له بنت صبية نظيري لا كون معها كالشقيقة مع شقيقتها فلا يفصلنا الا الموت
- له يا ولدي ابن فتى عمره ٢٥ سنة يقال له لؤلؤ ويقال انه ذو جمال بارع ولطف ساحر واخلاق كريمة وحذق عجيب
- ثم قال بذاته . امس حلت حلاً ما الذه واهناه لو كان يتم اقتران لؤلؤ بانيسة . ما اسعد حياتي لو تم ذلك لكن واسفاه لم يعد ممكناً الآن . لا . لم يعد ممكناً . والهني وبعد ان ذكر هذه العبارة غرق في بحر من التأمل وصار كأنه في البحران لا يعي على وجود بنته بقر به . وظهر انه غاص في لجج من الكآبة لا قرار له
- فلما رأت انيسة الحالة التي صار عليها ابوها اندهشت وتحيرت واحترمت اولاً ان تعاود الحديث معه ولا سيما حين شعرت بالكآبة التي استحوذت عليه ولم تكن قد رأت منه ذلك قبلاً ثم مدت يدها ولمست ذراعه فانتبه مذعوراً فقالت له
- هل تشعر بشيء من الالم يا ابتي
- لِمَ هذا السؤال يا ولدي
- لاني رأيت الاصفار قد علا جبينك فجأة وان عينيك قد تفرغرتا بالدموع فحاول الشيخ البشاشة وتبسم تبسم التكلف وقال
- توهمين يا بنية فلا يرُعك الوهم
- هذه غاية مرادي ان اراك بعافية وخير
- ليطمئن قلبك يا ولدي فانا بخير لله الحمد

- ان كان ما تقول صحيحاً فحقته لي ولا تكتم عني قصد راحة بالي فقط بل
اريد ان اقف على اليقين

- هذا هو اليقين ولسببٍ بمخفٍ عنك شيئاً وان كنت شديد الاهتمام براحة افكارك
فتقدمت اليه واعتنقته . فلبث هنيهة ثم قال لها

احب يا ولدي ان انفرد في غرفتي لان عندي شغلاً كثيراً فوكلاء ارزاتي
ارسلوا اليّ البارح قوائم حساب مبهمه جداً فاحب ان ادقق فحوصها وارتب كل ما
يتعلق بها فما احب ان التهي بشيء آخر ولا بك الآن اذ لا يستطيع احد غيري
ان يقوم بهذا العمل المهم ولو اصتطاع فلا اسلم ما لم اشتغل بنفسي

قالت فليكن ما تريد يا ابت فاني لا امرُّ ببابك

فتبعتها قبله الخنو وانصرف ودخل غرفته واغلق الباب وغاص في بحر تأملاته
الحزينة المكدره فعادت على وجهه امارات الكآبة اشدّ مما كانت وخفق قلبه خفقاناً
شديداً فضم يديه الى صدره ونظر الى العلا وتهد من فؤاد منسحق وقال يا ربي
يا الهي ما هذا العذاب الاليم . تحن يا ربّ عليّ وارحم عبدك الساقط تحت اثقال
الحزن والاسف . لا اطيق يا الله كل هذا العذاب . ثم دلف مثاقلاً وانطرح على
المتكلم الكبير واقرب رأسه الى الوراء واغمض عينيه كمن اغمي عليه وصارت يده
وجفونه وانفه وسائر اعضائه ترتجف لشدة الالم والوهن وبقي كذلك نحو ثلاث
دقائق ثم تحرك وامسك مفتاحاً معلماً بعنقه بشريطة سوداء وفتح جرابه خزانه بالقرب
منه واخذ منه قنينة فيها الى نصفها سائل احمر شفاف وقمّاعاً من ذهب في حجم
كشتبان الخياطة وصب فيه بضع قطرات من القنينة وشربها جرعة واحدة .
فتمددت اعصابه بعد اتقباضها وعلا وجهه الاحمرار وبطل ارتعاش جفونه وخرج
من بحرانه الذي لم يعرف سببه . فقال نشكر الله قد نجوت اليوم ايضاً من هذا
الخطب المرعب لكنه سيعود اليّ وملاك الموت غير بعيد عني بل قد دنا . قد لصق
بي بعد ايام من هجومه الخفيف وقد مدّ اليّ يديه ليقبضني . ثم سكت بضع دقائق

ونظر الى السماء نظر الآسف الكئيب وقال

ايها الرب القادر على كل شيء انت تعلم اني ضحيت حياتي بلا تدمر في الماضي
ولا ندم في الحال . وتعلم اني اقا سي اشدّ العناء في تحمل هذه الآلام العظيمة لكن
لا بلا صبر مسلماً امري الى مشيئتك الالهية . وانها ستكون العلة العظمى لهلاكى
ولا يعرف بها احد غيرى بعدك . قد فقدت كل شيء دفعة واحدة . يا الهي سلبتني
نعمتي وايامى وشرفى ايضا كما اضن . وقد احنيت لديك ركبتي وطأطأت امامك
راسي فليكن اسمك مباركاً . فشدّ عليّ يدك واخطفني لكن لا تردّ عبدك اذا
سألك نعمة واحدة ابقى عليّ لا تنزع نفسي مني الى ان يرد جواب كتابي الذي
ارسلته الى فرنسا واعرف به ان بنتي الوحيدة لم يقطع جبل رجائها بعد من هذه
الدنيا وان لها الى الآن خبراً تحيا به في بلاد بعيدة ومأوى تستتر به غابر حياتها .
وانت تعلم يا سيدي انها جاهلة الحالة الشقية التي اصبحت فيها وتظن نفسها حتى
الآن في غناها المشهور ولا تدري انه لم يبقَ لايها ذرة من كل تلك الثروة الفائقة
الحدّ وانها ستصبح يتيمة فقيرة ذليلة في وقت قصير غداً او بعد غد ليس لها مكان
تسند اليه رأسها . هذا الذي اتوسل الى عزتك الالهية ان تمنحني اياه يا الهي ولا
اخاف ان تخيب رجائي لانك رحيم واسع الخيرات فلا تمنع نعمتك عن عبدك
الذي بعد ايام قليلة لا يعود يوجد على الارض

فلما اتم هذه الصلوة وهو ساجد امام تمثال من عاج للسيد المسيح مصلوباً ورافع
اليه قلبه ويديه وساكب امامه دموعاً حارة تفيض على خديه النحيلين لم ينهض
في الحال بل استمر فترة طويلة شاخصاً يبصره الى التمثال المذكور كأنه وهم ان الله
يستجيب له في الحال ويظهر له كلامه باعجوبة

ثم سكن جأشهُ وقال عسى ان احظى بجواب كتابي غداً من صديقي فيليب وان
لم يكن غداً فبعد يومين او على الاكثر بعد اسبوع واذا ساء الحال فلا يمضي عليه
اكثر من شهر . والشهر في عيني الله كلا شيء لمن له السرمدية

ثم عاد الى المتكئ وجلس مسنداً رأسه على يديه وأخذ يتأمل في احواله الماضية والقابلة ويقابل بين تلك النعم المديدة والسعة العجيبة وما سيقع فيه من شظف العيش وضيق الحال والذلة . نعم ان ايامه هذه لا تطول ولكن اشد أساه كان على حياة بنته المنكودة الحظ في غابر ايامها الطويلة . فكانت دموعه وهو كذلك تجري سخية حتى تقرحت جفونه

الفصل الخامس

في أولية يوشع وما صار اليه

لا بد ان القارئ يكون قد تعجب من خبر هذا الرجل واشتاق الى الاطلاع على أولية امره وكيف اتصل الى هذه الثروة العجيبة وطار ذكره في اقطار الارض وصار أشهر رؤساء التجارة البحرية ثم ما حصل له بعد ذلك من السقوط والانحطاط بدون أن يكون لاحد علم به الى هذا الوقت وسبب جزعه الشديد على فقد عرزه ونقصته على حياة بنته بعد يتمها . فنقول

منذ اربعين سنة قبل العهد الذي جرت فيه الحوادث المار ذكرها كانت سفينة تجارية فرنسوية قد رست في ميناء قادس من اسبانيا وفيها ١٥ رجلاً فبعد ان اخذت بضاعتها وقفت تنتظر موافقة الريح الاقلاع . ففي صباح ذات يوم انزل الرئيس زورقاً فيه خمسة نوتية بقصد الوصول الى محل في ضواحي قادس يباع فيه لحم الخنزير المقدد المندى بخمرة شبوداد ريال السوداء المشهورة وتباع فيه ايضاً الخمر المذكورة المقصودة من الاطراف لجودتها واما اللحم المذكور فكان ينسب الى استرامدورة وهي مدينة في الاندلس وكان الرئيس قد دخل ذلك المنزل واكل من اللحم فاستجاده وشرب من النبيذ فاستطابهُ فاحب ان يستبضع معه كمية من ذلك فارسل نوتيته في الزورق المذكور فوصل الجماعة الى الشاطئ وكان رملياً ايضاً فنزل منهم

اربعة وأبوا لحراسته فتي غض الشباب عمره نحو عشرين سنة كان هو الموكل بالدفة فتوجه المذكورون الى المحل وكان على نحو عشر دقائق من الشاطئ . وكان على نحو خمسين خطوة من القارب فتي يقارب السبع عشرة سنة عليه ثوب اسمال لا يستر اكثر من نصف جسده جالساً في ظل عليقة كثيفة تظهر عليه لوايح المروءة والنشاط . وقد تفرق على مقربة منه قطيع من المعزى موكولة رعايته اليه وفي يده كتاب عتيق مخلع يقرأ فيه بامعان نظر وكان النوتي حارس الزورق قد نزل الى الرمل ونام في ظل زورقه وأخذ من جيبه كتاباً صغيراً وصار يقرأ فيه ايضاً فكان كل من الفتيين من وقت الى آخر ينظر الى الآخر نظر من استماله المشرب والهيئة ومن ذلك الوقت حصل بين قليهما اثر من الالفة

وبعد نصف ساعة عاد النوتية بزقاق الحمر وأفخاذ الخنزير المقددة ووضعوها

في الزورق

واذ كان الحرّ شديداً وقد كلت سواعدهم من التجذيف وحمل ما أتوا به وكان الوقت معهم كافياً للراحة رجعوا الى ذلك المحل ليقطعوا فيه حصّة من الزمان في اللهو والشرب وقالوا للفتى الحارس لا تهتم فسنأتي لك بقسمتك

فقال لهم ليس لي رغبة في اكل ولا شرب فلا تهتموا بي وسيروا بسلام

فمضوا عنه وعاد الى القراءة . فلم يكد النوتية يتوارون عن نظره حتى أقبل اليه ثلاثة رجال قباح المنظر والزي يستدل من كسهم وهيتهم على انهم عيارون وان مهنتهم حمل حوائج الناس وكانوا وهم قادمون يلتفتون الى الوراء ليروا هل على اثرهم احد . وهم مع ذلك يتآمرون فيما بينهم همساً

فلما بصر بهم الفتى وضع الكتاب في جيبه وجلس على مقدم الزورق وقد داخله ريب من جهتهم . وحين صاروا على نحو خمس خطوات منه قال لهم

- مكانكم يا فتيان ما ذا تطلبون

فنظر بعضهم الى بعض متساورين ثم قال احدهم للفتى

- نطلب الخمر واللحم اللذين في هذا الزورق ولا بدَّ ان ننال مرادنا لاننا ثلاثة
محنكون وانت فتى غرّ فدعنا نأخذ مطلوبنا ولا نمسك بمكروه . فاخذ الفتى مجدافاً
لانه لم يكن معه سلاح وهزه بيده فوق رأسه وقال

هيئات يا أوباش دون بعيتكم خرط القتاد . ثم صاح بكل قوته

اليّ يا رفاقي . اليّ يا ركاب السفينة الفرنسية

فلم يتم كلامه حتى اقتضّ عليه اولئك العيارون كالعقبان اثنان منهم اخذا من
يده المجداف وكسراه والثالث زحف على بطنه وامسكه برجليه وجذبه فاقرب
على ظهره ثم وضع ركبته على صدره وسحب خنجرًا حادًا وكاد يشق امعاءه .
فصاح ايضاً يأساً

اليّ يا رفاقي

واذا بالفتى الراعي اقبل كهبوب الريح وفي يده عصاً قصيرة معقدة وكان لما
اقتضت الجماعة على الفتى قد أسرع الى نجدته فحالما وصل ضرب بعصاه الشقيّ
الذي بيده الخنجر فصرعه ثم عطف على الاثني الآخرين بسرعة كالبرق فتأخرا
خوفاً من عصاه . وكانت جلبه هذه المعركة قد بلغت النوتية الاربعة فشمروا ساقهم
للريح وادركوا الجماعة وكان الاثنان اللذان انهزما قد غيرا الطريق لتلايصادفا النوتية
وصرخا صراخ النجدة واذا برهط من الاسبانول على زي الثلاثة قد أقبلوا هارعين
فأخبراهم بالخبر فطاروا عدواً صارخين

اقتلوا الفرنسية

وكان النوتية حالما هرب الاثنان قد ركبوا الزورق واطلقوه في عباب البحر فنجوا

قبل ان وصل الجمهور

وأما الفتى الذي كان سبب هذه المعركة فكان قد بقي على الشاطئ حين ركبوا

الزورق فقال له

هلمّ حالاً واركب لتلا تهلك فقال :

- ويحكم أنكون انذالاً وتترك الفتى الذي خلصنا فريسة لهؤلاء الذئاب . (يريد بذلك الراعي) فقال له احدهم
- فليات معك لكن في البطء الهلاك . فأخذته الفتى الفرنسي بيده بلا جدال وجره الى الزورق ونزل كلاهما مع رفاقها
- وجلس الفتى الفرنسي بقرب الفتى الراعي الاسباني وسأله
- ما اسمك ايها الفتى قال
- يوشع الرويري وانت ما اسمك
- فيليب لوليان . ثم سكت هنيهة وقال
- على يدك يا أخي كان خلاصي فقد صنعت جميلاً لا يكافأ مع من ليست لك به معرفة فانا منذ الآن اكون لك صديقاً مخلصاً وائماً شقيقاً هات يدك للمعاهدة على حفظ الوداد والاخوية فوضع يده في يده وتعاهدا على المصافاة
- فلما وصل الجماعة الى السفينة اخبر النوتية رئيسهم بما حدث لهم واطنبوا له في بأس الفتى الراعي وحماسه وكرم اخلاقه فدعاه اليه وقال له
- ايها الشاب قد صنعت معنا معروفاً عظيماً فاذا اعطيتك خمسة دنانير لا يكون ذلك كافياً لكن أحب ان تقبلها مني موقتاً
- معاذ الله يا مولاي ان أوجر على فرض انساني وفيتة
- ما يضرك الجزاء
- يضر ذكري اذ يقال صنع جميلاً وكوفي عليه بالنقود فانا لا ابيع بالدرهم كرامة نفسي وجميل ذكري . فتعجب الرئيس من هذا الكلام ونظر اليه نظرة المتأمل فوجد فيه ظرفاً ولطفاً ولوائح الشهامة بينة عليه فقال له ما الذي حملك يا ولدي ان تنتصر للاجانب دون ابناء وطنك
- يا مولاي ليس للعيارين وطن ولا انا ممن ينتصر للاشرار ولو اخوتي وفضلاً عن ذلك من يطبق ان يرى ثلاثة اقوياء على واحد ضعيف فما هذا الاخساسة

محضة فطبي ان احمي الضعيف من الادياء ولا اجنح الا الى الجانب الاضعف
شأن المروءة والانسانية

- سقياً لك ايها الفتى ما اجل شهامتك فما اسمك
- يوشع الرويري
- وكم عمرك
- ١٨ سنة
- وما مهنتك
- راعي معزى
- وما يعمل اهلك
- ليس لي اهل بل انا يتيم
- مسكين . واين تعيش
- في مزرعة آكل خبزي بعرق جيني
- يظهر لي انك لا تخلو من الفطنة . هل تقرأ وتكتب
- لم اتعلم شيئاً لكني احاول تعلم القراءة من تلقاء نفسي
- وكيف ذلك
- عثرت على كتاب عتيق امتحن نفسي بتعلم حروفه ولا بد ان احصل
ولو تعبت
- هل تحب ان ترجع الى مزرعتك
- لا اذ ليس لي بها اقل تعلق ومن من الود به
- اذن تحب ان تصحبنى في هذه السفينة وتكون احد نوتيي
- نعم وكثيراً ما خطر ببالي ركوب السفن اذ سمعت ان الدنيا فسيحة فرغبت
ان اطوف بها
- تعال معي فقد عزمت على تقييد اسمك في جملة نوتيي

ثم خرج به من غرفته الى ظهر السفينة وقال للنوتية ايها الفتيان هو ذا غلام اسباني سيكون واحداً منكم فانا اهبكم ثلاثة اضعاف المعين لكم من الخمر لتشربوا على سره فصاح الفتيان طرباً واحتاطوا بالغلام واعتنقوه . فقال له فيليب لوليان لا تنس انا تصافينا وتعاهدنا على الصداقة فنكون كاخوين شقيقين الى المات وانا اعلمك الفرنسية واحسبك شقيقاً لي مذ الآن . وهكذا اتحد الفتيان قلباً وجسداً اذ لم يعد احدهما يفارق الآخر وكل منهما علم الآخرة بلاده .

وكان فيليب المذكور من عائلة متوسطة اليسر كان ابوه يعيش من بناء الزوارق وكان احد عمومته صاحب ثروة متوسطة يمتن النجارة واما فيليب فانخرط في سلك البحرية لكي يتعلم فن سلك الابحر ويكون رئيساً اذا ساعدته الظروف لكنه كان مع ذلك يميل ميلاً شديداً الى النجارة . وكان له المام بالمعارف ولا يكل ولا يمل من الشغل فكانت له بكل ذلك مزية على سائر البحرية . واجتهد في تعليم صديقه يوشع اد رأى ما رأى فيه من الرغبة الشديدة في العلم وساعدته نيرته الذكية على تحصيل قريب فصار كل منهما يعرف ما يعرفه الآخر . ومضى سنتان عليهما وهما لا يزدادان الا حباً واتفاقاً وفي تلك الاثناء فقد فيليب اباه وعمه فورث منهما ما يساوي عشرين الف ليرة واكثر . فطرح عن باله مسألة رئاسة السفن واستقر في مدينة هاور من فرنسا واتخذ مهنة ابيه ووسع دائرته وعوض الزوارق صار يبنى المراكب وكان يوشع يده اليمنى في كل اعماله لا يفتقر من مساعدته وصدق خدمته . فكان اتفاقهما وتعاضدهما علة لنجاح عظيم فغزرت ثروة فيليب في وقت قصير فبنى مراكب خاصة به . واما يوشع فجعل رئيساً لاحدى السفن وسافر مرات متوالية وكل مرة يصادف نجاحاً عظيماً ويكسب كسباً غير متتظر

وبعد مضي عشر سنوات صار فيليب من اغنى تجار البحار فقال يوماً ليوشع . تعال معي يا صاحبي لنفرد واحداثك حديثاً خاصاً ثم اخذه بيده ودخلا الغرفة فقال له فيليب احب قيل كل شيء ان استشيرك في امر هو عندي في اعظم مكان

- لكن قبل ذلك عاهدني انك تجيبني اجابة شقيق مخلص
- كيف تكلمني هذا الكلام ألا تعلم الى الآن اني اخوك
 - هل تعرف يا اخي بنت جبرائيل والين
 - نعم اعرفها
 - كيف تجدها
 - بديعة
 - هل سمعت احداً يذكرها وكيف ذكرها
 - سمعت بتحقيق ان جمال جسدها لا يفوق جلال نفسها
 - اعلم اني قد شغفت بهذه الفتاة شغفاً شديداً فما رأيك
 - هنيئاً لك الحصول عليها
 - اوافق ان اتخذها امرأة
 - غاية الموافقة فلا تتأخر دقيقة
 - ألا تتردد في هذه المشورة
 - كلامك كلا ولا تحتاج مع ذلك ان اوافقك على امر خاص بك واره صواباً
 - نعم يجب ذلك لاني عزمت ان لا اتزوج الا بمن تراها انت موافقة لي لان الصداقة التي بيننا لا يمكن ان تفصلها صداقة اخرى لا حب زوجة ولا بنين
 - فاعجب يوشع بهذه الحماسات الشريفة والنية الصافية . لكن علم ان ذلك طبعي بين اخوين مخلصين فلم يقل شيئاً . فقال فيليب
 - اذن وقع الاتفاق بيننا على هذا الرأي ومنذ الغد اخطبها الى ابيها ولا اخشى ردّاً لاسباب كثيرة . والآن لم يبقَ شيء الا ان اصفي حسابي معك واقدر مركزي لان ذلك امر لا غنى عنه حيث عزمت على التزوج
 - وايّ حساب بيني وبينك يا اخي ما مرادك بهذا الكلام
 - هذا امر بسيط جداً لانك كنت معي الى الآن معيناً مشاركاً في كل شيء

طبعاً واما الآن فقد اختلف الحال فاحب ان اطلع حجيّ على ثروتي الخاصة بتدقيق
ولذلك احب ان افصل مالي عن مالك . فضحك يوشع لهذا الخطاب وقال كالهزل
- هذا عمل حسابي لا يتقل عليك يا صاحبي وانت تعلم اني لا املك شيئاً الا
ما كنت تعينه لي من الاجرة على رئاسة احدى سفنك وبعض مال احرزته بطريق
الاقتصاد . وهذا امر لا يحتاج الى حساب . حتي معي ولك مالك

فضحك فيليب ايضاً . وقال

ويك يا صاحبي انت في ضلال يستوجب الضحك

- اي ضلال تظن بي

- امر سهل الايضاح وهو انك تحسب نفسك فقيراً

- هكذا اعرف

- انت في وهم عظيم فانك غنيّ جزيل الثروة

- انا . من اين لي الغنى

- انت انت نفسك يوشع الرويري الاسباني صديقي

- ما هذا الكلام العجيب من اين حصلت لي هذه الثروة

- حصلت لك من طريق شرعية لا ريب فيها ومن اعمال شريفة لا خلاف

عليها . من عرق جينك

فلحظ يوشع ان فيليب يتكلم كلاماً جدياً ولا سبيل الى اعتقاد المزاح فنظر

اليه نظرة المنذهل . فقال فيليب

- يا للعجب ألم تعلم الى الآن انك شريكى منذ ثماني عشرة سنة

- كيف انا شريكك . هذا محال

- لم تعتده محالاً

- لانك كنت صاحب تقود وانا لم يكن معي شيء

- كيف لم يكن معك شيء الا تحسب شيئاً حذقك وغيرتك وهمتك واتعابك

المستمرة بلا فتور . قد حملني كلامك على العجب وهذه اول مرة عرفت فيها انك لا تعقل

- لا برهان في هذا يا اخي لانك انت ايضاً متصف بهذه الصفات التي ذكرت لها لي وفضلاً عن ذلك كنت صاحب نقود

- اسلم بهذا غير ان النقود التي كانت لي جعلتها رأس المال واشتغلنا من ثم على سبيل الشركة فنحن ننظر الى الربح ونقسمه ثلثة اثلاث لي ثلثان ولك ثلث . ألا يقنعك هذا

- لو فرضنا اني اسلم بحجتك فما يكون المبلغ الذي يخصني
- ففتح فيليب دفترًا طويلاً عريضاً وصار يقلب صفحاته المملوءة من عمد الارقام حتى وصل الى المجموع . فقال ليوشع

- ان ما يملك محلنا الآن هو ثلاث ملايين فتكون حصتك مليوناً . فلما سمع يوشع هذا الكلام وثب عن كرسيه دهشاً وقال كالماخوذ

- مليون ! مليون ! مليون ! ما هذا ! اتريد ان تعطيني مليوناً . بأي حق !
فاذ أبصر فيليب منه هذا الانذهال ضرب على الدفتر بيده حتى ارتجت المائدة تحته وقال مغضباً

- ويلك يا معتوه كم مرة قلت لك اني لم أعطك كل ما تستحقه وانك أزممتني ان استولى على مبلغ جسيم يخصك شرعياً ومع ذلك تراجعني ولا تأخذ ثلث ما يخصك وانت تستوجب شرعاً مليوناً ونصفاً

- قل ما تشاء يا فيليب فاني غير مطاوع لك ولعل عقلك اختل . وقد تجاوزت باظهار الصداقة حد الاعتدال وتريد ان تنغصني طول حياتي بتحمل جميل لا أطيق حمله . أنا اعرف حق المعرفة اني لا املك لا شرعاً ولا حقاً هذا المبلغ فلا أقبله . لا أقبله

فصمت فيليب بضع دقائق ثم التفت الى يوشع وقال له . بصوت لطيف

- اسمع يا صاحبي نحن الآن في ساعة عليها يتوقف مستقبل كل منّا . واعلم انه لا يفصلنا الا شيء واحد وهو ما نحن فيه الآن من الاختلاف فكما تعلم اني افيديك بحياتي يجب ان تعلم انك اذا اصررت على الامتناع عن أخذ حصتك هذه لا تكون لي صديقاً وفيّاً كما تدّعي لاني عوض ان اجد فيك روح الخنوّ والاخوية لا أجد الاّ روح الكبرياء والعنفوان فقد بلغ الكيل حدّه . فطأطأ يوشع رأسه .
فقال فيليب

- هل قبلت بذلك :

- قبلت . لكن اضطراراً فالحال معك صعب على ما أرى

فقال فيليب ولا يكفي هذا ايضاً

- ماذا اذن أيلوح لك ان تعطيني مليوناً آخر

- لا لكن أريد ان تعرف اذا قلت لك يا صاحبي قسماً بشرفي وودادي ان

الذي تحت الجليل منا هو انا . ولا تحسب اني اقول لك هذا على سبيل التودد بل

يجب ان تعلم ان من كانت حياته من كف صديقٍ شاركه مع ذلك بعرق جبينه

فهما بذل له من ماله ودمه لا يعدّ عليه الاّ دون الواجب

وبعد ان استقر الحال بين الصديقين على ما ذكرنا بيضع أسابع تزوج فيليب

بمحبوبته وسافر يوشع في مركب خاص بشركتهما مسمّى باسم المركب الذي تصاحباً

فيه تذكراً لتلك الحادثة الغريبة الاتفاق . وكرت الايام والليالي ومضى من الزمان

نحو ست سنوات واستقر الحال بيوشع على أثر سفر طويل ان القى عصا الترحال

في مدينة هوانة قاعدة جزيرة كوبا من أميركا الجنوبية لانه حين دخوله اليها

صادف فتاة يقال لها لؤلؤة كانت بنت رجل من اكبر التجار وكانت بارعة الجمال

فشغف بها اشد الشغف وخطبها الى ايها فقبل على شرط ان يجمع يوشع ثروته

ويستوطن هوانة . فاحترار يوشع لذلك لانه لم يرد ان يفصل عن محبوبته ولا عن

صديقه الاخص فيليب . فرجع الى فرنسا وهو بين مشككين عظيمين لا يدري

ايهما يختار الوقوع فيه فراه فيليب وسأله عن حاله فاخبره بما جرى له فقال يا صديقي لا تتأخر في بلوغ مرامك واعلم ان حظك في تلك المدينة . هكذا قُسم لك فلا تتردد عن الاقتران بمحببتك لكن لا يبرح من فكرك صديقك المخلص فيليب ولا بدّ من مواصلة الكتابة بيننا . ففصلا الشركة بعد مضي الاسبوع واعتنقا للوداع وسافر يوشع الى هوانة منكسر الخاطر من جهة ومنشرح الصدر من اخرى وكان اذ ذلك صاحب مليونين واقام هناك وبنى لنفسه محلاً تجارياً وبني مراكب باسمه فلأت البحار وصار في زمان غير قصير صاحب عشرة ملايين ولذلك لقب بذي الملايين العشرة . وصار يضرب به المثل في الغنى كما ضرب في قارون في البلاد الشرقية . ورزق بنتاً جميلة الخلق والخلق وسمها انيسة

واما فيليب فكان الله قد بارك اقترانه واشغاله فاستعت ثروته ايضاً اتساعاً عظيماً ورزق ابناً سماه لؤلؤاً . ولم تزل المحبة بين فيليب ويوشع والمواصلة بينهما زمناً مديداً الى أن توالى الايام وطال زمن الفراق وكان سبباً مع تفرق الاوطان لفتور المكاتبه فكانا يتراسلان كل مدة طويلة كل سنة على الاكثر والتهى كل منهما باشتغاله وعائلته ولم يعودا بناءً على هذا يرجوان اللقاء الا اذا حدث حادث فوق العادة . وهكذا استقر الحال على الصديقين وهما في نعم زائد واشغال رائجة وثروة تزداد يوماً فيوماً والزمان يزيد عيشهما صفاء وبهجة

الفصل السادس

« في ما جرى للصديقين بعد استقلالهما »

في أحد الايام وصل مركب فرنسوي الى مدينة هوانة واتفق لرئيسه ان يقابل يوشع ففيا هما بالحدث ويوشع يدقق الاسئلة عن أحوال فرنسا لكي يقف على حقيقة أحوال صديقه اذ علم من الرئيس ان فيليب لوليان كان قد اتمن بنكبين

مشهورين في فرنسا على مبالغ لا يحصى عددها فاما بخيانة منها او بطريقة أخرى
خسر فيليب كل ماله واصبح على شفير الدمار

فلما سمع يوشع هذا الخبر الهائل كاد يخرج عن الصواب فاسرع وجهاز مركباً
من مرا كبه وامر رئيسه بالرحيل الى فرنسا وان يمر بمدينة هاور ويسلم الى فيليب
رسالة منه مع مبلغ من النقود . وهذه صورة الرسالة المذكورة
من هوانة الى هاور

صديق الاعز فيليب

من أعجب الامور ايها الصديق القديم والاخ الصادق ان يطرق بابك الدهر
بنكبت ولا تعلمني ما كان هذا أملي في من أخلص لي وده وعاهدني على الحب
والوفاء . أتظن اني اتغاضى عن هفوتك هذه لولا حسن طويتي وعظم محبتك في
قلبي . دعنا من هذا الآن . واني مرسل لك مع رئيس مركبي فلان مبلغاً من النقود
قدره اربعة ملايين سداً لاحتياجك . ومع ذلك اجبرك ان لم تطاوع بالرضى ان
تعيد شركتنا الى ما كانت عليه قديماً فتحسب المحلين محلاً واحداً منذ الآن ويتجدد
العمل بامضاء كليتنا معاً . ولا يلزم ان اخبرك اني مستعد للقبول بكل ما تحوله عليّ
من السفائح والصكوك واني مسئول بكل ما يلحق بك من المطالب والمصاريف
وكل ما تقول به من الاعمال باسم محلنا فعليّ تلقى مسؤوليته . الوقت ضيق فلا يمكنني
الآن الاسهاب . لكنني اقبلك القبله الاخوية وانبهك اني لم ازل لك الخلل الوفي
والحُب الخالص

يوشع

الرويري

فلما وصل هذا الكتاب الى فيليب اتعش كمن أنحي من الغرق وقبض المبلغ
المذكور وتحسنت احواله وعادت اشغاله الى مجاريها وفي برهة قصيرة حصل فوق
ما كان يرجوه وكان يوشع لا يزال يرسله ويقوم بسد كل احتياجاته ومع ذلك يعد
نفسه ممنوناً له كل الايام

وهكذا كانت المحبة والمواصلة والتعاقد بين هذين الصديقين من غرائب
الاتفاق ولم تزل الامور جارية على مجاريها المذكورة الى ان اخى الدهر على يوسع
وصيره في الحالة السيئة التي قصمت ظهره وحطت قواه وصار عرضةً للآلام
الجسدية والنفسانية على ما ذكرنا

ولنعد الآن الى ما تركناه عليه وهو متكئ بعد صلواته على مقعده وغائص في
بحر الهواجس . وقد عرفنا انه طلب من الله ان يجيبه الى ان يرد من فيليب جواب
رسالة كان قد ارسلها اليه في ضيقته . وهذا هو منظومها

من هوانة الى هاور

صديقي الاخص

اكتب اليك ويدي ترتجف وقلبي يخفق . اطلب عفوك تكراراً يا صديقي القديم
يا اخي الشفيق عما اكدرك به حاسياتك اللطيفة من عباراتي المقلقة . كنت اودّ لو لم
اقاسمك الا افراحي لكن الايام خانتني والزمان غدرني فاسمح لي ان ابث لك
احزاني واطلب اليك مشاركتي فيها ولو ثقلت عليك لان ما اعلمه منك من حسن
الطوية يشجعني على ما اكتب اليك . ربما كنت في ريب مما تتلوه من كتابتي ولا
تصدق ان الذي ضرب به المثل في الغنى قد اصبح يشكو الفقر والمسكنة . ولا تزال
تتوهم ان الدهر لم يصبني بمصيبة الا فقد امرأتي العزيزة مخلقة لي ابنة وحيدة . انيسة
المحوبة . فلا تعجب يا فيليب من تقلبات الايام لانها تأتي بالعبء الغريبة . فاسمع
لي يا صديقي وصدق ما اقول لك ولا تذهل لصروف الزمان . واعلم اني الآن اشقى
رجل على وجه الارض بعد ذلك العز والنعيم الزائد . انا اخوك المسكين . ياله من
عجب يحير العقول . نعم يا اخي لا اتعس من حالة شيخ فقد سلوى حياته امرأته
العزيزة ونظر الى ابنته المسكينه وعرف انها ستكون بعده يتيمة ذليلة فقيرة . بعد
العز والدلال تصبح في اسوأ حال . هذا هو نصيبي يا صاحبي وهذه هي قسمتي .
اختصر لك خبري المكدر المعجب بكلمتين « اموت فقيراً » الموت قريب مني

اعدت الايام لا الشهور . اعدت الساعات لا الايام . وثروتي قد اضمحلت ولم يبق لي شيء وفضلاً عن ذلك سأموت موت الهوان اذ يكتب على قبوري هذا الكلام . « مات مكسوراً » ياله من عار يلحق بعد المات باسم كان مشرفاً كل الحياة . يا لسوء العاقبة . لا احديا صديقي يعرف هذا السر العظيم الا انت وانا . ابنتي الآن تظن نفسها في اهناء عيش واطيب راحة لكن واسفاه سينجلي حالها المريع في وقت قصير وترى انها هبطت من السحاب الى التراب

عليّ اولاً ان اخبرك لاي سبب انا متوقع الموت القريب بتأكيد خلافاً لجرى الطبيعة ولم لم يطلع احد من حاشيتي على سوء حالتي وتعاسة نهايتي . هذا الحزن يفتس قلبى يوماً كالنسر الذي يفلي بمنقاره الحاد جوف فرسته وقد شعرت به منذ ثلاث سنوات ولا يزال يزداد متعظماً يوماً فيوماً حتى اصبحت الآن لا ارجو منه خلاصاً ولا التي به الا عذاباً اليماً وكل يوم ارى نفسي غرقاً في بحرانٍ مخيف واشعر ان سكاكين حادة تمزق احشائي وتوتر اعصابي وتشنج عضلاتي من شدة الالم وتكاد تنقطع . انوح نوح الشكلى ولا سلوى لي واسكب دموعاً قد قرحت جفوني بحرّها . فاذا دنا مني الحال انحبس في غرفتي مستتراً عن العيون لكي لا يشعر احد بعذابي

ومند اشهر سمعت برجل برازيلي هرم محنك بمرور الايام وان له مخبرة في الطب لم يصل اليها احذق اطباء اوربا وقد شفى من الاسقام العضالة مئات من طالبيه ولا تزال الناس تزدحم ببابه الوفاً واكدوا لي انه يعمل العجائب بصناعته حتى يخرج ما يقال عن حد الصدق . فلما سمعت هذه الاخبار بادرت في الحال الى زيارته وامت ثلاثة ايام في المدينة التي وصلت اليها طلباً للراحة قبل مواجهته . ثم سرت سيراً متاقلاً اياماً وليالي حتى بلغت مقره بعد ثلاثين يوماً فوجدت في بابه اكثر من خمسمائة مريض ينتظرون نوبتهم منذ ايام . واتفق عند وصولي ان النوبة اصابت رجلاً يصاب بالصرع فدفعت اليه خمس ليرات حتى سمح لي ان ادخل

عوضاً عنه . فلما رأي الطيب اخذ يفحصني فحسباً مدققاً ثم نظر اليّ نظر الخائب وقال يشق عليّ ابها الشيخ ان اخبرك بيأسي من شفائك . اذ لا نجاة لك من الهلاك البتة لكن عندي دواء يسكن معك الحال الى امدٍ معلوم ثم لا ينجع فيك دواء . فعد اليّ غداً . فلما عدت ثاني يوم اعطاني قنينة صغيرة فيها سائل احمر شفاف واعطاني قعاً فلزياً وقال لي متى شعرت بشدة الالم حتى لا تعود تطيقه فصب في هذا القمع من هذا السائل بضع قطرات واشربها فينكشف ألمك وتعود الى احسن حال واياك ان تغفل هذا الامر وهذا الدواء سام يسكن اوجاعك لكنه يقتل لا محالة بعد الاتقطاع عنه . فاخذت القنينة وقلت له كم من الزمان باقٍ لي حتى اموت

قال ان اردت ان تقف على الحقيقة اخبرك انك لا تعيش اكثر من سنة او على الاكثر سنة وشهرين . لكن اذا انتهت السنة وانت حي فبادر الى السفر لان الموت قد دنا

فالآن يا صاحبي قد مضى عليّ من ذلك العهد اربعة اشهر وحين يصل اليك كتابي تكون اربعة اخرى قد مضت وعند وصول جوابك تكون السنة قد انتهت ودنا الوقت المشوم هذا اذا لم يحصل عائق في البحر يؤخر ورود جوابك . فلا يصل الا وقد قضى عليّ . ولذلك يسهل عليّ ان اخسر نصف الايام الباقية من حياتي لكنني ارى بعيني الجواب المتظر منك بفروغ صبر فتطلع عليه عينا قبل ان تعمضا الى الابد . فقد علمت الآن كيف ولم لا مناص لي من شرب هذه الكأس

واما فقد ثروتي وزوال نعمتي فمن الامور التي يصعب على كل قلب بشري ان يطلع على خبرها غير اني اختصر هذا الخبر الحزن باسطر قليلة وذلك ان الثروة التي حصلت عليها وكنت انت سببها كما تعلم بلغت مبلغاً رفيعاً جداً حتى لقبت بذئ العشرة الملايين وهذا كان صحيحاً . فاتفق لي ان النحاس انصب عليّ بكايته كأن الله تعالى شاء ان يضر بني الضربة القاضية دفعة واحدة فنذرت اربعة اشهر فقد خمسة

من مراكبي كان فيها مقدار جسيم من اموالي فذهبت مالا ورجالا ولم يخرج منها شيء والى الآن لم يعلم بهذا المصائب احد من اهل هوانة . الا ان عملائي قد تحققوا ذلك في الخارج واعلموني به . وجرياً على المثل القائل النحس يجزّ النحس . اخذت المصائب تتوالى تواليّاً عجبياً فكانت مفروساتي اخصب مفروسات الجزيرة واجملها وكان عدد الفعلة في اراضي نحو عشرة آلاف عبد فاتفق انه وجد بين هؤلاء العبيد جماعة يتعاطون دس السمّ عادة في قوم من هذا الجنس الخليث تلذ لهم اكثر مما يظن . فان قتل الناس بالسمّ اطيب عندهم من كل طيب . ولا يمكن نزع هذه العادة منهم مهما اجتهد الناس في ازالتها فلا يهنأ لهم عيش ما لم يقتلوا الناس يوماً بالسم ولا يتحاشون البهائم ايضاً فاذا وجد عبد واحد منهم في مزرعة فهو خرابها المحقق ولا يمكن تمييزه من بين الآخرين فلا يمكن تلافي هذا الشرّ واذا عرفه رفاقه يكتمون امره ويفضلون الموت على كشف سره . فهذا الوباء يا صاحبي قد فشا في مزارعي وقد هلك من عبيدي ثلثهم . ومنهم ثلث في النزاع والثلث الآخر يتوقع هذه الداهية طبعاً فلا ترى بين عبيدي الا فناء عوض النموّ وعذاباً عوض الراحة وهامالاً عوض الشغل ولا في مزارعي الا خراباً بدل العمران . حتى صرت في مركز من اشدّ المراكز خطراً ولا عشم لي بالفرار من هذه المصائب . غير اني قادر على كتم دماري الى بضعة اشهر فلا يذيع الا بعد مماتي فتنصبّ الصاعقة على بيتي فجأة وقد باد اسمي من الارض . وقد عدلت حسابي فوجدت ان قيمة ما يتبقى من املاكي بين عقار وبهائم وسفن وغيرها اذا بيعت تبلغ مليونين لكن لا يمكن الحصول على القيمة المذكورة بل تذهب ضياعاً كما يختفي الهباء في العاصفة . وتصبح ابنتي وحيدتي ايسة افقر بنات هوانة ويصير اسم السيد يوشع الرويري محترماً مهاناً وذكره خاملاً

فالآن يا صاحبي وأخي عليك تتوقف تعزيتي وتسكين جأشي في آخر ساعة من حياتي وانا متحقق انك تبادر الى نجدتي حال بلوغ كتابي اليك لاني أثق بحودة

قلبك كما اثق برحمة الله . فاكتب اليّ انك تكون لانيسة كما كنت انا اباً شفوفاً
وانك ستقبلها في منزلك وتحبها كأنها ابنتك بالحقيقة . اكتب لي هذا يا فيليب وانا
اباركك في ساعة احتضاري وأنسى على ظني كل ما قاسيت من الآلام في هذه
المدة وما أقاسيه الآن تعزيةً بكلامك وارتياحاً الى حنوك . لكن اسرع ما أمكنك
بتبليغي هذا الفرح الاعظم والتعزية الجليلة قبل أن أفارق الدنيا

والآن استودعك الله يا اخي . لا حاجة الى اثبات حيي لك فانت متحقق
ذلك منذ اربعين سنة . استودعك الله في آخر حياتي . اودعك الوداع الابدوي
وأقبلك القبلة الاخيرة

مخلصك وخصيصك

يوشع الرويري

فهذا هو الكتاب المؤثر الذي على جوابه كان هذا الشيخ العاجز الغاني معلقاً
آماله ومتحققاً ان راحة بالله متوقفة على وروده . اذ يعلم به ان وحدته تصادف
ملجأ وتلاقي عطفة ابوية وقد اطمأن خاطره بأنه كافأ صديقه الاخص عن جميله
مكافأة بسيطة بارساله اليه الاربعة الملايين التي فرجت كرتبه واعادت رونق محله
فلما بلغ هذا الكتاب فيليب لوليان وقرأه طار صوابه غمًا واسفًا وجزع جزعاً
شديداً لهذه الدواهي والنكبات التي أصابت صديقه الاعظم . فلم يكن الاّ كلمح
البصر حتى كتب الجواب وجعله في صرة وسلّمها الى رئيس مركبه وامره بسرعة
الاقلاع . فسار الرئيس بأمان وريح طيبة حتى بلغ رأس الرجاء الصالح . وهو مكان
قلما يخلو من الانواء الشديدة ولا غنى عن المرور به من أوروبا الى اميركا . فثارت
العواصف وهاج البحر هياجاً غريباً وصدمت الامواج ذلك المركب فتعطلت آتته
ولم يعد يمكنه التقدم وبينما الرئيس في أشد الارتباك اذا بسفينة اسبانية مقبلة بعد
سكوت الريح فالاح اليها الرئيس وقابل رئيسها وسأله قائلاً

أين تقصد يا أخي

قال مدينة بوينوسيرس (عاصمة البرازيل)

- بكم تقدر ربحك في هذه السفرة
- باربعة آلاف ليرة تقريباً
- انا ازيدها ألفي ليرة اذا شئت ان تقضي عني غرضاً
- على الرأس والعين قل ما تريد
- تذهب الى هوانة قبل ان ترسي في بوينوسيرس وتدفع الى احد تجارها يداً بيد هذه الصرة
- أفعّل ان شاء الله فسلمها اليّ وأتقدني المبلغ المسموح به
- لكن تخلف لي قبل ذلك بشرفك الاسباني وذمتك المسيحية ان لا تفعل هذا الامر ولا تؤخره ساعة
- اقسم لك بشرفي الاسباني وذمتي المسيحية ان لا أغفل هذا الامر ولا أوخره ساعة
- هو ذا الصرة والشرط . لكن يجب ان تعرف انك تفعل جميلاً مع رجلين هما أعظم تجار البحار قاطبة فيليب لوليان و يوشع الرويري
- وَي وَي . تهتّر لهذين الاسمين اصحاب الملايين فما أسعد اليوم الذي فيه أقدم خدمة للملكي التجارة
- ثم انفصل المركبان وأقام الرئيس الاسباني على عهدِهِ وفي بدمته ولم يزل سائراً بركبه حتى وصل الى هوانة عند الغروب . وكان الناس حينئذٍ مزدحمين على الشاطئ مشتتين على مكاسر الموج في الرمال ينتظرون في اشد الضيقة هبوب نسيم البحار كما تقدمت الاشارة في أول هذه القصة . ولم يمكن لهذا المركب ان يتقدم الى الشاطئ لركود الريح فلبث الى الصباح ونزل منه الرئيس وبادر في الحال الى منزل السيد يوشع وأخبر الخدم انه يريد مواجهة سيدهم ضرورة وان له معه غرضاً لا يسلمه الاّ بيده وكلاماً لا يقوله الاّ له . فتقدم الخادم الابيض الذي ذكرناه أنفاً الى باب غرفة مولاه وقرعه قرعاً لطيفاً

وكان يوشع كما قلنا قد أغلق باب غرفته حين استولى عليه بجرانهُ وفعل ما فعل
 وجلس يتأمل ويبيكي . فلما سمع قرع الباب نادى من بالباب
 فاجابهُ خادمهُ فمسح دموعهُ وقام وفتح للخادم وسألهُ ماذا يريد منهُ فقال اتانا
 رئيس مركب يريد ان يكلمك وهو في القاعة ينتظر الجواب . فلما سمع يوشع هذا
 الكلام فاضت على وجهه اشارات الامل وسرّي عنهُ فقال . وهل هذا الرئيس
 فرنسوي . قال لا بل اسباني . فانكمش قلب يوشع قليلاً ثم قال الخادم لكن معه
 رسالة من فرنسا . فصاح يوشع من شدة الفرح ووضع يدهُ على قلبه وقال . الحمد
 لله الشكر لك يا الله قد استجبت طلبه عبدك . ثم مشى مهرولاً الى القاعة بنشاط
 غريب . فلما دخل وقف الرجل وقال انت هو يا سيدي السيد يوشع الرويري . قال
 نعم يا اخي انا هو . قال هوذا يا مولاي صرة كلفت ان اسلمك اياها يداً بيدهُ . قال
 ومن أين وصلت اليك . فاخبرهُ بالقصة وما جرى بينه وبين الرئيس الفرنسي .
 قال أشكر فضلك يا سيدي وارجو ان لا تفارق منزلي مدة اقامتك في هذه البلدة .
 قال لا مانع من قبول فضلك يا سيدي الاً اني مضطر ان اقلع هذا المساء . ففتح
 يوشع صندوقاً بجانبه واخرج منهُ خاتماً من ألماس وقدمهُ للرئيس قائلاً . تكرم اذن
 بقبول هذه التحفة الحقيمة علامة على ممنونيتي لهذا الصنيع الجليل . فلم يحاول الرئيس
 الامتناع واخذ الخاتم وخرج مودعاً وشكر الطالع السعيد الذي وفق لهُ مصادفة
 الرئيس الفرنسي على طريقه وقد جرى لهُ ما جرى . (مصائب قوم عند قومٍ
 فوائد) ثم خلا يوشع بنفسه في غرفته وفض ختم الصرة ووجد الرسالة في علبة
 ضمنها وهذا موادها

اخى الحبيب

لم اجد في كل مصائبك اشد مما تقاسي من الآلام لان المصائب الاخرى لا
 اعدّها شيئاً فهي تعوّض غير اني اكذب زعم طيبك الذي انذرك بالموت في وقت
 معين . وانت تعلم انه رجل بربري ولو ادعى العلم . وعندنا في فرنسا اطباء كبار

لاشك انهم يشفونك من مرضك فانا انتظر قدومك مع ابنتك العزيزة في اقرب وقت
واما ما ذكرت عن ثروتك فهذا امر لا يستحق الذكر عليك مليونان فهما عندي
كالهباء اليس عندي من الملايين ما هو كافٍ لغرضك ألا تعلم ان مالي مالاك سواء
فما اراك الاً مختلفاً بهذا الاحساب وقد دبرت طريقة بها يتم مرادنا وتستريح من
كل آلامك . فحالما تصل الى فرنسا يذهب وكيل من قبلنا الى هوانة ويصفي كل
حساباتك ويدفع ما عليك من النقود ومن ثمّ تعود الى شركتي كما كنا سابقاً ولا
نفترق بعد ذلك يوماً واحداً لاننا لا بد ان نصير عائلة واحدة

وها انا يا اخي يا صديقي القديم اطلب اليك طلب صديق الى اخ كريم ان
تعديني بابنتك لابني . آملاً ان حبك لي كحبي لك وبهذا تموتد رباطات المحبة
والالفة بين عائلتنا كما هي متينة بيني وبينك ولا تنس اني لك أخلص صديق وأشقق
شقيق بادر الى اجابة طلباتي كيفما كانت الحالة

حبيبك وخصيصك

فيليب لوليان

فلما قرأ يوشع هذه الرسالة كاد يغمي عليه من شدة الفرح وظن ان روحه تفارق
جسده تأثراً ثم وقع على سريره متلاشياً واستمر برهة لا يعي على شيء وكادت
شدة الفرح كشدته الحزن تقتل الشيخ يوشع فسقط في مكانه خامد الانفاس عند
اطلاعه على هذه البشرى الفجائية . لكن الامل بورود مثلها خفف عنه بعض
التخفيف ولم تحطم فؤاده كما حطمته الاحزان الماضية بحيث لا ترجى حياته بعد
استفاقته . ولذلك اتعش بعد دقائق وعادت اليه روحه فقام متثاقلاً وفي يده رسالة
فيليب فنظر اليها وعادت اليه تذكراته السابقة . فبعد ان كاد يتلف ضنًى وكآبة
ويأساً عادت اليه قوته واتعش فؤاده وانشرح صدره حين افاق من ذهوله فحي
رجاؤه لا فقط بحفظ كرامة اسمه التجاري وعود ثروته الى حالها وحسن مستقبل
ابنته العزيزة بل ايضاً بتخيل شفائه من مرضه استناداً الى وعد صديقه فقال في
نفسه لا يبعد ان حسن الحالة وسعة العيش وراحة الفكر وطيب الهواء والانتقال

من اقليم حارّ الى اقليم بارد كان قد الفهُ في صباهِ وغير ذلك من الاسباب الحسنة مما يجدد قوته ويعيد صحته وان حذق اطباء فرنسا يكون بلا ريب داعياً الى امل حقيق بقلع هذه العلة المزمنة

فلما اجتمعت له هذه الآمال صرخ من صميم فؤاده قائلاً يباركك الله يا فيليب يا اخي الحبيب قد اعدت لي شرفي وكرامتي فسواء شفيت او لم اشف فانك نشلتني من وهدة خنفتني نفثاتها السمية . فعلت معي من الجميل فوق ما كنت انتظر . ليضعف الله عليك نعمته ويفمرك ببركاته . والله يعلم اني لا اسف على حياتي واحتمل ما احتمل من العذاب اذا تحقق اقتران لؤلؤ بانيسة . فعليك تتوقف سعادي هذه التي احسبها حلاً قدّرك الله ان تجعله محقق الرجاء

ومن المعلوم ان صاحب الفرح يحب ان يشرك غيره بفرحه ولذلك لم يعد في امكان يوشع ان يكتنم فرحه لنفسه كما كتتم حزنه فاراد ان يحمل لابنته المحبوبة هذه البشرى التي لم يعتقد ان الانسان يصادف مثلها . ما اللذّ الفرج بعد الشدة . فخرج من غرفته طائراً باجنحة السرور وقصد غرفة انيسة فلم يجد فيها الا خادمة مشغلة بترتيب ثياب انيسة وحليها . فسألها عنها فقالت . هي في الحديقة . فخرج في الحال وقصدها

وكانت الحديقة فسيحة طرقها كثيرة مفروشة بالرمل الابيض بحيث اذا مشى فيها الانسان لا يشعر بخطاهُ واذا طاف فيها في طلب من ليس له مقر لا يجدهُ الا بعد العناء غير ان انيسة كانت قد اعدت لنفسها خيمة على شاطئ الغدير المذكور آنفاً مؤلفة من النباتات النضرة المتعرشة فكانت عادتها اذا ارادت النزهة او الانفراد ان تختلي فيها تستنشق رائحة ازهارها وتسرح عينها في ما يجاورها من المناظر الانيقة . وتلتذ بالرطوبة المنبعثة من ظلال تلك النباتات والاشجار ومجاورة المياه . فلا تزال الرطوبة هناك سائدة في اشد الايام حرّاً في ذلك الاقليم الحارّ طبعاً . فكانت انيسة تذهب كل يوم الى تلك الخيمة النباتية وتكبي على مقعد فيها صنعتها بيدها

وتقرأ وتطرز او تتأمل في مناظر الحديقة الجميلة . وكانت قد عودت سرّاً من الطير ان تأتي اليها وتلتقط الحب من كفها فتستأنس بها كل الاستئناس وتبهج برويتها وألفتها وتغريدها اللطيف وكانت حين دخول ايها عليها جالسة قرب مائدة بسيطة وبقرها كتاب مفتوح وتطرز مبدوء به وهي متكئة على مقعدها لا تقرأ ولا تطرز بل ساجدة في بحار الافكار والتأملات وهي محدقة بصرها بذلك الغدير الصافي . وكانت تأملاتها في فرنسا التي جرت المداولة بشأنها بينها وبين ايها قبل ان دخل غرفته على ما تقدم . فكانت تتصور هناك جنة عدن حيث لا حرّ الشمس يؤذي العيون ولا النسيم اللطيف المنعش يفارق المنازل ولا الخضرة تذبل بحرارة الشمس وحيث كل الوجوه بيضاء والنشاط يحيي النفوس . وهي مع ذلك تشبه رجال فرنسا بالشباب اللطيف تنكريد النجكي الحلو الشمائل قهتر طرباً لهذه التخيلات اللطيفة

وفيما هي في هذه التأملات وصل ابوها الى شاطئ الغدير وتقدم الى خيمتها ورفع يده اغصانها المتدلية ودخل للقاء ابنته . فهضت في الحال لاستقباله واعتنقه .

ولمحت على وجهه امارات السرور فقالت له مالي اراك يا ابت مبهجاً

- لاني قد وجدت حظاً سعيداً يا حبيبة الفؤاد

- اراك اتيت لتشاطرنى افراحك

- نعم يا بنية

- اجلس اذن واخبرني لكي افرح لفرحك

- بلعنتي اخبار سارة يا عزيزتي

- عسى ان تكون عن استقامة مزارعك

- كلا يا أنيسة بل من صديقي الاعزّ

فخفق قلب أنيسة عند سماعها هذا الخبر وقالت له هل أتت اخبار من جهة

فرنسا من صديقك فيليب

- نعم من فرنسا من صديقي نفسه

- ما الذي يقوله لك
- يقول انه في استنظارنا ويلح علينا بسرعة المسير ويقول ايضاً
 - ماذا يقول ايضاً
- ستعرفين
- لم لا تخبرني الآن
- لان في الامر سرّاً دقيقاً احب ان اكنمه عنك الآن لكن كوني في راحة
 بال من هذا القبيل اذ ليس في هذا السر الا ما يسرنا
- ان السبب في كتم هذا الامر عن أنيسة لا يخفى على القارئ اللبيب وذلك اولاً
 ان أنيسة لعدم معرفتها بلؤلؤ بن فيليب ربما تضطرب عند اخبار ايها لها انها
 ستكون عروسه فرأى ان الاوفق ان يتعارفاً أولاً وتتداخل بينهما المحبة فهو أولى من
 ان يُخبرها فجأةً بزواج لا يتوقعانه . ثانياً ان إعلام انيسة بمفارقة ربوع ولدت وتربت
 فيها والفتها واستأنست بها واحبتها مما يجلب على قلبها نكدًا ونغصة يتكدر بهما قلبها
 ولا سيما اذ تعلم انها ستفارق هذه الاوطان فراقاً لا رجوع بعده اليها فاذا وصلت
 الى فرنسا واقامت بها مدة فلا بد أن اثلافاً مع اهلها ومشاهدتها حدائقها ومنزهاتها
 والتهاءها بمنظرها البهجة تزيل بعض الازالة من فكرها اللطيف تذكّر اوطانها
 الاولى المحبوبة فلا يصعب عليها البعاد
- فلما سمعت أنيسة من ايها كلامه الاخير لم تشأ ان تلح عليه بالسؤال وسلمت
 اليه تسليم الولد الصادق الطاعة لعلها انه لا يجب الا خيرها وصالحها فقالت له . اذا
 كان الامر على ما ذكرت وان صديقك فيليب في انتظارنا فالاولى ان نعجل الرحلة
- نعم يا ولدي هذا هو الصواب
- وهل يمكن يا أبت تحديد وقت سفرنا
- لا يمكن ذلك يا بنية اذ ليس لي الأمرة لان مراكي ليست هنا الآن بل يلزم
 ان نترقب ورود سفينة أجنبية مجهزة الى فرنسا او انكلترا فتركبها

- وهل في الامر عاقبة

- لا عاقبة فان السفن ترد عادة هذه الايام بكثرة . وعلى كل حال يجب أن نكون على أهبة السفر بحيث لا يؤخرنا شيء اذا اتفق ورود سفينة تحملنا فنغتم اول فرصة

- اما انا فلا عائق مني ففي بضع ساعات استحضر كل حوائي من حلي وملبوس فلو أردت السفر غداً لم تجدني الا مستعدة

- هذا أمر غريب يا بنية . فاني لست أراك من النساء ذوات الدلال والاستثناء لا يهملك الازم حوائجك

فضحكت أنيسة وقالت ما هذا المراد يا أبت وانما يسهل عليّ التأهب لان فكري متوجه بي منذ البارح الى هذا السفر وقد دبرت اموري باسهل طريقة

- يحق لك يا عزيزتي ان تكتفي بمحاسنك الطبيعية ولا تتكافى لاستعدادات تكلفية وتصنعية فانت كما قال الشاعر

ان المليحة من كانت محاسنها من صنعة الله لا من صنعة البشر

- اشكر الله يا أبي فان حسن تربيتك قد هذبني ونزهتني عن كل هذه الامور التصنعية وانت بي أخبر من سائر الناس . واني اقنعك حالاً بسهولة تأهبي وذلك اني أعلم ان ازياء هوانة لا توافق كلها مشرب فرنسا فأخذ معي اشياء قليلة تاركة اتباع الازياء الى حين وصوله

- الحق بيدك يا ولدي . لكن لا ارى ما يحوجك الى تكلف الازياء فان رونق شبابك ومحاسنك ولطف معشرتك وكرم اخلاقك تعوّض عن كل مظهر حسن . وبها تفوقين محاسن نساء باريز وتصنعاتها . ولا يبعد ان تكون بساطتك قدوة في الزي . واني لا خالك الان امرأة كاملة الزينة

- كيف تخالي امرأة وما الداعي لهذا الكلام الآن

- لم لا . أليس من الممكن ان تتزوجي . فاحمر وجه انيسة خجلاً وحياء

- وصمتت برهة ثم قالت . وما ادراك ان يكون ذلك في فرنسا
 - هذا من أقرب الامور لاننا مسافرون اليها ونحب أهلها
 - مسافرون . من يكون معنا في هذه السفرة . أنا ثالث
 - كيف لا ألا تعلمين ان ضيفنا الجريح منتظر اول فرصة يجد فيها سفينة يركبها
 فلا بد ان يصحبنا في السفينة التي نساfer فيها
 فازداد احمرار وجه أنيسة حتى صار كالقرمز . وقالت هذا صحيح . وقد داخلها
 ريب في تلميحات ايها

الفصل السابع

« البشرى »

قد علم القارئ ان قصة يوشع وفيليب مع ما سبق من حديثهما في الفصلين
 السابقين معترضة بين آخر الفصل السابق لهما وما يأتي في هذا الفصل من تمتة حديثه
 بعد ان دار الحديث المار ذكره بينه وبين ابنته أنيسة . فهذه الحوادث كلها جرت
 في يوم واحد اي من حين خروج يوشع من غرفة تنكريد ليستريح وينام ثم محادثته أنيسة
 ثم خطوط البحران عليه ودخوله غرفته الى حين ورد عليه كتاب فيليب ودخل
 حديقة ابنته وتكلم معها بما تقدم

فلما كان اليوم التالي كان تنكريد قد تعافى بواسطة الحمرة التي وصفها له الطبيب
 ورأى نفسه انه في اتم الصحة فلاح في فكره انه لم يعد ممكناً له البقاء في بيت يوشع
 تخفيفاً للثقل . فنهض من فراشه واخذ في لبس ثيابه حتى لم يبق من اغراضه شيء
 وصار مستعداً للخروج لكن لما نظر الى ثيابه ورأى ما بها من التمزيق والتخريق
 والاساخ بمرغه في اللبيلة السالفة على التراب وتلطخه ببعض الدم وقف وقوف
 المختار ولم يدر ما يصنع . وفي ذلك الحين دخل عليه يوشع مقتدراً فبادره تنكريد

بالسلام وقال يا سيدي قد صنعت معي جيلاً عظيماً لكنه بقي عليك شيء يكون تامة له ان حسن في عينيك ولم يثقل عليك عرضه بين يديك . قال حياً وكرامة يا ولدي قل ما تشاء . قال امرت ان تحضرنى امام السيدة انيسة لاشكر معروفها الذي لا يكافأ لكن ترى ان ثوبي لا يليق ان تراه مثل هذه السيدة الكريمة فان شئت فاسمح لي ان امضي الى منزل الياض السندري صديقي الاول واغير ثيابي وبرنيطي واعود اليك لأ في الواجب علي . فتبسم يوشع لهذه الملاحظات الدقيقة وقال لك امرك يا ولدي فقد اعجبني شهامتك وفطنتك فامض وعد متى شئت فباي مفتوح لك اي وقت احببت . فتأثر تنكريد من رقة هذا الشيخ وقال واهاً للملاطفتك يا مولاي قل لي بأي شيء اكافئك ولا يقدر مثلي على مكافأة مثلك الا بشيء واحد اقوله لك ولو عددته مني وقاحة . قال ما عسى ان يكون هذا . قال اشتهي ان اسمع احداً يشتمك . فتعجب يوشع وقال ويك ما هذه الشهوة الشنيعة وما هذه المكافأة المعكوسة . قال لا تعجب يا سيدي لاني حالما اسمع احداً يشتمك اقوم عليه واهينه اشد الالهانة وربما قتلته ايضاً فاسراً اذ اكون قد دافعت عن شرفك دفاع الاحرار ووفيت بعض واجباتي لكرامة اخلاقك . فطرب يوشع لحماسة تنكريد وانذهل من هذا الخاطر الذي خطر له في مكافأة جميله ووجده مع ذلك صواباً اذ لا يقدر على اكثر منه واثني على مروءته وشهامته . ثم استأذنه تنكريد بالمسير ووعدته ان يسرع الكرة . فقال مهلاً يا بني اني لا اطيق ان تخرج من بيتي بهذه الاستمال فيها انا ادعو لك بطيارة لي (نوع من المركبات السريعة) قال زدت فضلاً على فضل يا سيدي وعلى كل حال لا اعرف كيف اجزي معروفك فليكن ما تريد . فعسى الله ان يقدر ظروفاً يظهر لك فيها شكري العظيم على غير سوء يطرأ عليك

- قال لملك تمنني ان تطعن لاجلي بالحراب . قال ان لم يكن غير ذلك فهو بغيتي وانت ادري بالمثل المضروب بتلك الارملة صاحبة الفلوس وفيما هما في الحديث اقبل الخادم وقال يا سيدي قد حضرت الطيارة (وكان

سائقها يركب الفرس الذي يجرها اذ ليس لها مقعد مخصوص للسائق لانها على شكل محفّة ولها دولابان كبيران غير انها مزينة ومزخرفة بالذهب والفضة ومرصعة في بعض المحلات بمحارة كريمة . وعدة فرسها من اثنى ما يكون هكذا كان اصطلاح اغنياء هوانة في مركباتهم)

وفي الحال ذهب تنكريد ووثب اليها فقال له يوشع لا بد انك عارف بالطريق المؤدية الى بيت صديقك الياس . قال نعم وليم تسألني هذا . قال لان العادة ان سائق العجلات في بلادنا يستمر جارياً على خط مستقيم حتى يأمره الراكب بالوقوف او الميل الى جانب او آخر فلذلك عليك ان تنبه السائق كلما اردت ان تميل الى جهة دون أخرى او تقف او تسير . قال اتكلنا على الله ثم امر السائق فصار ماراً كالسحاب بفرسه المعود الاحضار حتى اذا وصل الى منعطف شارع او بسبو وثب رجل من الوراء وتعلق بعضادة المحفة بين الدولابين فلم يشعر تنكريد ولا السائق . وبعد هنيهة وصلت الطائرة امام بيت الياس فأشار تنكريد الى السائق فوقف فنزل ودخل المنزل فاستقبله الياس وامرأته استقبال الاحباء وهنأه بسلامته . ثم لبس ثوبه الرسمي الذي يلبسه من في رتبته وخرج بتلك الحلة الزهية حتى صار الناس يشيرون اليه بالاصابع وصعد الطائرة وامر السائق فطار به راجعاً الى منزل يوشع واذا بالرجل الذي وثب اولاً وتعلق بعضادة المحفة وكان قد نزل منها وتحلل صفوف الناس قد عاد اليها ووثب من الوراء حتى اذا وصلت الى بيت يوشع نزل منها وسار في غير طريق وهو يدمدم . ونزل تنكريد في الدار فاستقبله يوشع ودخل به القاعة وارسل الخادم يخبر انيسة ويطلبها للحضور

فجلس تنكريد يتأمل في زينة القاعة وما حوت من الاثاث الثمين والفرش الفاخر فتعجب من كثرة ما رأى فيها من دلائل الثروة الواسعة . وفيما هو كذلك دخلت انيسة فانقلب تعجبها الى ذهول لانه منذ شاهدها مقبلة كملك النور بذلك الثوب الابيض واخذ المورد والعين الماروتية والقوام المياس شخص فيها متحيراً

كمن اُثرفيه السحر . واما هي فلما رأتُه صبغ الحياء وجنتيها بلون الجلنار وجرى دمها حاراً في عروقها . وجلست برهة ولسانها قد حبس عن الكلام عند رؤية جمال تنكريد وجلاله . ففتح تنكريد الحديث معها وبدأها بالسلام واطهر لها تشكرات قلبه بعبارة رقيقة وجرى معها بحديث الادب واللباقة باساليب تسحر العقل . واما هي فاذا كان من طبعها الحياء وقد ازداد بها حين مشاهدة هذا الفتى وسمعت احاديثه الرقيقة لم تكن تجيبه الا بكلام قليل متقطع مرتبك . فظن تنكريد انها لم تجل مقامه ولا تحب أن تطيل الحديث معه تنكراً من رقبته ولم يدر ان الحياء ضعضع افكارها وعقد لسانها فاراد الانصراف تخفيفاً لما ظن في نفسه من الثقله على الفتاة اللطيفة

فلما خرج من القاعة خرج معه يوشع مشيعاً وقال له اعلم يا ولدي ان بيتي مفتوح لك في كل حين وانك اذا دخلته كانك داخل الى منزل ابيك قال لا اشك في غيرتك ومعروفك يا سيدي لكن ارى اني ثقلت على السيدة انيسة قال من اين علمت انها استفتلتك . قال اما رأيت فتورها في حديثي واعراضها عني . قال هذا وهم منك فلم يظهر عليها الا امارات الحياء الذي هو دأب كل فتاة في عمرها ومركزها واني اؤكد لك انها تحترمك وتهفو اليك كاخص الاصدقاء فاذا عاشرتها تكراراً ترى منها ما يرضيك من الانس واللباقة والبشاشة قال صيرتني ممنوناً جداً بهذا الارشاد فقد شجعتني على العود الى سؤال خاطرها بعد خاطرك . قال وانا اتعهد لك انها لا تقصر هذه المرة بمؤانستك . فبرز تنكريد يد يوشع وسار وهو يتأمل في محاسن انيسة البديعة ويقول . آه ما اللذ معاشرتها اذا امكن ان استميل فؤادها . آه يا ليتني كنت غنياً . يا ليتني كنت امير البحر . يا ليتني كنت مركزاً على الاقل . قد سلب قلبي حب هذه الفتاة لكن واقلة ناصراه ما الذي اقدر على تقديمه لها بالنسبة الى ملايين ايها وما اقدر ان ارضيها به بالنسبة الى جواهرها التي لا يمكن ان تقع عينها على احسن منها . لكن الاحري بي ان لا اشغل بها خاطري واعلق

على المحال آمالي واعرض للعذاب نفسي دون بلوغ المرام
 هذا ما كان من امر تنكريد ويوشع وانيسة . واما ما كان من امر ذلك الرجل
 الذي وثب على الطيارة وتعلق بها ذهاباً واياباً فهو مما يستحق الالتفات
 كنا قد ذكرنا ان قينة وقينة تعقبا محفة انيسة وهي حاملة تنكريد ليلة حلت به
 تلك الداهية حتى وصلا الى مدخل الحديقة التي في داخلها دار يوشع . وان قيناً
 اخبر اخته بامر هذه الدار وصاحبها وبجمال انيسة ولا لزوم لاعادة ما دار بينهما من
 الحديث بهذا الشأن . ولذلك كانت قينة في اشتغال بال من جهته وهي ترتعد غير
 كلما تأملت في محاسن انيسة وتخشى ان وجود تنكريد هناك لا بد له من العاقبة
 التي تؤدي بقينة الى اليأس ولذلك امرت اخاها ان يرقب الطريق ليلاً ونهاراً حتى
 اذا خرج تنكريد بعد شفائه يقفوا اثره ليهتدي الى منزله الخاص فتدبر امورها
 بحيلها ومكرها

فاقام قين يرعى الطريق المؤدية الى دار يوشع مدة الثلاثة ايام التي صرفها تنكريد
 هناك حتى اذا خرج بالطيارة كما سبق الكلام تعلق قين بخفته بعضادة الحفة وعرف
 مستقر تنكريد وعاد الى اخته حاملاً اليها هذه البشري العظيمة
 وكانت قينة جالسة متأملة ورأسها بين يديها فلما فتح اخوها الباب نفرت اليه
 كالغزال الشارد وقالت له ويك هات الخبر اليقين . فقال لها خذي بالصبر ولا
 تعجلي . الحرق شديد وانا تعبان وعطشان امهليني ريثما اجلس واعطيني القنينة عن
 الرف ثم احدثك بالحديث . فاسرعت باجابة طلبه وهو جالس يروح بذيل ثوبه
 ثم رفع العصاة السوداء عن عينيه واخذ القنينة وملاً اول قدح وشربه ثم شرب
 آخر ولف سيكارة واتكأ وهو يدخن فلما وجد الراحة قال لها سليني الآن فاجيبك
 - اخبرني قبل كل شيء هل عرفت عن اخباره

- كيف لا

- خيراً ام شراً

- هذا موقوف على غرضك
- لا تكلمني بالالغاز
- أي أغاز فسيوضح لك الامر
- كيف احوال الجريج
- مثلي ومثلك على أحسن حال
- هل خرج من البيت
- نعم
- وهل رايته
- رايته بعيني في طيارة السيد يوشع وهي طيارة فاخرة وهو شاب لطيف الشكل
- هل كان وحده
- وحده
- هل مشيت وراءه
- طبعاً
- اين مضى
- الى بيته
- اذاً تعرف منزله
- نعم نازل في بيت تاجر فرنسوي
- وهل بقي هناك حين اتيت
- لا بل غير ثيابه وخرج بثوب رسمي
- ما هو هذا الثوب الرسمي
- ثوب ضابط بحري . والظاهر يا مسكينة ان في هذه الهيئة مظنة الخطبة
- فاصفر وجه قينة لهذا الكلام وقالت . ماذا صنع بعد ذلك
- ركب الطيارة فمرت به مرّ السحاب فتأثرته الى شارع اوبسبو وقد دخل

دار السيد يوشع

- لا ريب اذاً انه الآن بجانب السيدة انيسة يتفكه بمغازلتها
- الله اعلم بذلك لكن لا يبعد كلامك عن الصحة قيد فتر الضب . اتذكرين ما قلت بالامس ان ذلك الكولونل المكسيكي قد فتح لهذا الفتى الفرنسي باب السعد وان الامر سيأول الى اقترانها بها والآن اخال تحقيق ظني
- فحينئذ غاصت قينه في لجة من الافكار المضطربة ثم رفعت راسها وقالت بسكينته تدل علي حالة الاسف اتظن اذاً ان تنكريد النجكي يسهل عليه الاقتران بهذه الفتاة اللطيفة الغنية السيدة انيسة بنت الرؤيري فلم يجب قين الا باحناء راسه
- اي نعم
- ماذا . كيف العمل . اما لك وسيلة تمنع هذا الاقتران
- فاستلقي قين من الضحك وقال حيلة واحدة لا غير
- عجل بها ويحك
- اعلمها لا توافقك لان فيها نظراً
- قل ما هي قد قتلتني وفرغ صبري
- لا صعوبة في التخلص ولا اسهل من ان يخرق صدره بخنجر فتململت
- وخفق قلبها
- فقال لها قين مهلاً مهلاً لا تجزعي . عليك بالصبر والتأني قد خطر لي خاطر في هذه الدقيقة لا أحسن منه
- هات ما عندك
- قتل الفتاة اولي من قتله فتململت أيضاً هازئة برأيه السخيف وتهكمه العنيف
- وقالت ما هذا وقت المزاح يا بارد القلب وما أرى مزاحك الاً أشدّ عليّ من طعن الرماح والذي لا يعرف اخلاقك لا يشك بانك من الوحوش الضواري لسهولة مأخذك في سبل القتل

- هه هه يا قليلة العقل ان لم يعجبك ما أتيت فأتني بما يعجبني
- لا تصعب عليّ الحيل
- فما رأيك
- قد تدبرت امري
- أتقدرين علي منع اقترانه بأنيسه ويحك هذا من أعجب العجب
- أقدر لا شك وقليل التدبير يظن الامر عجباً
- أسهلة الوسيلة
- أسهل ما يكون
- قد شغلت خاطري يا قينة فهل لك ان تطلعيني عليها ولك مني دينار احمر
- لا أبخل باجابتك
- وأنا اعيرك اذنًا واعية واودُّ لو كان لي الف اذن
- آمن وسيلة علي ما أرى ان نضطره الى الاقتران بفتاة غيرها
- أحسنت
- وهذا الذي اباشره مذ الآن
- أو تقدرين علي ذلك
- أجل
- وبمن تزوجينه
- بي أنا نفسي . فاحدق بها مبهوتاً ذاهلاً واما هي فلم يظهر من منظرها ما يدل
- على كلام الهزل فاخذ اخوها يقهقه عجباً حتى استلقى على قفاه ثم نظر اليها نظرة
- متهمك واخذ بيده قدحاً وقال هذا سرّ قينة تنكريد
- فلم تبالي به حينئذٍ حتى اذا تاب الى وقاره قالت له لتكلم يا أخي كلام الجدّ
- هذا ما يسرني لكن علي ان نفتح حديثنا آخر
- لمّ ذاك

- لان فاتحة حديثك ان لم تكن عن جنون منك فهي تدعو الى أعجب العجب
كفالك جنوناً

فقطبت حاجيها ونظرت اليه نظرة الغضوب فقال لها تطوحي ما سئت في هذه
الاباطيل انا أخوك وانت اختي لا يجهل احدنا الآخر واراك قد جعلتني دسيسة
لاغراضك السفهية وهذا مما لا احتمله. على رسلك يا قينة ارى العبء ثقيلاً والطريق
طويلة والغاية وخيمة

- صه . مكانك

- ما المعنى

- سترى اضطراراً نتيجة حسنة لا تحيط بها افكارك القاصرة الا بمساعدتي
فاشار اليها هازئاً واشاح بوجهه عنها واما هي فلشدة اشتغال بالها لم تأبه لحركاته
وقالت . قبل ان نعمل للمستقبل يجب ان نلقي نظراً على الماضي

- وما الفائدة من ذكر الماضي أتظنني قد نسيت

- ما قصدي بذلك تكدير خاطرِك يا اخي بذكر امور تكرهها لكن ما العمل
فان مركزنا يقتضي ان تكون منا احد الساعين

- قبحاً لك وشقحاً

- كيف ذاك . أما تشترك معي بهذا الرأي ؟

- او بلغ بك الامر الى هذا الحد يا قينة حتى تستحقيني وتستصغري مقام اخيك
فضحكت ضحكاً متواتراً وقالت له اجهل كونك من اضاحيك الناس في بعض
الاحوال وانك لا تستطيع الا ان تكون هكذا فلا اخشى ان اقول لك بصريح
العبارة انك منحث والظروف الماضية تؤيد كلامي وظالما لو حقت لكن نجوت
بمرك ودهائك

فتبسم قين تبسم العجب

او ألا تذكر ان الدهر خانك مرة ؟

- ويلاه

- وقبض عليك

- اف لهذه الذكرى

- وعُلِّقت

فوضع قين يديه على عنقه وقال بصوت مخنوق كأن تلك المرسة مربوطة بعنقه.
رفقاً يا شقيقتي رفقاً لا تزيدني علي كلمة واحدة في هذا الموضوع فاني كلما تذكرت
تلك الساعة المشومة اتوهم انقطاع نفسي

والحق يقال كاد ينقطع ولم يكن بينك وبين الهاوية الا ما بين سواد العين
وبياضها لو لم اتدارك الامر والتي السجس بين اهل ببلونة حتى تمكنت من قطع
المرسة وتخليصك فحياتك من يدي لو كنت تعلم

- هل انكرت ذلك يا شقيقتي او لم اشكر صنيعك حق الشكر

- كلاً ثم كلاً

- كيف لاهل سنحت لي فرصة لمكافأتك ولم اتهرها لكن صدقي ٠٠٠

- اني متحقة فيك الكنود وما ذكرت لك هذا الماضي الابداعي الحاضر وليس

ذلك فقط بل لكي تتحقق ان مساعدتك لي في كل ما اريد هي نفس صالحك .

واذكر ايضاً انك لما خشيت الاقامة في الاندلس لثلا يعاد القبض عليك وبيت

الحكم بتعليقك اثرت الخروج منها فمضيت معك الى فرنسا وكنت اغني وارقص

في ساحات البلد لكسب معاشنا واما انت فكنت تشترك مع المهرين في جبال برنات

- ما اجد في هذه المهنة عاراً بل افتخر بها لانها مهنة الخدق والدهاء

- لا خلاف بل العار سلوكك سبل الخيانة لكسب شيء من المال فكيف طاوعك

ضميرك على خيانة رفاقك والوشاية بهم حتى نفتهم الحكومة الى المطابق

- لا اجد في ضميري ما يكدرني من هذا القبيل فاني سلكت مسلك الاستقامة

اذ اظهرت حال المهرين حتى أمن الناس جانبهم

فنظرت اليه نظرة الاحتقار وقالت هذا الزعم في تنصلك هو الذي الجأنا الى
الهرب من فرنسا لئلا تقع في ما وقعنا به في الاندلس لان اقرباء الذين سمعت بهم
كانوا يحاولون قتلك وكان لهم احق من خبز عرق الجبين

فاجابها بتهمك ما نطقت الا الصواب الحق بيدك

- نعم وانت تعلم ذلك علم اليقين ولو تجاهلت وقد استحوذ عليك الحق لانك
نذل جبان كغيرك من امثالك الخثين وها نحن الآن في مدينة هوانة منذ ١٨
شهرًا نكابد في عيشنا عرق التربة

- اخطأت اخطأت بل نحن في سعة ورغد كما ترين

- او تظن ذلك

- بل هو الحق لا مرأ فيه

- لكن انا على الخلاف

- ما الذي يعوزنا

- اجل نظرًا في هذا الكوخ الحقير فهو يغني عن الجواب وانا لا تعجبني هذه
العيشة وقد صرت امقت هذه المهنة التي امتهنها واشمئز منها واني لا كره كرهاً شديداً
ان اتجول في الازقة وبيوت السفاهة ارقص واغني ويتعرض لي كل خسيس لثيم
اما كفتنا قحة ذلك المكسيكي الذميم

- فما المانع من ان نرسل هذه الآلات الخسيسية الى حيث القت رحلها وتزوجي
بقارون فتعيشي معه في ارغد العيش

- رويدك اتكوف مثلي امرأة لهذا البربري فيحملني الى عرينه في الآجام .
معاذ الله

- متى خطر لك هذا الخاطر وقد كنت مشغوفة به

- خدعتك نفسك . نعم كنت احاول التودد اليه لانه شاب حسن الصورة
واظهر لي جباً شديداً وكان قد وقع من قلبي موقماً حسناً غير اني الآن لا ارى ذلك

الااضغات احلام واعترف لك علانية اني لا احبه

- وكيف اهتديت الآن الى الحق
- تغيرت افكاري واتسعت دائرة مطامعي
- هل خطر لك ان تعيدي لي ما قلته في الامس من انك تريد ان تصيري
من الاشراف الاغنياء

- حتى الآن لم يضعف عزمي
- سوأة لك ما كل من اراد قدر
- الارادة والمقدرة شيء واحد عند حسن التصرف والثبات على العزم واني
أوضح لك ذلك بالبرهان وانك لتجد في اعمال همتي اكثر مما أجد من النتائج الحسنة
- سعدنا وما درينا
- اسمع ما أقول لك يا قليل التدبير اني في هذه الساعة كنت أغلظ لك الخطاب
وفي الداخل اضمر لك الحق او لا تعترف ببعض نقائص فيك

- الكمال لله وحده
- لكن لك مزايا حسنة
- نعم اكثر سجايبي صالحة فاني ماهر في العرف وصوتي لين طبع وفي حركتي
خفة ورشاقة وضربي للقيثار براعة لا تنكرينها وحذقي في طعن الحراب مما لا ريب
فيه ولي مشاركة حسنة في نظم الشعر وهلم جراً
- حسن ما تقول لكن ذكرت شيئاً وفاتتك اشياء فان لك مزايا ارفع قدراً من
التي ذكرتها

- أتعنين أدبي . اني عالم برفعة شأنه
- ليس ذاك بل اعني فكرك الثاقب في الخيل والانسائس واعلم لو واقفتك الظروف
انك تنال بيدك كل ما تطمح اليه عينك
- وكان قين يسمع من اخته هذه المداهنة الرقيقة ويكاد ينطح السحاب بانفه

عجباً بنفسه حتى يخال لمن رآه أنه سلطان في ابهة ملكه فقال لها واهاً واهاً لكلامك ما أطيبه واصدقه وان قلبي يخبرني بصحة ما تقولين لكن يا لسوء الحظ لا يساعدي التوفيق فما مثلي الا مثل السراج الموضوع تحت المكيال او الوزنة المدفونه في الارض - لا بأس فان الزمان لم يفت ومن جد وجد

- هل من سبيل الى هذا المنى

- ليس الامر بعيداً اذا فطنت لنفسك فانت الآن في هذه البلدة حقير في عين الناس خالٍ من المنزل والتهراس تعصب على عينك عصابة تخفي نصف وجهك لتلايراك من يعرفك من اهل الاندلس اذا دخلوا هذه المدينة وكنت في فرنسا متظاهراً بشرف نسبك واما هنا فقد تخفيت واستحقرت افما ترى اجدر بك واليق بشأنك وارفع لمقامك ان تتحد باحدى العيال الشريفة فستربذلك مساويك الماضية

- اشتهي ذلك من كل قلبي لكن من اين من اين

- امأً وقد برح الخفاء فقد يسر العسير اذا صح لي ان اتزوج بهذا الشريف

الفرنسوي فتتحقق آمالنا لا محالة

فوثب قين كأنما أنشط من عقال وضرب يده على المائدة وقال لا يقول الناس بعد ذلك ان النساء ليس لهن حسن تدبير وسلامة رأي ونظر طويل في العواقب فاني أراك من أطول الناس باعاً في هذا الشأن لكن ارانا ندور دورة الرحي وقد رجعت الى ذكر تنكريد و بلاط الملوك تخطين خبط عشواء وتمنطقين بنطاق الاماني

- هذا هو المطلوب والا فكيف يتيسر لنا ان نبلغ هذا الشاؤ البعيد

- افعلي ما بدالك أتريني أمنعك من التزوج به

- لا أستطيع في ذلك ما لم تأخذ بيدي

- واخلاصة مُري بما ترين واني أساعدك جهدي واقضي ما لا يقضيه غيري

ولا يعجزني الا المستحيل

- قبل كل شيء يجب ان يكون في قبضتي مبلغ جسيم من الدنانير

فخفق فؤاد قين ونظر اليها ذاهلاً وقال لم أفهم ما قلتِ

- قلت احتاج الى الف دينار

فوثب دهشاً وقال لها اراكِ قد فقدت الرشاد ما هذا يا قينة . الف دينار تطلين ويحك يا معتوهة من أين يكون لنا ذلك . الف دينار في المنام لا تقبضها حتى لا يمكن تحصيل ربع المبلغ

- لا تحاول الرياء ولا تخدعني بالاكاذيب فانك خبأت في نقرة تحت الفراش مبلغاً لا يكون أقل من ٤٠٠٠ دينار

فلما سمع ذلك امتقع لونه واكفهر وتقبض بكلمات يديه على رأسه حتى كاد يمزق فروته وقال بصوت مرتجف خامد . ويلاه . ويلاه يا لهصيبة يا للرزينة اتسهب مالي تهدم ركني . فقدت حياتي . صعقت . وآسفاه . انسحقت عظامي تفتّر قلبي . لم يعد لي الا ان اعلق في عنقي حجراً واطرح نفسي في البحر

وأما قينة فكانت تسمع هذا الكلام وهي لا تملك نفسها من الضحك فقالت له فليطمئن قلبك يا أخي لم تسلب مالك ولا فقدت ثروتك ولا أمدُّ يدي الى درهم واحد من خزينتك ولا تخطر السرقة بيالي واذا طلبت منك الف دينار فلا ارى اني افطرت في الطلب لعلمي اني حصلت اكثر من هذا المبلغ منذ اقامتنا في هذه البلدة وانك كنت تقبض كل ما أحصله وفضلاً عن ذلك أعلم يقيناً اني سأعوض عليك عوض الواحد اثنين وثلاثة وعشرة

فأنفض قين رأسه عند سماع هذا الوعد وقال عشرة تعوضين وهل يسعدنا

الزمان بالاستيلاء على عشرة آلاف دينار

- لا شك في ذلك

- ومن أين تحصلين على هذه الثروة الواسعة

- الامل وطيد والحصول قريب

- اخبريني ما أرتأيت وستبصر في الامر

فاخذت تشرح له مقاصدها وتبين وجوه تصرفها وأساليب تدبيرها حتى كادت تذهب بعقله . وسيتضح ما اخبرته به وينكشف هذا السر اللطيف في الفصول التالية من اخبارها . وكان هو يسمع كلامها ويظهر له صوابها شيئاً فشيئاً حتى سكن روعه واطمأن قلبه وطاب خاطره وابرقت اسرته واجابها الى كل ما طلبت . ثم ملأ القدح وشربه قائلاً قول الصدق . هذا على سر سيدتي امراة الشريف تنكر يد . ثم وضع القدح على المائدة وقال لا نضع دقيقة من الوقت هلمي بنا نباشر العمل من هذه الليلة

الفصل الثامن

« داهية قارون »

وبينما هو في الكلام اذا بالباب قرع قرعاً عنيماً فجمد كلاهما مضطربين وقال قين لاخته من ترى يكون هذا الطارق فقالت له بصوت منخفض مكانك لا تفتح ثم اشتد قرع الباب وسمع نباح كلب فقال قين هذا قارون قد عرفته من صوت كلبه قالت فالاحرى ان لا تفتح

- لا يمكنني ان اتأخر لانه لا بد ان يعرف اننا هنا لان الباب مقفل من الداخل فان كان قصده ان يراك على ما اظن او اوهمته غيرته ان عندك احداً فلا بد ان يخلع الباب ان لم نفتح له

فقالت في نفسها كيف يمكن ويلاه ان اقترن بهذا الخبيث احب الي ان اموت في هذه الدقيقة

وكان قين قد تقدم الى الباب وفتحهُ فقال وي هوذا قارون قد شرف منزلنا اهلاً وسهلاً ومرحباً لو علمنا انك انت القادم لم تتأخر دقيقة عن فتح الباب فادخل على الرحب والسعة فان قينة هنا وستبتهج برويتك والآن كنا في حديثك

فلم يجبهُ قارون بشيء بل سرَّح في داخل البيت نظر الريبة وارتكض كلبه
الكبير الى الصبية وهو يبصص بذنبه
واذ لم يجد قارون في البيت شيئاً من دواعي الارتباب انبسط جبينه واستراح
باله ونظر الى قينة نظرة المحب

وكان شاباً معتدل القوام متناسب الاعضاء عمره نحو ٢٥ سنة لونه اسمر زيتوني
شعره سبط لامع دقيق كالحرير واسود كخافية الغراب وعيناه غاثر تال سوداوان
واسنانه بيضاء كالعاج منتظمة وهيئته بالاجمال تدل على الرزانة والهيبة وهو من
سلالة حكام جزيرة كوبا الاولين وكانت بقاياهم محافظة على دلائل الشرف وعزة
النفس وان كان قد وصل بهم الفقر الى حالة الحفارة ومع ذلك لم يستعبدوا لاحد
فكان قارون هذا لا يجب ان يكون اسير شغل قانوني فاقصر على الصيد وكان
يقضي ايامه في الغابات ويأتي المدينة مرتين في الاسبوع يبيع صيده فكان في سعة
من العيش لكثرة ما كان يربح ولم يكن ينفق الا قيمة ثمن مواد الصيد وشيء من
المشروب ولذلك كان يظن ان ثروته غير قليلة وانه يذخرها في مكان خفي

وكان قليل الكلام لكن كثير المجاز والاستعارات في كلامه شديد التأثير ظاهر
السكينة سريع الغضب . وكان لباسه بسيطاً على رأسه برنيطة من صوف وعلى اكتافه
رداء خشن وفي ساقيه شبه جوارب طويلة من جلد لين تتجاوز ركبتيه وبذلك كان
يؤمن من وخز الاشواك ولدغ الافاعي . وكان معه بندقية اسبانية يحسن الرمي بها
ويعلق على جنبه قرية مملوءة شراباً وقرناً يضع فيه البارود وجعبة كبيرة للصيد

فقدم الى المائدة التي كانت قينة جالسة بقرها ووضع امامها حجولين وقال لها
بصوت مرتجف رقيق ايتها الحبيبة كنت اود لو تيسر لي اكثر من ذلك لكن
القلب يعطي واليد تناول

فاشارت برأسها اشارة تدل على الشكر ثم مد قارون يده الى الجعبة واخرج منها
علبة صغيرة مصنوعة من خشب عطر وعليها نقوش لطيفة محفورة بسكين ووضعها

على ركة قينة فنظرت اليها وقالت ما هذه الطرفة التي اظنها من عهد امانا حواء
انتقلت بالارث من الامهات الى البنات حتى وصلت الينا وتنقل منا من ام الى بنتها
الى آخر الدهر فقال لها افتحيها يا قرة العين ففتحتها ورأتها محشوة قطناً ناعماً فمدت
اصبعها وزحزحت القطن فرأت لؤلؤتين من جزيرة سيلان في غاية الصفاء مركبتين
في قرطين مصنوعين بادقّ صنعة

فقال قين في نفسه هوذا تحفة فوق استطاعة رجل بربري واظن ان قيمتهما
لا تكون اقل من مائة دينار وقد عرفت ذلك بالاختبار لاني سرقت مثلها

واما قينة فتأملتها تأمل النساء اللواتي يتعشقن الجواهر الكريمة

فقال لها قارون ما رأيك ايها الحبيبة في هذه التحفة

فاجابت جواب من لا يبالي بجليل الامور وقالت شيء بديع

فقال قارون بل هما اقل صفاء من بياض عيونك واقل لطفاً من درّ ثيابك .

فانت هي اللؤلؤة الكريمة التي لا يعادلها شيء في العالم وما ارى لها بهجة في اذنيك
بالنسبة الى سحر لطفك وبهاء جمالك فتكرمي على اسيرك بقبولها

فصمت برهة ثم قالت وهيتها تؤذن بالرزانة ارجوك يا اخي ان لا تؤاخذني

بعدم قبولها ما قصدي كسر خاطرك كلا لكنني اقبل الحجلين عن طيب خاطر

فحقق فؤاد قارون وقال بصوت مضطرب لم تمنعين عن قبولها

- لاني لا ادري ما الغاية من هذه التقدمة الثمينة

- وا عجباً ما ادري ما مرادك بهذا الكلام

- لا عجب من كلامي قلت لك ما الغاية من تقدمتهما

- الامر واضح اتكبرين ما بيني وبينك من العلاقة

- لا انكر ان بيننا وبينك صداقة سليمة ليس الا

فلما سمع قارون هذا الكلام اصفر وجهه وحملق بعينه وضاق صدره وكاد يجهر

بالغيظ غير انه ملك نفسه وقال لها ارى الحبيبة تدلل على عبدها في حال شدته وما

ذاك الا جور منها أو لا تعلمين ان الموت احب اليّ من هذا الكلام

- نعم اراك مضطرباً لكنني ما ادري السبب

- قينة قينة ما هذا التفاضلي

- فنظرت اليه نظرة الغضوب فخفض صوته وقال وقد كاد قلبه ينفطر حزناً قينتي

ماذا الدلال

وانت ماذا الخيال

- ويح أبي وامي اهذا ما انتظره منك أو نسيت ما بيننا يا قرة العين

- ما الذي كان بيننا حتى اذكره

- ان كان قلبك قد تغير فاذكري على الاقل وعدك ولا تنقضي عهدك

- اي وعد واي عهد لا يخطر ببالى شيء من هذا الادعاء ولست افهم مرادك

- انا اذكرك ان احببت

- تكرم بهذه الافادة لكنني اندرك ان كلامك يذهب سدى

- ألم اقل لك اني استحسنتك

- لا بدّ من ذلك طوعاً او كرهاً

- أو لم اقل اني احببتك

- لا عجب فكل من يراني يحبني

- وهل حولت وجهك عن كلامي

- لا مانع من ان اسمعه وهل سمعت في زمانك عن امرأة يقول لها الرجل انت

جميلة وانا احبك ولم تستصوب مقاله

- او لم تقولي لي انك تحبيني ايضاً

- يا لها من فرية . متى قلت لك اني احبك

- او لم يكن تصرفك معي تصرف المحب مع حبيبه

- هذا الكلام لا اهمه فان كنت قد تصرفت معك تصرف الاصدقاء فهل

تكون النتيجة منطبقة على آمالك الفاسدة

- ما هذه المحادثة بعد ان ظهرت دلائل حبك وعاهدتني انك تتخذيني بعلاً
ونعيش في الرغد والهناء

- ساء فألك وتوهمت المحال

فلما سمع قارون هذا الكلام تقبض وجهه وتقطب حاجباه واحمرت عيناه وكاد
يخرج من دائرة الاعتدال فقالت له

العفو يا أخي لا يأخذ منك الغضب لاني كلمتك بصريح العبارة وما ذاك إلا
لسلامة طويتي لاني لم أحب ان اظهر لك شيئاً واضمر عكسه فمن اللازم ان يرتفع
مقامي عندك . انت تجبني نعم وانا اصدقك لكن وآسفاه قد حملتني من همك
اضعافه واني ارثي لجزعك غير ان ضميري مستريح لاني لم أفتح لك باب الامل
حتى تطوحت

فارتجف بدن قارون عند سماعه هذا الكلام واما هي فلم تعباً باضطرابه وقالت
لا يخفى علي ما اردت ان تجيبني به وانت نزعني اني شاركتك في حب انت فتحت
بابه لكنني اراك مخدوعاً فاني من بلاد لا تقترن فيها المعاشرة اللطيفة بالعشق الذي
فاهل الاندلس طالما يذكرون العشق وهم لا يعشقون وكل من رأى منهم صبية جميلة
لا يستحي ان يقول لها انا أحبك فتجيبه بمثل قوله والحال ان الحب الصحيح لا
يخامر قلبيهما وانما ذلك على سبيل المعاشرة والملاطفة والمغازلة الخارجية وهكذا
ظننت الحال بيني وبينك ولم ادري ان لسانك ترجمان قلبك وكنت اعتقد حتى الآن
ان معاشرتنا على سبيل الصداقة الساذجة وربما اتفق اني كلمتك كلاماً او اظهرت
لك دلائل على سبيل التفكه أوهمتكم آمالاً لم تدروني خلدني وعلى ذلك ارجو منك
المعذرة ولا انفك عن صداقتك فاتخذني اختاً مصافية لا خطية موافية واطرح عنك
هذه الاوهام وها أنا أعاهدك على الاخاء الدائم ان اردت

فاجابها جواب المتهم الامر لك فانا على ما تريد

- لِمَ هذا التهمك هل قصدك النفرة

فوجم قارون ساعة ولم يفه بكلمة ولاحت عليه لوائح الاضطراب واكفهر وجهه
وكاد يغيب عن الصواب وشعرت قينة بحاله واما اخوها فدخل الغرفة الثانية وفتح
الشباك استعداداً للهرب اذا ابدى له قارون الخصومة اخذاً له بهده من جهة وعد
اخته على يده

غير ان قارون كظم غيظه وتظاهر بالانس وقال لقينة

ألم تكوني اذاً تحيينني كما احبك

- لم يخطر لي ذلك ببال

- لكن قد علمت الآن فما المانع من ان تفتحي لي صدرك

فهرت رأسها هزاً لطيفاً

- لا تسرعني بالجواب دعيني اخبرك ما يجب ان تعرفي لعلك تأنفين من الاقتران

بي خوف مشقة الاشغال والفقر فان كان ذلك فليطمئن قلبك نعم ان منزلي حقير
لكنه ليس احقر من منزلك وستكونين عندي صاحبة الامر والنهي وان احتجت
الى من يخدمك ابعت لك أمة فاني اغني مما توهمين وقد حصلت من الصيد
ثروة كبيرة لا تكون اقل من ٥٠٠٠ دينار فتحكمي بها كيفما شئت واتخذي من الحلى
فوق ما تشتهين واذا نفذت هذه الدنانير فتبقي اني احصل غيرها بحيث لا يعوزك
شيء واعلمي يقيناً انك تنالين معي الحظ الاوفر والحظوة التامة فارحمي اسيرك ولا
تدعيني الى الهلاك بصدودك

قال هذا وقلبه يتفطر حتى دمعت عين قين وهو في الغرفة الاخرى واما قينة

فلم تكترث بكلامه وقالت له يا صاحبي لا يمكن ان اقترن بك ما لم احبك حب
المرأة للرجل وليس الامر كذلك والسلام

- وما ادراك ان قلبك لا يتغير وتحيينني كما اريد

- لا تشغل نفسك بالاماني ولا توطنها على الامل ويصعب عليّ ان اقول لك

ان قلبي لا يمكن ان يميل اليك الا تميل الاخنت الى اخيها
فقال وهو يحرق الارم اذن تمنعي

- هذا اوفق لك واسلم

- خافي ربك قد اضرمت عينك في قلبي ناراً لا تزال تتأجج وطالما بدا لي
منك من الملاطفة وانس المعاشرة ما اسرت به فؤادي ومكّن حبك في قلبي ايّ
تمكين امن الحلال ان تقولي الآن لا احبك ولا يمكن ان احبك ولست أنا يامليكة
الفؤاد من تلك البلاد التي لا تتفق بها المعاشرة مع الغرام بل انا من قوم يدعونهم
خسنيين غير ان شفتي لم تنطقا بالكذب واذني لم تتعودا سماع الرياء وقد اظهرت لي
ما دعاني الى الشغف بك واقتصار قلبي على حبك وقد ملكتك نفسي ولا استطيع
ردّها واعلمي ان كل ما قلت لك محض صدق ومواعيدي لا تخلف وان خانني
الدهر وحرمتي قربك فلا يمكن ان تكوني لغيري ومعاذ الله ان ادع لك قلباً يميل
الى سواي فان لم تحبيني فلا امكنتك من ان تحبي غيري ولا ازال رقيباً عليك
ترعاك عيني ليلاً ونهاراً ان صعدي في السحاب او هبطت تحت التراب تدركك
عيناى اينما كنت وعينك لا تبصراني واعلمي اني احيل من الحية وأروغ من الثعلب
وسهامي سامة سم ساعة فخذي الحذر لنفسك واياك ان تعاهدي غيري على الوفاء
لاني اسحقكاً معاً كما اسحق هاتين اللؤلؤتين

قال هذا واخذ الجوهرتين من العلبة وطرحها على الارض وداسها دوساً عنيماً
حتى طحنهما بمجديد حذائه ثم خرج قائلاً اراني الله وجهك بخير فاجابت لا تقل
هذا بل قل استودعك الله

وحينئذ اتى قين من الغرفة وجلس بجانب اخته وهي جامدة كالصم ويدها
على صدرها وعيناها في الباب كأنها لا تبالي بوعيد قارون فقال لها

هذا ما انذرتك به ولم يخف عليّ وقد صار هذا اللعين ييفضك اكثر مما كان
يحبك ولا نظني ان تهديده يذهب باطلاً فان هؤلاء الهنود يفوقون بحيلهم الحيات

وقد سمعت ذلك من فيه وهو لا يزال يترصدك ويتسلل في ظلك وانت لا ترينه
وقد صرت انا ايضاً اخاف على نفسي فحذار يا אחتي حذار ما هذه الورطة التي
أوقعتنا فيها والداهية التي جلبتها علينا والاحبولة التي نصبتها لنا فبهيات الخلاص
وبهيات الفرار

ولما انتهى من كلامه اخذ يتنهد تنهد الاسيف حتى خيل ان مرارته انفطرت
واما الخبيثة فلم تنطق ببنت شفة كأنها لم تكثر بكلامه ولم تهتم لآلامه فقال لها
ما هذا السكوت لم لا تبدين جواباً

- أي جواب تطلب مني

- ما رأيك في هذا الشأن

- عرفت اني طرحت نفسي في الخطر لكن لا بد باذن الله ان انجو منه

- اذا انت على عزمك

- بل اشتدّ عزمي فلن يتزعزع

- الاتخافين هذا الفتاك

- ربما تيسر له ان يقتلني لكن قلبي لا يهابه وانت تعلم بالامتحان اني لست ممن

يفشل في وقت الضيق ولا ممن يرهبه الوعيد

- ان كان الامر كذلك فلا مفر من قضاء الله فافعلي ما بدالك قال هذا وصوته

يضطرب خوفاً وحنقاً ثم انحنى الى الارض والتقط القرطين الذهبيين اللذين كانت
الدرتان معلقتين بهما ودهسهما في جيبه باسرع من لمح البصر وقال وهو يستشيط
غضباً ويتمرمر اسفاً

يا لك من هندي ضار ووحش كاسر كيف طاوعك قلبك على سحق جوهرتين

فقدنا بهما ١٠٠ دينار ألم يكن اولى بك ان تسلمهما اليّ حين أبت هذه المجنونة

ان تقبلهما

الفصل التاسع

« الدسيسة »

قد ذكرنا فيما مضى ان تنكريد سحر بمحاسن أنيسة غير ان الظروف ارتته مناسبة سلوها لانه رأى ان امل الحصول عليها بعيد وقد اصاب في هذا العزم غير انه قلما يصدق شاب اذا قال اسلو فلانة الفتانة لان القلب دائماً يدعو الى الهوى ولو انكره اللسان وهكذا كان الحال مع تنكريد لان صورة أنيسة لم تكن تبرح من امام عينيه ورسما لم يزل منطبعاً على قلبه فكان دائم القلق لا يقر له قرار ولم تمض عليه ثلاثة ايام حتى شعر ان صبره قد فرغ وأضنته الاشواق ولم يعد يذوق طيب الرقاد لكن قد تعرض للانسان امور تلهيه عن الشغل الشاغل وهذا ما حصل له فيما سيرد

ففي غد اليوم التالي لما دار بين قين وقينة وقارون من الحديث كلب تنكريد قد خرج متنزهاً وعاد الى بيت صديقه السندي فوجد امرأته في شغل شاغل ولبال زائد تدل عليه لوائح وجهها ولحظ انها متحيرة بين التكلم والسكوت فقال لها مالي اراك ايها السيدة مضطربة هل جد عليك شيء يقلقك

- لا يستغني الحال عن طارق مفاجيء لكن لست انا اخبرك به

- ما المانع ومن يخبرني اذاً

- لاني قد بلغت الستين ولم يخطر ببالي يا ولدي ان اسعى في هلاك احد ولا

يمكن ان ابشر بنفسك هذه الفعلة الممقوتة

- ما الذي اسمعه ومن اين يتأني هلاكي

فرسمت المرأة على وجهها علامة الصليب وقالت لا تزدني كلمة

- اذاً القضية متعلقة بي وانت تكتمينها

- نعم بك تتعلق هذه المسألة لا بغيرك لان زوجي والحمد لله قد تجاوز السن الذي فيه تخالف الوصية السادسة ولم يكن وهو شاب ليرتكب هذه المعصية وانا قد امتحنته فضحك تنكريد من كلامها وقال لها لست ممن يشكو سلامة قلب زوجك الطاهر لكفي اذ قد بلغت سن الرشد ولم اتزوج حتى الآن وقد ظهر لي منك ظاهر فيه تلميح الى هذا المعنى فاحب ان تعجلي بابلاغي مرادك

- العفو يا سيدي لا ينطلق بهذا السائي وضميري لا يطاوعني

- الامر بي وحدي متعلق فما يمس ضميرك بشيء واني الحّ عليك ان لا تكتمني عني هذا السر

- رضيت على ان تعلم انك انت اخبرتني فلا يوجبني ضميري اذا اظهرت هذا السر وكانت نتائجك عليك وييلة فاعلم ان امرأة اتت الى هنا وسألت عنك

- من تكون هذه المرأة أصبية هي ام كهلة

- كان احب اليّ لو كانت صبية

- لاي سبب

- لانه من المعلوم ان الفساد والدها من اخص صفات هؤلاء النساء المولدات في هذه البلدة

- اذا ليست من البيض

- لا بل هي خلاسية

- وما تريد مني !

- ما ادري بل قالت تريد ان تكلمك

- ألم تقل لك شيئاً بخصوصي

- سألتني الف سؤال عن احوالك وكان هما الاعظم ان تعرف حسبك ونسبك

ومقدار ثروتك

- وماذا اجبتها انت

- انت تعلم يا سيدي ان الغرباء في بلادِ عليهم ان لا يتكلم بعضهم عن بعض الاكل طيب فاجبتها ان عائلتك من اشرف عيال فرنسا واغناها
- فتبسم تنكر يد وقال ساحك الله على هذه الكذبة اللطيفة اما الشرف فقد صدقت به واما الثروة فالامر بالخلاف
- وانخلاصة انك فهمت الآن ان المسألة لا تعلق لها بهذه المولدة
- هكذا ارى . ثم ما فعلت بعد هذا الجواب
- مضت وقالت انها تعود
- حسناً فعلت
- لكن فليسترح بالك من هذا القبيل فاني اوصي زوجي ان يطردها لثلاث تنقل عليك
- اياك ان تفعل
- افي خاطرک اذاً ان تحدثها
- من كل قلبي
- ما الفائدة
- لاعلم مرادها
- لا يصعب ان تعرف ذلك قبل ان تكلمها وان كنت لا تعرف فانا اقول لك
- تكلمي بالافادة
- لا بد انها اتت لتقرر معك ميعاداً توافي به احدى المتهتكات لكثرة وجودهن
- في هذه المدينة يفحشن ولا يخفن الله ولا يستحيين من عبيده
- سنرى ما يكون من الامر
- ما تقول افي نيتك اذاً ان تمضي معها الى تلك الحفرة
- لِمَ لا
- أقتسمح ان تطرح نفسك في هاوية ابليس
- لا يكون الامر كذلك بل المقصد أن نطلع على عجائب اخلاق هؤلاء القوم

- نعم انها تستحق الالتفات ما لم تخاطر بروحك فلا تعود ترجع الينا او ترجع
مطعوناً بين كتفيك

- لا ترتابي من هذا القبيل

- كيف لا ارتاب وانت لم تنس الى الآن ما حل بك في الامس من الويل

- صحيح هذا لكن مسألتني كانت مع لص اراد سلبني

- نعم وشرع في اهلاكك ولعلمهم هذه المرة يقودونك الى شرك يكون فيه تلفك

ويتخذون هذه الفاجرة احبولة لكيدهم

- قد يمكن

- بل محقق

- لكنني اعرف ان لا أسلم قيادي الى أحد وعلى كل حال احب ان اواجه هذه

المولدة فاذا أتت فلا تمنعها وأمل منك ان لا تخيبي رجائي هذا

- ان خاطر لك وأمرك بيدك وها انا أغسل يدي وانفض طوقى ولو أتى ابليس

بصورته الخبيثة وطلب مشافهتك احضرتة بين يديك

- لك المنة والفضل على كل حال لكن من أين لي ان يترك جلالتة كرسي مجده

في القصور الجهنمية ويخرج الى الارض لزيارة رجل مثلي

فاعرضت عنه وهي تقول في نفسها أسفاً على الشبان المرورين وقد سمعت كاهني

يقول لا يمكن احداً ان يمنع مجنوناً عن اعماله الجنونية وما اراده الا مصيباً ثم التفتت

الى تنكريد وقالت له لا اخالفك يا ولدي لكن خذ لنفسك الحذر فقال لها كوني

براحة بال ولك مني الشكر الجزيل

وبعد هذا الحديث صعد تنكريد الى غرفته في بيت السندري وفتح الشباك

واتكأ عليه مرتفقاً وجعل يسرح عينيه في الطرقات ويلاحظ كل من يمر ذهاباً واياباً

وهو يتأمل في ما عسى ان يكون مقصد تلك المولدة وكان في انتظار رجوعها

كالجالس على الحجر لانه شعر ان رسالتها لا تكون الا غرامية

وطال انتظاره والمرأة لم تعد وقال في نفسه أسأت بخروحي باكراً فلو كنت هنا حين اتت لما فاتني سر هذه الرسالة لكن ماذا ينفع الندم

وكانت الشمس قد قاربت الغروب فيئس من رجوعهما في ذلك الوقت وخرج من غرفته للعشاء فاكل وهو لا يدري كيف يبلغ الطعام لشدة اشتغال باله وحينما خرج من الفندق الذي كان متعوداً ان يأكل فيه كان الليل قد ارخى سدوله فزعم ان يرجع الى غرفته وينام اذ لم يجد واسطة يلهو بها قبل ساعة النوم التي اعتاد ان ينام فيها ولم يكن يعرف احداً من اهل البلد الا السيد يوشع فاستقل ان يطرق منزله في تلك الساعة خصوصاً لانه كان مصمماً ان يسأل حبا انيسة كما سبقت الاشارة واما بيت القمار فكان ايضاً قد كره محضراً لما نال بسببه من الاساءة وبينما هو يتفكر في امر نفسه وقد خطا بضع خطوات اذا بيد قد القيت على كتفه فوق دهباً واذا امرأة تهمس في اذنه قائلة

- أنت هو السيد تنكريد النجكي الشريف الفرنسي

- انا هو بعينه

- فارجوك اذن ان تبغني على ان تبقي متأخراً عني خطوات

- اين تذهبين بي

- الى منزله المائدة وهو قريب من هنا

- ما الغاية

- اقدر ان اكلك حيث لا رقيب

- انت اذن التي اتت اليوم تسأل عني

- انا نعم

- وكيف عرفتي الآن ولا عهد بيننا قبلاً

- لا تعجب من هذا لاني لما اتيت منزلك لم ار من صاحبة الدار الا الخشونة

فما عاد في استطاعتي ان اعود الى هناك فبقيت مترصدة الى ان رأيتك خرجت

ودخلت هذا الفندق فشكثت ريثما خيم الظلام واذا بك مقبل

- حسناً فعلت فامضي امامي

فسارت توسع الخطوات في اقرب طريق يؤدي الى منزله المائدة وهو يتبعها
برجله وعينه لئلا يخفيها الظلام اذا سبقته . وبعد نحو عشر دقائق وصلا فقال في
نفسه كيف يمكن ان تخلوبي في مكان كهذا لا يزال غاصاً بالتنزهين من رجال
ونساء والانوار ساطعة حتى تجعل الليل نهاراً . غير ان ظنه لم يصب موقعه فان
المولدة شقت ذلك المنزه حتى وصلت الى خيمة تبعد عنه مسافة في طريق رحب
وظل الاشجار هناك حالك لا تحرقه الانوار وحوها فسحة لا يمكن ان يجتازها احد
الا مكشوفاً للجالس تحتها . ثم جلست المولدة على رصيف من الحجارة وقالت لتتكريد
- هوذا الجو قد خلا لنا ولا نخاف رقيقاً

- ارى ان هذا السر في غاية الاهمية حتى تحذرين كل هذا الحذر

- لا شك في ذلك ولا يمكن ان يكون سرهم منه

- ما عسى ان يكون

- انما يتعلق بشرف امرأة

- هل اعرفها

- لا بل هي تعرفك وتريد لك خيراً

- هل تكون مولاتك

- انت قلت لكن لا تحسبني أمة بل انا حاضنتها ولا تقدر ان تتصور شدة

خلوصي لها

- كيف تعرفني واين رأيتني

- هي تفيدك اذا سألتها واما انا فلا اعرف هذا بل كلفتنى برسالة علي ان

أؤديها والسلام

- اصيبة هي

- لم تتجاوز الثامنة عشرة
 - وهل هي جميلة
 - ابهى من فريدة العقد
 - او ذات بعل هي ام بيدها زمامها
 - ما من شأننا هذا البحث الطويل الآن
 - المعذرة . لكن ماذا عسى ان تريد مني
 - خلوة ساعة
 - حباً وكرامة فليست ممن يمنعها
 - أفليست فرنسويًا فقد كفى فانكم مشهورون بالملاطفة والتودد
 - اشكر فضلكِ وها انا بين يديكِ ولو قدتني الى النار
 - بل الى جنة ونعيم لو كنت تدري
 - هذا مما يزيدني رغبة فمعجلي رحمتك الله
 - خفض عليك يا سيدي فلا يكون اللقاء هذه الليلة
 - ما المانع فقد ضاق صدري وفرغ صبري
 - ليست مولاتي ممن يحب العجلة في الامور بل دأبها التأني والتدبير وفي الامر
- مسألة شرف وحياء
- الى متى انتظر وانا على مقالي النار
 - لا يطول زمن اصطبارك اذا اقسمت لذي القسم الذي اسألك
 - اي قسم تحبين
 - تحلف لي بشرفك وایمانك انك خالي الفؤاد من الهوى
 - فسكت تنكريد هنيهة فقالت
 - ليم لا تجيب أفي الامر رية
 - لا رية لكن ليس الحلف صدقاً او كذباً من دأب الشريف الاديب ومع

ذلك كيف انكر ان الهوى لم يخامر فؤادي قط

قال هذا وقد ذكر ايام صبا بآته الماضية وما داخل قلبه من هوى أنيسة

- لا يهم مولائي امر الماضي وانما تسألك عن الحال أخلي أنت ام مشغول الفؤاد

ففكر تنكريد في نفسه ورأى انه من حين ذكرت له هذه الصبية التي هي أبهى

من فريدة العقد سلا خاطره حب أنيسة ومحبت محاسنها من مخيلته كما تمحو اليقظة

آية المنام فقال

- أقسم لك بشرفي وإيماني المسيحي اني طليق من قيد الهوى برئ من كل

عهد امرأة

- هذا هو المطلوب

- فمتى عهد اللقاء

- الليل القادم

- من يأخذ بيدي

- أنا

- اين تجدينني

- في هذا المكان عينه على هذا الرصيف تحت هذه الخيمة . توافيني بلا تأخر

ولا تردد

- في اية ساعة

- نصف الليل

- لم لا ابكر

- هذا ما تقتضيه الحال . فلا تسألني اسئلة لا يمكنني الاجابة عنها . استودتك الله

- لا تعجلي الكربة فان في وجودك مفتاح املي

- صدق من قال يا سيدي ان الفرنسيين الطنف الامم واكرمهم انسا

فمد تنكريد يده الى جيبه واخرج دينارين وقال تكرمي بقبول هذه اللهنة (١)

(١) اللهنة الشيء القليل الذي يتعلل به قبل الطعام . كنى به عن اوائل الهدية

- معاذ الله يا سيدي ما هذا من شأني
 - هذا من العجب اولست ممن يستحلّ الجزاء
 - كلاً يا سيدي فان مولاتي واسعة الثروة سبطة البنان وقد اغرقني في بحار
 نعمتها حتى لا تطمح نفسي بعدها الى شيء من متاع الناس . ومع ذلك فلست
 اخدها حباً بالمال بل على سبيل التكرمة والخلوص . استودعك الله الآن واصبحت
 على خير . ولا تنس ميعادنا في مثل هذه الساعة لا تقديم في الاجل ولا تأخير وهنا
 اسلم اليك مفاتيح النعيم
 ثم مضت في سبيلها حتى غابت عن نظره فبقي في مكانه حائراً مبهوتاً



الفصل العاشر

« قرة العين في لقاء الحبيب »

ولما عاد تنكريد الى منزله احبب ليله يسامر النجوم ويعدُّ على الدهر الذنوب
 وما صدق ان طلع الصباح حتى خرج هائماً في شوارع المدينة غارقاً في بحار الهواجس
 يضرب احماساً لاسداس يحسب الدقائق ساعات والساعات اياماً وهو كل لحظة
 يكشف ساعتَهُ ويود لو خسر من سنيه بمقدار ساعات ذلك النهار الطويل على ان
 ينصرف في لحظة او لو انه استطاع حرّ الشمس الى المغرب بجبل من اعصابه . وكان
 كلما فتح الساعة ولم ير العقارب جارية على الميناء يظنّها قد وقفت فيقربها من اذنه
 ويخفق فؤاده على تكلمها

ولم يزل في اشد القلق حتى تقضى النهار وهو لا يكاد يصدق وا قبل الليل
 الدامس عليه بوجهه الصبوح لكنه استطال الساعات الباقية الى نصف الليل اكثر
 مما استطال ضعفها من ساعات النهار ولكي يرمي غرضين بسهم واحد راي ان
 يقطع الوقت بتأهبه للقاء فضى الى غرفته وغيّر ملبسه واتقن وضعها وتضمخ بالاطياب

وعطَّر مندبله وتوجه وقلبه دليله في طريق منزله المائدة فوصل وقد بقي من الوقت ساعة وصارت الرجل تخف والمكان يقفر الى ان خلا من كل انيس واتهمت الكنانة الى الازرع (١) ولم يعد يسمع صوتاً الاً حفيف اجنحة الخفافيش ولا يرى نوراً الاً لمعان الجباحب (٢) وقد بقي من الوقت نصف ساعة فجلس على الرصيف وقلبه يكاد يتمزق بسيف الانتظار وهو يقول ما اطول الدقائق وما أمر الانتظار حتى اذا حان الاجل نهض متمشياً وهو لا يصدق بوفاء الوعد وحينئذٍ ظهر له خيال مبهم يلوح بين الاشجار ففحق فؤاده وشخص بعينه وفتح اذنيه واذا بصوت المعودة يقول

- اترى اني اتيت في الوقت المعين واظن اني لم اكلفك حرقة الانتظار
- صدقت غير اني انا سبقت الميعاد وما ظننت ان النهار ينتضي عليّ وانا في قيد الحياة

- ما ارق هذه المغازلة لو اسمعتها مولائي
- بايبك الاً اخبرتني هل احظى بالسعادة هذه الليلة
- لا يداخلك ارتياب فهي الآن في انتظارك
- هيأ بنا عجلًا . لا تُفتد دقيقة واحدة
- هلمّ ورائي وشمر الذيل
- ابعد المكان
- ربع ساعة

فسعت امامه الى ان خرجت من حدود المائدة وحينئذٍ وقفت واما هو فكان يود لو ان له جناحين فقال لها لم هذا الوقوف فلم تجبه بل صفرت صفرة رقيقة مستطيلة واذا بحركة بعيدة متظمة تقوى كل لحظة وهي تقرب وفي اقل من دقيقة وصلت عجلة يجرها فرس كريم ولم تكن منارة فلما وصلت قالت المولدة لتكريد

باسم الله فاركب فوثب وثبة الملتاح وجلست هي بجانبه وعادت العجلة في طريقها الى ان قاربت مكاناً مسوراً باسوار عالية وداخل الاسوار اشجار كبيرة فقالت المولدة لتكريد قد قربنا فأدز الي وجهك ثم اخذت عصاها ووربطها على عينيه فقال ما هذا العمل قالت هكذا أمرت

فقال في نفسه لا يخلو الامر من ريبة والآن يسهل على كل انسان ان يطعني من الورا والامام على حدٍ سوى ولا اقدر ان ادافع عن نفسي لاني اعزل (١) معصوب العينين ثم امرت المولدة السائق فوقف وقالت لتكريد بصوت يشعر بالهكم والاستخفاف ان كنت قد استهجننت (٢) عصب عينيك او اوجست في نفسك خيفة او توهمت انه نصب لك شرك وارتد الرجوع فقل في الحال فارجع بك الى حيث كنت فاذا علمت مولاتي انك ضعيف القلب فاني اؤكد لك انها لا تتأسف على فوات لقائك ولا تعود تفكر بك . فقال في نفسه قاربنا آخر الطريق أفلا تنتهي الى غايتها وفضلاً عن ذلك ليس لي في هذا البلد من اخشي تقمته ثم قال للمرأة

- لا يعترني الخوف قلب مثلي وما الداعي للخوف فما انا بين يديك فافعلي ما بدا لك

- لا تظن ان هذه العصا تبقى على عينيك ومتى دخلنا الدار ترفها ثم صاحت بالسائق فتقدم ولم تمض خمس دقائق حتى وقف فقال تنكريد هل بلغنا المكان قالت نعم وانا امشي امامك فتوكأ علي لئلا تعثر ثم تقدما خطوات واذا بفتح يقلقل ضمن قفله وبالباب قد انفتح فدخل وشعر انه يدوس على رمل فعرف انه ممشي الجنيحة وكانت افنان الشجر تلطم وجهه لظماً خفيفاً واحس برطوبة تدل على كثرة الخضرة وبعد ان تقدما نحو مئة خطوة قالت له اتبه فامامك سلم بست درجات فلما صعد السلم فتح باب آخر فدخل وعرف

انه يمشي على بساط ناعم وقد عبت في وجهه الروائح العطرة وسحبت المرأة يدها من يده وقالت قف قليلاً واذا بابواب تفتح وتغلق ثم لم يعد يسمع حسيباً وبعد خمس دقائق سمع صوت المولدة يقول له من مكان بعيد يا مولاي ارفع العصا عن عينيك فلم تم كلامها حتى انتزعها واخذ يجيل نظره في ما حوله فلم ير لانه وجد نفسه في غرفة مظلمة لكن بعد هنيهة لمح شعرة من النور منبعثة من شق باب غرفة داخلية فتقدم ووقف امام الباب متردداً عن فتحه فسمع صوتاً رخبياً يقول ادخل يا سيدي ففتح الباب ودخل ثم وقف مبهوراً مندهلاً كأنه رُبط بطلسم وانعد لسانه ولم يستطع حراكاً لانه رأى في اليقظة ما كان يظنه اضغاث احلام وانه فوق ذلك حصل على ما لم يكن يخطر بباله

فجعل يتأمل في المكان الذي دخله فاذا هو في غرفة متوسطة السعة مفروشة بالمنسوجات الهندية الموشاة بالصور والقوش وعلى دائر الغرفة آنية صينية فيها اشكال والوان من الازهار والرياحين النضرة واربع شمعات موضوعة في شماعدن من زجاج وردي اللون وسرير معلق بجبال من الحرير عليه فتاة متكئة بهيئة تسحر الالباب ولا حاجة الى تنبيه القارئ ان تلك الفتاة هي نفس قينة ام الدواهي وفاتنة الالباب وقد زادها رونقاً وبهاء ما كانت فيه من الابهة وجلال الزينة والتبرج ولياقة الملابس فكانت لابسة ثوباً من الشاش الابيض الناعم مخططاً بخطوط عريضة من الحرير الاحمر يظهر من اعلاه صدرها وكتفاها وذراعاها وقد ارسلت شعرها الحريري فالتوت غدائره على كتفيها وانتشرت وراء عنقها كحجاب من القطيفة وراء اسطوانة من البلور وفي عنقها عقد من المرجان يتلألأ لونه الاحمر في مياه ذلك الجيد الصافي وفي معصمها اساور من المرجان ايضاً كالليل الورد على عمود الياسمين وبين نهدبها زهرة كبيرة من الورد الجوري تقول لمن يراها

قل للأولى عشقوا الجمال تأملوا في قامة يعنو لديها البان
غصن ولكن فاعجبوا من حمله الزهر وردن والجني رمان

وفي يدها اليمنى مروحة خفيفة من الريش الابيض في صدرها مرآة مستديرة وقد نظرت الى تنكريد نظرة الغنج والدلال وبسمت عن ثغر كأنه اللؤلؤ في المرجان وبقي تنكريد حائراً في جمالها ذاهلاً بجلالها دهشاً من لطفها واعتدالها جامداً شاخصاً في محاسنها وكان لسان حاله يقول

من سحر عينك ذهلي وهي ترمقني ففعله من جهاتي الست مكتنفي
ومن ثناياك درّيتهُ عجباً من ارجوان بدا في رقة الصدف

حتى كاد يسقط على الارض جائئاً لهذا الجلال الفخيم واما هي فلما رأت ما حلّ به من الوبال تبسّمت تيمهاً لما علمت في نفسها من العز والدلال وارادت ان تطيل وقوفه على هذه الحال حتى لحظت ان صدره قد ضاق وروحهُ قد بلغت التراق فقالت له بصوت أصفى من الزلال وارق من السحر الحلال

- تقدم يا سيدي ان كنت تحب

- ما ادري أفي يقظة أنا أم في منام فدعيني في ذهولي وانا في هذا النعيم فعندي الدقيقة من هذه الغيوبة التي يتجلى لي بها المجد السماوي افضل من الف عام في هذه الحياة الدنيا

- بل في يقظة انت وانت تراني وانا اكلك وان لم تصدق فهذه يدي جسها فتغنيك عن البرهان

فمد يده وامسك اناملها النحيفة الترفة وقبّلها بوجد واحترام فقالت له

- كيف رأيت أيقظة هذه ام اضغاث احلام

- لم يبق يا مولاتي محل للريب وقد علمت الآن اني ارى بعيني سيدة الملاح وما ادري من اين حصل لي هذا الشرف ولا كيف وقعت في هذا النعيم والحق يقال انه من غرائب الاتفاق

فاشارت الى كرسي بجانب سريرها وقالت له

تفضل يا سيدي واجلس فان لي معك كلاماً طويلاً غير اني احب ان لا يخامر

قلبك اني من بنات الربية وسينجلي لك الامر

- حاشا يا مولاني حاشا لجلالك من هذا المقام

- اراك قد اغتررت بحسني وجمالي فلا يسمعك الا ملاطفتي والتظاهر في اعتباري

لكن لا بد ان الظروف التي اوصلتك الي بدعوة خاصة مني توقع في نفسك اوهاماً

- كلا يا سيدتي فاقسم اني اجل مقامك واترامى على اقدامك

- مها قلت الآن لا اصدق ان الوهم ينفي من فكرك على اني اعرف مقامي وانك

لا تتظاهر الا باكرامي لكن اذا سمعت ما سأحدثك به بالحرية التي تقتضيها ظروفي

وانت لا تعلم من أنا اخاف ان تظني واحدة من هؤلاء المخاتلات الكثيرات في

هذه المدينة فارجوك ان تسمع كلامي الى النهاية واخيراً تجيبي كما تريد

قالت هذا وتبسمت تبسماً سحرياً وكانت كل كلمة تنزل على قلبه كبارد الماء

وكان شاخصاً اليها ومعلقاً كل حواسه عليها ثم قالت اعلم اني فتاة اسبانية شريفة

الاصل وفي نسبي عرق دسّاس من سلالة ملوك الاندلس واما ثروتي فانا نفسي

لا أعرف مقدارها ولم أتجاوز الثامنة عشرة من عمري وقد أتيت هذه البلاد من جهة

جبال برنات فان كان دمي اندلسياً فقلبي فرنسوي وحب فرنسا أرضعته مع لبن أمي

لما نالت بين الدول من شرف فرسانها وشجاعة ابطالها وعزّة نفس اشرافها وحذقهم

ولطفهم وكنت منذ صباي موطنه نفسي على ان لا ادع قلبي يميل الا لرجل

فرنسوي والسلام

ثم سترت وجهها بالمروحة تظاهراً بالحياء ثم قالت

- وقد رأيتك وانت من اشراف فرنسا . . .

فطار فؤاد تنكريد عند سماعه هذا الكلام وجثا امامها وأخذ يدها وقال متلبياً

- وقد احببتني . . . آه يا سيدتي ارحمني اسيرك ما هذا الكلام المنعش الذي

اسمعه كرري على سمعي كلامك وزيديني هذه الكلمة التي فيها سعادتني « وقد

أحببتك » فاسمعا ولا اصدق فليس بها حد لسعادتني

فحرك قينة شفيتها القرمزيتين وتمتمت وكان تنكر يد مترصداً بجميع قوى عقله كل حركة في وجهها فلم يخف عليه سر شفيتها وعرف انها قالت « وقد احببتك » وراها في الحال كسرت جفניה وانتشر الدم في وجنتها ثم سكت كل منهما كالماًخوذ وصار نهدا قينة يرتفعان ويهبطان بحركة متواترة ويدها ترتعش في يد تنكر يد واما هو فلم يعرف ما يتكلم ولم يجد عبارة تفصح عن فرجه ووجده ولم يعد يسمع الا خفقان قلبيهما

ثم عادت قينة الى سكينتها وسكن جاشها وملكت نفسها فافتحت الكلام وقالت والذي دعاني الى هذا الحد من الجسارة حتى دعوتك اليّ وفتحت لك صدري واطلعتك على سرّي انما كان فرط الحب الذي تملكني منذ رأيتك عند دخولك هذه البلدة وكنت الاحظ حركاتك وسكناتك وراقب خطواتك وكثيراً ما وقع نظرك عليّ ولو تفرست فيّ الآن لخطر في بالك انك رأيتني قبل الآن واذا ضاق صدري وفرغ صبري ولم يعد في طاقتي تحمل اشواق طوحت بنفسي في هذه التجربة خلافاً لما يقتضيه شرف النفس فان كنت قد اخطأت وارتكبت محظوراً فخبك هو السبب وعلى كل حال ارجو المعذرة

وكان تنكر يد لم يزل جانياً امامها ففتح ذراعيه ولوى عنقه وتغرغرت عيناه بالدموع وقال آية معذرة تطلبين يا قرة العين أخطأ فعلت معي اذا اوصلتني الى نعم لم يصل اليه احد قبلي اذا صح فألي فما اراني الا فاقد الرشد واخاف ان اختلف واخشى ان لا يكون هذا التظاهر منك الا على سبيل المزاح والتهمك لانه هكذا حسن لديك ان تعذيني وتسري بلوعتي وتحرقني بنار حبك قلباً قد صار رهين امرك فاجابته بركة ولطف قائلة يسوءني جداً يا عزيزي ان اراك مرتاباً بصدق كلامي ألق عينك على عيني فالعيون مفتاح القلوب أفلا يكون قلبك دليلك وان استطعت فادخل قلبي وانظر اي رسم به
اظن اني لا ارى غير رسمي

- الحق قلت فلو لم اكن اتعشقت فكيف كنت اتصلت اليّ لكن بقي عليّ ان
اسألك هل تحبني انت كما احبك

- من كل قلبي ومن كل نفسي ومن كل قوتي ولو فديتك بحياتي كانت قليلة في
جانب لطفك

- ايطول زمان هذا الحب

- الى الابد

- هل تخلف لي

- بشرفي وحبك اقسمت

- كثيراً ما سمعت النساء من لسانك هذا القسم ...

فاحمر وجهه تنكريد خجلاً واجاب جواب الرزين

- لم تسمع مني امرأة هذا القسم

- لا تقل ما لا يصدق

فاحترار في امره وكاد يفحم ثم قال

- اما وقد برح الخفاء فانا اعترف لك اني حلفت مرات ان احافظ على الحب

لكن لم اعيد نفسي بما يضطرني الى الوفاء مدة حياتي

- واما الآن

- واما الآن فقد اقسمت بشرفي ويشهد عليّ الله اني لا احنت بمثل هذا

القسم العظيم

- قد وثقت بكلامك وصار عيشي هنياً وعلمت انك تحبني وانك ستحبنى وانك

سلمت اليّ قلبك . اصدقك واشعر شعورك لكن بقي ان اسألك سوّالاً واحداً ان

كنت تسمح فقل لي اليقين هذا القلب الذي تسلمه اليّ من اي زمان اخليته

من غيري

- منذ اشهر عديدة بل منذ سنين

- أَلْحَقْ مَا تَقُولُ
- وَحَيَاتِكَ هُوَ الْحَقُّ
- أَوْ لَمْ تَمَلْ إِلَى جَمَالِ أَيْنِسَةَ
- فَبَاضْطِرْبِ تَنْكْرِيدَ وَخَفَقَ فَوَادَهُ عِنْدَ سَمَاعِهِ فَجَاءَ اسْمُ أَيْنِسَةَ وَقَالَ
- مَا هَذَا الْخَبْرُ مِنْ أَعْمَلِكَ بِذَلِكَ
- قُلْتَ لَكَ إِنِّي كُنْتُ أَر_اقِبُ كُلَّ خَطْوَاتِكَ وَلَمْ تَخْفَ عَلَيَّ مِنْ أَحْوَالِكَ
- خَافِيَةٌ فَاصْذُقْنِي ٠٠٠

- الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ بَلَاءُ رِيَاءٍ وَقَعَتْ عَيْنِي مَرَّةً عَلَى هَذِهِ الْفَتَاةِ وَذَهَلَتْ بِمَحَاسِنِهَا
لَكِنْ لَمْ أَجِدْ فِي نَفْسِي هَذَا الْمِيلَ الدَّاخِلِيَّ وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِ مَحَاسِنُ أَيْنِسَةَ مِنْ مَحَاسِنِكَ .
الْفَتَاةُ أَلَسْتَ تَكْسِفِينَهَا كَمَا تَكْسِفُ شَمْسُ الضُّحَى نُجُومَ السَّمَاءِ

- أِذْنٌ لَا تَحْبِهَا وَلَمْ تَحْبِهَا

- كَلَّا

- الْحَمْدُ لِلَّهِ فَقَدْ أَرِحْتَ بَالِي وَمِذَّ الْآنَ يَكُونُ لِي فِيكَ الثِّقَةُ التَّامَةُ وَلَنْ يَكْدُرَ
صَفَاءُ فَرْحِي شَيْءٌ مِنْ ضَبَابِ الْوَهْمِ فَاسْمَعِ الْآنَ مَا أَقُولُ لَكَ وَلَا تَتَوَهَّمْ فِي كَلَامِي
مِدَاهِنَةً وَلَا غَشًّا فَاعْلَمْ إِنِّي فَتَاةٌ عِذْرَاءٌ لَمْ يَخَامُرْ قَلْبِي حُبُّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ قَبْلَكَ وَمَا
كُنْتُ أَعْرِفُ مَا الْهَوَى حَتَّى رَأَيْتُكَ فَشَعَرْتُ بِخَفَقَانِ قَلْبِي الشَّدِيدِ وَتَحَقَّقْتُ أَنَّهُ طَارَ
إِلَيْكَ بِجَنَاحِ الْوَجْدِ وَلَمْ أَحَاوِلْ أَنْ أَعْصِيهِ لِأَنِّي كُنْتُ كَمَا رَأَيْتُكَ أَشْعُرُ بِلَذَّةٍ لَا تَقَاسُ
مِنْ حَرَارَةِ الْجَوَى وَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ عَرَفْتُ فِيهَا مَا الْهَوَى

الفصل الحادي عشر

« بَغْتَةُ الْمُحْتَالِ »

وَيَذِمُّهَا قَيْنَةٌ تَكَلِّمُ تَنْكْرِيدَ بِذَلِكَ الْكَلَامِ الدَّالَّ عَلَى شِدَّةِ الْوَجْدِ وَقَدْ رَأَى نَفْسَهُ
مَسْحُورًا مَأْسُورًا ثَمَلًا مِنْ خَمْرَةِ لَطْفِهَا وَقَدْ أِزْمَعُ أَنْ يَجِيئَهَا بِكَلَامٍ يَدُلُّ عَلَى تَزَايُدِ حَرَقَتِهِ

وتعاطم لوعته وتفاقم علته اذا بالمولدة قد وصلت فجأةً فقطعت جهيزة (١) قول
كل خطيب

فقال لها قينة وقد انكرت امرها

- ما دخولك هنا ولم تدعي

- صه . على اثري . لعله مرتاب . في دقيقة يفاجئنا

فارد وجه قينة من الخوف وارتبكت في امرها ووثبت من سربرها . واخذت
المولدة يد تنكريد وجرتة الى الباب وقالت له عجل يا سيدي عجلًا . فبهت من
هذه البغته والتفت الى قينة . فاقتلعت زهرة الورد من صدرها ومدت يدها بها اليه
وقد ضمت اناملها على شفيتها كأنها تقول هذه قبلة الوداع ثم قالت له احبني فاحبك .
فاخذ الزهرة وضمها وشمها . ثم سارت به المولدة ودخلت به غرفة مظلمة وارخت
ستار الباب واراد ان يستفهم فقالت ما الآن وقت السؤال فاجس نفسك ان
استطعت . ثم خرجت به من تلك الغرفة الى دهليز نافذ الى ممشى الحديقة وحينئذ
اعادت على عينيه العصابة على غير لزوم لان الغريب لا يمكن ان يهتدي الى مداخل
سرية في مثل ذلك المنزل وتلك المدينة التي لا عهد له بها قبل ذلك الوقت وعلى
الخصوص لانه دخل البيت ليلاً وخرج ليلاً وقد فقد رشاده وخرج لا عقل ولا
قلب من شدة الهيام والدهشة . وكانت الطيارة واقفة على خطوات من باب الحديقة
فركباها وسارت بهما كالبرق

فالتفت تنكريد الى المرأة وقال لها أليس الآن وقت السؤال

- سل ما اردت

- لم هذه الغرة السريعة هل شعرت بايها او زوجها

- لا بل باخيها

- وهل تخافه جدًا

(١) جهيزة اسم امرأة وهذا مثل لانتقطاع الامر الحادث

- اكثر مما تظن
- هل يبغضها
- لا بل يحبها جداً لكن على هواه
- ولم اضطربت وارتجفت • هل يتوقع منه خطر
- أشد الخطر • فاذا عرف ان غريباً كان عندها قتلها لا محالة
- اذاً هو وحش كاسر خيث شرس الطباع الى ما لا حد له
- لا بل صعب الخلق عنيف يدعي الشرف ولا تكفير عنده للذنوب الا

بسفك الدم

- لكن ما ارى لها ذنباً الا اذنب صُحر (١)
- وهو كافٍ عنده لقتلها . ومع علمها بذلك خاطرت بنفسها وادخلتك عندها
- وانا الآخر ارى من اسهل الامور بذل روحي دونها
- وحينئذ وقفت الطيارة وقالت وصلنا ورفعت العصا بة عن عينيه فحولت حوله
- كالحائر ورأى علي نور النجوم اشجار منزه المائدة فقال للمرأة
- اذن هي الآن في خطر مبین
- لا خوف عليها
- كيف تقولين انه شديد عليها
- قلت لك هذا ثم رجعت عنه لاني عرفت ان البرهان لا يقوم له ومجرد الظن
- لا يؤدي به الى الاثم . فالآن استودعك الله وكن مطمئناً
- لا يمكن ان تفارقيني على هذا القدر
- ألك سؤال آخر
- أحب ان القاها ثانية
- كل امرك الى التيسير

- بل ذلك اشد لزوماً من النوم
- عسى ان يكون
- متى تعديني
- لعلّ الرجاء قريب
- عاهديني على الوفاء واضربي لي ميعاداً
- لا يمكن الآن وسأفعل . استودعك الله
- قفي قفي . كلمة واحدة
- هات
- كوني اقسى قلباً من الجلود فلا بد ان ترحمي ضعفي وترثي الوعتي وانت
- تعرفين ان طول الاجل هلاك لي
- الصبر شيمة أولي المهمم
- وما يفعل من ذهب الهوى بهمته
- يفعل قول الشاعر (١)
- اذن اموت
- هه هه . لا بأس عليك
- انت رجائي وملاذي واحسبها ما حسبت
- انت اعز من أخي فهلاً لعل مع العسر يسراً
- افيدني بحياتك ما اسم هذه الغزاة السماوية
- اسمها قينة (١) . والسلام
- ثم سارت الطيارة في اقل من طرفة عين
- فتأمل في هذا الاسم العجيب وهو كالسكران من خمرة الغرام . . . قينة . . .

(١) اذا لم يجد صبراً لكتمان سره فليس له شيء سوى الموت انفع

(٢) القينة المغنية وبه سمينا الفتاة وبالمشاكلة سمينا اخاها قيناً

ما أطفئه واحلاه . . . واهأ له . . . قينة انا قتيل هواك . قينة رفقاً باسير العيون .
تم تنهد وأنشد

يا من ملكت فؤاد صبٍ ناحلٍ لا غرو ان تعرض عن الجسمانِ
القلب جسّمهُ تزايد حبكم لكن ضُني جسمي من الهجرانِ
يا ليتهُ وقع التبادل فيهما فأخذت جسمي وأتركت جناني
وكانت قينة بعد خروج المولدة وتنكر يد من غرقها قد عادت الى هيئتها الطبيعية
من الانس والابتهاج ووقفت تنقر بأصابعها وترقص كأنها قد قضت وطراً من اعظم
الاطوار ونالت السعادة التي كانت ترجوها واذا باخيها دخل فقالت بنفسها علي
سبيل التهمك هو ذا الوحش الضاري قد جاء يقطع جبل التلذذ بالغرام ثم تظاهرت
لهُ بمكرها وريائها بالانكسار والتذلل وجثت على ركبتيها ورفعت نحوهُ يديها وشبكت
اصابعها وقالت وكان صوتها يتقطع بالنعيب والتنهد

آه يا أخي ارحمني . رفقاً بحالي انا الشقية البريئة من اللوم لا تعجل بنعمتك قبل
الوقوف على الحقيقة . انظر اليّ خاضعة متذللة منكسرة الفؤاد مترامية على قدميك .
لا تنزل عليّ غضبك الشديد واخذ جمرة رجزك . ارحم صوتي وصبائي ولا تقصف
غصناً نضيراً قبل اوانه . اقسم لم أدنس شرفك ولا ركبت عاراً . اقسم عليك بتربة
أبيك وأمك ان تلين بالرحمة قلبك وتعامل بالرفق شقيقتك . ولا تسفك دمًا نقياً .
ما جنيت اثمًا الاّ اني ارتبطت بسنة الله الطاهرة . على اني لم اغض طرفاً عن
حسبك ونسبك . والذي عاهدته شريف النسب طيب الذكر عزيز النفس شهيم
كريم لا يكون الاّ من أمثالك . أحببته وما بيدي قيادي . اما سمعت قول الشاعر
سبحان من طبع القلوب على الهوى فتراه يقصدها وان لم يقصد
لا خير في قلب ولا شغل ولا وَلَه فذلك قطعة من جلمد
قل لي يا أخي يا عزيزي قد صفحت عن زلتك وأنت تعتمدها زلة . قل لي

لك الامان

وكان قين يسمع ويرى هذا التشخيص العجيب وهو يضحك ثم صفق بيديه
تبهماً وقال ايه يا قينة احسنتِ وأبي وأمي . قد كدت أتهم الحقيقة بما أتيت من
حقيقة الظاهر . فلا يشك من براك في هذا الانكسار ويراني هكذا عابساً مقطباً
حاجبي ان الامر واقع . فدتك بنات طبق (١)

ويك يا أخي اما عرفت الى الآن اختك أو عندك ريب في مهارتي . فاجدح

من هذا السويق (٢) اذا فاتك الخبز

- بل لا يفوتنا وحياة عينيك لك كل ما تحتاجين اليه
- اكنت بمسمع منا
- كيف لا . كنت هنا وراء هذا الستار
- او رأيت اني اجدت الصنيع
- غاية الاجادة . او ما تريني اكاد أطير فرحاً وطرباً
- ما قولك الآن في هذا الفتى
- أراه خرج لا يملك عقلاً ولا قلباً
- اذاً تيقنت فوزي فهل لك ما تقول
- مالي أن اقول الا كل ما يرضيك . ولا آسف بعد على الف دينار ولا اضعافها
وهاكل مالي بين يديك . خمسة آلاف دينار رهن اشارتك
- قه قه قه . الآن علمت انك قنعت وارتضيت وايقنت انك ستفوز بالعشرة
الآلاف التي وعدتك بها
- وأظنني أربح اختي ايضاً . أفي هذا خلاف
- تباً لمحققك
- وقد احسنتُ التدبير كما أحسنتِ فلا فضل لك عليّ
- ما صنعت

- سعت في استئجار هذا المنزل باثائه . هذا الذي غرّ فتاك وأيد برهانك عن ثروتك وشرفك . وقد وفقتك بهذه المولدة برنيقة التي ليس مثلها في دواهي هوانة . واستأجرت طيارة ليس احسن من شكلها وبالاجمال فقد اعددت لك كل ما يتكفل بالنجاح

- هذا هو الفضل الاعظم ولولا همتك يا ابا المكارم لم يتيسر لنا التوفيق
- واني على ثقة يا شقيقتي قينة بصلاح قلبك واستقامة نيتك حتى اذا حصلت في ما تمهدين له الطرق لا تبرحيني من بالك وتذكرين عهدك بالدنانير جزاء لخدمتي الجلي

- ويح جنونك ونكرك . الى هنا اتصل بك الوهم
- احب الي ان اودع فكرك هذه الخطيئة (١) فكل انسان يسعى لصالح نفسه
- وانا الآن اسعى في صالحني فاني اسمع عصافير بطني يتصايخن جوعاً والفجر قريب هيباً بنا للعشاء

- هذا هو الحق . اتحب السيدة تنكريد ان تستند الى ذراعي
فعلت ودخلا قاعة الاكل وجلسا يتهمان الطعام وكانت هيئة قين حينئذ تودن بلمحة الشرف والاعتبار لانه كان قد غير لباسه ورفع العصا عن عينه المكارة ولبس لباساً لطيفاً نظيفاً كلباس الاشراف فمن رآه لا يظنه الا سيداً شريفاً وان كان قبح صورته وشحوب وجهه وشناعة تقاطيعه تشير الى طبعه العياري
وبعد ان امتلاً عادا الى الحديث فقالت قينة

- أترى آمالي تحققت ونلت اذبال السعادة باناملي . وفي الليلة القادمة اكون عروس الشريف تنكريد النجكي

- يلوح لي يا قينة انك اوسعت الخطى وحلقت من السلم درجات بوثة واحدة
- ما معنى هذا الكلام

(١) الخطيئة السهم الصغير أشار الى قول المثل هذه احدى حظيات لقمان ومراده انه يؤمل بالطير بعدها

- اسمي اوضح لك . بينما كنت في بلادنا احاول تفريج الهموم بصيد السمك
كنت لاحظ ان السمكة اذا علقت بالصنارة وسحبها بعنف ينقطع الخيط او
تنكسر الصنارة وتفر السمكة لكن اذا سحبها رويداً تبقى الصنارة ناشبة في حلقتها
وهي لا تفلت . افهمت الآن

- مرادك اذن ان لا اعجل في الامر حتى تتمكن صنارتي من خياشيم الفتى
- هذا هو الصواب على ما ارى فاذا تركته اربعة ايام او خمسة ولم تصله اخبارك
فاذا استدعيتك ترين انك قد ملكت فضلة حواسه وانشبت في شرك سحرك
- صدقت صدقت ولو في الانتظار حسرة

- الحمد لله هذه اول مرة سمعت امرأة تدعن للصواب وتنطق عن هددي
- ومن استمد من نورك يا داهية الدواهي لا يعدم رشداً
ثم صمتا برهة وهما يتأملان في الاحوال ذاك يحسب الغنى بالمتى وتلك عادت
بها الوسواس الى الماضي فقالت له

نحن الآن على تديبرنا واما قارون ذلك الخبيث ما ترى حصل من امره وهو
يذهب الى البيت ولا يجدنا وهل تظنه باقياً على عزم النعمة
فلما قالت هذه اكد وجهه قين وسكت مذعوراً واجال نظره يمينا ويساراً
كالخذر المتوقع الشر . ثم قال لاخته

ويحك يا قينة ما هذا العلقم الذي دسسته في كأس الخلاوة وما مقام هذا اللعين
هنا حتى تذكره فاني كلما تصورتُه وذكرت وعيده لا اقول الا كابوساً منطبقاً على
صدرى ومضعماً حواسي . وما اخاله الا ضباباً كثيفاً يحول بيني وبين انوار الهناء
وسيفاً ذا حدين يعترضني في سبيل الحياة

- يا لك من نذل جبان
- جبان نعم يا قينة جبان . اما تعلمين اي خطر تركبين . وترين اننا نسلم من
كيد هذا الشيطان الرجيم . وسيتضح الصبح لذي عينين واذا وفق بلقانا ترينا من

الملاك على ادنى قاب قوسين (١)

- لم يتوفق بلقائنا

- وهذا هو الهول الذي يرعبني يا قينة فان هؤلاء الهنود الدهاة اهدى الى سبل

مطامعهم من القطا واحذق في اقتفاء مطالبهم من خرايرت (٢) القفار

- كفالك اطراء في نعمهم فانك تراهم بعين الخائف فيمثلون لك هولاً امضى

من القضاء

- لا بل اراهم كما هم . آه لو صح لي ان اعرف خلوة يمر بها قارون لكمنت له

من الغد وارسلت الى صدره رصاصة قاضية

- اف لك وتباً لا وهامك بأبخيانية الشجاعة وبالغدر الانتقام

- قد تجاوزت الحدود يا قينة في ملامك . فما تقولين عن قارون اذا صادفنا وقتلنا

- اقول انه ادرك ثاره لاني انا خنت عهده

- قد يكون لكن اذا كنت محنثة فانا لا اكون ومع ذلك لا اظن انه اذا هدر

دمك يحقن دمي . فلا امل لنا بالنجاة من هذا الفخ العميق الوثيق ما لم يفتح لنا

باب الفرار من هذه المدينة . فبادري الى التزوج ببيبيك ونسافر معاً الى بلاده في

اقرب وقت . لكن فلنبالغ في الاستتار جهدنا مدة اقامتنا هذين اليومين ووقت

خروجنا للسفر

وبينما هما في الحديث اذ سمعت بالباب هدّة فارتعدت فرائص قين واصطكت

اسنانه وقال وهو يرتجف يا ربي يا مار يوسف يا سيدتنا مريم يا ملائكة السماء

ارحموني يا جماعة القديسين تحننوا علينا . صلي يا قينة صلي

ابانا الذي في السموات

السلام لك يا مريم يا ممتلئة نعمة

او من باله واحد

(١) مثل يضرب لقرب الشيء (٢) اهدى من القطا مثل يضرب في الهداية والخرايرت جمع خريت وهو الدليل الحاذق في القفار

ها هو هذا قارون آتِ الينا . عرف مقرنا . قضي الامر . ذهبت حياتنا .
استودعك الله يا قينة

وكانت قينة ايضاً عند ما سمعت الهدية ورأت ما رأت من رعب اخيها قد اصفر
وجهاها وارتعش بدنها ونظرت الى الباب ذاهلة
واذا بالمولدة برنيمة داخله وكانت بعد ان اوصلت تنكريد الى منزله المائدة قد
رجعت في الحال ودخلت الدار واغلقت وراءها الباب الخارجى بعنف

الفصل الثاني عشر

« قران المكر »

ذكرنا في الفصل السابق ما دار بين قين وقينة من البحث بخصوص وقت
الاقتران وانه أشار عليها ان تؤجله الى اربعة ايام والسرعة التي أشار بها في آخر
الفصل لم تكن الا عن طارئ الخوف فبناء على الرأي الاول اجلت مقابلة تنكريد
الى رابع يوم فالثلاثة ايام الاولى كانت عليه اطول من ثلاثة أعوام لان مواصلة فتاة
بارعة الجمال بقتة من غير ان يكون له عهد بمعرقها جعلته فاقد الرشدها ثم الفؤاد
غارقاً في بحر من الوسوس لا قرار له ثم امتنع عن الطعام والشراب وحرم لذة
الرقاد واخذته حمى ملازمة طفح منها الدم في عروقه فكان يقضي نهاره بالتذكار وليله
بالآلام والاحلام وهو يرضم الى صدره وفيه تلك الزهرة المحبوبة ويستشق منها
ريح الحبيب وفي صباح اليوم الرابع قرع بابه احد الجمالة وسله رقعة قال انه تسلمها
من مولدة لا يعرفها فاعطى الجمال دينارين وفض الرقعة اللطيفة وقد عبت منها
الروائح الذكية فوجد فيها سطرأ واحداً كانت به الكفاية لراحة فكره وهو

« هذه الليلة . . . نصف الليل . . . منزله المائدة »

فطار فؤاده من الفرح ولم يصدق ان اتى الوقت المعين فاسرع الى المكان المعلوم

ووجد المولدة في انتظاره فركبا الطيارة ثم عصبت عينيه كالعادة وادخلته تلك الدار
 ووقفته في الغرفة المار ذكرها ورفعت العصابة عن عينيه فوقع نظره على ابهى مما
 رأى في المرة السابقة واذا الفتاة في عينه زائدة اللطف والجمال فائقة الحسن والجمال
 وقد لبست ثوباً من الاطلس الابيض حتى اصبحت فتنة للناظرين فوقف مبهوتاً
 ثم جثا على ركبتيه ماداً ذراعيه ولسان حاله يقول

اذبتم فؤاد الصبّ اذ تهجرونه فختي متى بالقرب لا ترجمونه

يقاسي عذاب الوجد والشوق قاتلٌ قلب الصبر لو تعلمونه

فكم سهر الليل الطويل موهاً وكم قرح الدمع السخين جفونه

- آه لو تعلمين ما قاسيت من ألم الغرام

- قلب المحب لدى الحبيب دليل

ثم اخذت بيده وانقضت وجلسا يتشاكيا ألم الفراق ملياً وقد ظهر من كل
 منهما ما يذيب قلب الجماد وقينه مستمرة على عيدها من المداينة والتودد والتزويق
 والتمنيق حتى كادت تذهب بعقله وهو يزيد تلفظاً واستعطافاً وتلفظاً واستثنافاً وقد
 ثمل من جمرة الهوى وكاد من فرط وجدّه يعدم القوى ولكي تثبت له محبتها وتؤكد
 صلتها قالت له فيما قالت انها يتيمة ليس لها من يقوم بامرها الا اخ وحيد يقال له
 الشريف قين الاندلسي وانه من سلالة ملوك الاندلس وان الزمان سيرقيه الى مقام
 الجلال ولذلك مراعاة لشرفه لا يطبق هفوة تعرض من ذوي قرابته حتى يخاله
 الناس وحشاً ضارياً اذا تجرد لثقمته وانه على اخته ايقظ من الذئب يراعي حركاتها
 وسكناتها وانها لولا برنيقة حاضتها لم يتيسر لها الوصول الى حبيبتها تنكريد وان اخاها
 يتعاطى ادارة املاكه واملاك اخته العظيمة في جزيرة كوبا وان في عزهما الرجوع
 الى اوربا في اقرب وقت

فلما سمع تنكريد هذا الكلام استظير فؤاده وجداً وقال

كيف يا مالكة فؤادي ترحلين كنت اود لو تكونين من افقر الناس واخسهم نسباً

- ما هذه المنية يا منية القلب

- قد علمت انك ملكة فؤادي وعلمت انك في طبقة عليا من النسب
والثروة فكيف اجسر على استعطافك للاقتران وكيف آمل ان اخاك يجيب سؤالي
- قسم الغرام بيتا ولي منه القسم الاعظم أتظن اني احبي اذا فاتني منك نصيبي
او تظن الخيلاء يذهب باخي الى حد ما فيه هلاكي انت وحدك مرادي وما على
غيرك المعول لي انت وانا لك بسنة الله وشرع الناس

هذا الكلام التي في نفس تنكريد املاً طار به بجناح الطرب الى اعالي طبقات
السعد وبينما هو غارق في سبات النعيم اذ طرقه الدهر بغرائب احواله ففينا هو غائص
في لجة الآمال سمع في الخارج صوتاً كالرعد القاصف يقول

ألى نفس منزلي يتصل الخائن هذا اللص فاقد الشرف والانسانية كيف تجاسر
ان يطرق منزلي خفية فلينذر بحلول الاجل امسكوا المنافذ وكونوا على سلاحكم لو
طار في الجولا يفوته الرصاص واذا اتصلت اليه فعلي الضمان
فما سمع هذا الصوت اشتد ارتعاش قينه وعلت وجهها صفرة الموت وقالت وقد
كاد يغمي عليها

ويلاه ويلاه هذا هو بعينه دنا الاجل ثم سقطت واهية القوى

فانتصب تنكريد انتصاب الشجاع واستل سيفه وقال

فذاك روجي فلا تجرعي لا يمك بمكروه ما لم يخضب بدمه

- سر من اين من اين اني طاقتك ان تحميني ليس وحده خدمة كالذئاب الخاطفة
هلكتنا يا حبيبي نموت معاً

ثم القت بنفسها على تنكريد وهي تنتحب وتشهق ولفت عليه ذراعيها حتى لم
يستطع حراكاً فقال اقسمت عليك رب السماء والارض ألا انفصلت عني دعيني
وشأني لكي ادافع جهدي عنك وعني والا فقد هلكتنا معاً

لكن الرعدة اصمت اذنيها والخوف ايس عليه يديها فاحتر ان يدفعها بعنف

وان يبقى عرضة للتهلكة وهو مع ذلك يلعن ضعف قلوب النساء لانه يأتي دائماً بسوء النتيجة

ولم يكن الأهنية حتى فتح الباب ودخل قين وهو يرغي ويزبد ويهمهم ويدمدم ويزجر كالاسد الضاري بصوت يدوي كالرعد القاصف ويده سيفه مسلواً وبالأخرى غداة هائلة ولما رأى قينة قابضة على تنكريد بايدٍ منسججة وكأنها قد اغي عليها لم يتالك في نفسه ان تبسم وظهر كأنه كسّر عن انياب كانياب الغول ووقف عند الباب الذي دخل منه وقال وهو يطمص صوته مط المتهمك المستشيط
أهذا الذي ينتظر من بنات الاشراف من سلالة ملوك الاندلس ابهذا السيف
الخشيس تمزق احشائي شقيقتي الوحيدة تحزني شقيقتي التي ارعاها الليل والنهار
وأظنها اطهر من الملائكة الابرار اراها نصف الليل في حضن عشيق غريب
الاصل والدار

فاحتدم تنكريد احتدام كرام الرجال وقال

عار عليك ان كنت من يدعي الشرف ان تؤنب اطهر خلق الله سيرة واتقام
سريرة وتلطخها بشنار الريبة على مظنة الغيبة

- صه ويل امك يا مرقعان الآن تعلم أي منقلب تنقلبان

- ثم وجه خطاباً الى قينة وقال

- وانت يا قينة يا سلالة الملوك ونسل الاشراف اتطهر آثامك بغير الدم وانا اخوك
حي باذن الله يحق لي ان اعاقب ذنوبك موتاً تموتين ويسبق فعلي قولي لو كنت
تعلمين • لا مناص ولا فكلك فادعي ربك في ساعة الهلاك

فرفعت قينة راسها عن صدر تنكريد والتفتت الى اخيها وهي تكاد تذوب وجلاً

وقالت بصوت يفتت قلب الجمد

آه يا اخي ارحمني يرحمك الله

- لا رحمة للاشقياء

- قسماً بمن يحيي العظام وهي رميم وتربة ابيك وامك برية انا من الدنس
فقال تنكريد و بشرفي اقسم . . . فاجاب قين وهو يرتجف غضباً
- صه يا مخنث هلاكك قريب

فلم يملك تنكريد نفسه من الغيظ وقد بلغ الكيل حدهُ وقال ايها الظالم الخبيث
السريرة الاعمى البصيرة اذا كان قصدك سفك الدماء فما انا بين يديك فلا تبقي
عليّ واخطف روجي في العجل لكن طهارة اختك فاحفظها
ثم قالت قينة صدق وايبك صدق . برية انا من الدنس وان احببت سفك الدم
فاسفك دمي بالحري واحقن دمهُ لانهُ اجلّ شرف مقامك وحفظ كرامتك وهو
من ابناء الشرف

فقال قين وكأنه خرج عن دائرة الصواب

- بل موتاً تموتان كلاكما

ثم وجه غدارته الى صدر اخته فسقطت علي ركبتيها وقد اسدلت شعرها ومدّت
يديها وظهر خفقان صدرها وملأت الدموع عينيها على ما اظهرت في الليلة السالفة
وقالت وهي تنتحب

يا سليل الكرام والطيب الاصل يا شريف الحسب والنسب قد اقامك الله على
عائلتك زعيماً وسلطك بالحق على اجسادها لكن لا على غير افرادها فبحق تصب
عليّ تقمتك لكن حبيبي لا تمسه يدك زوجي هذا بسنة الله وشرع الناس
فتقهقر قين كالمختار الدهش وقال وهو يحملق ويرتعش

- أزوجك هذا . ما تقولين

- الحق اقول

- محال محال انتِ بنت خدر وهو عنك غريب

- عهدٌ عاهدت به الله فلا أخونهُ ونفس عهدي تعهد ان يكون لي بعلاً واكون

لهُ أهلاً

ثم قال تنكريد

وَأَنَا عَلَى وَثِيقَةِ حِفْظِ الْعَهْدِ وَالْآنَ نَشْهَدُ عَلَى أَنْفُسِنَا أَيُّ كَاهِنٍ أَرَدْتَ

فَنظَرَ قَيْنَ إِلَى تَنْكْرِيدٍ وَقَدْ قَوَّسَ قَامَتَهُ وَقَالَ مَتَفَرِّسًا

تَعْلَمُ مِنْ أَنَا أَوْ بَلْغَكَ إِنِّي الْقَتْبُ بِالْفَخْورِ الْقَدِيرِ الشَّرِيفِ قَيْنِ الْإِنْدَلِسِيِّ وَإِن

شَرَفَ عَائِلَتُنَا قَائِمٌ مِنْذُ الْفِ سَنَةِ وَأَنَّهُمْ أَشْهَرُ مِنَ الْمُلُوكِ

فَقَالَ تَنْكْرِيدٌ أَعْرِفْ ذَلِكَ وَلَا أَنْكَرْهُ

فَأَجَابَ قَيْنٌ وَهُوَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ وَيُخَفِّضُهَا كَالْمَتَعَجِّبِ الْغَضُوبِ

تَعْرِفْ ذَلِكَ وَتَتَجَاسَرَنَّ تَدْعِي زَوْجًا لِأَحَدِي بَنَاتِ بَيْتِي

- اجسر ولا اخفي امري

فَرَفَعَ قَيْنٌ صَوْتَهُ وَقَالَ وَقَدْ اسْتَطِيرَ شِعَاعًا

وَمَنْ تَكُونُ أَنْتَ مِنَ النَّاسِ أَمِنْ مَصَافِ الْأَشْرَافِ

- نعم من الأشراف وبيتي عريق في الحسب والنسب

- ما بلدك

- فرنسا

- ما اسمك

- تنكريد النجكي

- ما مقامك في الناس

- من رؤساء البحرية

فَسَكَنَ جَأَشٌ قَيْنٌ وَاحِنِي رَأْسَهُ بِالسَّلَامِ وَقَالَ

وَيْ وَي . أَنَا مِمَّنْ يَحِبُّ فَرَنْسَا وَيَحْتَرِمُهَا وَشَهْرَتَهَا وَاسْعَةً وَلَا خِلَافَ فِي شَرَفِ

أَهْلِهَا وَمِنْ طَبَقَةِ أَشْرَافِهَا رُؤَسَاءِ الْبَحْرِ لَكِنِّي لَا أَعْرِفُكَ يَا أَخِي وَلَا يَكْفِي لِمَعْرِفَتِكَ

كَلَامِكَ فَهَلْ مِنْ بَرَهَانٍ يُؤَيِّدُ قَوْلَكَ

- ليس لي الآن ما تحب

- وما يمنعك عن استحصاله
- انا في هذه البلدة غريب لا يعرفني احد فمن اين لي ان اثبت لك حسبي ونسبي
- تباً تباً لهذا الاتفاق المشؤم على ابي سأتروى في القضية انت تقول انك من رؤساء البحرية
- نعم وقولي صادق
- اذاً لا بد ان يكون معك شهادة خط فاذا رأيتها فهي تكفيني وتكفل بالعفو عما جنيت وتكون اهلاً للاقتران باختي
- فاسف تنكريد اذ لم يجد معهُ الجزدان الذي كانت فيه اوراقه لانه كان مفقوداً كما مر آنفاً وكما سيحيى هنا فقال
- لعلك ترتاب من كلامي اذا اعتذرت لاني فاقد شهادتي
- ابن فقدها وما سبب فقدها
- كانت في جزداني وما ادري ابن ضاع مني
- فجعل قين يضحك ضحك المتهم ثم قال
- ما اراك الا عابثاً بي فتخلق ما تشاء من الحيل لكي تنجو بنفسك ولا نجاة للخادع وقد حق لي ان انفذ فيك سهمي
- قال هذا وصوب الغدارة الى صدره
- فقال تنكريد وقد يؤس من حياته وصبر صبر الابطال
- اذن لا تصدقني
- كلاً ثم كلاً
- فافعل وستندم على قتلي حيث لا ينفع الندم وتعلم اني صادق غير مختال
- وفي ساعة هذه الشدة فرّج الله كربهُ باتفاق غريب وذلك ان قينة سمعت من جيبها الجزدان وكانت قد وجدته على صدر تنكريد وهو مصروع في الطريق على ما مر في صفحة ٢٦

صديق هو فهوذا الجزدان وفيه شهادته فقرأها لتكون على يقين ويكون
من الصادقين

فاخذ قين تلك الشهادة ونظر فيها فرأى علامة الرئاسة وتلاها وكانت علامات
الرضى تنتشر على وجهه فلما فرغ مدّ يده الى تنكريد وسلم سلام الاحترام
واما تنكريد فكان كمن ألحق بأية السحر ولم يدرك كيف جرى هذا الامر ووقف
متحيراً فقال له قين

اعلم يا سيدي ان من طبعي سلوك اقوم السبل فاخرق دون ذلك كل حرز لكن
اذ علمت اني موهوم اعود الى صوابي في الحال وهذا حدث لي في هذه الساعة
وقد علمت اني ارتكبت معك محظوراً واني معتردا اليك ومعترف باساءتي اذا وقعت
عليك شبهة فاذا قبلت العذر فهو من شئمة الكريم والا فدونك السلاح عسى ان
تشي مني غليلك . انظر ما تختار من دية الجناية وانا بين يديك

فلما سمعت قينه هذا الكلام طوّقت تنكريد بذراعيها وقالت له
حاشاك يا سيدي ان تسلم نفسك الى هواها وتتطوح في الغرور واعلم ان الذي
يخاطبك هو اخي فاذا خمدت سورة غضبك كنت على هدّى

فقال تنكريد كوني مطمئنة يا حبيبتي فقد سلك اخوك سبيل الاشراف ولا
عتب عليه وانجلي له الحق فاعترف بخطائه وهو عند الكرام كافٍ
ثم قال لقين لا ملام يا سيدي فانك كنت تكلم رجلاً مجهولاً بحق ما اتهمته
من مس شرفك . اما وقد عرفني فاسمح ان اقوم بوعدتي وافي للحبيبة بعهدي
فيكون بذلك تمام حظي ومعاودة حياتي

- دليل الامر من نفسه يا سيدي فلا يكون غيرك لها بعلاً وقد حدث ما حدث
من الريبة فلا تخرج من هنا الا صريعاً او مصحوباً بها اهلاً . لانك تعلم ما للشرف
من الحقوق على الانسانية فلا يغسل هذا العار الذي يتوهم الا ان تبادر الى العقد .
نعم انك واياها بريتان لكن ظواهر الحال لا تستغني عن بت الحكم بسرعة الاقتران

فسرّي عن تنكريد في الحال وظن نفسه في غرف النعيم واحت قينة رأسها
حياءً ومكرًا ثم صاح قين ببرنيقة فدخلت وهي ترتجف فقال لها

انتِ تعلمين ما جنيتِ على نفسك وما تستوجبين من العقاب لكن قد انتهى
الامر على سلامة فأخبري الخدم ان يذهبوا الى بيتهم ثم تذهبين الى الدير القريب
وتطلبين الى الكاهن المحيي الى هنا لاجل مصلحة كبيرة الشأن فهو من اصدقائي فلا
يخطئ حاملما يعرف اسمي ثم اذا اتيت به تشعلين الشمعات في غرفة اختي . هلا .
خفة ذهاب وسرعة اياب

فخرجت وهي تكاد تطير طرباً وعجباً . ثم جلس قين في مقعد منزوٍ وقال
لتنكريد لك الآن امرك في قينة فغازلها ما احببت وتساراً ملياً

- اشكر فضلك يا سيدي من صميم فؤادي

- ما هذا وقت الشكر يا اخي فلا تزدني لان الامر جرى على خلاف المألوف
فلو اتيت اليّ خاطباً كعادة الناس لحقّ لك ان تشكرني على القبول لكن قد علمت

انك من نفسك اخذتها والى نفسها خطبتها وقد سمحت انا لاقتضاء الظروف

- قد علمت عزة نفسك ياسيدي فلا تؤاخذني لكن لك الفضل بكونك اخترت
ترويحي بها على قتلي وكان عليك يسيراً

- ياسيدي قد تحققت من معانيك واشاراتك انك من اشراف الرجال واصحاب
الشتم فلم اصالحك يا اخي ونضرب حجاً على ما مضى

فتقدم تنكريد وتعاتقا وتصالحا وتصافيا مصافاة الاعزاء الصادقين فقال قين

- قد صفت القلوب وصلحت النوايا . الآن صرت واحداً منا عريقاً فلا مزية
لاحدنا على الآخر ولا بيننا ذكر فضل ولا معروف واعلم ان مالي يكون ارنأاً شرعياً

لاختي ولست مطلقاً على عزم التزوج فكل ما في يدنا مشترك منذ الآن بين الثلاثة
- حبذا يا سيدي الراؤف لا يكون اجلّ من هذه الكرامة لكن لا احب ان

امدّ يدي الى هذا الحد

- بل من الضرورة يا اخي لان الثلاثة واحد ونحن اذا اقتضى الحال واحتجنا الى شيء من ثروتك في المستقبل لا تتأخر عن مد يدنا براحة بال لان مالك لنا ايضاً
- اذا صح هذا فقد قبلت
- وانا اعاهدك اني لا اراجع كلامي وتعطيني عهداً على الوفاء
- هذي يدي بالعهد
- لا خلاف اذن منذ الآن

وكانت قينة تسمع وترى وهي في تأثر بين مما جرى لاتها مع فوزها بهذا النجاح العجيب كانت قد شعرت بانكسار قلبها على سداجة تنكريد اذ وقع وهو لا يدري في الشرك الذي نصبته لهُ بحذقها الفتان
 وبينما هم كذلك اذ فتح الباب ودخلت برنيقة وقالت قد اعدت كل شيء يا مولاي والكاهن ينتظر في غرفة مولاتي

فخرجت قينة دقيقة وعادت وعلى رأسها اكيليل من الياسمين زادها جمالاً ورواقاً فقال قين لتنكريد اعطها يدك يا اخي وهيا بنا الى الغرفة . ثم خرجوا جميعاً وكان هذا الكاهن عالماً بالقضية غير مستغرب لها لان برنيقة كانت قد اخبرته في النهار انها تأتيه نصف الليل تدعوه الى صلاة الزيجة وكانت هذه العادة جارية في تلك البلاد . فلما دخل الجماعة رأوه راکماً يصلي قهض في الحال وشرع في الصلاة فلما انتهى باركها البركة الباتة وتقدم قين وضم الى صدره العروسين وهنأهما وحينئذ همست قينة في اذن تنكريد وقالت يا بعلي العزيز احبك من كل قلبي فقال لها كنت في حلم يا قرّة العين والآن قد استيقظت ورأيت بعيني طائر سعدي

« لله الحمد والشكر »

الفصل الثالث عشر

« في أواخر حياة يوشع »

الان اذ قد انتهينا من اخبار تنكريد الغرامية فلنعد الى شرح احوال السيد يوشع وابنته اتباعاً لسباق الحديث واتماماً لمقاصد الرواية . وعلى كل حال لا بد ان القارئ يتأثر من مقابلة هاتين الحالتين بين افراح تنكريد وعروسه وآلام يوشع ومصاب وحيدته وكلا الامرين سيلتقيان مقترنين فيما يلي من الفصول ويشترك الجميع في هذه الاخبار العجيبة

كان السيد يوشع في تلك الايام مشتغلاً بالآلام غائصاً في احزانه نعم ان الخبر الذي ورد عليه من صديقه فيليب لوليان كان قد أحيى آماله ونفّس كربه غير ان المرض كان لا يزال يشتد عليه شيئاً فشيئاً حتى صار طريق الفراش تلوح على وجهه لوائح حلول الاجل

وكانت ابنته أنيسة لا تزال ملازمة لفراشه تقوم بامر تريضه احسن قيام وهي مواظبة على البكاء والاحزان متوقعة ذلك المكروه الجسم العتيد ان يحل بها وبابها وقد تبدل ورد وجنتيها بالبهار ونحل بدنهما حتى عاد كالخيال وهي تحيي الليل بالحسرات وتسلي همومها بتكرير الصلوات فاصبحت يوماً وقد غلب على جفونها سلطان الكرى وشعر ابوها بازوم هذه الراحة لها فصار يجتهد بحبس انفاسه لو استطاع لكي لا يقلقها وكان يوشع قد شعر بقرب اجله حسب انذار ذلك الطيب البرازيلي وعلم انه لا يحصل على الراحة التي اشرقت عليه انوارها من خلال اسطر صديقه الوفي فرأى من اللزوم ان يعلن لابنته ذلك السر المكتوم ويعرفها بصريح العبارة الحالة التي صار اليها بعد ذلك العز والنعم . وكانت آلامه تشتد عليه يوماً بعد يوم والبحرانات تتوالى بلا فتور تقريباً وتحقق ان اظهار هذا الخبر لابنته ينزل عليها اشد من الصاعقة لكن الضرورة أوجته اليه . وكان لا يزال يردد هذا الكلام « طوبى للراقدين بالرب »

كلما اخذته هزة الاحتضار . وكانت ائيسة لا تفارقه كما قلنا الا لحاجة ضرورية وكثيراً ما طلب اليها ان تأخذ لنفسها راحة وهي لا تزداد الا التصاقاً به ومواظبة على السهر والقلق ولم تكن تذوق رقاداً الا ساعة عند الصباح وفيما هي ذات يوم نائمة اتته تلك النوبة العنيفة فشركان سكاكين محمأة تحرق جدران صدره او ان ناراً جهنمية اضطرت في جوفه فغارت عيناه في محجرهما وتقبض وجهه واصفرت شفتاه وتشنجت اعضائه ووضع على فيه منديلاً يخفي به زفراته لئلا توقظ وحيدته الا ئيسة . غير ان آلامه اشتدت . واشتدت حتى لم يعد في طاقته الكتمان فصرخ من فؤاد محروق . ارحمني يا الله ارحمني . فانتهت ائيسة من رقادها وطار النوم من عينها ووثبت عن كرسيها وتقدمت الى ايها فوجدته يتقلب ويتصور ويتشنج وهو غائب عن الوجود فبلغ فؤادها وضاع رشادها وتقهقرت جزعاً لانها في النوب الماضية لم تكن ترى على ايها هذه المظاهر الشديدة ولا حصل قبلها في هذه الحال الثقيلة . لانه كان فاقد الحس غائر العينين مكسوف اللون وقد نفرت عروق صدغيه وتقلصت شفتاه وظهر عليها زبد كثيف أحمر . فصرخت ائيسة وقد انهدت جيلها « ارحمني يا الله ارحمني »

ثم هرعت الى القنينة التي فيها ذلك الدواء المسكن وصبت منها في القمع الذهبي وقدمته لايها فشرب ما فيه دفعة واحدة فسكن ما به في أقل من دقيقة وعاد الى صوابه وراحته . ثم اخذ القنينة من ائيسة ونظر اليها فاحصاً ثم تهد وقال في نفسه قد دنا الاجل المحتوم . لان القنينة لم يبق فيها الا قطرات قليلة وبفراغها يكون انتهاء حياته . وشعرت ائيسة بجزعه فجرت دموعها على خديها كالمطر . فقال لها . تشجعي يا ولدي تشجعي قد سحقت قلبي بالامك واوهيت مني قوة احتاج اليها في هذه الشدة . فمسحت الفتاة دموعها وتبسمت في وجهه تبسم الكآبة . وقالت له كيف تجرد نفسك الآن يا أبت

- بخير ان شاء الله

- لا تخدعني بحياتك

- لا خدعة يا بُدِيَّةَ . نعم كنت منذ دقائق في أشد الاوجاع واما الآن فقد زال العرض . واما انتِ فاراكِ قد نهكتِ وهزلتِ

- لا يهكم امري يا أبتِ ما لك ولي فالطبيعة تنهضي اذا سقطت . والله آخذ بيدي . وانما يهمني شأنك . وشفاؤك راحتي
فقال في نفسه

مسكينة مسكينة تعلق بشفائي أملاً . آه يا الهي قد اصبتني بأبنةٍ هي رجاء حياتي
ولعلها تموت لمأتي . قد ثقلت عليَّ يدك يا الله فالطف بعدك

ثم التفت اليها وقال

يا ولدي العزيزة ارى ان شكواي تقلقك وبلواي ذاهبة براحتك ومنذ ليال لم
تهني برفاد . هذا الذي يثقل عليَّ وما ادري كيف اداريك

- قلت لك لا يهكم امري يا والدي فلا يضرني فوات الراحة وكننت في
غفلاتي ارى احلاماً تشخص لي فرنسا

- أفرنسا هذيذك يا بنية

- بها نعم . تلك البلاد التي بدخولها راحتك ولذتك حيث تشاهد صديقك

الذي اوصيتني ان احبه كما احبك . آه يا أبتِ بفروغ صبر انتظر شفاءك حتى امضي
معك الى هذا النعيم فاني صرت اكره هذه البلاد ومناظرها وما ارى ظلها الا

سحابة سوداء تحجب عني شمس السرور

فلم يقدر يوشع ان يجيها لشدة ضناه وتواتر احزانه وشعر ان قلبها قد دلمها وهي
لا تدري على ما ستصير اليه من المصاب

وكان الضحى قد ارتفع فدخل الطيب حسب عادته لعيادة ذلك الشيخ الجليل
ولكن ابن حذق النطاسي في الداء العياء . فاذا كان اكثر الاطباء الى الآن يرجعون
بالمغيبات ولا يشخصون المرض الا بعد خرط القتاد فكم بالحري اطباء ذلك الزمان

في بلد كبلد هوانة الشاسعة عن منار علم الابدان . وكان يوشع على يقين ان الطيب لا يفيدهُ الاّ تسكين بلبال انيسة برهة من الزمان ولذلك كان يأذن لهُ بعيادتهِ كل يوم . فيذهب وهو يقول عسى الشفاء ان يكون قريباً

وبعد ان خرج الطيب في ذلك اليوم اقبل خادم يخبر يوشع بما دخل المينا من السفن فقال لهُ ان مركباً يقال لهُ الدلفين دخل البارحة مع المدّ . وكان هذا المركب هو الذي ارسلهُ فيليب بتلك الرسالة وتعطل بعض آلاته فسلم رئيسهُ الرسالة الى الرئيس الاسباني فاذاها الى يوشع كما سبقت الاشارة في الفصل السادس (صفحة ٥٨ و ٥٩) وبعد ان اصلح الرئيس شأن مركبه قدم ليتحقق هل بلغت الرسالة يوشع في وقتها

فانشرح صدر يوشع عند هذا الخبر وعرف ان ابنته ستسافر في سفينة صديقه آمنه من طوارق البحر وهي مفردة يتيمة أسيفة . ولحظت أنيسة على وجه ابيها لأئحة السرور فقالت لهُ . الظاهر يا أبت ان بهذا المركب بشارة لنا

- نعم يا بنية هو لصديقنا فيليب

- اظنه ارسلهُ لتركبهُ الى فرنسا

- نعم يا بنية

- أفنسا فر فيه

- لا بد من ذلك

- متى يا ابت

- في اقرب وقت

- أرايت يا ابي ان الذي حملتهُ قد صح

فتبسم يوشع ولم يجبهها بشيء ثم امر الخادم ان يدخل اليه الرئيس . فلم تمض ساعة حتى دخل وكان شاباً لطيفاً وقوراً حسن الشكل والزي . فسلم على يوشع سلام الاحترام والاجلال لما يعلم من رفعة شأنه بين ارباب التجارة وقرب منزلته

من مولاهُ فيليب لوليان

فترحب به يوشع وقال له علمت ان عوائق مكدره اخرت وصولك وقد وصلتني

الرسالة التي اديتها الى الرئيس الاسباني

- الحمد لله هذا الذي اراح بالي . ولكن ارى يا سيدي ان صحتك في انحطاط

بخلاف ما ينتظر صديقك

- دعنا من امر صحتي الالف واجر معي في حديث اخي الحبيب وافدني

عن احواله

- في غاية ما يكون من الهناء يدعوك بالعافية وطول البقاء

- الحمد والشكر لله . وكيف امور ولده

- اما عن ولده فلا تسل فتى لا كالفتيان لا اجمل ولا الطف ولا ارق جانباً منه

احد في كل تلك البلاد عليه سمة الاشراف الكرام ووداعة الحلم مع حكمة وعلم

وفطنة وحذق لا تقدر ولا تنزل كفه تندي بالحسنات وسلاسة منطقه تظفي الحسرات

حتى اصبح فتنة للقلوب ودهشة للناظرين وسلوة الحزاني ورجاء المصابين

- فليباركه الرب من علو السماء

- ولم يكن حين اقلعت في مدينة هاور لانه قصد السياحة في سواحل البلاد

البريتانية ليسرح انظاره في محاسنها الانيقة ويأتي برسومها البديعة لان مهارته في

التصوير غريبة وله مشاركة جليلة في آلات الطرب وصوته يختلب القلوب وينظم

الشعر على ابداع اسلوب ويركب الخيل كاحذق الفرسان ويلعب بالسيف كامهر

الابطال ويركب البحار كابرع ديدبان وبالاجمال فخلقته وخلقه زينة الشبان من

كرم ومحاضرة وآداب ومعاشرة وفضل ولياقة ومعروف الى ما لا يوصف بلسان

فلما سمع يوشع من الرئيس هذا الكلام ورأى ما له من الحماسة والرشاقة في

وصف الغلام كاد يطير من الفرح واستوى جالساً وضم اليه يد الرئيس وقال في نفسه

آه لو كنت الى الآن غنياً لوهبتة الف دينار على هذه البشارة العظمى ولا بد ان

ابنتي تكون مع هذا الفتى من اسعد الناس
 وكانت انيسة ايضاً تسمع كلامه وهي تبسم ورأت ما فعل بايها هذا الخبر من
 النشاط فظفح على قلبها السرور . ثم التفت اليها ابوها وقال
 - كيف تجدين يا ولدي صفة هذا الفتى
 - ما اراه يا ابي الاقرة عين والده ونعيم حياته وأجله كافضل الفتيان لانك
 تحبه وتكرمه

فقال الرئيس يا سيدي ان الشبل من الاسد وانت عند ظنك فيه فانه افضل
 الغلمان واجل اترابه شاناً وابسط الناس بناً واطلقهم لساناً واثبتهم جناً وارفعهم مكاناً
 ثم قال يوشع للرئيس اولم يكفك صديقي بغير الرسالة التي بلغتني منذ اسبوعين
 - كفني ايضاً يا مولاي ان اكون انا وسفينتي في خدمتك ورهن اوامرك حتماً
 فكل ما تأمرني افعله طوعاً عن طيب خاطر وقد اعلمني انك تشرفني بخدمة هي
 اشرف خطة احظى بها في حياتي وهي ان تركب معي السفينة وبصحبك السيدة
 انيسة لاسير بكما الى فرنسا وهو في انتظاركما على مثل النار
 فاوما يوشع الى انيسة أن انصرفي لسري بيبي وبين الرئيس قبلت انيسة جبين
 والدها واخلت المكان فقال للرئيس

- ادن من سريري يا اخي لان لي معك كلاماً سرياً
 فتقدم حتى لصق بالسرير وهو مختار في هذا السر ما عسى ان يكون
 فقال يوشع ارعني سمعك ايها الرئيس حتى اوصيك وصية محتضري يحافظ كل
 المحافظة على ابلاغ سرّ ويحب التدقيق في اجراء ارادته
 - هات يا سيدي فكلي آذان تسمع وعيون ترقب
 - انك مرتحل من هنا قبل انصرام الاسبوع
 - على ان تكون بصحبتى
 - بل تصحبك ابنتي انيسة فهي في يدك امانة الله ووديعة الذمام

- كيف تكون وحدها وانت ماذا تصنع في البقاء
- اني سابقك يا اخي الى دنيا شاسعة
- ألى حيث لا ايا ب يا سيدي
- نعم الى مقر الخلود فاني ميت لا محالة في يوم او اقل او اكثر بحيث يودعوني
التراب قبل آخر الاسبوع
- ما هذا الوهم يا سيدي ومن انذرك بهذا الخبر المشوم
- لا جدال يا اخي فالامر واقع لا محالة ولا يعلم بامري الا انت وصديقي فيليب
واما ابنتي فساخبرها بعد هنيهة فدعنا الآن من هذا الشأن ولنرجع الى حديثنا .
فاخبرني ألك امرأة
- نعم ولي منها فتاة
- اذن فاحفظ وصيقي ولكن ابنتي بمثابة ابنتك الى ان تبلغ بها منزل فيليب
فتغرغرت عيننا الرئيس بالدموع ومد يده الى يوشع وهو يجيش ولا يستطيع
الكلام . فعرف انه معاهدة على الامانة فقال
- وقد اخبرتي بحسب ارادة فيليب ان السفينة تكون تحت امري
- نعم وكل ما فيها وانا
- فلي عليك ذمة اخرى ان لا تستصحب الا ابنتي وفتى فرنسويًا يقال له الشريف
تنكريد النجسكي احد رؤساء البحرية نازل في دار تاجر فرنسوي هنا يقال له
الياس السندري
- حفظت كل ذلك يا مولاي
- فلا تقبل من هذا الشاب نولاً اذا حاول ان يدفع اليك . وليسط الله عليك
يمينه ويباركك . وتكون في منزلي هذه الايام التي تصرفها الى انقضاء اجلي
ثم دعا يوشع بابنته فدخلت وخرج الرئيس وقد اتقبض فؤاده اسفأ
وكان يوشع قد شعر في ذلك النهار براحة خارقة العادة فعرف انها الراحة المنذرة

بقرب الساعة المعروفة باستفاقة الموت . وكان الليل قد ارخى سدوله وأثيرت في غرفته شمعتان كبيرتان وشعر حينئذٍ بخفقان قلبه وهو اشدّ من ذي قبل فوضع يدهُ على جهة القلب فاندفعت بضربات شديدة سريعة وقد طفح الدم في عروقه حتى شعر انها تكاد تنفّر وان قلبه يتصدع . فقال في نفسه ها هي الساعة قد دنت ويشهد الله اني اقوى على شرب كأس الحمام مما على ابلاغ انيسة هذا الخطب المريع ثم طلب من الله المعونة على كيفية انذارها بالمصاب وان يمنحه قوة على اتمام مقصده . والتفت وهو يكاد يذوب كأبة وقال وهو يجلد نفسه

- تقدمي اليّ يا بنية لي معك كلام

وكانت انيسة اذ ذلك واقفة باذاء النافذة المطلة على الحديقة تتأمل في الاشجار وتلتذ بالنسمات المنعشة وتبهج بتلاؤ النجوم البراقة بين الاغصان وهي كأنها تذهب وتجيئ وترتفع وتهبط مع ميل الاغصان . وتارة تنظر الى جدران الغرفة وسقفها وهي سابحة في بحر الهواجس والتأملات وكان صدرها قد انشرح كل ذلك النهار بما دار بين ايها وبينها من حديث السفر وبما سمعت من كلام الرئيس من انه طوع امر ايها في سرعة الرحيل الى تلك البلاد الفرنسية التي طالما خطرت محاسنها في بالها واشتاق الى دخولها قلبها لتستأنس بقاء ذلك الصديق الاعز الذي به يكون فرح والدها وبعنايته سعادة ايامه الاخيرة

ففي هذه الآمال الملددة فاجأها الطارق المريع والهول السريع بما ازمع ابوها ان يعلنه لها

فلما سمعت نداءه انتبهت من غيبوبتها واسرعت اليه وقبلت يدهُ فقال لها اجلسي يا ولدي فاني مخبرك خيراً مكدرّاً يكون من اشأم الاخبار عليك لكن لا بدّ منه

- آه يا الهي ما الذي تخبرني به اخطبٌ جسمٌ ام هول عظيم
- خذي بالصبر والثأني وأمسكي نفسك لثلاث تسيل جزعاً واطلبي من الله المعونة

- قد اربعتني يا ابي وألهبت قلبي ماذا بدا

- أسفاً عليك يا بنية قد حق الحق وزهق الباطل

فوجت أنيسة لهذا الكلام واخذتها الجمدة وحملت في والدها متوقعة أعظم الاهوال

فقال خذي هذا المفتاح وافتحي الدرج الذي في ذلك الصندوق فتجدين محفظة

حراء وتأتيني بها

فقامت وفعلت ما أمر وعادت كهبوب الريح واذا بالنوبة قد طرقت الشيخ الغاني

واشدد عليه مصرعها فقال وكأنه على آخر رمق . القينة القينة

فرمت أنيسة المحفظة من يدها واسرعت الى القينة وارادت ان تفرغ ما فيها

فقال بل هايتها هايتي القينة فناولته اياها فتقبض عليها بقوة اصابعه المتلاشية وشرب

ما فيها الى آخر قطرة وقال في نفسه هذه جرعة الوداع فلا احتاج اليها فيما بعد . ثم

ناولها اياها ولبث دقيقتين في سبات الى ان انفصل العارض الاخير فاستجمع قواه

وطلب المحفظة فاعطته اياها ففتحها واخرج منها اوراقاً منها واحدة مطوية على شكل

الرسالة . ثم قال لانيسة اركبي امامي يا ولدي لانك لا بد ان تتضرعي الى الله على

ركبتك وانت تسمعين ليعطيك قوة الى نهاية حديثي . فجثت امامه وهي لا تملك

رشدًا ولا تستقر جزعًا فقال لها

- من الزوم يا ولدي ان اصرح لك العبارة من اول وهلة لاني اعلم ما تتكبدن

من العذاب لفهم الرموز والاستعارات . قلت لك انك الآن هدّفت لاشد سهام

الآلام والاحزان وها انا اوضح لك بأجلى بيان . واحدى المصائب المزمعة ان

تنصب عليك هوها أشد مما يمكنك ان تتحملي ولعلك تصبرين على غيرها . قد

علمت يا أنيسة اني تناوت رسالة من صديقي فيليب في الاسبوع الغابر وانها كانت

جواباً على رسالة مني سابقة وقد ابقيت في المحفظة صورة رسالتي ورسالة فيليب . فيها

يتضح لك امري وينكشف لديك سرّ حاولت كتمه عنك فسترين بعينك الورطة

العبيقة التي أصبحت على شفيرها لكن وراءك يداً قوية تتلافى سقوطك . والآن

ينجلي لك الماضي والحال والاستقبال ايضاً . ثم نشر الرسالة التي ارسلها الى فيليب
واخذ يتلوها على مسامع تلك المسكينة المنذهلة الصريعة بسيف الاحزان
(صورة هذه الرسالة قد ادرجناها في صفحة ٥٨ وما يليها فلترجع)

وكان يوشع يتلوها جملة فجملة وانيسة لا تصدق ما تسمع وتظن نفسها في منام
وتعترض اباه في اماكن الدهول من اخباره وهو لا يزال يزيدنا يقيناً ويتم القراءة
حتى آل بها الامر الى ان وثبت وكشّرت عن اسنانها كالأضاحكة فنظر ابوها واذا
هي قد اعترها البله فصاح يا الهي ألا يكفي ما سيحل بها من مصابي حتى تصيبها
بالجنون . اسمعي يا بنية اسمعي الى النهاية . ثم توقف حتى عادت الى صوابها واكمل
الرسالة . فلما سمعت الكلمة المنذرة بتحقق موته صاحت بصوت يمزق كبدا الجمود
وصفقت بيديها ودارت على نفسها دورتين ثم سقطت امام ايها على ركبتيها والقت
وجها على فراش أيها فظنها قد اغمي عليها . ثم شهقت واتحبت ورفعت رأسها
وقالت ما هذا الخطب المريع يا أبتِ ابنِ انا ومن يخبرني هذا الخبر الهائل
المفتت الاكباد

فقال يا انيسة لا تطيلي الجدال والوقت قريب لم يبق لي الا دقائق فأحب ان
اتهي من كلامي ووصيتي لثلاث فاجئتي النوبة القاضية . ثم اخذ جواب فيليب وتلاه
من اوله الى آخره وهي صامته ثابتة متجلدة ودموعها تنحدر كوابل المطر وهو يبكي
لبكائها ولشدة تأثره من كلام فيليب . ثم قال لها احتفظي يا انيسة على هذه الرسالة
هذا ميراثك الوحيد ولكن عندك اثن التحف . واعلمي ان الوالد الذي ستجدينه
يكون بمثابة الوالد الذي تفقدينه فأجابت وقلها يتمزق جزعاً

- ويلاه ويلاه . اين هذا الحواين هذه الشفقة اين هذا العطف الذي اجده
فيك . أيمكن ان تعوض خسارة مثلك يا ابي . أيمكن ان اجد من يقوم مقامك
أستطيع مخلوق ان يعاملني معاملةك ويحبي محبتك . ثم صرخت وهي لا تعي على
نفسها من شدة حسرتها . لا لا يا ابي لا اصدق لا يكون ما تقول لا يمكن ان

تفارقني اليوم لم يأتِ الوقت بعد لم يحن اجلك لا يقطع الله غصن حياتي النضير
بفراقك جعلك لي قوام الحياة فلا يسلبني اياك . لم اسئ اليه تعالى حتى يضر بي
بهذا العقاب المريع حاشا له من الظلمة حاشا لحلمه من الجور . لا يمكن ان يفعل هذا
المكروه . رحيم هو وشفوق ورأوف بعباده القاصرين صالح هو والى الابد رحمته
وعيناه على حافظي وصاياه الى جيل بعد جيل لا يتخلى عن المساكين كثير العفو
لا يأخذ الضعيف بهفواته فكيف يقسو على الاقياء . لا تموت يا ابي لا تفقدك
عيناى لا احرم عنايتك لم لا تصدق ما قاله لك صديقك في رسالته من ان الدجالين
يخيفونك ببرقشة الكلام وان في فرنسا من نطس الاطباء من ينظر في الغيوب . هواء
فرنسا يقويك واطباؤها ينتشلونك من لجة اليأس . هذا كلام لا ريب فيه . ثق
بكلام صديقك الخبير واعتمده وامح من مخيلتك هذه الاوهام الفادحة تقوى
وتشجع وشدد عزمك ولنبارح هذه الديار الويلة واعلم يا ابي انك تشعر باوائل
السلامة من ساعة خروجك من هذه البلاد ينشطك امل لقاء حبيبك وتعينك ابنتك
ببلاقتها ويشدك هواء البحر ولا تمضي عليك سنة حتى تعود الى نضارة الحياة حتى
تحسدك الكهول والشبان . أفلا ترى صديقك وما له من النشاط والطلاوة وهو اكبر
منك سناً . هلم يا ابي لا تخيب رجائي شدد نفسك وجدد عزمك واطرح عنك
الوساوس الفاسدة فهي التي اوهت قواك وادّت بك الى شفا الهلاك وطد املك
ببرء قريب ووطن نفسك على حسن الاتكال فالله رحيم مجيب

وكان يوشع يسمع كلام ابنته وقلبه يتفطر وكبده تتممت لما رأى من جزعها وما
اوهمتها الاماني من السلامة فقال لها

- لا تفرك الاماني يا اينسة فاذا فاتت ساعة ولم يقض عليّ فهو اتفاق غريب
ومن عجائب الدهر واني من ذلك على يقين

- ولا يصعب على الله ان يصنع العجائب وها انا اتضرع اليه وهو يريني رحمته
ثم جثت على ركبتيها امام ايقونة المسيح المصلوب وقالت بخشوع وانكسار

يا الهي الرؤوف ان كان شفاء والدي من العجائب فلا تمنع عني هذه العجيبة
 ثم قالت بحيث لا يسمع ابوها
 وان شئت يا رب فافد حياتهُ بـحياتي
 ثم وقف وهي على وثيقة من استجابة دعائها وعادت الى سرير ايها وقد اشرق
 وجهها بنور الرجاء

فلما شعر منها بهذه السكينة والاطمئنان خف عنه كرههُ وقال من يدري لعل الله
 يستجيب هذه الطلبة الحارة الصادرة من انقى القلوب واصفى النوايا واطهر السرائر
 وحينئذٍ شعر كأن الراحة انتشرت في بدنه واستقامت ضربات قلبه وسكن روعهُ
 واحس بنعاس لطيف لذيذ قد اسدل على جفونه جناحه الثقيلة وكان لم يذق هذه
 اللذة منذ ليالٍ كثيرة فقال لانيسة . يا ولدي العزيزة ارى اجفاني قد ثقلت وادركني
 نعاس هنيء فتعالى اقبلك قبل ان اغمض عيني . فارتكضت اليه وقبلته واعتنقها
 وضمها الى صدره وقال ضعي يدك في يدي يا انيستي فاحب ان اشعر بلمسها قبل
 ان يلقى علي سبات النوم فاني اجد راحة غريبة ولذة في الرقاد عجيبة عسى ان
 يكون دعاءك قد استجيب وآذن الله بتأخير الاجل الى حين
 ثم استلقى على ظهره ولم يزل ينظر الى وحيدته حتى اغمض عينيه واستغرق في
 رقاد هنيء وقد شق تبسم الراحة شفتيه

واما انيسة فاستمرت شاخصة اليه وقد اطمأن قلبها وقالت الشكر والحمد لله قد
 استجاب صلاتي واحيي رجاءهُ بعد اليأس واطهر فيه عجائبهُ
 ومضت عليها ساعة وهي تتأمل في تلك الاحوال وقلوبها يضطرب بين الشك
 واليقين وترقب كل حركة من حركات ايها وهي لا تتخلج لئلا توقظ اباه ورأت
 السكينة والراحة على وجهه الذابل ونفسه رقيق مستقيم فاتمعت قلبها وانشرح صدرها
 وبينما هي في هذه الآمال وبدها في يد والدها اذ شعرت ببرودة يده وظنت
 انها قابضة على الثلج فارتعشت خوفاً وغالطت نفسها ونظرت في وجهه فاذا هو

مكسوف اللون واصغت الى انفاسه فاذا هي صماء فهضت وقالت له يا ابي يا ابي استيقظ قد ارجفني سكوتك . اسمع يا ابي كلامي . ثم حركته فاذا هو جسم بلا روح فصاحت باعلى صوتها بالعويل وانطرحت على فراشه وهي غائبة عن الصواب

الفصل الرابع عشر

« اهبه الرحيل »

بينما كانت الاحوال في بيت يوشع جارية كما ذكرنا كان بيت قين وقينه متلاًئماً بالافراح زاهياً بالمسرات وقد لعبت بكل من العروسين سورة اللذات وغرقا في نشوة الصباية وذل لها الدهر بعد عنفه وراقت لها ايام الوصال وقضيا اياماً في الانس والصفاء والتودد وكان تنكريد مشغولاً بحب تلك الفتاة يكاد يطير من الفرح وكثيراً ما ظن نفسه في المنام لان هذه السعادة التي حصلت له بقران غير متظر جعلته ينسى ماضيه ولا يحسب حساباً للمستقبل فسلم نفسه بالكلية الى افراح الحاضر واما قينه فكانت مع شدة فرحها وستر اشواقها العظيمة بحجاب السكون والرزانة لا تزال متألة من وخذ ضميرها على خدعتها العجيبة فلم تكن تحب زوجها تلك المحبة الشريفة التي تكون رباطاً متيناً لقلبين طاهرين بل كانت مشغوفة به ظاهراً لانه كان شاباً لطيفاً ظريفاً حسن الخلق وخالق وكان لا يزال يلاطفها ملاطفة خارقة العادة وكانت هي تتظاهر له بكل ما يستميل اليها عواطفه

واما قين فلم يكن يهتم بشيء من هذه الامور بل وجد نفسه بانفراده عن انس تلك المعاشرة في حالة تسلثم الضجر ومع ذلك كان قد هياً كل شيء ودبر احسن التدبير حتى يبقى تنكريد مطمئناً وهو معرقل في تلك الحباله التي نصبها له فكان المنزل مزيناً بافخر الفرش والتحف على ما ذكرنا في موضعه واسباب الترف والرغد وسعة اليد لا تزال لديه ظاهرة اجلى ظهور حتى لم يكن تنكريد يرتاب في شيء

وكانت برنيقة المولدة تقوم بمهام الخدمة وتدير المنزل ومعها اربعة عبيد مستأجرين وكان تنكريد لا يفارق المنزل حباً بملازمة عروسه ولا يعاشر احداً من اهل المدينة فلم يكن من الممكن ان ينكشف له شيء من امر تلك الدار المزورة وكان قين عازماً حين وصولهم الى فرنسا ان يعلن خبر فقد ثروته دفعة واحدة زاعماً ان ذلك تسبب عن ثورة شديدة بين العبيد وموت كثيرين منهم بالسم وشبوب نيران اتلفت الزرع والضرع ونحو ذلك من الاراجيف محتالاً بها على تأييد زعمه في خرايه الميين وبناء على ذلك يظهر انه محتاج الى مساعدة صهره بالمال آملاً ان يكون واسع الثروة ويمده بكل ما يريد من نقود وغيرها فعلي ذلك وطّن عزمه ووطّد آماله وتيقن ان كنوز السعادة ستفتح لديه

وكان اول شيء يهمة الخروج من مدينة هوانة ليتخلص من تقمة قارون فكان لا يزال يردّ دكلمة الرحيل ويهتم بسرعته وهو يترقب بعينه وفكره وقلبه ورود سفينة تحمله الى اوروبا بأي وجه كان

ففي الايام الاولى من اقتران تنكريد وقينة كان قين لا يزال الدار خوفاً من ان يجد قارون مترصداً له لكن كان يرسل برنيقة كل يوم مرتين او اكثر الى المينا لعلها تصادف سفينة على أهبة السفر ولما طالت المدة ولم يتفق له ما اراد ظن انها لم تكن تقوم بحق خدمته او لم تفحص فحصاً مدققاً لنوال غايته فكان كأنه على مقالي الحجر يريد الخروج بنفسه ليتفقد الامور فيمنعه خوفاً من قارون فيلبث ضارباً اخماساً لاسداس ثم خطر له خاطر ظن ان به المراد فأرسل برنيقة تشتري له بعض اشياء لا بد منها للقيام بما عزم عليه ثم خلا بنفسه نحو ساعتين ولما خرج من غرفته اذا هو زنجي حالك السواد نحيف الاعضاء عظيم الهيكل يلمع جلده الاسود كالابنوس وشعره اشمط كثّ وعلى رأسه برنيطة قش وفي اذنيه اقراط معدنية وقيصه ملون بألوان قوس السحاب وساقاه عريانتان حتى ان من رآه لا يفرق بينه وبين زنوج افريقية الا اذا حقق النظر في طول انفه وميله ورقة شفتيه مع طول شديقه

وكانت برنيقة قد رأته حين خرج في هذه الهيئة الممسوخة (١) فاستغربته
وقالت منزعة

- ويل امك من اين اقبلت ومن انت وما تريد وكيف دخلت ولم اعلم بك
والمفتاح في جبي

- صه صه برنيقة قد اصبت الغرض واتقنت الزيِّ واطنك قد عجبت لقبح
منظري وشناعة سحنتي

- لا يكون مسخ اشنع منك

فسرّ قين بهذا الجواب ودخله العجب واذا تيقن انه يخفى على كل من رآه
خرج من البيت وقصد المينا واقام مترقباً كل ذلك النهار
وأما قينه وتكريد فلم يلاحظ ذلك اذ كانا ملتهمين بأفراحهما لا يباليان بما كان من
امر قين او يكون

وثاني يوم وفاة يوشع عاد قين الى منزله وقت الضحى وكانت عادته ان يرتاد
كل النهار على شاطئ البحر فدل ذلك مع ما ظهر عليه من علامات الاضطراب انه
في شغل شاغل فدخل غرفته وازال صبغته ولبس لبسه الاصلي وسعى في طلب اخته
وصهره فوجدهما في الحديقة جالسين على بساط من الخضرة والازهار منتثره حولها
وهما يتغازلان ويتلاعبان كغزالين على المرج المديح ولما ابصرا قيناً لم يتغيرا عما كانا
عليه من الهيئة والجلسة فقال لهما

- لكما البشرى فقد اتيت بأطيب الاخبار

فقال تنكريد وهو يتبسم اكشف لنا خبرك

- البارح دخل المينا مركب فرنسوي يقال له الدلفين وفي آخر الاسبوع يمضي
الى فرنسا

فصفقت قينه طرباً وقالت يا لها من بشارة عظمى

وقال تنكريد وقد ابتهج بالرجوع الى بلاده مع تلك الفتاة البديعة لا اطيب

من هذه البشارة

فأجاب قين لكن السرعة اطيب فيا ليتنا نستطيع ان نرحل في هذه الساعة
فقال له ' تنكر يد كيف علمت ذلك

- سألت عن هذا المركب من اي بلاد هو والى اين يقصد ثم ركبت زورقاً
وتوجهت اليه وطلبت الى نائب رئيسه ان يقيد اسماءنا في جملة الركاب ويأخذ النول
سلفاً فأجاب انه لا يجيب عن شيء من نفسه بل ينتظر رجوع الرئيس من الدفن

- دفن من

- رجل تعرفه

- اعرفه انا

- نعم انت تعرفه كل المعرفة

- عجباً لا اعرف احداً في هذه المدينة له علاقة مع رئيس مركب فرنسوي فما
انت الا في وهم

- لا وهم البتة فتذكر لعلك تظن

- تفكرت كثيراً فلم اجد من معارفي في هذه المدينة الا الياس السندي وامراته
لاني كنت نزيلها

- افكر ايضاً لعلك تهتدي الى غيرها

- ما اعرف غيرها الا السيد يوشع الرويري وابنته فلا سمح الله ان يكون الم
بهذا البيت شيء من الخطوب

فجمد قين وظهرت عليه لوائح الكآبة وتغرغرت عيناه بالدموع . امر لم يسبق له
قط لان صلابه قلبه وخمود عواطفه وقلة اكرامه بمصائب الناس طبع فيه حتى لم يُر
في عينه اثار الدموع قبل ذلك ثم قال كأنه يتمرر من الحزن

- واسفاه يا صهري العزيز لا يسمح لي قلبي ان اطعمك على هذا الخبز المكدر
موت اشرف الناس واكرمهم واغناهم

- ويلاه ما هذا المصاب العظيم كيف مات ومتى
- البارح مساء على اثر علة لا يُظن انها قتالة وقع بها سبعة ايام فقط
- وأسفاه وأسفاه يا للمصاب يا للرزينة قد احزنني هذا الخبر اشد الحزن
- فلما سمعت قيته هذا الكلام اكفهرت وقالت له ما الذي يهكم من شأنه لم يكن لك صديقاً بل كنت تعرفه معرفة خفيفة
- كيف يا عزيزتي انسى أو تنسين فضله وقد اخذني جريماً الى بيته مشارف الهلاك وعاملني معاملة ولده مع اني غريب لا يعرفني فكيف يسوءك تفججي عليه
- كيف لا يسوءني ذلك فانك تظهر الحزن عليه وتبطن الشفقة على ابنته وانت تعلم اني غيورة من انيسة ولا اشك انك تذكرها في قلبك فيهمني ذلك
- لا تشغلي بالك يا قرة العين فانت اجمل واكمل من كل نساء الارض وحبك وجمالك لو ناظرتك حور الجنان لما قامت بين يديك
- اذا كان ما تقول صحيحاً فاني اصدقك لكن بحياتي عليك لا تفكر بأنيسة
- حباً وكرامة واعدك اني سأحاول ان انسى اسمها
- فرقت شفتيه ورف شفتيها فثار قين كالمتهوه وقال
- الى متى تتلذذان بحبكما ولا تسمعان لي فقد قطعنا كلامي وخرجنا عن الموضوع فقال له تنكر يد لا بأس يا أخي فتمم كلامك . قلت انك انتظرت رجوع الرئيس
- نعم ولم يمض ربع ساعة حتى عاد هو ومن كان معه في الدفن من اصحابه وظهر لي ان السيد يوشع كان صديقاً وشريكاً لعين تجار هاور صاحب الدفين ثم عرضت على الرئيس امري فأجابني بطف وأدب انه لا يقبل أحداً من الركاب
- اجابةً لامر مطاع فتعجبت من ذلك وقلت له افلا يمكن ان تقبل احداً البتة قال واحداً فقط ولا يمكن أن تكونه . فلما ينست منه أتيت لاخبرك
- سوء الخبر فما الفائدة اذاً من هذا المركب وما هذه البشارة المعكوسة
- لا يهكم الامر فيظهر لي ان الامور تمشي على خلاف ما تعتقد واننا سنسافر

في هذا المركب نفسه

- بأية واسطة أو بأية حيلة
- لا حيلة في ذلك بل سهولة الواسطة فاذا تقدمت الى الرئيس بهذا الامر كان ما تحب
- من أين عرفت أنه يسمع لي وقد اظهر لك منعاً مقطوعاً
- الامر يسير فاني انا غريب عنه واما انت فابن وطنه ومن رؤساء البحرية فلا يخالف لك امراً الا ويندم عليه
- ربما صحَّ ذلك
- لا ريب فيه
- على كل حال يجب ان احاول هذا الامر
- لا بد منه فالعجل العجل
- الى الغد ان شاء الله
- لم لا يكون اليوم
- اذاً في المساء
- بل هذه الساعة
- ما الداعي لكل هذه العجلة
- لنعرف ما يكون من امرنا ونستعد من الآن حتى نكون على اهبة الرحيل في وقته

اذن امضي اليه الآن

- لكن اياك ان تمضي بهذا اللباس بل يجب ان تلبس ثوبك الرسمي فيكون كلامك اوقع في نفسه لما يرى من جلال بزتك الدالة على كرامة شأنك
- فاكراً ما لخاطرك البس زي اميرال
- ستصير ان شاء الله اميرالاً فلا بأس من تسليفتك في ملبسه فاذهب وانا امر

باعداد الطيارة

- وتكون بمعيتي

- لا لالان الامر يأتي على خلاف المراد ولا يستحسن الرئيس اذا رأيته معك

ان يجيبك بالايجاب بعدما اجابني بالنفي

فاستصوب تنكريد كلامه وودّع قينة وخرج من الحديقة . وأما قين فخرج
حالا الى الدار وتزيا بالزي الذي قابل به رئيس المركب قاصداً ان يقفو اثر صهره
لكي يعلم ما يكون من امره . ولما لبس تنكريد ثوبه الرسمي رجع الى الحديقة لكي
يرى قينة ويودعها ثانية فلما لم يجد قيناً سألها عنه فقالت انه دعي الى امر مهم ولا
يعود الا مساءً وحينئذ اتت برقيقة وقالت ان الطيارة حاضرة فقبلت قينة زوجها
وقالت لا تطل الغيبة يا عزيزي فقال لها لو غبت عنك دقيقة لوجدتها طويلة ثم
ركب الطيارة وكان قين قد جلس في مؤخرتها بصفة عبد سائق ثم مضيا حتى وصلا
الى المينا فدعا تنكريد بزورق وركبه حتى اذا دنا من المركب ارسل يخبر الرئيس ان
ضابطاً فرنسويّاً يريد مواجهته فأمر حالاً ان يصعدوه اليه ولما تقابلا سلم احدهما
على الآخر ثم قال الرئيس عسى يا سيدي ان تكون تنكريد النجكي قال انا هو
كيف عرفني

- عرفتك بالاشارة وكان في عزمي ان اقصدك في منزلك

- او تعرف منزلي

- عرفت انك نازل في بيت رجل من ابناء وطننا يقال له الياس السندري

- اسمح لي ايها الرئيس ان اسألك شيئاً

- مر بما تريد فلا تجديني الاً ملياً

- ما الذي دعاك الى الحضور عندي وكيف تعرفني وتعرف منزلي

- قصدي أن اخبرك ان لك في مركبي محلاً اذا رمت الذهاب الى فرنسا

- عجباً مع اني سمعت انك لا تقبل راكباً

- لكن أمرت ان اقبلك فقط
- هذا فضل عظيم . من الذي أمرك بقبولي
- كان البارح واليوم وا اسفاه لا يوجد . هو السيد يوشع الرويري
- خسارة عظيمة يا اخي فقد هذا الشيخ الجليل . وقد جرح قلبي انه ذكرني في ساعة احتضاره وما هذا الا من كرامة اخلاقه وصفاء قلبه
- هيناً له ليس ممن يبكي عليه لانه صار من اهل السماء لكن الويل لابنته المسكينة
- اسفاً عليها ما هذه الداهية التي اصابها . شريدة وحيدة بين الناس وهي في هذه الثروة الواسعة
- قد يسر الله لها أن لا تكون وحيدة فانها ستجد في فرنسا بدل الاب اباً واحاً في رئيس تجار هاور فيليب لوليان وابنه لؤلؤ وهذا المركب يخصهما
- متى تسافرون
- بعد ثلاثة ايام
- وهل تذهب هذه الفتاة معكم
- نعم وبسببها امتنعت عن قبول الركاب
- فهمت الآن كل المسألة
- قد علمت يا سيدي انك وحدك تكون مقبولاً
- اشكر فضلك لكن ارجوك ان تسمح لي باستصحاب شخصين لا بد لي من صحبتهم
- من هما يا سيدي
- امرأتي واخوها
- وهل لك امرأة لم يخبرني بذلك السيد يوشع ولم يكن له علم به
- صحيح هذا لاني تزوجت منذ ثمانية ايام فقط
- فهبت الرئيس متأملاً محتاراً ولم ينطق بكلمة ولحظ تنكريد منه ذلك فقال له

- اني اعلم ان خطتك تقتضي الاحترام فان كنت مصرًا على اتمام ما اوصيت
به حرفًا بحرف فالأوفق ان تقطع الحديث المتعلق بسفرنا وأنا سأسافر في سفينة اخرى
- يا سيدي ما أدري ما أقول اسمح لي ان اتكلم بجزية ضميري
- كيف لا قل ما تريد بشرط ان تفصح لي مرادك واني أرى شيئًا يمنعك عن
اجابة طلبي فما عسى ان يكون

- العفو يصعب عليّ ان اصرح به
- قل ولا تهب فاني مذعن لارادتك مهما كانت

- اني اخشى

- ما الذي تخشاه

- ان يكون هذا الزواج السريع

- ما يكون

- على غير هدى

- ويحك ما فهمت مرادك

- لعل الذي تزوجتها صاحبة لا زوجة شرعية وأما انا فلست ممن يتهم مثلك
هذه التهمة غير ان الظروف أوهمتني ما لا يجب ان اتوهم فيك وبناء عليه لا يستريح
ضميري باستصحاب زوجتك

قال هذا وبقي في حيرة عظيمة ولم يكن يستطيع ان يدخل في عباراته بأساليب
رقيقة واما تنكريد فتبسم لحيرته وقال له

- قد فهمت مرادك أيها الرئيس تزعم ان التي استصحبها هي صاحبتى لا امرأتى

- الحق أولى ان يقال هو هذا

- لا لا فليسترح ضميرك فاني تزوجت . تزوجت شرعيًا وعروسي هي اخت رجل

شريف من اشراف اهل اسبانيا واسع الثروة جدًا وصلى صلاة القران رئيس دير
برنابا في هذه المدينة والشهادة معي بتوقيعه فان شئت اطلمت عليك عليها

- معاذ الله يا سيدي ان ابلغ هذا الحد من القحة ويكفيني كلامك

- أفلك مانع آخر

- لم يبق مانع لاني عرفت الآن ان التي تركب سفينتي هي امرأتك لاصاحبتك

- وما تصنع بأخيها

- وجودك يكفي لاستصحابه

- لك الفضل والمنة ففي ثلاثة ايام اذاً نسير معك في سفينتك هذه

- لا خلاف وان كان لك امتعة فارسلها في اقرب وقت

فشكر تنكريد معروفة وعاد الى داره ولما رأته قينة سألته عما كان من امره

فاجابها ان الامور حسنة والسفر بعد ثلاثة ايام لكن لم يخبرها برفقة انيسة لثلاث تداخلها

الغيرة وتمتع عن الرحيل ولما علم بذلك قين طرب اشد الطرب ولكي يتظاهر بسعة

الثروة ارسل الى المركب عدة صناديق كبيرة ثقيلة مسمرة تسميراً متيناً حتى تعجبت

النوتية وظنوها مملوءة ذهباً وفضة وجواهر ونحوها من التحف السنية وكانت بالحقيقة

مملوءة حصى ملفوفة بلقائف متقنة . وذهب قين يتمشى على الجرف يراقب الدلفين

ويتعلل باماني الرحيل ويقول في نفسه هنيئاً لك يا نفس اقبلت اليك السعادة تجر

اذياها غداً نساfer في هذه السفينة وتهب علينا الريح الموافقة فتنتفخ قلوبها وتشق

عباب البحر شقاً ونبارح هذه البلدة المشومة ولا تبصرنا عين قارون الخبيث

قد زال الخطر وانتهى الخوف وساعدتنا الظروف وراق لنا البحر وواقفتنا الرياح فلا

تمضي بضعة اشهر الا والشريف قين وصهره الشريف تنكريد احد رؤساء

البحرية في اسطول جلالة ملك فرنسا يدخلان تلك البلاد ذائعي الصيت مفعمي

الاردان وهاً لك يا قينة وهاً لحظ اخيك ستفتح لنا الدنيا ابواب الفرج وسأقبض

من كف قينة العشرة آلاف دينار التي وعدتني بها فتكون جرثومة السعادة تنمو اشد

نمواً من حبة الخردل

وفيما هو يتلذذ بهذه الامال صفق طرباً وظن انه قد ركب متون السحاب ولم

يلبث ان جعل يترنم بالاناشيد المفرحة ويهز عطفه مترنماً كأنه قد قبض على زمام
السعادة بيديه فصار يردد هذه الترنيمة

في المال كل السعادة ما المرء الا نضارُهُ
ينيل كلُّ مراده حيث يكون اختيارُهُ
ما الطف واصل هذا الكلام

ان الغنيَّ السعيدُ يأتيه صفو الليالي
لهُ الهناءُ مديدٌ بغيره لا ييالي

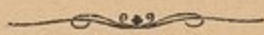
قال هذا وضرب على جيبه فسمعت رنة الدنانير فاتبهج اشد الابتهاج وقال
ماذا يخاف غنيُّ وما له في ازديادِ
وكل ما هو شهيُّ يأتيه طبق المرادِ

نعم هذا هو الحق وهذا ما انا واصل اليه وكان الذي نظم هذه الانشودة نظر
في استقبالي ومثَّل لديه احوالي فكانه ترجمان لساني او ناطق من جناني وما اطيب
ما يقول بعد ذلك

والخمرُ عند الصباية اقداحها تتلالا
فاللالي بيدي الغرابة ممن يتهن دلالا

نعم هذا هو الحق المبين والطف من ذلك قول الآخر
خمرُوما ادراك ما الخمرُ بلطفها ينكشف السرُّ
والعود والقينة والملهي تلك حياة كلها يسرُّ
وكل يومٍ ينقضي سهواً من عمرنا في ارضنا خسرُّ

ثم رجع يردد هذه الايات والتي قبلها وهو يكاد يطير من شدة الفرح



الفصل الخامس عشر

« الطارق المفاجيء »

من اللزوم الآن ان نذكر ما كان من امر قارون في هذه المدة التي دبرت بها
قينة امورها بداهتها العجيب

قلنا ان الحديث الذي دار بين قينة وقارون كان يؤذن بحق هذا الرجل على
قينة حتى توعدا بما سبقت الاشارة اليه فاقبل في اليوم الثاني الى منزلها الاول الحثير
فلم يجد احداً وكان الباب مفتوحاً وكل ما في البيت محطاً ومشوراً وبعضه محترقاً
فعرف ان خروج قين وقينة من ذلك المنزل لا رجوع بعده فاستشاط غضباً وتقبض
ياساً لكنه كظم غيظه وكاد الدم ينشق من حدقيه واكفهر وجهه واصطكت اسنانه
وتشجعت عروقه وخرج من البيت معتسفاً بين الغياض والادغال يدوس العقارب
برجليه ولا يبالي بكشيش الافاعي ذات الاجراس ثم جلس مستوفزاً تحت شجرة
واسند رأسه على يديه وغاص في بحار التأمل لكي يجد طريقة يشفي بها غليله
بالانتقام من هذه الفعلة القبيحة وقال في نفسه قبل كل شيء يجب ان اعرف اين
مضيا هل خرجا من المدينة فان كانا باقين فيها فلا بد ان اجدهما وان كانا قد
خرجا فلا غنى عن تأثرهما ولو صعدا في السحاب او غاصا تحت التراب

قال هذا واسرع في الحال الى المينا فعرف انه لم يخرج مركب من المدينة لمخالفة
الريح فاطمان باله وفي الليل التالي مضى الى كوخه وجعل دنائره في صرة وحمل
بندقيته وغدارته وعاد الى منزل قينة القديم وفي الصباح تزيا بزبي العبيد وصبغ بدنه
حتى لم يعد يفرق عن الخلاسين واخذ يتجسس اخبار قين وقينة مرتاداً بين شوارع
المدينة ومترصداً في منافذ المينا وكان يقضي اكثر اوقاته في منعطفات الطرق متمدداً
على التراب متظاهراً بالنوم وعيناه البراقتان تجولان في كل الانحاء حتى لم يكن احد

يمر الآ ويفحصه بنظره الحاد من رأسه الى قدمه
فمضت على ذلك عدة ايام وهو لا يرى أثراً لخصميه لكن لم يضعف عزيمته
وهو يتعلل بلعلّ وعسى ويقول انهما الآن محتفيان لما اعتراهما من خوف وعيدي
ولا بد ان يزول هذا الخوف ويظهرا في شوارع المدينة ولم يزل على هذه الحال حتى
كان اليوم الذي فيه خرج قين يتردد قرب المينا ويترنم بتلك الاغاني وهو لا يعلم
ان وراء الاكمة ما وراءها

وكان في اثناء تمشيه يمر برجل اسود نائم على الطريق وعينا ذلك النائم ترصدان
خطواته وحركاته وهو يغمضهما كلما مرّ به . فلم يعرفه قارون اولاً لغرابته زيه لكن
لما سمع صوته وهو يردد تلك الترنيمه عرفه فجلس واخذ يراقبه حتى تحققه من ملامح
وجهه فقال هذا هو لا شك فيه ولما دخل قين المدينة اقتفاه قارون بحيث لا يغيب
عن نظره فكان يقف لوقوفه ويسير لسيره حتى وصل الى داره وفتح الباب ودخل
فقال قارون هذا هو الوجار فقد تيسرت الاحوال ثم ابتعد قليلاً واستلقى على الطريق
مرتقباً نائماً نومة الذئب ولبث ساعتين يقوم ويقعد بين افكار مشتبكه وقد تحير
من امر قين وقينه كيف بعد ان كانا يتجولان في شوارع المدينة بحاله زرية يحصلان
خبزها بالغناء والرقص والشعوذة قد اصبحا الآن في منزل من افخر منازل المدينة .
فلم ينكشف له شيء من هذا السر العجيب وخطر في باله ان طبع قين الخسيس
ادى به الى بيع اخته فحصل هذه الثروة الواسعة

غير ان الامر كان على خلاف ما توهم كما ذكرنا لا تعففاً من جهة قينه بل
استنكافاً من هذه الصفة

وبينما هو يضطرب بهذا الفكر ويعد نفسه بقتل قين اذا صحّ ظنه اذا بالباب
قد انفتح وخرج منه عبد كانت برنيقه قد استأجرته سابقاً لطيارة قين فلما مر بقارون
نهض وهو يمتطي ويتأب كالناهض من النوم فقال للعبد اين نمضي يا صاحبي
- الى الخماره

- أليس لك رفيق
- لا
- وكيف تلتذ بالشراب بلا نديم
- اذا جرّت الخمر في عروقي فلا احتاج الى نديم
- لكن الاحسن ان يكون الشرب بين اثنين على الاقل لكي يتفكها بالحديث على
- لذة الشراب أفتحب ان تصحبي معك وتشرب على حسابي
- ان كان ما تقول صحيحاً فأخرج لي كيسك لاراهُ
- هو ذا يا قليل الثقة

فلما رأى السائق لمعان الدنانير وسمع صليها اهتزّ طرباً وفرحاً وقال لقارون انت
أخي ورفيقي هلم بنا

فضيا الى الحانة وجلسا يشربان ودار بينهما حديث طويل استرق فيه قارون
كل ما اراد من اخبار قين وقينه وعرف جلياً ما جرى لها مع تنكريد وان الجماعة
عازمون على السفر في ثاني يوم غير انه لم يعرف سبب هذا الرحيل ثم عقد قارون
مع رفيقه عهداً على امر سري سينكشف في آخر الفصل الثاني ودفع له وثيقة على
الوفاء خمسة وعشرين ديناراً ووعدهُ بمثلها اذا صدق بعهده فدهش العبد من هذا
الكرم الجليل ورأى نفسه حائزاً كنوز الارض

ولما افترقا لم يرجع قارون الى دار عدوه بل سار رأساً الى كوخه القديم ومكث
هناك طول النهار

وكان ثاني يوم ميعاد سفر الجماعة كما ذكرنا فضى تنكريد الى المركب وسأل
الرئيس أية ساعة يجب ان يكونوا حاضرين في السفينة فقال له اوفق ساعة هي
الساعة الثالثة بعد الظهر لان ارتفاع المد يسهل للسفينة الخروج من ذلك المرفأ فترفع
المراسي قبل ربع ساعة فيجب ان تكونوا هنا قبل نصف ساعة واذا ابطأتم ومضى
الوقت ارتفع عني الملام لانه لا يمكن لي التوقف حينئذ لكي اسرع بالوصول بالسيدة

أنيسة الى مقرّ راحتها فأجابته تنكريد الى ما طلب وعاد من ساعته فودع صديقه الياس السندري وامرأته وشكر فضلها على ما قدما له من الخدمة وأظهرها من الغيرة وأحسن مكافأتهما على جميل صنيعهما وخرج قاصداً بيته فوجد امرأته قد تزوجت وتبرجت وتحلت بالجواهر والمصوغات ولبست افخر ملابسها حتى صارت بهجةً للناظرين وفتنةً للمتصبيين فابتهج تنكريد بجلال منظرها وصاح من صميم فؤاده

- ما أجملك وما أبهاك وما أطيبك وما أشهاك يا قرة العين

فترنحت قينة دلالاً وماست اختيالاً وقالت بصوتها الرخيم لا يخفى عليّ يا عزيزي ما بي من الجمال والكمال لكن دعنا من ذلك الآن واخبرني كيف اتفقت مع القبطان علي ان نكون في المركب بعد ساعتين بلا تأخر

فقال قين كل شيء قد تم ولم يعد عائق وقد مضت برنيقة لتأتي بمحفة تركبها قينة وانا وانت نركب الطائرة

- حسناً فعلتما

وكان قين مضطرباً منذ الليل الماضي بامر اهمه جداً وذلك انه لم يستصوب ان يدخل المركب بذلك الزيّ المسبخ لان القبطان عرف انه من الاشراف فيلتزم ان يخرج في راعة النهار بشكله الحقيقي وصورته المألوفة ماراً في جادة المدينة فخاف اذ ذلك ان يكون قارون مترقباً له فيقع في شر الدواهي فاقلقه هذا الفكر كثيراً فلاح في فكره ان احسن وسيلة لنفي الريبة ان يجعل قينة في محفة مستورة بحيث لا يمكن ان يراها احد من الخارج وان يركب هو وتنكريد الطائرة ويأمر السائق بالاسراع الشديد حتى اذا ثار الغبار وانعقد لا يمكن لقارون ان يعرفه من خلاله وفي الحال تاهب على ما وصفنا فسارت قينة في محفتها وتقدمتها شوطاً بعيداً غير مسرعة في المسير ثم ركبا الطائرة واقفياها بسرعة شديدة وبينما هما في الطريق والحصان في أشد عدوه والغبار منعقد حول الطائرة تنهد قين تنهد الفرج وقال لتنكريد الآن اطمان قلبي فبعد عشر دقائق لا أعود اخاف قارون

وأما تنكريد فكان قد ارتاب من شدة عدو ذلك الحصان واجتهاد العبد في حثه لكنه سكت لئلا يظهر منه جبن امام قين حتى وصل الحصان الى مكان تقترق فيه الطريق يمينا ويسارا وكان الطريق الايسر يؤدي الى المينا والطريق الايمن الى الكوخ قين فاخذ الحصان في الطريق الايمن فصاح قين بالعبد قائلاً يساراً يساراً فاجابه لا طاقة لي يا سيدي برد جماح الحصان

- قاتلك الله ايها العبد الشقي

- يا سيدي انت امرتني ان احث الحصان بقدر ما يستطيع فليس عليّ ملام

اذا جمح

- او لا تستطيع ان توقفه يا ملعون

- بذلت جهدي فلم يقف

فقال تنكريد لقين لا بأس يا اخي فان الحصان متى تعب يقف فنعود في طريقنا

- لكن ألا تعلم ان الوقت يفوت فاذا تأخرنا يذهب القبطان غير ملتفت الينا

- هذا يكدرني لكن اذا بقيت قينة لا يهمني الامر

فقال قين في نفسه لكن يهمني انا لانه لا يصل مركب آخر وادخله قبل ان

يظفر بنا قارون

فلما وصلت الطيارة الى قرب الكوخ المهود اذا برجل قد وثب الى وسط

الطريق معترضاً ويده بندقيتان فنظر اليه قين وتحققه فعرفه فاصفر واكفهر وامتعق

لونه وازمهر وصرخ بصوت مرتجف وقلبه يخفق جزعاً هلكنا . يا الله

الفصل السادس عشر

« ملاك الموت »

لا بد من ان يكون القارئ قد عرف ان هذا الرجل الذي اعترض في وسط

الطريق وظهر لقين بصورة ملاك الموت هو نفس عدوه قارون

فلما رأى تنكريد من قين ما رأى وسمع كلامه قال له متعجباً ما الداعي لهلاكنا
 فاجاب قين وهو لا يكاد يفصح كلامه من شدة الخوف هذا هو هذا قارون
 وكان تنكريد لم يسمع باسم قارون قبل ذلك ولا يدري ما هو وجه الخوف منه
 فقال لقين من يكون هذا الرجل يا ابن العم وكيف نهلك اذا لقينا فلم يكن لقين
 فرصة ان يجيبه لان الحصان كان قد دنا من قارون وهو ثابت مكانه لا يتزعزع فقال
 تنكريد في نفسه هوذا الرجل الذي يخافه قين سيتحطم تحت ارجل الحصان
 غير ان هذا الظن لم يصب محله لان الحصان حالما اقترب من قارون جمد بقوة
 عجيبة لان شدة ذراع ذلك الرجل التقدير اوقفته فجأة فسقط على الارض ونظر
 تنكريد الى قارون فوجد عينيه مثل برك الدم وهيئته تمثل الغضب والنعمة فقال في
 نفسه ما اراه الا مجنوناً

واما قين فاراد ان يحتجى في جوف الطيارة فقال له قارون انزل يا خبيث ولا
 تحاول الفرار فحنق تنكريد من هذا الكلام حتى لم يملك نفسه وصاح بقارون قائلاً
 من تكون ايها الرجل حتى تتكلم هذا الكلام

- سل رفيقك وهو يخبرك اني قارون

- وما المراد من هذا الاسم . فما ارى فيه كبير شان ومع ذلك فما الذي تطلب
 - اطلب قتلك

- هه هه . يا صاحبي كأن زمام السيادة في يدك حتى تقتل من تشاء ولا تبالي لكن
 احب ان تخبرني ما الذي يدعوك الى قتلي وانا لا اعرفك واي صالح لك في ذلك
 وكان قارون قد امسك بتلابيب قين وجذبه من الطيارة جذبة شديدة حتى
 سقط معفراً في التراب ونادى بالويل والحرب ثم قال لتنكريد سل هذا الرجل
 وهو يخبرك

ثم التفت قارون الى العبد السائق وهو منذهل من هذا المشهد الغريب ورمى
 اليه بصرة فيها الدنانير الموعود بها وقال له اغرب عنا يا فتى فلم يبق لك شغل هنا

فالتقط الصرة وادار الحصان وعاد في طريقه ولم يجب بكلمة لكنه بقي مشغول البال بهذا الاتفاق الغريب واراد ان يعرف ما تكون النهاية فوقف على مسافة ١٠٠ خطوة واخفى الطيارة خلف جدار هناك وانسل زاحفاً بين تلك الاعشاب الكثيفة المشتبكة حتى صار بحيث يرى ويسمع ما يجري بين قارون وخصميه وكان مشهداً يستحق الالتفات

ولما سمع تنكريد كلام قارون نظر الى قين واذا هو متمرغ في التراب ترتجف يداه وترتعد فرائضه من شدة الخوف وقد وضحت عليه علامات الجبن والفشل فسقط من عين تنكريد وناجاه ضميره ان في مصاهرته سرّاً معيماً لكن كنتم ما في نفسه وقال له اخبرني يا ابن العم ما الذي تعرفه من دعوى هذا الرجل فقد استغربت امره ولا اعلم بيني وبينه شيئاً يستوجب هذه البغضاء فقال قين وهو يرتجف ويلاه ...
- قل لم تتوقف انت تعلم ان ضياع كل دقيقة يكون علينا شؤماً وصاحبنا ملحق في المسألة

واحرابه ٠٠٠ فقال قارون اتراه كيف يرتعد وقد هلع قلبه جزعاً تباً له من نذل مخنث . ثم رفس قيناً برجله رفسة مهينة فانتشر الدم في عروق تنكريد غيظاً وكاد يفتك بقارون لو كان معه سلاح فقال لقارون ايها الرجل قد تجاوزت الحد فلا اسمح لك ان تهين بحضرتي رجلاً شريفاً صرت له نسيباً
فقال قارون وقد وضع رجله على كتف قين تباً له ولشرفه فقد غرك الغرور اين هذا من الشرف فما هو الا عيار من اراذل الناس واحقرهم شأناً فاذا كان يزعم لديك انه شريف فانا اكشف لك حقيقة حاله فهو واخته في هذه المدينة من جماعة النور يعيشان بالرقص والغنا والسؤال واما البيت الذي كان فيه هذه الايام فقد استأجره منذ ١٥ يوماً لمقاصد خبيثة

فلما سمع تنكريد كلام قارون كاد يتهره غير انه تذكر كمن رأى حلاً خفيفاً انه رأى في بيت القمار رجلاً اعور ومعه اخته يعني لها ويعرف بالته وهي تعني وترقص

وعرف من هينته وشكله ان تلك العصاة التي على عينه كانت حيلة وان دعواه
الاخيرة كاذبة وفطن ايضاً نلامح قينة وطول شعرها وبريق عينيها وغير ذلك من
تقاطيعها فتحقق انها تلك الراقصة بعينها فقال في نفسه وقد اشتد غيظه اف لهذين
الخالئين قد خدعاني وبقي صامتاً متحيراً مبهوتاً كمن يتمنى ان تنشق الارض وتبتلعهُ
ولحظ قارون منه عزة النفس فاجلَّ امرهُ

واما قين فكان يرتعد وهو معفر بالتراب ويقول في نفسه بكلمات الخالئين هالك
لا محالة فان نجوت من قارون لم انج من تنكريد فسقط في يده وسلم روحهُ بيد من
لا يدعوه الا بشفتيه

ثم رفع تنكريد رأسهُ وقال لقارون بصوت رزين يشعر بالاسف

- قد اتضح لي يا فتى اني مخدوع لكن عجباً اي شيء بيني وبينك حتى تظهر لي
هذه البغضة افتريد قتلي لاني اغتررت بزخرفها وبرقشة الكلام
- لا بل اريد قتلك لاني اقسمت لا اكون حياً ويحظى بها غيري الا قتله
وقتلها وانا رجل هندي وانت تعرف ان الهنود لا يحشون يمينهم واذا تقموا على
احد فلا مناص له من تقمهم

- حسن ما تقول وانا ممن يعتبر البر باليمين لكن اترى من المناسب ان تذبجني
ذبح الشاة

- لا يكون ابدأ فاني مقدم لك احدى بندقيتين لا فرق بينهما فاختر منهما
واحدة وتقتل قتال الاقران
- واين يكون موقف قتالنا
- في هذه الحضية
- فافعل اذاً

ثم ناولهُ احدى البندقيتين وقال له تقدم امامي وانا اتبعك ثم عطف الى قين
واخذ بطوقه وانفضهُ وهو متلاشٍ من الجزع والزمه ان يسير معه الى الحضية فقال

في نفسه قد دنت الساعة والآن يذبحني ذبح الكلاب يا الله تخنن عليّ ثم استل
قارون خنجراً طويلاً فسقط قين مضعضماً وقد ايقن بالهلاك فصاح تنكريد بقارون
قائلاً ماذا . اتقتل رجلاً ليس له ما يدافع به عن نفسه فلم يجب قارون بل اخرج
من جيبه حبلاً وقطعه بالخنجر قطعتين ربط باحدهما يدي قين وراء ظهره وحزمه
بالاخرى على جذع شجرة في طرف الحضيصة على نحو اربع خطوات من ممكن
العبد السائق وقال الآن قد اطمان بالي فاذا سلمت عدت اليه وقضيت الغرض
فقال تنكريد بل عليّ امره اذا سلمت وقال قين في نفسه الويل لي من هاهنا وهنا
هلاكي اذا سلمت من الواحد لا اسلم من الآخر وحياتي متوقفة على امر واحد وهو
ان يقتلا كلاهما . يا سيدتنا مريم انذر لك شمعة كبيرة من قلبي اذا قتلا

ثم قال تنكريد لقارون ما هذا المكان الذي اخترته اما ترى الاعشاب مشتبكة
نامية تصل الى وسط الرجل قال هذا ما يوافقني لاني قضيت حياتي في الصيد بين
الغياض والادغال واذا رميت الصيد لا اخطئه ولو كان فراشة في اعالي الشجر
- اذا تكون العاقبة عليّ وخيمة

- ان كنت تخاف ذلك اذا رميتك اولاً فانا اجعل لك واسطة لك بها النجاة
لاني لست ممن يشتهي قتلك لاساءة منك اليّ لاني لم تخدعني ولم تخني وانما قصدي
الوحيد البر بقسمي وقد سلبتني اعز الناس عندي فيقف اذاً كل منا في طرف من
هذه الحضيصة ويكون بيننا هذا البيت الخرب فاذا اخذ كل منا مركبه اصفق
بيدي ثلاثاً دليلاً على التحفظ والتحذر والذي يظهر اولاً يرميه رفيقه

- حق ما تقول ولو كانت الطريقة غير مألوفة في بلادنا
ثم مضيا واستقر كل في مكانه مستتراً بالاعشاب والعوسج ومترصداً كشف خصمه
فاما تنكريد فهبأ بندقيته للاطلاق وركع على احدى ركبتيه وصار يستنظر ظهور
قارون او شيء من بدنه

واما قارون فتقدم بخفة الى ان ادرك جدار البيت وهياً نفسه للاطلاق ولم يكن

يظهر من بدنه الا نصف جبينه واحدى عينيه في خلال الحشيش النابت على الجدار وكان في مركزه يكشف جلياً المكان المستتر فيه تنكريد ومتربحاً كل حركة تظهر من جهته

وكان تنكريد جامداً لا يبدي أقل حركة واستمرا في هذه الحالة وغراب البين حائم فوقهما الى ان مضى نصف ساعة

وكان قين في تلك الحالة يحسب الدقائق اطول من الايام لا يدري كيف ينتهي بينهما الحال ويتوقع الموت من دقيقه الى اخرى وبينما هو في هذا القلق اذ سمع صوتاً خفيفاً يناديه

- اسمع يا سيدي ما أقول لك لكن اياك ان تتحرك ابقاء عن نفسك واذا اجبتني فاخفض صوتك . هل تسمع صوتي

- نعم نعم اسمع كن من تكون فارحمي يرحمك الله وخلصني من هذا الوثاق

- انت تعلم يا سيدي انك هالك لا محالة

- هالك نعم لا محالة اذا لم تأت لمعونتي وانت قادر على ذلك وسا كافئك بما يجب

- كم تدفع لاطلاق سبيلك

- كل ما تملك يدي

- هل تسمح بعشرة دنانير

- أجل ومئة أيضاً والف اذا استطعت

- أتدفع مئة حقيقة

- أَدفعها ولا مئة

- وهل هي معك الآن

- نعم معي

- فأدفعها لي وانا اطلق سبيلك

- لا يمكن ان امد يدي الى جيبى لان يدي مر بوطتان خلف ظهري

- أنا احل رباطهما لكن لأحل الوثاق عن جسدك قبل أن تدفع لي المبلغ المذكور
- فافعل حفظك الله واطلق لي يداً واحدة حتى ادفع لك المبلغ

وحينئذ تقدم هذا الرجل متسللاً وقطع رباط يديه وفي الحال مد قين يده الى جيبه وأخرج الدنانير وتقدمه اياها وحقق النظر فيه فاذا هو العبد سائقه فطار صوابه اذ علم انه هو الذي القاه في هذا الشرك ثم قال له قد نلت جزاك يا ملعون فاطلقني حالاً اطلقني فمطمع العبد ذلك الوثاق الشديد ونجا قين وهو غير مصدق حتى اذا خرج من ذلك السياج وهو يسترق الخطى اطلق ساقيه للريح وحصل في بر الامان

واما قارون فكان قد اشتغل باله من جهة تنكريد وقال في نفسه من يدري لعل هذا الفرنسي انتهز فرصة الانفراد وهرب لكن لا بد ان اتى وانظر . لا بل يجب ان اصبر قليلاً ريثما أتو دستور الايمان حتى اذا فرغت اخرج في الحال واكشف مكانه ثم أخذ يتلو الدستور بتأن ليطول معه الوقت

واما تنكريد فكان قد مل من كثرة الانتظار وكانت ركبته قد تألمت من الحصى ويده اليسرى قد خدرت من ثقل البندقية وشعر بالتعب في كل جسمه لحفظه وضماً واحداً فكان يتردد بين ان يصبر ايضاً او يغير مركزه لكن لعله ان اقل حركة يديها تكون دليلاً على مكانه اختار الصبر بضع دقائق

وبينا هو كذلك اذ سمع وراءه خشخشة خفيفة وفحيحاً فالتفت واذا بحية عظيمة معلقة بذنبها فوق رأسه ومادة نحوه عنقها فهاله منظرها وخفق قلبه جزعاً ونسي كل ما كان فيه من الخطر فدفعها ببندقيته دفعة شديدة والقاهها على مسافة عشرين خطوة وكانت هذه الحركة كافية لاستدلال قارون عليه فضلاً عن ان رأسه كان قد ظهر في خلال الحشيش عند ما ضرب الحية فلم يكن الا كالحب البصر حتى اطلق قارون بندقيته فاقلب تنكريد محتبباً بدمه وصرخ صراخاً أليماً وارتكض قارون لينظر في امره

وفي تلك الدقيقة كان العبد السائق قد قطع وثاق قين وسمع قين التلق وراى
 قارون مقبلاً فقال في نفسه قتلته الله ترملت اختي ولم يبق لها احد غيري
 قال هذا وفر كما سبق القول وتبعه ايضاً العبد لثلاً يراه قارون
 ولما وصل قارون الى تنكريد وجده منظر حراً والدم يفور من صدره وقد خرقتهُ
 الرصاصة فوق ثنودته اليسرى ولم تخرج من كتفه وليس عليه اشارة الحياة فاهتم
 قارون وتأسف عليه وقال قد اسأت اليه اذ ليس لي عليه ثار ولم يكن يعلم ان الذي
 فعله يستوجب تقمتي ثم ركم امامه ووضع يده فوق قلبه فلم يشعر بمحركة قهض
 وقال قد قضي الامر على غير ارادتي والآن يجب ان ادرك ذلك الشقي قيناً في
 قتلته بغيتي فالتفت يميناً وشمالاً فلم يجد له اثراً فتوهم ان عينه خدعتهُ لعلمه
 ان الحبل الذي ربطهُ به كان جديداً متيناً فطار نحو الشجرة كوميض البرق
 فوجد الحبل مقطعاً فتحقق انه نجى فاستشاط غضباً واكل اصابعه ندماً وقال كان
 يجب ان اقتله قبل كل شيء لكن صبراً فلا بد ان القاه ولو طار باجنحة الرياح
 وفي الحال اسرع قاصداً الدار التي استأجرها قين لكن اخطأ ظنه لان قيناً كان
 قد قصد جهة مخالفة واعاره الخوف جناحين حتى ادرك المينا فوجد اختهُ في محبتها
 في حالة يرثى لها من القلق والجزع وقد مضى عليها وهي هناك نحو ساعة وهي تنتظر
 قدوم زوجها واخيها

ولما وصل قين كان المركب قد خرج من المينا فقالت له ويحك ماذا طراً عليكما
 واين تنكريد ومن اين انت آت في هذه الحالة الزرية اخبرني ماذا جرى اين تنكريد

الفصل السابع عشر

« رحيل قين وقينة وانيسة »

فلم يجر قين جواباً ونظر يميناً وشمالاً فرأى عدة زوارق في المرفأ فخرج قبضة
 من الدنانير والدرهم وقال لاصحابها هذه تكون اجرة من يوصلنا الى هذا المركب

فنظر بعضهم الى بعض شزراً لانهم رأوا من اصعب ما يكون ان يدركوا بالمجازيف سفينة قد ملأت قلعها الريح لكن تقدم منهم نوتي مسن كأنه في نضارة الشباب وقال لقين يا سيدي احاول انا ورفاقي الثلاثة ونسبح ان شاء الله لكن ان شئت فعجل لان عاقبة خمس دقائق تحول دون المرام وقال قين لقينه وهي متلاشية من الحزن اما تسمعين ما يقول تعالي حالاً فقالت له واين تنكريد لا يمكن ان اسافر واتركه فقال هلمي واسرعي فحياتنا متوقفة على العجلة وقال النوتي العجل يا سيدي فقد ضاق الوقت فلم ير قين بدءاً من اجبار اخته على النزول لان الجدال يحرمهم بلوغ النية فانهبها بيديه وهي تصيح وتقاوم ووضعا في الزورق واخذ الجماعة في التجذيف بسرعة عظيمة واما هي فشعرت ان كبدها تنفتت وقلبها يتصدع وقالت لاجيها قد اعدمتي رشادي قل لي ما فعلت بتنكريد اين هو كيف نسافر وتركة . واما قين فلما رأى ان الامر قد قضي وسواء عليه جزعت اخته اولم تجزع اراد ان يخبرها الحقيقة فاراها يديه وقد أثرت فيها الجبال وقال لها اعلمي اني حصلت على الحياة بأغرب الاتفاق وقد وجدنا قارون وقتل تنكريد فصاحت صباح اليأس ووضعت يدها على قلبها وأغمضت عينيها وسقطت مغمى عليها .

فقال قين في نفسه خير ما حصل فاذا بقيت كذلك لا يشتغل خاطر النوتية في بكائها ونواحها ومتى استفاقت اقنعها بأوضح عبارة ان موت تنكريد اوفق لها لان قارون كان قد كشف له السرّ وظهر من تنكريد انه مصمم على الانتقام واما اذا مات فلا تخشى الفضيحة وتبقى قينة أرملة الشريف الفرنسي ولذلك يحتمل ان عائلته تكرم وفادتها ومع ذلك يسهل عليها ان تتزوج بأحد الاشراف لانها صغيرة السن بديدة الجمال فتعيش بأرغد عيش وتكون في أشرف مقام

هذه الافكار كانت تسلي قيناً وتوطد أمله المستقبل وقد ازداد فرحاً بنجاته من يد قارون لان صورته لديه كانت أقبح من صور الابالسة وصوته في اذنيه ارهب من صوت الصاعقة وأهون عليه ان يقاوم العواصف والنار والفرق والزلازل من ان

يثبت امام وجه قارون

و بينما هو يردد هذه الافكار كان النوتية يبدلون غاية الجهد لكي يدركوا السفينة و رأوا انهم قد قاربوها كثيراً وكانت بالحقيقة وهي في تلك البقعة من البحر المحدقة بها جبال الجزيرة بطيئة السير لضعف الريح ولم تكن تتبع خطأ مستقبلاً ولذلك سهل على الزورق ان يدنو منها في وقت قصير لكن حالما انحدرت في عرض البحر اذا بقلوعها قد انتفخت وقوي هبوب الريح فالت على احد جانبيها ثم استقامت وتسالت بين الامواج كانسياب الاعمى في الرمل وقد شقت عباب البحر حتى ظهرت رغوة المياه وراها في خط مستطيل فصاح النوتي الشيخ قائلاً يا سيدي قد فاتنا الغرض وانت رأيت انا بذلنا كل الجهد لكن الآن قد غلبتنا الريح

فستقط في يد قين وارتمش بدنه وشعر كأن السماء انطبقت على رأسه فقال للنوتي يا صاحبي يا أخي لم يفت الوقت بعد اجهدوا انفسكم قليلاً لعلنا ندرکها فقال له النوتي عبثاً نجتهد فلانحاول الآ المحال وانت ترى انها امعنت في اللجة فأحمق الناس من يأمل ادراكها قال فما العمل اذاً قال ليس الآ الرجوع فاكفهر وجه قين وصاح مغضباً كلاً ثم كلا احب الي ان نموت ولا نرجع وفي الحال توهم انه يرى عدوه الالذ واقفاً على الجرف شاكي السلاح . ومما زاده هلوغاً انه رأى ان سواعد النوتية قد كلت وضعفت حركة الزورق

وكانت قينه لم تزل في غشيتها ولم يحاول هو ان يوقظها بل كان يقرع صدره جزعاً وكاد يمزق ثيابه غيظاً ثم لاح له ان يعلق منديلاً بطرف قضيب ويقف ويلوح به جهده ولما فعل ذلك صار النوتية يسخرون به في بواطنهم لكن لم يكن الامر كما توهموا لان رئيس المركب رأى بالاتفاق المنديل الابيض يلوح بيد قين فقال لا بد

ان هذا الزورق يكون فيه تنكر يد وامراته واخوها ثم امر ان يوقفوا السفينة ولما رآها قين وقفت صاح بأشد الطرب الحمد لله الحمد لله قد بلغت المنى هيا يا أصحابي جددوا همتكم وسترون مني مايسر خاطرکم

فتيقن النوتية بلوغ المأمول فجدوا في التجذيف الى ان بلغوا السفينة فأدلو اليهم
 سائماً من الخبال فنسلقها قين وهو لا يكاد يصدق النجاة ثم حمل قينة اثنان من النوتية
 وهي في الاغماء . ولما اراد النوتية الرجوع دفع لهم قين مبلغاً جسيماً حتى ذهلوا من
 فرط كرمه واجتمع بحرية المركب حول قينة واخذوا يتأملون في محاسنها ويرثون
 لحالتها واما قين فأخفى شدة فرحه وتظاهر بالحزن والاسف وقال للرئيس يا سيدي
 اذا شئت ان نحمل هذه المسكينه المنكودة الحظ الى الحجرة التي اعدتها لها عسى
 باذن الله وبهمتك وعنايتك ان تعود اليها وروحها

فتعجب القبطان من كلام قين وقال له يا سيدي قد اربعت قلبي اي ويل
 جرى لهذه السيدة ولم لم يأت بعلمها معكما

فلم يجب قين بكلمة بل اخذ منديله وغطى وجهه واخذ ينتحب انتحاباً شديداً
 فقال له القبطان وقد اخذه الانذهال سيدي . سيدي ماذا جرى

- آه لا لسان لي يتكلم ولا يطاوعني قلبي ان اخبرك يا للمصيبة ويلاه آه يا الهي
 هل ممكن لاختي ان تعيش واسفاه على سوء حظها

ثم زاد به الانتحاب الريائي حتى اجتمع حوله كل البحرية وعلت وجوههم
 الكآبة وتوقع القبطان سماع اشأم الاخبار فصبر على قين حتى سكن روعه ونقل قينة
 الى حجرة معدة لها وامر قهرمانة اينة ان تنظر الى احتياجاتها وتحسن ادارتها ثم
 عاد الى قين ليسأله عن الخبر فقال له

- اسمح لي يا سيدي ولو شوشت عليك ان اسألك شيئاً يهمني جداً لانه لم يعد
 لي صبر ان اعرف ما جرى عليكم وقد ارتجف قلبي لما سمعتك تذكر مصيبة فأرح
 بالي بالافادة

- ويلاه ويلاه اسفأ على صباثك ايها الشاب الشريف تنكريد يا أخي وحببي

- قد اوهيت قوتي وارتعدت فرائصي لم لا توضح لي الامر

- قتلوه قتلوه وا لوعتي عليه

- آه ٠٠٠ من قتله كيف قتل

- قتل واحسرتي وانا انظر اليه ولا أستطيع ان انجده آه وأسفي

- ومن هذا الخائن المرتكب هذه الفظيعة وأي ثار له عليه

- لا تسل . لا تسلي ليس لي قوة ان اخبرك وستعرف كل شيء والآن يهمني

امر أختي هذه المنكودة الحظ المترمة عروساً التي لا أظنها تعيش بعدها البعل العزيز

فسكت القبطان ولم يلح عليه بالسؤال ومضى به الى حجرة اخته وكانت قد

فتحت عينها واخذتها حمى شديدة وصارت تهذي بكلامها وتردد اسم تنكريد

وتسأل عنه ولم يكن في السفينة طبيب وظن الناس ان هذا المرض يؤدي الى

الهلاك واحتر القبطان في أمره واربتك واسودت الدنيا في عين قين وعلمت أنيسة

وهي في حجرتها غائصة في احزانها ان في السفينة امرأة دهمتها مصيبة تكاد تذهب

بحياتها فطلبت ان تأتي لمعوتها وتؤانسها وتقوم بتمريضها وان كانت لا تعرفها لانها

شريكة لها في البلاء ثم دخلت اليها ونظرت فاذا هي فتاة بارعة الحسن لطيفة المنظر

فقال لا سمح الله ان هذه الملاك تذوق الموت فهي مثلي سنأ وحالة وشعرت ان

قلبي سيحبها . وهكذا اقامت هذه النقية القلب الصافية النية الطاهرة السريرة تواظب

على احتياجات قينة

واما قين فلما عاد الى نفسه جعل يقص على القبطان قصة قارون وقينه وتنكريد

وما جرى لهم بتفصيل امتزجت فيه الحقيقة بالتمويه فصدق القبطان كل ما قال له

واتشهر الخبر بين كل الركاب وبلغ أنيسة ايضاً بلسان قهرمانتها فلما علمت ان هذه

الفتاة اللطيفة المريضة ارملة ذلك الشاب الفرنسي الذي حملته جريحاً الى بيت

أيها ازداد حنوها وميلها الى قينة لما بينها من آثار الاشتراك في الهوى

وطال مرض قينة حتى أشرفت على الهلاك وكانت أنيسة تواظب بغيرة وهمة

على حسن سياستها وأحيت فوق راسها لبالي طويلة غير ان فتوة قينة وحسن بنيتها

الطبيعية وحسن المعاملة التي عولمت بها تغلبت على المرض فعادت الى عقلها واتعشت

قوتها وأول ما وقع نظرها حين عاد اليها تمييزها على وجه أنيسة اللطيف ففرقتها في الحال ولا يبعد ان تنسب احزان قينة الشديدة واختلال عقلها بهذه الداهية العظيمة الى سقوط أملها مما كانت تنتظر بواسطة تنكريد من العزّ والجاه والثروة لا الى حبّ حقيقي ظاهر لاننا ذكرنا آنفاً الاسباب الداعية لتظاهرها بشدة الميل اليه ولما تقدمت في صحتها واستقرت افكارها دخل اليها أخوها وقص عليها بالتفصيل حقيقة ما جرى بين تنكريد وقارون لكن زاد على ذلك قوله يا أخي ان تنكريد ارغى وأزبد وأقسم لينتقم من حياتنا حينما اخبره قارون بمحقيقة أمرنا وبالاختصار يجب ان تعتبري موت زوجك حياة شرفك لانه لو عاش لفسخ عقد الزواج ولبست العار الى الابد

فلم تجبه بكلمة بل فاضت عينها بالدموع لانها بالحقيقة كان الحزن مؤثراً فيها ورأت ان صالحها بموته أعظم مما يكون في حياته املاً ان يصيبها من تركته حظ وافر وكانت المحبة تزداد بينها وبين أنيسة وازدادت علاقتها خصوصاً بعد ما استقامت صحتها حتى لم تعد تفارقها وكانت تقص عليها أخبار حياتها بأساليب التويه والتزيق ولم يكن في كلامها شيء من الحقيقة وأخبرتها أنيسة أيضاً بكل ما جرى عليها وعلى أيها لم تزد ولم تنقص حرفاً وأخبرتها عن شدة العلاقة والصدقة بين ايها وفيليب لوليان وقرأت لها الرسالة التي بعث بها ابوها الى فيليب وجواب فيليب له فينما كانت أنيسة تقرأ وتبكي وقينة تسمع وتبكي كانت تقول في نفسها ما أقل عقل هذه الفتاة ستصادف في فرنسا خطيباً شاباً جميلاً واسع الثروة فكيف تشكو دهرها فما أقول أنا وقد خاب كل رجائي وتهدمت إركان الآمال التي بنيتها آه يا ليتني كنت في مكان أنيسة فلا أستطيع ان أتصور ما ستحظى به من النعيم الا ويتلعب قلبي غيرة ومع ذلك ليست تظهر الرضى حتى أراها تسقط من عيني وتزيد مع ذلك نكايتي ومع ذلك كانت أنيسة مسلمة اليها نفسها قلباً وفكراً ووضعت بها كل ثقتها والخبيثة تتظاهر بأرقّ المداينة والطف المعاشرة

وكان قين ايضاً يتظاهر بالشرف والغنى ولا يعاشر الا القبطان اظهاراً لعلو شأنه ويتناول معه الغداء وينتقد على الطباخ في امور كثيرة وهو مع ذلك لا يعرف اسماء الاطعمة ويأبى تارة اكل مطبوخات تليق بموائد الملوك ويطلب اخرى لا يأكلها الا رعا ع الناس وفي اثناء احاديثهما كان يستخبر القبطان عن احوال بلاط المملكة ويخالج قلبه ان اخته ستكون من حظايا الملك وتكون كلتها نافذة ونعمتها طائلة



الفصل الثامن عشر

« الغرق »

ولم تنزل السفينة جارية بريح طيبة الى ان قابلت بسواحل برتوغال وبقى لها بضعة اسابيع حتى تدخل بحر المانش ومنه تصل الى ميناء مدينة هاور وكان القبطان مسروراً جداً بسلامة هذه السفرة ومما زاده سروراً انه قد يم بأعز الناس على مولاه لعله ان وصول أنيسة يكون عند فيليب من أشهى الاماني

ولما بلغت السفينة رأس سان ادر يانوس الواقع في طرف ولاية جليقية من اسبانيا سكنت الريح ووقف المركب عن المسير

وبينا كان القبطان وقين في تلك الليلة يلعبان في غرفة القبطان اذا بالباب قد فتح ودخل نائب القبطان ووجهه كالح فساله القبطان هل جد شيء قال ارى في السماء والبحر علامات تشغل الفكر فاخرج ان شئت وانظر فعلم القبطان ان الامر لا يخلو من خوف لان الرجل الذي أخبره بجرّب في سلك الابحر منذ عشرين سنة فخرج معه الى مقدم السفينة ونظر فاذا الريح راكدة ومنظر السماء والبحر غريب

ورأى على الافق خطأً من غيم اسود متلبد والقمر في أول شروقهِ أحمر كالدم وصار
خط الغيم يتسع قليلاً قليلاً ثم تزايد انتشارهُ بسرعة عجيبة ومع ذلك لم يشعر بنسمة
ينوس بها الضوء الذي في مقدم السفينة وسطح البحر حولها يتجدد تجعداً خفيفاً
سريعاً ويظهر هنا وهناك ازباداً متوالياً كالنجوم المنشورة كما يظهر من الموج الرقيق
الذي يتكسر على صخر قريب من سطح الماء لكن القبطان لم يكن يعهد هناك شيئاً
من الصخور وكان المركب بعيداً عن أقرب السواحل نحو ستة فراسخ
فلما رأى ذلك عبس وتجدت أسرتهُ ولحظ منهُ قين ذلك فسألهُ أي دليل
وجدت فانفض رأسهُ ولم يتكلم فقال لهُ مالك ساكتاً هل نحن في خطر
- حتى الآن لا ان شاء الله -

- وهل يخشى خطر وقانا الله من شرّ هذه الليلة

- ما أدري ما أجيبك لا يعرف الانسان ما يقدر الله عليه فنذ ركبت البحار لم
تقع عيني على مثل هذا المنظر المريب . وما ترى الغيم ينتشر ولا ريح تحركهُ والبحر
يضطرب ولا نشعر بما يوجب ذلك . ما الذي يحدث . لست اعلم فلنلقِ اتكالنا
على الله فصلّ ان شئت الصلاة المشهورة بين نوتية بلادنا وهي : ارحمنا يا الله .
مركبنا صغير جداً وبجرك كبير جداً

- بالحق هي صلاة موجزة مفيدة وقد حفظها

ثم أمر القبطان ان تجتمع الركاب في مقدمة السفينة حتى اذا عصفت الريح يكون
الكل مستعدين للعمل

ثم تزايد ازباد البحر وصار كل وجه الاوقيانوس يلعب كالنجوم وسمع صوت
كازيز المرجل وانتشر الغيم في الافق حتى بلغ سمت الرأس ثم أخذ الرعد يدوي
دويّاً بعيداً ولم يمض الا دقائق حتى حجبت الغيوم وجه السماء وقصف الرعد قصفاً
هائلاً وارتفعت الأمواج كالجبال واشتد هبوب الرياح من أربعة أقطار وصدمت
المركب حتى دار على نفسه كالرحى ثم تمايل مضطرباً وصدمةُ الامواج وتعالَت

عليه وجرته مسافة بعيدة

كل هذا جرى في أقل من دقيقة فخاف القبطان أشد الخوف وسقط فؤاد قين
جزعاً وأخذ الناس يشتغلون الاشغال الاحتياطية وكانت العواصف تمزق قلع
السفينة وانكسر احد السواري وحملت الريح قطعة منه الى مسافة بعيدة ثم سمعت
هداة في مؤخر المركب واذا بالدفة قد قلعت ودفعت الموج الرجل الذي كان عليها
دفعة عنيفة وفي ذلك الوقت تحققوا شدة الخطر والغرق القريب وسقط القبطان
عند أسفل الصاري منهياً القوى ولم يزل المركب مندفعاً نحو البر اندفاعاً شديداً
يصعد قم الجبال ويهبط في أسافل الوهاد ويميل يميناً وشمالاً والناس يتشبثون بجباله
وأخشابه حتى لا تقذفهم شدة الموج ودخل القبطان حجرة أنيسة وقينة وأخبرهما
بالمصيبة وقال قد اتقطع كل الامل الآمن الصلاة فقالت له أنيسة كم يبقى لنا من
الوقت قال نحو ساعة ما لم تحدث معجزة الهية

- لا يبعد أن الله يأخذ بيدنا بصدفة عجيبة لكن أين العجائب الآن وقد طلبت
الى الله مرة حين كان أبي على فراش الموت فلم يصنع معجزة . فاراد القبطان الرجوع
فقالت له نحب عند تحقق الهلاك ان تعلمنا لنخرج وننظر الى السماء النظرة الاخيرة
ولما خرج القبطان ضمت قينة الى صدرها وقبلتها بشوق وقالت لها لِمَ نخاف
الموت يا أختي العزيزة فأنا سنجد هناك أعز من كنا نحب هنا أبي وزوجك فلم
تجب قينة وقد شعرت بدنو الاجل وجمد دمها في عروقها

وحينئذ فتحت أنيسة علبة فضية منقوشة فيها جواهر ورسالة أيها وجوابها فضمت
رسالة أيها الى صدرها وقبلتها ثم أرجعتها الى العلبة فاقتلتها وقالت لقينة هوذا كنزي
لا يفارقني سيكون معي في قبوري المجهول وما علينا الآن يا أختي الا ان نركع ونصلي
وكانت الساعات تمضي والرياح تزداد عصفاً والويل اقتراباً واستدل الناس من
زحجرة البحر وعنف تنفس الامواج ان البرّ قريب وأهل السفينة خامدو الانفاس
متوقعون سوء نتيجة تلك الاحوال واذا بموجة كبيرة عالية آتية من العمق فرفعت

السفينة الى علو عظيم ونظروا فاذا اللجة تحتها قد انكشفت عن صخرين حادّين
 فارتفعت الاصوات بصراخ الويل والحرب حتى مزقت كبدا الجو وأرابت على زبحرة
 البحر ولطموا وجوههم ورأوا انهم على شفير الهلاك وبقيت السفينة ثانية واحدة على
 قمة تلك الموجة ثم هبطت في تلك الوهدة الجهنمية باسرع من انقضاض الصقر على
 صيده وارتطمت بذينك الصخرين بعنف شديد حتى سقط الصاري الاكبر من
 شدة اللطمة ثم وقفت السفينة ثابتة بينهما ولم يعد في استطاعة الامواج ان تزحزحها
 فارتفعت من الناس جلبة الفرخ والسرور وترجوا السلامة غير ان القبطان بقي في اليأس
 لانه علم ان حالة السفينة هذه ليست دليل النجاة وان الخطر لم يزل شديداً
 وكانت الامواج لم تنزل تعالى على السفينة وتصدمها صدمات هائلة وظهر للقبطان
 ان متانة السفينة لا يمكن ان تقاوم تلك الصدمات ولا بد اخيراً ان تتشقق ويذهب
 كل ما فيها هدرأ فرأى من المناسب في تلك الفترة من وقوف السفينة ان ينزلوا
 الزوارق ويركبوها لانه اذا كان لا بد من الموت في كل حال فالاولى ان يجاهدوا
 جهدهم لعلهم يدركون الساحل بالزوارق والنفس ما دامت في الجسد لا تزال معلقة
 آمالها باضعف الاسباب

ثم نزل القبطان الى غرفة انيسة وقينة واخبرها بواقعة الحال و اشار عليهما ان
 يصعدا على ظهر المركب فاخذت انيسة علبة الفضة وصعدت وامامها قينة فصادفتا
 هناك قيناً وهو في حالة تستحث على الضحك ولو في ساعة الخطر فانه كان كالح
 اللون يرتعد من البرد وقد ربط على صدره قطعة كبيرة من الفلين كان قد اعدّها
 لمثل هذه الغاية وطوق عنقه بيخنق مؤلف من حبات كبار جوفاء منظومة في خيط
 قنب غليظ لكي تمنع رأسه من الغوص في الماء وفوق ذلك ربط وسطه بجبل متين
 قد علق فيه صندوقاً من الخشب مقفلاً وضمن الصندوق وضع صرة ثقيلة من النقود
 والتحف حتى اذا سقط في البحر يبقى معتمصاً بالصندوق وما له تحت يده فكان
 اذا مشى في المركب ينجرّ الصندوق خلفه ويسمع له صوت هائل ومن داخله

صلصلة الفضة والذهب . وهو مبهوت محتار في اشد الجزع وكان اشد خوفاً لا على فقد روحه بل على ضياع ماله لانه ايقن بالنجاة بواسطة تلك الاحتياطات ولكن كان يخشى اما ذهاب المال او ان الصرة بثقلها تجره الى قعر البحر فالويل ان تركها والويل ان امسكها

واما القبطان فكان يشتغل في اهم الامور اي انزال الركاب في القوارب الى البحر لعل النوتية يدركون البر بهم وكان جملة من في المركب ٢٥ شخصاً ما عدا انيسة وقهرمانتها وقينة وقين وبرنيقة وكان في المركب زورق وطراد يسع الاول عشرة اشخاص والثاني عشرين فانزلوا اولاً الزورق ربطوه بالحبال وادلوه حتى بلغ الماء وصار الناس ينزلون اليه بواسطة حبل معلق في المركب واذا بموجة شديدة هائلة حملته ودفعته على السفينة فتحطم ولم ينبج احد ممن كان فيه فسقط بمن فيه من الناس وارتاع القبطان

وكانت السفينة في ذلك الوقت قد اخذت تتشقق شيئاً فشيئاً ولم تبق فرصة كافية للتروى في تخليص الباقين فامر القبطان بانزال الطراد على نحو ما انزل الزورق فنزل فيه ثمانية بحرية وعلق حبل من مقدم المركب الى وسط الطراد ينزل عليه الناس وتقدم القبطان الى انيسة وقال لها ياسيدي ارى ان تنزلي اولاً وعليك بالتجدد اذلا يمكن احسن مما فعلنا . قالت اتكلنا على الله ثم اتفتت الى قينة وقالت لها احفظي يا اختي هذه العلبه ريثما اصل الى الطراد فترميني الي وتزليين على اثري . ثم قبلتها مودعة وصلت صلاة خفيفة وشمرت ذيوها وتزلقت على الحبل فلم تصل الا وقد خدش الحبل كفيها من خشوته وسرعة تزلقتها

ثم قال القبطان لقينة اليك يا سيدتي الحبل والحقي برفيقتك فلما دنت لترمي بالعلبة الى انيسة وتنزل اذا بتيار هائل قد لطم الطراد فتكسرت مجاذيفه وانجر الى مسافة بعيدة فقال القبطان هلكوا لا محالة . آه ما هذا الويل العظيم . فقالت بل نحن هلكننا فهوذا الطراد طافياً على الماء قال كيف يمكن ان يقاوم عنف الامواج

وما بقي فيه غير اربعة مجاذيف على ما يريني وميض البرق ثم حجب الطراد بتعالى
الامواج وتوارى بالظلام

فقات قينة في نفسها ويلاه لم يبق سبيل الى النجاة قد هلكت وانا في ريعان
الشباب واسفاه على صباي . وكانت ثيابها مبللة بالماء وهي ترتعد من البرد والخوف
فنزلت الى غرفتها وانطرحت على فراشها وضمت الى صدرها وهي لا تشعر علة
انيسة الفضية

ولم يكن باقياً في المركب الا سبعة اشخاص فضلاً عن قين وقينة والقهرمانه وبرنيقه
فعمزوا على صنع رمت كبير واستشاروا القبطان فقال افعلوا ما ترون فاني ارى الرجاء
بعيداً فنهضوا في الحال بهمة عظيمة وقطعوا الصواري وانتزعوا ألواحاً من حافة
السفينة وشدوا رمتاً متيناً وسمروه بمسامير كبيرة ولم تمض ساعة حتى انتهوا من العمل
وفياهم يتعاونون على انزاله اذا بتيار هائل قد علا السفينة ودفع كل من كان على
ظهرها وبعد هنيهة وجد قين على مسافة مائتي ذراع عائماً بواسطة القلين والصندوق
يخبط في وسط اللجة وهذه الحادثة الهائلة كانت آخر نكبات الزوبعة وبعدها سكن
النوء وتبددت الغيوم وركدت الرياح وسطع القمر بنوره على وجه البحر المترجرج المزبد
وأما قينة فكانت لم تزل كما ذكرنا مطروحة على فراشها وهي في أشد الضيق
من الخوف متوقعة الموت كل دقيقة وهي ترتعد وترتعش وأسنانها تصطك وبدنها
يضطرب كلما اهتزت السفينة من صدمات الامواج ثم استغرقت في سبات النوم فلما
استفاقت اذا بالنور قد أضاء غرفتها بعد ذلك الظلام الخفيف ولم تعد تشعر بحركة
المركب ولا تسمع صوتاً وقد ساد السكون وهذا اضطراب البحر فتمعجت ونهضت
فلم تقدر ان تمشي لتخدر رجليها ثم عادت الى حسنها ودار الدم في عروقها فاشتدت
وخرجت الى ظهر السفينة ونظرت حولها فاذا كل شيء ساكن والشمس تتلألأ في
الافق الصافي والمركب معلق بين الصخرين على علو عظيم من سطح البحر لأن
المد كان قد انخفض وهبطت المياه بالجزر ورأت على مسافة فرسخين كتيبان راس

ادريانوس وكثيراً من الجزر الصغيرة منتشرة كالنقط السوداء على وجه اللجة الفسيح
ثم التفت نظرها الى ما امامها فرأت الطراد الذي نزلت فيه اينة في الليل يتمايل
تحت الصخور فصاحت متأسفة يا لسوء حظ اينة المسكينة لم يبق ريب في هلاكها .
ونظرت الى ظهر المركب فرأته اجرد لا شيء عليه من الصواري ولا الحبال ولا غيرها
من ادواته العكثيرة وقد بقيت وحدها وهي لا تعلم فصاحت ونادت باسم اخيها
والقبطان فلم يجبها احد فقالت هم نيام حتى الآن من شدة التعب ثم نزلت الى باطن
المركب وفتحت الابواب وهي تنادي فلم تر احداً ولم تسمع حساً فقلقت وحنقت
وقالت تباً لهم قد تركوني وحدي . يا الهي ارحمني وخذ بيدي واتقني من هذا
الخطر العظيم . ثم فاضت عيناها بالدموع وسقطت عياء . فلما عادت الى نفسها
رجعت الى سطح المركب وصارت تنظر الى البحر متأمة في حالها وحينئذ وقع
نظرها على اشلاء الغرق طافية على وجه المياه فارتعدت فرائصها واحدقت بنظرها
فتحقت جثة القبطان فقالت يا لمصيبة ساكون من جملة هؤلاء المساكين . ثم
حولت نظرها عنهم وهي تكاد تذوب اسى وقد تصدع قلبها وانفطرت كبدها
وانشقت مرارتها

وبقيت محتارة في امرها تندب سوء حظها كل ذلك النهار حتى اذا دخل الليل
وخيم الغسق نزلت الى غرقها لتنام فامتنع عليها النوم وأحيت ذلك الليل بالقلق
والتخيلات الهائلة والاضطراب الشديد الى ان لاح الفجر فزادت وساوسها وعادت
الى ظهر السفينة وكانت حتى تلك الساعة لم تذوق قوتاً . وبينما هي تفكر في طريقة لخلاصها
لاح لها ان تعمل علماً حتى اذا مر شيء من القوارب او السفن تلوح بالعلم فيأتي لنجدها
فلم يمض الا قليل حتى رأت مركبين عن بعد شاسع اقر بهما كان على مسافة
ميل فلوحت كثيراً حتى خدر ساعداها ولم تفز بطائل واستمرت قلقة مضطربة الى
قرب الغروب وقد فرغ صبرها واوشكت ان تسقط جزءاً وحينئذ ظهر لها مركب
مماثل السير وقد نشر قلوعه وظهر انه لا يقصد جهة مخصوصة . فاكثرت من التلويح

بعلمها واذا بالمركب قد اظهر علامات الانتباه وقصد جهتها حتى اذا دنا من الصخر
انزل قارباً وفيه اربعة رجال فوصلوا اليها وانزلوها ومضوا بها وهي لا تكاد تصدق
بالنجاة من شدة فرحها . وكانت علية اينة لم تنزل معها . وهكذا نجت بأمان
ووصلت الى البر بالسلامة

وسياتي ما جرى لها بعد ذلك في الفصول التالية لاجبار لؤلؤ بن فيليب لوليان .
لانه يلزم ايرادها في الفصول التابعة قبل تامة اخبار قينة ام الدواهي

الفصل التاسع عشر

« في حال فيليب لوليان وولده »

كانت دار فيليب فائمة في سفح اكمة مكاملة بالاشجار مشرفة على البحر المنشورة
فيه قلع المراكب المختلفة كالنجوم في قبة السماء ومدينة هاور حولها نضرة زاهرة
بالشجر والاغراس المتنوعة وقد احدثت بتلك الدار الحدائق والرياض كأنها بقعة
من الجنان وعلى قرنيها منظرتان يكون الجالس فيهما مشرفاً على اجمل المناظر
الطبيعية والصناعية

وكان عمر فيليب في وقت جري هذه الحوادث يناهز السبعين لكن هيئته تدل
على انه لم يتجاوز الخمسين وكان عالي الهامة مستقيم القامة عريض المنكبين واسع
الصدر معتدل السمن لم يجعد خديده كرور السنين كشف الشعر مسترسله جليل
الشبية اسود الحاجبين ازرق العينين تلوح عليه لوائح الشهامة وكرامة الاخلاق . نقي الثوب
اديب الزي . وتقدير ماليته نحو خمسة عشر مليوناً

وكان يذكر دائماً انه انتقل من ادنى دركات الخمول الى اعلى درجات المجد
فبعد ان كان نوتياً صار بناء سفن ثم اتصل بجمهده وجدده وعرق جبينه الى هذا
العز والغنى ولذلك كان يدأب على الاتضاع والدعة وحشمة اللباس وادب المائدة

وكان يفضل البساط على الزهو والدعة على الفخفخة

واجلاً ما اتصف به من الخلال الحميدة انه كان يذكر دائماً نعمة الله ويشكره
على ادرار خيراته ويتخذ ثروته وسيلة للبرّ وعمل الخير فيفيض العطايا والاحسان
في كل وجه يبسط كفه للسائل ويدرّ مناهله على الوراد وينقب عن اصحاب
العوز فيسدّ فاقتهم وكان يصنع الولائم ويدعو الجفلى (اي دعوة عامة) ويتهمج بسعة
يده ويسرّ برونق قصره ويزاد عند الناس اكراماً ووقاراً . وبالاختصار كان فريد
عقد الدهر وبيمة تاج العصر

وكان في اول مجرى الحوادث الآتي ذكرها جالساً في غرفته امام موقد يستدفئ
وهو غائص في لبح الآمال والهواجس مطرق كمن لا يعي على شيء وينما هو
كذلك اذ رفع رأسه متنبهاً بوقع حوافر فرس على بلاط فناء الدار فقام يشرف من
النافذة وعاد متبسماً الى مكانه وبعد هنيهة دخل عليه شاب ينزع اليه في الشبه
رشيق القوام لطيف الكسم ازرق العين مشرق اللون فتقدم الى الشيخ وقبل جبينه
ويديه باحترام وحياء بالسلام

فقال له فيليب كيف كنت في نزهتك يا ولدي وما سمعت او رأيت فتخبرني

- لا شيء يا ابي وانما انا ارتعد من البرد كما ترى

فتهض فيليب واشبع النار وقوداً ثم جلس وجلس بازائه ابنه لؤلؤ يصطليان .
وكان كل منهما يلحظ الآخر لحظاً خفياً وتكلم كلاماً لا طائل تحته ثم صمتا وقد
ظهر على هيتهما اشتغال البال ثم رفعا اعينهما فتلاقت الانظار دفعة واحدة

فقال فيليب ما بالك يا ولدي متغيراً

- ما بي من تغير يا أبت فلا أزال كما كنت

- هذه عادتك في الجواب لكن استصعب تصديقك

- أولاً تعلم الى الآن اني لزمتم الصدق ولم ينطق لساني كذباً

- أعلم ذلك فلا اتهمك بالكذب بل بالكنم عني

- ما الذي اكنتم عنك يا ابي وانا اعلم حنوئك وكرم اخلاقك
- تحاول اخفاء همّ حتى لا تكدرني
- أي هم يكون لي ومن أين تأتيني الموموم وأنت أبي وما الذي يتقصني من مشتهياتي
- اسمع يا لؤلؤ لا يُخدع قلب الوالد ولا عيناه فيلوح لي بل انا متأكد انك في همّ شاغل ولو حاولت اخفائه فاني متحققه
- قسماً!

- لا تقسم يا ولدي . وهذا الحزن الذي يزعجني ويغير ملامحك قد بدأ بدؤه فيك حال رجوعك من بريتانية منذ بضعة أشهر فتاني يوم وصولك رأيت في عينيك ذبولاً وفي وجهك ثقّة وفي حركاتك اضطراباً وصرت تكثر الخروج لتفريج الكربة وقل أنسك وكثر عبوسك وكلما كنت اسألك كنت تجيب كما أجبته الآن
- وهو ما اقول

- لا يكون هذا فان دلائل الاكتئاب لا تزال تتضح عليك من ذلك العهد ولا اشك انك تخفي في اعماق قلبك سرّاً عظيماً ولعلي اشفي غليلك بكلمة واحدة اذا صرّحت به

فسكت لؤلؤ وظهر عليه الجزع فقال له فيليب

- ألا تحبني يا ولدي . ألا تثق بي
- كيف لا يا أبت وكيف يلوح لك هذا الوهم
- اذا كان ذلك صحيحاً فاني طالب اليك طلب والد الى ولده او صديق الى صديقه ان تشرح لي صدرك وتطلعني على كل بواطنك
- ليس لي بواطن أخفيها عنك ولا سرّاً اكنتمه
- ويلاه منك يا ولدي لم يعد لك في ثقة البتة وقد أنكرت يا لؤلؤ خلوص طويتي وسيكشف لك الزمان فساد رأيك في أبيك وتعلم انه هو وحده يخفف احزانك ويفرج كرتك فلا تعود تكتم عنه شيئاً

فقال لؤلؤ في نفسه « لا بد من الكتم ولا يمكن ان أبيضه ولو هلكت »
 ثم سكت كلاهما وأسند فيليب ذراعهُ على المتكأ ورأسهُ على يده وجعل ينظر
 الى الموقد لا يراه فاستأنف لؤلؤ الكلام وقال له يا أبي ان الذي تنسبه اليّ من الهم
 والقلق أراه فيك فهل يمكن ان تخبرني ما سبب انزعاجك

- نعم يا بني ولست اكنم عنك اسراري كما كتمت عني اسرارك فان ما تراه
 بي مسبب عن تأخر قدوم السفينة التي أرسلتها الى هوانة لتأتي بصديقي الشيخ
 وخطيتك أنيسة وقد دقت جداً في الحساب تكراراً وفرضت الغرض فظهر لي ان
 السفينة يجب ان تكون هنا منذ شهر

وكان لؤلؤ لما سمع اسم أنيسة ولفظة خطيتك علا وجههُ الاصرار لكن اذ
 كانت النافذة ورائه منع نورها أباه ان يلمح اضطرابه ثم قال لايه

- وما الذي تخشاه أو توقعه من أمر السفينة
- مخاوفي تفاجئني من كل وجه وأخاف أن اذكرها
- أفلا تدري ان الدلفين من أحسن السفن وأمتنها
- نعم أعرف انه جديد ذو ثلاثة سوارٍ وأفتخر به على سائر المراكب وهو سريع
 متين مبطن ودسره من نحاس يقوى على العواصف والتيارات
- فهل ترتاب اذاً في قبطانه

- كلاً فإنه حاذق فطن لا لوم فيه وما أظن انه يُخاطر في حياة واحد من النوتية
 ويحذر الاخطار برزانة وسكينة ومعرفة تامة في فيه كل الثقة

- ومن في السفينة من الركاب
- ليس فيه الا نوتيي الاشداء الامناء نخبة سائر المستخدمين في سفني
- فاذا كان المركب جيداً والقبطان ماهراً والنوتية اشداء فما الذي نخافه
- طالما رددت هذا الكلام في أفكاري لكن لم أعرف ما سبب هذه العاقبة
- سنعرفه عن قريب وتزول أوهاملك

- عسى الله ان يقدر لنا ذلك فما أسعد اليوم الذي فيه تتحق آمالي وآمالك فاني
أضم الى صدري صديق صباي وتحظى أنت بتلك الفتاة التي لا تظنها الا ملاكاً
أهبط في صورة البشر

فعاد الى وجه لؤلؤ ذلك الاصرار وحاول اخفاء الزعاجه وقال

- عسى هذا اليوم ان يكون مباركاً فيتكامل سروري وتضمحل اكداري
التي توهمها

- الآن يا ولدي وقت المدّ فلا بد ان امضي الى المينالارى ما يدخل ويخرج
من المراكب فهل لك ان تصاحبني

- السمع والطاعة فاحسن الساعات من عمري هي التي تقضى برفقتك

وفي الحال خرجا معاً وشقاً الاسواق حتى وصلا الى الميناء وجعل فيليب يراقب

السفن الى قرب هجوم الليل فرجع هو وابنه ولم يكشف خبر الدلفين

ولما دخل غرفته اتاه كبير خدمه الامين وكان يقال له نسيم وهو كهل مهيب

صادق المودة امين في الخدمة فقال له فيليب ما عندك من الاخبار يا نسيم

- قال لا شيء الا ان رزمة من الرسائل وردت اليوم فوضعتها على المائدة

في القاعة

فقال فيليب في نفسه لا بد ان يكون بينها رسالة بخصوص الدلفين ثم اسرع

ورقى السلم المؤدية الى القاعة وتبعه ولده لؤلؤ فدخلا معاً وكانت الشموع مشعلة

فراى تلك الرزمة وكانت من اطراف الدنيا لانه لم يكن يدخل الميناء مركب الا

وفيه رسالة باسم فيليب لوليان لان شهرته كانت شاسعة واشغاله عامة فجلس على

كرسيه وقال لابنه احب ان تفض هذه الرسائل لنرى ما فيها وكما فتحت رسالة

اقرأ الى الامضا وانظر الى خواها باسرع ما يكون وبعد ذلك اخذها انا وامعن

النظر فيها واما الآن فلا يهمني الا ان اقف على خبر الدلفين فجعل لؤلؤ يفيض

الرسائل ويمثل امر ابيه وهو يقرأ الامضاء واسم البلد الآتية منها الرسالة حتى فرغ

صبر فيليب اذ لم يقف على مطلوبه واخذ كمية من تلك الرسائل وجعل يفتحها أيضاً الى ان انتهى لؤلؤ الى الرسالة لم يكن باقياً غيرها الا واحدة فلما نظر فيها جعل يتأمل ويحلق بعينيه وكان الامضا فيها اسم عميل فيليب في البرتغال وكان فيليب قد انتهى الى آخر رسالة مما في يده ففضها ليقرأها ولما رأى توقف ابنه عند الرسالة التي في يده تركها وقال له ما الخبر يا لؤلؤ ومد يديه ليأخذ تلك الرسالة وكان لؤلؤ قد اضطرب جداً فقال لايه العفو يا ابي ناشدتك الله ان لا تسألني عن مضمونها

- وما عسى أن يكون أويلٌ هو

- ويلٌ عظيم

- فأرغب ان اعرفه في الحال فلا تتأخر دقيقة عن ابلاغني

- سمعاً وطاعة لكن عليك بالصبر والحلم

- لا بأس فقل

فصار لؤلؤ يترجم تلك الرسالة بما يأتي

اسبونة في ٣ آذار سنة ١٧٣٥

سيدي الاستاذ الموقر

بكل كدر التزمت ان اعلمك ان بعض الصيادين من احدى مدن جليقية وجدوا على شاطئ البحر آثار مركب كبير على قطعة من مقدمه مرسوم بأحرف ذهبية هذا العنوان

(الدلفين — من مدينة هاور)

وفي الحال مضيت بنفسي لكي أتحقق الخبر وأقف على بعض التفاصيل فعلمت ان الدلفين ساقته العواصف سوقاً عنيفاً فارتطم في سواحل البرتغال على رأس ادريانوس وقد غرق كل ركابه وتلف كل شحنه وظهر على الساحل ١٥ جثة منها جثة امرأة

فلما سمع فيليب هذا الكلام انتشر الدم في وجهه وكاد يختنق وارتجفت اعضاءه
وكاد يسقط فاخذ لؤلؤ بيديه وهو يرتعد جزعاً ثم انطرح فيليب على المتكا واخذ
ينهد وجرت دموعه كالطرر وبعد دقائق سكن روعه وقال ويلاه لم تكن تلك
الوساوس عن عبث هلك الركاب . هلكوا جميعاً . وأسفاه عليك يا صديقي القديم
يا اخي الصادق لم يعد لي رجاء ان اراك وآهاً عليك يا انيسي يا ولدي المحبوبة
حرمت معرفتك وان ادعوك ابنتي . قد احضرتك المنية . ذهب الوالد والولد .
ذهب القبطان والنوتية . اغتال الموت جميعهم

ثم احنى رأسه على صدره وهو ينتحب وجثا ابنه امامه آخذاً بيديه ودموعه
تورّد خديه وقال في نفسه وقد داخله روح الاتعاش

انت تعلم يا الهى اني كنت راضياً بما قدرت لي واني لم اشك لها نصيبي لكن
شاءت عزتك الالهية ان لا تكون اينسة عروسي فقد توفيتها برحمتك وضممتها الى
احضانك الالهية فنالت السعادة الحقيقية وارجو من نفسها الطاهرة ان تصفح عن
اشراك قلبي بمحبة فتاة كاد يقضى عليها بوجودها جزعاً لكنني لم اكن لاسلوها
وبعد هنيهة رفع فيليب عينيه وقال لابنه

- اعطني هذه الرسالة لاعيد فيها نظراً

وبالاتفاق كان لؤلؤ قد القاها بجانب الرسالة التي فتحها فيليب ولم يقرأها فدف
لؤلؤ يده وهو مضطرب خافق الفؤاد فانفق وقوعها على الرسالة التي فتحها فيليب
فناولها اياها وهو يظنها الاولى

فمسح فيليب دموعه ونظر اليها وحالما وقع نظره على اول كلمة اندهش وحوّله
الى الامضاء ثم صرخ وضم يديه كأنه يشكر الله ونهض من سريره واعتنق ابنه
ووضحت عليه امارات الفرح العظيم

فخفق فؤاد لؤلؤ واخذه الدهول وظن ان اياه قد اختل لموت صديقه فلم يشأ
يسأله شيئاً خوفاً من ان يسمع من كلامه ما يثبت جنونه

واما فيليب فشعر بما خامر ابنه من الوسواس فحل يديه عن عنقه وقدم له تلك
الرسالة قائلاً انظر يا ولدي انظر
فلما التى لؤلؤ نظره عليها ارتعش بدنه لانه نظر الى الامضا فوجده « انيسة »
فقال وهو كالمأخوذ

- انيسة . . . انيسة في قيد الحياة

فاجابه فيليب حي هو الرب . انيسة لم تمت وكان خلاصها عجباً ولعل الله
تحنن وخلص غيرها

فاكتب لؤلؤ في الباطن وقال في نفسه حية هي . . . هكذا مشيئة الله لا
مناص من قضائه

ثم قال له ابوه وهو يكاد يطير من الفرح اسمع يا ولدي اسمع فانا اقرأ لك هذه
الرسالة فسقط لؤلؤ على الكرسي وهو لا يعي وتلى فيليب ما يأتي
من الناصرية

فارتجف لؤلؤ عند ذكر هذا الاسم وقال عجباً أي الناصرية هي فقال ابوه هذا
ما في الرسالة وما الداعي لتعجبك فقال تم يا ابي تم . فتلا
انت هو الرجل الذي كان ابي يدعوه اخاه . انت هو الذي كان يحبه محبة
فاثقة انت هو الذي امرني ان احن اليه حينني الى ابي قد احببتك وستزيد
محبتني لك اذ لم يبق لي في الدنيا سواك . مات ابي وكفنت بيتيمته
ثم قطع فيليب القراءة وقال وهو يمسح دموعه وآسفاه عليك يا يوشع الصديق
يا اخي الشقيق . لا . لم تميم ابنتك وانا ابوها
ثم عاد فتلا

بعد ثلاثة ايام من انتقال الذي تنوح عليه كما انوح خرجت من هوانة الى
المركب الذي تكلمت بارساله ولم يكن معي من الميراث الموهوم الا رسالتك
العزيزة التي كان المرحوم والذي يبلها بدموعه ويضمها الى صدره ويقبلها وهو

يجود بنفسه

ولما قاربنا الوصول ثارت بنا الانواء ودفعت المركب على الصخور فتحطم
ونجوت انا وحدي بمعجزة من الله وبعد ان احييت بالمخاوف ليلتين لن يبرح
هولها من مخيلتي فريدة شريفة جزعة تحيط بي جث الغرق وحطام السفينة
وجدت بالاتفاق سفينة فرنساوية قادمة الى جهة ذلك الصخر الخيف الذي كنت
اتوقع عليه الموت فاخذني اصحابها واتوا بي الى بلدة من بريتانية يقال لها الناصرية
ومنها اصدرت رسالتي هذه

وكان في عزمي بل مفروضاً عليّ ان اكتب اليك قبل الآن لكن اوهت
الاحزان قوتي وأضعفت المخاوف والوساوس عزمي وفي يوم وصولي الى البلدة
المذكورة ذهمني المرض واشتدّ عليّ حتى كاد يذهب بنفسي فنجاني الله بأعجوبة
أخرى فقد أرسل الى معونتي ملاكه في صورة فتاة يقال لها نور فليباركها الله من
علو سمائه

فلما سمع لؤلؤ اسم نور ارتجف ووضع يده على قلبه وصبغ الاصفرار وجنتيه ثم
انقلب على الكرسي وهو يتمم بهذه العبارة . « نور أقتدتها »
وكان ابوه لم يشعر بما أصابه لانهما كه في قراءة هذه الرسالة العزيزة فالتفت
الى ولده وقال لؤلؤ يا ولدي المحبوب اياك ان تنسى هذا الاسم اسم « نور » التي
أقتدت حبيبتك

فقال كن مطمئناً يا ابي لست أنساه ما دمت حياً . فأمم فيليب القراءة كما يأتي
والآن شكراً لله ولعناية هذه الملاك قد نجوت من الخطر لكن لا أستطيع
الاتقال الى بلدك لضعف قوتي وبلغني ان سفينة تسافر في آخر هذا الاسبوع الى
مدينة هاور فاكون فيها

ولست أدري متى تبلغك رسالتي هذه قبل وصولي أو بعده واني في غاية
الشوق الى مشاهدتك واعلم انك بمقدار ما أحبيت الوالد تحب الولد وانك ستكون

رجائي الوطيد وملاذي الوحيد في هذه الدنيا ولي على ذلك شهادة من نفس رسالتك الثمينة التي حفظتها محافظةً عليها في تلك الاخطار الشديدة محافظتي على نفسي فانك تقول فيها « سنكون مذ اليوم عائلة واحدة » وبناء على ذلك أحبيك تحية الولد للوالد وأتقن اني اكون ابنتك الطائعة المحلصة
أنيسة

وكان فيليب يقرأ العبارة الاخيرة وصوته يتقطع ثم قال يا لشرف النفس وعزة الاخلاق وفضل الطهارة والادب هذا روح أيها قد دبّ في عروقه طوبى لك يا ولدي لؤلؤ ما أسعد نصيبك فلم يجب لؤلؤ بشيء وأخى رأسه وكان الليل قد دخل فكشف فيليب رأسه وقال تعال يا ولدي حتى نصلي ونطلب من الله ان ينعم بالراحة وفرح الفردوس على نفس حبيبتنا يوشع ونشكره لانه انفذ من مخاطر البحر والمرض خطيبتك أنيسة

فامتثل لؤلؤ أمر أبيه فقال له ولنسأل الله أيضاً ان يبارك من علو سمائه الصبية نور البريتانية فقال لؤلؤ نعم يا أبي . ثم قال في نفسه « آه يا نور ما أشد ما أقاسي »

الفصل العشرون

« فوائح الغرام »

ذكرنا في أحد الفصول السابقة ان لؤلؤاً كان غائباً في بريتانيا حينما خرج الدلفين من هاور قاصداً هوانة وذكر الخبر جرى في اثناء حديث قبضانه ليوشع وكان لؤلؤ كما سبقت الاشارة شاعراً ومصوراً فكان يتجول في البلاد للتفرج واخذ الرسوم الطبيعية الظريفة ويلبس لباساً بسيطاً ويطوف منفرداً ويحمل على كتفه كيساً فيه أمتعته اللازمة ومن حملتها قلم وورق وعلى جنبه بندقية صيد وفي يده عصا ومنطقته مملوءة ذهباً فكان يقطع المراحل تارة ماشياً وتارة يستأجر فرساً

ويقيم هنا يوماً وهناك اسبوعاً على ما يخطر له وحسبما يرى من لزوم الإقامة لتصوير المناظر وينزل في فنادق متوسطة الحال ويفحص اخلاق الناس وعوائد البلاد فكان يقضي ايام سياحته بسرور ولذة ولا يمنعه ابوه عن شيء يريد

فاتفق له مرة ان وصل الى قرية يقال لها الناصريه في حدود برتانية البحرية وكانت المناظر هناك غاية في الظرف ورأى في القرية المذكورة بيتاً لطيفاً بازاء الكنيسة محاطاً باشجار نضرة فتمصد الفندق ليستريح به ويزور ثاني يوم ذلك البيت لاخذ رسمه وكان يقال لصاحب الفندق اللويزي فلما رأى لؤلؤءاً داخلاً تفرس فيه متعجباً لان هيئته تدل على رفعة اصله واما لباسه فكان كلباس العامة فاحتار في امره وشعر بذلك لؤلؤء فتبسم فقال له اللويزي ما تطلب يا اخي قال طعاماً ومبيت ليلة

- اما الطعام فحاضر واما المبيت فلك ان تختار بين ان تكون منفرداً في حجرة او مشاركاً لغيرك

- احب العزلة

- او تدري ان السعر يكون اغلى

- لا يهمني ذلك

فامر اللويزي احد الخدم ان يعد له حجرة خاصة ثم قال للؤلؤء

- هل تطيل الإقامة في هذه البلاد

- ثلاثة ايام على ظني

- المصالح تجارية؟

- لا

- اذاً لك اصدقاء في هذا القطر

- لا اعرف احداً

فحك اللويزي رأسه وكاد يصبح به قائلاً فما مجيئك هنا ان لم يكن لك معرفة

باحد ولا مصلحة تجارية لكن لزم الوقار وكبح جماح لسانه فقال له لؤلؤ

- يا معلم سررت نفسي بحديثك وغظت بطني بالمطاوله فمجل لي بالطعام اذا شئت فبادر في الحال الى اجابة طلبه وقدم له من احسن ما عنده ولما فرغ لؤلؤ من الطعام دخل الحجرة المعدة له وكانت بسيطة حقيرة الفرش فجعل منطقته تحت رأسه ونام

فلما طلعت الشمس نهض ولبس ثيابه وخرج من الفندق وقضى ذلك النهار وهو يصور المناظر المختلفة

وكان اللويزي قد تسلل وراءه ليعلم ما مراده من تلك البلاد فلما رآه يرسم ظن انه مهندس مرسل من قبل الوالي لامور ذات شأن فعظم في عينه واجل مقامه وصار من ثم يبالغ في اكرامه

وفي ثاني يوم قصد لؤلؤ ذلك البيت اللطيف المحاط بالحدائق وكان قد رآه من البحر فدخل طريقاً ضيقاً على جانبيه الازهار والاعراس من كل نوع فتقدم فيه الى ان قابل البيت المذكور فرآه جميل المنظر امامه برك قد صفا ماؤها وتهدلت فوقها اغصان الاشجار وانفرشت حولها الازهار البديعة وارسلت الشمس اشعتها فزادت ذلك المنظر رونقاً وكان يياض حيطان البيت يتلألأ في خلال الاشجار كسيكة من الفضة وزاده بهجةً وحياءً طنين ذباب العسل وتنفقة الدجاج وبقبة البط وغير ذلك من اصوات الحيوانات الالهلية على قلة عددها

فجلس على صخرة وجعل يتأمل في تلك المناظر الفاتنة الظرف ويقول في نفسه ماذا يتمنى الانسان فوق هذا البيت كالبيضة في الروضة وعروس لطيفة اديبة ومدخول عشرين ديناراً فما هي الجنة بغيرها وصورها وزلالها وخضرتها واي نفع لي من الملايين اذا لم احصل على مثل هذا النعيم

فأخذ القلم وصار يرسم تلك الرسوم البديعة حتى اذا قارب الفراغ نظر في الرسم فقال ما أجمله لو لم يكن فيه تقص فكان يجب ان تكون صورة امرأة في ظل هذه

الاشجار وصورة أخرى في هذه النافذة وراء الاغصان ومن العجب ان لا أرى
انسياً في هذه البقعة

وبينا هو يردد هذا الفكر اذ حانت منه التفاتة فرأى طبق متمناه ما أدهشهُ .
رأى صبية في غاية اللطف والبهاء مطلةً من النافذة وامرأة أخرى واقفة بين شجرتين
قرب البركة فجمد مبهوتاً وسقط القلم من يده وقال يا للعجب أفي منام أنا ام
أرى الحقيقة

وكان الامر في الواقع لا رؤياً فكانت الصبية التي رآها في النافذة مناهزة السابعة
عشرة من عمرها وجهها الى الطول عليه لمحة من الاصفرار وشعرها أصهب مضمفور
وفي لحاظها يخال اللطف والدعة وشفاتها كالقرمز مشقوقتان كأنها تبسم
والمرأة الاخرى التي وقفت بين الاشجار حيناً وقع نظرها على لؤلؤ كانت
جسيمة متينة العضل لابسة ثياباً ملونة ويظهر ان عمرها خمس وعشرون سنة وفي يدها
اليسرى سلة فيها بيض وفي اليمنى صحيفة فيها لبن طري

فلما رأت الشاب الغريب تعجبت من وجوده هناك فوضعت السلة والصحفة
وتقدمت اليه وأحنت رأسها لترى ما في الورقة وصارت تنظر تارةً اليها وتارةً الى
النافذة وهي تضحك ثم صرخت قائلة

أعلمين يا مولاتي نور ما يصنع هذا الشاب . يأخذ رسم بيتنا تعالي وانظري
ثم التفتت الى لؤلؤ وقالت

حسن ما فعلت أيها الشاب فقد حكى رسمك الاصل

- أترين ان السيدة مولاتك محكمة الرسم

- نعم لا شك فيها هو البيت والباب والنوافذ الثلاث والسقف يخرج منه الداخون

وكل شيء متقن الرسم . الورد زاهٍ والدجاج كأنها تمشي والبط كأنه يسبح والمهر على

التفاحة يكاد يقفز . لكن في رسم مولاتي بعض النقص أما تراها تنظر اليك

- ضاق بي الوقت فلم أتم رسمها فاذا لبثت حيث هي بضع دقائق ترين رسمها

يكاد ينطق

- أسمعْتِ يا مولاتي اياكِ ان تبرحي من مكانك لتكمل صورتك
- أنا على ما تريدن يا سليمة فليفعل صاحبنا ما يشاء
- فالتفت لؤلؤ وحياها وقال أشكر فضلك يا سيدتي ثم انصب على العمل وسليمة واقفة وراءه تلاحظ حركة قلمه وهي تتعجب من صناعته
- فلما انتهى وثبت وصارت تصفق بيديها ابتهاجاً وتقول ما أحسن وما أجمل هذه الصناعة . واهاً للحاذق . هلمي يا مولاتي وانظري صورتك لا ينقصها إلا النطق
- ثم قالت للؤلؤ

- وانا الاخرى يا سيدي أما تحب ان تصورني
- افعل اذا شئتِ
- كيف لا ولي بذلك أعظم السرور
- فارجعي اذاً الى حيث كنتِ وخذي بيديكِ السلة والصحفة
- على الرأس والعين وسأرى من صورتني العجب
- وفي الحال اسرعت الى مكانها الاول ووقفت كما أشار اليها وكانت الصبية البيضاء قد نزلت من غرقتها ولما رآها مقبلة ابتهج برشاقة قدها ونحافة اعضائها ولطف ملبسها على بساطته ولح عليها امارات الشرف فهض على اقدامه ورفع برنيطته مسامحاً فقالت له
- العفويا سيدي لا أحب ان أعوقك عن عملك
- قاربت النهاية يا مولاتي ولم يبق إلا رسم أمتك سليمة فان صورتها بين تلك الاشجار في الهيئة التي ترينها تروق للنظر
- فصاحت سليمة من مكانها هذا هو الحق يا مولاتي ونظره في محله دعيه يفعل
- فجلس لؤلؤ واخذ القلم وعاد الى عمله والصبية تنظر الى الصورة وهي على وشك الانتهاء فقالت له

- ما الطف صناعتك واغرب حدقك في الرسم
- اكرمت يا مولاتي واطراأت على غير استحقاق وان لطفك ادّى بك
الى المبالغة

- هذا اكثر من اتضاع يا سيدي ولست انطق الا بما في ضميري فاني ارى
صورة بيتي مستوفية شروطها وقد زاده روتقاً ان رسمته بيدك واني ارى فيه على
هذه الورقة محاسن لم اكن اعرفها قبلاً

- تجاوزت الحد في الاطناب يا مولاتي حتى اريتني نفسي فوق ما انا اضعافاً
- ليس في كلامي مبالغة فقد اتيت بكل شيء طبق ما هو في الطبيعة فما يباريك
فلان وفلان وفلان وغيرهم من مشاهير المصورين

فرجع لؤلؤ رأسه وجعل يتأمل في هذه المخلوقة العجيبة واحتراف في امرها لانه رآها
شريفة الهيئة بدیعة الشكل ومع ذلك مسكنها بيت حقير في اطراف البلدة وما زاده
عجباً لطف كلامها وسلاسة عبارتها ومعرفتها بمشاهير المصورين فقال في نفسه ما
ادراني ان تكون هذه الصبية من سلالة الاشراف وقد اتت هذا المكان للتزوه وانه
من بعد املاك ايها . واطمعتة نفسه ان يسألها عن حالها لكن خشي ان يخرق
حدود الادب فعاد الى عمله . ولم تمض عشر دقائق حتى تمت صورة سليمة
واخبرها بذلك

فاسرعت تلك المرأة وهي تصفق طرباً وترقص وتقول ارنيها بجياتك ارنيها فلما
رأتها لم تعد تملك صوابها وقالت وي وي . واهاً ما احسنها واهاً ما اكملها فلست
اشك اني انا نفسي في هذه الورقة . ووتربة اجدادي لا ابدع من هذه الصناعة
فصار لؤلؤ ونور يضحكان منذهلين من خفة هذه المرأة ودار بينهما الحديث
كانهما متعارفان من زمان طويل وكانت الصبية بطهارة قلب وسلامة نية تهش الى
لؤلؤ وتبش في وجهه وتكلمه بانس ورقة حتى خلبت له فقال لها
- اصحيح يا مولاتي انك مسرورة بهذا الرسم البسيط

- قلت لك يا سيدي انه من اجل ما يكون
- افتحبين ان تجعليه اشد اعتباراً في عيني
- كيف ذاك
- ان لا تمنعي من قبوله فاني مقدمه لك لانه رسم منزلك
- فاحمرت وجنتا نور حياء ولم تجب نعم ولا لا فقال لها
- اقسمت عليك يا مولاتي ان لا تردي سؤلي
- ما ارى من المناسب ان اتمتع بهذه الصورة
- لم لا
- فلم تجب نور بشيء فقال لها
- لعلك تمنعين لانك لا تعرفيني وهذا هو الحق لكن تقدمتي هذه ليست على
- سبيل الهدية بل هي صورة منزلك لك فيها نفس الحق الذي في اثمار حديقتك فهي
- من جملة حاصلات بقعتك ولولا وجود بيتك لم توجد ولا تعتبر بها الا نظير صورتك
- المنعكسة عن مرآتك واني قد هجمت على هذا المكان متطفلاً ولذلك اعترف
- لك بالجميل واشكر فضلك وملاطفتك وكان لك الحق ان تخرجيني خائباً
- رويدك ايها الشاب فقد احسنت القول ما هذا اللطف الغريب
- هو ما اقول يا مولاتي وارجو ان تقبلي هذا الرسم ارشاً عن جرأتي . لا تحاولي
- الامتناع وبرهاني على لزوم القبول اني لا اقدم لك تحفة بل بدلاً
- ايُّ بدل هنا
- لا تتوهمي غير الحقيقة واكون انا الراجح في هذه التجارة فاقدم لك شيئاً واطلب
- ثلاثة اشياء
- عجباً وما هي
- باقة من الورد الذي عندك . وصحفة من اللبن . واذناً بعودي غداً لاعيد
- هذا الرسم . افتخالين بهذا الطلب طمعاً وأنا ارى لك فضلاً عظيماً اذا اجبتني

فجمدت نور صامته وتخصبت وجتهاها بذوب القرمز وهي تتأمل ولا تدري كيف
تجيب ثم رفعت نظرها إليه وقالت رضيتُ

- هذه هي السعادة التي أتمناها وقد أنعمت عليّ بها
- وأنت تكرمت فافضلت فليس عندي أئمن من هذا الرسم الذي طالما اشتبهتُه
فالاولى ان اكون أنا الراجحة في هذه التجارة
- وأيُّ غنىٍّ لكِ بها

- لي كل الغنى لاني أرى في هذه الصورة في فصل الشتاء خضرة أشجاري
وبهاء أزهاره وقد أستوجبت مني الوفاء في الحال فتكرم بقبول دعوتي للغداء واذا
امتنت أفسخ العقد فأقبل كما قبلتُ . نعم ان غدائي ليس فاحراً فاتماً هو لبن وخبز
وعجة بيض وبعض أثمار لكن ترى فيه أحد مطالبك واعتبر الباقي بمثابة رباً
- الامر امرك يا مولاتي فانا على ما تحبين وان زدتِ الفائدة
- حباً وكرامة فعمال معي الى البيت وسليمة تهبيّ الطعام لكن اعلم اني لست
من الاغنياء فلا تؤاخذ على القصور

- ولا أنا غني فتكفيني ملاطفتك وليس الغنى بالمال على ما أظن
- هذا هو الحق فاني على فقري أعد نفسي سعيدة
ثم دخلا المنزل وجلسا يتناغيان وسليمة تعد الغداء ثم وضعت الصحف على
المائدة وهي مفتخرة بصناعتها

ونظر لؤلؤء فرأى في الحائط صورة في برواز وفي الحال قالت له نور قد عزمت
ان أضع مكان هذه الصورة الرسم الذي قدمته لي فقال لها يا مولاتي لي في ذلك
فخر عظيم . واسألك هل عندك برواز آخر نظير هذا قالت نعم وما المعنى بهذا
السؤال قال احب ان اهديك رسماً آخر . والآن استودعك الله الى الغد
ارانا الله وجهك بخير ايها الفتى الفاضل

﴿ انتهى الجزء الاول وتليه الاجزاء الثلاثة تباعاً ﴾

« وفيها غرائب الاتفاق »

الجزء الثاني

غرائب الاتفاق

تعريب فقيد النظم والنثر
الروائي الشهير

المرحوم شاكر شقير
« البناني »

« مساعد في تأليف دائرة المعارف سابقاً »

طُبعت ثانيةً على نفقة مكتبة المعارف ومطبعتها

لصاحبها **بشير بن شقير** بمصر

ان الحكايات كنزٌ يستفيد به ذو الجهل عقلاً واهل العلم آداباً
فاحرز حقائقها واذكر بها حكماً اسرارها فتحت للعقل ابواباً

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

مطبعة المعارف بأول شارع الفجالة بمصر

سنة ١٩٠٥

الفصل الحادي والعشرون

« هيام لؤلؤ »

ولما رجع لؤلؤ الى الفندق جسماً بلا روح وصدراً بلا قلب وجد المعلم اللويزي على الباب فقال له

- ما تشتهي لغداً يا مولاي وابن هذه العاقبة
 - لا أشتهي شيئاً فقد تغديت في منزل يبعد من هنا نحو ساعة قُدَمَ لي لبن
 وكنت جائعاً جداً فلأنت بطني
 - تبا لهذا الغداء اما تعلم ان اطعمتي لا نظير لها في هذه البلاد وقد حرمت نفسك
 من مثل خمرتي المعتقة

- لا حرمان وقد حضرت فخذ لي قينة من هذه الحمر وقد حِين واتبعتني الى
 حجرتي منفرداً لان لي معك كلاماً

- حياً وكرامة يا مولاي فاني لضيوفي اطوع من الخاتم
 وبعد برهة قصيرة احضر اللويزي المطلوب وجلس امام لؤلؤ وصارا يشربان
 حتى دارت الخمر في رأس اللويزي وهو يفتخر ببضاعته فقال له لؤلؤ
 يا معلم لا بد انك تعرف كل هذه الارض فهل تخبرني لمن يكون ذلك البيت
 الجميل المحاط بالحدائق على مسافة ربع ساعة من هنا يدخل اليه بطريق ضيق فقد
 رأيت فيه صبية بيضاء الى الصفرة ليس عليها سماء اهل البلاد

- هذه السيدة نور والبيت يخصها
 - من تكون نور هذه
 - سيدة شريفة بقية سلالة عائله من اشهر عيال البلاد يقال لها القارونية وكان رجالها
 من الاشراف مشهورين بالبأس ورفعة الشأن وقد خانهم الزمان وفقدوا املاكهم
 - وأين والد هذه الفتاة وما فعل به الدهر
 - توفاه الله لاحقاً بامرانه وكان عمر هذه البنت اربع سنين وتربت في دير ومنذ

ثلاث سنوات أتت الى هذه البقعة بقية املاك عائلتها لتقضي أيامها براحة البال مع خادماتها الامينة سليمة ومع ذلك تراها تبذل النفأس في سبيل الاحسان وتقعن باليسير وتعود المرضى تكراراً وتحسن الى المحتاجين مدراراً حتى صارت محبوبة مكرمة عند الجميع ولقبوها بالملك الصالح

وبينا لؤلؤ يسمع هذا الكلام شعر بتأثر خفيف حتى سقطت من عينه دمعته في الكأس وقال لنديمه

- وهل تعد نفسها سعيدة هذه الفتاة

- لا ريب في ذلك على ما يظهر واما مدى حياتها فلا يظن لانها لا بد لها من احدى حالتين الزواج أو الدير وعلى ما ارى ليس لها ميل الى النسك لان تقواها تغنيها عن الاحتباس ومحبتها لعمل الخير تضطرها الى مخالطة العالم وطبيعتها الصباية تحتاج الى الزهه وتسريح الاظفار والتفرج بين الرياحين والازهار فوالحالة هذه لا يمكن ان تدخل الدير وان دخلت تزدهم عليها المساكين واصحاب الفاقة ويخرجونها عنوة

واما الزواج فليست الآن تهتم به لانها لم تبلغ العمر المناسب وما ادري ما يكون من امرها بعد سنتين او ثلاث ولا بد اخيراً ان تميل الميل الطبيعي الذي غرسه الله في قلب المرأة أي ان تتخذ زوجاً وتربي اولاداً لكن هنا صعوبة توقع في الارتباك لانها تمتنع بلا شك عن اول خاطب اذا لم تجده مماثلاً لها في النسب وحالتها الفقرية تمتنع الاشراف والاعنياء ان يتقدموا لها لان الذين يفضلون جلال النفس وكرامة الاخلاق والفضيلة والتقوى على جمال الوجه ورشاقة القد ولطف المنظر وملاحم الدلال والثروة نادرون جداً ولا سيما بين الاعنياء واصحاب النسب وهذه الفتاة حاوية كل هذه الخلال الحميدة لكن فقرها يحول دون نصيبتها أليس هذا الصحيح والواقع ؟

- كلا

- كيف لا . ما تقول

- اقول ان بين الناس افراداً يفضلون شرف القلب على شرف الاسم والتقوى على الغنى والعقل على الجمال فلا يفتلون عن مثل مزايا السيدة نور ويرون فضلها من خلال فقرها

- وأين هم هؤلاء الافراد أوجدون في الدنيا
 - يوجدون لا محالة لكن لا أعرف أين
 - إذاً متى احضرتهم لي اصوّب رأيك واني طالما عركت الدهر وفحصت قلوب
 البشر وطفت البلاد ولم أصادف أحداً إلاّ محب الذات ومحب المال وشيبيتي تشهد لي
 بطول اختباري

- لكن انا كما ترى فتى في عنفوان الشباب وقد عثرت على بعض من ذكرتهم
 لك اقل صفاتهم الخلوص والوفاء

(غني لؤلؤ بذلك والده وصديقه يوشع)

- خلوص ووفاء . هذا من المستغرب أتقول وجدت الكبرى الاحمر وقبضت على
 العنقاء ونلت بيض الانوق وصحبت الخلل الوفي . ولو فرضنا المحال ووجد بعض هؤلاء .
 الاشخاص تحت الشمس في هذه الايام وكان احدهم يليق بهذه الفتاة نور فما تكون
 عاقبة الامر

- تكون انه يحبها ويتعجب اليها ويتزوجها ويعيش معها بهناء وغبطة
 - لكن اسألك اذا صدق زعمك كيف يتعشق السيدة نور من يفضل غنى النفس
 على غنى الجسد

- هذا اسهل ما يكون فخالما يراها يهيم بها طبعاً
 - واين يراها وهي لا تفارق بيتها ولا يدخل حديقته احد فلا تمكن مقاباتها لمثل
 هذا الشخص الا باتفاق غريب اذا لا يحتمل انه يقصد رأساً دخول هذا الطريق
 الضيق ويفتح باب الجنينة ويدخل الحديقة ويرى الصبية ويحبها وتواقفه على الاقتران
 - عجباً كيف لا يمكن ذلك وانا رجل غريب ليس لي غرض في تلك الجهة وقد
 دخلت الحديقة ورأيت الفتاة

- واية نتيجة حصلت من رؤيتها فلم تعشقها ولن تتزوجها
 هنا انقطع الحديث لان الخدم دعوا مولاهم اللوزي بالحاح شديد لان جماعة
 من النوتية دخلوا الفندق وهم سكارى وعلاصراخهم وازدادت الجلبة فلم يربداً
 من الحضور

وبقي لؤلؤ وحده وقد خامر قلبه احساس غريب لم يعرف كيف يتدبره ولم تنجل له حقيقة وكان ينتظر بفروغ صبر اقبال الظلام وهو لا يصدق ان يرى ثانية تلك الحديقة وسيدتها

ثم جلس في الشباك وصار يحاول رسم بعض المناظر التي عرضت له فلم يكن قلمه يخط الا رسم بيت نور وقد علفت بها افكاره وانجذب اليها قلبه وفي اليوم الثاني سبق لؤلؤ الضحى وخرج من الفندق متزهاً في الحقول لانه لم يستصوب ان يطرق المنزل المذكور باكراً وكان في اثناء تجوله لا يزال يوجه نظاره الى ذلك المكان المحبوب

فلما مضت عليه ساعة من الزمان قصد المكان فاول ما وقع نظره على السيدة نور وهي تنثر الحبوب للدجاج والبط فسبقته بالسلام وترحبت به واذا بسليمة حضرت وسامت عليه ببشاشة وهشاشة . ثم دعت نور الى الوفاء بوعدِهِ ودخلت به الى منزلها وتبعها سليمة وقضوا حصّة من الزمان في المعاشرة والمزاح ثم طلبت سليمة اليه ان يرسم صورتها على انفراد فقال حباً وكرامة وحبذا لو سمحت لي السيدة نور ان آخذ رسمها ايضاً فقالت له نور ما الفائدة بذلك ليس لي احد من الاقارب اهديها اليه قال احب ان اشرف قلبي برسمك اللطيف تمريناً لصناعتي وتذكيراً لانسك وضيافتك قالت افعل ما تحب فلا اخالف لك اشارة

و بعد ان تناولوا الغداء شرع في الرسم فصور اولاً سليمة فاخذت صورتها مبتهجة وقالت هذه احسن تحفة اهديها الى جدتي وشكرت لؤلؤاً شكراً جزيلاً

وثاني يوم رجع ليأخذ صورة نور واشتغل في رسمها كل ذلك النهار وفي المساء قال انها لم تأت طبق مراده فيجب ان يعاود العمل فقالت له بل هي احسن من الاصل بدعيّة جداً فلا تحتاج ان تكلف نفسك الى تعب آخر قال يا مولاتي انا اعلم ان صناعتي تأتي باحسن منها وان الظروف الحاضرة شغلت افكاري حتى لم تأت علي ما احب وفي اليوم التالي عاد الى نفس العمل واظهر قلة الارتضاء من الصورة ثم عاد في اليوم الثالث وجدّ الرسم فلم يرضه ايضاً وكان لا يكمل من الشغل ونور لا تمل من الجلوس وهكذا بقي يحاول اتقان تلك الصورة العجيبة والايام تنقضي كمر السحاب

وهو يحدثها وتحديثه في اثناء الشغل وتقص عليه اخبار عائلتها السالفة وما كانت عليه من العز والكرامة وكانت لا تتأسف على شيء كتأسفها على فقد والدتها . واما لؤلؤ فكان يذكر صفات ابيه ووجهه له لكن يضرب حجاً على ثروته الواسعة

ولم تنقض تلك الايام حتى حصلت العلاقة الخفية بين القليبين ولم يعد احدهما يصبر عن الآخر الاً تكلفاً وحياءً لكن لم يكشفوا هذا السر العظيم وكانت نور تشعر ان حبهامه كحب الاخوت لاخيها وتعتقد فيه نفس هذا الاعتقاد واما هو فكان قد شعف بها ومنعه ادبها ورقة جانبها عن مفاحتها بتلاميخ الغرام بل كان يقول في نفسه عسى ان ولوعي ينتهي بالاقتران ولا يهمني فقرها فاني اغني اهل العصر

وبناء على ذلك صمم كل التصميم على اتمام مرغوبه وكان محتاراً كيف يفتح لها حديث هواه فبغريب الاتفاق بدأت بهذا الحديث الحلوى على الاسلوب الآتي لما مضى عليهما اسبوعان ودخل الثالث وهو يتردد اليها كل يوم من الصباح الى المساء داخله اشتغال فكر من جهة ابيه لان غيبته طالت وخشي ان تستطيل بزيادة لشدة تعلقه بهذه المعرفة الجديدة فغلب عليه هواه حتى لم يعد يفكر بالرجوع ولا يخطر ابوه على باله الا مساء حين ينفرد في غرفته

فأتى يوماً ودخل الحديقة فاذا نور جالسة في ظل شجرة وكأنها تأمل في شيء مهم ولم تسمع همس خطواته على الكلا فلم تنتبه اليه الا وقد صار امامها ثم رفعت رأسها ومدت اليه يدها فقال لها بعثك يا مولائي فأرجو المعذرة قالت لا بأس فقد صرت صاحب المنزل . قال بم كنت تفكرين قالت بك قال وما كنت تفكرين عني قالت بك كنت افكر لا عنك . ثم سكتا وبعد هنيهة سل من اصبعه خاتم ذهب منقوشاً وقدمه لها قائلاً

- يا نور العين هذا الخاتم رعبون زفاف والدتي فان كنت تعتقدين اني احبك وترتضين ان تكوني لي فاقبله من يدي فيكون دليلاً على الجواب الايجابي
ف نظرت اليه نظرة الهائم المنذهل واخذت الخاتم وجعلته في اصبعها وقالت بصوت مضطرب متقطع

- ملكتك قلبي واقسم ان لن يشاركك فيه احد

فلما سمع هذا الكلام شعر ان فؤاده انخلع من صدره وثمل من خمرة السرور
وظفح فرحهُ من عينيه ومدّ ذراعيه وضمها الى صدره بسكينة ولطف ووضع شفتيه
على جبينها ثم حلّ يديه وقد كاد يسقط غاشياً وهكذا توثق عهد المحبة والوفاء بين
لؤلؤ ونور وشاهدتهما من لا تنام له عين

ولما كان الغد ركب متن الطريق الاعظم قاصداً بيت ابيه بأسرع من الظير فلم
يشعر بتعب ولم يرث لدابته وكان قد قال لنور حين الوداع لست وليّ نفسي لكن
لا يحول بيني وبينك الآلموت فائتبي على الوفاء وانتظريني وثقي بمحبتتي فقالت له
احبك ولي فيك كل الثقة وانتظر عودك بفروغ صبر

وكان لؤلؤ لا يرتاب من جهة ارتضاء ابيه بكل ما يريد لان فيليب لم يكن
كهؤلاء الناس الذين يفتخرون بسيادتهم الوالدية على الابناء فيتجاوزون في الامر
والنهي حدود الاعتدال ولا ممن يدعون الخبرة والعصمة في تدبير مستقبل اولادهم .
ومما ثبتت عزمه وايد برهانه ان اباه نفسه اتخذ امه زوجة له وهي فقيرة وهو صاحب
مليون غير مبالٍ بالحسب والنسب

ولم تكن نور القارونية حينئذٍ اقفر من أم لؤلؤ حين تزوجها ابوه وفضلاً عن ذلك
كان نسبها معروفاً ومزاياها مشهورة فوضع لؤلؤ في رأسه ان يقول لاييه اذا عارضه
احبها ولا أعيش بدونها فاذا سمحت لي بها تجدد حياتي وكان يفكر انه يجيبه بالايجاب
فتصور حينئذٍ اباه قائماً له ذراعيه وقائلاً لنور هلمي اليّ يا ولدي العزيرة ولذلك كان
ينذل المهازين في شاكلي الجواد ويودّ لو كانت له اجنحة البراة

فوصل بعد خمسة ايام ودخل الدار لاهثاً قلقاً نسيماً الخادم الامين بسرور
وابتهاج واسرع فبشر اباه ولما دخل عليه ضمه الى صدره وهو لا يكاد يصدق رؤيته
وبعد ان غير لؤلؤ ثياب السفر اتى الى غرفة ابيه وجلس يحدّثه فقال له ابوه
- مهلاً يا ولدي قبل ان تقص عليّ اخبار سياحتك يجب ان اخبرك خبراً مهماً
يكدر من جهة ويسر من أخرى

- قل يا أبي ما تريد فاني طوع امرك

- سمعتني مراراً اذكر السيد يوشع الرويري

- نعم عرفت من احاديثك مقدار هذا الرجل وكرامة اخلاقه وانت تعلم اني طالما
تضرعت الى الله في صباي ان يباركهُ وينميهُ لانه انتشلك من خطر جسيم
- لكن يا ولدي لم يستجب الله طلباتك
- فهل حل به شيء من الويلات
- ويل عظيم
- فعلينا اذاً ان نمد يدنا الى معوته ونكافئه على فضله السابق
- فات الوقت يا ولدي وعسى ان لا يفوت الجزاء وقد بعث لي مؤخراً برسالة وها هي
ثم فتح رسالة يوشع المؤثرة المعبودة وأخذ يتلوها على مسامع لؤلؤ حتى صار لا
يملك دموعه ثم قال له اي جواب ارسلت اليه قال هذا هو الجواب وتلاه بتمامه وفي
آخره العبارة التي يطلب فيها ابنته أنيسة لابنه لؤلؤ (راجع صفحة ٥٩ من الجزء الاول)
فحالما سمع لؤلؤ هذه العبارة شعر كان صاعقة انقضت عليه وسحقت قلبه فاصفر
وارتعش واسند ظهره على الكرسي لئلا يسقط فظن فيليب ان هذا التغيير نتج عن مفاجأة
اخباره بالخطبة التي لا انفكك لها لاقتضاء عزة النفس وشرف القلب وانه من اللزوم
اتمام ذلك جبراً لمخاطر ايها وانعاشاً لقلبها المنكسر ثم قال له أصواب ما فعلت يا ولدي
هل عملت ما عليّ قال نعم عملت ما عليك وحسنًا فعلت
- ومن ذلك الوقت صار لؤلؤ يقضي ليله بالقلق والارق ونهاره بالصيد والنزهة من
الشفق الى الشفق وهو لا يدري من اين توكل الكتف (١) ولا من أي حوض يغترف
ومنعته عزة نفسه والمحافظة على عهد أبيه ان يكشفه بسرّه ويطلعهُ على عهده مع نور
ولذلك كان دائماً في حالة الانكسار والحزن وابوه لا يزال يوجس في نفسه مخاوف شتى
من جهة ولده ولا يعرف كيف يداوي هذا الداء العياء حتى كان من امرها اخيراً ما
مرّ ذكره في اواخر الفصل التاسع عشر في الجزء الاول

الفصل الثاني والعشرون

« تلبس أم الدواهي »

قلنا ان بلوغ رسالة أنيسة الى فيليب أثر فيه تأثيراً عظيماً ولم يزل من ذلك الوقت قلقاً منتظراً قدومها في السفينة التي ذكرتها

وكان البريد في ذلك الزمان غير منتظم فعرف من تاريخ رسالتها وتعديل مسير المركب انها تصل ثاني يوم فامر ان يعلم بكل سفينة ترد من جهة الناصرية لكي يلتقيها في المرفأ ويطلع بها بعز وجلال وأعد زورقاً مزخرفاً فيه ستة رجال لكي يذهبوا الى السفينة حال وصولها ويأتوا بأنيسة . وعلى الرصيف اوقف مركبة مزينة لتأتي بها الى منزله فاقام كل ذلك النهار في الميناء وأتى الليل فأمر اثنين من معتمديه ان يكونا نائبين عنه في الاستنظار

واما لؤلؤ فكان متوانياً في الاستعداد للقاءها ويحتج لدى أبيه بماذير مختلفة ويقول في نفسه ان لم أرها اليوم فسأراها مدة طويلة كطول نحسي بالاستعاضة بمن لا أحب عن أحببت

ومضى اسبوع وفيلب لا يزداد الا قلقاً وحيرة وخشي أن يكون عرض لهامصاب آخر فازداد اشتغال باله وان كان الامر على خلاف ما توقع

وفي صباح اليوم التاسع بينما كان يلبس ثيابه للخروج دخل عليه نسيم كبير الخدم وقال وصل مركب من جهة الناصرية فيه امرأة لعلها تكون أنيسة فان كانت هي فستصل في المركبة بعد خمس دقائق

وبينما هو يتكلم وصلت المركبة ووقفت امام الباب الخارجي فتطلع فيليب وصاح قائلاً هي هي وخرج من غرفته بنشاط الشباب ولما وصل فيليب كانت قد نزلت من المركبة فتلقاها بلهفة شديدة وضمها الى صدره قائلاً أهلاً وسهلاً ومرحباً بولدي أنيسة المحبوبة قد وصلت الى احضان ابيك فما عاد عليك بأس . فجعلت هي تقبل يديه وعنته وجثت على ركبتيها ودموعها ملء جفنيها وقالت بارك يا أبي الوحيدة اليتيمة التي لم يعد لها ملجأ الا بيتك الحبيب وهي تتوسل اليك ان تحبها اكراماً لفقيدتها حبيبك

القديم . فقال لها ثقي يا بنتي العزيزة . يشهد الله وروح ابيك اني لا اعدك يتيمة وقد
صار لي باذن الله ولدان ثم انهضها بيديه وأخذ بذراعها ومشى معها
وكانت هذه الفتاة لابسة السواد وعلى وجهها نقاب اسود كانت قد اماطته كما

ينقشع الغيم الداجن عن وجه القمر

خودٌ بدت تختال في حلال الدجى وبوجهها القمرية أبهى نور

فلقد ظننت ككتيبةً من عنبرٍ نشرت لها علماً من الكافور

ومن يتأمل في ملامحها وتقاطع جسمها لا يشك من رشاقة قدها ونحول أعضائها
ودقة خصرها وكبر عينيها وسواد حدقتها واصفرار وجهها وانتظام ثناياها وغيد عنقها
وتثنيها في خطراتها وصناعتها في كسر جفنيها واسترسال شعرها الطويل وتضايق جبينها
وتقوُّس حاجبيها وغير ذلك من دقيق الملامح انها قينة أم الدواهي . وكانت هي هي
بالحقيقة متلبسة بنت السيد يوشع الرويري اتماماً لمقاصدها الخيثة

وهنا محلٌّ للنظر وموضع للسؤال كيف خطر لقينة الرقاصة الاسبانية أرملة الشريف
تكريد النجكي ان تدخل هذا المدخل الشديد وتقوم في مقام كسفير الهاوية اذا زلت
قدمها عنه بالاتفاق سقطت في هوة لا قرار لها

والجواب على ذلك سهل لا يحتاج الى اسهاب فمن المعلوم ان قينة كانت ذات
مطامع لا تُحدِّ ودُّها لا يُرد وحيل لا تُعد وكانت بعد ان تخلصت من الغرق تتأمل
وتعمن النظر في مستقبلها وهي قادمة في ذلك المركب الذي خلصها وأتى بها الناصرية
فأرت ان الزمان قد غدر بها وقطع جبل آمالها وان اخاها الذي كان سنداً لها في بعض
الظروف قد فقد وان انيسة التي كانت واثمة بمودتها قد احصيت في طغمة الملائكة فما
عاد يمكن لها ان تلجئ الى عائلة خاطبها وتطلب احسانها . ثم رأت ان خبر اقترانها
بتنكريد لم يعد يقوم له برهان لغرق رئيس المركب ونوتيته . ومن جملة ما تلف صك
الكنيسة الذي كتبه الكاهن عهداً لتزوجها في مدينة هوانة وكانت النسخة الثانية منه في
يد ذلك الكاهن فلا يمكن ان يخطر على بال مخلوق ان يطلبه لانها غير معروفة عند
احد من اهل فرنسا . فلما علمت ان كل الظروف من كل الجهات تؤذن بخفاء أصلها
وتضرب حججاً على حقيقة امرها انفتح لها باب صغير للامل اشرق منه على دماغها

نور خفيف فقالت في نفسها ما المانع ان اصل رأساً الى فيليب لوليان وأقول له كنت صديقة عزيزة للسيدة أنيسة وقد سلمتني عند اواخر حياتها (اي حين تددت من المركب الى الزورق كما مر في مكانه) هذه العلبة التي فيها رسالة ايها ورسالتك وها أنا بين يديك شريفة وحيدة لا مغيث لي ولا معين سواك . فلا شك ان هذا الرجل صاحب الملايين العظيم الشأن يغمرني بانعامه اكراماً لأنيسة

لكن قد علم القاري ان مطامع قينة كانت فوق ذلك بكثير فهما غزرت مواهب فيليب وطالت مدتها فهل يمكن ان تتحقق لقينة تلك الامال العظيمة او تشبعا كشي الضباب او تغنيها الاوشال عن الزلال او ترضى من الغنى بالقنى (١)

فلما خطر لها هذا الخاطر كبرت نفسها عن السؤال (٢) وتجددت مطامعها فقالت في نفسها كيف تكون هذه الهمة همتي وهذه الخيل حيلي وأعيش ذليلة حقيرة . وخطيبة هذا الفتى قد كان من نصيبتها ان تصافح صخور البحر . ولا تسمح كرامة نفسي وشهامتي ووفائي لصدقتها ان يموت معها اسمها وليس يصعب علي ان اقوم مقامها في هذه الخطة الشريفة

وحالما نطقت في نفسها بهذا الكلام ارتعش بدنها واتقبضت مفاصلها وتقلصت شفتاها وتمددت حدقتها وكنها سمعت هاتفاً جهنمياً يهمس في أذنها هذا الكلام « أقوم مقامها في هذه الخطة الشريفة » فاحت رأسها وبرقت عيناها وأزاحت شعرها عن جبينها المندى بعرق الارتعاب لكي تنفس الهواء وأخذت جيوش الاوهام تدافع في مخيلتها لكن لم تمض ساعة حتى جرى الدم مجراه في عروقها وغطى الجئار بهار وجنتها كأنها فازت بالغبلة على ضميرها فرفعت رأسها كأنها تجيب ذلك الهاتف قائلة

لَمْ لا . المسلك صعب نعم لكن الغاية حسنة ولا يمنعني شيء لان الركاب كلهم غرقوا واعرف بالتدقيق تفاصيل سيرة انيسة وايها وليس احد في فرنسا يعرفني او يعرفني فأبي وجهه يمكن ان يحبط عملي ومن يمكن ان يخونني او يكذبني فان شكوت القدر اكون قد اسأت المحبرة . فما انقلب الزمان هذا الانقلاب الا ليبلغني اقصى الغايات

(١) الكشية من الضب شحم بطنه . والوشل الماء الذي يتعلب من صخر او نحوه . والقنى

ما يبكي للعيشة . وكها كنايةات عما لا يبكي (٢) اي الشحاذة

هكذا شاء الله فلتمت قينة وتحبي انيسة فيا انا حية

وبعد ذلك جرى لها ما تقدمت الاشارة اليه من وصولها الى الناصرية ومرضاها واغاثة نور لها وارسال رسالتها الى فيليب ثم قدومها ودخولها معه منزله . واستمرت اكثر من ساعة تقص عليه اخبار موت ايها (لانها منذ الآن بمثابة انيسة) واخبار الغرق وفي اثناء ذلك تكرر قطع حديثها بالانتحاب كانها نفس القائمة مقامها وكان فيليب حينئذ كأنه على حجر الغضا لان الوقت طال ولم يأت ولده لؤلؤ وخشي ان انيسة (اي قينة) ترتاب من قلة اكرائيه بها وقد مضت عليها ساعة منذ دخلت المنزل ولا سيما ان خلاصها كان بنوع عجيب فما يكون الداعي لعدم مبالاة لؤلؤ بأمور كهذه وتربصه عن لقاء خطيبته

ولم يخف تواني لؤلؤ على دهاء قينة فتعجبت من ذلك وكادت روحها تزهرق ولم تظهر لفيليب شيئاً من اشارات جزعها وقد علمت انها استسهلت كل صعب حتى وصلت الى هذه الغاية المطلوبة واما الذي اوجسته من المخاوف فزاد كرهها انما هو احتمال امتناع لؤلؤ عن الاقتران بها فيا للمصيبة ويا للداهية لو صح هذا الزعم ثم اخذت تسلي نفسها بهذا الفكر « لؤلؤ لا يعرفني الى الآن فتى رأني تعقبه اول نظرة الف حسرة واذا اتفق انه يحب غيري فاني لا ازال به حتى احمو ذكرها من فكره فيجب ان لا يفكر الابي ولا بد اذا قلت ان افعل »

وكان فيليب قد ارسل نسيماً ثلاث مرات ليدعو ولده فحضر اخيراً لكن كان عبوساً مكتئباً كمن يمشي الى المشقة وحاول عند دخوله ان يحمو عن وجهه هذه الهيئة فلم يستطع

وحالما دخل وثب ابوه كأنه أنشط من عقال وقال لقينة هذا لؤلؤ هذا ولدي ثم اسر اليها قائلاً « هذا خطيبك يا ابنتي »

فنهضت على قدميها وتقدمت اليه خطوات وهي كاسرة جفنها واخذت يده وقالت وصوتها يرجف « عليك ايضاً . عليك يا اخي القيت رجائي . فقل لي على الرحب والسعة . انعش فؤادي بكلمة الحب طالما قاسيت من الاخطار والعذاب لا اسمع في يتكم هذه الكلمة »

فقال فيليب لم لا تقبلها . افعل فلا بأس فلم يرد لؤلؤ ان يخالف امره واما قينة فلما رأت منه هذا الفتور صارت وجنتاها كالقرمز وكادت العبدة تخنقها ثم قال لها لؤلؤ لا احتياج يا سيدتي ان اخبرك ما تعرفين فيت فيليب لوليات وابنه هو بيت ابنة السيد يوشع الرويري وكل ما قاله ابي انا الآخر اقوله فنكون واياك عائلة واحدة

فشكرته قينة واخذت يده وقبلتها فشعر كأن لهب النار لزع يده فارتعش ورفع اليها بصره فراها بارعة الجمال وكان السحر ملء عيونها وفي الحال خطرت على باله نور وتذكر محاسنها والطاقفها وقال في نفسه سلام عليك يا نور فلا انسى عهدك ثم نظر الى قينة وقال في نفسه ايضاً . بديعة المنظر هولاً لنفسي

وكانت مخافة لؤلؤ من جمال قينة في محلها لانه لم يجد بدءاً من الميل اليها وترك حبيته نور بسببها واهم ما التفت اليه حفظ العهد بين ابيه وايتها فاضطر ان يسلمها زمامة دون قلبه وان ينقض العهد الذي عقده بينه وبين نور فلقى من ذلك عذاباً بالياً

وكان لا يجهل ضعف ارادة الانسان مهما ظهرت شديدة . ويعلم يقيناً متانة حباله الجمال والرقه فكان يحارب نفسه ولا يعرف كيف تأول به الحال ويود لو يموت ولا يحتمل شدة توبيخ ضميره لنكث عهد نور غير انه كان مجبوراً ان يحتمل كل هذه الشدائد ولا يخالف ارادة ابيه ويأمل مع ذلك املاً خفياً وبعيداً ان الظروف ربما تنقلب وتكون محبة هذه الغريبة اي ائيسة اخوية لا تفضي الى الميل الاقتراني فقال حينئذ في نفسه آه لو تم ذلك ويا حبذا لو صح المنام وأقسم ان ابتعدت عن الاقتران بي ان اكون لها اخاً شقيقاً ومحبباً صديقاً وأبيض عليها الخيرات من كل وجه وأبذل لها ثروتي عند الاقتضاء وادعها تتمتع بكل مشتهياتها ولا تطلب نفسها شيئاً من افراح الدنيا الا سمعت بنفسي لاتمام مقاصدها

وكم يفتقر الانسان بالاماني ويجهل الحقائق وهي مسترة بارق الاغشية وهذا الخطر العظيم كان يمكن للؤلؤ ان يخرج منه بكلمة واحدة لو استطاع ان يقوها لان قينة هذا هو مطلوبها اي سعة الثروة ورفعة الشأن وعلو الجاه لكن خانت لؤلؤ آماله وأخذت قينة تظهر لايه وجدها به وكانت قد سحرت ذلك الشيخ بلين كلامها ورقة

أساليها ولطف منظرها

فخلا يوماً بابنه وقال له هنيئاً لك يا ولدي هنيئاً لك فانت فقد وقعت من قلب
هذا الملاك أجلّ موقع فاحب ان تعجل الزواج لان صبري فرغ وبهمني ان أرى
ولذلك قبل ان اموت

ومن ذلك الوقت تعاضم همّ لؤلؤ وتفانم مرض قلبه وقد انقطع ذلك الخيط الدقيق
من آماله ولم يعد في طاقته الا التظاهر بالبشاشة والموانسة لقينة وتقريب أجل العرس
وجعل يهتم بلوازمه حتى صار كل من يراه يقول انه مشغوف بها والحال ان لسان
قلبه يقول

لا تحسبوا أن رقصي بينكم طرباً فالطير يرقص مذبحاً من الألم
ولما بقي من الميعاد يوم واحد وشهر الامر بين الخالص والعام وان مهر أنيسة
الرويرية يكون مليونين ووقع لؤلؤ على الاتفاقية في مجلس حافل صعد الى غرفته وأغلق
الباب وأخذ يتهد وعلا الاصفرار وجهه وتقبضت سحته واتحب انتحاب الثكلى حتى
مضت عليه ساعة فعاد الى نفسه وجلس على كرسي امام مكتبته وأخذ طرساً وقلماً
وخط ما يأتي

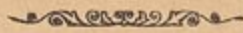
حبيبتي نور الوحيدة

اخطأت اليك لكن لا تهمني بالعدر ولا تلغني اسمي بل ارثي لحالي لاني قد
صرت أشقى الناس . تصدّع . قلبي واختل عقلي وحكمت علي يد قوية وارادة لا
تُردّ فالتزمت ان اتقض عهدك اي أقطع جبل رجائي او بالحري جبل أيامي
حلفت لي انك تنتظرين قدومي فاحثي بيمينك وانت بريئة لان معجزة من الله
فقط تريني وجهك

وأسفاه يا نور أصعب عليّ من الموت قولتي لك انت حرّة وغاية ما أتمنى ان
يوفق الله أيامك . لا تذكرني بعد الآن حبيك المنكود الحظ الذي لا يفتر دقيقة عن
ذكرك ولا تحبني بعد الآن من لا يزال مشغوقاً بحسانك هائماً في هواك
استودعك الله يا نور واودعك آمالي القديمة . ما أمر كلمة الوداع بعد توطيد الرجاء
على اللقاء وما أشد المصاب عند السقوط من ذرى الافراح الى حضيض الاكدار

هكذا قضى الله ولا مرداً لقضائه . اكرر لك بأشد الآلام كلمة الوداع ويا حبذا
لو شئت أنا ملي قبل ان كتبها

ثم طوى الكتاب ووضعه في غلاف وختمه بشمع اسود اشارة الى حزن نفسه ثم
عنوانه باسم نور وبلدها ونظر اليه قائلاً هنيئاً لك يا كتابي فستحظى بقاء من حرمت
رؤيتها الى الابد ثم حمله قبلة أخيرة وخرج ووضعه في صندوق البريد وعاد وهو يقول
قضى الامر ويلاه وتهدم كل ما بنيت في الماضي فعلي الآن ان اتراءى بالسرور وان
كنت ساعياً الى العذاب بقدمي



الفصل الثالث والعشرون

« حفلة الزفاف »

ولما كان الغد أشيع ان حفلة الزفاف تكون الظهر ويكون فيها من الابهة والجلال
والزهو ما يفوق الوصف فكان الناس يتقاطرون من كل فج لاعتبارهم فيليب سيدهم
الاعظم ولأن ولده كان كالابن للشيوخ والاخ للشبان وملاك الرحمة للفقراء والورث
الوحيد لتجارة أبيه الواسعة النطاق وامواله التي لا تكاد تحصى بالاقلام
وكان كل منهم يعلم خلوص المودة بين فيليب ويوشع فكان اقتران لؤلؤ بأنيسة
من أعظم دواعي الالفة وأجل نتائج الصداقة التي استمرت بين هذين الرجلين العظيمين
وكان الاخصاء الذين دعوا لمشاهدة العروس يكبرون امر جمالها ويعجبون من
لطفها وكانت النساء ينتهجن وينذهلن بثوبها المكمل بالحجارة الكريمة والمزين بالماس
الغريب والمطرز بالطرزات العجيبة وكان في عنقها عقد من اللؤلؤ قيمته مئة الف فرنك
وأساورها المرصعة بالالماس لا تفوقها حلى ملكة وقيمة دبايس الماس المعلق بها اكليل
العرس ٢٥ الف فرنك وبالاختصار بلغ ثمن ملبوسها وحليها اكثر من ٦٠٠ الف فرنك
فضلاً عن مهرها الذي كان مليونين

وبينا قينة في غرقها تأمل بأحوالها الماضية والحاضرة والانتقال العظيم الذي به
تحققت آمالها وهي تنظر غير مصدقة الى تلك الجواهر الثمينة وسائر أدوات الزينة البهية

متعززة بجمالها مفتخرة بجلالها وبين يديها المزيينات يصلحن شأنها اذا بالباب قد طرق
فأمرت احدى المزيينات ان ترى من الطارق فعاتت وقالت نسيم انخادم يقول ان
بالباب رجلاً يريد مواجهتها فتعجبت قينة وقالت من يكون ذلك الرجل
- يظهر انه سائل لان هيئته زرية فلا بد انه سيزعج مولاتي بسؤال شيء
من الصدقة

- ألم تقولي اني لا أسمح بمواجهة أحد الآن

- نعم

وبعد دقائق قليلة قرع الباب ثانية ففضبت قينة وأمرت المزيينة ان تكشف هذا
الامر فعاتت وقالت يا سيدتي ان هذا الرجل يلح كثيراً حتى يراك ولا يمضي دون ذلك
- وبأي جسارة يطلب هذا الطلب وهو فقير . اعطوه شيئاً وليمض لسبيله
- عرض عليه نسيم مبلغاً فلم يقبل وأصر على مواجهتك قائلاً انه من مدينة هوانة
وانك تعرفينه

فلما سمعت قينة هذا الكلام جمد الدم في عروقها وصارت لا تستطيع حراكاً
وخطر في بالها ان هذا الرجل اذا كان يعرف انيسة وهو قاصد لها فقد خابت الظنون
واقطع حبل الرجاء

غير ان همة قينة كانت عليا وعزمها شديداً وصبرها عظيماً فقالت في نفسها ان
كان فقيراً فالدنانير تقطع لسانه وفي الحال امرت المزيينة ان تأذن بدخوله وان لا
يبقى في غرفها احد

ثم دخل هذا الرجل ووقف بالباب واوماً بالسلام وكانت قينة ناظرة في الشباك
غير ملتفتة اليه فتقدم ثلاث خطوات واعاد سلامه وقال يا مولاتي اظن انك لا تعضين
طرفاً عن رفيقك في السفر وقد صار في حالة يرثى لها
فلما سمعت صوته ارتعش بدنها وقالت له بانخفاض اياك وصراخ الدهشة املك
نفسك والا فقد هلكتنا

فتحير من منظرها واخذته الجدة ثم رفع يديه وقال وهو يكاد يحنق من العجب
- اختي . . . شقيقة فؤادي

- صه ويحك يا قين
- قينة هذه انتِ ام طيفك اراه في الحلم
- اقسمت عليك برب الارباب ان تسكت ولا تذكر اسمي
- لاي سبب
- لان قينة لم تعد موجودة
- كيف لا وانا اراها بعيني واكلمها
- ألم تعتقد اني متُّ
- نعم ويلم الله بكيت احمر البكاء
- وانا اعلم حسن طويتك وهذا ما يجب ان تفعل وابق على اعتقادك لان قينة ماتت بالحقيقة ولم يبق لك اخت
- فمن انت ان لم تكوني اختي
- انظر هذا الثوب (وأشارت الى ثوبها الابيض وهو على الكرسي)
- يظهر انه ثوب عروس
- نعم
- وما المعنى
- المعنى اني أنيسة الرويرية وفي هذا اليوم اكون عروساً للؤلؤ بن فيليب لوليان صاحب الاربعة عشر مليوناً
- يا للعجب العجاب انتِ قينة اختي قينة . ما تقولين
- أقول ان اختك قد ماتت واكرر القول ان قينة لا توجد وأن أنيسة قائمة مقامها
- فهمت فهمت . فارجو السيدة أنيسة الرويرية ان تقبل احتراماتي وتهنئتي القلبية
- أليس صواباً ما فعلت يا قين
- كل الصواب أو قليل ان نربح كل هذه الملايين فاكشفي لي يا حبيبتي هذا السرّ
- المسألة بسيطة والقضية جلية . أنيسة الرويرية ستصير عروس لؤلؤ لوليان . أنيسة وحدها نجت من الفرق بأعجوبة وأتت بيت خطيبها لتزوج . هذه كل المسألة
- صحيح هذا

- وأنت ما فعل الله بك

- أنا الآخر خلصت كما ترين وكنت تظنين اني هلكت

- نعم وتأثرت لفقدك حتى ذرفت دمعي

- ويحك يا قينة ما هذا المزاح ألم تبكي عليّ كما بكيت عليك ساحك الله لكني

- اعلم ان اموراً مهمة شغلت افكارك حتى لم تبالي باخيك المسكين والآن ما مرادك

ان تفعل بي

- ما أدري الآن وسأدبر على ادخالك في هذه الدار كما حد الخواص

- وأول كل شيء اطلبه ان تكون بيدي مفااتيح صناديق المال فهذه الخدمة أوفى

لي من غيرها

- هذا هو الحق بالنظر الى زعمك واما أنا فأحشى ان يؤول الامر الى قتلك وعلى

كل حال فكن براحة بال وأتكفل بافعام اردانك

- هذا ما أحسبه وآمله من محبتك وخصوصاً اذا عجلت لاني الآن أفلس من

ابن المدلق

- وما فعلت بدنانيرك

- لما أقيت نفسي في البحر ليلة الفرق كنت رابطاً في وسطي صندوقاً فيه تقودي

فبقيت كل ذلك النهار طافياً واياه تتقاذفنا الامواج حتى وهت قوتي واشتد جوعي

وكدت اموت من البرد ثم وقع نظري على البر وكنت قد قربت فتجددت قواي بأمل

النجاة واذا بتيار القاني على صخر قرب بقعة رمل فتحطمت من عنف اللطمة وغبت

عن الوجود فلما استفتت وجدت نفسي على الرمل وما عليّ الا بقايا ثيابي الممزقة ومعلومك

ان البلاد التي القيت على ساحلها هي اسبانيا ولا يخفى عليك ان اقامتي فيها شديدة

الخطر وكنت قد سمعت وأنا في المركب عن غنى فيليب لوليان وسخائه وكثرة بذله

فعرزمت ان اقصده واقرع بابه واستمطر سحابه فاصيب منه خيراً عظيماً وخصوصاً بعد

ما أقص عليه اخبار مصائبي وهكذا قطعت كل هذه المسافة وأنا أتسول في الطريق

فلما دخلت هذه المدينة سمعت بنجر زفاف أنيسة على لؤلؤ فتيقنت ان كرامة اخلاقها لا

ترد رجلاً تعرف انه اخو امرأة الشريف تنكريد صديقها الخسيس وهكذا اتفق لي

معك اغرب الاتفاق

- سمعت ما قلت فاسمع الآن ما أقول
- هاتي ما بدالك
- أتسلم اني امهر منك في الصناعة
- لا أشك في ذلك لان الطريق الذي سلكته مع تنكريد كان عجيباً وأعجب منه بل أعجب العجب المسلك الذي تسلكينه الآن فليس دهاء يعادل دهاءك
- أتسلم لي بكل ما أمرك به وتنقاد اتياد الاعمى
- لا خلاف على شرط ان تمنحيني الغنى
- سأفعل
- قولي وحياة قينه
- وحياة أنيسة لافعلن
- حسناً اجبت فلا تجديني بعد الآن الا طوع ارادتك ورهين امرك
- اذا كان ما تقول فاخرج من هذه الدار ولا تكلم احداً ولا تجب عن شيء مما تسأل
- اخرج اصم ابكم
- فاذهب الى الفندق الذي على طريق الميناء وهناك تصل اليك مبالغ وافرة فتعيش رغداً لكن اياك ان يشعر أحد بشيء من دخائلك
- كوني مطمئنة
- واياك ان يعرف احد انك من هوانة او كنت من جملة ركاب الدلفين أو أنك تعرفني
- ساكون ان شاء الله كما تحبين لكن اسألك شيئاً واحداً ما المراد بكل هذا التحفظ
- حتى يكون لي وقت أتبصر في شأنك وأجد وسيلة لاعرف بك زوجي وعمي
- ما أعجب مكرك واحتياالك
- وفي وقت قريب ابعث اليك برسالة مفصلة فيها كيفية التصرف الذي يجب ان تتصرفه
- السمع والطاعة لكن عجلي ما استطعت واعلمي انه لا يمكن ان اخرج صفر اليدين

- هذا هو الحق فخذ الآن هذه الدنانير واستعن بها

فد يده بتلف وقبض عليها كما تقبض مخالب النور على الجيف ثم ودعها وخرج
فدعت بالمزينات وعادت الى مركزها الاول

وحينما فرغت من تزيناها دخلت امرأة وقالت لها ان سيدي فيليب وولده يطلبان
مقابلتك . قالت ليدخلا فلما وقع نظرهما عليها اندهلا من بديع جمالها وشعر لؤلؤ ان
احشاءه تتمزق وان قلبه لا يحوي الا رسم نور ثم قال في نفسه ويحي انا الخائن كيف
اذكر اسمها الطاهر وقد نكثت عهدا

واما قينة فتقدمت الى فيليب وانحنت امامه وقالت باركني يا ابي بارك ابنتك التي
تستحق بوجودك هذه الكرامة العظمى

فمد اليها ذراعيه واعتنقها وقال واهاً لك يا ابنتي الحبيبة ما أسعد أيامي بوجودك
اباركك من كل قلبي ومن كل نفسي وهذا اليوم أسعد أيامي آه يا حبذا لو كان ابوك
اخى العزيز موجوداً هنا ويشاركنا في هذه الافراح ويبارككنا معي فقالت له يرانا من
العلي ويباركنا ثم ذرفت دموع فيليب وجعلت قينة تمسح عينها متباكية
واما لؤلؤ فكانت محاسن قينة قد حركت عواطفه فحاول أن يشغل أفكاره بنور
لكن سحره جمال قينة وخب لبه لطفها وعلقه بها وشك الزفاف

ثم قال لها فيليب ما أجملك يا ابنتي ما أبهى طلعتك يا أنيسة فقالت اذا كان ما
تقول صحيحاً فيا لسعادي ويا لكبر حظي عند من يتمتع بهذا الجمال وأشارت الى لؤلؤ
فتقدم لؤلؤ وأخذ يدها وقبلها وقد سحرتة بمنطقها وقتنت عقله بملاطفتها ورأى انها
كسفت في مخيلته صورة نور

وحينئذ قال لها فيليب يا ابنتي أنيسة العريزة اقتربت الساعة وانسابونا واصدقائونا
يتمنون حضورك بينهم فهل أنت على تمام الالهة فنصحينا الى القاعة قالت لم يعد مانع
يا ابي وكل ما تريد به آتمر

فاخذ بيدها ويد لؤلؤ ودخل بهما قاعة الاستقبال وكانت غاصة باعيان البلدة
وخواص ارباضها وكان اكثرهم لا يعرف قينة ولا أحد منهم رآها بهذا الزي البهي
فتعجبوا جميعهم من بهاء روقها وارتفعت جلبتهم بالاطناب في محاسنها فازدادت جمالا

وجلالاً واعترفت كل النساء بفضل حسننها وأهليتها لسرير الملك واما الرجال فحسدوا
لؤلؤاً على هذه الدرّة الثمينة شاباً وكهولاً

وكان من جملة الاشراف المدعويين والي المدينة ويقال له جورج الفرنسي فهذا
حالما وقع نظره على قينة انجذب قلبه اليها وشغف بها شغفاً شديداً وكان ينظر اليها وقلبه
يقطر دماً وكان شاباً غنياً وسيداً شريفاً حسن المنظر لطيف الشكل معتدل القوام فصيح
اللسان قليل المثال بين اهل المدينة فلم يكن يحول بصره عنها الا قليلاً ويتأمل في كل
ملاحظتها واعضاؤها ويرى فيها كمالاً عجيباً ثم تقدم الى فيليب وطلب اليه ان يعرفها به
فاما كلمته عجبت من محاسنه وملاطفته وقالت في نفسها هذا أحد اعوان الملك
ولم أر الى الآن شاباً يماثله في الحسن ورقة المنطق وهو سيد شريف وهذا ما كنت
أتمنى الحصول عليه نعم ان لؤلؤاً كثير الملايين لكنه ليس شريف النسب ثم تهتت
تهتداً خفيفاً

وكان قد بقي من الوقت لحفلة الزفاف نحو ساعة فجعلت اجراس الكنيسة ترن كما
ترن في الاعياد الكبيرة وغصت الطرق باصناف الناس وأطلقت الناس من كل فيج
ولعت نيران الافراح ورفعت السفن راياتها المزينة وازدحمت الناس بابهي ملابسها على
جانبي طريق العروسين فصحبهما موكب من أعظم وأبهي مواكب الافراح
وتقدم فيليب ولؤلؤ وقينة ووالي المدينة وركبوا مركبة مزينة بأفخر الزينة تجرها
اربعه افراس بيضاء ويقود الخيل اربعة من خواص الخدم وكانت الابصار شاخصة
في ملابس الوالي الرسمية المعلمة بعلامات الشرف

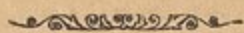
وكان الناس يضحون ضجيج التهاني حتى لم تميز الاصوات وكانت الاقدام لا
نزال تزدهم والناس يتقاطرون من كل فيج حتى لورميت درهماً لم يصل الى الارض
وكان القصير فيهم يكاد يحتق من الازدحام

ولما وصلت مركبة العروس الى باب الكنيسة والعجلات تجر خلفها كقطار مختلف
الالوان والاشكال نزل الوالي آخذاً بيد قينة ودخل بها الكنيسة وكل الناس يقولون
عن جمالها الاقوال المختلفة وبعبطون لؤلؤاً على هذه النعمة

ثم شرع الاسقف في الصلاة والكهنة مصطفون حوله بأجل الملابس وصدحت

الآلات الموسيقية وصعد قنار البخور كضباة ملأت الكنيسة ثم كمل الاستف العروسين
و باركهما حسب العادة الجارية

وخرجت قينة بجالها وجمالها والجمهور شاخص اليها بالابصار ولسان حالهم يقول
اميرة حسن قد تناهت بلطفها وشمس لدى اقدامها مسجد البدر
فاعندها دعدوٌ وميٌ وعزّةٌ بثينة ليلي هند عبلة في الذكر
وبلقيس في مجدٍ وثيرين في البها وأين من النظار معها بنو عذر
فلو ظهرت وقت الصلاة لعابدٍ لكان تلا في وجهها آية الفجر
ولو خطرت يوماً على بال ناسكٍ وهام غراماً لم يكن ساقط العذر
ولو طلعت للبدر عند كماله لكننت تراه في محاق ولم يسر
وهكذا انتهت هذه الحفلة الجليلة وقد بلغت قينة ارفع ذرى المجد والفخامة بعد
ان كانت مغنية رقّاصة في الشوارع وبيوت اللهو ولم يأت المساء على لؤلؤ حتى اضمحل
من فكره رسم حبيبته الاولى نور القارونية



الفصل الرابع والعشرون

« ماجريات جديدة »

وبعد الزفاف بمدة غير طويلة دعت قينة باخيها قين وقررت عنه لدى جميعها
وزوجها انه كان من أخص أصحاب يوشع الرويري وانه ذو استقامة مشهورة وأمانة
مضروب فيها المثل فيليق ان يكون وكيل الخزينة فامثالاً لارادتها أدخل قين دار
فيليب وولج أمور المصاححة المذكورة وعين له راتب وافر جداً فكان « كالعديم وقع في
سل تين » ومن ثم جعل دأبه الاختلاس شيئاً فشيئاً بحيث لا يُشعر به وكانت اخته
تألم من صنيعه لكن تنفض النظر خوفاً من أن تسقط منه بادرة يكون بها سقوطها
وبعد نحو اربعة أشهر كان فيليب في قاعة الاكل مع جماعة من اصحابه فلما
اتهى الغداء سمعوه يقول يا الهي . . . ادركوني . . . ثم غطى وجهه بيديه وهو احمر
كالقرمز ثم ارتخت مفاصله واقلب على البساط لا يعي على شيء فاستدعوا الاطباء في

الحال ففصدوه لكن كالضارب في حديد بارد وبعد دقائق قضى نجه فآثر مصابه في الجماعة تأثيراً شديداً وأجرت قينة دموعها الكاذبة حسب عاداتها وقلبها مملوء فرحاً لان زوجها صار وحده صاحب تلك الملايين الكثيرة فكانها في قبضتها وقالت في نفسها الحمد لله قد نلت ما طالما تصورت

واما لؤلؤ فلم يكن بالحقيقة عارفاً ما في زوايا قلبها الخبيث من الخبايا غير انه عرف ان تأثرها كان في الظاهر فقط فلم تصف لها بنته وقال في نفسه حيث انها لم تكن تحب هذا الشيخ الجليل الذي كان يديها ابنته فمن يمكن ان تحب . فلم يعد يتق بودادها وصار يحذر حيلها ومن ذلك الوقت كانت أيامه تقضى بالنغصة وعرف ان اللذة التي ذاقها معها في الايام الاولى لم تكن الا غشاء من عسل على وجه اناء مملوء سمّاً فاحذ يتحصر ويندم حيث لا ينفع الندم وخالج ضميره ان ذلك كان قصاصاً له على نكته عهد نور فتجدد بها وجدده وطار اليها قلبه ولم ترق له الحياة بدونها

واما قينة فكانت ايضاً تذوق مرارة العذاب لانها شعرت ان ركن آمالها تهدم ولم يكن وهما الا ساقطاً لان زوجها شعر بدخيلتها وبعد موت فيليب استحال توددها الى بغض وذلك لانها كانت بانية حياتها على ركنين وهما العُجب والطمع وكانت مؤملة ان غنى فيليب وولده يتكفل بكل مطالبها حتى تصير في أعلى ذرى المجد ولكن لما رأت أن زوجها حكيم امره حاذر من دسائسها لا يتزعزع بالحاحاتها ضعف قلبها وتلاشت آمالها وصارت تتوقع سوء العاقبة وكانت تذرف الدموع السخية وتندب سوء حظها وتقول من فؤاد مقروح وآسفاه ضاعت حياتي باطلاً وصرت كالاسيرة ورأيت ضعف زوجي عند العمل قوة لا تطاق وكل الشباك التي نصبتها لم تكن الا خيالات مزقتها يد الحقيقة فما تنفني هذه الكنوز اذا كنت لا أقدر ان أتمتع بها لافراحي . ظننت اني ادركت الغاية فكنت كمن يرى البحر تحت يده وهو على شوامخ الجبال فيا ليت هذا الغنى لم يكن لغروري ولو كنت الى الآن راقصة مغنية لكانت آمالي تسعد حياتي واما الآن فقد وصلت الى ما تمنيت لكن لم ادركه بيدي فلم يعد لي ما أرجو حسن عاقبته . ثم صارت احوالها تتغير ووجهها يذبل وكان لؤلؤ يقول لها أحياناً مالك يا أنيسة أراك متأللة وحزينة فتقول له صحي كما كانت واما حزني فلا بد منه لفقد أبي ثم

أيك فسكت لعله ان خفاياها لا يمكن ان تظهر له

ولشدة ما كانت تقاسي من الاكدار الداخلية والآلام النفسانية كانت تكاد
تطلب الموت كالاسير الذليل المهان الذي لا رجاء له بالنجاة لكنها لم تطلب الموت
صريحاً لان الانسان في شدة آلامه يتصور راحته في الموت لكن اذا تحقق قرب
ترتعد فرائضه ويتراجع جزعاً عنه ويصبح وهو كالمأخوذ كما صاح خطاب الحكاية (من
حكايات لافوتين المترجمة بقلمنا بشعر عربي)

لما رآه مقبلاً تضععاً وطار قلبه لديه جزعاً

وقال ماذا المنظر المريع تنحَّ شاهَ وجهك الشنيعُ

ويحك يا موت تصدق النداء من مازح أراحته مع الردى

لكن لقد جئتَ لوفوق الامر انفض لي الحملة واكسب اجري

ولم تطل عليها مدة الضجر والملل وقد رزقت واسطه تسلت بها عن احزانها
وذاقت لذة الصبا كما تذوق امثالها من النساء اللواتي لا يهمننَّ الا السلوك في مناهج
ابناء اللهو. والواسطة المذكورة لم تكن بناء على هذا المبدأ الا شاباً لطيفاً ظريفاً وهو
والي البلد جورج الفرنسي المقدم ذكره لانا اشرنا هناك انه شُغف بمحاسنها وانها تمت
ان يكون زوجها

وكان هذا الرجل يزور نادراً لؤلؤ لوليان اذ لم ير من الصواب في الاشهر الاولى
ان يكثر الزيارة ومحادثة قينة لئلا يلقي ريباً في نفس زوجها ثم شعر بالتغير الذي حصل
في قلب الزوجين بعد موت الاب وعرف ان قينة صارت تكره زوجها فصار يتربص
الفرص للقاءها ومغازلتها

ومما سهل له الطريق كثرة تغيب لؤلؤ عن منزله لان وجود قينة كان في سبيله
كحجرة عثرة واشواقه الى نور تجددت بأشد من الاول فكان اكثر الايام يخرج من
الصباح هاتماً في البرية راجلاً او راكباً ولا يعود الا مساء وكاد الاسف يقضي به مراراً
الى الانتحار لولا أمل ضعيف بقاء نور ثانية

ومن المعلوم ان الانسان لا يكاد يعيش لولا الآمال. عقدة اوثقه بها الله في
هذه الحياة المملوءة من المصائب

ففي هذه الفرص كان الوالي يخالفه الى امرأته ويجلس معها ساعات طويلة في احاديث شتى ومن ثم عاد الى الشقية روتها وظهرت امارات السرور وراحة البال على وجهها وأما هي فكانت تطيل عليه دلالها ولا تمكنه الا من كلامها لا تعففاً منها لان طبيعتها معروفة بل تعزراً وتكبراً لسمو مقامها ولكي تفتخر بنفسها بان سيداً جليلاً يترامى على اقدامها ويسلم اليها حواس قلبه مع ان نساء الملوك يلاطفنه ويتمنين قربه فكانت ترى أحسن واسطة لتقيده اسيراً في غرامها ان تبقى متمنعة عليه متباعدة عن آماله غير ان ميل قلبها الشديد الى محاسنه كان يقتضي ان يجربها الى هاوية الخيانة

ولما كثر تردد الوالي الى بيت لؤلؤ خصوصاً في غيابه صار الناس يلهجون بهذا الامر ويرجون بما يكون وما لا يكون ولم يخف على لؤلؤ بعض هذه الارجيف

وسمع نسيم الخادم الامين حاشية الدار يتحدثون بأمر مريية من هذا القبيل فلم يهن عليه ان يمس شرف سيده وفرغ صبره وقال ان لم أعلم سيدي فلا بد ان يعلم من الخارج فاقع تحت لومه فانا أسلك بموجب ضميري ولو حمل عليّ حقداً فانتظر حتى عاد لؤلؤ مساءً وتناول الطعام ودخل غرفته وهو امامه ويده القنديل ثم خلع لؤلؤ ثيابه ورأى كل شيء في غرفته مرتباً حسب العادة فقال لنسيم تصبح بخير لم يعد لي اليك احتياج

- يا مولاي انا لي معك كلام

- ما هو

- شيء يكدر ضميري

- ما يكون هذا الشيء

- بخصوص مولاي

فارتعش لؤلؤ وبقي مبهوتاً وقال له ما الذي جرى من امراتي وما مرادك من

هذا الكلام

- جرت عادتك ان تكون غائباً اكثر الوقت من البيت

- صحيح فأية علاقة بين غيابي وما تقول

- العفو يا سيدي خذني بالحلم ولا تعجل بفضبك فينما تكون غائباً لا تكون

مولاتي وحدها

- وأنا لم يخظر في بالي ان تبقي وحدها
- صحيح يا مولاي لكن أتعلم من يكون عندها
- ما كنت لاسألها عن ذلك فليكن عندها أي من ارادت
- لكن اذا كثرت تردد الشخص اليها أفلا يجب ان تعرفه
- صرّح لي يا نسيم ودعنا من المواربة
- لا تجالس الآ والي المدينة
- وما الضرر من ذلك فانه من أجل اصحابي ومن اللزوم ان تلاففه امرأتى في بيتي
- اذا بوافقك ان يتردد اليها
- لِمَ لا
- وأن يكون كل يوم عندها
- وهل يأتي كل يوم
- لا يفوت يوم واحد فحالما تخرج يدخل حتى يظن انه يتربح خروجك
- فقطب لؤلؤ حاجبيه وسكت ثم تظاهر بالسكينة وقال لاجب من ذلك لاني لا
- أبقى يوماً في البيت فأني وهم دخل عليك حتى تستغرب هذه الزيارات وتجعل
- لاجباري بها أهمية
- لو كانت المسألة مقتصرة على البساطة لما تجاسرت ان أفتح في بخصوص مولاتي
- لكن سمعت الناس يلهجون بذلك فاحببت ان انذرك
- فانظبر شائع اذاً
- نعم على لسان الجمهور ولا سيما خدمك
- ما ذا يقال
- يتعجبون من هذا الاتفاق في دخوله حال خروجك ويقولون انه يخفف المحبة
- حينما تكون في البيت
- ويملك يا نسيم ما هذا الكلام المبين بحق امرأتى
- ليس هنا اهانة لها اذ لم يتهمها أحد بالرغبة لكن يعلم الجميع ان هذا الرجل لا
- يحترم النساء والاليق بك ان لا تسمح له بتكثير الزيارة لها والبقاء معها مدة طويلة لان

الشاب والصبية اذا اختليا يكون نديهما ابليس

فوجم لؤلؤ وتبين عليه ان احشاءه تمزق ثم قال لنسيم احسنت اذ اعلمتني نعم لا اشك في امراتي لكن لا بد من قطع الاسن وهذا علي أنا فأخذ نسيم يد سيده وقبلها وخرج ظافراً مسروراً ولما خلا لؤلؤ بنفسه انطرح على سريره واهي القوى وقال ما اللوم الا علي فقد أخللت بما وجب علي من حقوقها فان الانفراد والضجر يورثان الصبية الجميلة الغنية المتعودة البطر والزهو اشأم العواقب نعم انها لا تجبني لكن من اللازم ان ترعاها عيني وأما الوالي فلا بد ان أمنعه عن هذا التردد والا انحط مقامي وأنا اسأل الله ان يعطيني القوة للمدافعة الشريفة وكان لقينة على رابية قرب شاطئ البحر مشرفة على المدينة منظره في ظل خيمة من الاشجار الغضة مزينة بأبهي الفرش وأجمل الاثاث كانت تمضي اليها عند الظهيرة طلباً لرطوبة الظل وهواء البحر فيوافيها هناك الوالي في وقت معين ويجلس معها ملياً يتناغيان ويتصببان

فلما كان صباح الليلة التي جرت فيها المحادثة المذكورة بين لؤلؤ ونسيم خرج لؤلؤ من البيت مدة من الوقت فمضت قينة حسب عاداتها الى المنظره واتكأت وصارت تتأمل في ملذاتها وهي متظرة قدوم صديقها . وفيما هي كذلك سمعت حسيماً كدوس الارجل على الرمل فقالت في نفسها هذا هو وانتشرت على جبينها علامات البشاشة والدلال وبعد بضع ثوانٍ دخل عليها لؤلؤ فاضطربت وتغير لونها فقال لها لعلي كدرت صفاءك يا عزيزتي اينسة

- لا بل بالعكس لكن تعجبت اذ لم يكن من عاداتك المجيء الى هنا

- اذا تلوميني لعدم مسابرتي اياك

- كلا لكن يهمني ان أراك متغير العادة أما تقصد الخروج اليوم

- لا . لاني عزمت أن اقضي معك هذا النهار اذا سمحت

فارتعش بدن قينة وقالت في نفسها ما عسى ان يكون معنى هذا الكلام ثم قالت له وأنت تعلم ان وجودك معي من أعظم سروري فلا أزال أتمنى قربك واشكر فضلك كانت تقول هذا الكلام متظاهرة بالسكينة وهي كأنها جالسة على الشوك متوقعة

قدوم صديقتها ولا تدري كيف تحتال للتخلص من الارتباب ثم وقفت وقالت للؤلؤ نعم
يا عزيزي أنا أشكر فضلك لتكرمك بموانستي اليوم في وحدتي وقد مضى زمان ولم
تقض ساعة معاً فتعال معي

- الى أين
- الى البيت
- ما الداعي لتترك هذا المكان
- لان الحرّ شديد كما ترى
- أخطأت فاني أرى الهواء منعشاً في ظل هذه الاشجار الكثيفة والمكان نزه وما
أظن انك أتيت اليه لتعودي بهذه السرعة
- فأنا على ما تريد
- أو تعلمين منزهاً أجمل من هذا يتسارّ فيه العروسان
- والحق يقال ان هذه المنظره أشهى شيء اليّ
- ثم سكتنا وصار لؤلؤ يراقب تغير ملامحها وهو يتأمل في عاقبة هذا الامر وهي تحاول
ان تبجد واسطة يرحل بها من هناك لانها تعلم ان مجي الوالي يسبب له ارتياباً فبعد أن
اجهدت قريحتها لجأت الى حيلة مألوفة عند كثير من أمثالها فانها انطرحت على الديوان
ووضعت احدى يديها على عينيها والاخرى على قلبها وتنهدت
- واما لؤلؤ فلم يخف عليه مكرها وقال لها ملاحظاً مالك يا عزيزتي أنيسة هل تشعرين بألم
- ألم شديد
- كيف تأتني لك والآن كنت على غاية ما يكون من السلامة
- الظاهر انه عرض فجائي
- ما تشكين
- قلبي ورأسي
- ما تحبين ان أفعل لك
- يلزميني فقمم النشوق الذي في خزانتي فاعطني يدك استند عليها ولنمضِ حالاً

الى البيت

- الحمد لله لسنا في احتياج الى الذهب ولاجل التوفيق معي هنا فقم
ثم مد يده الى جيبي وأخرج قممه وقدمه لها فتناولته وقد خار عزمها لخطب مسعاها
واستنشقت منه نفساً طويلاً حتى كادت تختنق فقال لها رويدك يا عزيزتي لئلا تتضرري
- لا ضرر فقد رأيت نفسي متعشة وأرى أن التمشي ينفعني جداً فلم بنا الى
شاطئ البحر

- كيف يكون ذلك وأنت في هذه الحالة وكنت تشكين الحرّ مذ دقيقتين
- والحر نفسه هو الذي يوافقني الآن لاني أشعر بقشعريرة
ثم وقفت وتقدمت الى الباب بقدم نشيطة فمض معها لما رأى من تصميمها وأخذ
بيدها فقالت في نفسها الحمد لله فقد ظفرت

لكن في الحال سمع دوس ارجل في ممشي الحديقة فشرع لؤلؤ من يدها بارتعاش
واذا بالوالي داخل وهو يتبسم فعلا وجه قينة اصفرار الموت وأما الوالي فجمد مبهوتاً
حينما رأى لؤلؤاً وهو غير متوقع وجوده هناك لكن ملك نفسه وقال للؤلؤ أنت هنا يا
صديقي ما أحسن هذه الساعة التي أراك فيها وأنا لا أرجو أن القاك لان الخدم أخبروني
انك خرجت من البيت وأنا متشوق لرؤيتك

فأجاب لؤلؤ قائلاً لم يعلم بي الخدم ولا بمكان خروجي وقد سررت لبقائي هنا لاني
حظيت بمشاهدتك

فانشرح صدر قينة لما رأت من السكينة والبساطة في كلام الرجلين وقالت في
نفسها عن صديقتها يا له من حاذق فطن سريع الخاطر ومن جسور لا يهزه ارتياب
وقالت عن زوجها مسكين ما أسدج قلبه واشدّ عمى بصيرته فقد غبي عن كل ما أخشى
ثم ان الوالي اراد أن يوضح سبب مجيئه الى هناك فقال له لما علمت يا أخي ان
الخدم لا يعرفون مكانك رأيت من اللزوم ان أسأل عنك السيدة أنيسة فقالوا لي انها
تنزه هنا وقصدوا للحجى اليها ليعلموها بزيارتي فقلت لهم لا تفعلوا فانا أقصدها وأحب
أتنزه قليلاً لعملي أجدتها في الخيمة والآن فما أحب ان تكلدروا صفاء نزهتها ولاجل التوفيق
يا سيدي وجدت هنا كليكم

وبعد هذا الكلام استمر الثلاثة يتحدثون اكثر من ساعة ثم استأذن الوالي

بالخروج ووعد انه يعود في الغد الى المنزل ليحظى بمقابلة لؤلؤ فاراد لؤلؤ ان يشيعه الى مركبته لكن تعجب اذ علم انه اتى ماشياً وهذا امر غريب من رجل سامي المقام في منصب والٍ شريف الحسب والنسب فاعتذر الوالي باحتياجه للرياضة البدنية كل يوم ثم مضى في سبيله

وأما قينة فكانت قد فرحت أشد الفرح بهذه الحيلة التي قام بها صديقها ولم تزل تتعجب من سرعة خاطره التي أخرجتها من فوهة هذه الورطة الصعبة ثم قالت في نفسها اليوم مضى ولم أتل حظي من ملاحظته ولكن غداً لناظره قريب فالآتي غير فانت

الفصل الخامس والعشرون

« انقلاب الاحوال »

فلما تحقق لؤلؤ ما بين امراته والوالي من المواصلة اراد أن يفصم حبلا بطريقة خفية لئلا يفتضح بين الجمهور ويجلب على شرفه العار فرأى من الموافق ان يخرج مع قينة كل يوم الى البرية ويعود المساء بحيث لا يعود لها سبيل أن تتمكن من مقابلة معشوقها فقال لها ثاني يوم يا عزيزتي أليس اني ظلمك بتركك وحدك في المنزل وخروحي منفرداً ورأيت ان هذا الامر قد سبب لك ضجراً ومللاً وجعل يحط من صحتك فأرجو أن تصفحي عن الماضي وعسى أن أعوض عليك منذ اليوم فانك في احتياج شديد الى جوب الفلوات لتستعي بهواء نقي جديد وتسرحي ابصارك في المروج والفضاء وتنعشي بأشعة الشمس المنبسطة على الروابي والمروج

فقال لا لزوم لهذا العناء يا سيدي فان صحتي آخذة في التقدم منذ صرت أتزه في خيمة المنطرة فهناك كل اسباب الفرجة وانسراح الصدر وفضلاً عن ذلك لا أحب ان أقطع عليك لذة انفرادك في تنزهاتك واني مسرورة لسرورك وراضية كل الرضى بنزهتي المذكورة فاذا شئت خاطري فاحب الي ان تبقى الامور جارية كما كانت قال لا بد من انقلاب الاحوال يا عزيزتي فقد صرت أجد في معاشرتكم ومسايرتكم اللذة التي كنت عنها عمياً ومن بعد هذه الجلسة ما عدت أجد لذة في تنزهتي

الأبوجودكٍ معي . فلا تخالفني في كل ما أريد فمذ اليوم نركب العجلة ونخرج ولا نعود إلا المساء

فلما رات قينة شدة عزمه علمت ان كل حججها وتلاعباتها لا تجديها نفعاً ففتت في عضدها (١) وسلمت إليه امرها مضمرة السعي بألف حيلة للرجوع الى منهجها الغرامي وجرى لؤلؤ على ما عزم عدة ايام يخرج معها الصباح ويعود المساء وهي كل يوم يضيق صدرها وتسوء احوالها

ومن المعلوم ان هذه الطريقة التي اتخذها لؤلؤ لم تكن الطريقة الحقيقية المؤدية الى المراد لان قطع المقابلة بين معشوقين برهة من الزمان لا تزيد الغرام الا اضطراباً والشوق الا توهجاً واحتداماً كمن يلقي قطعاً من الصخر في مجرى ساقية سلسلة المجرى فتصير بذلك عنيفة المجرى عوض ان ينحبس السيل فتكون المقدمة جاءت بعكس النتيجة كمحاولة اطفاء اللمب بالقاء الزيت عليه . فكان الاولى به ان يقصد بها مدينة بعيدة ويقضي معها شهوراً عديدة في اماكن الفرحة والنزهة والملاعب وما شاكل ذلك حتى تسلو بالتدرج عواطفها الاولى لان الالهو واسطة عظمى لنسيان الماضي والهرب من الويل نجاة منه

ولما مضى على ذلك اسبوع ورات قينة انها كالاسيرة وان حرّيتها مقيدة ثارت عواصفها واضطربت جمره حقدتها لان تقييد الحرية لم يكن مما يخطر لها على بال لما يعلم من سيرتها السابقة وعرفت مقاصد زوجها وتنكره وزاد شوقها لمقابلة الوالي وشعرت في الاقتطاع عنه بما كان كامناً في قلبها من الوله فزاد بها القلق والوجد اكثر مما نما غيظها من فعل زوجها فصممت على اعمال الحيلة لمقابلة معشوقها وظهر لها انها تموت كمداً اذا لم تحظ بمطلوبها

وكان الوالي يأتي كل يوم الى دار لؤلؤ فيقال له خرج السيد والسيدة الى البرية فقطع زيارته تلك المدة ليعلم ماذا تكون نهاية الحال . وعلمت قينة ذلك فقالت لا بد ان يكون قد اغتاط فما هذه الداهية التي بليت بها ولعله يتوهم انني موافقة لزوجي على قطيعته . وهذا مما يضعف ميله اليّ وربما هجرني بعد ذلك بتاً . فاذا تم ذلك فاني

(١) مثل قولهم سقط في يدو وضاق ذرعاً

ميتة لا محالة وكيف يطيب لي العيش في بعده وكيف اجمع صوابي في الاقتران عنه
 وكانت سنة كاملة قد مضت منذ اقتران لؤلؤ بقينه وامورهما في تلك المدة على
 غير استواء واشتغال البال يتزايد في الايام الاخيرة فلم يكن العيش هيناً لاحد من
 اصحاب هذه القصة الا لقين الجشع لانه كان متمتعاً بما طالما تمناه وهو الفوز بالغنى وجمع
 المال فكان سائداً ظافراً بكل مطالبه في المركز الذي عين له ولم يجسر احد ان
 يقاومه ولا يعارضه بشيء وقد اقبلت اليه الدنيا تجر اذيال السعادة فصار يسرح ويمرح
 ويأكل مريئاً ويشرب هيناً ويتهب اموال سيده ويجمعها في صندوق كبير واخذ
 جسمه يمتلئ شحماً ولحماً وتحسنت سحته بعد تلك الفضاعة فطار به البطر الى اعالي
 سحاب الوهم

فبينما هو يوماً في غرفته يتظاهر بالانهماك في حسابات الدخل والخرج والوارد
 والصادر اذا بالباب يقرع فاذن بالدخول فدخل خادم بالاحترام والوقار وقال له
 يا مولاي سيدتي ترجوك ان توافيها الى غرفتها لان لها معك كلاماً . قال على الرأس
 والعين ثم لبس ثيابه من القطن والحرائر وقصد غرفة اخته

وكانت قينة وحدها جالسة متأمة فلما دخل قين ظن ان هناك بعض النساء
 فامحنى وحيهاها بالسلام بالتوقير والاكرام وقال قد شرفتي سيدتي بدعوة فما قد بادرت
 الى الامتثال لاوامرها . فقالت له دع هذا التكلف فليس هنا احد فقفل الابواب
 وتعال لاحدئك في شأن خطير . قال السمع والطاعة واعلمي اني اخ لك كالعبد
 « فانك مها تأمري القلب يفعل »

فلما فعل ما امرت قالت تعال واجلس بجانبني قال لا . نعم ان الابواب مقفلة
 لكن لعل طارقاً يدهمنا على غفلة فيرى العبد بجانب سيدته فتقع الريبة فأجلس في هذا
 الكرسي على اربع خطوات منك . ثم جلس وقال هااتي ما عندك بوجيز العبارة
 - حسناً فعلت فانظر الي ياخي . كيف تجدني
 - بديمة في غاية الظرف والكمال
 - لا تدلس يا قين واحك الحقيقة
 - هذا هو الحق كله . اتعلمين اني اخدعك في نفسك

- امعن النظر في وجهي وتأمل هل ترى فيه تغيراً
فانحنى وجعل يمدق بصره بوجهها ثم قال ان صدق نظري فاني ارى في وجهك شيئاً
من الاصفرار
- هو ما تقول و بصرك صادق كبصيرتك فان شيئاً يؤلمني
- ما عسى ان يكون هذا يا اختي ازعجت خاطري يا قينة . مري فادعو
الطيب في الحال
- ليست علتى مما تعالجه الاطباء فالداء داء النفس
- ما تقولين اى داء يكون في نفس سيدة مثلك وفي مقامك
- حياتي شقية ونفسي حزينة والريح لا تصدم الا اعالي الشجر
- كيف يمكنك ان يتصور ذلك يا شقيقتي ما الذي ينقصك واي مصاب يهجم
على ابوابك المنيفة . اما انت صاحبة الملايين . اما انت صاحبة الامر والنهي . اما
انت ذات اليد الطائلة والكلمة النافذة . دعي المزاح يا قينة فقصدك ان تسخري
بي لتخوفيني بتكدير صفائي
- لا مزاح هنا . جس يدي
- يؤه . اراك محمومة
- محمومة نعم اشد الحمى هكذا كل يوم
- ما الداعي
- شقائي ونعصتي ونكد حظي
- الجنون فنون . فاطنك تتصورين تصورات جديدة او طرقتك طوارق العبث .
هل داخلتك غيرة . فاني اسمع يقال ان الغيرة تهيج الدم
- ربما صدق من قال لكن مسألتي ليست الغيرة والتي مثلي لا تجد اسباباً لها
لكني عاشقة
- عاشقة . ويحك
- عاشقة نعم الى حد التلف
- ومن يكون هذا المعشوق . اغير زوجك هو

فاستغربت قينة ضحكاً وقالت اراك مجنوناً يا اخي كيف يكون معشوقي زوجي .
هل سمعت قط ان امرأة تعشق زوجها اورجلاً يعشق امرأته وهما متواصلان الليل والنهار
- اذا لم يكن هو فمن يمكن ان يكون

- الوالي . الوالي جورج الفرنسي حبيبي الذي اذوق لوعة هجره . آه
- ويالك يا ماكرة ما تقولين . اوقت مزاح الآن . اتهزئين بي
- اترى هيئتي تدل على المزاح يا احق . الجدُّ ما تسمع كل الجد
- قبحاً لهذا الجد هذا مما يشغل الافكار . هذا هم جديد . اما تعلمين ان هذا

العشق وخيم العاقبة

- ليكن ما يكون . ما اعرف الا اني عاشقة ومعشوقة . لا تهمني العاقبة
- اولاً يشعر زوجك بهذا الجنون
- يظهر ان عنده بعض الشبهة
- هو ذا امر اقبح . اطلعيني على الماجريات
فقصت عليه قينة كل ما جرى بينها وبين الوالي وكيف شعر زوجها بهما اخيراً .
وكان قين يسمع وينذهل ويصفق عجباً وكاد يخرج عن دائرة الصواب من دهشته .
فلما انتهت حديثها قالت له ما تظن في المسألة يا اخي
- لا ابالك يا قينة ما اظن الا الشر ولا اتوقع الا الويل ولا سيما لان زوجك
اخذ ربح الخيانة . وهذا الانقلاب الذي حصل له في تصرفه دليل كاف على اضماره
الشر والمكيدة

- وما رأيك في التديير
- لي رأي واحد
- هاته . واظن انني لا اقبله
- قبلته ام لا فهو ان تطرحي عنك هذا الجنون وتقتصري على التعجب الى زوجك
فانه رجل مفضل محسن اليك كل الاحسان
- خدعتك نفسك ليس له علي شيء من الفضل
- كيف تنكرين فضله وتجددين معرفه

- ما عليّ فضلُهُ بل على أنيسة الرويرية . فلو عرف اني لست اياها لرأيت أشأم ما يُرى
- هذا البرهان سفسطي . والجدال في هذا الشأن يطول شرحهُ فاعلمي بالاختصار انه يجبك . وكفى
- هذا وهم ما بقلبه شيء من حيي
- كيف يكون هذا . أنتِ تزعمين ان كل من يراكِ يكون مشغوقاً بك
- لكن لكل قاعدة شواذ . ولولو شاذ عن هذه القاعدة والادلة عندي كثيرة وقد بذت جهدي فلم أستطع أن أملك له قياداً وما كنت في كل ما عملت الا كالكتاب على الماء
- كيف يغار عليكِ اذا كان لا يجبكِ
- غيرته على شرف اسمه فهو لا يخشى الخيانة بل تلم صيته
- فبهت قين دقيقة متأملاً ثم قال ما غرضك مني الآن
- مرادي أن تساعدني على لقاء الوالي . وأحب قبل كل شيء أن اكتب اليه
- لا مانع ولو ان في عملك حماقة
- لا يهم العاشق امر تعقل او حماقة فان غاية ما يتمناه نوال المطلوب باي وجه كان
- سمعت ان كثيرين اوقعوا انفسهم في الويلات ودنسوا شرفهم وثلموا صيتهم واتفوا ما لهم وخرّبوا بيوتاً عامرة ايضاً في سبيل هذا الجنون الاعظم الذي يسمونه عشقاً
- يظهر من كلامك انك لم تذوق العشق في زمانك فلا تلام على تعنيفك اما سمعت قول حكيم الشعراء
- وعذلت اهل العشق حتى ذقتهُ فعميت كيف يموت من لم يعشقِ
- ولا اجيبك الا بقول امير العشاق
- دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى فاذا عشقت فبعد ذلك عنفٍ
- يا قينة ليس في الناس احد الا ويعرف ما العشق لكن ما كل من يعشق يجن .
- للهوى ساعات على ما اعلم واما التورط فيه فهو عين الجهل والحماقة اما بلغك قول حكيم العاشقين

- ولا بد لي من جهلة في وصاله ومن لي بحرٌّ أودعُ الحلمُ عندهُ
 - مها يكن من الامر فاني على عزمي مصرّة وما اعرف غير الساعة التي انا فيها
 لعلها تكون ساعة هذه الجهلة . فاطلب اليك الآن ان تقضي غرضي
 - اي غرض تريدان
 - ان تؤدي هذه الرسالة الى الوالي وتأتيني بجوابها
 فظفر قين عن الكرسى وتراجع الى الورا وابعدهُ عن الرسالة كأنها افعى وقال
 - معاذ الله . معاذ الله . ويلٌ لك يا خبيثة ما هذه الخدمة الرديئة التي تكلفيني
 بها . ابلغ بك الجهل الى ان تتخذي اخاك وسيلة لدعارتك . وتربة اجدادي لا
 يكون هذا ابداً
 - اتمتع عن خلاصي ومساعدتي يا قين
 - اتمتع نعم عن مثل هذه الخدمة كيف اسعى برجلي الى الدمار والهلاك وسلوك العار
 - أترى اصوب ان آمن بعض الخدم او لا تخشى ان هذا الخادم يخونني محبةً
 في سيده فتكون العاقبة اشأم علينا . ومع ذلك فلا بد من ارسال هذه الرسالة فاختر
 اقرب الطرق او هون الويلين
 فصمت قين مفكراً في نفسه وقال لها ماذا يقول الوالي اذا رأي اني انا الشريف
 الاندلسي مؤدياً له كتاب العشق
 - هل خطر على بالك ان العاشق يستهين بمن يتوسط بينه وبين معشوقه بل
 بالحري يشكر فضلهُ ويجتهد في مكافأته
 - اذا لم اخش هذا اخشى ان يظن بي الناس السوء ولا يعرفون اني اخوك
 - اتعتقد اشرف لك ان تسرق وتتهب اموال الذي ائتمنتك على خزائنه
 - صه صه . يا قينة يا اختي استحلطك بسيدتنا مريم وجميع القديسين ان لا تفتحي
 هذا الحديث لئلا يسمع احد فللحيطان آذان
 - وانت تعلم اني متغاضية عنك فلكي تبقى متمتعاً بشهواتك كن مطيعاً لامري
 مكافئاً لي على انعامي عليك
 - تكادين تفحمني . وقد زعزعت عزمي . لكن احب ان اكلمك كلمة اخرى

علي افتح بها عينك قهتدين الى الصواب . الا تعرفين يا مسكينة سوء عاقبة هذه
الخطة القبيحة

- لا اريد ان اعرف
- لم يفت الوقت يا اختي فقني على هذا الحد ولا تورطي في الهاوية تعقلي
وتبصري لا تلزمي زوجك ان يهجرك فتهدم اركان آمالك
- بل يكون الهجر اسعد لي
فنظر اليها مبهوتاً متحيراً
- فقالت لا تعجب فان في فراقه الحرية والغنى
- ومن أين يكون الغنى
- أنسيت المليونين المفروضين لي مهراً ولا يمكن ان أحرمها
- أنسيت أنت أيضاً أن وراءها اثني عشر مليوناً أتركيها لاجل مليونين فقط
- لا أمل لي بالحصول على هذه الثروة لان الرجل شاب قوي حكيم نفسه
- وما معنى ذلك فالامر بخلاف ما تتوهمين لان الشباب والقوة عرضة للمخاطر
وزوجك فارس مولع بالركوب وسباح مغرم بالبحار وصياد مشغوف بالصيد وهذه ثلاث
خصال تؤذن بسرعة وقوعه في المخاطر وفضلاً عن ذلك قد يعرض له ما يدعوهُ الى
المبارزة ولعل هلاكه لا يكون بعيداً
- فلما سمعت قينة هذا الكلام أشرق على جبينها نور الآمال وقالت له حق ما
ذكرت فاثنا عشر مليوناً تستحق العناية وحسن التدبير فساكون رشيدة في اعماله
- أتتركين اذن حب الوالي
- لا لكن سأدبر اموري بحيث لا يمكن لاحد ان يكشف خفايا سرّي وهذا السرّ
لا يتجاوز ثلاثتنا فلا تخاف هتكه من وجهه
- فأنت اذن مصرة على عزمك . ويلاه
- يجب ذلك اقامة لمصلحتنا ولا يخفى عليك الباطن
- فلم يرض قين بهذا الجواب غير انه التزم ان يسلم به وأخذ الرسالة من يد أخته
وقال لها هل لك شيء آخر
- شيء واحد وهو أن لا تذهب الى لقاء الوالي الا ليلاً ولا تدع أحداً يراك داخلأ

يته ولا تسلّم الرسالة إلا الى يده وقد كتبت اليه تفاصيل كافية بخصوصك

- كيف ذاك هل أعلمته اني أخوك

- لا بل انك صديق قديم لابي وانك ريتني في بيته وانك مخلص الوداد لي
فلا بد انه يلتفت اليك أحسن التفات ولا يخطر بباله ان يستخدمك بالمال لئلا يمس
شرف نسبك المرعوم

- بخ بخ . لكن أسأت في الوصية الاخيرة فليعطيني ما يشاء فلا أخاف العار في
الذهب فالنسب لا يجديني نفعا في جانب المال

- هذا شأن الاخساء . فكن مطمئن البال سأفتح لك الكنوز من وجه آخر فتغوز
باحترام الوالي وأنا أتكفل لك بأن لا تزال أردانك مفعمة

- الآن أحسنت الصنيع وتستوجبين ثنائي فأنا طوع ارادتك ورهين أمرك وفي
هذا المساء عينه آتيك بالجواب

فلما كان الليل تسلل الى دار الوالي وطلب مقابلته لمصلحة مهمة ثم قدم له الكتاب
وأخذ يقص عليه تمويهات كثيرة بخصوص مناظرته على تربية قينة وما قاساه من
الاخطار لاجلها فتعجب الوالي من شهامته وأراد مكافأته على هذه الخدمة الجليلة
فخشي أن يدفع اليه تقودا فقدم له خاتما من ألماس يساوي نحو خمسين دينارا . فقال
له قين لا أقبل يا مولاي هذه التحفة إلا على سبيل التذكار واعدك ان لا أخرج هذا
الخاتم من أصبعي ما حييت

لكن ثاني يوم باعه لاحد الصاغة وأحرز التقود في صندوقه

وأما الوالي فأجاب قينة جوابا يدل على شدة هيامه ووجده وهكذا بواسطة قين
استمرت المراسلة بينهما في اوقاتها لكنها بالحقيقة لم تكن كافية لشفاء غليل الصدور
وأين المكاتبه من المناغاة

ولم تمض إلا أيام قلائل حتى دبرت قينة حيلة للقاء فكان باب الحديقة الخارجية
يتصل بسلم تؤدي الى زقاق غير مألوف فطبع قين بالشمع على ثقب القفل واصطنع
مفتاحا وأعطاه للوالي فكان يأتي في الليالي الظلماء ويدخل الحديقة فتوافيه قينة الى
منظرة هناك في اوقات معينة وكان قين يراقب احوالها ويقف خارجا كالحارس

واما لؤلؤ فكانت ظنونه قد ضعفت وصارت قينة متمتعة بمشهياتها سرًا . غير ان العاشق لا يشبع من معشوقه كما هو معروف منذ قديم الزمان الى ما شاء الله فكان الوالي وقينة يطلبان فرصة اطول وخلوة انفع للغيلل ما كانا فيه . فوجد الوالي في الزمان المذكور بيتاً حقيراً لعائلة رجل صياد سمك في غاية ما يكون من الفاقة فاشترى هذا البيت باكثر من قيمته الحقيقية واصلح شوؤنه الداخلية وفرشه وصارت قينة تختلف الى ذلك البيت ثلاث مرات في الاسبوع في ساعة معينة من الليل وذلك بعد ان تدخل غرفتها وتأتي نساؤها ويقدمن الخدمة اللازمة . فاذا هجع الناس وانطلقت القناديل تنهض من فراشها وتقفل الباب من الداخل وتلبس ثوباً اسود له قبع كقبع الراهب وتلبس نعلًا لينة وتنسل من سلم سرية الى الحديقة فتجد اخاها هناك فتدفع اليه قبضة من الذهب وتمضي معه الى البيت المذكور فتدخل ويبقى قين خارجاً يراقب الطرق مستأنساً برنة النقود التي كان يربحها كل يوم من هذه الخدمة العظمى ومضى على هذه الحال بضعة اسابيع وكانت رغبة قينة تزداد يوماً فيوماً في لقاء حبيبها وهو لا يفتر عن تهيئة كل اسباب اللذة والفكاهة وقين لا يزداد الا حرصاً على جمع المال من كف اخته

فاتفق في بعض الليالي ان قيناً وقينة كانا ماشيين على عادتهما في الحديقة ليخرجا الى الزقاق بعد نصف الليل بساعة واذا بقين وقف فقالت له اخته مالك قال اصمتي ثم اصغى اشد الاصغاء وجعل يحدّد بصره محملاً في كل جهة ثم قال لقينة قد شعرت بما اوهمني ريباً فقالت له من اين تأتي الريبة

- كأني سمعت حسيس وطء ضعيف

- هذا من باب الوهم

ثم مشيا وبعد ان تقدما خمسين خطوة وقف قين ثانية كالبعوت وقال لا شك ان احداً وراءنا يقفوا آثارنا لاني سمعت حفيف الشجر

- هذه نسمة ريح

- الريح ساكنة

- اذن طائر ليلى نفر

- لا بد ان احداً يرقبنا
 - ما هذا الوهم الذي استحوذ عليك
 - ارى التيقظ ضرورياً كيفما كان الامر فافعلي ما اقول
 - ما رأيك
 - رأيي ان ندور من خلف هذه الاشجار ونعود الى البيت فيقال اننا اخرجنا للزهة ليلية لا ريب فيها
 - هذا لا يكون ابداً لان الرجل على نار من انتظاري
 - وما يضر اذا اطال الانتظار ففي الغد اذهب اليه واخبره بسبب التأخر
 - أفلا يقضي غابر هذا الليل باشد القلق وبحسب لتأخري الف حساب من الويل فلا بد ان اريح افكاره
 - ولو عظم الخطر وانجلى
 - لا شيء من الخطر وقد خدعتك واهمتك وعلى كل حال لا بد من المسير
 - اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون . يا مار يعقوب احرسنا
- ثم تقداً وخرجا الى الزقاق ولم يسمعا شيئاً . وكان الجاسوس الذي شعر به قين مرتين قد وصل الى باب الحديقة وفتحهُ بخفة وخرج الى الزقاق ايضاً وهو يقفوها من بعيد الى ان دخلت قينة المنزل المعهود . فغاص الجاسوس في الظلام وقد علم البقين . وبعد ساعتين رجعت قينة واخوها في الطريق وقالت له وهي تضحك سروراً رأيت انك كنت مخدوعاً ولم يطلع علينا احد واخشى ان تكون قد أصبت بخلل وهذا مما يضرنا من الآن فصاعداً . فهز قين رأسه ولم يجيبها لانه لم يقتنع كل الاقتناع وما اطمان قلبه من هذا القبيل

الفصل السادس والعشرون

« فالية الافاعي »^(١)

الآن اشتدت الوحشة بين لؤلؤ وقينه وعظم الشقاق وانفتح اول باب من ابواب الشرور وذلك أن لؤلؤاً نهض في الصباح ولم يلتق بزوجه حسب العادة بل دخل مكتب أبيه التجاري وكان لم يدخله منذ مات فيليب وأقام فيه سحابة النهار ينظر في الحسابات ويصفئها ويكتب التحاويل والسندات واستجاب سفاح تدفع قيمتها في اوقاتها المعينة لمن تكون بيده مسحوبة على مصارف أوروبا وأميركا وأشهر المحلات التجارية ثم جمع امواله ذهباً تقديماً وملاً البراميل والاكياس ووكل على العين والمقار رجالاً أمناء يحافظون عليها في مدة غياب يطول شهراً وفوض اليهم سائر أشغاله ثم أمر رئيس احدى سفنه أن يستعد للسفر ويشحن السفينة من المؤونة والمهمات اللازمة وينتظر صدور أمره في آخر الاسبوع ثم عاد مساء الى داره وتناول العشاء ودخل غرفة النوم غير مودع قينه حسب العادة فلم تنتبه هي لهذا الفتور لانها كانت مشغولة الفكر بأمر آخر ومضى على ذلك يومان لم يحدث شيء يستحق الذكر وكان لؤلؤ يقضي اكثر الوقت في الميناء يحدث الرئيس وينظر على الشحن وفي اليوم الثالث دخل صباحاً على امرأته وقال لها يا عزيزتي أنيسة أرعيني سمعت في معك كلام مهم مختصر . فمعجبت من دخوله عليها في ذلك الوقت خلافاً لعادته وتأملت في وجهه وكلامه فلم تجد ما ترتاب به فقالت له قل ما تشاء فاني مصغية . فقال أرجو أن تصفحي عما سأحدثك به لانه لا بد ان يكدر خاطرك ولا أجد استطاعة ان اكتب عنك هذا الحديث وهو بخصوص أبيك

فارتعشت قينه عند هذا الكلام واشتغل فكرها

فقال لها انا عارف بمقدار محبتك لهذا الرجل الجليل وقد كان هو وأبي كاخوين

شقيقين ويحق لنا أن نذرف لتذكرهما اسخى العبرات يا أنيسة

فأحنت قينه رأسها لا لتخفي دموعها لانها لم تجر بل لتستر منظرها عن نظر

(١) أي مفتاح الشر أو دليل الويل

لؤلؤ الخارق

ثم قال لها وتعلمين أيضاً كم كان فضل أحدهما على الآخر ومع ذلك لم يحسبا
بزمتهما فضلاً وأن معظم العهد الاخير بينهما كان متعلقاً بي وبك وأن القسم الاخير
من هذا العهد يتكفل بتسديد ديون أهلك . فاما القسم الاول من هذا العهد فقد تم
باقتراننا . وأما الثاني فعلياً أن أقوم باتمامه وأنت لا تشكين بشدة احترامي لحياة أهلك
ومقدار محبتي لك فالآن عوض أن أرسل معتمدين للقيام بهذا العمل العظيم الشأن
أفضل أن أذهب بنفسي الى هوانه وأسدد الديون وأنهى حساباته

فلما سمعت قينة هذا الكلام طفح فؤادها سروراً وعلا وجهها الاصفار وقالت كأنها
مندهشة . ما ذا تقول يا عزيزي لؤلؤ . قد عزمتم على السفر

- نعم عقدت نيقي على أن ناسفر بأقرب وقت
فارتاع قلب قينة غماً وأمتقع لونها وقالت له ما مرادك بقولك ناسفر . أتقصد أن

اكون بمعيتك

- نعم أحب أن أستصحبك لانه يصعب علي ان افارقك

- هذا امر مستحيل

- ما المانع

- لاني كلما ذكرت سفر البحر يخفق قلبي جزعاً ألم يكف شاهداً ما قاسيت من اخطاره

- حق ما تقولين لكن ألا تعلمين ان الله لا يزال باسطاً عليك جناح العناية

وسيحفظك هذه المرة كما حفظك أول دفعة وخلصك وحدك من الفرق

- ربما صدقت في ذلك لكن تعلم ضعف النساء وترى بعينك اني لا أطيق هذا

العناء واكاد من مجرد هذا الذكر اسقط عيائاً وجزعاً

قالت هذا وأخذ بدننها يرتجف ودموعها تساقط

فقال لها يصعب علي أن أراك في هذه الشدة يا عزيزتي أنيسة لكن سيرزول هذا

الجزع والوهم بسرعة اذا تأملت بوجوب سفرك معي وعلمت ان القصد من وجودك

أن تشهدي اتمام الفرض الاخير من فروض أهلك وانك ستريين ضريحه وتذرفين

فوقه دموعك البنوية فتباركك روحه وروح أبي من العلاء ويفيض الله عليك بركاته

- لؤلؤ ما تقول ما هذه الهوثة التي تطرحني فيها استحلقتك باسم أبي وأبيك وأناشدك الله ان تعفيني من ركوب هذا الخطر
- قلت لك انه يستحيل علي أن أفارقك
- فامتنع اذن عن السفر
- هذا لا يكون أبداً فقد صممت عليه ولا بد منه
- ما هذه المساواة يا ابن فيليب أليس في قلبك رقة ولا رحمة
- أمن قلة الرقة استصحابك وأنا لا أطيق فراقك
- فأنت مصرٌّ على عزمك
- كل الاصرار

فمسحت قينة دموعها ورفعت رأسها وقطبت حاجبها واتقلبت هيبتها كل الانقلاب ثم قالت بغیظ ورجفة اذا كنت لا تتحول عن عزمك فأنا الاخرى لا يتزعزع عزمي فلست بمسافرة معك والسلام

فلما بدا منها هذا العنف ظنت انه يستشيط غضباً فلم يكن ما ظنت بل تبسم في وجهها وقال . ما أحسبك يا أنيسة تغلحين بهذه الطريقة

- آتخال انك تجبرني
- ربما الجأني الى ذلك
- أتستعمل القوة
- عند الزوم

فصاحت قينة ونظرت اليه نظرة الضواري ثم قالت . الآن انكشف لي أمرك يا ابن فيليب وقد شعرت انك لم تجبني قط وانك لا تعتبرني امرأتك المساوية لك بل تحسبني أمة تظن انك تخيفها بالوعيد والسوط

- الذي أعلمه ان الرجل رأس المرأة هذه شريعة الله والناس وعليها تتوقف راحتها معه

ثم صمتا برهة وأحنت قينة رأسها وهي تتفكر وكان لؤلؤ ينظر اليها نظرة الشفقة ثم رفعت رأسها وقالت له لك الحق بما قلت الرجل أقوى من المرأة واذا أراد العبد

مقاومة مولاهُ يكون الخاسر وقد أخطأت بمخالفتك فلا أعود اليها . ومتى تريد أن نساfer
- غداً

فشعرت قينة بارتعاش خفيف وقالت له . لم تدع لي وقتاً للتأهب
- لكِ الليلة بطولها ونهار غد كلهُ فلا نركب السفينة إلا مساءً فحضري أمتعتك
كما تشائين

- قبلت ان لم يكن غير ذلك
ثم خرج من الغرفة ومضى الى الميناء
فقال في نفسها قد حان الاجل وهو الذي أحوجني . ثم أرسلت تدعو اخاها
فأقبل ووجدها تكتب فقالت لهُ مهلاً عليّ فجلس حتى فرغت ثم طوت ورقة عليها
بعض أسطر وجعلتها في جيبها وطوت أخرى على هيئة الرسالة وتقدمت الى قين فتمعجب
من منظرها المتغير وقال مالكِ يا أختي قد ارعبني منظرک

- هلكننا يا أخي
- كيف هلكننا
- ولم يبقَ في يدنا شيء
- هل عرف زوجك السرَّ
- ما هذا الذي يهمني
- بل ماذا يكون أهمُّ منه
- عزم على السفر غداً وأن يستصحبني
- الى أين
- الى هوانة
- الى هوانة تلك المدينة القبيحة مدينة الشؤم واليأس . هلكننا نعم هلكننا
- اذا تمَّ ما أراد . لكن لا يتم اذا ساعدتني . والآ وصل بي الى هوانة وعرف
الحقيقة فيسلمني الى الحكم وأطرح في السجن
- وتقع تحت بقعة قارون . آه ياربي يا مار يعقوب
- أترى أن الظروف شديدة علينا

- شديدة أي شدة . أفلا واسطة تمنع هذا السفر
- لا واسطة . بذلت جهدي متوسلة متضرعة متخشعة متدلة فلم يتزعزع لكن لا يقدر ان يلزمني
- وماذا قصدت أن تفعل
- لي طريقان
- ما هما
- فقدمت له الورقة المطوية بهيئة رسالة وقالت هذه الاولى
- ما معنى هذه الورقة
- رسالة للوالي أقول له فيها أن ينتظرنى هذه الليلة فأخبره بما حدث وأطلب اليه بالحاح أن يخلصني اختطافاً فاذا ارتضى فقد نجوت
- واذا طلبك لؤلؤ من الحكومة
- الوالي يخفيني في باريس ويعرف كيف يدافع عني ويمنع الشرط من تبغي
- واذا امتنع من قبول ارادتك
- فلي واسطة أخرى الجأ اليها ولا أخيب
- ما هي
- الموت
- ويحك أنتنحرين
- لا سبيل الى غير ذلك
- أفلا يضعف عزمك عند المباشرة
- كلاً واعتمد عليك لتسهيل الامر
- ويحك كيف تعتمدن علي وكيف اقتلك بيدي
- ما هذا مرادي لكن أعلم انك تعرف دواء قتلاً يموت شاربهُ بلا ألم ولا عذاب
- لا أعرف شيئاً
- لا تحاول الانكار . عشرين مرة سمعتك تتخبر بهذا الدواء العجيب فاطلب اليك بل أمرك ان تصنعهُ لي

- لا تطعمي بهذه المنية . سليني كل ما تريدن الا هذا
- اتأبى يا قين
- كل الاباءة
- لاي داعٍ
- لداعٍ لا يجمله الا احمق . كيف يمكنني قتل أختي
- عندي ما أقنعك به
- لا شيء يقنعي

فاخرجت قينة الورقة الاخرى من جيبها وقالت انظر هذه الورقة
فشرها وقرأ ما يأتي :

هذه وصيتي

قد وقتت المليونين المختصين بي من مهري لتصرف الشريف قين الاندلسي
جزاء له على خدماته المتكررة وبذل نفسه في سبيل مرضاتي . ولبيان حرر في مدينة
هاور في ٢٣ آب سنة ١٧٧١

كاتبته

أنيسة لوليان

فبرقت أسرة قين لهذه الوصية ولحمت قينة ذلك فقالت له أترى يا أخي ان مليونين
يستحقان المخاطرة الجسيمة ويزيلان من أفكارك كل وهم
فقال لها متحيراً يا شقيقتي طالما أحببت المال لكن في بعض الظروف لا يكون
للملايين تأثير فما أرى ضميري يطاوعني هذه المرة على بذل حياتك لاجل المال .
- ما هذا الضمير الذي تذكره ولا اعهد لك ضميراً فذع هذه المحاولة الفارغة .
واعلم اني اذا عزمت على الاتحار لا تصعب عليّ الوسائط فاذا كنت تحبني فسهل
منيته وبهذا يحسب لك فضل عظيم لان منعك اياي هذه الطريقة تسبب لي القتل
بواسطة فظيعة فتحمل على عاتقك الجريرة التي تحاول التخلص منها . افهمت الآن ان
ما تصنعه هو الخير بعينه فاذا اصررت على الامتناع امزق هذه الورقة فتخسر اختك
والمليونين . ومع ذلك فلا لاجل المليونين يكون سعيك بل لتتقذني من نزع اليم
فجعل قين يتباكى وما به من بكاء ويمسح بمنديله عينيه كأنهما دامتان وهما

اجف من صفاة صماء (١) لم تنديا منذ عهد طويل . وتهد كأنه متأسف على اخته المزمعة ان تموت ويقول في نفسه المليونان مذ الآن افضل من الف اخت وتركته قينة نحو دقيقة فلما ظهر ان جأشهُ سكن قالت له اقمعت الآن وواقفتي

- لا حول ولا . لا مردّ لارادتك وعنادك لا يقاوم

- فأتكل على وعدك وصفاء نيتك فتحضر لي السم المطلوب صنع يديك

- وآسفاه . لا اقدر ان اخالفك

- متى تفعل

- هذا المساء . ويا ليت يدي تشلّ قبل المباشرة

- لا بأس يا اخي ويسرنني ان اعلم انك ستصير بعدي صاحب مليونين

فمسح ثانيةً دمعته الوهمية وقال . قد صدعت قلبي يا قينة لا تذكر لي هذا المال .

لا تذكره ابداً . ايهون عليّ ذهاب اختي ولو نلت مال الدنيا هل تباع مثلك بالملايين

لكن اسألك اليس في هذا الصك ما يقال لتلايذهب التعب سدىً فنحسر النفس والنفس

- لا ريب فيه يا اخي يعمل به ايّ وقت اردت

- عسى الله ان يلمك الخير وان لا احتاج الى هذا الصك يا عزيزتي . آه يا قينة

ما هذه المصيبة التي اوقعت فيها اخلك وكيف يطيب لي العيش بعدك

- ما لنا ولهذا الشأن الآن فاذهب ولا تضع الوقت . سلم الرسالة الى الوالي ليدير

امره ثم تعود الى عمل السم

فخرج وهو كالمتأسف الالهيف وادى الرسالة الى الوالي . فلما رأى الخط مقررماً

ودالاً على العجلة وعرف فحوى الرسالة تحير من هذه الدعوى غير المنتظرة وداخل

نفسه انه لا بد من حدوث شيء فوق الطبيعة احوجها الى طلبه ومقابلته . ثم اخذ

يسأل قيناً عما جدّ . فضناً بالتوصل الى ذكر المليونين او تحفظاً من بادرة تسقط بشأنهما

قال انه لا يعلم شيئاً الا ان السيدة اينسة منذ يوم مشتغلة البال جداً ولا يعلم الاسباب

المؤدية الى هذا الانزعاج والتكدر . فقال له امض واخبرها شفاهاً اني اكون في

انتظارها في الساعة المعينة في المكان المعهود وان لا تدع شيئاً يمنعها لانها شغلت بالي

واحب سرعة الوقوف على امرها

فخرج قين وتوجه في الخلال الى الصيدليات وحوانيت العقاقير وابتاع ما لزمه
لتركيب السم . ثم استحضر حنجرين ومضى الى الفندق الذي نزله في الماضي وطلب
ان يختلي في الغرفة التي كان مستأجراً لها وان يأتي له صاحب الفندق بباريق قهوة
جديد نحاسي وموقد فيه جمر ثم اقفل الباب وفتح نصف الشباك لئلا يخنقه البخار واخذ
يصنع الدواء المطلوب

وأما قينة فكانت تتظاهر بجمع امتعتها اهبةً للسفر . واتي لؤلؤ قبل العشاء بساعة
يتفقد احوال امرأته فقابلته بيشاشة ولم تظهر شيئاً من حقدتها

واتى قين بعد العشاء وطلب مقابلة السيدة اينسة فأمرت حالاً بدخوله وقالت
له هات الخبر على عجل . قال قابلت الوالي واعطيته الرسالة

- ألم يقل لك شيئاً
- ظهر عليه بعض ارتباك وسألني فلم اخبره بشيء
- حسناً فعلت وجميلك لا يضيع عندي . وأين السم
- يا أختي يا حبيبتي راجعي فكرك
- راجعت تكراراً فلم أرَ مجاتي الا بأحد الامرين الفرار مع الوالي أو شرب السم

فاعطاني المطلوب

فاخرج الحنجر وناولها اياه . فأخذت تتأمل فيه واذا فيه سائل أحمر كُميت
كالخمر الى نصفه فقط فقالت له هذا هو الموت لا شك فيه

- لا شك البتة وهو أفضل من الرصاص والخناجر
- بيم يشعر الانسان اذا شربه
- في أول ساعة لا يشعر بشيء ثم يحس بسبات ثقيل لا يقوم منه
- كم نقطة منه كافية للقتل
- جميع ما في هذا الحنجر كافٍ
- ولو شربه رجل
- ولو شربه ثور . وما معنى هذا السؤال يا قينة

- لا شيء . اريد ان اتحقق فعله
- ما هذا لكن ارى منك دسيسة
- اية دسيسة
- ما اخال انك قاتلة به نفسك
- لمن اذاً احضرته
- ما ادري ان لم يكن لزوجك
- واذا كان ما تقول فهل تستصوب رأيي
- هو اصوب رأي
- فهو هكذا
- بيج . ليس للؤلؤ وريث عصبي ولا افكر على رأيي انه يكتب وصية فلا بد ان يقع ارثه لك فنفوز باربعة عشر مليوناً . واطرباه . عجلي يا قينة عجلي
- كن مطمئناً لا ارهب شيئاً من مثل هذه الافعال على اني لم اتعدّ عليه هو جرّ الويل على نفسه وحياته متوقفة على ارادة الوالي . اذا شاء ان ينقذني بالفرار عاش لؤلؤ والا فبهذا آخر عهده في الدنيا . ولا ارى عليّ بذلك اثماً لاني اكون كالقاتل عدوّه اذا عجز عن المدافعة
- احكمت الحجة وما كنت اظنك في هذه القوة من البرهان
- لكن لا تؤاخذني يا اخي اذ لم اطالعك على الحقيقة من اول الامر لا لعدم ثقة فيك لكن خشيت ان تصدني ولم يكن لي وسيلة الا الوصية
- فقد خاب املي من تركتك
- لا بل سنال نصف حظي من تركه لؤلؤ ويكون لك ذلك اوفق كما احسب
- علي شرط ان تصدق
- ويحك يا قليل الثقة . متى كلمتك بهتاناً او وعدتك وعداً ونكشته
- انا على يقين انك شقيقة صادقة الكلام والاخاء . . وبناء على ذلك اقدم لك تحفة عسي ان يكون بها صالح
- ما عسي ان تكون هذه التحفة منك لي

- لعله يروق لك ان نحبي زوجك بعد اعطائه السم فاقدم هذا الحنجر الصغير المحتوي على ترياق هذا السم فمن شرب الاول وبعد نصف ساعة من ابتداء فعله شرب هذا الثاني فقد نجأ بتأ

- هذا من احسن ما يكون لكن لا ارى له لزوماً
- او ما تعرفين ان للزمان شوئناً وللظروف فنوناً فاحتفظي على هذا الترياق

فلا تندي

فاخذت قينة الحنجر المذكور وكان فيه سائل اخضر كذوب الزمرد ولفته في رقعة ثم قالت له اسألك سوءاً واحداً

- ما هو

- اذا مزج هذا السم بالخمير الا يتغير المنظر والطعم

- بل يكون كاحسن خمور الاندلس . واجود خمر شريش (١) لا يقوم له

- فقد تم المراد فاشكر فضلك . ونحن على العهد اي نمضي نصف الليل الى

ميعاد الوالي

- رهين الاشارة

وكان الوالي بعد ورود كتاب قينة قد تناول رسالة من احد امراء المملكة

يدعوه الى البلاط بداعي ان الملك رضي عليه واعاده الى منصبه الذي نفي منه ففرح

اشد الفرح لكن شاب (٢) سروره العظيم شيء من الكدر بفراق محبوبته فاختر

من الويل اهونه وأثر قرب الملك على قرب قينة قياماً لشأنه وعزم على السفر وقال في

نفسه نعم اني سأقاسي اشد الآلام من هذا الفراق لكن لا تمضي ايام قليلة حتى اسلو

لان البعد جفاء والالتهاء سلوان وهي ايضاً لا بد ان يضعف عزمها وتخمد حرارة قلبها

فلا يكون امرنا الا على حد قول الشاعر

ثم انقضت تلك السنون واهلها فكأنها وكأنهم احلام

غير انه رأى من الازوم ان يخبرها بهذا الخبر الفادح وان كانت ساعة الوداع

تذيب كبد الجمود . وكان مع ذلك متحيراً من طلبها للاجتماع به بالحاح ولم يدرك كيف

ياؤل ذلك فكان ينتظر دخول الليل بفروع صبر

ولما كانت الساعة الخامسة اي قبل نصف الليل بساعة مضى الى الميقات على علمه
ان هذه الساعة الباقية لقدمها تكون عليه اطول من شهر الصوم مع انها اشهى من ليلة
القدر . ثم مضت الساعة وبضع دقائق فاذا بالباب قد قرع ثلاث قرعات خفيفة ففتحه
عاجلاً ودخلت قينة متغيرة الاحوال مرتعشة البدن فقال لها اهلاً وسهلاً بحبيبة القلب .
مالك يا نور العين على غير هدىى ايّ خبر ويل تأتين به

- من اشأم الاخبار يا روجي . خبر الفراق . الفراق . آه الفراق
- ما تقولين من اعلمك بالفراق

- زوجي . ويلاه زوجي عزم على تفريقنا . يمضي بي الى هوانة . ما امرّ الفراق
يا جورج أليس الموت اهون من فراقك . اي قلب يحتمله . حياتي لك واليك يا جورج .
وانا اترك زوجي حباً بك ان احببت ان تذهب بي ولو الى النار . تأمل يا حبيبي فيما
تجيبني . على كلمة منك يتوقف مماتي وحياتي . ففي الغد ساعة اقلاع السفينة اما ان اكون
مجتمعة بك بلا انفصال او منضمة الى رمم العابرين . وما ا قوله لك واقع لا محالة
فالسّم في قبضتي انهي به حياتي الشقية اذا امتنعت عن اجابتي . فاحكم الآن حكمك
واقض بعد تروّ . ثم تهدت وانشدت

يا للمصيبة كيف احبي بعد ذا يا ليتني ذقت الردى منذ الصبا
فلقد اراني الدهر منه نواثبا كأس المنون الذّ منها مشر با

وكان الوالي يسمع هذا الكلام من قينة وهو كأنه في حلم متحيراً مذهولاً لا
يصدق انه يسمع كلاماً وقع على قلبه اشد من وقع السهام ثم حاول ان يخمد لوعتها
ويسكن جزعها بلطيف الحديث لكن كانت لا تعي ما يقول كأنها غائبة عن الوجود
ثم قالت له عليك عليك يا جورج تتوقف حياتي . انت او الموت

فراقٌ ليس يعقبه لقاء وعينٌ دمعها ابداً دماء
ونفسٌ لا تقرّ على قرارٍ وقلبٌ لا يفارقه العناء
وحزنٌ هدّ اركانها مفاجٍ ووجد ليس يشفيه البكاء
فؤادي لا يحلّ به سواكم وذلك حيث من حظي الشقاء

احاول ان افوت الحب لكن ارى حيلي تضيق بما اشاء
 له في كل يوم في فؤادي بلاء ليس يشبهه بلاء
 وما احلى الهوى لولا نوى من احب وليس في النعمى بقاء
 فقال لها كوني مطمئنة يا قرّة العين
 قسماً بالوداد لست بناس عهدكم ما بقيت تحت السماء
 كل من ينسى العهد ليس بانساً ن ولكن من بعض اهل الرياء
 لكن اخبريني كل ما حدث لكي اكون على بصيرة من امري لا تخفي عليّ
 مثال ذرة

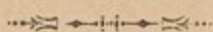
فسرّي عن قينة بوعد الوالي واخذت تقص عليه احاديث ملفقة تلبست فيها
 الحقيقة بالخداع واقرن الصدق بالبهتان . وكان الوالي يسمع ويتعجب ويتأمل ورأى
 ان فوزه بحب هذه السيدة من اعظم الفوز على انه لم يكن يخطر بباله الهرب بها كالسبية
 ولم يكن زوجها قد اساء اليه حتى يسلبه امرأته بل كان يخالفه اليها وهو كانه بحار لما
 هو جار . وغير دار بما بينهما دائر . ولكن عز عليه وشقّ ان تقتل حبيته نفسها لاجله
 فوقع بين مشكلين لا يرى لهما حلاً « كالحجر بين شاقوفين » ثم رأى ان قلبه لا
 يطاوعه على اهلاك فتاة كهذه مكالة بالمحاسن مجملّة باللطف والحنافة . ورأى من وجه
 آخر ان سبها لم يعد بحق زوجها اساءة لان خروجها من يده في الحياة اولى من فقدها
 بالمات وهي على كل حال ذاهبة من قبضته فرأى من اللزوم والسهولة ايضاً ان يأخذها
 الى باريس ويودعها بهوا (١) من تلك المنازل السرية المنفردة في ارباض المدينة
 وهنا يستحيل على الدرك الاهتداء اليها اذا طلب لولؤ استحضارها خصوصاً لان كلمة
 الوالي كانت نافذة عند مقدم الدرك لما بينهما من الصداقة فيغض طرفه ويبقى الامر مكتوماً
 وهكذا لم تنته قينة من حديثها حتى كان قد جزم بعزمه هذا فقالت له الآن

علمت كل شيء يا حبيبي فاقض عليّ ولي وانطق بكلمة يكون فيها هلاكى او بقاى
 - لك البقاء يا حياتي . كيف . كيف اسمح بك ولو على تلف نفسي . تذهبين
 معي ولو ذهبت روحي ولا يفرقنا عارض من عوارض الدنيا الا الموت حتف الانف (٢)

(١) البهو يراد به هنا البيت المنفرد بمزل عن منازل الجمهور (٢) اي الموت الطبيعي

- جبر الله قلبك يا قرة العين كما جبرت قلبي فيها انا منذ الآن أمتك ومن يدك حياتي وانت ملاذي

ثم فاضت عينها بالدموع واخذت تقبل يديه وتعتقه بشغف لا يوصف فاخذ روعها وسكن جأشها ثم اخذا يتشاوران في كيفية الفرار فقررا رأيهما على ان تحضر عجلة في نفس اليوم المنبلج (١) وتقف على طريق باريس خارج ابواب المدينة في موضع معين وفي الساعة العاشرة من النهار تصل قينة الى هناك وليس معها سوى حليها ومن هناك يسيران في تلك العجلة . ثم افترقا على هذا القدر



الفصل السابع والعشرون

« العبد في التفكير والله في التدبير »

فلما خرجت قينة التقاها اخوها في الزقاق وقال لها ما وراءك يا عصام (٢) قالت خير ان شاء الله نسافر هذا المساء وغدا نكون في باريس . الحمد لله زال بلبالي ثم تقديما تحت حجاب الظلام بعض خطوات واذا بشيخ كان مختبئاً قرب مجرى حديثهما قام ينفذ الغبار عن ثوبه وتوجه نحو المنزل الذي فيه الوالي فوصل ووقف امام الباب وقرعه ثلاث دفعات على مثال ما فعلت قينة قبلاً . وكان الوالي على وشك الخروج فارتعش عند ما سمع قرع الباب واشتغل باله ثم قال في نفسه لعلها رجعت تخبرني شيئاً سهت عنه . وتقدم ففتح الباب

فلم يلبث الباب ان انفتح حتى قص الوالي ونكص وصاح صيحة الاضطراب والدهشة وشعر ان شعر رأسه يقف مع انه معروف بالشجاعة والاقدام . وما حدث له ذلك الا لانه رأى امامه مرأى من اغرب ما يكون واشأم ما يخشى واهول ما لم يكن يتوقع . من هذا الطارق العجيب . لؤلؤ بن فيليب لوليان

فأي رعب فاجأه واي ذهول اخمد قوى عقله . بغته لا يعرف نتائجها الا من

يكون في مركزه . فانعد لسانه في اول الامر ثم تكلم كلاماً يضحك الاولاد سخافة
فانه قال له هذا أنت هنا يا سيدي لؤلؤ ما كنت أتوقع ثم سكت فقال لؤلؤ ما
كنت تتوقع قدومي في هذه الساعه من الليل . أنا أعلم ذلك فهل تسمح لي الآن
ان ادخل فالك في أمر ذي بال باسرع ما يمكن فقال الوالي وقد ردت إليه روحه
وسكن روعه انا على ما تريد يا سيدي وبين يديك . ثم تنحى للؤلؤ فدخل وجلس ثم
جلس الوالي بازائه وصار ينظر فيه نظر المبهوت وهو يقول في نفسه ما عسى أن يكون
من الامر لعله عرف ما نحن فيه من يدري ما سيكون بيني وبينه

واما لؤلؤ فأزال اوهامه في الحال فانه قال له وهو لا يتغير عن هيئة الوقار والسكينة
قد تعجبت يا سيدي من زيارتي على غير عادة وأنا اكشف لك سرها وستعرف عاقبتها
حين تتحقق اني عارف ما أنت فيه مع امرأتي منذ أيام

- ما تقول يا سيدي لا توقع رية على السيدة أيسة فما بها من عار
- لا بد ان تقول ذلك مدافعة عن معشوقتك شأن كرام الرجال . لكن لا فائدة
من هذه المدافعة لاني اعرف كل شيء ولا يمكن ان تنفي من فكري الظنون
- قسماً بشرفي . . .

- لا تقسم يا سيدي لا تقسم وانت تعلم انك حانث فلا تخرج امرأة من بيت
زوجها لتوافي رجلاً في نصف الليل لمحادثة بسيطة . وامرأتي كانت هنا منذ دقائق
وبراهيني كثيرة قاطعة اعظمها ان امرأتي عازمة على الفرار معك عند مساء هذا اليوم
القادم . أنرى اني على يقين

فوجم الوالي وقد أفحم . ثم قال بعد هنيهة وما مرادك الآن
- أنت تعلم يا مولاي ان الشريعة تسمح لي لو اقتضى الحال ان ادفع الباب
واكسره واقتلك اقامة لشرفي

- نعم لك الحق
- غير اني لم اكن نذلاً لاغدر بك لان آثار حب امرأتي قد محيت من قلبي فلم
تعد لي غيره عليها وخياتها قد اتضحتم فصرت انظر اليها بعين الاحتقار واني يصعب
عليّ حل رُبط القران احتراماً لمهود أبي وأبيها لكن شرفي لا يجتمل كل هذه الاهانة

ولا اطيق ان ارى بعيني عشيق امرأتي فالتخلص من هذا العار غاية طلبي فاما ان تقتلني
وتكفي نعمتي أو اقتلك واكفي مساويك وحينئذٍ تضطر امرأتي ان تصحبني الى هوانة
وهناك لا بد ان تسلك بتقلبات الزمان

- الامر لك وقد أنصفت فدبر برأيك
- لا أسهل من التدبير يأخذ كل منا سيفاً وتتضارب حتى يُقتل احداً
- وأين يكون مشهد القتال
- داخل هذا البيت
- في هذا الوقت
- في هذه الدقيقة
- راجع فكرك يا سيدي
- راجعت فكري تكراراً فما رأيت غير هذا الرأي . هل عندك ما يمنع العمل
- موانع كثيرة منها ان المكان ضيق
- هذا غير مانع فلا يحتاج السيف ليبلغ القلب الى فسحة كبيرة . ثم ماذا
- النور ضعيف هنا
- برهان فاسد وحجة ساقطة . فنشعل الشموع التي في هذه الثريا . ثم ماذا
- ليس لدينا شهود
- هذا لا يهمنا في ثقة بشرف كلامك . أو ليس لك في الثقة ايضاً
- لا شبهة عندي يا سيدي . لكن النظر هنا في عاقبة هذا القتال
- ما ترى من العواقب
- لنفرض انك قتلتني وليس بيننا شهود
- هذا ما أتمناه وهل تدفع عنك الشهود
- ما هذا القصد بل ليكون من يقرر ان الامر جرى بيننا على القوانين المسنونة
- لثلاثتهم بالغدر وليس لك حجة تدفع بها التهمة وهكذا يكون الامر معي اذا قتلتك
- في هذا الوجه لك حق على اني استسهل ملافاة الامر
- كيف

- تسمع لي بقلم وورقة

فأتى له الوالي بذلك فكتب لؤلؤ في رقعة ما يأتي

حين مثولي لدى عالم اخطايا اشهد ان قتلي لم يكن على سبيل الغدر بل بموجب القوانين المألوفة وان لم يكن هنا شهود . واطلب ان لا يطالب خصمي بدمي ولا يتهم بغدر والبيان حرر في ٢٤ آب سنة ١٧٧١

كاتبه

لؤلؤ لوليان

ثم ناوله الرقعة وقال اقرأ يا سيدي فاذا وجدت بها الكفاية فامنن بكتابة مثلها فتحفظ رقعتي واحفظ رقعتك حتى تكون بمثابة شهود عدل لمن يبقى سالماً

فلم يجد الوالي ما يعترض به فسطر نسخة طبق كلام لؤلؤ وأعطاه الورقة فقال له لؤلؤ أبقى لك شيء . قال لا . قال فلنباشر القتال

فاستل كل منهما سيفه وكانا بالاتفاق في طول واحد . ثم اخذا في المجاورة ورأى الوالي ان خصمه اشد منه وأنه مستطيل عليه فتيقن الهلاك . فتوقف عن المدافعة وقال لؤلؤ . لي سؤال واحد يا سيدي

- ما يكون

- اذا قتلني فعاهدني ان تلتطف بالسيدة أنيسة وتعاملها برفق

- لا بأس عليها ولو لم تطلب

ثم عادا الى العمل ورأى لؤلؤ من الوالي فتوراً فقال له أقسمت عليك يا سيدي الا دافعت عن نفسك ما هذا الفتور فقد كدت دفعتين أخرق صدرك

- هذا مقدار ما عندي يا سيدي ما العمل

- ليس بيننا معادلة أفتحب ان امضي الى البيت وآتي بغدارتين

- لا حاجة الى ذلك فافعل ما تفعل

- وأنت راضٍ

- كل الرضى

فلم يتم الوالي كلامه حتى خرق سيف لؤلؤ صدره فسقط صريعاً ودمه يتدفق وخذت انفاسه ولم يبد حراكاً . فتأسف لؤلؤ وقال أف للخيانة أف لجبايل

الشیطان . لا ینجو من شرهن الا من كتب الله على جبینہ السعادة . ما كان اغناني
لولا هذه الفاجرة عن قتل هذا الرجل الباسل الطيب الاصل

ثم انهض شلوه ووضعهُ على الديوان حيث كان منذ ساعة جالساً مع قینه مطوقاً
بذراعہ خصرها وهي خافقة الفواد . ومدّ يدهُ الى جيبه وأخرج الصك الذي فيه
امضاءه وأحرقه بضوء الشمعة . وخرج من البيت وأغلق الباب وأقفله ورمى المفتاح
في الارض البور المجاورة للطريق . وتوجه حالاً نحو المينا حيث كانت السفينة ناشرة
قلوعها وكان أحد النوتية يتمشى على الرصيف متفكراً فقال له لؤلؤ ابن القبطان قال في
السفينة قال ادعه اليّ فمضى وعاد به فكلمه لؤلؤ قليلاً ومضى فصاح القبطان قائلاً
كونوا جميعكم على الالهة فالسفر في هذا الصباح

وكان قصد لؤلؤ بهذه السرعة ان يكون في راحة بال في لجة البحر حين يكشف

قتل الوالي

وأما قینه فكانت قد نامت بعد رجوعها ملء جفونها وتواترت عليها أحلام الحب
واللقاء والتخلص من زوجها وفي الصباح استيقظت بجلبة النوتية وهم يقولون الامتعة من
الغرفة المجاورة لها لغرقها فاستنهمت عن هذه الجلبة وعرفت فقالت ما هذه العجلة كان
علمي اننا نرحل عند العصر فقتيل لها هكذا امر رب البيت

فاخذ قینه القلق وما عرفت الاسباب الداعية للعجلة ثم نهضت ولبست ثيابها ففرع
الباب ودخل لؤلؤ فقالت ما الخبر كان في عزمي ان اقصدك واسألك

- وأنا أيضاً لي معك كلام . سليني أولاً

- ما معنى هذه السرعة وانت وعدتني ان السفر العصر

- لاح لي ان السرعة اولى لمواقفة الريح الآن

فارتعدت فرائص قینه بهذا الخبر الفجائي وكاد يغمى عليها فتغافل لؤلؤ عن
اضطرابها وقال لها ما الفائدة يا عزيزتي من التأخير اذا أمكن التقديم لم يبق لك حاجة

على ظني ولا أحد تودّ عينه فبعد ساعة تناول الغداء ونركب العجلة الى البحر
فقالت له وصوتها يرتجف يا لؤلؤ دعوتني الى رحيل هائل فأجبتك . والآن

اطلب اليك ان تبقي على وعدك من التأخير الى العصر

- يصعب عليّ أن اجيب طلبك
 - ما الذي جدّ حتى منعك
 - ستعلمين
 - أحب الآن
 - لا يمكن
 - ما الذي جرى في هذا الليل حتى لا تذكره
 - ما معنى هذه الاسئلة . الامر تقرر
 - اذن صممت ولا جدال
 - اضطرت
 - وتصرّ على عزمك
 - كل الاصرار
 - ليكن ما تشاء
 - هذا الذي ارجوه منك يا عزيزتي لان قلبك طيب
- ولما خرج لؤلؤ امتنع لون قينة من شدة الغيظ والاسف والبغضاء وقالت في نفسها ما هو الا ان الشيطان وسوس اليه عاملاً على هلاكه ويعلم الله اني ما كنت اقصد قتله ومع ذلك احاول طريقة اخيرة فان حبط المسعى يكون المقدّر قد نفذ فيه وكان قصدها حينئذ ان تخرج الى دار الوالي فجمعت جواهرها وحليها في علبة وضمت اليها كل ما بيدها من النقود الذهبية وكان اخوها لم يبق لها من النقود الا القليل لكثرة ما رشته به فيما مرّ . ثم طرحت على بدنّها طيلسانها ذا القبع الذي كانت تلبسه ليلاً حين توجهها للقاء الوالي في ذلك البيت وتقدمت نحو الباب المؤدي الى السلم الخارجية فوجدته مقلّلاً من الخارج . فصرخت بحق قائلةً أيجبني ايضاً . لكن سيعلم الذين ظلموا اي منقلب يتقلبون . ثم رجعت قاصدة سلم الدار الكبرى فوجدت في طريقها نسباً الخادم الامين قهض ومشي وراءها فوقفت وقالت له ابن تمضي
- في صحبتك يا مولاتي
 - لا حاجة لي بك

- اعمل ما عليّ
 - امنعك من المسير معي
 - سيدي لؤلؤ امرني ان لا افارقك حتى لو ركبت العجلة للتنزه
 - بل مرادي الخروج على رجليّ منفردة
 - لا اقدر ان اوافئك . هكذا امر سيدي
 - أفرغماً عني تصحبي
 - لا شك كما أمرت افعل
 - اذن تعصي امري
 - اتباعاً لامر سيدي
- فامتلاً قلب قينة حنقاً وقالت قد قضي الامر . المسألة جدية والعيون ترصدني ولا بد ان انفذ سهمي . ثم عادت الى الغرفة واقتت عنها الطيلسان ووضعت العلبة في مكانها واخذت من بين امتعتها القينة السمية وقعدت تنتظر
- وبعد نحو ساعة اتى نسيم وقال لها الغداء معدّ . فعرفت انه لم يعد مناص من قضاء مصالحتها وعزمت على الفتك ببعلاها بمناسبة هذه الفرصة

الفصل الثامن والعشرون

« طابخ السم آكله »

وبهذه النية دخلت قينة قاعة الاكل المزينة بافخر اثاث واثمن فرش وكان على حيطانها الاربع اربع مرايا كبيرة حتى كيفا التفت اجالس على المائدة يرى صورته . وكان الغداء مؤلفاً من لحم بارد وممعجات وثمار وعلى المائدة قنيتان في احدهما خمر فرنساوية وفي الاخرى خمر اندلسية كذوب العميق . وكان نسيم الخادم واقفاً وراء سيده ويده فوطه مستعداً للخدمة . فكدر وجوده صفاء قينة وقالت لؤلؤ . هذا الرجل قد عصى امري الآن وتسافه في اجابتي فما اطيع ان اراه . مره يخرج في الحال . فاراد نسيم ان يبري نفسه فما أمهله لؤلؤ وقال له سمعت ما قلت فاخرج ولا

تخالف دعنا وحدنا فأنا اخدما واخدم نفسي فقال حسب امرك فعلت قال نبحت في هذا فيما بعد . فخرج نسيم ولم يبد جواباً
 ثم جعل لؤلؤ يقدم لقينة الاطعمة فتمتع عن الاكل فقال لها مالك يا عزيزتي
 ائيسة أما في خاطرك ان تتغدي اليوم

- ما أجد لي شهوة

- الزمي نفسك « مفتاح البطن لقمة » لا تقدرين ان تركبي البحر صائمة

- أعطني شيئاً من هذه الثمار

- ولا تمتنعين على ظني عن أصبع من هذه الحمر اللذيذة

- اشرب اكراماً لك

فصب لؤلؤ في قدحها الى ثلثه وملاً نصف قدحه . فأخذت القدح وجعلت

تنظر الى ما حولها استجلاً لنظر زوجها فقال لها . ما تطلبين

- اقراص اللوزينج التي تؤكل مع خمر الاندلس ما لي لا أجد منها شيئاً .

فالتفت لؤلؤ الى الورا وقال . اما هي هذه التي على تلك المائدة . قالت نعم

رأيتها ثم تحركت لتنهض فقال لا تزعجي نفسك انا آتي بها . وحالما ادار ظهره كانت

القنينة السمية بيدها مفتوحة فافرغت ما فيها في كاسه بلطف وخفة ووضعها في جيبيها .

فأخذ لؤلؤ صحفة فيها اقراص اللوزينج وعاد الى مكانه وقد علا وجهه الاصفرار . ثم

اخذ بيده الكاس وقال لها . ما الطف لون هذه الحمرة يا عزيزتي ائيسة وكم لها في

الناس آيات

- نعم ما كذب من سماها حياة القلوب فانها تنعش القلب وتسر النفس

- لكن على غير رشاد . ليست الا سماً في دسم

ف نظرت اليه نظرة المرتاب وقد اخذ الكاس بيده وقربها من فيه ثم وضع الكاس

فقال في نفسها عجباً لم لا يشرب

فقال لها يا عزيزتي ائيسة احب ان نشرب الآن على سر رحلتنا هذه ونطلب

الى الله ان تكون مقرونة بالتوفيق . أتحبين ان تشاركييني بهذا السر

- كيف لا

- والإحسن ان نشرب معاً . ثم رفع يده بالكاس حتى مست شفثيه . فكانت يد قينة ترتجف واسنانها تصطك بالكاس . فعاد لؤلؤ ووضع الكاس ثانية وقال لها اما ترين يا اينسة ان تبادل الكؤوس فتشربين كاسي واشرب كاسك اذ مست شفثيك . هذا اراه لذيذاً جداً

فاصفرت قينة وجد الدم في عروقها وتجاهلت عن طلبه ورفعت يدها لتشرب كاسها فأمسكها وقال لها عجباً اما سمعت يا عزيزتي ما قلت لك تشربين كاسي واشرب كاسك . ثم أخذ الكاس من يدها وناولها كاسه وشرب واما هي فتوقفت وهي ترتجف . فقال لها ما هذا يا اينسة من يراك في هذه الحالة يظن انك دسست السم في كاسي . فارتجف بدنها « كما انتفض العصفور ببله القطر » فقالت له ما تقول يا لؤلؤ دسست السم . ما هذه التهمة الشنيعة

- لا اتهمك لانني ما اعتقد ان ابليس وصل بك الى حد قتل زوجك وهو لم يفعل لك الا خيراً . لكن لم لا تشربين

فراجعت قينة فكرها واستراح بالها قائلة اذا شربت فلا بأس فعي الترياق وقد افحمته . ثم شربت الكاس الى آخر قطرة وقالت له ارايت الآن اني رفعت الشك فوضع لؤلؤ يديه على وجهه بضع ثوان ثم رفع البها عينيه وقد اغرورقا بالدموع وقال لا شك ايتها الامراة الشقية . رأيت صنعك وعلمت تتيجته وطبخ السم آكله ما الذي صنعت معك من المكروه يا اينسة

- ما مرادك يا لؤلؤ بهذا الكلام هل اختلفت لا اختلال يا أفاكه . بل الصواب نطقت . وقد رأيت صنعك في هذه المرآة حين قت لآتيك باقراص اللوزينج والسم الذي صبته في كاسي يجري الآف في عروقك . يا اينسة أقيم روح أهلك حكاماً بيني وبينك وهو يعلم اني اكراماً لارادته اتخذتك زوجتي وتعلمين اني لم أوبخك على خيانتك . لم أوبنك على دعارتك التي دنست بها فراشي الطاهر . صفحت لك اكراماً لاسم يوشع والآن ليس عرضي الذي تلمينه بل مددت يدك الى نفسي تهلكيني . وليس لي جرأة على معاقبتك لكن الله انتقم منك بعدله وسكب على رأسك كاس رجزه

وكانت قينة تسمع هذا الكلام بأذنيها ولا يصل منه شيء الى عقلها لانها غابت عن الرشد لما اعترها من الدهول بكشف خبثها وظنت ان السماء انطبقت عليها فودت لو تنشق الارض وتبتلعها أو تسقط عليها الجبال فتسحقها . وكان السم يأخذ في التأثير وعلمت انه اذا مضى نصف ساعة يفوت الامر ويحل القضاء فتقل عليها وجود زوجها الذي يمنعها عن الذهاب الى غرفتها لتشرب الترياق . وشعرت بخدر يستولي على دماغها وأن ساعتها قريبة . وكانت معلقة عينها على ساعة معلقة في الحائط تجاهد على وهي تعد الدقائق

وأتم لؤلؤ حديثه قائلاً طلبت قتلي يا أنيسة ليخلولك الجوّ وتهربي مع الوالي عشيقك . لكن أما علمت ان عشيقك لا يمكنه ان ينتظر قدومك في الميعاد . قتله في هذا الليل بعد خروجك من عنده . فلا يكون انضمامك الى حبيب بل الى ضريح فصاحت قينة بصوت عميق وتوترت عروقها وقلبت حذقتها في محجرهما وسقطت متلاشية لا تعي على شيء . فقال لؤلؤ يا منكودة الحظ . تلفت قضي الامر . الله عادل . ثم فتح الباب ودعا بالنساء وقال دونكن سيدتكن اصلحن شأنها . ثم خرج وأمر نسيماً ان يسرج له فرسه الادمم ودخل غرفته وأخذ منطقة محشوة ذهباً وسفاتيح . وعلق على جنبه غدارتين والتف بكساء ونزل الى عرصة الدار فوجد الفرس معداً فركب . فانفرج الكساء فرأى نسيم المنطقة والغدارتين فقال له أراحل يا مولاي

- نعم يا خادمي الامين
- أو تذهب وحدك
- لا حاجة لي برفيق
- وما تفعل بالسفينة
- اخبر القبطان عن لساني ان يبقيا في المرفأ
- هل لك أن توصيني شيئاً
- لا شيء
- ولا بخصوص سيدتي

- سيدتك زمامها بيدها منذ الآن . استودعك الله يا نسيم عاهدني على الوفاء والتذكار
- أتخال اني أنساك يا مولاي ولا اذكرك في كل دقيقة . وهل في رحلتك عاقبة

والى ابن تمضي

- ربما بلغت برك الغراد (١)

- ومتى تعود

- متى عاد نشيط (٢)

قال هذا وبذل المهازين في الجواد وترك نسيماً متحيراً وهو ألهف من قضيب (٣)
وأما قينة فكانت قد شعرت ببرودة الماء واخلل لان النساء اكثر من فرك
صدغها بهما فعاد اليها وعيها حالما فتحت عينيها فقالت في نفسها ترى هل بقي شيء
من الوقت . ووجهت نظرها في الحال الى الساعة المعلقة في الحائط وعلمت انه باق
نحو خمس دقائق فنهضت وأسرعت الى غرفتها وقد شعرت ان الموت دنا منها وكاد
يقبض عليها بانامله وثار كالمجنونة الى الصرة التي فيها حنجر الترياق وابتلعت ما فيه
الى آخر قطرة ثم انطرحت على فراشها متلاشية من فعل السم وسرعة حركتها وخيل
لها ان جدران الغرفة ترقص حولها والارض تخسف تحت رجليها . فقالت هلكت
وأسفاه . وفي الحال فقدت شعورها

واستمرت في هذا البحران طول النهار وبجانبيها رجلان واقفان فلما كان المساء
تحركت فصرخ قين وهو أحد الرجلين قائلاً للطبيب وهو الآخر هوذا السيدة قد
عادت الى الحياة فأخذ الطبيب نبضها وقال . كيف تجدين نفسك يا مولائي

- لا أشعر بألم . أتجدني عليلة

- كنت أخشى ذلك وأما الآن فاستراح بالي ليس فيك شيء من الحمى فاذا

نمت ليلة كاملة تصبحين على غاية ما يكون من الصحة

ثم كتب لها دواءً معرّفاً ومضى

فقال لها أخوها بجمياتك يا شقيقتي قولي لي حالاً ما الذي جرى

(١) يقال انه أقصى معمورة في الارض يضرب بها المثل في شدة البعد (٢) رجل مضى فلم

يعلم خبره . يضرب في عدم العود (٣) اسم رجل يضرب به المثل في شدة الالهف

- ويحك يا معتوه أما رأيت في أية حالة كنت أو ما خطر في بالك ان هذا الفعل
فعل السم
- أو اه كيف وصل اليك السم
- من كأس الذي أعددتُه له
- يا للعجب بأية طريقة انفق ذلك
- وشت بي مرآة بأزائي لاني صببت السم في كأسه حين أدار ظهره لغرض لي
فرآني في المرآة
- اذا هو الذي جبرك على شرب كأسه
- وأنا قبلت ان اشرب حين خطر في فكري الترياق ولولا ذلك لهلكت لا محالة
- ها . ها . علمت اذا صحة رأبي حين ألزمتك ان تأخذي حنجر الترياق وأنت
تقولين لا حاجة لي به أفرايت الآن ما أشد لزومه . من يدري ما يهيبه له القدر فلا
شك ان هذا الالهام كان لي كالوحي وزوجك الآن يعتقد انك فارقت دار الدنيا
- أتظن هذا
- بل هو اليقين
- وأين هو الآن
- سافر
- متى
- في أول وقوعك
- الى أين مضى
- الى حيث القت رحلها ام قشعم (١) وعلى قوله الى برك الغماد
- لمن قال هذا
- لخادمه المجنون نسيم
- وهل يرجع في وقت قريب
- حتى يرجع نشيط . هكذا قال

- فاستوت جالسة وقالت أحق ما تقول يا قين
- الحق كله وقد صار البيت في يدنا ورأيتُهُ أنا على فرسه الادم ينهب الطريق نهباً
كالمذعور الهارب من الحكومة
- يا قليل العقل من ينجو من يد الحكومة وهي ساهرة ليلاً ونهاراً على حركات الامة
- ما تقولين يا قينة هل ارتكب لؤلؤ شيئاً من الجرائم
- أكبر الكبر
- ما فعل
- قتل
- يصعب عليّ ان اصدق عن هذا الرجل
- الامر واقع وذلك انه قتل الوالي في الليل الماضي ولهذا السبب قصد سرعة النجاة
- يا للداهية ألوالي قتل . والي هذه المدينة جورج الفرنسي الذي علاقته مع أشهر
- عيال البلاط الملكي . يارب ارحم هذا أعجب ما سطر في التاريخ . ومن الذي اخبرك
- هو نفسه
- ويله وهل يفتخر بذلك . لا غرو انه مجنون سيلاحق ويقبض عليه وتصدّر
- دعواه ويحكم عليه بالقتل كيفما كان الحال . يا للعجب . يا للعجب . وسترملين يا أختي
- هذا حسابي لكن على غير هذا الوجه
- وما ادراك ان الامر كان بينهما بسنة المبارزة
- وكيف تكون مبارزة وليس ثمّ شهود . وفي جوف الليل . من يصدق ذلك .
- وبأية حجة يحتج ليؤيد مدعاه . والبرهان على غدره قائم كعمود الصبح وهو سرعة فراره
- هذا هو الحق بلا مراة لكن من يكون غريمه ويصدر الدعوى عليه
- لا يكون أحد غيري لانه قتل حبيبي وقصد أن يقتلني فلا عار في أخذ الثار
- اياك يا قينة اياك ان تباشري هذا العمل لتلا يعلم الناس ان الوالي كان عشيقك
- فهذه هي الفضيحة بعينها
- أو تظن يا سفية الرأي اني اذكر غير ما أراه موافقاً لصالحي وشرفي ولا يستطيع
- أحد ان يكذبني

على شيء من الاسرار الغرامية لان السر في ذلك الزمان لم يكن له محل امين في صدور الناس وعلى هذا لم يدخل فكر احد من اهل المدينة ما كان بينه وبين امرأة لؤلؤ من العلاقات السرية ولا أحد يعرف حال البيت الذي كانا يجتمعان فيه لانه اشتراه على غير اسمه والفعلة الذين رموه واصلحوه لم يكونوا عارفين لمن هو وبالاتفاق كان لكثيرين من اغنياء المدينة منازل منفردة نظير هذا ولنفس المقاصد المقام هو لاجلها وبناء عليه ذهبت اتعاب المفتشين سدّي

فكثرت الظنون وتواترت الرجوم وتحدث الناس بما يكون وما لا يكون وتشعبت الاقويل واتسع نطاق الحدس والتخمين وما كان كرور الساعات يزيد القضية الآبهاماً وأفضى الامر الى اتقسام الاراء فقال البعض ان فقد الوالي نتيجة ذنب وقال الآخرون نتيجة حادث طبيعي وهو مذهب القليلين لانه كيف يمكن ان يخرج من داره في جوف الليل للتنزه مثلاً على شاطئ البحر فيذهب فيه غريقاً وقد قرر الحرس الليلي انهم لم يروا احداً من المارين فيه شبه من هيئة جسم الوالي ولو فرض انه سقط في البحر لوجب انه يصبح مستغيثاً وكان الليل هادئاً فلو بدا فيه صوت غريب لسمع لا محالة وفضلاً عن ذلك كان الوالي سباحاً ماهراً

واما مسألة كونه قد بجريمة فلم تكن اكثر جلاء من مسألة الحادث وما اعترض به عليها كان مقارنة الصحة وذلك ان الوالي كان محبوباً ومحترماً عند الجميع ولم يكن له في المدينة عدو فلا يكون فقدته بدواعي بغضاء أو ثار . فقيل لعل السبب الطمع في المال واعترض على ذلك بأن كيس دراهمه وجد قرب سريره في غرفة النوم فيكون قد خرج صفر اليدين من التعود . فلو فرض ان اللصوص صادفوه لما وجب ان يقتلوه لان قصدهم الدراهم لا النفوس الا اذا شعروا بدراهم وكان الخضم مدافعاً ولو فرض أيضاً انهم قتلوه فأين يذهبون بشلوه ولا شيء يدعوهم الى اخفائه وفضلاً عن ذلك لم يوجد في كل الطرقات آثار قتل

وفي ذلك الوقت وقد انتهى المشكل الى هذا الحد من الغموض وصلت رقعة من امرأة لؤلؤ الى مقدم الدرك تقول له فيها ان يأتي لمقابلتها بداعي اخبار مهمة فتوجه في الحال لعله يستنير بشيء ولما دخل اليها قالت له بلغني ما دار في المدينة من أراجيف

الناس بخصوص الوالي وكان من أعز اصداقائي فرأيت من الواجب ان اكشف للحكومة بعض معلومات لعلها تهتدي بها الى المطلوب

- ما الذي تعلمينه يا سيدتي

- لا أعلم شيئاً عن يقين لكن ربما أرشدتك الى طريقة تصل بها الى الغاية

- تكلمي بالافادة لان مشاكل مثل هذه قد يهتدى الى حلها باشارة خفيفة

- أول شيء أعلمه ان المسألة جنائية

- هذا رأي الاكثرين . لكن هل لك ما تؤيد به رأيك

- نعم لان الوالي كان له عدو

- أمحقق هذا

- لا ريب فيه والبرهان عندي

- من هذا العدو

- زوجي

- ما هذا يا مولاتي أنتهمين زوجك

- معاذ الله ان القى تهمة

- فما معنى كلامك اذاً . تقولين ان المسألة جنائية وأن الوالي له عدو وهذا العدو

زوجك فالنتيجة واضحة اي ان القاتل زوجك

- لكنني متأكدة ان زوجي ليس من اهل هذه الاعمال وأن القاتل ربما كان

احد اصحابه اكراماً لخاطره على غير علم منه

- ربما كان ذلك . فأرجوك أن تخبريني ما سبب البغضاء بين الوالي وزوجك

- الغيرة

- عجباً . وأنت تنطقين بها

- لا عجب يا سيدي فهذا الداء قديم العهد . وطالما اخرب بيوتاً عامرة وسفك

دماء طاهرة

- وهل كان للغيرة محل . العفو على هذه الجرأة

- لم يكن لها محل لاني اعرف من انا واحترم مقامي

- أفلم يكن الوالي محباً لك
- كان يقول لي ذلك
- وسمحت له ان يتفوه بالحب
- لم لا . فالمرأة اذا كانت على ثقة من نفسها لا تكره ان تسمع هذه الاشارات من الظرفاء
- وهل حدث شي بينهما على أثر ظهور هذه الغيرة
- أعمى زوجي الغرور والبهتان حتى قال للوالي ان لا يأتي منزلنا
- وما عمل الوالي بعد ذلك
- اتقطع عن الزيارة واستعاض بالمكاتبة
- الى من كان يكتب
- اليّ تكراراً وما كنت ادري من يأتي برسائله فلا أجدها الا في غرفتي
- امر غريب
- وقد أسفت على كسر خاطر هذا الرجل المحترم من عدم مقابلته مع علمي ان زوجي ظلمه
- كم استمرت المراسلة من الوقت
- نحو شهرين
- وما كنت تصنعين برسائله
- كنت احرقها
- ألم يقف زوجك على شيء منها بالاتفاق
- على واحدة فقط بقمتي وانا اقرأها فاخذها مني اغتصاباً
- متى كان ذلك
- قبل البارح
- وما كان مضمونها
- يطلب اليّ ان لا أطيل عذابه بالصدود ويستحلفني ان اوافيه الى مكان معلوم
- ولو بضع دقائق والمكان المذكور هو بيت منفرد كان قد اشتراه لهذه الغاية في زقاق

لا اينس فيه قرب سور جينتنا وهناك لا يرانا احد البتة

- هذا من اهم الاخبار يا مولاتي فهل لك ان تستدعي بسيدي لؤلؤ لاراه

- عجباً اما علمت انه غائب

- متى غاب

- البارح صباحاً

- كيف خرج

- على فرسه الادم

- ومن صحبه

- لا أحد

- الى أين ذهب

- لا أحد يعرف

- ومتى يرجع

- الامر مبهم أيضاً

- كيف لا تعرفين شيئاً من هذه الامور

- لانه لم يخبر احداً بمقاصده ومع ذلك كنت واياه على أهبة الرحيل في سفينته

المعدة الى هوانة . فخرج خفية وانا مغنى علي بسبب عمل اغرته عليه غيرته فما علمت

بفراره الا بعد ان استفتت فعاد الي الغم بما أرجعني الى الاغماء الى المساء . ولم يكلم

احداً الا خادماً قديماً في هذه الدار ان احيت دعوت به اليك

- أتمنى ذلك

فامرت قينة بحضور نسيم فما ابطأ فسأله المقدم عما قال له لؤلؤ فحكى له ما دار

بينهما من الحديث . فأمره بالخروج وقال لقينة هل في الجينة باب يودي الى الزقاق

الذي ذكرته

- نعم

- وأين مفتاحه

- ما أدري . فان شئت دعوت بالخدم وطلبت المفتاح

- لا حاجة الى ذلك والآن استودعك الله وقبل المساء أشرف بمقابلتك وعسى ان آتيك بيشارة الوقوف على جلية الامر

ولما خرج صار يقول في نفسه كل هذه الامور غريبة ولا بد ان هذه المرأة تريد ان ترمي زوجها في يد الحكومة لعلمها ما كانت تفعل . الظواهر الآن تلقي الريبة على لؤلؤ لكن قلما تصدق الظواهر ولا تمضي ساعة حتى اعرف الحقيقة . ويظهر لي ان هذه الصبية الفتاة تستر تحت جمال وجهها ولطف جسدها قلباً مكاراً فهي ملاك الظاهر ابليس الباطن

واما قينة فقالت في نفسها قد جرت الامور احسن مجرى فلا بد ان يؤخذ بثار حبيبي ولما دخل المقدم المحكمة اخبر القاضي بما سمع من كلام امرأة لؤلؤ فتهض حالاً وصحبه المقدم وثلاثة من الشرط ورجل قفال وتوجهوا الى جهة البيت السري فلما وصلوا امر القفال بازالة القفل ثم دخلوا واذا بشلو الوالي في داخل البيت والروائح المنتنة مائتة والدم قد يبس على الطنafs وجسد الوالي ملطخ به

فقال المقدم قد برح الخفاء وثبت القتل ولو لم يهرب لؤلؤ لما كان لنا سبيل الى اتهامه فقال القاضي ان امرأته نفسها قررت عنه قال المقدم أيمن الحكم بموجب قرار امرأة مبغضة لها مقاصد يعلم الله ما هي . فلنبحث الآن وسينكشف الحجاب

وبعد ان اجالوا النظر في نواحي البيت وامعنوه في اثار الدم قال المقدم هوذا اثار اقدام ملطخة بالدم فاذا وجدنا ان حذاء لؤلؤ ينطبق على هذا الاثر فقد زال الابهام . ثم جعل يتأمل كيف كان موقف القاتل من المقتول فانحنى الى الارض وهو يتحدث بصره ليرى اثار الخطوات ونحو ذلك فوق نظره على قطعة ورقة محروق اكثرها فلما امعن فيها النظر صاح قائلاً قد وجدنا المطلوب . انجبت القضية . لم نعد نحتاج الى برهان آخر فانظروا في هذه الرقعة فانظروا واذا فيها ما يأتي بصورته

..... لؤلؤ لوليان

..... ٢٤ آب سنة ١٧٧١

وكانت هذه الرقعة فضلة العهد الذي كتبه لؤلؤ على نفسه كما مر واخذه من جيب الوالي واحرقه بضوء الشمعة وتركه فلما سقطت الورقة لم يتم احتراقها فبقيت منها

هذه الفضلة فكانت البرهان الاكبر على اثبات الحكم عليه . ولو كان الاسم فقط لكان في المسألة نظر لكن التاريخ ما تقول فيه . مؤرخة في ٢٤ آب ومعلوم ان الوالي خرج من غرفته في ليل الثالث والعشرين فالحادث وقع بعد نصف ذلك الليل اي في اول الرابع والعشرين فليس القاتل الا لؤلؤ لوليان

وبعد التحقيق رفعوا جثة الوالي على لوحين لينقلوها واقفل القفال الباب كما كان وطُبع عليه بجثم المحكمة . ولما شقوا اسواق المدينة كان الناس يتواردون ويزدحمون وراءهم وهم يأسفون على الوالي ويصيحون الثأر الثار حتى دخلوا به المحكمة ففسلوه وكفنوه واحتفلوا بجنائزته

وكان قين حاضراً في ذلك المشهد المهيب وهو يسمع ويرى كل ما يجري فلما تحقق ما كان من أمر الاستقراء وما تقول الناس في هذه الجناية العظمى اسرع الى اخته ليخبرها ودخل عليها وهو خافق الفؤاد وقال لها يا قينة لو كان لؤلؤ هنا وعلم الشعب انه هو القاتل لا يهلونهُ خمس دقائق لانهم في هيجان عظيم فقالت قينة في نفسها سيدرك ثار الحبيب . آه والوعتي

وكان مقدم الدرك قد وعداها بالرجوع مساء ليخبرها بما يجري فقيماً بوعده سار وطلب الدخول وكانت قد أصلحت شأنها ولففت هيئة وجهها لعلها بقدومه فلما قابلها رأى على وجهها اصفراراً غريباً واجفانها كأنها متورمة تدل على قرب عهد بالبكاء . فاما ان يكون ذلك على سبيل التصنع لتوهم المقدم انها خائفة على زوجها او بالحقيقة لكثرة ما بكت وجزعت على فقد حبيبها فلما رأى منها ذلك عارض رأيه السابق فيها وقال لعل قلبها ليس كما زعمت فالدلائل تكذبني

وأما هي فقالت له أي شيء قدمت به يا سيدي

- واأسفاه يا مولاتي جئتُك باكدار عظيمة

- آه اربعيني ما الخبر

- كما ظننت يا مولاتي قُتل الوالي قتلة شنيعة

فسترت قينة وجهها بكفيها واجرت دموعها . ثم قال لها

وبعنايتك يا مولاتي كشفنا المكان الذي كان فيه ووجدنا جثته مطروحة مخضبة

بالدم وكل المدينة الآن جرزعة عليه . وجدناه في نفس ذلك البيت الذي فيه دلائل كثيرة على الاعمال الغرامية كما لا يخفى على فطنتك
قال ذلك مكتفياً بهذه الاشارة الملمحة الى وقوع الريبة في قينة . وسكت ينتظر جوابها . فما اجابت بشيء فقال

- ويصعب عليّ يا سيدتي ولو زاد بذلك أسفك أن أقول لك ان قتله كان مسبباً عن هوك كما تعلمين أو ستعلمين
فرفعت قينة رأسها كالمتعجبة وقالت

- ماذا تقول . اذن صدق ظني وما قتلته الا غيره زوجي الخيثة . قتله غدرآ لاشك
- هكذا يظهر ايتها السيدة المصونة . والدليل واضح
- ما هو ومن القاتل . هل عرفت اسمه
- أخاف ان تسقطي جزعاً اذا اخبرتك اليقين
- لا بأس لا تخف عليّ . فقد ارتعدت فرائصي
- القاتل هو

- قل من هو
- لؤلؤ والسلام
- لؤلؤ زوجي . يا للمصيبة بعلي نفسه قاتله
- لؤلؤ زوجك قتله بيده

فصارت قينة تنتفض ثم جمدت مبهوتة ولم تلبث ان عادت الى نشاطها وقالت
لا . لا أصدق ولا أريد أن أصدق . ليس من طبع زوجي الغدر . ولا هو نذل .
غرّتك الظواهر . راجعوا افكاركم وتبصروا بالقضية . لعل القاتل احد اصدقاء لؤلؤ .
وانا احلف عنه ولو على تلف حياتي

- يا حبذا لو استطعت يا مولاتي ان أخفف هذه الاحزان عنك وأنفي من
فكرك الحقيقة . ويا ليت في الامر محلاً للشك . فالدلائل أوضح من النور
- لا أسلم بها لا أسلم ابداً . فكذب كل دليل يلقي على لؤلؤ تهمة القتل ويكذب
من يقول الدلائل تصدق دائماً

قالت هذا وهي كالمستشيطة غضباً

فقال لها يا مولاتي هكذا يقتضي شرف اخلاقك وكرامة اصلك ومع ذلك عليّ ان ادافع عن الحق جهدي . واقنعك ان أردتِ فاسمعي واحكمي
ثم اخذ يقص عليها بالتفصيل كل ما جرى في استقراء البحث فلما انتهى من حديثه تغيرت احوال قينة واربدٌ لونها وقطبت حاجبها عابسة كاللولة الفاقدة اشبالها وقالت له . انت وحدك يا سيدي وقفت على الحقيقة . وانا اعرف ذلك ولا انكره فزوجي هو القاتل الغادر فلا اعرفه مذ الآن واسلمه اليك طوعاً لتحكم عليه بما تحب فخرج من عندها وهو متحقق خبث نواياها وقد كشف احتيالها ومكرها

الفصل الثلاثون

« ما جرى للؤلؤ في غيبته »

قلنا ان لؤلؤاً خرج من داره هائماً على وجهه لا يدري اية جهة يقصد وانما كان قصده الوحيد ان يبعد عن تلك المدينة المشومة بعداً شاسعاً وكان وهو سائر يتصور تلك الحوادث الهائلة التي جرت له ولا سيما قتل الوالي واهلاك امرأته وذلك مما اضاع صوابه وافقده رشاده فلما رجع اليه عقله صار يتأمل في تلك الامور
فاول ما طرق فكره من الحوادث الماضية التقاؤه بنور القارونية وما جرى بينهما في الايام الاولى ثم تقديمه لها الخاتم عربون الخطبة والحلف الذي جرى بينهما على حفظ العهد والوفاء ثم رجوعه الى بيت ابيه وهو يرجو ان اباه لا ينجيب طلبه اذا فاتحه بمرامه ثم ما خامر قلبه من الحزن عند تلاوة رسالتي يوشع وفيليب ثم خبر غرق الدفينين وركابه ورجوع الامل اليه بالتخلص من انيسه ثم خيبة هذا الامل بالاطلاع على رسالتها ثم قدومها والرسالة التي ارسلها الى نور يئاسه من الرجوع اليها ثم ما عقب زيجته من المرارة ولا سيما بعد موت ابيه فهنا خفته العبرة وصاح قائلاً آه يا ابي يا ابي قد اهلكني ولحسن حظك لم تر شيئاً مما قاسيت

وبعد ذلك مجرى الحوادث الاخيرة المتابعة الهائلة بسرعة عظيمة كانذار نسيم

الخدام له بما بين امرأته والوالي ثم مشهد المنظرة ثم ذكر خروج امرأته في الليل وهو يراقبها صابراً على بلواه ثم المقاتلة بينه وبين الوالي وقتله واخيراً الحادثة الوخيمة التي جرت بينه وبين امرأته على المائدة وتركه اياها في النزاع من فعل ذلك السم فلما مرت في باله هذه الخواطر الخفيفة كاد يفقد رشده ومرّ بفرسه كالبرق اغاطف هرباً من اخيلة تلك الالهوال وهو يحاول طردها من مخيلته فلما صارت تتلاشى واخذت تضمحل هدأ روعه وسكن قلقه بما خيل له من الرجوع الى حرية نفسه وعلى ذلك قصر تصوراتهِ وعلق اماله بالرجوع الى غرامه الاول بسبب موت زوجته فحالما اقبلت به الاحوال من الكدر الى الفرح انفتح قلبه لشخص نور وارتسخت صورتها في دماغه كمن يخرج من اعماق الهاوية المدلّمة الى الرياض الانيقة النضرة وحينئذٍ وضع في وجهه الطريق المؤدية الى ارضها فنظر حوله وعرف انه صار على ثمانية فراسخ من مدينة هاور وان فرسه اخذ في الطريق المذكورة فتصد ان يصل الى الناصرية في اقرب طريق

ولم يلبث ان استراح فكره من هذا القبيل حتى دهته وساوس اخرى لان من طبع الانسان في ظروف كهذه ان يحسب الويل اكثر مما يحسب الخير وهذا شأن كل متملص من بلية وقادم على منية شبيهة في هذه الحياة الشقية فكان لؤلؤ كما تقدم في الطريق واقترب من ارض الحبيب تتراكم عليه التخيلات المكدرة فكان يقول في نفسه هل ياترى احظى بلقاء نور واجدها باقية على عيد من خان عهدا او اتفق لاحد نظيري ان يلتاقها ويستميلها وقد قطعت رجاءها مني وحق لها ان لا تمتنع عن اجابته فما اعظم مصيبتى اذا صح هذا

ثم خطر له خاطر اشد هولاً فقال في نفسه وقلبه ينظر واذا وجدتها قد فارقت هذه الحياة فاذا يحل لي . فخيل له حينئذٍ انه سيرى منزلها محاطاً بضباب الحداد ويجد القوم محتغلين بجنازتها واليتامى والفقراء ينوحون عليها ثم يرى ضريحها ايض كالحمامة وعلى جانبه مكتوب « هنا رقدت بالرب نور القارونية » فيا للمصيبة ويا للدهية ويا للويل العظيم والخطب الجسيم اذا صدقت هذه الظنون ثم قال فبالاختصار اذا وجدتها قد ماتت اموت لا محالة

كل ذلك مضى عليه في ليلة كانت عنده من اشد الليالي هولاً فلما طلع الصباح
واشرقت الشمس على البطاح وهو متقلب في لجج هذه الاوهام صار يسلي نفسه
بهذه الاشعار

ألا تبأ ليلٍ بت فيه وعيني لم تذق طيب الرقاد
تؤرقني خيالات البلايا فابدل فيه نومي بالسهاد
ولم ابرح اكابد من جراه هوماً وانزعاجاً في فؤادي
اروم به التخلص من يديها فتزدحم ازدحاماً كالجراد
فتبأ للحياة حياة تعس ارى فيها الهموم بلا نفاذ
فماذا بعد ارجو من حياة خوون لا تدوم على وداد
ولا نلقي بها يوماً سليماً من الاكدار يصفوا للعباد
سقتني من حمى الحزن كاساً اضعت بها على رغي رشادي
فما هذه الحياة سوى سراب يخيب في الحقيقة كل صاد
تزول مع الزمان وكل يوم يجي لنا باحكام جداد
يمر بها الجميع مرور برق ويرجع حيث جاء على التادي
وكان فرسه قد كل من وصل السير بالسرى فال به عند الضحى الى مرج
نضير واستراح ساعة وكان قد بقي بينه وبين الناصرية مرحلة فركب وصار يمني نفسه
بلذة الوصول ولقاء الحبيب المأمول وهو ينشد ويقول

سلامٌ قد حكي نشر الخزام وشوقٌ في فؤاد الصب نام
لكم اهديه يا من في نواه يظلُّ الوجد متقد الضرام
عرفنا انكم قدماً فامسى يذكرني موائسة الفطام
الا يا من غدا عني بعيداً فاضرم في الحشى نار الهيام
أتعلم ان رسمك في دماغي وذكرك في الفؤاد المستهام
وشخصك بين اجفاني مقيم فيقضى للصبابة بازدحام
اذا امسيت او اصبحت دوماً فذكر ودادكم اقصى مرامي
وان رمت الكلام بكل حال فان حديثكم مبدا كلامي

اذا ابصرت داركم تمنى
 وان رمت الرقاد فلا لحبي
 فان غبتم نهراً عن عيوني
 لقد رام الاله لنا فراقاً
 فراق الروح اسهل من نواكم
 عليك ايا خليل وانس روحي
 اذا ناح الحمام يهيج قلبي
 ويشخن من حناجره فؤادي
 متى يقضي الاله لنا بجمع
 رأيت الصبر يعصيني عليه
 اذا من الاله علي يوماً
 فاحسن ما نراه لنا عزيزاً
 فراقك يا خليل يظل بفرية
 فراقكم ولم يك في حسابي
 يذكرني السلام لكل خل
 كأن السقم صار على فؤادي
 لذلك النوم صار على جفوني
 وقد صار النحول اليك جسدي
 اذا اعتصمت بجبل الصبر نفسي
 تود بأن يعذب كل يوم
 يتيه بكل قفر من سقام
 واذكر يوم ملقاكم فيجري
 اذا كفكفت بعض الدمع يوماً
 يقول القلب فخري في عناء
 لقد جار الزمان علي ظلماً

فؤادي ان يكون من السلام
 له بل كي اراكم في المنام
 فرسلك في الدجى يبق امامي
 كتفريق اللحوم عن العظام
 فهذا فيه مزيداً غرامي
 رضا المولى على طول الدوام
 كان حديثكم بين الحمام
 جراحاً فهي فيه كالسهم
 فارشف من سرر كل جام
 وهل صبر لقلب ذي سقام
 بسعد فيه اشفي من كلامي
 تدان منكم يروي أوامي
 فؤاديه كالمهدة الضوامي
 اراه رمية من غير رام
 تطارحنا التحية بالسلام
 بمنزلة الفيرند على الحسام
 حراماً في حرام في حرام
 وصبري راكب جنح النعام
 فلا يرضى الفؤاد بالاعتصام
 فداكم فهو عني في اقسام
 ويروى من هواكم وهو ظامي
 دم العبرات كالسحب الهوامي
 واخفيت العنا خوف الملام
 ويصرخ مدمعي شرفي انسجامي
 بهذا البعد في حكم التزام

وأمسى ركن عزمي في انهدام
 كأن فؤاده حجر الرخام
 وشيمته بنا تقض الذمام
 فان عناءنا بعد التعامي
 وتلك السم يُستر بالفدام
 طلبت الماء من غيم جهام
 اما يكفيك ما بي من الأم
 وتعذبي الى وقت الحيمام
 أرى ان الهوى سبب الخصام
 بهجر العاشقين بلا احترام
 هوماً في بلاياه العظام
 فاهلكه فياسوه احتكام
 ولو أفضى هواك الى انعدامي
 وأنت هداي في جنح الظلام
 ويوم نواك عندي مثل عام
 وفي ليل العنا بدر التمام
 ولطفك في منادمتي مداي
 فصار على صحاب العشق سامي
 على سمعي فيا حسن النظام
 فذلك من جيوش الهمّ حام
 وعدت مفارقاً لك بارتغام
 فكان به اضطرام في اضطرام
 لتواؤك مثل طيف في المنام
 سلام في سلام في سلام
 كما حن الغريب الى المقام

فقلت دونه حيلي وصبري
 اراه لا يلين له فؤاده
 وهل للدهر عهد مستقيم
 اذا يوماً تعامى عن هنا
 يُرينا موهماً كاس الحميا
 طلبت من الزمان صفاً كافي
 متى يا دهر تقصر عن عذابي
 ألت تكف عن اذلال قلبي
 خلقنا للشقا ويلاه لكن
 وهذا الحب ليس يكون الآ
 فلا يقضي لنا الآ هوانا
 قد احتكم الغرام بكل قلب
 ولكن في هواك لي التذاذ
 وكيف اكف عن حبيك يوماً
 وعام لقاك عندي مثل يوم
 وأنت مؤانسي في كل هم
 وروية وجهك الباهي حياتي
 وقلبي في هواك له افتخار
 ولفظك ينظم الدرر اليتامى
 بذكرك كيف كنت تطيب نفسي
 رأيتك يا أنيس الروح يوماً
 ولما أن ذكرتك جاش قلبي
 رأيتك ثم عدت فكان عندي
 عليك أيا شقيق الروح مني
 أحن الى دياركم اشتياقاً

وشوقي لم يزل يزداد حتى تراكم فوق قلبي كالأكام
 أرعى آلام بعدك والبلايا قد ارتكمت به أيّ ارتكام
 ترعى أيعود يجمعنا صفاء ونكفي شرّ غدرات اللثام
 رعى الرحمن هاتيك الليالي ورضاهُ على تلك الخيام

وما زال يغذّ السير الى ان بلغ فندق المعلم اللوزي في اوائل الليل فلما رآه تعجب من
 مجيئه وارتكض لاستقباله وسلم عليه بلهفة وترحب به كل الترحاب وقال له يا سيدي
 الحبيب مالي اراك متغيراً عسى ان لا يكون ذلك الا وقحة سفر

- هو ما تقول يا معلم فصحتي لله الحمد جيدة

- عسى ان تطيل الاقامة عندنا هذه المرة

- بقدر ما يسمح الزمان

- اتأذن ان اعدّ لك الطعام والحجرة المهيّودة للمنام

- انظر اولاً امر الفرس . وانا اصعد الى الحجرة لاستريح

فأمر اللوزي خدمه ان يقوموا بالواجب ومضى هو فأصلح شأن الحجرة فرآها
 لؤلؤ على حالها الاول لم يحدث فيها تغير فغسل وجهه وتناول العشاء وأمر بالخمّر وان
 يجلس اللوزي معه كما فعل في المرة الاولى وجعل يحدثه وكان اول شيء اراد الاستفهام
 عنه بطريقة خفية احوال نور فقال له بعد ما دارت الخمر اخبرني ايها المعلم هل جد
 شيء في هذه الاطراف في مدة غيابي

- الذي جد هو ما يكون عادة في الناس اولاد ولدوا وشيوخ هلكت وشبان تزوجوا

- وهل حدث شيء في النواحي مما يستحق الذكر

- لا شيء الا ان بعض البحرية ركبوا البحر سكارى وغرق بعضهم في النوء .

وثور جارنا مات منذ شهرين فأسف عليه كل الاسف وأقام له مأتماً حافلاً لان رزقه
 كان متوقفاً عليه وكان في القرية المناوحة للطريق قرب الكنيسة امرأة عجوز لها أربع
 دجاجات تعيش من بيضها فنسيت القن مفتوحاً في احدى الليالي فأتى ابو الحصين
 وكسر رقابها فما وجدوا غير بقاياها من ريش وعظم ونحو ذلك . كل هذه يا سيدي لؤلؤ
 حوادث مكدره . وأما ما يسرّ القلب فهو أن فلاح الوقف خرج له في هذه السنة من

خمسة ارطال بطاظة خمسة قناطير وما ذاك الا ببركة الوقف . اما ترى هذا صواباً يا مولاي

- كل ما تقول حسن وصواب . الا شيء غير ذلك مما يذكر
 - اشياء كثيرة نظير هذه الهنات ان احببت قصصت عليك كثيراً من مثلها
 - يكفي يا معلم فاسمح لي الآن ان آخذ راحتي بالنوم وغداً تحدث ملياً
 - اصبحت بخير يا سيدي لؤلؤ . ولا تنس ان عندي من القصص والاختبار
- والمالح ما ترتاح اليه نفسك كما طلبتني وجدتني . اصبحت بخير يا سيدي لؤلؤ
- ثم خرج وصار لؤلؤ يقول في نفسه لو كان حدث شيء بخصوص نور لما كتبه عني فانام الليلة مستريحاً وغداً انظر ما يكون ثم انطرح على فراشه وبقى الى ما بعد طلوع الشمس وقد رأى احلاماً ملخصها انه اجتمع بنور وحدتها ورأى منها جداً شديداً اليه وشكاً لها زمانه الماضي

ولما استيقظ غسل وجهه ولبس ثيابه وخرج قاصداً تلك الحديقة النورية التي على من فيها مدار حياته ولم يشأ ان يتناول الغدا لعله يحظى بتلك الصحيفة من اللبن التي كانت سبب اتعاش قلبه في الماضي وعليها علق آماله المستقبلية

وحينما دخل الطريق الضيق وقارب الجنية رأى دخاناً لطيفاً خارجاً من مدخنة البيت فانشرح صدره وقال لا بد ان تكون الحال على ما كانت لم يتغير شيء . وتقدم بسرعة ودخل الجنية واطل من باب الحديقة وصار يمشي همساً لعله يكتشف ما ليس في حسابه . ثم شعر ان قواه قد انحطت وقلبه زاد في الخفقان فجلس هنيهة ليملك روعه لانه مقبل على امر اما حياته فيه او تلفه الى الابد

ثم جلد نفسه واسترجع قواه وتقدم حتى وصل الى باب الحديقة فنظر من الحديد المشبك الى داخلها فرأى ذلك المنظر الذي ابهجه أولاً وأخذ رسمه البركة والخميلة والدجاج والبط على ما رآها في أول مقابلتها في السنة العابرة . ففتح الباب بلطف وتقدم في الحديقة كان القدر ساقه هذا المساق عوض ان يتوجه نحو البيت وجعل يتخلل الاشجار الى ان قارب سديانة كبيرة ظليلة وهي التي كان تحتها ما ذكر بينه وبين نور من اظهار الغرام والتعهد بالوفاء وحفظ الدمام

فيا له من عجب عجاب واتفاق غريب ودهشة لا توصف كان يظن انه ملك

قواه وحواسه فما شعر الا بشدة خفقان قلبه وكان غبار الموت علا وجهه وارتعدت فرائضه وسقط كالغائب عن الدنيا . ما السبب . ماذا رأى . ماذا حدث له . ما هذا الوهي السريع

فلما عادت اليه روحه بعد دقيقة ورجع اليه وعيه حقق النظر ووقف مبهوراً مندهلاً . فاذا امامه تحت تلك السنديانة حبيبته نور لابس ثوباً أسود وقد عقدت شعرها الاشقر واحنت رأسها الى الامام وجعلته بين يديها اللطيفتين وقد بدا فيها الهزال وعلى وجهها الاصفرار وهي غارقة في بحر التأمل وفي اصبعها يلعب ذلك الخاتم العزير الذي قدمه لها . فقال في نفسه ترى هل يكون هذا نفس خاتم امي فاذا صح الظن تكون باقية على العهد ثم رفعت نور رأسها عن يديها فظن لؤلؤ انها ستلتفت اليه فاستتر خلف جذع شجرة ضخمة فرآها قد مدت يدها الى جيبيها واخرجت ورقة قد هتكها كرور الايام حتى صارت بالية فنشرتها بتأن ولطف وجعلت تمن النظر فيها ودموعها تتساقط على وجنتيها . فحقق فؤاد لؤلؤ ودب عقرب الغيرة في احشائه وقال في نفسه ما تكون هذه الرسالة لعلمها من حبيب جديد تذكره بتلاوتها وتقبلها بوجود وتضمها الى صدرها ثم تعود فتتولها . هذا امر جليل . ولما فكر بهذه الريبة لم يعد يملك حواسه فتقدم نحوها خطوات على الكلال فلم تشعر نور به حتى اذا دنا منها شعرت بهمس خطواته فالتفت ورأته وعرفته . وفي الحال برقت عيناها واحمرت وجنتاها وصاحت من حرقة قلبها صيحة الدهشة وثبتت كما تظفر الغزالة وطرحت روحها على صدر لؤلؤ وقالت بصوت متقطع

هذا انت . آه . لؤلؤ

فشعر لؤلؤ ان الارض خسفت به من شدة الوجد وصار ينتحب وضمها الى صدره وهو لا يبقي ودموعه تجري كالمنطر ولم يقدر ان يلفظ غير هاتين الكلمتين . نور . تحييني . فقالت له هل يحب القلب اثنين وهل يعشق الانسان مرتين

- أنتظريني الى الآن

- بل الى آخر حياتي . اما هكذا اقسمت لك

- واما انا فكتبت اليك ان لا تنتظريني

- او ما كتبتَ ايضاً ما لم تكن معجزة فآتيك . وهذه المعجزة عليها علقت آمالي
وقد تمت وها انت الآن بين يديَّ

- الآن والى الدهر يا نور العين . من يفصلني عنك فيما بعد

- هذا ما تحقّقه يا حبيبي . اعدت اليّ حياتي فهل يمكن ان نفترق وابقى حية .
قد كفي ما احتملت لاجلك كفي يا لؤلؤ

- ألم تسيئي بي الظن يا نور حين بلغك كتابي

- كيف اسمي بك الظن بل رثيت لك ولنفسني

ثم حلت يديها المعقودتين على عنق لؤلؤ وتناولت عن الارض تلك الورقة
البالية وقالت له

هوذا كتابك كان اعزّ عندي من دمي كل يوم كنت اتلوه فاراهُ جديداً

واسكب دموعي واكرر قولك ما لم تكن معجزة فآتيك . ولولا هذه الكلمة ما بقيت

في قيد الحياة واحب الآن ان اقرأه على سمعك واجيبك شفاهاً لا كتابة

وشرعت في تلاوته جملة فجملة وهي تجيب عن كل كلمة وكل معنى جواباً يدل

على شدة ولوعها وفرط شوقها . وهو ينظر اليها ويدوب من الوجد المقرون بالفرح الطافح

على قلبها وقلبه

فلما فرغت اخذ الكتاب ومزقه شذر مذر ونثر قطعه في الريح فحملتها وبددتها

فقال لها هكذا يا حبيبة القلب تنبدد همومك وتمزق احزان قلبك فلا تذوقين بعد حسرة

قد مضى ما مضى فلنضرب على الماضي حجاً ولا نذكر الا ساعتنا الحاضرة

- لا لا يا حبيبي لا ننسى الماضي لان تلك الاكدار تظهر لنا لذة هذه الافراح .

ولولا التعب ما طابت الراحة

- لا نحتاج يا مالكة الفؤاد الى مقابلة لان افراحنا لا يكون لها قياس في المستقبل

- بل يجب ان نذكر ماضينا لتظهر لنا رحمة الله ونعتبر مجاري القدر ونشكر منته

لانه انتشلنا من دركات الشقاء الى درجات السعادة

- اذا فاضربي صفحاً على الاقل عما مضى من اعمالتي التي لا يستريح ضميري عند

تذكرها فان نكث عهدك كان عندي اصعب من الموت ولنجدد الآن عهداً يكون

ذهاب روجي قبل تقضه

- يا حبيبي قلت لك اني لست الوملك لان الزمان حكم عليك ولتجديد العهد الآن

ليس عندي الا قول الشاعر

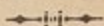
اذا كان هذا الحب يقسم بيننا وداعي الهوى لما دعاني دعاكم

حلفت يمينا لا تبدلت غيركم اليقا وقلبي لا يحب سواكم

- اما أنا فلا احتاج في هذا المعنى الى قول أحد بل أقول من صميم قلبي

اذا كان هذا القلب يملكه الهوى كما ملكت قلبي محبتك الحسنى

فلا نظرت عيني لغيرك في الورى حبيبا على عهد ولا استحسنست حسنا



الفصل الحادي والثلاثون

« الزفاف السعيد »

نال لؤلؤ ونور غاية المنى من الاجتماع بعد طول الفراق وثبتا على عهد لا ينقضه
الا حلول الاجل ومن ثم أخذت بيده ومضت به الى بيتها لتناول الغداء وهما يتناغيان
ويتغازلان وينظران احدهما الى الآخر نظرة الواله المشتاق والهوى بينهما يتكلم وقالت
له فيما قالت . هل تمن علي يا عزيزي بالافادة اذا سألتك سوؤالا

- سلي ما شئت يا مهجتي

- هذا المانع الذي فصلنا هذه المدة أباقي له أثر

- لم يبق مانع من طول اجتماعنا ولن يكون ان شاء الله

- ألا يتجدد

- لا يمكن ان يتجدد ما دمت في قيد الحياة

- وهل يمكنك أن تخبرني عن ذلك المانع القتال

- آه يا حبذا يا حياتي لو كان في طاقتي ان اطلعك على هذا السرّ وها أنا أجثو

على ركبتيك متوسلا ان لا تلمني علي بالسؤال جرحتني بسيف الاسى وأذبت فؤادي

لا اكرمك امري لقله ثقتي فيك بل لكي لا اكر صفاك . ومذ الآن لا اخفي عنك

مقال ذرة . والماضي لا يهيك أمره فلننظر الى المستقبل ما لنا ولكوارث الدهر . انا بين يديك وسترين اني اكون رهين اشارتك يا نور يا حبيبة القلب وسواد العين استعطفك الى عدم المؤاخذه اذا كتبت عنك ما يكدرني ويكدرك وليس لك به أقل فائدة . هل تسمحين ان أمتنع عن كشفه وهل تحبين اكراماً لخاطري أن تضربي عنه صفحاً

- لا تتكدر يا عزيزي كل ما تريده أريده وكل ما تخفيه عني لا أحسبه الآ لراحتي فلا أسألك مذ الآن عن شيء ، فما تخبرني عنه أسمعهُ وما تكتمهُ لا أطلب منك اطلاعي عليه . غير ان هذا الثوب الاسود الذي تلبسه قد شغل بالي
- هو لباس الحداد يا منيتي توفي والدي منذ أشهر

فأخذت نور يد لؤلؤ وقلبتها وقالت لا تؤاخذني يا حبيبي على تجديد ذكر احزانك فما كان هذا بخاطري واكراماً لذكر هذا الوالد البس أنا أيضاً الحداد أفلا تسمح لي
- يا حياتي احب أن تكوني كل أيامك في اسمي ذرى الفرح ويا ليت ابي بقي حياً ليعرفك ويقدرك قدرك . ولكنه من السماء ينظر اليك ويشعر بحواسك الطاهرة وقلبك النقي ويباركك . والآن يا عزيزتي هل تحبين ان تتحدث قليلاً في شأن المستقبل
- قلت كل ما تريد اريد أنا وهذا الحديث لا اعتبره الا حديث السعادة والراحة
- أتقولين يا نور العين انك خطيبي
- هل تشك في ذلك وقد ملكتك قلبي وملكنتي قلبك وسلمتني رعبون الوفاء

خاتم والدتك

- واهاً لما اسمع ويا جبدا لو سمعت ما هو أحب من ذكر الخطيئة

فصعد الدم حينئذ في وجعتي نور فقال لها

- ما أطيب الزمان الذي تكونين فيه في زوجتي

- الامر بيدك يا لؤلؤ انت حبيبي وسيدي

- اذا ترضيني بعلاً

- لي بما تختار كل الرضى لاني آثرتك على ما سواك

- لكنك تعلمين اني لست شريفاً

- ليس الشرف بقوام الراحة بين الزوجين
- ألا تأسفين على ما فاتك من شرف آبائك
- أبائي فارقوا الدنيا فلا يُسترجعون ولا يعلمون ان من سلاتهم بقية في بيت حقير . ومع ذلك فالشرف عندي شرف النفس والقلب لا شرف النسب
- ثم لا تعلمين ما حالي من الغنى والفقير وأنت فقيرة
- لا اظنك أفقر مني فالطيور على اشكالها تقع وسعادتنا ليست بالمال بل بالافكار
- فيكفيني انك رجل طاهر القلب صالح النية تحبني وأحبك
- هذا هو الصواب فالحب هو الحق لكن يهمني ان نكون في رغد العيش
- يا حبيبا لو تم ذلك لكن وجودك يغنيني عن كل شيء وليس لي طمع في أكثر مما عندي
- واذا رزقنا الله اولاداً فهل يكفيهم هذا القليل
- فشعرت نور بنار في فؤادها من طفح الدم في عروقها وتصبغت وجتها ووضعت وجهها على صدر لؤلؤ فقال لها
- العفو يا عزيزتي يا مهجتي . ان كنتِ تقبليني كما انا فالاولى ان نعجل الزفاف لان الحياة قصيرة على طول الامال والسعادة اقبلت علينا فلا نؤخر ورودها
- فغمزت نور يده غمزة اغنت عن الجواب فقبل هو رأسها وقال لها أتعرفين يا نور العين كاهن البلدة
- اعرفه وهو معلم اعترافي وكاتم اسراري ويعلم اني أحبك وصوب رأيي في الثبات على هواك
- أشاب هو
- هو شيخ جليل لا تحاله الا كاحد بطاركة العهد القديم وله سعة اطلاع وأدب باهر وفضائل جمة يحب الخير ويلطف بالرعية ويساعد كل محتاج ما عليه في أمور الدين لومة لائم . لكن ما معنى هذا السؤال
- لاني أحب أن القاه وأتعرف به لمقصدنا القريب ونعين وقتاً لزفافنا
- ما أسعد تلك الساعة غير ان العجلة لا تجدي يا حبيبي

- هل من سبب للتأخير
- القصد الوحيد ان اهبي ثيابي واكليلاً يوافقني
- أنا احضرك ذلك من أقرب مدينة
- لا . لا احب ذلك بل أحب الي ان أفعل بيدي ما تختاره نفسي فلا تمنعني

يا لؤلؤ هذه المنية . لا يمس ملبسي غير يدي

فضمها الى صدره وقبل جبينها كناية عن اجابتها الى مرضاتها

وفياهما في الكلام اذ سمع صوتاً يرن في الارحاء ويقول مولاتي نور أين أنت
فقلت هنا يا سليمة تعالي ثم قالت للؤلؤ سترى ما يكون منها اذا رأتك معي . فتقدمت
سليمة قليلاً وقالت قد سخنت اللبن وقلوت العجة فهل تقولين اليوم ما كنت تقولين
سابقاً ما بي من شهوة للطعام

وكانت تتقدم وهي تتكلم حتى أقبلت عليهما ورأت لؤلؤاً ويده بيد نور فما عرفته
اولاً وتعجبت من وجود هذا الشاب الغريب آخذاً بيد سيدتها ووقفت مبهوتة فصارت
تفرك عينها وتحقق بهما وتقول يا ربي يا يسوع أفي حلم أنا فقلت نور ليس ما ترين
حلماً تقدمي فترين ما يسرك . فلما دنت منهما صفقت يديها عجباً وضحكت مستغربة
وقالت . وي ماذا أرى هذا سيدي لؤلؤ يا للطرب يا للعجب من أين أقبلت . هو هو
بعينه من اوصلك الينا بعد هذه المدة الطويلة . ما هذا السرور الذي ملأ فؤادي

فقلت لها نور يا سليمة اعلمي انه منذ الآن بعلي

فلما سمعت هذا الكلام كادت تطير من العجب وما عرفت ما تقول وكان
منظرها مطرباً وحركاتها مضحكة وكلامها على غير استواء وهي تصفق طرباً
ثم تقدمت الى لؤلؤ وصارت تقبل وجنتيه فما امتنع لسلامة قلبها فقلت له متى
العرس يا مولاي قال قريب ان شاء الله

- أفي ثمانية ايام

- بل اقصد ان يكون غداً ليس لي صبر اكثر من ذلك
 - هذا هو الصحيح فما رأيت احداً نظيرك يحكي ضميره ولا يخفي ظرفه . والآن
- اما تحب ان تأكل لقمة

- فالتفت لؤلؤ الى نور وقال لها بم اجيب
 - أستطيع ان نجيب غير الايجاب
 - اذا اكون اليوم في ضيافتك
 - تأكل في بيتك على مائدتك
 - واهاً يا نور العين ما اطيب هذه الكلمة على قلبي
 - ليس فرحك باشد من فرحي بهذا التصور
 - ما نطقت باحسن من هذا الكلام وان كان كل كلامك كالزلزال في فؤاد
 الظآن. في بيتي على مائدتي. هذا مما يعيد اليّ الحيوّة اذا فارقتني. نعم بيتك بيتي وانت
 روحي وكل مالي لك هو وانا نفسي في قبضة يدك كما انت سلمت اليّ قلبك وروحك
 فقالت سليمة كل ما تقولان حسن وما وجدت في التواريخ ولا قرأت في كتب
 الظرفاء. اطيب من كلامك يا سيدي لؤلؤ لكن اما تشعران بالجوع. الى متى الاضطبار.
 انا اعرف ان الحزن تفقد به الشهوة افيعل الفرحة ايضاً هذا فالاولى العكس
 فقالت نور نحن طوع ارادتك يا سليمة فامضي وهبي ما ترين موافقاً. فمضت
 وهي تصفق طرفاً وتكاد تطير فرحاً
- وكانت الساعات تقضي على هذين الحبيين باسرع من لمع البرق وهذه حال
 طبيعة الانسان لا يشعر بامتداد اوقات السرور لالتفاء فكره عنها به وبعكس ذلك
 اوقات الحزن يراها اطول مما هي لنفس السبب اي لترقبه ماضيها ليتخلص من احزانه
 وكان من هم لؤلؤ ان يقابل الكاهن قبل المساء واخبرته نور انها تكتفي بثلاثة ايام
 لتقضي اشغالها وتكون مستعدة للصلاة فقصد لؤلؤ ان يضرب موعداً للكاهن صباح
 اليوم الرابع وهو يوم الاثنين لان حب السرعة اقتضى ان لا تؤجل الصلوة الى الاحد
 القادم ليكون بمشهد الجمهور
- فمضى لؤلؤ الى منزل الكاهن وكان بجانب الكنيسة وقرع الباب بمطرقة فاقبلت
 خادمة وفتحت الباب وقالت للؤلؤ ما تريد يا سيدي قال اريد مقابلة الاب المحترم
 قالت هو الآن في الكنيسة فان احببت فادخل وانتظره بضع دقائق فدخل ومضت
 به الى قاعة الاستقبال وكان فيها سرير الكاهن ومكتبته وكل ما في القاعة نظيف

موضوع باحسن ترتيب وكان من جملة زيتها اثار حفزية ومقددات حيوانية وادوات علمية ونحو ذلك مما يدل على ان الكاهن له المام بالعلوم الطبيعية فضلاً عن الدينية واقام لؤلؤ بعد خروج الخادمة يتفرج على تلك التحف اللطيفة ويتفحصها نحو عشر دقائق فدخلت الخادمة وقالت ياسيدي جاء مولاي . ثم نحت فدخل الكاهن وكان شيخاً جليل الشيبة كثير الهيبة وقور المنظر والمحضر يناهز من العمر سبعين سنة او اكثر بقليل

فهنس لؤلؤ وحياه تحية الوقار والاحترام فبش الكاهن في وجهه وقال لا تؤاخذنا يا ولدي على عاقبتنا وكنت احب ان الخادمة تدعوني حال وصولك لعل الوقت معك ضيق . قال اشكر فضلك يا ابي غير اني لم اضجر من الوقت لانك اتيت بسرعة ومع ذلك كنت التهي بالتفرج على تحفك اللطيفة واستدل بها على حسن ذوقك ولطف مشربك وعنايتك بالاثار العلمية والادبية فوق الدينية

اكرمت وفضلت يا ولدي والحال لا يستحق هذه الاطناب والابتهاج غير ان هذه الملح (١) في كلامك مما هو مألوف في المعاشرة الادبية

- العفويا ابي المحترم ما نطقت الا بما هو دون الاستحقاق

- ما لنا ولذلك الآن فالاولى الالتفات الى مطلوبك . فاني اراك غريب الدار واطن اني ما رأيتك قبل اليوم . وعسى ان تكون هذه الزيارة مما اقدر ان انفعك بها

- هو ما تقول يا ابي لم اتشرف بمقابلتك قبل هذه الساعة غير انك سمعت بذكرى منذ مدة

- بلسان من يا ولدي

- بلسان الملاك الصالح والخوراء الطاهرة السيدة نور القارونية

- اهلاً وسهلاً بجمعنا لؤلؤ ألت اياه

- انا هو يا ابي

- ما الذّ هذه الموانسة لي برويتك كثيراً ما كنت اشتاق الى لقائك فمسي ان يكون ورودك بلادنا ودخولك منزلي لمصلحة مفرحة

(١) اشار الى قول المثل المزاح في الكلام كالمح في الطعام

نعم يا ابي لا ألد ولا ابهج ولا احلى على قلبي من هذه المصلحة فقد شرفني
السيدة نور بقبولي بعلاً لها

- تعال اذاً اقبلك يا ولدي انت ابني لاني منذ زمان طويل ادعو هذه اللطيفة
الصالحة ابنتي

فتقدم لؤلؤ وعانقه وجعل الكاهن يضمه الى صدره كأنه ولده حقاً . ثم قال له
أحب هذه الفتاة من كل قلبك وكل نفسك بعد ان سلمت اليك قلبها وستجعل
بين يديك حياتها

- كيف لا احبها يا ابي كيف لا اشغف بها ومن يراها ولا ينجذب اليها قلبه .
ومن يعرف خصالها ويعاشرها ولا يخصص بحبها حياتها ويهبها روحه عن طيب خاطر
- حقاً حقاً يا ولدي وربما كنت انا اعرفها اكثر منك واعرف ان جمال وجهها
ليس شيئاً بالنسبة الى جلال نفسها وطهارة قلبها . وطالما كنت اغبط من يحظى بها اليقظة
لحياته . وقد رأيت انك تستحق هذه النعمة فليبارك الله ايامكما ويقرن بالسعادة زفافكما
- على اني يا ابي لا ارى احداً يليق ان تشرفه بالقبول الا ان كان على سبيل
اللطيف منها ووقف نفسه على حبها

- فاناشدك الله يا ولدي ان لا تكون معها الا كما تعتقد الآن بحيث تبقى ايامها
معك سعيدة ومباركة

- اقسم لك يا ابي والله يشهد على كلامي اني لا اكون معها الا طوع امرها
فجعل الكاهن ينظر الى لؤلؤ ويتأمل في هيئته وجماله ولطف ظاهره فلم يخف
عليه ما في بواطنه من الاستقامة والشهامة وشرف النفس وكرم الاخلاق ثم مد اليه
يده وقال وثقت بكلامك يا ولدي واطمأن قلبي

- اشكر كرامة نفسك وكرم اخلاقك يا ابي المحترم
- فاخبرني الآن ما دبرت من الامر وعلى ماذا عزمت
- عزمت ان تتكرم علينا بالصلاة في اقرب وقت
- حسناً تفعل ولست من يجب تأخير مثل هذه الامور . فاي يوم اتفقنا عليه
- صباح الاثنين القادم

- فليكن ويوم الاحد اعلن للشعب هذا الخبر . فهل معك شهادة رضى وقبول من والديك

- اما والدي فما عرفت صورتها واما ابي فتوفي منذ عهد قريب

- أليست لك علاقة مع امرأة مطلقاً

فاصابت لؤلؤاً هزة خفيفة فظن لها الكاهن فقال

- تعلم ان هذا السؤال صريح الظاهر والباطن

- فاعلم اني مطلق القياد

- ربما كان ذلك وتعني انك مترمل أفلم تتزوج بامرأة قط

فصبغ الدم وجه لؤلؤ الى عنقه . وقال كلاً

واما الكاهن فلم يبصر هذا الاحمرار لان المساء كان قد اقترب والشفق آخذ

بالخفاء . فقال له

طيب يا ولدي افمك صك معموديتك

- نعم هو في حجرتي في فندق اللويزي

- فاذهب وات به وغداً آخذ صك معمودية نور واهي ما يلزم لساعة الاحتفال

فخرج لؤلؤ مسرعاً ودخل الفندق وصعد الى حجرته وصار اللويزي يعترضه

باسئلة كثيرة وهو يقول سأفدك سأفدك بعد قليل يا معلم والان احب السرعة والتأخر

لا يوافق مصلحتي

لعل القارئ يتعجب من هذه الكذبة الضخمة التي كذبها لؤلؤ في جواب الكاهن

ومن استحضاره على صك المعمودية ليتيسر اقتراؤه بنور مع انه خرج من هاور بغتة

وأغذ السير حتى وصل بلا عائق . فاما قوله لم أتزوج لان الحقيقة ان التي تزوجها لم

تكن هي الموعود بها بل أخذها بطريق الخداع ثم رأى منها ما يدل على تبرئه منها

وهي الخيانة الواضحة ثم بعد شربها السم تركها على آخر رمق وقد اعتقد انها ماتت فلا

تكون هذه الزيجة صحيحة اولاً وصار يحق له فسخ العقد ثانياً . ففي كذبه هذه تسامح

لانه لو أراد الصدق لاقتضت المسألة فحصاً ومن ثم يتأخر اقتراؤه بنور ثم تنجلي القضية

فيحق له العقد عليها . فما الفائدة الآن من كشف هذا السرّ المسبب تأخراً عظيماً .

وستتضح برآءته في يوم محاكمته ولو كان جاهلاً ان تزوجه بقينة كان بالخداع
 واما كون صك المعمودية وجد معه وهو غير مستعد له لان خروجه من هاور لم
 يكن على قصد الحجى الى الناصرية على ما مرّ فذلك لانه في وقت تأهيه للرحيل الى
 هوانة كان قد استحضر صكوكاً كثيرة وسجلات مختلفة لتيسر قضاء مصالحه هناك
 فحسب حسابات كثيرة واستحضر على كل اوراقه . ولو لم يذكر الكاهن صك المعمودية
 لما فطن انه في منطقتيه

فلما دخل حجرته اقفل الباب لئلا يدهمه اللويزي على غير قصد وحل المنطقة
 وأخذ منها صك المعمودية وسجل الزبيجة الاولى فاحرق هذا ومحا أثره وأخذ الآخر
 في جيبه ونزل من الحجره فالتقاه اللويزي وقال الى أين يا سيدي

- لي شغل شاغل
- لا يمكن خروجك الآن
- لاي سبب
- أحضرت لك العشاء وهو الآن على المائدة
- سأكل بعد رجوعي
- أفيق الطعام سخناً
- تسخنه
- لكن أما تعلم ان التصنع ليس كالصناعة
- ما يهمني هذا كيف كان آكله
- كل اولاً وكن مطلق الحرية
- بل أمضي أولاً وبعد رجوعي آكل
- لا حول ولا قوة الا بالله
- لا تزدني يا معلم . دعني وشأني
- ثم تباعد ولم يعد يسمع شيئاً وكان الليل قد دخل فلم ير اللويزي جهة قصده .
 وبقي وحده يدمدم ويقول أسماً على التعب في هذا الطعام الفاخر ستفوت قيمته ولا
 يعرف قدره . آه يا حبيذا لو ذاق لقمة كان عرف مقدار فضلي

ووصل لؤلؤ الى باب منزل الكاهن وطرقه ففتحتُه الخادمة ودخل فرأى الكاهن في القاعة يستنظره فقال له هوذا الصك يا أبي

ففضه وقرأه بامعان نظر وقال حسن . صك قانوني ويظهر لي ان مسقط رأسك مدينة هاورو والاتفاق سمعت الناس يتحدثون بذكر رجل من اهلها ليس اغنى منه في هذا الزمان واسمه فيليب لوليان افكون ابنه

- لا لكنني من نفس العائلة والفرع الذي أنا منه في حالة الفقر قال هذا وقد اصفر وجهه خوفاً من انكشاف الامر ثم ستر كذبتُه بقوله من العائلة الخ ولم يلاحظ الكاهن ذلك فقال له نعماً يا ولدي نعماً

- لم يا أبي هل سمعت شيئاً من الشين بخصوص الفرع الغني لا يا ولدي لكن كثرة المال حمل ثقل على النفس فلا اختاره لاحد من احبائي . وعيشة البساطة والاعتدال اوفق للدين والادب

وبعد ان تحدثا قليلاً خرج لؤلؤ وقد ايقن ان عقد اقترانه بنور يتم ضحى الاثنين وثاني يوم استحضر الكاهن صك معمودية نور واقام الجميع يدبرون امورهم ومضى لؤلؤ الى مدينة قريبة اشترى الثياب اللازمة له لان الثوب الذي اتى به من هاورو لم يكن مناسباً للعرس وليس معه سواه كما سبقت الاشارة الى هيئة سفره السريع

ولما دخل غرفة نور وجدها مصفرة قليلاً فقال لها مالك يا حبيبتي هل تشعرين بتوعك

- لا شيء من ذلك لكن سهرت البارحة اكثر الليل
- لاي داع
- لاتعم فسطاني هذا . وانت تعلم ان ليس لي فرصة الا ساعات قليلة
- بل لك الغد وبعد الغد

فنظرت اليه نظرة المتهم وهي تبسم وقالت له
- اما تعلم ان الشغل ممنوع يوم الاحد على من كان مسيحياً حقيقياً . او تحتاج ان اعلمك انا بهذا يا قليل الايمان

- لا تؤاخذيني يا نور العين فان افكاري مشتتة وما عدت اعرف حساب الايام شغلتي حتى عن نفسي يا نور

- عسى الله ان يجعل عاقبة هذا الوجد حميدة ويقدر لنا خاتمة الرضى والخير
وفي مساء الاحد ذهب لؤلؤ ونور لزيارة الكاهن في منزله واخذوا رضاه وطلبوا
بركته ودعاءه وان يقوم صباح الغد بصلاة الزبيجة فوعدهما وباركهما وفي الوقت المعين
دخلوا الكنيسة واقبل جمهور غفير من اهل الناصرية لتهنئة نور ملاكهم الصالح
ولما اخذ لؤلؤ بيد نور وتقدم بها امام الهيكل وهي لابسة الثوب الابيض وزاهية
بجمالها الباهر خرجت من افواه الجمهور اصوات التعجب والانسراح والدعاء . فتذكر
لؤلؤ تلك الضجة التي ارتفعت في كنيسة هاور حين تقدم بعروسه « انيسة على زعمه »
فاضطربت افكاره ثم مسح جبينه وقال ساعها الله ما كنت اظن الشيطان في باطن
ذاك الملاك . ومن يومئذ محارستها من محبته

ولما انتهت الصلاة الوجيزة المؤثرة الرابطة قلبين وجسمين رباطاً ابدياً تفرغرت
عينا الكاهن بالدموع والتفت الى نور وقال يا ولدي العزيزة قد صرت بسنة الله قرينة
هذا الشاب الفاضل وصفاتك الحميدة من لطف وسلامة نية وطهارة قلب مشهورة عند
الجميع فكوني له كنز افراح وحب طاهر لا يفسده اباطيل العالم . وهو يكون بك
سعيداً مغبوطاً وتكونين معه في انعم بال واهناً العيش
فقال لؤلؤ في نفسه يا اله السماء اذا شئت ان تفصل عني هذه الروح العزيزة
فابقضي واياها معاً لاني لا استطيع الحياة بعدها . ولكن مشيتك

الفصل الثاني والثلاثون

« تعبير الرؤيا »

باطل الاباطيل كل شيء باطل . ما النعيم . ما الافراح . ما رغد العيش . كل
يزول . اي فرح لم يخالفه حزن . اي صفاء لا يشوبه كدر في هذه الدنيا الدنية . لله
در من قال فيها

هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرزكم مني ابتسام فتولي مضحك والفعل مبكي

واحسن منه قول بليغ المشان (الحريري)

يا خاطب الدنيا الدينية انما شرك الردي وقرارة الاكدار
دارتني ما اضحكت في يومها ابكت غداً تباً لها من دار

انفضت حفلة الزفاف وخرج الناس يضعون للؤلؤ ونور بالتبريك والدعاء بالرفاء
والبنين . اقاما يتقلبان على بساط النعيم ويتلذذان بساعات الاجتماعات اياماً وليالي وقد
غفل عنهما الدهر وانفتحت لسيهما ابواب السعادة . ومضى على ذلك بضعة اسابيع
فيما جوصفائهما صافٍ وبجر نعيمهما راكد ونسيم افراحهما ينعمش الابدان
وشمس ملذاتهما تبعث اشعتها على آفاق قلوبهما المعلقين بالاماني . ورياض تغازلها انيقة
مدبجة باشهى الازهار يجري فيها الحظ السعيد جداول من سلسيل يجنيان من خمائل
الراحة ثمار الرضى . ويرتعان بين سندس وديباج على ماء معين . اذا برمج الهم قد
عصفت وغيوم الكدر انتشرت فاربداً وجه شمس الهناء واضطرب بحر الصفاء وثارت
هوج الزمان بعجاج البلايا واقبلت عليهما ايام تجرّ طلائع الرزايا

ففي ذات ليلة رأى لؤلؤ رؤيا هائلة غريبة الاتفاق رأى كأنه رجع الى داره في
مدينة هاور ودخل قاعة الاكل فرأى كل شيء فيها على الحال التي فارقها عليه وعلى
المائدة الكسان اليهودتان وفي احداهما ثمالة الحجر المزوجة بالسّم وانيسة (اي قينة)
منطرحة على الارض وعليها اغبرار الموت . فارتاع لهذا المنظر واراد الفرار فامسكته
قوة عجيبة خفية فجمد في مكانه واراد ان يحول وجهه عن وجه انيسة فلم يستطع
وبقيت عيناه محذقتين بعينها المغمضتين . وفي اقل من لحظة ازدحمت الاقدام في تلك
القاعة وتقدم الجمهور بتياب الحداد ورفعوا جثتها فسمع بعضهم يقول . ماتت المسكينة
ماتت مسمومة . والبعض يقول من قتلها هل عرفه احد . وحينئذ حدث امر عجيب
غريب مخيف هائل حتى ارتعدت فرائص لؤلؤ وظن ان السماء انطبقت عليه او
صاعقة سحقتة واصطكت اسنانه وامتقع لونه وبقي مبهوتاً . فرأى كأن الصريعة (اي
قينة) فتحت عينها ومدت نحوها يدها وقالت بصوت عميق . تطلبون قتالي فيها هو .
زوجي . فصاح لؤلؤ . من صميم فؤاده . انيسة ايتها المرأة الشقية تعرفين انك كاذبة .
فقولي الصواب . قولي انك المفترية على نفسك يا انيسة . وفي الحال عادت الجثة الى

حالتها الاولى من الذبول والجمود . ورأى كأنّ الناس ينظرون اليه بعين المقت والغضب وان ايدياً كالحديد تقبضت عليه وارتفعت جلبه الجمهور ووعى هذه الكلمات « هذا القاتل . امسكوه وسلّموه الى الحكم » فاراد ان يدفع القوة بالقوة ولكن ما يفعل واحد مع مائة وضعيفان يغلبان قوياً . فعجز ووهى عزمه وطُرح على الارض وديس بالارجل وشعر كأن روحه تفارق جسده . فاتبه من منامه . وقال الحمد لله . اضغاث احلام .

يا لها من رؤيا هائلة وحاول بقية الليل ان لا يغمض عينيه مخافة ان يراها ثانية ومع ذلك بقي فكره مضطرباً وقلبه خافقاً وباله مشتغلاً وزاد بلباله حتى كان يذوق امرّ العذاب من شدة قلقه . فقال ما ادراني ما يكون من تأويل هذه الرؤيا فلعلها تصح وقد الهمني الله ان استعد لهذه الحوادث المريعة . وما عرفت شيئاً مما جرى في غيابي ولعل سرعة فراري يكون باعثاً على الظنون وتكثر الاراجف بشأني . يارب كان ابواب الهاوية قد انفتحت لدي وطاش عقلي . فماذا أقول اذا اتهموني اني صببت السم في كأس انيسة . وكيف أبرئ نفسي ..

وطلع النهار وهو في هذا القلق العظيم وفتحت نور عينها ونظرت اليه متبسمة فرأته متغير الحال مخطوف اللون فرجف بدنها وقالت له ما لك يا حبيبي . انظر اليّ قد خوّفني بجمودك اي الآلام دهمك في هذا الليل

فلما سمع لؤلؤ هذا الصوت الرخيم اتعش فواده وتبددت بلباله كما يتبدد ضباب الصباح بأشعة الشمس . وقال لها

- يا عزيزتي ليس بي شيء من الآلام
- فما لي اراك مصفراً
- ما أدري
- هل رأيت شيئاً من الاحلام المكدره
- لا اذكر شيئاً مما رأيتُه
- قد سمعت صوتك مرتفعاً
- عجباً فعلتُ اذن كالمجانين . وماذا قلت
- سمعت كلاماً متقطعاً ما فهمته

- لعلك انت حلمت يا نور
 - لالا . اني اثبت لك اني سمعت كلامك
 - ما البرهان عندك
 - لفظت مرتين اسم انيسه
 فاستغرب لؤلؤ في الضحك او بالحري تضاحك ليخفي روعه وقال لها
 - ما هذا الاسم انيسه . ليس هذا اسم اعرفه
 - بلى هذا اسم اسباني وانا اعرف فتاة اسمها انيسه
 فجمد الدم في عروق لؤلؤ ولم يعرف ما يجب . وفضن لرسالة قبنة التي ذكرت
 فيها فضل نور عليها كما مر في مكانه
 ثم قالت له نور والفتاة المذكورة يتيمة مثلي فقيرة يرثي لها ات من بلاد بعيدة
 اظن اسمها هوانة وغرق بها المركب على سواحل اسبانيا ووصلت الى هذه البلدة في
 مركب تجاري ومرضت مدة وكنت اعني بشأنها حتى شفيت . وهي جميلة لطيفة .
 ووعدتني ان تكتب اليّ ولم تفعل . وقالت لي انها قادمة الى مدينة هاور لتتزوج بابن
 رجل من اهله من اصحاب ايها فلما سمعتك تلفظ اسمها ظننت انك تعرفت بها
 - هذا وهم يا عزيزتي لم اعرفها قط وربما تألفت هذه الكلمة اتفاقاً وانا الفظ
 اشياء لا اعرفها
 فسكتت نور وصدقت مقاله لما هي منظوية عليه من سلامة الضمير ولم يخطر لها
 فكر يكدر حاستها اللطيفة . ومن ذلك الوقت ضربا صفعاً عن ذكر الرؤيا وما يتعلق
 بها ومضى عليهما ذلك النهار كغيره من الايام السابقة
 لكن لم تكن راحة الضمير والتمتع بمسرة الزمان الا لنور لان لؤلؤ لم يزل من
 ذلك الوقت في شغل شاغل ولبلال زائد فرأى أن حياته شقية وايمامه تقضي بالكدر
 فعزم ان يكتب الى خادمه نسيم ويستخبر عما حدث بعد غيابيه في تلك الاقطار
 وكانت نور تذهب كجاري عادتها كل يوم بعد الظهر لتفقد المساكين والمحتاجين
 ولا تدع احداً يطلع على اعمالها لانها اعتمدت هذا المبدأ الانجيلي « اذا صنعت صدقة
 فلا تعرف شمالك بما تفعل يمينك » فتقضي اشغالها وترجع بعد ساعة او ساعتين

فاتهمز لؤلؤ فرصة غيابها وارسل سليمة في مصلحة بعيدة ليست ذات شأن قاصداً
ان يخلو بنفسه ثم اخذ قرطاساً وكتب ما يأتي :

خادمي الامين وصاحبى القديم نسيم
لا اكتب اليك الا لعظم ثقتي فيك وانت ادرى بضميري وانا على يقين انك
تفضل الموت على اباحة شيء من اسراري . فاول شيء اطلبه اليك ان لا يعلم احد
في الدنيا بمحل اقامتي . ثم اذا وصل اليك كتابي هذا فاصدقني في الجواب كل خبر .
اذكر لي بالتفصيل عن احوال تلك المرأة الشقية التي كانت تعزى اليّ وليكن كلامك
برزانة لا يتخللها حقد ولا غضب لانها ماتت على ظني والميت له الاكرام على كل
حال . واخبرني عما جرى في المدينة على اثر هذه الحادثة المريرة وعما ظن الناس في
خروجي بسرعة . وما علموا من احوال مقتل الوالي وما قيل في هذا الشأن . وبالاختصار
لا تترك شيئاً مهماً او غير مهم الا وتخبرني عنه

واما انا فليس لي شيء اخبرك به الا اني سعيد . والسلام . واذا بلغني كتابك
اكتب اليك ثانية واخبرك بعض امور اطلبها منك وليس هنا محل ذكرها الآن .
واياك ان يعلم ما موررو البريد لمن يرسل كتابك . فضع الكتاب في مغلف تكتب عليه
اسمي فقط ولا تكتب اسم للمكان المرسل اليه . ثم تضع ذلك في مغلف آخر سميك
وتختمه من ثلثة اماكن وتكتب عليه العنوان الآتي

ليد حضرة المعلم اللويزي صاحب الفندق في الناصرية

والآن استودعك الله واشكر فضلك وهمتك سلفاً

الداعي

لؤلؤ

ثم طوى الكتاب وختمه وقد غير خطه في العنوان ومضى الى مركز البريد والقاه
هناك وحينئذ استراح باله لعله انه لا تمضي ايام قليلة حتى يرد جواب به يستفيد ما
يتمناه من الاخبار . وعاد الى البيت وقد خف ما به من البلبال ولم يتبق منه الا آثار
كالبخار المنتشر في جوّ فسيح . لكن لما اتى الوقت الذي فيه حسب ورود الجواب
تكاثف ذلك البخار وعاد ضباباً قائماً فاخذهُ القلق ولم يجد لنفسه راحة

وكانت نور متحيرة من هذا الحزن الذي دهم زوجها وراه وهو بجانبها اسيفاً
كاسف البال لا يتكلم الا بالتكليف ولا يطيب له مقام ولا يهنا له عيش. واذا سألته
اجابها بكلام مبهم لا يعرف باطنه من ظاهره ولا اوله من آخره. فاخذت الوسواس
تتجاذب خاطرهما وخشيت ان تكون محبته قد فترت فحزنت نفسها ولم تعد تملك دموعها
وظنت ان ابواب السرور اغلقت في وجهها او تكاد

وفي ذات يوم اخذ لؤلؤ طريق فندق اللويزي فلما وصل وجده معتكفاً على صنع
اطعمة فاخرة لرجل من الاشراف وحينما وقع نظر اللويزي على لؤلؤ ترك ما هو فيه
ووكل به الخدم وارتكض الى لؤلؤ فرحاً طرباً وصار يترحب به ويؤانس بهشاشته
السالفة وقال له هل تشرفني يا سيدي بشرب شيء من خمر المعتمة

- نعم يا معلم على ان تجالسي
 - على الرأس والعين اكرمتني جداً يا مولاي . أفي الحجره المعهودة
 - نعم فيها نفسها فبناك احب ان احديثك بعض امور
 - تفصل اذن واسبقني وانا آت في دقيقتين . لا يوهمك ضخم بطني اني بطيء
- الحركة يا سيدي لؤلؤ

فصعد لؤلؤ ولم تمض ثلاث دقائق حتى اقبل اللويزي مهرولاً وجلس وجعل
يملاً الاقداح

- فقال يا معلم أتيت اليك راجياً حاجة
- انا طوع امرك يا سيدي . ان كنت محتاجاً الى تقود فضندوقي رهين الاشارة
فاكون ممنوناً اذا استقرضت مني مبلغاً جسيماً الى سنة او سنتين او اكثر
- اكرمت يا معلم وفضلك لا ينكر ليست بالدرهم حاجتي وان كنت تراني
متوسط الحال

- فما ارادك مني
- ارعني اذناً واعية . اليوم او في هذين اليومين يصل الى البريد كتاب معنون
باسمك فشق الغلاف فتجد داخله غلافاً آخر عليه اسمي فتكرم بتسليمه الي يداً بيد
- حباً وكرامة فليس ارحب من صدري للاسرار كما ترى

- لا تكلف نفسك بالحجيء اليّ فانا آتي كل يوم واقابلك
 - حسن . لكن اياك يا سيدي ان يكون في هذا الكتاب شيء من الاسرار
 الغرامية فانك تعرف مقدار اعتباري لقرينتك . هذه ملاك في صورة انسان لا يليق
 ان تتحدّث

- اما تعلم يا معلم اني من اصحاب الشرف والاستقامة
 - هذا لا ريب عندي فيه

- فانا اقسم لك بشرفي اني احبها كما احب نفسي وان قلت اكثر فلا تصدقني .
 واحترمها كما احترم اطهر الملائكة فالمت عندني افضل من ان اخونها
 - المعذرة يا سيدي كلامي على سبيل المزح وانا موقوف لخلدتك .

ففارق لؤلؤ الفندق على حسن الرجاء . وكانت الايام تمضي وآماله تقصر وصدرة
 يضيق وصدرة يفرغ وكان كل يوم يأتي الفندق ويسأل المعلم اللويزي قائلاً « مهتم يا معلم »
 فيقول لا شيء يا مولاي . وذلك لان البريد لم يكن منتظماً في تلك الايام كما
 سبق القول والموانع في الطريق كثيرة فلم يحسب لؤلؤ هذه الحسابات وظن ان كتابه
 يصل في اقرب وقت ولا يبطئ الجواب ان يبلغه . وساعات الانتظار اطول من
 أيام الاكدار

وفي ذات يوم وصل الى الفندق فرأى الناس مزدحمين على المعلم اللويزي فحالما
 رآه ذلك أشار اليه اشارة سرية وقال آجب ان تصعد الى الحجره وأنا آتي سريعاً .
 فصعد لؤلؤ وهو لا يصدق وقلبه يخفق ويحسب في نفسه الف حساب من الويل آزاء
 واحد من الخير . وفيما هو في هذه الشدة اذ سمع السلم ترتج تحت اقدام اللويزي . ثم
 دخل وقدم له الكتاب وقال وصل البارح في الليل . ثم مضى في شغله

فأخذ لؤلؤ الكتاب وعلق عليه نظره وهو لا يراه حقيقة وصارت يده ترتجف
 وخيل له انه حالما يفضّ ختمه تنتشر في وجهه بخارات الويلات . وبقي على ذلك نحو
 نصف ساعة ثم تشجع ولام نفسه على ضعف عزمه وحاول طرح الاوهام من أفكاره
 حتى اشتد قلبه لكن لم يزل الهم غالباً عليه . ثم قوّى قلبه وفض الختم ونشر الكتاب
 وتلامنه شيئاً . واذا باغبرار الموت قد علا وجهه وتهد وصرخ صرخة الفجعة وارتجف

بدنه وتضايق صدره وشعر كانه يختنق فزق طوقه وفرج القميص عن صدره . وقد قامت عيناه في أم رأسه وفتح الدم في عروقه فكان أشبه بمن اعتراه الجنون ومضت عليه بضع دقائق ومن يراه لا يقول الا الهول مشخصاً امامه وتمثال الويل منتصباً لديه وهو جامد كالصنم لا يدري أفي الدنيا هو أم في هاوية الغيبوبة فلما همدت ناره وعاد اليه رشاده وسكن روعه بعض السكون عاد الى الكتاب فنشره وقرأه من اوله الى آخره وهو عند كل عبارة تقريباً يرتجف وجبينه يتندى بعرق بارد . وهذه صورة الكتاب الرهيب

سيدي العزيز الموقر

بلغني كتابك الكريم فتلوتُه بالاحترام اللائق بمقامك وفي الحال بادرت الى اجابتك ولم اخف عنك شيئاً من الامور الجارية والتي جرت هنا بعد غيابك لان من واجباتي ان استمر على الامانة في خدمة بيت اكلت من خبزه اربعين سنة فلسوء حظي قد سمح الله ان اعيش الى هذه الايام لتنزل شيتي بهوان وذل الى القبر . انما كان الاولى برحمته ان يقدر لي مع ابيك الراحة قبل هذه الايام . من يدرك حكمة الله . حسناً فعلت يا سيدي بفرارك وتخفيك ولم تشهد احوال النكبة المعدة لك . فاحتفظ على روحك واياك ان يدري بك احد اذا امكن الحال والاولى ان تخرج من فرنسا جميعها ليكون استرلك وابقى على نفسك

فاعلم . حفظك الله من البلاء ودهاء النساء . ان امرأتك باقية في قيد الحياة لم يضرها ما تزعمه من السم الذي تناولته من يدك . وقد اشاعت انك انت قاتل الوالي وتأثروا الآثار واستقرأوا الامور فاثبتوا قرارها وحكموا عليك بالقتل فاناشدك الله يا مولاي بالغ في الاستتار واحقن دمك البريء . آه وا اسفاه ماذا

يجل بي اذا شاهدت عيناى هذا المنظر الهائل الذي يصدع قلب الجماد واما ما جرى في دارك فلا استغني عن ابلاغك اياه حرفاً بحرف اقامة لامانة خدمتي فقد بلغني من نساء الخدمة ان امرأتك كان عندها ترياق شربته بعد نصف ساعة من شرب السم اى حالما خرجت واستفاقت ببرودة الماء والخل على صدغيها . وفي ثاني يوم ارسلت الى مقدم الدرك ان يأتي ويقابلها وقد شاع خبر خفاء الوالي وأتقت

في اذنه اراجيف استدلل بها على حقيقة الامر . ثم قصدوا البيت السري ووجدوا
الخبثة والاتفاق وجد مقدم الدرك فضلة ورقة محروقة عليها نصف اسمك وتاريخ الحادثة
اي ٢٤ آب . وعلى هذا بني الحكم . فكل المدينة الآن موجبة اليك كل التهمة ويعلم
الكل ان لا مناص لك من الهلاك حالما يظفرون بك . وما عاد احد يذكر افضالك
السابقة واعمالك الخيرية وآدابك الشهيرة والذين كانوا يحبونك صاروا يكرهون ذكرك .
وما بقي احد غيري يقدرك قدرك ويعترف بسلامة طويتك . ووفد من باريس جماعة
من اقرباء الوالي وحلفوا ان يأخذوا بثاره ولهم قوة ونفوذ تام في المملكة . وقدم ايضا
وكلاء مقدم درك المملكة يبحثون سرا وهم اهل حدق ومهارة في مصلحتهم يستقصون
الامور بطرق غريبة ولا يفوتهم شيء من مطالبهم . يقبضون بألف حيلة على اصحاب
الجنايات واشهر اللصوص . فاكررك الرجاء ان تبالغ في الاختفاء غاية المبالغة . واما
امراتك فتمتلك ممتنا شديداً ولا تزال تقول انك قتلت الوالي غدراً ولا تذكر اسمك
الا بكرة واشتمئزاز فمجببت كيف وهي على هذه الحالة لا تبادر الرجوع الى بلادها وتعود
الى اسم عائلتها . فما اشأم هذه المرأة التي جلبت على بيتك الائم والعار والشقاء
وقد صرت اجد حياتي من اشقى ما يكون واعجب كيف ابقى حياً وانا اقا سي
هذه الآلام وانا شيخ فان . ولولا حرمة شيبتي وقدمية عهدي لطرودوني من داركم لا
محالة . وانا لا احب ان ابارح هذا المنزل الذي ربيت فيه ورتعت في نعيمه مدة طويلة
ولي مع ذلك مقاصد اخرى احافظ على القيام بها في خدمتك الى آخر نسمة من حياتي
والرجل السائد في الدار الآن في الطول والعرض هو الشريف قين الاندلسي
ينهب ويتلف ويجمع المال من كل وجه وفي يده الامر والنهي ويده مطلقه التصرف
في كل شيء ولا يجسر احد ان يقول له شيئاً اجابة لارادة امرأتك لانها آخذة بيده
ومطلقة له العنان حتى يُظن انها تحشى جانبه ولا تفتح فمها بكلمة تكدره . ومثل هذا
الرجل يستوجب الطرد عشرة مرات كل يوم لكثرة خباثته وطالما خالج قلبي ان هذا
الرجل فاسد الاصل ساقط النفس خسيس القلب وبالاختصار عيار
يا حبذا يا مولاي لو استطيع سفك دمي على ان تنجو من هذه التهم الفظيعة
وتتخلص من هذا الشرك المنسوب لك وتعود الى سيادتك في منزلتك وتكفي كل

انسان باعماله . يا حبذا لو أبقى حياً الى ان ترى عيناى هذه الامور المفرحة
واختم كتابى بتكرار الرجاء ان تبلغ في الاستتار وبالاحرى ان تخرج من فرنسا
لانك ما دمت فيها لا بد ان يجدوك وهناك لا ينفع الندم . استودعك الله يا مولاي
العزير الموقر . اتوسل اليك ان تكتب اليّ في أقرب وقت لاني أرى الموت يرود
حولي ولا أمل لي ان القاك بعد . استودعك الله واتضرع الى عنايته الالهية أن تحميك
من بوائق الايام وغدرات الزمان فتقبل سلاماً كالمسك الضائع واشواقاً لا يطفأ لها
لهيب من خادمك الامين وخصيصك المخلص وصنيعتك الشاكر نسيم
فلما انتهى لؤلؤ من قراءة الرسالة قال لا بد ان أجنّ او اتدرع بدرع البسالة
والجد واتخذ قوة عجيبة لا كشف بالتأني كل هذه الاحوال واقف على حقيقة أمري
وغاية مركري

وفي الحال اتكل على الله وطلب امداد نعمته وتجد لمقاومة الخطوب ووجد في
نفسه قوة وفي قلبه نشاطاً وقعد يفكر وغاص في بحر الآمال . فوجد ان مسألة قتل
الوالي لا تهمة لان في يده ادلة قاطعة على براءته من الغدر اخصها صك الوالي المتعهد
بقانونية القتال بينهما . فليس ثمّ خطر واما الويل العظيم والخطر الشديد والمصيبة
الكبرى فانيسة التي لا مناص له من خبثها . وخصوصاً لانه اتخذ امرأة وهي حية وهذه
الجريمة تعد في ذلك العصر من الكبائر التي لا تعاقبها الحكومة الا بالموت فرأى باب
الهلاك مفتوحاً لديه وبسببه تكون نكبة نور قوام حياته . فلا تعود تعتبر زوجة شرعية
له وترمى بالدعارة والشنار وتحسب حظية له بوجود امرأته الاولى . وباله من عار
فوجد مركزه اذ ذاك من أصعب المراكز واشأمها ومع انه يعرف انه غير مذنب
لم يجد منفذاً ككتب الابرة ينفذ منه بريئاً حتى لو حاول تبرئة نفسه لدى نور لا تصدقه .
فأين أين الخلاص . كل الحوادث التي جرت له في زيجته الثانية من ادقها الى اجلها
تقوم عليه وتهدر دمه بأعدل شهادة فلو قيل له هربت من هاور وامراتك مغسّى عليها
فكيف حق لك اتخاذ غيرها فان قال ظننتها قد ماتت قيل له بعض الظن اثم وقد لا
تصدق الظنون أفيدنى عليها يقين فيحتج بمسألة السم الذي ارادت به قتله فيقال له
هذا محض افتراء وانما انت قصدت قتلها لاتخاذ عشيقتك

وما زاد الضغث على الابالة انه اخفى حقيقة حاله في الناصرية بما كذب امام الكاهن . فاذا يجيب اذا قيل له ما الداعي لهذا الزور والبهتان والمواربة لو لم تكن مضمراً خيانة عظمى . فلم حينئذ ان القضاة لا تقيم له عذراً ولا تخفى عليهم دخيلة امره ويجرون حكم الشرع بلا مراة .

واما ما يكون من نور فانها لا شك تكذبه وجهاً لوجه اذا حاول تبرئة نفسه وتذكره بتلك الرؤيا الخبيثة التي كرر فيها لفظ اسم ايسة على معرفتها بها وبمقصدها في ذهابها الى مدينة هاور وتعلم انه هو الخطيب الذي أتت لاجله . فلا بد انه تزوجها كما أوضحت الظروف وانه خدعها اشنع خديعة بقوله لا اعرف هذه الفتاة مطلقاً

فلما انجالت له هذه الامور وتحقق سقوط نجمه قرع صدره ياساً وأسفاً وصاح ويلاه ساكون لديها ممقوتاً محترماً و بين الناس ذليلاً مهاناً واقتل بعد ذلك افطع قتلة . آه يا الهي اخطف روجي في هذه الساعة ولا توصلني الى هذه المصائب

و حينئذ خطر له ان يخرق صدره بخنجر او يطلق الرصاص في دماغه . غير ان الانتحار لم يكن في ذلك العصر مألوفاً ومسهلاً كما هو في هذه الايام فكان دينه وحبه العجيب لنور لا يسمحان له ان يرتكب هذه الجناية الكبرى . فتوقف وعاد الى الرشاد وفوض الى تدبير العناية امره ملتقياً على الحارس الامين اتكاله ومتمثلاً بقول الشاعر

دع التقادير تجري في اعنتها ولا تبينن الا خالي البسال
ما بين لحظة عين في ترددها يغير الله من حال الى حال

الفصل الثالث والثلاثون

« قينة بالمرصاد »

قلنا ان لؤلؤءا لما اجال الفكر في جميع ظروف احواله وتأكد استحالة نجاته من هذه الورطة الوخيمة وان لا بد من انكشاف امره فيفتضح ويُقتل التي اتكاله على الله فعزم على الفرار اتباعاً لمشورة خادمه الامين فعقد النية ان يذهب بنور الى بلاد تخفى بها آثاره ولا يدركه الطلب الخيف . فبعد امعان النظر ما وجد اوفق لهذه الغاية من

بلاد اميركا وبقي عليه ان يطالع امرأته على عزمه بطرق الحيل المختلفة والحجج الملقمة
لثلاثرتاب من مفاجأة هذا الرحيل

وكان يعرف انها لا تخالفه في شيء يريدُه وانها مسامة اليه قلبها وفكرها لكن باي
عذر يقنعها بوجوب تركها جنبها والذهاب الى ارض بعيدة غريبة حتى لا تداخلها مظنة
سوء فاحترافي امره واربتك في برقشة المعاذير . واقام يجيل الفكر في اختلاق سبب
يقنعها به وهو يقول في نفسه دلائل الخطر واضحة لكنه بعيد وربما مضت اسابيع
واشهر قبل ان يعرف طالبي ابن انا اويكشفوا هذه الزاوية الخفية في اطراف البلاد .
ثم اخذ في الاحتياطات اللازمة فحرق رسالة نسيم وفتح الحجره (لانه كان باقياً في
حجرة الفندق كما لا يخفى) واطل من النافذة ودعا بالمعلم اللويزي فاقبل كهبوب الريح
ولمخ ما به لؤلؤ من الانزعاج فقال له ماذا ارى يا سيدي لا بد ان الكتاب الذي
تناولته مكدر جداً

- هو ما تقول يا معلم

فضرب اللويزي بيده على الخوان حتى ارتجت الحجره وقال تفّ على ابليس
اللعين اعوذ بالله من الشيطان الرجيم لا يصيب الويل الا كبار الناس . فهل لك
يا سيدي ان تطلعني على حالك

- ما دعوتك الا لذلك

- فقل كل ما حدث لا تخف عني شيئاً

- انت تعلم يا معلم اني لم اكن غنياً

- هكذا قلت لي والعلم لله

- وهو الصحيح فكانت دنياي متوسطة

- اخلاصة . مرني افعل

- وقد فقدت ثروتي برمتها

- اعوذ بالله . كيف ذلك

- كنت قد سلمت مالي الى رجل ظننته أميناً فخانني وانتهب مالي وهرب وليس

هذا فقط

- ويلمّه وما فعل ايضاً
- زور اسمي في اعمال تجارية جسيمة فأصحاب الدين الآن يبذلون الجهد في القبض عليّ فقد ذهب حالي ومالي
- أفّ للخوّنة ما هذا الشر العظيم
- والشرع يحكم لهم فوق ذلك
- كيف يمكن هذا . ابن العدالة . لا أصدق ان الحكومة تمالي مع الخائنين
- من أين تعلم الحكومة حقيقة الحال وشهود الزور عليّ لا يحصون
- الرشوة تعمي البصيرة وتذهب بكرامة الاخلاق يا سيدي لكن الحكومة لا تسرع بالحكم قبل استقصاء البحث فلعل حضورك يزيل الشك
- هذا ضرب من المستحيل وتقلبات الرجال تأتي بالعجائب
- اذاً انا تحت امرك ان كنت في حاجة الى النقود فقد عرضت عليك ما معي قبل الآن فخذ هذا المبلغ واقطع ألسنة المبغضين المناقنين
- أشكر معروفك يا معلم غير اني لا أقدر على قبوله
- لِمَ لا
- لان هذا المبلغ لا يمنع عني الخصومة
- كم المطلوب منك
- خمسون ألف درهم
- يا ويلهم هذه فدية ملك فليس معي الا نحو ٦٥٠ درهماً . كيف العمل يا ربي .
- وعلى ماذا عولت يا سيدي
- عزمت ان اتخذ التدابير اللازمة لمسألة اصحاب الدين المزور
- هل يقبلون بما تعرض عليهم
- الله اعلم فانا أمتحن الامر . والجوهري الآن ان لا يجبروني على دخول السجن
- ففيه تلمي
- لا حول ولا قوة الا بالله . وهل يقدرّون على حبسك
- الحق أقدر مني ومنهم ولا بد أن يسعوا في البحث عني في هذه البلاد

- عليك الامان انا أخفيك في مكان مستور عندي لا يهتدى اليه
- لا أقدر ان افارق منزلي لثلاث ترناع نور فتكون النكبة عظمى
- فما الحيلة اذن
- الحيلة ان تعي ما أقول لك وتفعله في وقته
- ولو قيدوني بالحديد وقطعوا لحي لا اخالف لك امرأ
- فاعلم ان الشرط الذين يأتون من قبلهم لا بد ان ينزلوا في فندقك
- على كل حال اذ ليس سواه في هذه البلدة يلبق بالغرباء
- ولا بد ان يسألك عنى وعن مسكني وسائر احوالي
- ساء قال الخثين هل أقع في فخاخهم وانا من تعلمه يا سيدي وسأقتأ عيونهم
- اذا تجرأوا على اجباري في الجواب
- ما هذا المراد يا أخي بل تقول لهم لا أعرف أحداً في هذه البلدة اسمه لؤلؤ لوليان
- كفى الا يطلبون اكثر من ذلك
- وان شئت فاخبر حاشيتك بذلك ايضاً لكي يكونوا على بصيرة
- كن مطمئناً فلا يمكن ان يأخذوا عنك خبراً من هذه البقعة كلها
- فمضى لؤلؤ بعد اداء الشكر وهو على يقين ان هذا الرجل يقوم بوعده ولا يمكن ان يخونه . وقصد منزل الكاهن وقص عليه الخبر وأخذ منه ميثاقاً على كتم اخباره . ثم توجه الى بيته لكي يتجسس في الغد السفن القاصدة أميركا
- لكن في الزوايا خبايا واذا حل القدر اعمى البصر وأمر الله لا يرد على كل حال فكان لؤلؤ في الناصرية يأمل بقرة العين ويعد نفسه بالنجاة من الفخ الخفي غير ان مكيدة قينه ام الدواهي حالت دون المرام كما سيأتي في سياق الكلام
- فترجع الآن الى كشف احوالها في مدينة هاور وما دبّرتة من التدابير وذلك منذ خروج لؤلؤ وظهور جثة الوالي وهلم جرّاً الى ذلك اليوم الذي ظن فيه لؤلؤ انه افلت من الشرك
- ففي صباح النهار الذي كتب فيه نسيم الخادم جواب الرسالة الى لؤلؤ خرج رجلان من غرفة قينه يدل ظاهرهما على انها من زمرة الدرك وظهر علي هيتهما عند

خروجها الانبساط والسرور فهذا دليل على انها قبضا من قينة من النقود ما افعم اردانها
وكانت قينة في ذلك اليوم لابسة افخر ملابسها مزينة بابهى الزينة فزاد جاهلها رونقا
وهي تذهب وتجيء وتعمل سيف فكرتها القادحة وقد خف غضبها وبقي الحقد في قلبها
عاملاً تظهر علاماته على جبينها ومن يريق عينها

ويناها هي كذلك اذ طرقت الباب فاذنت بالدخول فدخل اخوها قين بهيئته المعهودة .
فقال لها ما تريدن يا اُخية لا تكتميني سرّاً على ان لا يكون احد في الغرف الداخلية
يسمع حديثنا

- ليس هنا احد . وانت ما عندك من الخبر لكن اعلم ان طبعي صار خبيثاً فان
كان مرادك ان تطلب دراهم على عادتك فاخرج قبل ان تفوه بكلمة
- ويالك يا قينة ما هذا التغيير . على اني اتيت لاستخبر عن هذين الرجلين اللذين
خرجا من غرفتك واراها من زمرة الدرك هل اعلمك بشيء

- لا شيء عند هؤلاء القوم فما هم الا مخشون لا يسعون واذا سعوا لا يجدون
- فليس لهم مصلحة اذن الا الاحتيال على الكسب
- هو هذا فلا ياتيني هذان الا وياخذان شيئاً

- ما لنا ولذلك فالاعمال لا تقوم الا بالاعمال . ولنبحث الآن في شأن مصلحتنا
فارى ان وجود زوجك من اصعب الامور وقد خرج وحده على فرسه هائماً على وجهه
او قاصداً اخفى الاكمنة . آه يا ليت عندنا احداً مثل قارون فهو الذي يكشف الخبايا
- بفيك الحجر . ما لنا ولقارون الآن

- عجباً أتكرهين ذكر أيامه
- أنسيت يا مجنون أيّ ويل أوقعتك به والرعب الذي كنت تجده عند ذكره
- ما كنت اخافه الا لقلّة قوتي واما الآن فالمسألة تقوم بالحيلة والتدبير والذين
تعتمدن عليهم لا ارى فيهم شيئاً من ذلك واصحاب الشرف لا يستريح لهم بال مع
هؤلاء الناس

- او تعدّ نفسك من الاشراف يا قين
- كيف لا

- منذ اي عهد
 - منذ صرت متمولاً
 - اي منذ صرت تسرق مالي
 - لا يعينني هذا والذي اعرفه ابي غني . فليس المال مالك انما هو رزق الله فمن استطاع اخذ شيء فبحق يأخذه . ومع ذلك تقولين اني اسرق مالك انما تحسبين الكميات الوفرة التي تسلينها من مال زوجك فبأي لسان تلوميني ثم اذكري الآن ان هؤلاء الدرك الذين تملأين ايديهم وهم متباطئون في مصلحتك سيكلفونك مبالغ جسيمة
 - ليأخذوا ما يأخذون فلا بد اخيراً ان يقضوا شغلي خجلاً ان لم يكن اكتفاء .
 ولي سند آخر اعظم وهو ان مقدم الدرك ارسل انفاراً الى كل مدن المملكة يتجسسون الاخبار
 - هذا الحق بعينه فهل يمكن ان يقيم لؤلؤ في احدى المدن الكبيرة ويصرح باسمه . وما اخاله الا باقياً في فرنسا ومستتراً في احدى المزارع الشاسعة يخفي اسمه وصورته
 - لا يبعد ذلك ولكن من لا يخاطر بالنفوس لا ينال النفاس فاني مقتفية آثاره وادركه ولو على اجنحة السحاب
 - اي لا تبالين بما تبذلين
 - نسأبذل الى آخر فلس
 - يا لها من عاقبة وخيمة
 - عليك لا علياً فانا وان كنا من طينة واحدة فلي اخلاق ولك اخلاق . انت همك في جمع المال وانا همي في اخذ الثار
 - اي ثارك وانت تعلمين كما اعلم انه لم يغدر بالوالي هذا العاشق المسكين الذي نسيت ذكره
 - هذا يعينني انا وحدي واما الشيء الذي لا انساه ولن انساه فهو السم الذي سقاني اياه
 - ويل مكرك يا شقية اما كنت انت الباحثة عن حتفك بظلفك

- اقبالي علياً اكراماً لظايره يا كنود
 - لا يخطر هذا ببالك بل قصدي ان لا تتكافى كل هذه المصاريف كما يفعل المجانين
 - هل آخذ من كيسك شيئاً
 - فانت مصرة على عزمك
 - الى آخر حياتي
 - وما تعطين لمن يدلك على مكان لؤلؤ
 - فنظرت اليه منذهلة وقالت ويك يا قين هل تعرف شيئاً من ذلك
 - قولي لي ما تبديلين
 - أو تقدر أن تعلمني بمكانه
 - أمّا وقد برح أظفء فنعم
 - فتمنّ علياً
 - مائة الف درهم
 - هي لك وكرامة فاخبرني
 - اذا قبضت الشرط كشفت لك المكتوم
 - ألا تركن اليّ
 - أركن ولكن خير البرّ عاجله
- ففتحت قينة صندوقه وأخذت قبضة من الماس وأعطته اياها . فصار ينظر اليها بامعان نظر كحجر حاذق وقال لم تركبي الشطط فاخبر أئمن من هذه . ثم وضعها في جيبه واستل من عبه ورقة مطوية على هيئة رسالة وناولها اياها . فلما نشرتها وقرأت أول سطر صاحت كما يزجر الاسد على فريسته وقالت الحمد لله قد صار في قبضتي الخبيث . ثم قرأتها الى آخرها وكانت هذه الرسالة المرسله من لؤلؤ الى نسيم الخادم . فصفت طرّاً وقالت حقاً هذه الورقة أئمن من الجواهر يا أخي
- فقال قين في نفسه يا ليتني طلبت ضعف القيمة . آه ما أشد حقي هذا طبعي دائماً
- فقال له من أين وصلت هذه الرسالة الى يدك
- استلبتها بالحيلة منذ ساعتين من حجرة هذا الخنث نسيم . كم قلت لك اخرجيه

خارجاً فلم تسمعي يا قينة

- من أعلمك ان لؤلؤاً يكتب اليه

- كنت مرتاباً في ذلك وكنيت البارح مطالاً من نافذة غرفتي فرأيت رسول البريد يناوله ورقة كبيرة محكمة الختم . فاشتغل فكري . وصعد نسيم الى حجرته وأغلق الباب فلما خرج لمحت على وجهه سيماء الكدر والانتقال ولعلمي خلوته لسيدة قلت لا بد أن يكون في القضية شأن عظيم فجعلت ارقب دخوله وخروجه الى المساء فدخل الحجره وبقي ضوءه ساطعاً الى نصف الليل فعلمت انه يكتب الجواب . وخرج اليوم من الدار ولم يستأذن احداً ويده مغلف كبير عليه ثلاثة اختام فقلت ذاهب به الى ادارة البريد فأسرعت الى حجرته وفتحت الباب بحيلة لا يعرفها غيري وجعلت أفتش حتى وجدت هذه الرسالة

- واهاً لحذقك يا أخي الحبيب

- أتعلميني شيئاً اعلمه

- وأنا اعدك باكثر مما وهبتك حينما تصبح ثروة لؤلؤ في يدي

- ما أطيب كلامك يا قينة وافصحهُ وأبلغهُ وأوقعهُ في القلوب . زيديني بحيانك

زيديني

- أعطيك كل ما تطلب بل فوق ما تتمنى . وأريد منك الآن شيئاً

- اخوك وعبدك بين يديك

فهضت قينة الى الصندوق وفتحتها وأخرجت منها عقد اللؤلؤ الذي لبسته يوم العرس وقالت له اظنك مزماً ان تبيع جواهرك فان فعلت فبع ايضاً هذا العقد واتني بثمنه - ولي اجرتي على كل حال . فقبل مضي ساعة آتيك بالذهب . هل لك

مصلحة أخرى

- نعم تأمر خادمين يسعيان في طلب الرجلين اللذين كانا عندي ويأتيان بهما الي

اينما كانا . فأخرج حالاً ولا تضع دقيقة سددي

- ما ذا ازعمت

- ستعرفه في وقته فعليك الان ان تسمعي

فخرج وقضى شغله وعاد في أقل من ساعتين وسلم إليها ثلاثين الف درهم من
 ثمن العقد وكان قد باعه بخمسة وثلاثين . وحينئذٍ أقبل جندياً الدرك
 فقالت لها وقتت دونكما الى معرفة خبر زوجي لله الحمد فلا تتعجبا لان الامور
 تأتي من حيث لا يدري الانسان فاذهبا الآن الى مقدم الدرك وقاضي الجنائيات وخذا
 منهما امرأً بالقبض على لؤلؤ وان يكون مباحاً لكما التفتيش عليه اينما كان ودخول أي
 منزل وجد فيه وان لا يعارضكما احد من مأموري الحكومة في الذهاب به حيث شئتما
 واستعداً للسفر في هذا الليل

فقال احدهما كيف يكون ذهابنا على الخليل أم في العجلة

- في العجلة

- أمن دارك نساfer

- نعم

- كم يوم يستمر السفر

- عدة اسابيع

- في أية ساعة نمشي

- في أول الليل

فخرج الرجلان ودخل قين فقال لها اخبريني الآن

- سل ما بدا لك

- ما مرادك ان تفعلي

- ان أسافر

- الى أين

- الى الناصرية

- متى

- في اول الليل

- من يكون معك

- هذان الجنديان وأنت اذا شئت

- لا لا . اكفيني هذه الرحلة

- لاي سبب

- لاني لا أنفك شيئاً وبقائي هنا أحافظ على البيت أوفق

- ليخلوك الجو وتنهب كيف اردت

- لا أفضل الا كما كنت افعل اذا كانت المحافظة نهياً فايها أريد

- فائق كما تريد

- اشكر فضلك . لكن افيدني أفلا يعني هذان الجنديان عنك

- لا يكون ذلك اذ ليس لي فيهما ثقة ولا اعتمد الا على نفسي

- صدقت ومن اشيع الامثال في الامم قولهم

ما حك جلدك غير ظفرك فتول انت جميع امرك

غير اني ارى هنا محظوراً

- ما هو

- أيلق بصبية نظيرك باهرة الحسن ان تركب متون الطرق في البلاد الغربية

ومعها رجلان اجنبيان

- كن مطمئناً لا يرى الناس الا ثلاثة رجال

- وي أفذهبين متخفية

- هذا هو المراد البس لبس الفرسان . فاذهب وأنتي باحذق الخياطين ومعه

اشكال الملابس التي توافق جسمي ولكن كلها بسيطة لا تطريز ولا زركشة . وتأتيني

بسيف وغدارتين وحذاءين يلايمان رجلي وتمة حلة رجل من الفرسان الظرفاء . ثم

تأمر بتحضير العجلة

- لله ابوك يا قينة فما رأت عيني اغرب منك في الخيل والدهاء

- لا يهمني الآن ان تمدحني بل ان تقضي مصالحتي

فذهب قين واحضر ما طلبته بأسرع ما يمكن . فاخترت ثلاث بدلات احداها

سوداء مخملية على زي لبس الرهبان . والثانية سنجابية تصلح لركوب الخيل . والثالثة

ملونة بين ازرق واحمر على زي مأموري الحكومة الكبار وابناء البلاط الملوكي . وامرت

الخطايط ان يهندهما حتى آنت على ما اختارت فوضعت البدلتين الاخيرتين في بقجة
وابقت الاولى لتلبسها حال السفر واعدت ايضاً بقجة من الفساطين التي رآتها مناسبة
للغربة لتلبس زيتها الاثوي عند اقتضاء الحال . ثم خلت بنفسها واقامت تعبير ملابسها
وتحكم وضعها حتى خرجت شاباً من الطف الشبان . وبعد ذلك دعت باخيها فلما رآها
صفق طرباً واخذهُ الذهول وما عرف ما يقول . فصارت هي تضحك وتقول احسنتُ
يا قين واصبتُ الغرض

- لا يخطر على بال مخلوق انك امرأة بهذا الزي العجيب
- بقي لي عندك حاجة واحدة . فاعلم ان نسيماً لا بد ان يشعر بفقد الرسالة ثم
يشغل بالهُ بغياي من الدار فلا بد ان يكتب بذلك الى سيده فارقبه جهداً بحيث
لا يتمكن ان يخلو بنفسه ويكتب او اذا كتب ان لا يستطيع اداء الرسالة لاحد ولا
اخذها بيده الى مركز البريد والا فقد حبط مسعانا
- طيب قلبك وامضي قريرة العين من هذا القبيل . وهل لك وصية اخرى
- ذكرت الآن وصية وهي ان لا تتحمل كل ما في الدار مدة غيابي بل ابق لي بقية
- يا حبذا لو صح لي ذلك ان استطيع ان احمل البيت في جيبى الحقيير
- اذن لا تملأ الدلاء اذا اعيك حمل البئر
- يا اختي الصديق يخطئ سبع مرات في اليوم هكذا يقال في الكتب المنزلة
افيكون من باب الخطأ مد يدي الى الهنات التي لا تذكر
- واهاً لك يا قين ما اراك الا من اطرف المحشين
- صنيعتك وترية يدك يا شقيقتي . وسأبدل جهدي ان اسرك بزيادة وانا لرضاك
ولما كانت الساعة المعهودة اقبل الجنديان وأعدت العجلة فحشت قينة غدارتها
بالرصاص وجعلتها في منطقتها والتفت بكساء كبير ودخلت العجلة وجلس الجنديان
بازائها . فامرت السائق فحرك صوته وقرع به ظهور الخيل فسارت تنهب الطريق وقينة
تبني من الآمال صروحاً



الفصل الرابع والثلاثون

« عودٌ على بدء »

بعد خروج قينة بيوم متخفية بالزي الذي ذكرنا رأى قين نفسه أنه صار السيد المستقل في الدار فيقطع ويصل كيف يشاء واراد ان يجعل تذكاراً لهذا الاعتزاز او الاستقلال اللصي فالزم وليمة فاخرة وارسل الخدم يدعون الى حفلة كل معارفه الذين على شاكلته

وكان في البحر صباح ذلك اليوم فلك يذهب ويحيى كأنه يترقب المد حتى يدخل المرفأً واخيراً أرخى قلعوه وأنزل منه زورق فيه رجال منهم اثنان جلسا في المؤخر وكان احدهما لابساً لباس ضباط البحرية والاربعة الباقون كانوا يسرون الزورق الى ان دخل المرفأً فخرج الرجلان المذكوران ودخلا المدينة مدينة هاور . وكان رفيق الضابط لابساً لابساً مكسيكياً فاستلفت انظار الجمهور

فن يسمع باسمي هذين الرجلين ولا يأخذه العجب ومن يخطر بباله انهما يأتيان معاً في وقت غير منتظر وحال غير محسوبة . ومن يملك نفسه من التصفيق عجباً ولا يقف متحيراً حينما يعلم انهما نفس تنكر يد النجكي وقارون خطيب قينة الاول . فيا للغرابة من ابن اتت الحيوة الى تنكر يد بعد ما سقط مخضباً بدمه برصاصة قارون . وباي اتفاق غريب وقعت الالفة بين هذين العدوين . وبأي سبيل اتصالا الى مدينة هاور ولاي المقاصد . فانظروا كيف توقعت الاحوال واعتبروا بتقبلات الزمان

ذكرنا في الفصل السادس عشر مبدأ الخصام بين تنكر يد وقارون وما آل اليه الامر بينهما . وانه لما تحقق قارون موت تنكر يد واسف عليه قصد الانتقام من قين في بيته فلم يجده هناك فعض اصابعه ندماً على اهماله اياه . ثم سأل برنيقة وتهدها بالقتل ان لم تعترف بالصدق فاخبرته ان قيناً وقينة سافرا الى فرنسا فاسرع الخطى الى المينا فوجد ان الدلفين قد صار بعيداً ولا يمكن ادراكه . فكاد يمزق ثيابه من الحنق فلما عاد الى سكنته فطن لقتيله تنكر يد فقال في نفسه مسكين هذا الشاب قد

ظلمته وكان الاولى ان ابقى عليه واقتل ذاك اللعين لان هذا لم يسيء الي . وما من الشئمة ان ادع جثته فريسة للكواسر والضواري

وحالما قال هذا توجه الى مكان المقتلة ليواريه التراب فوجد الجثة في مكانها لكن لم تعد فيها علامات الموت التي ظهرت في بادئ الامر ووجد ان الدم قد جمد على فوهة الجرح فانسد مجراه فقال عسى الله ان يقدر لي خلاصه ثم احتمله على ساعديه بلطف ودخل به كوخ قين وقينة المعهود

يقال ان الهنود لهم خبرة عظيمة في العقاقير ومعالجة الجراح خبرة طبيعية لم يتلقوها عن استاذ ولا قرأوها في كتاب لكن كثرة التجارب ادت بهم الى المهارة في فن التطيب . فاخذ قارون بعض اعشاب برية وسحقها بين حجرين وعمل منها لزقة ضمد بها جرح تنكريد فاندمل في وقت قصير ثم شق الجلد وراء الكتف واستخرج منه الرصاصة فلم تمض ثمانية ايام حتى أمن تنكريد الخطر . ومن ثم حصلت المادة والمصافاة بين هذين الرجلين

ثم استفاق تنكريد من نشوة غرام قينة وعلق فكره على شيء واحد وهو العود الى فرنسا وفسخ العقد مدعيًا أنه كان مخدوعًا ببراكين كثيرة هيأها لذلك مثبتًا بها ان تلك الفتاة ليست بالحقيقة الامغنية رقاصة تكسب خبزها من هذه المهنة وان اخاها الص محتمل . واقام ينتظر ورود سفينة الى هوانة يكون مسيرها الى هاور ومضى على ذلك عدة اشهر وفي ذات يوم اقبلت سفينة خربية غايتها فرنسا فصار تنكريد يعد لوازم السفر فقال له قارون يا اخي لم يبق لي شيء في هذه الديار يضطرنني الى الاقامة بها ولشدة العلاقة بيني وبينك ولوحدة غرضنا مع هذه المحتالة ولا سيما لشفاء غليلي من اخيها الخبيث تسمح لي ان اصحبك في هذه السفرة . فرضي تنكريد راغبًا وطلب الى رئيس السفينة ان يأذن لرفيقه ففعل

والحوادث التي جرت في البحر هذه المرة ليس لها دخل في سياق هذه الاخبار وبالاختصار مضت تسعة اشهر الى ان وصلت بهما السفينة الى مدينة برست واشتاق تنكريد الى دخول هاور في اقرب وقت ليستطلع اخبار قين وقينة فصدر له امر من رئاسة البحرية ان يذهب بفلك الى مدينة بولونية لبعض المصالح فاتفق انه يمر في طريقه

بينما هاور وكان معه اثنا عشر رجلاً وقارون

فلما وصل نزل في زورق هو وقارون واربعة رجال ودخل المدينة مع قارون كما مرّ في اول الفصل وبينما هو يجول ويتفقد الاحوال سأل احد المارة عن منزل فيليب لوليان فقال له انه مات منذ اشهر وابنه هرب من المدينة بداعي جناية عظيمة بعد ان تزوج بانيسة بنت يوشع الرويري وانه عمل على قتلها ايضاً . فسأله عن احوال أنيسة فقال اذا دخلت مكتب لؤلؤ يخبرك وكيه عما تريد

ففضى في الحال هو وقارون الى المكتب وسأل الوكيل فأخبره بتفاصيل كل الحوادث من غرق الدلفين الى خروج أنيسة (أي قينة) من مدينة هاور . فأثني تنكريد على الرجل جميلاً ومضى هو وقارون وصارا يتمشيان وهو متفكر وقد أيقن ان قينة هلكت غرقاً فلم يبقَ عليه شيء من الثار ثم قال لقارون اصدقني يا صاحبي هل بقيت محبتها في قلبك . قال نعم اني أجد لها آثاراً شديدة الى الآن

ولم يزالا يتمشيان والناس تزدحم حولها لغرابة منظر قارون حتى قاربا الموضع الذي تركا فيه الزورق فتمهد قارون ودمدم بشدة فقال له تنكريد ما الخبر فأثني قارون على رأسه ذيل جبته المكسيكية وقال له امض انت في شأنك الى بولونية وعند رجوعك تجدني هنا . فتعجب تنكريد من هذا الكلام وقال أمراك ان تنفصل عني وما السبب ومدة غيابي لا تكون اقل من ثمانية أيام وأنت هنا غريب ليس لك مأوى قال بلى آوى الى هذا الفندق الذي نرى رايته تحفق هناك ومعني في منطقتي الف دينار . قال فقد عجبت من امرك فما الحاجة المهمة التي تدعوك الى البقاء هنا . قال ليس عن عبث ما ترى مني فكل ما سمعنا الى الآن لم يكن صحيحاً . قينة في الحياة والآن رأيت اخاها فقال خدعتك عينك يا صاحبي أيمن ان يكون قين موجوداً وأخبار الناس هنا لا تحتل الشك من جهة غرق المركب والركاب

فكل ما اراد تنكريد ان يقنع به قاروناً لجهة عدم وجود قين في الحياة ذهب سدّي لانه رآه بالحقيقة . رآه بعينه فلا يمكن أن تكون عينه خدعته وعرفه حق المعرفة فقال لتنكريد بصري حادّ يا أخي اذا كنت على مسافة مرمى رصاص اميز بين ريش طير وآخر وهما من اصل واحد فكم بالحري اتحقق هيئة رجل لا يمكن ان يخدعني كيفما

كان وأينما وجد فقد رأيت قيناً وعرفته وأريد ان القاهُ وسألقاهُ
 فبنا سكت تنكريد ورأى من المحال محاولة تغيير عزم قارون فودعه ومضى
 في مصلحته لانها كانت تضطره الى الذهاب الى بولونية واقام هناك نحو اسبوع وعاد
 الى هاور ونزل الى البر وقد صار قياده بيده وطاف مترقباً مصادفة قارون ثم دخل
 الفندق الذي اعلمه انه ينزله وسأل صاحبه هل عندك رجل أجنبي يقال له قارون قال
 نعم وقد خرج منذ برهة قصيرة وما أدري متى يرجع لاني قلما أراه هنا الا عند النوم
 فتركه تنكريد وعاد الى الميناء متنزهاً وهو عازم ان يعود المساء الى الفندق وما
 لبث دقيقتين حتى شعر بيد لمست كتفه فالتفت فرأى شاباً حبشياً لابساً زي أوروبا
 فلم يعرفه فقال له أياي تعني يا أخي بوضع يدك فضحك الرجل حتى كاد يستلقي على قفاهُ
 وتغيرت هيئته الاولى فطار عقل تنكريد من العجب واذا الرجل قارون بعينه . فأراد
 ان يسأله فأوماً اليه بالسكوت وأخذ بيده وأتجها نحو الفندق ودخل به غرفته في الطبقة
 الثانية وجلسا فقال تنكريد اخبرني الآن ما معنى تخفيك بهذا الزي وتغيير سحتك وما

عملت في غيابي

- طلبت ووجدت
- ماذا وجدت
- وجدت قيناً
- اين مقيم
- في دار فيليب لوليان
- هو واخته
- اخته ليست هناك الآن
- وما يعمل المحنث هناك
- ينهب كل ما تصل اليه يده لانه وكيل الدخل والخرج
- او تعينه انيسة ايضاً
- نعم والشائع في المدينة انها تنحزب له حتى يظن انها مشاركة له في الخيانة
- عجباً ما هذا الاتفاق الغريب

- وهنا شيء اغرب بما لا يقدر
- ما هو
- اتذكر لون شعر انيسة
- نعم يضرب الى الشقرة ويلمع بلمع ذهبية
- اتذكر لون حدقتها
- الى الزرقة
- ولون وجهها
- ابيض كالياسمين وعلى وجنتها لون الورد في الاكام . وما معنك في هذه الاسئلة
- المعنى اني استخبرت عن ملامح امرأة لؤلؤ تلك الدرّة فريدة عقد الحسان فلم اجد فيها الصفات التي تذكرها في انيسة . شعرها طويل اسود كالابنوس وعينها سوداء ووجهها الى الصفرة الذهبية . فليست هي انيسة
- فمن تكون هذه قد اشتغل خاطري
- وانا ايضا نظيرك فما يخال لي الا ان تكون قينة والدلائل واضحة تقريبا صفاتها
- الخارجية ومشاركتها لقين في خبائه دليل كاف لتحقق الظن . وهي الآن في بلاد بعيدة تترقب وجود زوجها لتقبض عليه وتسلمه الى الحكم لانه قتل حبيبها والى المدينة
- قال اذن لا يمكن ان تكون انيسة . لكن من يوقفنا على الحقيقة
- قين نفسه ان شاء الله
- كيف ذلك أمّحتمل انه يذكر شيئا من ذلك
- سيرغم
- متى وكيف
- هذه الليلة . تقبض عليه ونخطفه ونذهب به الى السفينة التي تحت امرتك
- وكيف يتم هذا . راجع فكرك يا قارون أيخطف رجل من بين اهل مدينة ويجرّ الى السفينة رغما
- الامر يعينني فما عليك الا ان تطاوع وتفعل ما اقول لك
- ثم جعل يقص عليه تفاصيل تجسسه لحركاته وسكناته وسائر احواله في هذه

المدة وكان قد ظهر له ان هذا المسمى بالشريف الاندلسي يختلف الى امرأة تتجر بالبيغاء ويرجع من عندها كل يوم عند نصف الليل ومنزلها في آخر زقاق ضيق يؤدي الى المينا فيسهل على اربعة رجال ان يقبضوا عليه وهو راجع ولا يقدر على شيء حتى رفع صوته لانهم يقدرون على اسكاته جبراً وهكذا تم الاتفاق بين قارون وتكريد وكان قين على فظاظته وشؤم سحته يقصد تلك المرأة الكهولة المسخة خفيفة من الجمال ولعلها كانت طامعة في المال فيحسبها حقاء وهي باخس (١) فلا يجيئها الا ليلاً يتحدث اليها لانها في النهار تكون مشغولة في أمر طيورها ومساومة الناس المزدحمين على بابها فلا يجد دقيقة من الفرصة ليسمع كلامها وتسمع كلامه الغرامي الفظ بذاته . فاتفق في تلك الليلة قبل نصف الليل بساعة ان وقع مطر خفيف متواصل منع الناس من الجولان في الازقة . وبينما قين يناغي صاحبه ويكشف لها اسرار ميله كان خمسة رجال كامنين في بيت مهدم على مسافة نحو ٥٠ خطوة من منزلها ومن جملتهم رجل ملتف بكساء من صوف ابيض مطرز بألوان زاهية . وكانوا لا يفوهون بكلمة ولا يتحركون حركة يشعر بها

ولما كان نصف الليل صارت المرأة تفرك عينيها وتثاءب ففهم قين ان مرادها انصرافه فأخذ يدها وقبلها والبسها في احدى أصابعها الضخمة خاتماً كان قد سرقه من حلى قينة وخرج من عندها وهو يترنم بتلك الاغنية التي كان يترنم بها حين كان قارون يرصده على طريق المينا في مدينة هوانة وبقي يتمشى ثملاً من خمرة الغرام و بنت الدنان وهو يترنم ويلتفت الى جهة منزل الحبيبة والمطر يقع حتى بلل ثيابه فقصد جدران البيوت من الزقاق حتى وصل امام ذلك البيت انخرط فوثب اربعة من الرجال المذكورين وقبضوا عليه بأذرع كانوا من الحديد فلم يستطع حراكاً . فبلغ فواده وقد صوابه وقال بصوت متخوف يا سادتي استحللكم بسيدتنا مريم وجميع القديسين ان لا تقتلوني . اعطيكم كل ما املك الآن عشرة دنانير و١٢ درهماً و٦ فلوس وساعتي . فقتلوا جبابي فقتلوا ثيابي فقتلوا اني ما كذبت . احقنوا دمي اكراماً لله ولجميع القديسين . احقنوا دمي يا سادتي

(١) مثل يضرب لمن يظن انه ينال من الآخر مع ان الآخر ينال منه

وفيا هو يتكلم اذا بذباب سيف قد لحس صدره وصوت خفي يقول . بأذني
 كلمة من فمك يسفك دمك . فانم الصمت وصارت فرائضه ترتعد فاحتمله الاربعة
 وهو بين الموت والحياة وتوجهوا به نحو شاطئ البحر . فأخذته رجفة عنيفة وتهد وقال
 في نفسه الآن يفرقوني . سلام على الدنيا . سلام على المال . سلام على الاجاب .
 وأراد ان يستغيث فشرع بذباب السيف بين كتفيه وسمع القائل الاول ينهره فاعمض
 عينيه وسلم روحه الى القضاء والقدر . ثم وصلوا به الى الشاطئ وكان هناك زورق فيه
 رجلان فرفعه الرجل الاربعة وقذفوا به الى الزورق فسقط كأنه قطعة من جبل .
 والرجل ذو الكساء الايض (قارون بالطبع) دخل الزورق وجلس في المؤخر بجانب
 تنكريد وأخذ يحدثه وكان قين يسمع ما دار بينهما من الحديث وهو منطرح في قعر
 الزورق كالغائب عن الدنيا لا يُسمع الا تنهده المتقطع

وأخذ الجماعة يجذفون بلطف وسرعة الى ان بلغوا السفينة فأدليت سلم من الجبال
 فرفع اثنان منهم قيناً على الايدي وتناولوه ثلاثة آخرون وطرحوه جانباً وأقام احد
 النظار يراقبه . ففتح قين عينه ونظر فاذا هو في سفينة من الاسطول الملكي فأخذ يتعجب
 من هذا الاتفاق ويحسب الحسابات المختلفة ولا يعرف كيف يأول هذه الحادثة ولا
 ما الغاية التي سينتهي اليها . وبينما هو كذلك دنا منه احد النوتية ودفعه بكتفه وامره
 ان ينزل ساماً في جوف السفينة فوصل به الى غرفة الامير وهو تنكريد فدخل ونظر
 فكاد يسقط صريعاً وشعر بدوار شديد حينما ابصر تنكريد وقاروناً جالسين فجثا على
 ركبتيه ومد يديه وقال . الصنعة الصنعة يا سيدي ارحمني يرحمك الله . ماذا تفعلان
 بي . فقال له تنكريد انهض يا محنت واعلم ان حياتك متوقفة على كلامك

فانفتح لقين باب الامل فهض وقال مرني آتري يا سيدي

- أصدقني فيما أسألك . هذا المطلوب فقط

- أحلف لك بسيدتنا مريم وجميع القديسين اني لا اكذب في كلمة وسترى اذا

سألتني اني اجابوب بالصحيح

وحينئذ اضمر قين في نفسه الكذب لانه قال من يكذبني اذا قلت غير الحق

وقينة الآن ليست هنا ولا يعرفان شيء من امرها

فقال تنكريد ما فعل الله بقينه

- يا سيدي اما علمت اية مصيبة حلت بنا اما اخبروك انها غرقت فيمن غرق
من ركاب الدلفين

وحينئذٍ تباكى واخذ يمسح عينيه بمنديله ويقول اسفي على صباها فتحت يا سيدي
جراحة مندملة في فؤادي يا ليتك تعلم اي خطب حل بها حين علمت انك فارقت
الدنيا بقيت اياماً لا تأكل ولا تشرب ولا تعي على شيء حتى تلفت صحتها وهي ملازمة
النواح والاتحاب وكرهت بعدك الحياة

- اذن لم ينج من الغرق غيرك وغير انيسة

- نعم يا سيدي لم ينج غير اثنين

- الحق ما تقول

- ما انطق الا صواباً يا سيدي

- أليس عندك غير هذا الكلام

- أيمن ان يقال الحق بكلام آخر

- اولست في شيء من الرياء

- لا رياء يا سيدي لا رياء ان شاء الله

فالتفت تنكريد الى قارون فصفه بصافورة صغيرة من فضة فاقبل الناظر المار ذكره

فقال له تنكريد استعد وعاق هذا الجاموس الخنث مكبلاً في الصاري

فقال السمع والطاعة يا مولاي . وخرج

فصارت اسنان قين تصطك وبدنه ينتفض . فقال العفوي يا سيدي تنكريد ما

مرادك من هذا

- مرادي انفاذ العدل فيك صل عن نفسك قبل هلاكك لم يبق لك

الا ثلاث دقائق

- ارحمني يا سيدي يرحمك الله لاي سبب تقتلني اية جناية جنيت قل لي لعلي اكفر

- جنائتك كذبك الفاحش

- يا ربي . يا مار يوسف . ما تطلب مني يا سيدي

- اطلب الحقيقة لا سوى
- امهلني وانا اقول لا تعجل بهلاكي
- اذا تأخرت دقيقة فقد فات الوقت ودنا الاجل
- ولوقت دخل الناظر اثباتاً لكلام تنكريد وقال ما بقي غير امرك به ايها الامير
- فقال اذهب وانتظر دقيقة اخرى . ثم نظر الى قين فرأى لونه مخطوفاً وعينه غائرتين
- فقال له عند اول كذبة تسلم الى المشتقة
- سل يا مولاي . الحق اقول هذه المرة
- ما فعل الله بقينة
- باقية في الحياة
- أليست هي التي سمت نفسها انيسة الرويرية وتزوجت بلؤلؤ
- بلي يا سيدي
- فاخبرنا بالتفصيل عما جرى لكم منذ خروج الدلفين من هوانة ولا تحف شيئاً
- من التفاصيل ونحن نسمع لك ولو الى آخر الليل واعلم ان حياتك متوقفة على صدق
- كلامك واياك والمواربة والمشتقة حاضرة ولا تمضي دقيقة من امري بك حتى ترى
- نفسك معلقاً . فالحذر ثم الحذر
- وكان قين من أولئك الناس الذين لا يبالون بعزة النفس ولا شرف الانسانية في
- جانب حب الحياة فالأفضل عنده ان يحيا ولو تلفت اخته وحصل في اذل الاحوال
- ولبسه أكبر العار فبقاء روحه في بدنه بغيته الوحيدة دون كل شيء . فلما تجلى له الموت
- بشوب الحقيقة وعلم انه لا مناص له الا بالصدق وخاف ان تكون في سامعه روح النبوة
- ومعرفة الغيب بحيث لا يخفى عليه شيء من الكذب اخذ في سبيل الصدق التام وصار
- يقص بالتفصيل كل الحوادث الكبيرة والصغيرة الجليلة والحقيرة حتى ادقها آملاً فوق
- خلاصه ان ينال حظوة في عين صهره القديم الامير تنكريد . حتى وقف على كل ما
- صنعت قينة مدة اقامتها في دار لؤلؤ وما عمله الآن وكل ما عمله قين ويعمله حتى
- تلك الساعة

واستمر في هذا الحديث الى الساعة الثالثة بعد نصف الليل وتنكريد وقارون

ينذهلان ويرتشان تارةً ويتندى جبيناهما بالعرق وبقيما كأنهما في بجران شديد . ثم قال
تكريد لقارون علينا الآن شيء واحد وهو كشف استار هذه الخداعة وتحليص لؤلؤ
من القتل لاني متيقن انه غير جانٍ فقال كيف تقدر ان نخلصه . قال الله يلهما
طريقة صالحة

ثم قال قين لتكريد . يا سيدي اما اقتديت حياتي بصدق كلامي وصرت حسب
وعدك مطلق الحرية فقال له يا شقي اتظن انك تنجو من يدنا الا لتؤدي شهادة الحق
امام اهل الحق . اما القتل فقد نجوت منه حسب وعدي واما الخلاص من أسري
فأمل بعيد . تبقى معنا الى حين الاحتياج اليك لتكذيب اختك اللعينة امام القضاة .
ومن ثم تسلّم واياها الى ايدي العدل

فانصرف قلب قين في صدره وشعر كأنه احشأه تمزق حزناً وأسفاً واحتبس
لسانه عن الكلام وقد يس من الحياة على كلتا العالتين

وحينئذ دعا تكريد بالناظر وقال له اربط يدي هذا الخائن وادخله حجرة
صغيرة وأفل الباب عليه واجعل عليه حارساً كل الليل واستعدوا للسفر الى برست
ففعل الناظر ما أمر به وأوثق يدي قين بحبل دقيق متين وأدخله حجرة ضيقة
وأغلق الباب فانطرح على سريره ضيق وقال هلكت لا محالة ما الحيلة . ثم غاص في لجة
الآمال . فقال في نفسه كم مرة كنت في شدائد نظير هذه أرى نفسي على شفا الهلاك
فيلهمني طالع سعدي تديراً وبوقفتي الى النجاة فعسى أن يكون نجمي الآن ساطعاً
وانجو من هذه الورطة . ثم اجال نظره يميناً وشمالاً فرأى كوة مستديرة غلقها من زجاج
في جانب الحجرة فأشرق عليه نور الامل وقال مالي من سبيل قبل ان احل هذا
الوثاق الخبيث فأدنى يديه من فيه وصار يتطلب مكان العقدة فوجده معقداً من كل
جانب فقال لا يهتدي الا ابليس الى حل هذه العقدة فما الطريقة . ياربي . يا مار يوسف
اندر لك شمعة بطول يدي اذا هديتني ثم خطر له فخطر جديد فمض وقلب برجله
فراش سريره وجس فاذا عوارض السرير من حديد محددة الحروف فجعل يحك
عليها الحبل بعنف وسرعة ثم ينتفه بأسنانه القوية المتينة التي تقارب انياب الخنزير وما
زال يحاول هذا العمل بجهد وجد حتى قارب الحبل التقطع فشد يديه يميناً وشمالاً

وكانت على ما نعلم عصبية خشنة الجلد صلبة العظم فلاجل التوفيق خلص يديه من الوثاق وتقدم في الحال الى الكوة ليرى هل الغلق ثابت او يمكن فتحه فجس دائرته بأنامله فوجد قفلاً صغيراً ففتحه بجملته أو بقوة اصابعه ونظر فاذا الكوة مطلة على البحر وهب على وجهه نسيم بارد نشف عرق الشدة المندي به جبينه

وحينئذ افتتح له باب الخلاص لكن حالت دون مرامه صعوبة اخرى فقال اذا امكن ان أنفذ من هذه الكوة على ضيقها فما يكون من امري ولجة البحر تحتي في جوف هذا الليل والبرد القارص فاخرج من هذا السجن الضيق وأقع في سجن فسيح فيه الهلاك لا محالة . ولكن على كل حال يجب ان اخاطر بنفسي لارى ما يكون من الامر والموت بحرية البدن أولى من الموت في الاسر والتسليم ليد الله اولى من التسليم ليد الناس يقضون في هلاكي أو عذابي

وحينئذ مد رأسه ويديه من الكوة وأخذ يجرب بدنه النحيف بكل قوته حتى خرج نصفه الاعلى وصار معلقاً نصفه في الفضاء فوق البحر ونصفه داخل الحجرة وقد كل من التعب . فنظر فوق رأسه فوجد حلقة كبيرة من الحديد تعلق فيها حبال السفينة عادة قبض عليها بكتا يديه وصار يجهد نفسه باخراج بقية جسمه وبعد محاولة عنيفة خرج وقد تمرقت ثيابه وتخدشت أوراكه ثم داس برجليه على حرف الكوة البارز الى الخارج وبقي معلقاً بالحلقة المذكورة

«يصيب قلبك فرح بقدر ما اصاب قلبه فرح» في تلك الساعة الصعبة فينا هو كذلك وقد كادت اصابعه تسترخي كلاً اذا برجل من النوتية يتمشى على ظهر المركب حتى وصل الى جانب السفينة وجلس فوق المكان الموجود فيه قين وجلس يدخن بغليونيه ويترم . في اية ضيقة وجد نفسه هذا الاسير المسكين . يئس من الحياة وقد تعبت يداه وكلت انامله حتى كاد يترك الحلقة ويسقط في اللجة ومع ذلك لا ينجو او بالحري يتأكد هلاكه لانه اذا لم يهلك غرقاً يهلك بيد النوتية فان النوتي يراه لا محالة وينذر به فيأخذونه ذليلاً مهاناً ويعذبونه اشنع العذاب قبل ان يقتلوه او يشددون الحافظة عليه

المثل الدارج يقول الفرع يطير الوجع ولذلك شدد قين عزمه وجدد قوته وصر

مخالبه على تلك احلقة وثبتت رجله على حرف الكوة وبقي منتظراً كأنه في نزع الموت .
 وبعد نحو ربع ساعة نفض البحري غليونه ومضى من حيث أتى حتى خفي صوت وطئه .
 وساد السكون فاجتهد قين وبذل كل قوة اعصابه وتساق جدار السفينة وكان ارتفاعه
 فوق رأسه نحو ذراع وحصل على حرفها ثم تمشى همساً على الظهر الى ان بلغ المقدم
 فنظر تحته فوجد لحسن حظه قارباً مربوطاً بجبل وطافياً على وجه الماء فامسك الجبل
 ودلى نفسه بتأن حتى بلغ القارب واستل من منطقتيه سكيناً كان ملازماً لها وقطع الجبل



وحينئذ تنفس الصعداء ورأى النجاة بعينه . لكن يا للعصيبة نظر فاذا القارب
 خال من المجاذيف فكيف يمكن تسييره وابعاده عن السفينة فاشتد به الحنق وصار
 يزجر ويشتم ويلعن تلك الساعة وتحقق انه لا بد ان يرى ولو صباحاً فيكون الويل
 الاخير اشد من الاول . ففاص في بحر الافكار حسب عاداته وقت الشدة جاعلاً
 رأسه بين يديه وملقياً كوعه على ركبتيه

وبعد ربع ساعة رفع رأسه فاخذ العجب لانه نظر الى السفينة فوجدها كشيخ
 اسود في مكان بعيد وذلك لان المد كان قد ارتفع فدفع قاربه الى جهة البر مسافة
 بعيدة والسفينة باقية في مكانها معلقة بالمرسة ومع ذلك خاف خوفاً جديداً من ان
 المجاري البحرية المسببة عن المد والجزر تجر قاربه بعنف فيصدم بعض الصخور
 وينكسر او ان ركاب السفينة يطلبونه صباحاً فلا يجدونه فيسعون وراءه ويصادفونه
 قبل ان يبلغ البر

وفيا هو في الوسواس تتجاذبه اذ سمع صوت بحرية بالقرب منه وهم يترنمون
 باغاني بريونية فجعل يصيح صياح اليأس فسمعوه واقبل بعضهم في زورق واخذوه

الى سفينتهم وعرفه واحد منهم وكان يأخذ السمك الى دار فيليب لوليان فلفق لهم حديثاً عن وجوده في هذه الحالة فصدقوه ومضوا به الى المينا فخرج وهو لا يصدق بالنجاة ودخل مدينة هاور ومع ذلك بقي خوفه من نعمة قارون وتكريد شديداً . فدخل الدار اللويلانية ومضى الى غرفته وصار يجمع ما يستطيع من النقود والجواهر في خرج كبير وفي جيبه وعلق في منطقتيه قطعاً مختلفة من السلاح ثم نزل الى الاسطبل واسرج فرساً من اكرم الخيل وعلق الخرج وراءه وسار في طريق الناصرية لا يلوي على شيء ولا يلتفت الى الوراء قاصداً لقاء قينة ليطلعها على الاحوال الجديدة ويحذرهما من العوائل زاعماً انها تقدر ان تتدارك الامور وتخلصه وتخلص نفسها . وكان وهو في الطريق يرتعد كلما تصور قاروناً ويظن انه على اثره فسار سيراً حثيثاً حتى اذا ابعد مسافة شاسعة اطمان قلبه وقال بقائه قينة كل المنى وتديرها فوق تدبير احكم الحكماء

الفصل الخامس والثلاثون

« مساعي قين في الناصرية »

كانت هذه الحوادث تجري في مدينة هاور وقينة مستمرة في طريقها لبلوغ الناصرية فوصلت في المزرع الاول من الليل الى بلدة تبعد عن الناصرية بضعة فراسخ فرجعت على فندق هناك وباتت تلك الليلة وقد طلبت ان يهبأ لها ثلاثة افراس لتركب هي ورفيقتها في الصباح . وأخبرتتهما أن يلبسا لباساً كلباس فلاحي البريتون وفي الصباح عند صباح الديك نهضت من فراشها ولبست ثوبها السنجابي الذي هو ثوب الفرسان وبنظرة مستديرة واسعة الاطراف بحيث تستر القسم الاعلى من وجهها وركبت هي والجنديان خيلاً ضمراً ظنتها في بادئ الامر هزلاً لا يصلح للجري فاخبرها السائس انها على عجبها لرأي العين من اسرع الخيل واكثرها احتمالاً للاسفار وبالامتحان وجدت الامر صحيحاً وأخذوا جميعاً في طريق الناصرية وفيما هم في الطريق قالت لرفيقتها الآن انفصل عنكما . اسبقكما مقدار غلوة وعند وصولكما تنزلان في الفندق المشهور بها الخاص بالمعلم اللويزي وهناك تتظاهران بحالتكما

الزرية أي كفلاحي البريتون منتظرين اوامري ولا تحداثا احداً الا بجاري الاحاديث
واذا رأيتاني اذهب وأجيء في الفندق او اكلم هذا او ذاك فلا تلتفتا اليّ كأنكما لا
تعرفاني . أفهمتا ان وصولكما لا يكون الا بعد ساعة من وصولي . قالا نعم

فعدت بفرسها ووصلت قبل الظهر باربع ساعات ونزلت في فندق اللويزي
فراها وانذهل من محاسن هذا الشاب الذي نزل عليه وقال يا ما ابركه من صباح .
فقال لها يا سيدي الحلو من أين آيتت قالت من المكان الفلاني (وهو قرية مرّت بها
في طريقها) وقد سرّيت كل الليل . فتعجب اللويزي من سرعة السير مع انه لم ير
امارات التعب على وجهها فنسبت الفضل الى الفرس وامرته بالالتفات اليه فوعدها جميلا
ثم قال لها اتحب ان تغدي يا سيدي قالت نعم قال على انفراد ام مع الجمهور
قالت على انفراد في حجرة خاصة تفرزها لي فدعا بالخدام وقال استوص بالفرس . ثم
أشار الى قينة ان تتبعه ودخل بها حجرة كالتي استأجرها لؤلؤ سابقاً . وقال لها ما تحب
يا سيدي ان اقدم لك للغداء

- احسن ما عندك

- ليظب قلبك عندي ما تحب . أنتتهي كاساً من خمر جزائر السعادة

- ان كانت جيدة فهات

- لا يشربها الا كرام الرجال وأشرفهم

- هات لكن على عجل لاني في أشد العطش والجوع ويسوءني الانتظار واذا

يا سيدي أن غضبتُ جننت

- هذه عادة من أغرب العوائد يا سيدي وأظن انك تتكبد لاجلها خسائر جسيمة

- لا يهمني الامر فثروتي واسعة

- عسى ان اكون على ما ترضي يا مولاي فني دقيقة اكون لديك بما يلزم

- هو ما اريد والاحسن ان تأتي اليّ بنفسك لا ترسل احداً من الخدم لاني لا

اطبق اخلاق السفلة فأحب اليّ على سلاسة حديثك ضخامة بطنك واستعراض وجهك

- اكرمت يا سيدي فانا دون ما تحسبني من الرقة

- لا لا . بل اراك من الطف الناس معاشرة

فكاد الويزي يرقص طرباً لهذا التدليس وخرج وهو يقول واهاً لهذا الشاب
ما اشبهه بينات الاشراف . ما الطفه ما ارق جانبه ما اللد حديثه وهو مع ذلك غني
واسع الثروة يالها من نعمة ساقها الله الي في هذا اليوم المبارك يا ليته يسمح لي بقبلة
من شفتيه اللتين تقطران عسلاً

اتخذت قينة هذه الموانسة مع الويزي لنوال غايتها الخبيثة . الامر معلوم . وقد
علمت انه عالم باسرار لؤلؤ وان رسالة نسيم وصلت اليه على يده

ولما خلت بنفسها رفعت برنيطتها واصلحت شعرها وضمته معقوصاً تحت البرنيطة
لثلاً تقع المظنة من طرف الويزي او غيره ممن يراها . وبعد ان اصلحت شأنها دخل
الرجل ويده صحفة وقينة وفريكة وملعقة ونحو ذلك من ادوات السفرة فوضع ذلك
على خوان صغير مرتباً احسن ترتيب فصاحت قينة باتبهاج قائلة

عافاك الله وشفاك ولا تربت يداك . فلا ريب عندي انك من احذق الناس

وان اكثر ضيوفك من الاشراف

فشمخ بانفه كبراً واعجاباً بنفسه وقال يا مولاي ولهذا السبب لا ينزل احد من
الامراء والكبراء الا فندقي هذا المشهور . وكثيراً ما سمعت ان فنادق باريس المدينة
الملوكية لا تفوقه بما يستحق الذكر . قالت لم يكذب من بلغك ذلك ولم يبالغ فاني ارى
من ادوات الراحة وانسراح الصدر ما يجبر الانسان على الاقامة عندك اشهرآ . قال
والذي يؤيد قولك يا سيدي ما ستذوق من طعامي الشهي الفاخر قالت من الرائحة
والنظر علمت انك من امهر طهاة المدينة الملوكية وفي الحال يظهر لي البرهان الذوقي

ثم شرعت في الاكل وهي تظهر السرور من تلك الاطعمة وتنطب في وصفها
ومدح الويزي حتى كاد عقله يطير من الفرح . ولما ذاقت الخمر قالت انها لم تذوق
احسن منها في فنادق باريس وان الامراء وعظماء الاشراف لا يقنون احسن منها
وعرضت عليه ان يأتي بقدح ليشرب معها ففعل كما هي عادته لانه كان يحب ان
يكسب من مال الغير « ويطبخ على البارد »

وفي اثناء ذلك سمعت وقع اقدام حوافر خيل فقالت انظر من اتاك فتطلع من
النافذة وقال شابان من فلاحي البريتون على ما يظهر وفرسهما نظير فرسك يا مولاي .

فعرفت انهما الجنديان رفيقاها وقد وصلا بعد وصولها بساعة حسب امرها
واخذت من ثم تسأل اللوزي اسئلة كثيرة لا معنى تحتها وهي تظهر اهميتها .
وذلك تمهيداً لما ستسأله عما يهمها من اخبار لؤلؤ فتطرق من ذكر البلاد واحوالها
وزراعتها ومياهها الى ذكر اهلها ومشاهيرها وكان هو يجيبها عن كل شيء بتفصيل وتدقيق
ويقص عليها الاقاصيص المختلفة من جليل وحقير حتى كادت نفسها تضجر من هذره
وهي تتجلد صابرة الى النهاية والحديث يجر بعضه بعضاً حتى اذا رأت الفرصة مناسبة
اخذت تدخل معه في حديث الغرباء في البلدة واحوالهم ونحو ذلك ثم قالت له وقد
ضاق صدرها من كثرة فشاره .

منذ اشهر كنت في مدينة هاور واتفق لي ان تعرفت برجل لطيف صفته كذا وكذا
وتوادنا كثيراً وعلمت ان من عزمه المجيء الى هذه البلاد يقضي اياماً في هذه الاطراف
فكيف لم تذكر لي عنه شيئاً

- وَيَوْمَ مَعْنَى هَذَا السُّؤَالِ يَا سَيِّدِي الْعَلِيِّ اعْرِفْ كُلَّ النَّاسِ اَوْ هَذَا الرَّجُلِ
شأن حتى اذكره لك

- لا بد انك تعرفه وشأنه الوحيد انه شاب لطيف له مقدار بين الناس
- كل يوم يدخل فندقي مئات من ذوي الجاه فما احتاج ان اذكر كل من القاه
الا اذا حدث له حادث غريب
- الحادث مع هذا الرجل انه اجنبي لا بد ان يكون نزل في فندك وعاشرك
وعرفت شيئاً من احواله ولا سيما ثروته فانه غني
- أعرف كثيرين من أمثاله فما اسمه
- اسمه لؤلؤ لوليان

- ما أغرب ما ذكرت يا سيدي فلم اسمع بهذا الاسم قبل الآن لكن ما من
عادتي ان اسأل كل انسان عن اسمه اذا لم يبداني
وكانت قينة قد احدثت به بصرها فلم تر على وجهه اللعيم العريض شيئاً من
الملامح الدالة على مقاصدها فقالت في نفسها هذا الرجل لا بد ان يكون جاهلاً كل
الجهل احوال لؤلؤ او انه من أشد الناس كتماً للاسرار وافي الاصدقاء لعهود الوداد

فعلى كلا الحالين لا يمكن على ما أرى ان استكشف بواطنه كما أريد والاولى ان أقصد منزل تلك الفتاة السليمة النية نور القارونية فهي لا تخفي عني شيئاً

فقطعت الحديث وكانت قد فرغت من الغداء وقصدت الخروج فقال اللوزي هل ادعو بأحد خدمي يصحبك وتساله عما تريد ويذهب بك الاماكن اللذيذة للنظر

- لا حاجة لي الى أحد

- في أي وقت ترجع

- قبل الغروب

- وتحب أن يكون العشاء حاضراً

- لا شك

وبعد ما خرجت ورأت الجنديين يا كلان لا يلتفتان اليها داخل المعلم اللوزي بعض الريب فقال ما ذا يا ترى قصد هذا الشاب قد ارتبت من كلامه ولعله جاسوس يتربح احوال لؤلؤ فالاحسن ان امضي على آثاره

وكانت قينة قد مضت في الطريق المؤدية الى منزل نور لا تحتاج الى دليل فزاد قلق اللوزي وعزم على المسير وراءها واذا بغبار قد ثار وانتشر متكاثراً وخيل مقبلة تجر عجلة والسياط تفرع ظهورها فوقف منتظراً فوجد انها خيل البريد وأما هذه العجلة فلم يعرف المراد منها

وكانت قينة ايضاً قد توقفت عن المسير لعلها تكشف أمراً فرأت العجلة قد وصلت امام الفندق وفتح بابها وخرج منها رجل نحيف الجسم عالي الهيكل شاحب اللون قد لصق الغبار بكل بدنه حتى لا يُعرف فخرج من العجلة ومشى نحو الفندق . ففترست فيه قينة وقد تراجعت قليلاً فخنق قلبها وشدت امعان النظر فعلمت انه اخوها قين وقبل ان بدأ اللوزي بالكلام كانت قينة قد اسرعت اليه وأخذت يده كالمسامة وقالت للوزي هذا احد اقربائي كنت انتظره وما حسبت انه يصل اليوم فيكون معي في حجرتي وتعشى الليلة معاً . ثم قالت لقين هل تحتاج الى شيء آخر يا ابن العم . قال اكاد اهلك جوعاً وعطشاً منذ ساعات لم أذق الا غبار الطريق ملاً في وخياشيمي فالتفتت الى اللوزي وقالت له سمعت ما يقول فاسرع بالغداء وقينته من الخمر التي

قدمتها لي . ثم قالت لقين تعال معي فالغداء يحضر قريباً . فتقدم الى العجلة وأخرج منها ذلك الخرج المملوء مالاً ومشى وراء قينة فصعدت الحجره وهو وراءها ودخلا وأغلقا الباب

ثم قالت له قد شغلت فكري يا قين بمجيتك فقل لي ما الخبر أويل أقدمك ام حادث غريب

- اشد الويلات . قد هلكنا
- ويل لك يا غراب البين ما هذا الخبر من اين اتانا الهلاك
- من زوجك تنكريد النجكي
- يا للعجب الم تقل انه قتل
- لم يقتل . وهو في قيد الحياة واتى فرنسا وعرف احوالنا وهو لنا بالمرصاد ومن اعظم المصائب ان قاروناً معه . قارون يا قينة قارون حضر الى هذه البلاد يريد النعمة فشعرت قينة كأن الصاعقة انقضت على رأسها وبقيت دقائق كأنها اصيبت بداء السكنة لكن قد عرفنا ان من طبعها التبصر وحسن التدبير وانها لا تسقط تحت اثقال الويلات والمصائب فقالت في نفسها ما اظن الخطر بمقدار ما يتوهمه اخي وانا اعرف طبعه فصبراً فلا بد ان افوز ولا تحول دون مرامي الموانع وانا قينة ولست من النساء اللواتي يأخذ الفشل بغوادهن ويذهب بصوابهن وما قاسيته فيما مضى ليس باخف مما حضر

ومن ثم اتعشت قوتها وعاد اليها رشادها واستعدت للدفاع ورفعت رأسها لتسأل قيناً عن بعض امور فدخل المعلم اللوزي ومعه ادوات الغداء فلم يمهله قين حتى رتب الصحف التي فيها الطعام وتناول من يده قينة الخمر وصب منها قدحين ضخمين وشرب ثم تناول كسرة من الخبز وصار يأكل بشراهة

فقال اللوزي في نفسه هوذا رجل من شر الناس وهيبته تدل على قبح حاله فان كان رفيقه اللطيف لم يرق له ضميري فكلم بالحري هذا اللفظ اللئيم . فيجب ان اطعم سيدي لؤلؤاً على هذه الاخبار . ثم خرج وقد كاد ظنه يتحقق فقالت قينة لقين اطلعي الآن على ضميرك واكشف كل الاسرار تقول ان

تنكريد وقاروناً في فرنسا هذا من اعجب العجب . كيف وصلاً وماذا يقصدان . وهل
رأيتهما بعينك

- رأيتهما نعم يا لسوء الحظ واسراني ايضاً ولولا معونة الله وسعد طالعي لم انجُ
من شركهما

- كل هذا لا يهمني لكن هل علما اني اتخذت اسم ايسة واني في قيد الحياة

- يعلمان اكثر من ذلك

- من اعلمهما لعلك بوقوعك في اسرها ضعف عزمك واقررت بكل ما جرى

- لم املك نفسي يا اختي . شاهدت الموت بعيني . اضطرت الى الكلام وحاولت

الكذب فعلقا حبل المشنقة كلنهما علما من غيري

- يا شقي يا تيمس يا منكود الحظ ما الجأك الى الاباحة . المشنقة . تباً لك من جبان

محب نفسه . تف لطباعك وتصرفاتك . هل علم تنكريد وقارون بكل ما جرى واني

اليوم هنا متجسسه اخبار لؤلؤ

- علما كل شيء . لا تلوميني . من يرى الموت بعينه ويبقى على صوابه فسيأتيان

هذه البلاد بلا تردد ويرقبانا والله يعلم ما يكون . الحمد لله قد سبقت بثلاث ساعات .

نجوت بعد الفجر واسرعت المحيى فسيطلباني ولا يجداني ويدخلان المدينة يسألان

عني فتمضي عليهما على الاقل ثلاث ساعات قبل ان يقصدا المحيى الى هنا . فالوقت

معنا كافٍ للفرار

- تباً للجبان الخسيس . أتقول الفرار يا نذل افرّ واترك خصمي . بالثار قيام حياتي

ولومت بعده بدقيقة . اليك عن الفشل وشخافة العقل . قد عرفني قبل الآن وتريد

ان اكون كما انت يا اخس الرجال . دع عنك الخيال . ابق على طبعك الخسيس وانا

لا ازال كما كنت . قينة . اختك قينة التي تعرف دهاءها وحسن تديرها . سأركب الاخطار

كما ركبتها فاما الهلاك واما الفوز . ولا يكون الا ما اريد ان شاء الله وقد جر بطني مراراً

وعرفت مدارجي فان شئت الهرب فامامك الفلاة ودعني وشأني

- يا ويلاه . اتركك يا شقيقتي يا ركن حياتي . اموت تحت قدميك واخدمك

بكل قوتي

- فلا تخف اذن سأنتشك من الورطة ولو وقعت فيها واكف عنك الاذى كما
اكفه عن نفسي

- وانا لك مطيع ولكلامك سامع ولا مراك رهين . العفو يا شقيقة الروح
- فقم الآن الى غداك قد ضاق الوقت ويجب ان نسعى
- اي سعي تختارين

- نرجع الى المدينة التي خرجنا منها البارحة في نفس العجلة التي ايتت فيها
- يا اختي لا استطيع ركوبها قد تلاشت قوتي في هذه المرحلة
- يا قين اسمع ما اقول لك . والا فارحل مزوداً سلامة
- بل اسمع واطيع . ما الخيلة . عزمك لا يتزعزع

ثم جعل يلثم الطعام ويشرب القدح قدحين

فحينئذ دعت قينة بصاحب الفندق ودفعت اليه مبلغاً جسيماً قيمة ما صرف عليها
وعلى ابن عمها (اي قين) في فندقه ثم قالت له ان يخبر سائق المركبة بتحضيرها
للرجوع فيها الى البلدة التي اتت منها . فمضى ورجع بعد ربع ساعة وقال ان السائق لا يرجع
هذه الليلة لان الخيل لا تستطيع المسير والشقة طويلة فقطبت قينة حاجيها وقالت له
قلت لي ان رجلين من فلاحي البريتون قدما على خيل نظير فرسي قال نعم قالت فقل
لاحدهما ان يأتي اليّ فاكله فاما ان يبعني فرسه او يأجرني اياه ونذهب انا وابن عمي
على الخيل . فمضى اللوزي وفعل كما امرت وحضر احد الجنديين فكلمته وامرته ان
يبقى هو ورفيقه في الفندق ينتظران رجوعها

وبعد نصف ساعة كانت الخيل مسرجة فركبت هي واخوها وسارا مسرعين فكان
قين يقاسي العذاب من مشقة الطريق وخرجه وراءه . ولكي يسلي نفسه صار يخبر قينة
بكيفية اسره وتخلصه من السفينة وما يتعلق بذلك

الفصل السادس والثلاثون

« تدابير ابليس »

اعوذ بالله من الشيطان الخناس الذي يوسوس في صدور الناس
كانت قينة سائرة في الطريق تشاهد عنياها مناظر الطبيعة وفكرها بعيد عنها جداً .
وهي تتأمل في كيفية التوصل الى الغاية المطلوبة . التخلص من قارون وتكريد والقبض
على لؤلؤ . الى ان وصلا الى جسر من حجر مبني من قنطرة واحدة يجري تحته سيل
عنيف بين قطع ضخمة حادة من الصخور في وسط واد عميق كثير الاشجار والعوسج
يقال له وادي الجن والطريق في لحفي الجبلين عن جانبي الوادي متعرجة كثيرة الخطر
وليس للجسر المذكور حواجز عن جانبيه فإذا اتفق للفارس او المركبة ان عثرت الخيل
عثرة تهور في ذلك السيل وتنكسر على الصخور ولا سيما بقوة جري الماء وبالاختصار
لا يمكن لمن يسقط عن ذلك الجسر ان ينجو من الهلاك

فلما انتهت قينة الى وسط الجسر اوقفت فرسها وصارت تلتفت يمينا وشمالاً
وتأمل وتدقق النظر في مجرى السيل وتعرج الطريق المظلمة بالاشجار القديمة المهده وهي
ملتفة مستشبكة حتى لا تخرقها الشمس
فقال لها قين ما وقوفك يا اختاه
- أتراني غير متفرجة ؟

- هذه الاماكن تستحق الالتفات فليس نحس منها على ما اظن ولا اشد خطراً
من السير على هذا الجسر فحينما افكر اني مررت عليه بالمركبة وهي سريعة المسير
يرتعب قلبي وأعجب كيف نجونا من احواله ولو لم تكن المركبة مطبقة لسقطت رعباً
- من العجب بالحق نجاتكم والمركبة سريعة الجري
- الحمد لله الحمد لله الف مرة

- ما تقول يا اخي في من اراد التخلص من عدو ووفق الى تهويره من هذا
المكان الشاهق الذي لا يكون ارتفاعه اقل من اربعين قدماً يتكلف تعباً حتى ينال بغيته

فكان قين يسمع كلامها وهو مبهور وحاول فهم هذا السر ثم قال لها :
 - فهمت يا داهية فهمت مرادك . واهاً ما احذقتك واحسن تدابيرك قد تخدعين
 رئيس الالبسة

فلم تجب قينة بشيء وعلمت ان مكيدتها تصادف توفيقاً واستمرا سائرین الى ان
 وصلا الى الفندق وكانت في الليلة السابقة قد نزلته وابتقت فيه امتعتها فدخلت حجرتها
 ودعت بصاحب الفندق وقالت له اعلمني هل غير هذه الطريق للقاصد من جهة هاور
 الى الناصرية قال لا طريق الا في البحر او النهر ولطول المسافة يختار المسافرون هذه
 الطريق لقربها

- واين محطة خيل البريد
- في هذا الفندق نفسه
- كم فرس عندك من الخيل لهذه المصلحة
- خمسة رؤوس استخدمها غالباً لحرثة الاراضي وقلما احتاج اليها لجرّ المركبات
- فأنا استأجرها جميعها فتكون مذ الآن على حسابي لا تصرف بها الا بارادتي
- الى كم يوم
- الى مدة غير معلومة تأخذ اجرتها مياومة
- ليس هنا الآن غير اثنين والثلاثة الاخرى في الناصرية اوصلت هذا الرجل
 الذي عاد معك وترجع هذا المساء
- فلتكن كلها من هذه الليلة على حسابي
- واذا حضر بعض ابناء السبيل
- تقول لهم ان خيلك غائبة وترجع بعد ساعة او ساعتين ثم تأتي وتعلمني فيتغدون
 عندك ويسافرون وفي ذلك مصلحتك كما ترى فلا يمر احد الا ويلتزم ان يأكل
 عندك ويسافر بخيلك
- قد شغلت خاطري يا سيدي فأظن في الامر دخيلة لم ادركها
- لا يعينك ان تعرف اسرار الناس . لكن لكي يستريح فكرك اخبرك اني قدمت
 من قبل المحكمة لمراقبة بعض اصحاب الجنائيات الكبرى ولكي تتحقق صحة مأموري

اطلعت على السجل الذي بيدي لهذا الشأن ثم ارته الاوامر التي معها من محكمة هاور وقد تقدم ذكرها فانحنى الرجل امامها اشارة الى الخضوع التام . فقالت له واطلب منك الآن الكتم التام لان الخلل في مثل هذه المصلحة المختصة بالبلاط الملوكي ضرر على المملكة عموماً والذي يساعد على مثل هذا الضرر انت ادري بعقابه فاذا مر الرجلان اللذان انتظرهما ونزلا هذا المنزل فلا يجوز ان احداً في الدنيا يلمح امامهما عن وجودي هنا ولا ان يرمز ليهما بشيء يندل على مراقبتي اياهما ولا ان يعلما اقل اشارة من مثل هذه الامور . قال فهمت يا مولاي ولا تجديني الا طائعاً لكن اليس علي ان اعرف صفة هذين الرجلين لاندرك بهما

- لا يعينك ان تعرف شيئاً بل عليك فقط ان تخبرني كلما وفد عليك احد فاذا طلب خيلاً تجيبه بما ذكرت لك وتأتي اليّ ولو في نصف الليل

- السمع والطاعة

- هل عندك حجرة اخرى تتصل بهذه

- نعم عن يمينها والباب مقفل من الجهتين

- فاجعل هذه الحجرة لرفيقي وانزل فادعه اليّ في الحال

وذلك لان قيناً دخل حالاً مكان الاكل وشرب قينة من النبيذ واكل شيئاً من الطعام وهو كما لا يخفى قاتل بطنه واسير سكره . وكان خرج المال الزم له من ظله اينما حل احله بجانبه فلما دخل حجرة قينة قال لها ناشدتك الله يا اختي الا تركتني استريح هذه الليلة لاني قد اعيتت من مشقة الطريق

- راحتك متوقفة على حركة تنكريد وقارون فاذا لم يأتيا هذه الليلة تستريح . والآن يجب ان تذهب في مصلحة

- الى اين اذهب وانا لا استطيع حراكاً

- قلت لك يجب ان تطيع امري

- واذا اتفق بجيئها بقتة ورأيتني في الطريق او السوق

- لا خوف من هذا القبيل فالليل ارحى سدوله فلا يعرفانك والازقة ضيقة يمكنك

الاستتار بها حالما تسمع صوت مركبة

- لا حول ولا قوة الا بالله والله مع الصابرين . وما الذي تكلفيني به
- تذهب الى دكان جبال وتشتري جبلاً متيناً طويلاً
- ويلاه وما تقصدين بالحبيل فقد ارتجف بدني عند ذكره لاني طول حياتي لا
- انسى ذلك الحبيل الذي كدت اعلّق به ولا الحبيل الذي اوثقني به قارون ولا الذي
- ربطت به يداي في سفينة تنكريد . وبالاجمال فلا استطيع ان اسمع بذكر الجبال الا
- وتعروني رعدة واني لا ازال اتوقع مخاوف الحبيل
- ما هذا الجنون . اي خوف عليك اذا تخلصت من تنكريد وقارون
- هذا الذي يجبرني على الامثال لان التخلص منهما كالتخلص من ابالسة النار .
- لكن احترزي على خرجي اياك اب تغفلي عنه دقيقة او تفارقيه دقيقة اياك يا قينة
- هذا قوام حياتنا
- طيب قلبك وامن في الحال
- فما غاب اكثر من نصف ساعة حتى حضر ومعه الحبيل المطلوب وقال لها قد
- اتيكت باحسن ما يكون واقسم لي البائع ان قوة واحدة منه (اي طاقاً واحداً) كافٍ
- لربط ثلاثة رجال معاً . لكن بجياتك يا أخية قولي لي ما تصنعين به
- يكون آلة خلاصنا
- لا تكلميني بأغاز . صرّحي
- سترى بعينك كيف بنقذنا من الهلاك ويكون لنا وسيلة النعمة
- متى يكون ذلك
- الآن ما اعرف وما اظن الوقت يطول حتى ينقضي الغرض فاذهب الآن ونم
- لعلك تستريح بضع ساعات واحذر من ان يكون نومك الا كنوم الذئب . باحدى مقتلتيك
- فدخل الحجر الملائمة لحجرتها ولم تمض خمس دقائق حتى سمعت غطيطة
- كدحرجة دولاب على الحصى المتقلل . واما هي فانظرحت على متكأ واستمرت نحو
- ساعة غائصة في افكار عميقة ثم نهضت وغيرت لبسها ولبست البدلة الثالثة التي تظهر بها
- كاحد ابناء البلاط الملوكي ثم استلقت على فراشها ولم تظني القنديل فلم يزرها النوم الا
- لاماً والهواجس تتجاذبها

فلما كانت الساعة الثانية بعد نصف الليل سمعت حركة شديدة فوثبت واصغت وكانت هذه الحركة حادثة عن خيل تجر مركبة ووقفت امام الفندق . فاخفت القنديل في زاوية الحجرة واقبلت الى النافذة واسندت جبينها على الزجاج وكان الظلام حالكياً والزجاج كدرّاً فانفق ان الخادم خرج ويده قنديل صغير فرأت رجلين ملتفين بكساءين كبيرين قد نزلا من المركبة ودخلا الفندق . فلم تكن غير دقيقة حتى قرع بابها قرعاً خفيفاً ففتحت ورأت صاحب الفندق فقال لها يا سيدي وصل الآن رجلان

- عرفت ذلك قبلك

- وطلبنا خيلاً الى الناصرية فاجبتهما حسبما امرتني فتكدرا ودفعا للسائق ديناراً احمر على ان يستمر سائراً بها فغمزته فامتنع

- حسناً عملت يا صاحب المروءة

- فعرضت عليهما ان يجلسا للاكل ريثما يمضي الوقت وتأتي الخيل فجلسا

- ما صفة هذين الرجلين

- كلاهما شابان احدهما ظريف الشكل لطيف المنظر عليه زي امراء البحرية والآخر اسمر شديد السمرة كلامه غريب المتقطع

- عرفتهما هما المطلوبان

- واذا شئت يا مولاي ان تراهما بدون ان يرياك فالواسطة سهلة تتسلل من

وراء نوافذ قاعة الاكل فلا ينتبهان اليك في الظلام الخالك

- سقياً لحذقك يا صاحبي فامض امامي

فنزلا امامها ولحقتهم حتى وقفت في صحن الدار وتلصصت من النافذة فكان أمير

البحر دائراً اليها ظهره والآخر بأزائه فتفرست فيه ونكصت بسرعة قائلة هذا قارون

وكانها خافت ان تدركها ابصاره في وسط الظلام . فقال لها صاحب الفندق أهما

المقصودان قالت نعم

- هل تأمر بالقبض عليهما

- اياك ان يخظر هذا ببالك لان المراد مراقبة مسيرهما ولا يمكن ان اقبض عليهما

قبل دخولها الناصرية

- فما عمل أنا الآن
- خذ هذه العشرة الدنانير جزاء لاماتك وغيرتك
- وَيْ وَي يا مولاي ما هذا الكرم الحامي
- خذ ولا تخالف هذا من كرم الملك
- وأنا عبد لمولانا الملك . وانتظر اوامرك
- اسرج فرسي وفرس رفيقي بيدك وامض بهما الى بُعد مئة خطوة من هنا في طريق الناصرية . واياك ان يشعر أحد بصوت أو حركة
- اني الفُ حوافر الخيل باللباد فلا يسمع احد صوتاً
- حسناً تفعل
- وما يكون من امر الرجلين
- بعد ساعة واحدة لا اقل ولا اكثر تقول لهما ان خيلك جاءت وتقطرها بالمركبة وتسيرهما
- السمع والطاعة
- وذهب الرجل لعمله وصعدت قينة الى حجرة قين فأيقظته فوثب مذعوراً وهو يقول . ماذا . ماذا حل . جرى حادث غريب في هذا المكان فقالت قم ويحك يا جبان قد أتت الساعة والعدوّ بالباب
- فانحطف لونه وقال ويلى قارون وتكرىد قالت نعم قد وصلا الآن . فدب الرعب في قلب قين ولم يستطع الوقوف على رجليه وجرى العرق بارداً على جبينه فقال وهو يرتعد . واأسفاه هلكننا . الفرار . الفرار قبل فوات الفرصة . فضحكت قينة وقالت له يا مجنون ألاّ جل الفرار نحن نترقبها . أنسيت ما نحن فيه . شدد عزمك فلا تمضي ساعة الاّ وقد اهلكننا عدونا . وكان قين يثق بكلام اخته فسكن خوفه وتمنطق وقوى قلبه وقال ما نفعل الآن قالت خذ الحبل واتبعني . فحمل الخرج على كتفيه وتأبط الحبل ومشى وراءها وهو لا يدري الغاية . فاجتاز الدار ولم يصادفها احداً واستكشفا حالة المركبة التي أتى بها قارون ورفيقه وتقدما حتى بلغا صاحب الفندق والفرسان معه فوضع قين خرجه على فرسه وعلق به الحبل وركبت قينة ومشيا ورجع صاحب الفندق

وهي تقول له بعد ساعة لا أقل ولا أكثر اياك ان تخالف

ولم يزالا يتقدمان حتى بلغا مكان الجسر فترجلت قينة وامرت أخاها ان يترجل وقاد الفرسين ور بطاهما في شجرة بعيدة وامرته ان يحمل الحبل ويرجع الى الجسر فقال لها أو تترك الخرج قالت هو في أمان وأنا اكفل دع عنك الجنون واجمع رشك فأجاب بالسمع والطاعة ومشى وراءها فوصل الى رأس الجسر وكان هناك منعطف من الطريق صعب المسلك ولا سيما اذا كانت الخليل سريرة الجري والاشجار على الجانبين كثيفة والظلام حالك يستر كل شبح بين تلك الاشجار وخرير الماء شديد جداً لا تسمع معه اشد الحركات ففي ذلك المنعطف أمرت قينة أخاها ان يشد الحبل من شجرة الى اخرى مستعرضاً فوق الجسر على علو ذراع من الارض فشدته شداً وثيقاً واحكم عقد اطرافه في جذع الشجرتين ومد طاقاً آخر منه على بعد نحو ذراعين من الطاق الاول وقال لها قد أحكمت العمل حتى اذا مرراً اقوى الخليل فلا بد ان يقطع الحبل او يكسر الشجرة او يتعرقل ويسقط والعقد لا تنحل . قالت احسنت جداً ويحق لك الجزاء غير ان التحفظ التام واجب من كل وجه فلو فرضنا ان قاروناً وتكريداً تخلصا من هذه الورطة فما التدبير

- انت المدبرة فمريني

- كم غدارة معك

- اربع

- اعطني اثنتين واحفظ بيديك اثنتين . فاذا لم يسقطا رميناها بالرصاص واحتفظ

على ضبط التصويب فالظلام خداع . لا تطلق الا على يقين

- نعم . وما نعمل الآن

- نختفي بين الاشجار وننتظر

ثم حادا عن الطريق وجلسا على جذع شجرة مقلوعة بعاصف واقاما ساكتين والجسر تحت نظرهما وكانا يصغيان اتم الاصغاء فلم يسمعا اولاً الا خرير الماء وحفيف الشجر وصوت البوم فقال لها قين اتذكرين يا اختي ليلة نظير هذه قالت اية ليلة تعني قال الليلة التي فيها كنا جالسين تحت ذيل الاشجار قرب بيت القمار في مدينة هوانة وكنا

مترقبين كالآن قدوم احد الرجلين القادمين هذه الليلة لكن الفرق اننا هناك كنا قاصدين اتقاذ حياة تنكريد واما الآن . . . فقطعت قينة كلامه بجفاء قائلة دعنا من هذا التذكار يا مشوم فلست انا الساعية بهلاك هذا الرجل بل قضاء الله هكذا حكم ولست حاملة عليه حقداً كما تعلم بل أتأسف عليه واودد لو استطعت خلاصه غير ان هلاكي بخلاصه فما اكون الا مدافعة عن نفسي والعدو القاتل لا يدفع الا بالقتل فقال لها اتلوميني وتعيريني اذاً وانت تعرفين بالاختبار ان القاتل صادق بقوله عن الانسان ولا يجب غير نفسه فما احبه فهو الى النفس انتهى

افرايت ان ليس للانسان اثن ولا اعز من النفس . قالت لكل حادث حديث والحديث ذو شجون فما بالعار تحيا النفوس . . . اسمع اسمع . يخال لي اني اسمع صوت مركبة . فاصغى ثم قال وقد طرق اذني ايضاً لم تخدعك اذنك

وكانت المركبة قادمة بالحقيقة وصوتها يقلق الليل الهادي وسوط السائق يلطم الهواء بفرقة شديدة وهو يترنم بترنيمه قديمة العهد غير حاسب هو ولا من معه لمفاجأة الدهر حساباً وكانت الخليل جارية خبيبا وهي هاوية في لحف الجبل قادمة الى هلاكها فوق الجسر ففي اقل من ربع ساعة بينما السائق يترنم بترنيمته والليل راكبة رؤوسها لا يرد لها جناح وصلت الى رأس الجسر مندفعة كالسيل فتعرقلت بالحباله وسقطت بعنف ثم انقلبت هي والمركبة الى ذلك الوادي العميق فوق الصخور الحادة فسمعت لها في الماء هدة قوية . وفي اقل من دقيقة عاد الماء الى مجراه واتقطع كل صوت سوى خريره وقد نفذ المقدّر

فقالت قينة لახيها طيب قلبك الآن وبت قرير العين فقد هلك من تخافه . فجمد قين كالحائر دأب كل قاتل عند اتمام فظاعته . الهام يتقل به الله ضمير الجاني ليبقى متحيراً مبهوتاً

وحينئذ قامت قينة من مكانها وتقدمت الى الجسر لتشاهد ذلك المصراع الهائل وتبعها اخوها فرأى الجبال مقطعة والليل والمركبة والركاب قد ابتلعهم اللجة وحطمتهم الصخور . فقالت انزع قطع هذا الجبل واطرحه في السيل لئلا يكون علينا شاهداً اذا خان الزمان ففعل ما امرته ثم قال لها افلا نمضي الآن قالت نصبر ايضاً الى طلوع

الصباح لنشاهد باعيننا جثث اعدائنا ونذهب براحة بال قال افلا نمضي ونأتي بخيلنا
 (قال هذا وقلبه على الخرج) قلت لا بأس فمضيا ووجدنا كل شيء في مكانه فاطمان
 قلب قين . ولبثا يتحدثان الى ان انبثق الفجر وافلت النجوم وظهرت تبشير الشفق
 ثم انجلى الصباح فتطلعا الى الوادي فرأيا بين الصخور الحادة جثث الخيل المحطمة
 وبقايا المركبة وجثتين بشريتين لا يعرف لهما رسم مما مرزقهما الصخور بتلاطم السيل
 فاحدقت قينة النظر واذا هما جثة امير البحر والسائق واما جثة قارون فلم توجد فقالت
 لا بد ان السيل يكون قد جرها الى مكان بعيد فعبثاً نحاول التفتيش عليهما ومن المقرر
 ان الذي يسقط في هذه الهاوية لا يتيسر له الخلاص بوجه من الالوجه
 وهكذا استراح بالها واطمان قلبها وقد ايقنت انها اهلكت الاعداء فامرت
 اخاها ان يركب وركبت هي وقالت هلا يا قين لم يعد لنا هنا شغل ولا اقامة وما بقي الا
 مطلوب واحد في الناصرية والذي قدر لنا النجاح هنا يقيض الفوز هناك

الفصل السابع والثلاثون

« ملاك النور وملاك الظلام »

بعد ما وصلت قينة الى الناصرية واستراحت بضع ساعات في فندق اللوزي
 قامت تسعى في اتمام مقاصدها الشريرة فتوجهت رأساً الى منزل نور لتستقصي منها
 الاخبار فتنبه ضمير اللوزي بمسيرها هذا كما تنبه في اليوم السابق وقصد ان يقفواثرها
 واذا بضجة عظيمة قد ارتفعت في الفندق بسبب جماعة من البحرية السكرارى وكاد
 الدم يجري بينهم وهموا باحراق المنزل فاضطر الى البقاء لتلافي الامر واتحاد هذه الفتنة
 واما قينة فاستمرت في طريقها الى ان دخلت الحديقة النورية وكانت سليمة
 واقفت تحت شجرة تفاح تنثر الحب للطيور فلما وقع نظرها على قينة وهي بزى الرجال
 توقفت وتقدمت نحوها خطوات وقالت ما تريد يا سيدي

- اطلب مقابلة مولاناك

- هي الآن في البيت فاصبر حتى ادعوها

- لا لزوم لتكلفتها المحيى فانا امضي معك اليها

فلم تبالي سليمة بهذا الكلام وارتكضت ودعت باعلى صوتها قائلة يا مولاتي نور هنا شاب لطيف شريف يريد مواجعتك . فلم يكن الا كنعبة طائر حتى اقبلت نور بيهاثها المعروف وهشاشتها المألوفة وهي تسأل نفسها من عسى ان يكون هذا الشاب الذي ما وقع عليه نظري قبل الآن

فاما دنت نور من قينة هرعت هذه الخبيثة اليها وضمت ذراعها على بدنها واعتنقتها وقبلتها تكراراً بشوق شديد فاحتارت نور وأخذتها الجحمة ولم تقدر أن تتخلص منها . وأما سليمة فبقيت مبهوتة كأنها في حلم واشمازت نفسها من هذا المنظر المريب وقالت في نفسها يا للعجب ماذا ارى من أين هذه الحرية المطلقة وكيف مولاتي صابرة عليه يا للعجب يا للعجب هذا مما لا يطاق

ولما خلصت نور من أيدي قينة ارتجعت الى الورااء نافرة وقد صارت وجتها كالقمرمز وكاد الغيظ يخنقها وقالت وصوتها يرتجف غضباً وخجلاً . هذه جسارة فائقة الحدود . هذه قحة لا عهد لها بين الادياء . من تكون ايها الشاب وماذا اعترى عقلك حتى عدوت طور الانسانية او انت من رذالة الناس . فاخرج من هنا

فقال سليمة بنفسها ما قصرت مولاتي وان ابي الآ البقاء رميته بالتراب والحصى وخدشت وجهه هذا اللطيف . ليس عليه سمة الاو باش . يا عجباً فما هذا الفعل القبيح . وأما قينة فلم تبالي بغيظ نور وبقيت واقفة في مكانها فازداد غضب نور وهمت بشتها وقد احمرت عيناها وصار بدنها يرتجف . ففي الحال رفعت قينة البرنيطة برشاقة وأسدت شعرها وقالت وهي تضحك . يا عزيزي نور انظري الآن . ففترست نور في وجهها وشعرها فانجلى لها الصحيح وعرقها وارتكضت اليها واعتنقتها قائلة . اينسة . صديقتي اينسة

- نعم أنا هي . أنسيتني وفضلك علي يا نور

- كلاً ما نسيتك لكن استعربت زيك واستهجت فلك . وشوقي اليك

شديد لو تعلمين

- اعلم ذلك وقلبي دليلي . ما كنت افتر ساعة عن ذكرك . وقصدت ان امازحك

بهذا الزني الغريب فلا تؤاخذيني

- ولكن هذا المزاح قد اربعني جداً
- و بأي لسان تقولين لي اخرجي من هنا
- ومن يعلم ان هذا الثوب يستر امرأة وان هذه المرأة صديقتي
- نعم يصعب علي كل احد ان يعرفني وانا بهذا الزي
- فما معنى هذا التخفي
- سأوضحه لك والآن فلتحدث عن احوالك
- بل اشتهي ان أتعرف احوالك اولاً فلندخل البيت ونشرح صدورنا فتخبريني
- عن كل ما جرى لك
- ثم اخذت بيدها وصعدت معها ودخلا الغرفة وقالت نور ابتدئي يا اينستي وشفي اذني بلطف احاديثك
- قصتي لا تقتضي اسهاباً وخلاصتها في ثلاث كلمات . تزوجت وانا غنية لكن تعيسة
- ما هذا يا اينسة افلا تحبين زوجك والآن فمن اين لك التعاسة
- لا يستحق زوجي التفات امرأة نظيري فقد ارتكب جنایات ترتعد فرائصك من ذكرها . قتل وهرب والحكومة ساعية الآن في طلبه
- ويلاه ما هذه الهاوية الجهنمية . مسكينة يا اينسة انت ممن يرثي لهم
- ثم انحنت عليها وصارت تضمها وتقبلها . و بعد دقيقة قالت لها قينة وانت يا عزيزتي نور قصي علي ما جرى لك عسى ان لا يكون اصابك الا السعد وهناء العيش
- كنت سعيدة في وحدتي والآن سعيدة باقتراني
- متى تزوجت
- منذ اسابيع
- عسى ان يكون بعلك محبوباً
- احبه كمنفسي ان لم اقل اكثر
- فرحت قلبي بهذا الخبر وانت تستحقين كل خير فما هي صفات هذا الرجل العزيز
- شاب لطيف ظريف كالامير شرفاً والملاك لطفاً يسكر بمحبتتي
- هينئاً لك لولا حبك الراسخ في قلبي لقلت اني احسدك واما الآن فاغبطك

- يا ليت السعادة تقسم لاهبك قسماً عظيماً من سعادتِي يا حبيبتِي ائيسة
- اشكر فضلك من كل قلبي واسأل الله ان يديم لك السعادة . افلا تتكرمين عليّ بمعرفة شخصه فقد شوقتي الى مشاهدته
- عجباً من تعاكس الظروف منذ تزوجنا لم يفارق البيت الا اليوم خرج من الصباح ولا يعود الا مساءً فغداً ترينه ان شاء الله . افلستِ مقيمة هنا اياماً
- ما اظن وعلى كل حال اكون غداً هنا . وما يعمل زوجك يا اختي
- لا يعمل شيئاً يجبني وكنتي . وكان قبل الاقتران يتعاطى فن التصوير والرسم ويبدع
- أغني هو
- لا والله الحمد
- ألا تحبين المال
- ما حاجتي به وكل متمناي عندي ولو كان زوجي من اصحاب الثروة نخشيت فتور الحب والآن يكتفي بي واكتفي به
- اذن لا بد ان يكون شريفاً لانك من سلالة عائلة شريفة
- شريف القلب والصورة
- وكيف تزوجته على خمول نسبه
- واي فخر لي بالشرف وانا فقيرة وحيدة في هذه الزاوية من البلاد او تقوم الحجة الطاهرة والوداد الصافي بشرف النسب ومع ذلك احسبه اشرف من ابناء الملوك .
- عصامي حرّ ولا عظامي حرّ (١)
- هذا اطراء غريب يا نور
- هذه دواعي الحجة الخالصة
- وما يكون اسم هذا البطل الغريب المثل الآخذ بمجامع قلبك وسيد افكارك ولبك
- ليس لاسمه شهرة ربما تقولين لم اسمعه في حياتي ولو كان من مدينة بعلك

(١) العصامي كناية عن يتشرف بأعماله والمعظمي عن يرث الشرف عن آباءه والغرّ الجاهل النبي

- أمن هاور هو

- نعم

- فقد شوّقتني الى معرفة اسمه

- اسمه لؤلؤ لوليان

فلما سمعت قينة ذلك ظنت ان احشاءها تتمزق من كظم حقها غير انها ملكت نفسها وتجلدت وتجلدت اباطال المحنكين . وقالت بذاتها ايتزوج مرتين الخائن ويرتكب جريمة المضارة ويعلم ان وراءها الموت . هذا مما لا يطاق

وبعد هنيهة صارت تسأل نور اسئلة مختلفة وتحتلس منها الاجوبة الشافية بهذا الشأن . وقالت في نفسها قد حل غضب الله وجل عقاب الخائنين ظن اني اعجز عن ادراك ثاري فارتكب جناية اخرى اتسلح بها فلا مناص بعد الآن . ما بيدي العفو ولسوء الحظ ستحمل هذه المسكينة اشد الآلام وما عليها في عملها من ملام خدعها وخدع نفسه ولكن هكذا قدر الله وقضى عليها بالتماسة

ورأت انه يثقل عليها البقاء في منزل ستهدم اركانهُ بصواعق الرزايا والعار وصعب عليها جداً ان تكون هذه مكافأتهما لمن انتشلها من البلاء العظيم وافاضت عليها احساناتها فرأت من اللزوم ان تخرج من هذا البيت الطاهر الذي دنسته بوجودها واخذت يد نور مودعة فقالت لِمَ السرعة يا عزيزتي

- لا اقدر ان امكث اكثر من ذلك

- متى ترجعين

- غداً ان شاء الله

- ألك شيء من المصالح هنا

- لا يخالو الامر

- مصالح مهمة

- مهمة ومكدره

- عسى ان لؤلؤا يقدر ان يساعدك في بعضها فيكون لنا الحظ الحسن

- اشكر همتك لكن لا حاجة الى هذه الثقله

- متى اتى زوجي اخبره لعله يقنعك بلزوم مساعدته
- لا يكون له دخل في مصالحني . وهل يأتي هذه الليلة بلا شك
- لا شك في ذلك واما ساعة قدومه فما اعرفها واستنظر الى الساعة الثالثة من الليل واخبره بمقابلتك وانك ستأتين غداً
- اياك يا عزيزتي

ف نظرت نور اليها متعجبة فقالت قينة لا تعجبي فقصدي ان اعمل بك غداً ما عملت اليوم بنفس زيني هذا على مرأى منه فتقضي ساعة ضحك ومزاح لا تثنى وتخبرين سليمة ان لا تنذر بقدومي حين آتي وحال وصولي تقومين بسرعة وتعطينيني وتقولين لزوجك هوذا احد اصحابي الاعزاء اعرفك به . فترى ما يكون من امره ثم تنكشف له الخبية

- احسنت احسنت يا انيسة سيكون مشهداً لذيذاً غريباً

وحينئذ انفصل ملاك الظلام عن ملاك النور وقد عقلت نور بجمالة هذه الخداعة ورجعت قينة الى مقرها وهي تقول اي جنون اصابك يا زوجي المسكين اتزوج امرأة قبل ان تتحقق موت امرأتك فقد سعيت الى حتفك بظلفك وعلمت بيدك جبل مشقتك فاذا نفيت عن نفسك تهمة القتل فكيف يمكن ان تنفي جريمة المضارة . وقد خدع هذه الفتاة النقية وغرّها بسلاسة حديثه وراح ضميرها ببرقشة كلامه يتلذذ بشهواته قاتله الله ما امكره واخبت طباعه . « ولا ظالم الا سيبل باظلم !!! »

ثم وصلت امام الفندق فرأت الجنديين جالسين على مسطبة يدخان بالغليون فتجاهلا بمعرقها حسب امرها فغمزتهما وتقدمت امامهما الى ان بلغت شاطئ البحر فتأثراها بخفية وصارا على قيد عشرين قدماً منها فاشارت اليهما ان يجلسا هناك وقالت لا تلتفتا الي بل اصغيا الى كلامي . هل تسمعان . قالوا نعم لا نخفي علينا كلمة

قالت ليض احدكما الان الى الفندق ويدفع حسابه ويركب ويدخل البلدة التي دخلناها اول ليلة في قدومنا في عبر وادي الجن فيخلع هذا الزي ويلبس زي الاصلي الجندي ويقصد ضابط الفرقة هناك ويطلعه على الاوامر ويطلب منه ستة انفار فيأتي بهم وينظرني الساعة الثانية من الليل على مسافة غلوة من هنا

فقام احدهما ومضى في هذه المصلحة وقال لها الآخر وانا ما تأمرني مولاتي قالت
اريد ان اعلم هل صلى كاهن هذه البلدة صلاة الاكليل بين لؤلؤ ونور في مدة هذين
الشهرين فاذا قال نعم اريد ان اقف على صك الزواج فتأتيني بنسخة منه وفي الساعة
التي ذكرتها لرفيقك تنتظرني في المكان الذي عينته له . قال السمع والطاعة ومضى .
ومضت هي الى فندق اللوزي تدبر امورها وتتسمم الاخبار

واما لؤلؤ فذكرنا انه خرج من منزله قاصداً احدى المدن القريبة ليستخبر عن
سفينة مسافرة الى اميركا في اقرب وقت فبقي كل النهار يسعى حتى عرف ان سفينة
تسافر بعد ثلاثة ايام الى كالكتا مدينة الهند فقال لا فرق بين الهند واميركا اذ القصد
الوحيد ان ابعد عن هذه البلاد بعداً شاسعاً . فقابل رئيس السفينة وكلمه في شأنه ودفع
له نصف النول على ان يركب هو وامراته في الوقت المعين . وعاد في طريقه عند الغروب
وصار في الطريق يناجي نفسه بافكار مختلفة فقال بعد ثلاثة ايام سلام على كل
هذه البلاد وقد اتفت مخاوفي وتبقى هذه الاخبار الحقيقية التي تنغص عيش نور مخفية
عليها ومن يعلمها في بلاد الهند شيئاً من اموري واعيش واياها في رغد العيش ولا يصل
الينا طارق شؤم ولا اسف على الوطن فوطن الانسان حيث مدب قلبه ولست اطلب
من الدنيا غير نور فما دامت معي فخيماً كنت فهناك وطني . وما احسن قول القائل

ونفسك فز بها ان خفت ضيماً وخلّ الدار تنعي من بناها

فانك واجدٌ ارضاً بأرض ونفسك لم تجد نفساً سواها

وما أظن الباحثين عني الآن يقدرّون ان يدركوني في هذه الايام القليلة فلا
يصلون الى هذه البلاد ويسألون ويبحثون ويقررون حتى اكون قد حصلت في
بلاد الهند

هذا ما كان يحسبه لؤلؤ ويعتقده ولم يدُر في خلدِه ان رسالته الى نسيم تقع
ثاني يوم وصولها بيد قينة فتأتي بأسرع من هبوب الريح وترصد طريقه . ولولا ذلك
لنجا لا محالة

وفيما هو غائص في تأملاته المختلفة والفرس تحته تجري خبيلاً لا تكل ولا تعي كان
الليل قد اقبل واخذ الافق يربد ثم خيم الظلام وقد بقي بينه وبين الناصرية نحو

فرسخ وحينئذ تكاثف الضباب على وجه الارض حتى لم يعد يرى الطريق ولولا مخبرة
فرسه الغريزية لشرد وضلّ . فمع كل هذا وصعوبة الطريق وتوعرها ما كانت فرسه
تعثر ولا تكبو لنشاطها ورسوخ وطأنها . وما زال سائراً حتى لاحت له انوار اوائل
البيوت . وحينئذ نفرت الفرس نفرة كاد يسقط بها وشردت عن الطريق وعدت
مدعورة فتعجب لؤلؤ واشتغل باله

وكان سبب اجفال الفرس شبح ضخيم متكاثف على جانب الطريق فرآه لؤلؤ
ولم يكثرث به واستمر في مسيره وطمأنينة قلبه ولم يعلم ان هذا الشبح كمين مؤلف من
سته من الشرط ومعهم الجنديان وقينة الداهية العظمى . وكانت واقفة ترصد فلما رآته
قالت هذا بعينه لا يخطئ ظني . فقال الجندي احد تابعيها اتفقوا اثره قالت لا لزوم
الآن فقد لا نصيب الغرض بل ندعه يدخل منزله فنكبسه فيه ونأخذه حيث لا يمانع
ولا مدافع

وبعد دقيقتين دخل لؤلؤ الطريق الضيق المؤدي الى بيته وصار في الحديقة
فترجل ودعا سليمة فبادرت هي ونور للقائه فعانق لؤلؤ امرأته واخذت سليمة الفرس
الى المر بط ثم دخل هو ونور وقد حملها بين ذراعيه الى القاعة السفلى فقالت له هذا
يتعبك فوق تعبك يا حبيبي قال يا نور العين بل هذه الراحة التي تعقب تعبي في الطريق
فأجديك خفيفة على يدي كالريشة حتى استطيع ان احملك الى اقاصي الارض قالت
لا مانع من ان نمتحن هذا الامر . فسكت لؤلؤ وقال في نفسه قريب هذا ان شاء الله
ستفارقين يا مسكينة هذه الديار ولا تعودين اليها ابداً . قال هذا واتقبض قلبه وكادت
دموعه تسقط فملكها وتجلد

ثم جلس هو ونور امام نار كانت سليمة قد اضرمتها للاستدفاء وتسخين الطعام .
وبعد ما اخذ بعض راحته قدّم الطعام فاكلا وغسلا ايديهما وجلسا يتحدثان
وكان لؤلؤ في اثناء ذلك يحاول فتح حديث هذا السفر الفجائي ويحيل افكاره
فلا يجد عبارة سلسة لطيفة تعرب عن طويته ولذلك كان قلما يفهم ما تقوله نور ويجاوبها
اجوبة متقطعة وهو ينظر هنا وهنا كالتأمل الخائر وشعرت نور باشتغال باله ورأت على
وجهه شيئاً من امارات الكآبة . فقالت له

- بم تتأمل يا حبيبي اما تجد هذا المنزل في غاية الموافقة لنا
 - ما دمت قريباً منك اجد السعادة في كل مكان
 - وهنا على الاخص
 فقال في نفسه نعم لكن لو كان يتم لنا البقاء على هذا القدر . ولذلك ما عرف
 كيف يجيبها ولزم الصمت . فقالت له
 - اظن انك تعبان يا سيدي
 - كنت يا نور العين واما الآن فقد استرحت
 - ابوجودك معي نلت هذه الراحة السريعة
 - نعم اتشكين في ذلك
 - وما هذا الطلمس الذي فيّ حتى يكون هذا تأثيره
 - جمالك وحبك فظرة منك تبسط فؤادي اذا انقبض بالاحزان وكلمة من
 شفيتك تحيي نفسي اذا امانتها الاكدار
 - أتعلم اني كلما سمعتك تقول هذا الكلام اتوهم صدقه فأتيه معجبة بنفسي
 - وانا صادق اتوهمين بي الرياء والتدليس
 - اذا كان الامر كما اعتقد فاحب ان تقص عليّ خبر غيبتك اليوم وما كان الداعي لها
 - ليس لي شيء اخبرك اياه والامر بسيط رحلت في غرض لا طائل تحته ورجعت
 - ما اظن ان غرضاً حقيراً يدعوك الى مفارقتي نهائياً كاملاً اطول من شهر فلا
 بد ان يكون عندك سرّ تخفيه عني وانت وعدتني انك لا تكتم عني سرّاً يتعلق بك
 فقال لؤلؤ في نفسه الى متى احتمل مضض هذه الحزازة في صدري فقد جاء
 الوقت المناسب وهي فتحت الحديث ولا بد من اعلامها بذلك مقدماً او مؤخراً والظروف
 تضطرها الى معرفته
 ثم انحنى على عنقها ولفّ عليها ذراعهُ وقال اسمعي يا حياتي ما اقولهُ لك فلست
 الآن اخفي عنك شيئاً . فنظرت اليه نور نظرة الوهّان وشخصت اليه يبصرها فجعل
 يرف شفيتها قبل بدء الحديث ثم نظر اليها نظرة الحب الدليل وكاد يفتح فمهُ بالكلام.
 فاذا بالباب يُقرع قرعاً لطيفاً فانفصل احدهما عن الآخر والتفتا نحو الباب

الفصل الثامن والثلاثون

« طوارق الاهوال »

يرجع حديثنا الى قينة فانها لما علمت ان لؤلؤها استقر في منزله امرت الجماعة ان يوكلوا بالخيل واحداً منهم ويأتوا معها ومشت امامهم الى ان بلغت الحديقة فقالت لهم قد وصلنا فاحترزوا . فقال جندي الدرك للشرط حافظوا على الطريق وراقبوا النوافذ واستعدوا ان تأتوا لنجدتنا اذا لزم الامر . ثم تقدمت قينة والجنديان ونظرت من النافذة المنيرة في القاعة السفلى فرأت ذلك المشهد المؤثر الذي وصفناه فقالت في نفسها تبهم ما احسن هذين الشخصين يصعب علي ان اقطع سرورهما واكدر صفاءهما وما عهدت بزوجي هذه الملاطفة والرقعة مع ان نور ليست اجمل مني . ثم قالت للجندي الخضم هنا غير مبال بطوارق الحدثان ولا يستطيع ان يدافع

فتقدم الرجل وقرع الباب وكان من امر لؤلؤ ونور ما ذكرناه آنفاً واما نور فقالت في نفسها هذه انيسة انت حسب وعدها ولعلها فرغت من اشغالها فلم تصبر الى الصباح . ثم قرع الباب ثانية فارتعش لؤلؤ ونهض ليفتح وقبل ان وصل انفتح الباب وظهر الجنديان ودخلا البيت وكان احدهما لابساً ثوباً اسود والآخر زي البريتون فلما رأتهما نور استغربتهما وتراجعت وجلاً . واما لؤلؤ فشعر بشيء من الدسيسة لكن لم يخطر بباله وجود قينة فلم يشتغل قلبه كثيراً وكظم بلباله وظن الخطر بعيداً حتى الآن . ثم سألهما قائلاً ما تريدان هنا في هذا الليل . فتقدم الجندي اللابس السواد ورفع برنيطته وظهر هيئة الادب والوقار وقال لنور العفو العفويا مولاتي ازعجتنا خاطرك . ثم قال للؤلؤ ابحضرة السيد لؤلؤ يتكلم عبدك قال نعم انا هو

- أنت لؤلؤ لوليان من مدينة هاور صاحب التجارة البحرية الواسعة والملايين الكثيرة

- قلت لك انا هو فما مرادك

- انا مكلف يا مولاي بمسألة تتعلق بك جنائية كما تعلم ويصعب علي ان اكرر

خاطرك لكن ما على الرسول الا البلاغ وعلى المأمور الاجراء . ومع ذلك فأنا احترم

كل الاحترام شخصك الموقر

- ماذا كُلفت ان تفعل

- العفو والمعدرة يا سيدي . أمرت ان ألقى القبض عليك طوعاً للارادة

المالوكية السامية

وكانت نور قد انزوت هي وسليمة خلف المتكأ وشعرت ان كرها يتزايد شيئاً

فشيئاً وهي جامدة شاخصة . فلما سمعت عبارة الجندي الاخيرة صرخت صرخة تفتت

الاكباد ورمت روحها على صدر زوجها وقالت وهي ترتعد . لؤلؤ ما الذي اسمعه

اصحيح ما يقول هذا قل لهُ بحياتك انهُ غلطان وقد توهمك رجلاً آخر مذنباً وانك

أنت بريء من كل تهمة

ثم قال للجندي بأية قوة اتيت لتقبض عليّ وما الذنب الذي يُظن اني ارتكبتهُ

- يا سيدي يحق لك ان تسأل هذا السؤال وما عليّ الا ان اوضح لك القضية

واحفظ بحضرتك الادب فاعلمك اني مأمور من قبل الملك بواسطة مقدم الدرك وقاضي

الجنايات في هاور والامر الذي بيدي ارفعه اليك اذا شئت . واما الذنب الذي تؤخذ

به فهو القتل قتل الوالي السابق جورج الفرنسي

وكان لؤلؤ ضاماً الى صدره ملاك النور فلما سمع كلمة قتل شعر بارتعاد في بدنها

وانها قد تلاشت قواها وان بصرها قد شرد وتريد ان تتكلم فلا تستطيع النطق فقال

لها لا ترتاعي يا حبيبتى . يا نور أنت تعلمين اني لست مذنباً وفي هذا الوقت يقدم

لديك البرهان

ثم قال للجندي ليس ما اتهمت به عدلاً فاني لم اقتل الوالي

- يا حبذا لو صحّ ذلك يا سيدي واذا برهنت على براءتك امام القاضي فقد

نجوت من ورطة عظيمة

- ولو برهنت لك كما تريد

- هذا لا يجدي نفعاً فلست مأموراً ان احاكمك بل ان اقبض عليك بأي وجه

كان واسلمك الى القضاة

- واذا اوضحت لك ان التهمة لا تحتمل المحاكمة فما تفعل

- قد يمكن ان اخلي سبيلك مؤقتاً بشرط ان تعدي بشرفك ان تحضر عند الطلب الى دار العدل . لكن ما اظن انك تثبت دعواك ببرهان قاطع والبرهان الذي اطلبه انا غير كافٍ

- ما هو هذا البرهان

- هو نفس شهادة الوالي ولكن الوالي مات ودفن وما ادري كيف تقدر ان تحصل على شهادته ببراءتك

- الامر سهل لا كما تظن فالشهادة بيدي

- شهادة الوالي بيدك هذا من الغرائب

- نعم شهادته بخط يده وتوقيعه وتاريخ الحادثة

- فمر بها يا سيدي ثم تبصر

فحلّ لؤلؤ منطقتة ونشرها واخرج منها الورقة المذكورة وقد مرّت صورتها في فصل سابق . ثم قدمها للجندي وقال اقرأ وارفع صوتك فتلاها واذا هي ناطقة صريحا بان مقتله بيد لؤلؤ لم يكن الا قانونياً طبقاً لاصول المبارزة وعليها توقيعه وتاريخ الحادثة وكانت نور تسمع وتنتعش شيئاً فشيئاً كما تنتعش الزهرة الذابلة بامتصاص الماء ووقوع اشعة الشمس عليها وثبت عزمها وانتظمت ضربات قلبها والتفتت الى لؤلؤ وقالت يا حبيبي خفت جداً من منظر هذا الرجل وما التقي عليك من التهمة غير ان قلبي كان يقول لي انك بريء ولي في كلامك ثقة اكثر مما لي بنفسني

وكان الجندي في اثناء ذلك يحدق بصره في هذه الشهادة ويراجع فكره فيها ويتفحص خطها وتوقيع الوالي بتدقيق عظيم حتى لم يبق عنده ريب فيها فارجعها الى لؤلؤ وقال يا مولاي اهنتك بالسلامة من كل قلبي وقد احسنت جداً بهذا الاحتياط الجليل والتيقظ التام ولولا هذه الشهادة لما كان بدّ من تهورك في هوة الدمار فقال لؤلؤ فاذا قد اتضحت براءتي افلك عليّ شيء آخر

فالتفت الجندي نحو الباب التفاتاً مريباً . ثم تقدم نحو لؤلؤ ليكلّمه سراً وقال له لست مجرمًا يا سيدي لكن يصعب جداً تحلية سبيلك . والقضية مشكلة تبصر قليلاً اذا شئت فاني على كل حال مأمور بالقبض عليك وما اعلم ما قصد المحكمة بذلك ولا

استطيع المخالفة والا فاقع تحت مسؤولية شديدة واعزل من مصلحتي وانت تعلم اني صاحب عيال وليس بيدي شغل اعيش منه
 عرف لؤلؤ ما هي الغاية المراد الوصول اليها ولم يخف هذا التلميح على فطنته
 واختباره فقال له

الحق ما تقول فالتعرض لخطر مثل هذا لا يكون صواباً ما لم اتدارك انا هذا الخطر
 بما يعوّض عنه

- عافاك الله يا سيدي انت مشهور بالزكّن والكمال وهنياً لمن يعاملك . فبكم تظن
 ان هذه المخاطرة تقوم

- قل أنت ما تظن الغرامة التي تجب عليك اذا وقعت تحت المسؤولية

- قد تقدّر بخمسة وعشرين الف درهم . أتراها كثيرة

- هذا هو الحق والعدل لست بمبالغ ولا طماع

- افلا يكون من العدل ان ينال رفيقي هذا الواقف على الباب مثل هذا المبلغ فانه

موجب نفس مأموري

- حق له أيضاً ان ينال كما تنال

- فلا خلاف الآن تدفع لنا خمسين الف درهم ونخلي سبيلك

- ادفعها عن طيب خاطر . واما هنا فليس معي هذا المبلغ الجسيم

- العفو يا مولاي من يكون آمن منك واوفى للهود فاذا تكلمت بتوقيعك فقط

فقد كفي وتقبله على عشرة ملايين

فلما سمعت نور هذا الكلام اصابتها الرعدة وقالت في نفسها كيف يقول لي لؤلؤ

انه فقير لا يملك الا بما يقوم بالادود ويظهر لي الآن انه من اغنى الناس يا للعجب ما

مراده بالبهتان والمواربة

فقال لؤلؤ للجندي اتحب ان اعطيك الآن رقعة بتوقيعي لوكلي في هاور

- لا لزوم لها الآن فالمرصاد رقيب وحول البيت جماعة من الشرط يوقعون علينا

مسئولية الرشوة وكلامك كاف وفي الغد آتي وأخذ التحويل

- فكن مطمئناً وازيدك أيضاً خمسة آلاف جزاء لثقتك ومعروفك تكون لك وحدك

فصار قلب الجندي يرقص طرباً ثم تأخر عن لؤلؤ وقال بصوت عالٍ حسب عاداته لكي يسمع من الخارج . اذن يا سيدي تقسم لنا بشرفك انك تحضر الى المحكمة في هاور بعد خمسة عشر يوماً قال نعم اقسم لك بشرفي ولا ارجع بكلامي . قال فحيث وضحت لي براءتك واخذت وعدك الشافي بالحضور يمكنني ان اخلي سبيلك موقتماً وامضي من حيث اتيت طالباً المذرة من مولاتي ان لا تؤاخذنا على هذا التكدير الذي سببناه لها . ثم انحنى مودعاً واراد الخروج وقلبه مفعم سروراً ودهشة . وقال لؤلؤ في نفسه نجوت لله الحمد

كم يغتر الانسان بالاماني ويمني نفسه بالاوهام هل كان في حساب لؤلؤ ان الخطوب تفاجئه متواترة وانه كلما تخلص من شرك يتعرقل باصعب منه . فله در القائل
احسنت ظنك بالايام اذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

فعالما ادار الجندي ظهره للخروج انفرج الباب ودخلت قينة بلباسها الطبيعي ووقفت امام العتبة ومعها رئيس الشرط واثنان من رفاقه فصاحت نور قائلة اينسة اهلاً وسهلاً . وقال لؤلؤ اوآه هلكت ثم انطرح واهي القوى على المتكلم الكبير وارادت نور ان تدنو من قينة فلما رأت ما حلَّ ببعلمها وابصرت عيني قينة تبرقان وهيتها تدل على الغدر توقفت متحيرة . فقالت قينة للجندي لا تخرج الان فحضوركم لازم

فبهت الجندي وكان يحسب الوف الدراهم التي سيحصل عليها فصمم على ارضاء لؤلؤ دون قينة لانه لا ينال منها كبير فائدة فقال لها يصعب علي يا مولاتي ان اخالف امرك غير ان حضورنا لا يجدي نفعاً وسيدي لؤلؤ الان حر . واني لا اتصرف الا باشارة ضميري ورئيسي وانا احمل المسؤولية لديهما معاً . فقالت قينة لا ابالي بضميرك ولا بحق نفسك ولا ببراءة هذا الرجل من مقتل الوالي واما الذي يهمني فالعدل والثار واطلبيهما الآن . وان كنت لا تعرف المفروض عليك فانا اخبرك به فالشرعية تأمرك بطاعة من تسلمك اليه لقضاء مصلحة جنائية وانا اينسة الرويرية امرأة لؤلؤ لوليان لي على زوجي حقوق وأمرك بطاعتي طبقاً لارادة الشرع والذي ادعي به عليه ذنب المضارة فأمرك ان تقبض عليه

ووقع هذا الكلام من قلب نور اشأم موقع فاسترخت مفاصلها واقتت نفسها على لؤلؤ وهو ابكم مخطوف اللون جامد كأنه جثة بلا روح فجعلت يديه يديها وغمرتها وقالت وصوتها يتقطع بالنحيب . لؤلؤ . لؤلؤ . أما سمعت ما قالت هذه المرأة . بحياتي على قلبك يا لؤلؤ قل لها كلمة واقطع لسانها . ويلاه اني اجن او في هذه الساعة اموت اذا لم تجاوبها . قل لها يا لؤلؤ حالاً انها مفترية ولتذهت مفحمة خجلة

فلم يجب لؤلؤ بشيء وقد تدلى رأسه على صدره وفتقد الشعور فارتاعت نور من هذا الحال وجعلت تنظر اليه جزعة متلهفة . وصارت الحقيقة تنجلي لها شيئاً فشيئاً فامتقع لونها وتمزقت احشاؤها ونهضت وهي لا تعي ومشت مشية السكران وتراجعت عنه خطوتين كأن قوة سرية تبعدها عن لا يجد كلمة يدافع بها عن نفسه ولا حركة تدل على حياته . ثم صارت تنتحب وتكلم كلاماً متقطعاً من جملته هذه الالفاظ . لا لا . لا يمكن . يا للعار . لؤلؤ . لؤلؤ . ارحمني . اجب هذه المرأة . الى متى سكوتك . ائحب ان اموت . فانا اموت ولك بعدي طول البقاء

وكانت قينة تشاهد هذا المنظر المذيب القلوب بعين تحرق الجلود وقلب اقمى من الصوان . ثم قالت للجندي اما سمعت ما قلت لك فاقبض عليه . فتهدد الدركي المسكين تنهد الاسيف لان المبلغ الجسيم الموعود به قد فاته وذهب كالهباء المنثور في عاصف الشمال ولم يقدر ان يتردد لوجود الشرط ورئيسهم فتقدم الى لؤلؤ ومس كفته وقال له باسم الملك اقبض عليك . فهلم وراءنا يا سيدي فاهزت قينة طرباً وارتعدت نور جزعاً

فرفع لؤلؤ رأسه وظهر وجهه الكالح الخفيف وكانت عيناه غائرتين شاردين وتبعدت اسرته واتقبضت اعضاؤه وتقلصت عضلاته ووضحت الكابة على سحنته حتى لا يظن من يراه الا انه متجاوز سن الكهولة . ففي عشرين دقيقة تقدم في السن عشرين سنة

فاعاد الجندي كلامه الاول « هلم وراءنا يا سيدي » فنهض متثاقلاً مضطرباً وهو لا يستطيع الوقوف وقد فقد شعوره البدني والعقلي وكان ينظر نظراً تامهاً تارة الى قينة وتارة الى نور وكانه لا يرى امامه شيئاً او كأنه ينظر الى الهواء

وصار رئيس الشرط يرى هذا الحال وقلبه يتصدع ودموعه تذرِف فقال في نفسه جنّ المسكين

واما نور فوثبت امام قينة وترامت على اقدامها واخذت بيديها وقالت . رفقاً .
الصنعة . ارحمني يا سيدي . اشفني عليه . فقالت بجفاء لا رحمة والعدل اولي
- يا مولاتي اقسمت عليك بصدقتنا السابقة . اقسمت عليك بكل عزيز عندك .
بحياتك التي نلتها بعناتي . اصفحي عنه . ارحمني . لا تكفني الخير بالشر
- الامر لا يعينك وما بيدي الا ان انتقم من اساء الي واليك ايضاً فقد خدعك
والحقك بالعار . . فلينفذ فيه حكم العدل لاجلي ولا جلاك
- انا لا اطلب النعمة

- لانك ضعيفة القلب واما انا فكالحديد فلا يترك هذا الذنب القبيح بلا قصاص
فهضت نور وقد لعب الغيظ باحشائها واشتد عزمها ونظرت الى قينة نظرة الغضوب
وقالت ألا يتزعزع عزمك قالت يثبت ثبات الشرع قالت فالله ينتقم منك لظلمك فتاة
لم تسيء اليك . وانا ما اعرف الا ما انا عليه دعواك باطله وتمهتك كاذبة وكلامك
زور وبهتان . ليس لؤلؤ مؤاخذاً بجريرة لم يقتل ولم يتزوج امرأتين . فهو زوجك فخذيهِ
ليس له امرأة غيرك وانت لم تحبيه مثقال ذرة واما انا فلست امرأته انا عشيقته
والسلام . فافعلي ما تقدرين عليه ولا تقدرين ان تؤذيهِ

فلم يؤثر في قلب قينة الصواني هذا الكلام من فتاة اختارت ان تلبس العار
وتلتحف بالفضيحة وتدوس شرفها اكراماً لرجل قد فقدته لتخلصه من العقاب .
فحينئذٍ مدت يدها الى جيبها واخرجت سجل العقد وكانت قد استحصلت نسخة
من عند الكاهن كما تقدمت الاشارة . ثم قالت لنور لم ترمين نفسك بالسنار وانت
بريئة من العيب فهوذا صك الزبيجة اثبت برهان

فعلت نور ان حبل رجائها انقطع فخارت قواها وفارقها عزمها وتنهدت تنهداً
عميقاً ورفعت عينيها ويديها الى السماء واتقلبت على ظهرها فاقدة الشعور والتطم رأسها
ببلاط المنزل فانتبه لؤلؤ . برجة سقطتها والتفت اليها فعاد اليه عقله وشعر بجسامته
المصيبة وثار كأنه مجنون وتحرك الدم في عروقهِ حركة غنيفة وترامى على جسد نور

وانهضها بين يديه وهو يصيح كالمختل وكلامه يتقطع وهو يقول « حبيتي نور . امرأتي الوحيدة . قوام حياتي . افتحي عينيك ويلي غليل قلبي بنظرة . اصفحي عني يا نور . انا بريء وحياتك . وتربة ابي وامي . اذا ظلمني الناس فما بهمني وقد صفحت عني . واذا قتلوني فلا ابالي وانت تحيييني »

ثم جعل يقبلها ونفسه يضرم لهباً فوق خديها ويقول ساحيبي بحياة حبك ويمزق صدره ويخدش وجهه وينتف شعرة . ثم قال ويلاه لا تسمع ولا تراني . ماتت يا ويلي . قتلتموها قتلكم الله . فاصبري يا نور انا لاحق بك يا حياتي

ثم وثب الى المائدة واخذ سكيناً وطعن صدره مرتين فسقط مخضباً بدمه فلما رأى الحاضرون هذا العمل الهائل ارتجفت ابدانهم وتصدعت قلوبهم اسفاً ونادت سليمة بالويل والثبور وصارت تولول وتتنحب حتى مزقت كبد الجوبوع ويلها . وحوّل الجنود وجوههم وصار عرق الكرب البارد يتحلب من ابدانهم . واما قينة بقيت وحدها ثابتة ثبات الابطال الظافرين لم تبد اندهاشاً ولا قلقاً وهي تنظر نظر الشامت وشفاتها تبسمان تبسماً جهنمياً . فقال لها احد الجنديّة قد رأيت يا سيدتي ان الجاني عاقب نفسه ونلت مرادك فقالت حتى الآن لم يمّت ولم تصب السكين قلبه قال ما هذا الحق الغريب اتتمتمين من شلو بلا روح . قالت لا اطلب سوى نفوذ العدل

وكان الامر كما حكمت فإسرة قينة الشيطانية . لم يمّت لؤلؤ . فتقدم الجندي وقد اخذته الرأفة وتحركت عواطف قلبه وفرج ثوب لؤلؤ عن صدره وكشفه فأرى الخطر قريباً والدم يتدفق . فاسرع واخذ بعض الاقمشة وقطع منها قدداً كافية وضمد الجرحين حتى انقطع الدم . والمسكينة سليمة لم تكن واعية على شيء لشدة جزعها وقد ظنت سيدها وسيدتها ميتين . فما استطاعت ان تأتي بحركة وما خطر ببالها قول المثل « قم يا عبدي اقم معك » بل بقيت تنوح وتصيح وتلطم وجهها وتمزق ثيابها من شدة الاسف ولم يلتفت الجندي الى نور على علمه ان قليلاً من الماء اذا رُس على وجهها يردّ اليها حياتها فقال في نفسه الاولى تركها على ما هي لئلا تزداد رعباً عند مشاهدة زوجها صريعاً . ثم التفت الى قينة وقال لها

صدق ظنك يا مولاتي الحياة باقية فيه افتأمرين ان نضعه الآن على سريرى وننظر الغد

- لا يمكن ان ادعه هنا هذه الليلة
 - وما تريد ان نعمل
 - تضعونه على محمل وتحملونه الى فندق اللوزي
 - هذا جور في نقله ذهاب حياته
 - لا يهمني ذلك وحبذا لو صح فالك . وعلى كل حال لا اريد ان يبقى ساعة في بيت ضرتي . فهو زوجي وانا اولي به
 فهمس الجندي في اذن رفيقه قائلاً نعم الرأفة وبئس الغيرة . تباً لهذه الطريقة .
 تريد الاستمتاع بزوجها الى ايدي السيف
 فقالت قينة العجل الى متى نصطبر
 فخرج رئيس الشرط الى الحديقة ينظر له محملاً فوجد سلماً قصيرة كانت تستخدم لقطع الثمر فحملها ودخل ثم طرحوا عليها وطاء والقوا عليه جسد لؤلؤ وحمله اثنان من الشرط وتوجهوا جميعاً نحو الفندق ووصلوا بعد الثلث الاول من الليل وسمع اللوزي حركة وجلبة فقال من يطرق منزلي في هذه الساعة ثم أخذ مصباحاً وخرج فوقع نظره على الثياب البيض الملتصقة بالدم فوق المحمل فهاله المنظر وصرخ قائلاً ويلاه ويلاه انا تون الي بقتيل ثم قدم القنديل نحو وجه لؤلؤ فكاد يسقط جزعاً وصار يلطم ويقول . يا ويلي يا أسفي . لله . ارحمني يا الله ماذا ارى . اليس هذا سيدي لؤلؤ . يا للمصاب . يا للرزينة . ما هذه الداهية . من فعل به هذا الفعل الفظيع
 فقالت قينة هو طعن نفسه بيده
 - كيف ولم
 - لينجو من قصاص الشريعة
 - وأي ذنب ارتكب يا للعجب لا يكون هذا أبداً احلف عنه الف يمين ويكون قسماً مبروراً . لا اصدق عنه هذه الشناعة
 - لا يفرك المحال فقد جنى وارتكب اشنع المحظورات
 - ما الذي صنع يا عجي اية جناية
 - ستعلم فيما بعد فقل للخادم يهبي له سريراً نضعه عليه ودبر لنا ميتاً

- حاضر حاضر . وهل علمت امرأته المسكينة بمصايبه
- ليس له امرأة غيري يا معلم وذنبه انه تزوج وأنا في قيد الحياة
رفع اللويزي قديله وقد أخذه الانذهال وتفرس في قينة فاذا هي الشاب نزيله
بالامس فما عاد له صواب واخذته الجدة

فقال له الحق ان تبهت هكذا وقد قرأت اسمك شاهداً على صحة هذا الاقتران
المقوت . والآن اقول لك ليس لولوء امرأة شرعية غيري
فصار اللويزي يتم قائلاً وا اسفاه عليك يا نور يا مسكينة ما هذا الحظ المنكود .
يا للعجب يا للعجب من كان يقول ان لولوءا يفعل هذا . من عاد يركن في الناس على
حسن ظواهرهم . كنت احبه هذا الفتى كنت احبه نظير ولدي لكن ساءني جداً عمله
هذا فلا تغفر هذه الخدعة التي خدع بها تلك الفتاة الطاهرة النقية كمالئكة السماء

ثم تقدم امام الجماعة ودخل بهم الحجر التي كان لولوء ينزلها
وبعد ذلك عاد الى افكاره الاولى وقال افكدا اذن كان من امر هذه المرأة
المتلبسة بزى الرجال وكنت اقول ان هيئتها ليست هيئة رجل ثم اكذب ظني ثم ارى
نحافة اعضائها ولطف اقدامها واناملها فارتاب . فكان ظني في محله . آه يا ربي ماذا
يقول الكاهن اذا علم ان القران خدعة شيطانية وما يقول عني الناس اذا رأوا شهادتي
مسطورة في السجل . يا لك من شقي يا لولوء . وا اسفي عليك يا نور
وفي تلك الساعة بعينها انتشرت في بدن لولوء حمى حادة وهو مغمى عليه وصار
بدنه يرتجف وصدرة ينتفض من خفقان قلبه

الفصل التاسع والثلاثون

« اهتمام نور »

بعد نحو ساعة من خروج الجند وقينة بلولوء كانت سليمة الحزينة باقية قرب مولاتها
تلطم وتنوح ولا تدري ما تعمل واذا بها قد شعرت بحركة خفيفة من مولاتها فانتبهت
مرتعشة ونظرت فرأت شفيتها تضطر بان وجفونها تختلج . فقالت بدهشة الحمد لله

الشكر لله باقية في الحياة . وفي الحال شعجت نفسها وشدت عزمها ونهضت لاسعاف مولاتها فأتت بماء بارد وبالت صدغيها ونشقتها الخلل وبعد دقيقة اتعشت نور وفتحت عينيها وجلست قليلاً واخذت تحيل نظرها في المكان وهي غير واعية ولا تذكر شيئاً مما مضى . ثم نادى سليمة بصوت ضعيف وقالت ما جرى يا سليمة لم تبكين وابن لؤلؤ وحالما لفظت اسم لؤلؤ انتبهت الى نفسها ورجع اليها صوابها فنهضت وقالت يا لسوء حظي يا لمصيبتني قد تذكرت كل شيء . انت انيسة . هذه القاسية القلب . واخذت لؤلؤا . يا سليمة اصدقيني ماذا فعلوا بلؤلؤ . ثم نظرت حولها فرأت لطح الدم على ثيابها وعلى الارض فاندھلت وارتجفت وصرخت صراخاً اليماً وقالت . يا ويلاه . يا ذلاًه . واحر باه . قتلوه قتلوه الاشقياء . يا لؤلؤ يا حبيبي . هل اعيش بعدك فقالت لها سليمة يا مولاتي لم يمد احد يده اليه بسوء

- فمن اين هذا الدم
- هو نفسه طعن صدره ياساً وقد ظن انك فقدت الحياة
- او باقى هو في الحياة
- يقال انه لم يميت
- واين هو الان
- قتلوه على محل الى فندق اللويزي
- فانا امضي لاراه حياً او ميتاً
- وفي الحال طرحت على منكيها رداء وعقصت شعرها ووثبت الى الباب فقالت لها سليمة منذهلة . مولاتي مولاتي اين تذهبين
- اذهب لاراه
- اولاً تذكرين انه خانك وخذعك
- عفوت عنه ونسيت جريمته لست احمل حقداً كتلك الضارية
- ابقى هنا يا مولاتي ليس لك هناك مكان
- مكاني حيث يكون حبيب قلبي الذي يموت لاجلي يجيني انا وحدي اما علمت يا سليمة . لا يجب غيري ويغض تلك

وعند ذلك مضت غير ملتفتة الى توسلات سليمة . وغاصت في لجة الظلام . واما
سليمة فتعدت تصلي لاجلها ولم ترَ من الموافق للحاق بها وترك البيت خالياً
ووصلت نور الى الفندق فرأت المعلم اللوزي يتمشى في القاعة الكبرى لكثرة
اشتغال باله بهذا الحادث الغريب والجنود على المائدة يشربون . فالتفت اللوزي
ورآها في حالة يرئى لها صفراء ناحلة لاهثة على غير هدى فكاد يسقط من الرعدة فقالت
لهُ اين هو لؤلؤ

- في الحجرة العلية . أتمضين اليه . استحلفك بالله ان لا تطلي مقابلته يا مولاتي
- يا ويلي ماذا اصابه . أمات
- لا
- فلاي سبب تمنعني عن مقابلته
- لان ... آه يا مولاتي لان تلك عنده
- لا يهمني وجودها هو لها وانا له

فصعدت السلم ووجدت الباب مفتوحاً قليلاً فدخلت لا تلتفت الى شيء فوجدت
قرب سريره قينة والجندي ناعساً . وكانت قينة تنظر بحق الى وجه لؤلؤ وهو يصغر
تارةً ويحمرّ اخرى ويتكلم كلاماً متقطعاً من جملة « اينسة ... ما انت من
البشر ... انت ابليس العين ... ايتها الزوجة الخائنة ... القاتلة بالسّم بعلك ...
ارتاع عند ذكرك ... تنحي عني ... اليك عني ... عليك اللعنة » ثم ينقلب لونه
وجبه وتمحى عنه آثار الغضب والاحتقار ويقول « نور ... يا حبيتي نور ... ياملاك
الطهارة ... احبك ... لا احب سواك »

فلما دخلت نور نظرت اليها قينة وقطبت حاجبها وكلح وجهها فكظمت غيظها
وقالت بلطف ورقة

- ما غرضك هنا يا مسكينة
- اتيت اصلي وابكي بجانب قتيك
- قد عرفت بأسك ولا أواخذك على جفاء كلامك لكني بريئة مما تهمني به
- بريئة فيما يخصني وظلمة قاسية فيما يخص هذا الصريع المحتضر امام عينيك وانت

لا تبالين لصلاية قلبك

- لم تهتمين بذلك انت . هذا رجل محتال منافق وعلمت خداعه لك
- لم يخدعني البتة قل انه يجنبي وهو لا يزال يجنبي وقد سمعت كلامه واسمعي
الآن وهو في البحران
وكان لؤلؤ حينئذ يردد هذا الكلام « نور . . . حبيتي نور . . . احبك . . .
من كل قلبي »

فقاتل قينة ما النتيجة يجبك لكنه زوجي وبناء على حقوق الشرعية ارجوك ان
تنصرفي ليس هنا محلك
- لا انصرف ولا اعرفك . انت تبغضين لؤلؤا وتطلبين قتله وانا لا اتركه
فرسة بين مخالباك

- قد اختل عقلك يا نور لشدة الحزن فامضي بسلام
- ليس بي من خلل والدليل اني اعرف ما في نفسك من المكر والمكيدة
- أمرك ان تخرجي من هنا
- وانا لا اسمع امرك ولا أترك حبيبي حتى اراه في تمام الحياة
- ان عاش او مات فليس لك به شيء . قياده بيدي
- حتى الآن لي منه ما لك الى ان يحكم القضاة حكماً باتاً
- فاستهدفي لاسهم البلاء وسترين حبيبي صريعاً لديك
- وحينئذ يصير لي فأموت معه ونجتمع في السماء
- ويملك يا قارونية الى متى اصبر عليك واحتمل فظاظتك كنت ارحمك والآن
قسيت قلبي عليك . الى متى اطيق النظر الى عشيقه زوجي . فاذهبي ولا تحاولي
- ما بقي عليك الا ان تجريني خارجاً بايدي جنودك . فلا اقوم من هنا طوعاً .
قالت هذا الكلام بهكم وكره شديد لقبح منظر قينة الممقوتة ثم جثت بجانب سرير
لؤلؤ واخذت يده وقبلتها . فاستشاطت قينة غضباً ولم تعد تملك نفسها فقالت للجندى
أما ترى هذه الوقحة اخرجها من هنا

فهض الرجل منحنيًا لدى قينة على حسب عادته التهكمية وقال

- لا يمكن هذا يا مولاتي
- اتعصى امري
- بكل احترام ووقار اقول نعم
- كيف . كيف . الست تحت ارادتي
- تحت ارادتك في مسألتك الجنائية وقد قضيتها وأتمم الى النهاية وأما هنا فليست المسألة جنائية ولا تعلق لها بشغلي فانما هي امرأة تعلم انه زوجها جريج أمامها صريع بارادتك أنت لتراه وتصافحه وتعزيه فمن اين لي الحق ان اطردها ولن تكون السلطة في اخراجها من عنده
- صبراً . اذا غلبت هذه الليلة فسأغلب غداً

فلما كان الغد امرت قينة ان ينقل لؤلؤ والحى ملازمة له الى سجن مدينة ننت وهناك تجري محاكمته لان الجناية التي جناها اي المضارة حدثت في ولاية بريتانية فنقل وطرح في السجن وهو يقاسي آلام الحى والحزن ولم يكن يسمح لاحد بمقابلته وقد وضحت جنائته بالبينات الكافية وصار القضاة على وشك الحكم عليه لكن سوء الحالة التي كان فيها استلقت اليه نظر الجمهور وحرك عواطف القوم حتى القضاة والجور الذي تصرفت به قينة والعنف الذي اظهرته في معاملته والقساوة التي نصحت من قلبها الصخري والحقد الشديد الذي نفثت سمومه على هذا الرجل المظلوم كل ذلك واكثر منه ادى الناس الى كرهاها والنظر اليها بعين الاحتقار والمقت

ولاجل التوفيق كانت نور حال دخول لؤلؤ السجن قد لبست السواد هي وخادمتها الامينة سليمة وأتتا معاً الى مدينة ننت فرأى الناس التضاد العظيم بين اخلاقها واخلاق قينة وما انطوى عليه قلبها من الطهارة وسلامة النية فالت اليها القلوب وحنن اليها العواطف . وكان بين عائلتها وعائلة مقدم الدرك في ننت صلة قديمة ثابتة البرهان فضت اليه وتواقعت على قدميه وشكت ما حل بها من الجور وقلة الانصاف وما عوملت به من القساوة والفظاظة القينية وطلبت ان يسمح لها بمقابلة لؤلؤ في سجنه وذلك بعد ثلاثة أسابيع من حبسه فاجابها وأعطاهها تذكرة اجازة على ان لا تقيم عنده اكثر من ساعة

فضت وامامها دليل وهو السجن الموكل بباب مطبقة وفتح الباب وقال لها ادخلي يا مولاتي وبعد ساعة لا أعود اسمح بدقيقة فدخلت وأغلق وراءها الباب . فوجدت نفسها في ظلام حالك ولم تر شيئاً فوقفت نحو دقيقة حتى انجلي ذلك الظلام شيئاً فشيئاً وأبصرت نوراً خفيفاً داخلاً من نافذة ضيقة فحددت نظرها فرأت في زاوية المطبق شبه سرير زري عليه رجل منطرح نائم وجهه الى السقف فنظرت اليه بامعان فلم تعرفه وظنت ان السجن غلط عن المكان ثم تقدمت اليه حتى حاذته وتفرست في وجهه وتهدت من اعماق قلبها وقد عرفت انه حبيبها لؤلؤ مكسوف الوجه نحيل البدن عليه غبار الموت وقد استطالت لحيته وتكاثفت وانسدل شعره على جبينه بلا انتظام واحدى يديه على صدره والاخرى مدلاة على جانب السرير ليس عليها الا الجلد والعظم فتساقطت دموع نور كقطر المطر المنهر وتصدع قلبها حزناً عليه وركمت بجانبه واخذت يده وضمتها الى صدرها وقبلتها بحرارة وشفتها ترجمان والدموع تساقط عليها فاتبه لؤلؤ من حرارة دموعها ونفسها ونهض مرتفعاً وقد ظن انها رؤيا وصار يفرك عينيه ويتفرس في وجه نور ففهمت هي مراده وعرفت حيرته فقالت له أنا هي أنا هي يا حبيب القلب . فاستنار وجه لؤلؤ بانتعاش قلبه وتشددت يداه فضمها الى صدره وتهد وقال

- آه يا حياتي . ليكن اسم الرب مباركاً . ما هذه النعمة التي أفاضها علي . كنت بالرضى مسلماً نفسي الى الموت . صابراً على قضاء الله الصبر الجميل . لكن كان بصعب علي ان اموت ولا اراك . أفأنت لتسامحيني وتسمعي كلمة الغفران فأموت مستريحاً . كفي ما احتملت لاجلي من العذاب يا شقيقة الروح فتولي رحمة الله وغفر ذنوبك
- ما ذنبك يا حبيبي لا اذكر شيئاً مما تقول والذي اعرفه فقط انك كنت مسلماً قلبك اليّ وحدي كما ان قلبي بيديك . ولاي سبب تذكر الموت
- لانه واقع لا محالة . واقع غداً لا مناص
- أو ما تعلم اني اشتهي حياتك يا لؤلؤ
- أما انا فلا أستهبها لانها ستكون لغيرك وبفراقك مالي حاجة . تشجعي يا حبيبتى
- تدري بالصبر . تجلدي . أنا أفضل ان اراك ميتة على ان اراك في احضان غيري

فكوني أنتِ هكذا ولا تجزعي

- وا اسفاه كيف لا اجزع . أين الصبر أين الجسد . احبُّ اليَّ ان تبقى سالماً
ولو لم ارك الامرة في حياتي . كن حيث تشاء وفي احضان من تشاء وابقِ سالماً
- اتخيري بين الموت وفراقك قلبك أدرى بما اختار . لا آسف من هذه الدنيا
الاعلى شيء واحد . وجودك يا نور العين . واذا لا يمكن في حياتي فارى الموت لي سلامة
فارادت نور ان تجييه لكن خنقتها العبرة وقطع الانتحاب كلامها فانفضها لؤلؤ
عن الارض ورفعها الى جنبه وأخذ يديها وصار يفركما ويقبها . ثم ملك حواسه وشد
عزمه وقال لها

- سكاني روعك يا نور وقوي قلبك واعلمي ان الله قد قسم لنا نصيباً عظيماً من
السعادة فلنشكره على البلايا كما نشكره على النعيم هذه مشيئته فما الحيلة . كم من الناس
يقضون حياتهم لا يعرفون ساعة فرح . اي نعيم يدوم يا عزيزتي أفليس لنا كفاية
بذكر ايامنا الماضية هل كنا نرجو دوامها . ذقنا حلاوتها وعلينا الآن ان نذوق مرارة غيرها .
والدهر دولاب . ولنا الامل الوطيد والرجاء الصالح انا سنتقي في السماء لقاء لا فراق
بعده اذ لم يكن في حياتنا دنس ولا آثماً فالله رحيم رؤوف

- اذن فاسمح لي ان اموت معك حتى لا يطول وقت افتراقنا فنذهب معاً الى السماء
- استطاع هذا يا حبيبي او يحق لنا ان نرتكب جناية قتل النفس فأنا اسير امامك
وسياتي وقت تسيرين به ورائي ونجتمع هناك
- رضيت بما تريد واحتمل مصابي بالصبر

- هذا هو القلب الطاهر والنية السليمة والصلاح الكامل . الرجاء بالله والاعتصام
بالصبر فأموت الآن بهناء وراحة لاني اعلم انك تذكريني كل يوم وتشاهدك نفسي
من العلاء واطلب الى الله ان يقصر ايام عذابك فهو يستجيب لي ويجمعنا الى الابد
وحينئذ زاد الاصفرار على وجه نور وسلت يدها من يد لؤلؤ ووضعتها على قلبها .
فخفق فؤاده وقال مالك يا حبيبي فأجابت بصوت ضعيف . آه يا لؤلؤ كأن قلبي
يتفتت فاشكر الله اذ منحني نعمته وقصد ان يقبضي قلبك . ولم تنته من كلامها حتى
سقطت بين يديه مغشى عليها فجزع اشد الجزع وظن ان الله استجاب طلبها وبقي

متحيراً لا يقدر ان يسعفها بشيء . ولكن بعد نحو دقيقة فتحت عينها وتنهت وقالت
 خدعتني نفسي كنت ظننت اني فزت بالنعمة فوا اسفي . وجرت دموعها كالسيل فلم
 يكلمها الى ان تكون ملكت نفسها واتعشت ثم قال لها بكم من الوقت سمح لك ان
 تمكثي هنا

- ساعة

- ساعة واحدة وقد قاربت النهاية . فاسمعي يا حبيبتي كلمتين قبل اقتضاء الاجل
 فالآن اطالعك على اسرار حياتي لكي اتبرر امامك وتقفي على تمام الحقيقة . انا مجرم
 لدى اعين الناس وفي الغد يصدر الحكم عليّ بعدل في الظاهر واما امام الله وامامك
 فانا بريء يا نور

واخذ يقص عليها بايجاز العبارة كل الحوادث التي جرت له منذ معاهدته لها في
 حديثها الى ان تجددت المعاهدة والاقتران بها ولم يخف عليها مثقال ذرة وانه لم
 يتزوجها الا لتحقيقه ان زوجته ماتت فعرفت نور ان كل ما اتهم به باطل هو وانه بريء
 من كل ذنب فقالت له فلاي سبب تخاف ان يحكم عليك بالقتل وانت نبي البنان
 والقلب قد تجددت لي الحياة يا لؤلؤ أفلا تقدر ان تنجو من هذه النكبة فاذا قصصت
 على القضاة ما قصصت عليّ يصفحون عنك لا محالة

- لا اقدر على هذا يا نور وأحب كتمة عن كل الناس فلا يعلمه الا الله وأنت
 - هذا ضرب من الجنون أتسلم نفسك للموت وأنت قادر أن تنجو بسلام وتبرر
 لدى الناس فتربح نفسك وشرفك

- لا يطاوعني شرفي يا نور ان احوّل الحكم على امرأة حكم عليّ حب والدي
 ووالدها ان اكون رهيناً لها . اكراماً لشبيتهما وصداقهما الوفية احفظ كرامتهما وشرفهما
 - ما هذا يا لؤلؤ أتستحق مثل هذه الخبيثة الكرامة أما رأيت مكايدها ومكرها
 ورداءة قلبها

- اعلم كل ذلك لكنني حلفت ان احافظ عليها وأرعى كرامة أبي وأبيها الاخوين
 المخلصين . ومع ذلك يصعب عليّ أن احوّل الحكم واكون أنا المدعي ولا يصدقونني
 لان الدلائل المضادة لي اكثر من الموافقة وبتهمونني بالزور واني أقصد التخلص من

الهلاك وليس بيدي براهين كافية فلنسلم أمورنا لله وهو يدبر كيف يشاء
 - ويلاه . ضاقت الحيل لكن سأجبرهم ان يتبعوني بك لانك تعلم ان حياتي
 مرتبطة بحياتك

وفي هذه الحالة من الكآبة والاسف فتح الباب ودخل السجن وقال اتقضت
 الساعة يا سيده فضمها لؤلؤ الى صدره واعتنقا اعتناق الوداع الاخير وقد فاضت نفوسهما
 قبل الدموع فقال لها استودعك الله يا نور يا ركن حياتي
 - لا تقل الوداع بل قل اقابلك عن قريب لاني متيقنة اننا نتقابل مرة أخرى في
 هذه الدنيا . ثم استجمعت نور قواها وخرجت وهي تكاد تحتنق من كتم نحيبها . وبعد
 مضيا قال لؤلؤ في نفسه الآن عرفت نور اني برئ فلا تكره ذكري بل يصفولي
 قلبها فأموت مستريح البال قرير العين . وجثا على ركبتيه وتلا صلاة خشوعية صلاة من
 يستودع الروح خالقها

الفصل الأربعون

« المحاكمة »

كان معظم اهتمام قينة في تعجيل محاكمة لؤلؤ واصدار الحكم بقتله لكي يستريح بالها
 من جهته وتقر عينها الشريرة وما كان ذلك الا الهاماً من الله لان ضميرها لم يكن على
 هدئى وكانت تخاف انقلاب الزمان فلذلك كانت لا تستقر ليلاً ولا نهاراً وتأتي
 بتقريرات وبنات وتحت القضاة على سرعة الحكم
 وازيادة دهائها سعت باحتياط في أشد اللزوم لها لتكون في عيش هنيء بعد فقد
 صاحب الملايين الذي تدعوه زوجها فتستولي هي على ثروته ولا تأسف بعده على شيء
 لان هذا جل مطلوبها منذ أول مساعيتها فبناء عليه اخذت الرسالة التي سرقها أخوها
 من غرفة نسيم وصارت تتردد في المدينة كل ليلة منذ حضورها الى ننت وهي في زي
 الرجال حتى عثرت على رجل كان قد خلس من المنفى وتقدم في السن وهو فقير جداً
 لا يملك قوت ليلة . فتمرفت به وعامت انه حاذق في التقليد اليدوي ودخلت به كما

يدخل النعاس بين الجفون ولاطفته وكتبته في مصلحتها واعطته عشرين ديناراً فوجدها
المسكين ثروة عظيمة وعكف على اجابة طلبها

وذلك انها طلبت اليه ان يمرن يده على تقليد خط لؤلؤ في تلك الرسالة فلما صار
يأتي به طبق الاصل سألته ان يحرر لها سنداً يتكفل لها بالاستيلاء على ميراث لؤلؤ
فحرره تحريراً محكماً واعطاها اياه فعمجت به وطابت نفسها وقد نالت اقصى امانها .
والسند المذكور صورة وصية من لؤلؤ قبل ان باشر القتال مع الوالي الفرنسي في بيته
السري وهذه هي

كُتبت بخط يدي وصيتي هذه بخصوص ميراثي اذا اتفق اني اكون المقتول بيد
الوالي جورج الفرنسي في مبارزة حدثت بيني وبينه في التاريخ المذكور ادناه . يعمل
بهذه الوصية شرعاً طبقاً لمرغوبي وارادتي الشخصية . وذلك اني اخطأت الى امراتي
ايسة بنت يوشع الرويري خطأً جسيماً اعترف به واريد ان اكفر لديها عن خطيئي
هذا بان اوصي اليها بكل الاموال التي تخصني من تركة ابي ومقدارها اثنا عشر مليون
درهم لا ينقص منها شيء لاي سبب كان بل تكون جميعها مسالمة ليد ايسة امراتي
المذكورة الا خمسمائة الف درهم اوصي بها للشريف قين الاندلسي تدفعها اليه امراتي
ايسة من مالي الخاص الموصى به اليها جزاءً له على امانته وخدماته الكثيرة في داري .
ولبيان حرر في ٢٤ آب سنة ١٧٧١
كاتبه بيده الفانية

لؤلؤ لوليان

فاخذت هذه الوصية وطارت فرحاً الى اخيها قين وكانا مستأجرين احسن قاعة
من فندق مدينة ننت عاشرين برغد تام فجلست امامه في الصباح وصارت تحدثه
فوجدته متغير الحال مكسوف الوجه فقالت مالي اراك يا اخي في هذه الكآبة وقد
فزنا بسعادة الدنيا

- يا فينة لا تسأليني فاني في غاية القلق والازعاج
- اتخفي عني بواطنك
- لا اخفيها لكنك تستخفين بي
- هات ما عندك لعل في كلامك صواباً

- اعلمي اني رأيت في هذا الليل رؤيا هالتني رأيت كأنهم قادوا لؤلؤءا الى المشنقة
وربطوا الحبل في عنقه فانمضت عيني حتى لا ارى مصرعه . ثم ما عرفت اية قوة
اجبرتي ان افتح عيني فطلعت واذا لؤلؤ قد فقد من بين الجمهور واقبل الينا الشرط
وقادوا كلاً منا انا وانت الى مشنقة خاصة وعلقونا

- ويحك يا قين لا الومك على مثل هذه الهواجس لان الحبل شاغل فكرك كل
حياتك ولا تزال ترتعد منه خوفاً

- يا اختي اسمعي لكلامي . طالما اعتقدت فيك الخدق والدهاء واطعتك لكن
هذه المرة يلوح لي وجه الصديق من خلال هذه الهواجس فاطبعيني وهلمي بجمع ثروتنا
وما يخصك من ارث زوجك في هذه الساعة ونرحل بسلام آمين

- تباً لك ونجلياتك من اي شيء نخاف وكيف نهرب ونترك عدونا قبل ان نراه
صريعاً وعدوانا تتكريد وقارون قد هلكا وما بقي علينا غير لؤلؤ والحكم صادر عليه
بينات اجلى من الشمس

- ليس لنا بينات اذا وضحت الحقيقة

- كيف لا . ألم يكن قاتل الوالي

- وانت تعلمين انه بريء من التعدي

- او لم يدس الي السم

- انت المغترية ودستته بيدك لنفسك فهذا يثبت عليك الجناية

- أو لم يتزوج وانا في الحياة

- اذا اراد الله كشف خداعك تعين تحت غائلة العقاب أتمكرين في وجهي وانا

اعلم انك اتخذت زوراً اسم خطيئة فعدك محمول باسهل ما يكون

- ومن يعرف هذه الامور ان لم يؤد بك الجنون الى الاقرار بها كما اقررت في السفينة

حينما أسرت

- ربما حدث ذلك

- أفبيع حياتي وحياتك والملايين التي ستناها بامن ساعة من التهديدات

- الضرورات لها احكام . ومن اين لنا الملايين التي ذكرتها لك مليونان ومالي

الا ما في صندوق

- انظر يا مجنون انظر هذه الوصية بخط لؤلؤ وتوقيع فتعلم اليقين
فاخذ قين الورقة وقرأها وهو يتعجب ثم قال لها ايها الداهية ألا ينكشف
هذا التزوير

- من اين علمت انه تزوير

- وي وويه عليك . كيف يمكن ان لؤلؤا يكتب لك هذه الوصية في ساعة كان
بها يقاتل عشيقك والنفرة بينك وبينه اشهر من نار على علم
- على كل حال قد احسنت التدبير او قليل يا قين هذا المبلغ الملوكي اربعة عشر
مليوناً منها نصف مليون لك خاصة

- عافاك الله ولا احبط مساعيك فهلمي الى اتمام العمل وعجلي باهلاك هذا الرجل
الصالح فننال هذه الثروة الواسعة

- نعم ونذهب الى باريس نعيش بنعيم ورغد لا مثيل له ولبراعة جمالي وكثرة
مالي اتزوج برجل من البلاط الملوكي وتحقق كل الآمال التي كنت ابنها منذ اقامتنا
في هوانة وقد علمت ان تدابيرى لا تصادف فشلاً وان نفوذى عجيب
- يا للسعادة . يا للفوز . هكذا فلتكن النساء هكذا فلتكن الشقائق . هكذا هكذا

والا فلا لا

ثم ملأ قدحاً ضخماً من خمر معتقة وقال هذا اشربه على سرّ ارملة لؤلؤ لوليان
صاحبة الملايين وسيدة اشراف باريس

وفي اثناء هذا الحديث كانت ساعة المحاكمة قد دنت فركبت قينة مركبة واخذت
معها قيناً فكان يقول لها في الطريق كل التدابير حسنة والامور جارية احسن مجرى .
يا للعجب لكن كان احب اليّ لو لم أر تلك الرؤيا الهائلة ويجب ان اتناساها ما استطعت
ثم دخلا المجلس فاذا هو غاص بجماهير الناس لان اشراف البلدة ومقدمي الجنديّة
ورؤساء الدرك والقضاة والنواب والمدعي العمومي والمستنطق وغيرهم من ارباب
الدواوين وجمعاً كثيراً من الاعيان والعامّة قصدوا حضور هذا المشهد الحافل المؤثر
والوقوف على محاكمة رجل في ريعان شبابه يملك ثروة لا تقاس بها الا ثروة الملوك

ويقتضى عليه لاجل امرأة خائنة بهلاك محتوم . وكانت نور ايضاً حاضرة تنتظر حلول
القضاء والقدر وبقربها سليمة

وكان لؤلؤ بين اثنين من الجنود مصفرّ الوجه لكن تلوح عليه لوائح الشهامة وعزة
النفس والبسالة فلا يراه احد الا يحن قلبه اليه شفقة ورأفة على شبابه وكرامته واما هو
فكان يجلد نفسه ويدافع مدافعة الشجاع الباسل لا ينكسر ولا يذل لثلاث يقال يستلفت
انظار الجمهور ويستميل عواطفهم . وكان لا يلتفت الى قينة ولا الى نور لثلاث تتحرك فيه
العواطف المهيجة

فلما دقت ساعة الظهر انتظمت الجلسة وجلس المستنطق وارباب الديوان في
مجالسهم وكان المستنطق شيخاً جليلاً وقوراً حاذقاً فطناً فامر بالصمت التام حتى صار
القوم كأنهم على رؤوسهم الطير فقرأ المسجل صورة الدعوى ثم التفت المستنطق الى
لؤلؤ وقال له

- يا لؤلؤ لوليان أبرضك تزوجت بانيسة الرويرية

- بالرضى التام

- أو لم يكن اتخاذك لها امرأة طبقاً لارادة ابيك الصريحية

- لم يكن ابي ممن يجبر ولده على شيء او يمنع شيئاً يرى فيه مصلحة نفسه

فباختياره ورضاه تزوجتها

- هل كنت تعرف نور القارونية قبلها

- كنت اعرفها نعم

- اشعرت بميل قلبك اليها

- دهشت بمحاسنها وآدابها واحترمتها اشد الاحترام

- ألم يكن بينك وبينها عهد

- طلبت اليها أن تقبلني بعلاً وتنتظر رجوعي فاجابت

- اذكرت لايبك هذا العهد

- كلا

- هل خشيت ان يصدك اذا عرضت عليه ارادتك

- لا . لكن حين اردت ان افتح له هذا الحديث سبق فاخبرني بما كان بينه وبين صديقه يوشع من العهد . فسكتُ
- فتزوجت اينسة اذن وانت باقى على عهد نور
- كتبت لنور اني اضطرت الى نقض الميثاق وأطلقت لها القياد
- هل أعلمتها بهذه الاسباب
- تحاشيتها
- وبعد ان تزوجت بأينسة هل ارتاح اليها قلبك وحسبت معها نعيم العيش
- فلم يجب لؤلؤُ فقال المستنطق
- هل شعرت منها بشيء يستنكر
- لم يكن ذلك
- فكيف لا نفر عينك بامرأة فاضلة تقيّة جميلة
- اختلفت مشار بنا كانت هي تحب الترف والفخفخة والملاهي ونعيم الدنيا وكنت
- احب البساطة والاعتزال
- ألم تكن ثروتك كافية لنوال مشهياتها فلم قصرت
- اعترف اني لم اوفها حقوقها
- ثم عقب ذلك فتور عظيم في قلبك آل بكما الى التنافر واتما في مكان واحد
- هكذا كان
- ألم يخالج قلبك شيء من توهّمات قلة امانتها الزوجية
- فلما سمعت قينة هذا السؤال قلقت وطفح الدم على وجهها فأخذت مروحتها لتخفي
- بعض ما بها وصارت تتربّب جواب لؤلؤ . فقال بصوت رائق
- لم اشك في طهارتها ولم يداخطني اقل ريب في سيرتها
- فلكرز قين اخته بكوعه وهو وراءها وقال قد اخفى عافاه الله الحقيقة فكانه مدافع
- عنك يا لعينة
- ثم قال المستنطق فما سبب قتالك مع الوالي ان لم يكن الغيرة
- في يدكم قراره الشاهد بان المقاتلة قانونية واما الاسباب الداعية فأجب ان تبقى

مدفونة معه في ضريحه ومكتومة في قلبي الى الابد

- لست موء اخذاً الآن بهذا الذنب لان الحق واضح ولست غادراً لكن ما سبب خروجك بعد قتله بسرعة تاركاً امرأتك وحدها
- اعتقدت انها ماتت فما تركت امرأة حية لانها شربت السم امامي وسقطت مغمى عليها فقلت انها ماتت
- ما سبب شرب السم
- لانها احبت ان تموت ولا تصحبي الى هوانة مسقط رأسها
- ما سبب كرهها لهذا الرحيل
- لا اعرف شيئاً فسألها
- الآن لا تقطع استنطاق دعواك . فحين بلغت الناصرية هل قابلت نور وجددت

معها العهد

- نعم
- وهل اخبرتها سبب غيابك الطويل ورجوعك على غير ميعاد
- لا
- اذن لم تعرفها بشيء مطلقاً
- ما عرفت حرفاً
- لِمَ هذا الكتم التام
- ما رأيت لزوماً لتقص اخبار عليها لا تعنيها وقد تكدرها
- ولاي سبب عجلت الاقتران بها قبل ان تتيقن موت امرأتك
- كنت اظن اني على يقين وما حسبت ان شارب السم يحيا
- وقد كتبت الى خادمك نسيم واخذت الجواب
- نعم لكن كان الوقت قد فات
- فسكت المستنطق برهبة وكانت كل الصدور تتنفس الشدة وضاق صبر الجميع
- وصار التلق عامماً الا ان لؤلؤاً بقي على حالته من السكينة والوقار فقال المستنطق
- قد علمنا سيرتك الماضية التي لا لوم فيها فكنا نود لو امكن ان نتخلص من

الحكم لكن الذي صدر منك مؤخراً يضطرنا الى انفاذ العدل وقد ظهر انك مختال لا تقول الحق لانه لا يمكن ان رجلاً عاقلاً نظيرك يبادر الى عمل يعلم ان عدم التبصر فيه مهلكة

- بل ما نطقنا الا بالحق هكذا صار

- كلاً ايها الفتى المسكين ليس هذا الحق فاعدل عن الموارد ودافع عن نفسك حق الدفاع . قتل الحق واندم على ما فعلت باكياً فالحق وحده يحبك اعترف بذنوبك الخفيفة التي لا توقعك في الهلاك اعترف انك بهوى نفسك وشدة ولوعك بنور اقدت الى الطياشة حتى تركت امرأتك الشرعية واحتلت على هذه الفتاة التقية لتغضب شهواتك . فاعترف بهذا فنكتفي بعقاب شديد لكن لا نلجأ الى اهلاكك بجزيرة المضارة

فلما انتهى من هذا الكلام سمعت في الجمهور جلبة خفيفة وكلهم ظنوا ان المستنطق قاصد تخليص لؤلؤ بوجه من الواجه وقد استصوبوا منه ذلك لان الجميع هذا مرادهم ورأوا ان باب الامل قد انفتح بكلام المستنطق . فاصفر وجه قينة وخافت من سوء نتيجة مساعيها وهمسين في اذنها من قلب محروق قائلاً آه يا اخية قد بطلت الوصية وتهدمت آمالنا وطارت من يدنا النقود كافات العصفور من القبضة . واما نور فاتعش قلبها وانشرح صدرها واشرق جبينها

غير ان هذه الامال من جهة والمخاوف من جهة اخرى لم تلبث طرفة عين حتى اضمحلت من الفريقين لان لؤلؤا بعد ان استراح قليلاً من اعيائه المسبب عن مرضه عاد الى نشاطه ووقف وقد اخذ منه الغيظ مأخذاً عظيماً فتشدد وبرقت عيناه واكفهر وجهه وصاح بصوت يسمعه البعيد والقريب وقال للمستنطق لك حق في الحكم عليّ وليس لك ان تغرّني فافشل . الموت اليّ احب من العار . هل اطيق ان ادعي الزور في زيجة اعدّها شرعية قانونية ويعدّها كذلك كل من شهدها . وهل قصدت ان اخدع هذه الفتاة التي هي اطهر من ملائكة السماء . حاشا وكلا . لان هذا الشنار وهنا الفضيحة . أعد نفسي ندلاً بين الرجال وارتكب القبايح او بالبحري ادعيها لكي انجو من الموت . معاذ الله . تزوجتها بسنة الله وشرع الناس بعد ان عرفت اني مترمل . فاحكموا عليّ الآن بالموت وانا غير متمعد المضارة

وعند ذلك صاحت نور بالويل والحرب وارادت ان تتكلم فلم تقدر وتلاشت قواها وسقطت مغمى عليها وهي تشهق فحاول لؤلؤ ان يتقدم اليها فلم يسمح له الجنديان الحارسان له فاضطرب الناس وقلقوا وتساقطت دموع النساء وازدحمن على نور واخذن يعالجنها

فوشوت قينة اخاها قائلة ارأيت ان الوصية لم تفسد وان المال باق بيدنا . قال كنت ظننت العكس

وفي تلك الساعة تقدم من المستنطق احد الحجاب واعطاه رقعة من ورق ضخمة مطوية على شكل كتاب وعليها اسطر بقلم الرصاص فحالما فضها وقرأها ظهرت على وجهه علامات الاندهاش والقلق وكلم الحاجب سرّاً وخرج فقال المستنطق توقفت الجلسة الى نصف ساعة ثم خرج هو والقضاة الى قاعة المخابرة وبعد نحو دقيقتين دخل الحاجب القاعة المذكورة وامامه رجلان قد علاهما غبار كثيف وحالتها تدل على اعياء شديد من مشقة الطريق

ومضى الاجل المضروب واتقضت ساعة كاملة ولم يرجع المستنطق ولا القضاة وكان لؤلؤ جالساً محطماً بالهم والالم لا يلتفت الى نور واستفاقت نور من غشيتها ويئست من حياة زوجها وسليمة بجانبها تدرف الدموع السخينة وقينة تجيل انظارها الوحشية هنا وهنا مستنظرة بت الحكم وقد ثقل عليها التوقف حتى خامر قلبها هم عظيم وسائر الناس يتعجبون من هذا الطارق وهم في سجن واضطراب

الفصل الحادي والاربعون

« كشف المستور »

هنا خبر ظريف وحديث لطيف يستوقف الافكار ويستلفت الانظار نحب ان نسوقه تمامه لما فيه من غرابة الاتفاق

كان هذان الرجلان اللذان ادخلها الحاجب قاعة المخابرة تنكريد النجكي وقاروناً الهندي

يا للعجب من ابن حضرا . كيف وُجدا . باي اتفاق وصلا ولؤلؤ في ضيق
الحناق وقينة في اعلى ذرى الانتصار وقين فاتح عينيه وناشر اذنيه ومادّ يديه لقبض
خمسائة الف درهم ونور كسيرة القلب ضيقة الصدر قد انسدت لديها ابواب الرجاء
والناس في اشدّ القلق للوقوف على انتهاء المحاكمة وصدور الحكم بأسفون ويتلفون على
شباب لؤلؤ وصباء نور ويرجمون قينة باحداق النسور

هل ينشر الاموات من القبور . هل تحيا العظام وهي رميم الا بمعجزة الهيّة .
كيف حيي تنكريد وقارون بعد الهلاك المبين بأية ذراع شديدة وبأية قوة عجيبة انتشلا
من ذلك السيل سيل وادي الجن وقد رأت قينة بعينها الجثة ممزقة محطمة بالصخور
وتيقنت ان قاروناً جرّته المياه العنيفة فكيف عاد الى الحياة

فاسمع ايها القارئ اللبيب واعتبر بقضاء الله واعلم ان الحق لا يموت والحجازي لا
تبقى مستورة والحقائق لا بد ان تنجلي ولو كرت عليها الايام وهي مكسوفة . والله در القائل
وإذا اراد الله عون موفق جعلت ملائكة السماء كجنده

قد علمنا فيما مضى ان تنكريد وقاروناً أسرا قيناً في السفينة وانه نجا في أخريات
الليل بطريقة عجيبة وان قصد تنكريد كان التوجه بالسفينة الى بلدة برست
فلما لاح الفجر أتى الناظر الذي كان قد أعدّ المشنقة لقين وقرع باب حجرة
تنكريد قرعاً متواتراً فانتبه مذعوراً واذن له بالدخول فدخل ويده الجبل وسحته
مكتئبة . فقال له تنكريد ما تريد وما لك في هذه الهيّة المنقلبة

- يا سيدي أتيت طالباً اليك ان تشقني بهذا الجبل بالمشنقة التي نصبتها البارحة
لاسيرك

- ويك لم تطلب الشق

- لاني استوجبتُهُ يا مولاي

- ما فعلت من المنكر

- أهملت حراسة الاسير ولم انتبه لفراره بالقارب

- تربت يدك يا تعيس الحظ . هرب الاسير

- نعم

- وكيف ذلك

- لو كنت اعلم الغيب لاخبرتك . فكانه ساحر أو من عفاريت سيدنا سليمان فاني أقفلت الباب بيدي ونمت كل الليل امامه لم أبرح دقيقة والمفتاح في جيبى فلا يمكن ان يكون قد خرج من الباب والكوة التي في غرفته مزججة وضيقة جداً لا يستطيع الرجل النفوذ منها ولا الولد . فلهه ضرب مندلاً واستدعى لنجدته الابالسة والجن والا فمن أين ينفذ من أين . والخلاصة انه نجا وفرّاً بالقارب وما شعر به احد وها أنا بين يديك فأجر في حكمك

فلم يعد تنكريد ييالي بكلام الناظر ولا بكيفية فرار قين والاهتمام الوحيد الذي عزم عليه ان يقفوا اثره بأسرع ما يمكن فدعا قاروناً واخبره الخبر فطار صوابه ثم أمر بزورق خفيف وبمحاذيف كثيرة ونوتية شداد الايدي وركب هو وقارون وقصدا جهة هاور . فوصلا قبل الشمس ودخلا المدينة وشقاً الاسواق الى منزل لؤلؤ فقرعا الابواب وأيقظا الخدم وطلبا مقابلة الشريف الاندلسي قيّم الخزينة فمضى الخادم الى غرفته فلم يجده وتساءل جميع من في الدار فلم يكن احد يدري خبره فرجع الخادم واعلم تنكريد فطلب ان يده على مر بطن الخيل فمشى امامه وتبعها قارون فوجدوا مكان فرس خالياً فسأل الخادم اين هذا الفرس فسأل الخادم السياس فتعجبوا وكان هذا الفرس احسن خيل لؤلؤ وعلموا انه سرق في الليل

فغضب تنكريد وقال لقارون قد فرّ العين وساعده ابليس علينا فانهدم ما بنينا ولا بدّ انه ذاهب الآن احضاراً في طريق الناصرية لينذر اخته فيهر بان وقد خابت آمالنا . ومع ذلك فما اقول انها تهرب قبل أن تدبر الف حيلة لاهلاك لؤلؤ فقال قارون والشرر يتطاير من عينيه وهما كبرك الدم . على اثره في الحال هلمّ ونحن نعرف الطريق الذي ركبته

- قد يمكن ان ندرّكه اذا ركبنا الخيل او عجلة البريد وتبعنا آثاره

- وما المانع . في منطقتي ذهب كثير

- لا اقدر أنا ان افارق السفينة لثلاث اقع تحت المسؤولية وأخاف اذا ركبنا السفينة

ان يقضيا عملهما ويخرجا من الناصرية قبل ان نصل

- أتحب ان امضي وحدي وأقفوا اثره
- احب من كل قلبي لكن لو كنا في ادغال بلادكم وأما هنا فلا تعرف الطرق ولا انحاء البلاد ولا لسان أهلها معرفة كافية . فتعال معي الآن الى السفينة فتكمل على الله وتقلع عسى ان يقدر لنا الله ولو نوهنا بحيث يقذفنا الى نيتنا فلم يعارض قارون مقاله ومشيا حتى اذا قاربا المينا سمعا صوتاً لطيفاً وراءهما يقول لا لا ما خدعتني عيني هذا صديقي نفسه هذا هو الامير تنكريد النجكي . فالتفت تنكريد دهشاً فرأى شاباً نظيره في الهيئة والقامة والملبس والوظيفة يقال له الامير الطرمبلي وكان يصحب تنكريد في الاسفار البحرية سابقاً . فتعاقبا ملياً وتبادلا السلام وقال له تنكريد ما تفعل يا صاحبي في هذه المدينة
- أعطيت رخصة في زيارة عائلتي في مدينة ننت فأنتت الى هنا لعلني أصادف رفيقاً يؤنسني في الطريق أفتريد أن تصحبني
- يا حبذا يا صاحبي لكن أتيت لوفق الامر فان طريقك نفسها كنت اقصد سلوكها والآن تحملي ثقيلاً
- مرني يا صديقي العزيز ابذل لديك كل استطاعتي وجميلك علي
- أحب ان تصحب صديقي هذا واسمه قارون الهندي مراده ان يسافر الى الناصرية فيؤنسك في الطريق لانه لطيف المعشر ثاقب الفكر وبعد وصولكما تتزود السلامة الى بلدك ويبقى هو هناك يقضي مصلحته المتعلقة بي أيضاً
- على الرأس والعين اود لو كانت خدمة تستحق الذكر فأنت الذي حملتني الجميل بارسال صديقك معي
- فشكر تنكريد معرفته وعاد الى سفينته وركب قارون والطرمبلي عجلة مكشوفة ومضيا في سبيلهما وكان الاتفاق بين قارون وتنكريد ان قاروناً يسمى جهده في وجود منزل قينة وأن لا يدعها بعد ذلك تشرد ساعة عن نظره بحيث لا تشعر به واذا اضطر الى الخروج من الناصرية في اثرها يكتب كتاباً باسم تنكريد يعلمه به ما جرى وجهة قصده ويضعه في فندق اللويزي
- ثم وصل قارون والطرمبلي في جوف الليل الى الفندق الذي كانت قينة ترصدهما

فيه كما يرصد النمر فرسته . وعلمنا انها تطلمت من نافذة قاعة الاكل وعرفت قاروناً
ورأت ثوب الطرميلي وقدّه من الوراء فظنته تنكريد لشدة الشبه بينهما في الكسم والجسم
ثم ذكرنا ما دبرت من المهالك بمكيدتها الابليسية وما جرى على المركبة والركاب في
سقوطهم . فبقي علينا الآن ان نذكر كيفية تخلص قارون من تلك التهلكة

لما سقطت الخيل والمركبة تلك السقطة الهائلة حدثت فيها قوة اندفاع شديدة
فتساقط الركاب منها قبل بلوغها السيل فانفق ان السائق والامير الطرميلي سقطا على
الصخور فتكسرا كما تكسرت الخيل والمركبة ايضاً لان الصخور هناك كثيرة وكلاهما
منخرجة حادة الرؤوس مقطعة الجدران مستوعرة جداً . واما قارون فبغاية رابانية اتفق
سقوطه في مجرى الماء لم يصب صخوراً ففاض ثم طفا وقد اختلط عقله من هول السقطة
لكن في اقل من دقيقة عاد الى صوابه وكان سباحاً ماهراً وشديد العضل متين العصب
وشعر معظم الخطر المحقق به فصار يقاوم عنف الماء الجاري ويتجنب لطم الصخور
جهده ودنا قليلاً من شاطئ السيل فاحس بغصون الشجر المتدلية فوق الماء فتعلق بها
وشد عليها قبضته وجر نفسه بواسطتها الى الشاطئ وقد خرج من الماء ولم يصبه ضرر
من الصخور الا تخديشاً خفيفاً فتعد برهة ريثما يستريح من وعكة هذا الاضطراب

وبينا هو قاعد متحير من هذه الحادثة الغريبة اذ طرق اذنيه صوت قينة وقين
وكان متعوداً سكنى الغابات والادغال فتعودت اذناه ايضاً سمع اقل حركة او صوت
يحدث فنشر اذنيه حالاً وحدد بصره وقد خالج ضميره ان هذه الحادثة لم تكن على
سبيل الاتفاق بل نتيجة شرك نصبته ايدي عدو او قاطع طريق . وكان قد اخذ بعض
الراحة وعادت اليه قوته فاستجمع حواسه واستنهض همته وقام يتسلل بين قطع الصخور
وجذوع الشجر كما تنساب الافعى بين العوسج والعليق حتى بلغ رأس الاكمة واطراف
الغابة واشرف على الطريق فصار ينتقل من شجرة الى اخرى « لا يترك الساق الا
ممسكاً ساقاً » محتسماً من اقل حركة عنيفة تخونه الى ان بقي بينه وبين قينة وقين نحو
عشر اذرع ففارس وعرفها من كلامها ومن منظر قين مع انه كان يلوح له كالشبح
في ذلك الظلام

فاول خاطر خطر له ان يثب عليهما ويهلكهما عقاباً لها على هذه الخدعة الفظيعة

لكنه راجع فكره وعلم انه خال من السلاح وسمع قعقة خفيفة استدل بها على وجود سلاح معها فعدل من مهاجمتها ولطا خلف جذع سديانة ضخمة واصفى الى حديثهما فعرف مقصدهما واستتج من بعض الكلام ان هذه المكيدة مكيدتهما وانهما مصمان على الذهاب الى الناصرية لاتمام مشروعهما . فاستمر في مكانه الى ان انشق الفجر فركبا ومضيا في سبيلهما فلم يتبعها لثلا ينكشف حاله وهو في زيه الاصيلي واطمان قلبه من جهة وجودهما في ابي وقت كان فقام وتمشى في عرض البر عادلا عن الطريق المألوف وهو يعد كل عشر خطوات يقطع من اطراف الشجر اغصاناً غضة ويلقيها في الطريق ليبتدي بها عند رجوعه

فبلغ منزلاً مفرداً وكانت منطلقته باقية على خصره ومملوءة ذهباً فابتاع طعاماً واستحصل حلة فلاحية ولبسها عوض ثيابه الممزقة المبللة حتى كان من يراه لا يفرقه عن فلاحي البريتون من رأسه الى قدميه كامل اللباس البريتوني وكانت البرنيطة ذات حثار عريض يتدلى على جبينه حتى لورأته قينة لخفي عليها لتغير كسبه وخفاء هيئته وعند اقبال الليل بارح ذلك المنزل وركب طريق الناصرية فبلغها في جوف الليل ودخل فندق اللويزي فاقام في زاوية بعيدة لا يصيبها النور بيهاه فاكل وقعد يترب وفي تلك الساعة كان مجرى الحادثة المريعة في بيت نور ولؤلؤ وحين اقبلوا بلؤلؤ جريماً لم يكن احد باقياً في الفندق ودخل قارون الاصطبل ونام على التبن في مكان منزو فشهد من هناك كل ما جرى في الخارج وعرف كيف وقعت القضية

ولما كان الغد ورحلت قينة وقين والجنود بلؤلؤ الى ننت وتبعهم نور وسليمة كما سبقت الاشارة كتب على رقعة صغيرة هذه الكلمات « تجدني في مدينة ننت في الفندق العام » ثم طواها وكتب عليها العنوان باسم تنكريد النجكي وسهها الى اللويزي ولحق بالجماعة الى ننت فاتخذ في الفندق حجرة وجعل يتنسم الاخبار ويتربح الحركات وكان الخبر قد شاع في كل المدينة ان محاكمة لؤلؤ ستكون في اليوم الغلاني في الساعة الغلانية واقاويل الناس مختلفة في شأنه فوقف على كل تفاصيل المسألة بالتدقيق والتحقيق فاقام ينتظر قدوم تنكريد بفروغ صبر ومضى اسبوعان ولم يعلم له خبراً فضاق صدره وعيل صبره وعلم ان يوم المحاكمة قريب فتحير جداً وضاق ذرعاً وظن انه

يختلّ او يصاب بمرض عضال لشدة ما قاسى من الم الانتظار . فخطر له ان يذهب
 بنفسه وحده الى قاضي الجنایات ويطلعه على مجاري تلك الحوادث لكن خاف ان
 لا يصدّق وان لا تكون براهينه كافية وجهله شريعة البلاد لم يركن الى نفسه بالاصابة
 في هذا المسعى . فقام في الحال والعجل وتوجه الى الناصرية وسأل اللويزي فاجابه انه
 لم يأت بعد . فاستأجر مركبة ونثر الذهب وقصد مدينة برست فوصلها باقرب وقت
 وسأل عن سفينة تنكريد فقيل له انها لم تأت حتى الآن . فاقام ينتظر اربعة ايام وهو
 لا يذوق نوماً ولا يهنأ بطعام ولا شراب حتى اذن الله في اليوم الخامس بوصول سفينة
 رآها من بعيد فوقف على الرصيف وعيناه شاخصتان اليها . فلما اقتربت اذا تنكريد واقف
 على المقدم فعرفه وصاح من شدة الفرح ففترس فيه تنكريد وصرخ صراخ الانذهال
 وبعد ان سلم احدهما على الآخر ركبا طريق ننت في نفس تلك الساعة وقص
 قارون على تنكريد كل ما جرى وما سيجري

وعند وصولها قصدا دار القاضي فقيل له انه في المحكمة بداعي محاكمة جنائية
 فاسرعا الى دار الحكومة فوجدناها غاصة باصناف الناس وقد صدر الامر بمنع كل احد
 عن الدخول فالح تنكريد على الحاجب وقال المسألة مسألة موت وحياة وعلى وجودنا
 يتوقف فض المشكل فقال احد الحجاب تكرم يا سيدي بتذكرة للمستنطق وانا اوصلها
 اليه فدعا برقعة وقلم وكتب ما يأتي

سيدي

اناشدكم الله استحلفكم بالعدالة الملوكية ان تأذنوا لي بمقابلتكم في هذه الدقيقة انا
 ورفيقي . فالذي تحاكمونه ويصدر الحكم عليه عما قليل برى من التهمة الملقاة عليه
 والبرهان عندي قاطع . ودمتم سالمين
 الداعي

تنكريد النجكي

احد امراء الاسطول الملوكي

ثم سلمها الى الحاجب فادّاها في الحال كما سبقت الاشارة وجرى من الامر ما مرّ
 ذكره في آخر الفصل السابق ومضت تلك الساعة الشديدة التي جرت فيها المخابرة
 بين القضاة على تنكريد وقارون والناس في المجلس يرجون بالظنون المختلفة . واشتغل

فكر قينة وضاق صدرها فقالت لاختها تسال بين القوم واكشف لي ما الخبر فادار ظهره ليخرج واذا بالشرطي قد قابله وجهاً لوجه فقال له لا يسمح لاحد بالخروج فقال لست انا الجاني ولي في الخارج غرض مهم لحاجة نفسي قال لا يسمح لاحد فالتفتت قينة وقالت ما هذا فلم يكن وقت يقين ان يجيها لان الحاجب دخل و اشار الى الجمهور ان يلزموا اماكنهم ويفتحوا ممراً للقضاة

فدخل المستنطق كالح الوجه مضطرب النظر ورمى قينة ببصره الغضوب فارتعش بدنها وجمدت نفسها واستجمعت حواسها فقال لها

أنيسة الرويرية امرأة لؤلؤ لوليان الشرعية لاجل دعواك واجابة لشكواك ترين الرجل الجارية محاكمته واقفاً هنا في موقف الجرمين . أنت على يقين من صحة دعواك

- على يقين نعم
- او تعلمين ان العدل يحكم عليه حكماً باتاً بالهلاك اذا صح انه ارتكب المضارة
- اعلم ذلك
- فأنت مصرة على عزمك
- كل الاصرار
- ومتحققة وقوع ما ادعيت به عليه

- عندي البراهين القاطعة وقد عرفتموها . او ما سمعت اقراره من فمه فسكت المستنطق وصار الكل متعجبين من توجيه اسئلته الى المدعية دون المدعى عليه وكانت هي ايضاً في حيرة عظيمة . ثم قال المستنطق

- يا امرأة لؤلؤ لوليان قولي لنا اسمك الحقيقي
- هذا السؤال سقط علي فوادها كالصاعقة فاهتز بدنها والتوت رجالها تحتها لكن تمالكت نفسها وقالت

- انت تعلم كل العلم ان اسمي انيسة الرويرية
- أتخلفين الايمان العظيمة
- احلف بلا تردد
- واذا ادعى أحد عليك انك اختلست هذا الاسم اختلاساً فما تقولين

فشعرت قينة كان سحابة غشيت بصرها ووقف ضربان قلبها وقالت في نفسها
ويلاه حلّ المصاب دنا الاجل . لالا . اقاوم الى النهاية من يقوم في وجهي ببرهان
وقد هلك تنكريد وقارون . ثم قالت للمستنطق

- احب ان يحضر امامي هذا المدعي الفحمة
- ولو نُشر من قبره الذي تظنين انه لا يخرج منه الى الابد
- وما معني هذا الكلام فأنا لا ارهب الاحياء ولا الاموات
وشعرت ان الدم جمد في عروقها . فأشار المستنطق اشارة خفيفة ونهض وقال لها
فجاوبني في الحال ان المدعين عليك حاضران وها هما
وفي الحال افتتح باب قاعة المحاربة ودخل قارون وتنكريد فنظرت اليهما وعرفتھا
فطار صوابها وظنت انها في رؤيا او انها خيالان فصرخت بصوت أجشّ وسقطت
على ركبتيها وقد فقدت الشعور وسترت وجهها يديها وقالت
اخرجوا هذين الخياليين . اخرجوهما بالله . اخبرا الحقيقة فأنا اعترف . اعترف
فاخرجوهما من امامي . لا اطيق رؤيتهما

فقال المستنطق لست اذن انيسة الرويرية

- لا... لا

- انت قينة الاسبانية الرقاصة

- نعم

- تزوجت في هوانة بالامير تنكريد النجكي

- نعم

- وعقدت عقداً آخر مزورة اسمك مع لؤلؤ لوليان

- نعم... نعم

- ووكيل خزينةك السيد الشريف قين الاندلسي ليس الا اخاك وشريكك

في مكايديك

فلم تعد لقينة قوة التكلم فأومات براسها بالايجاب

- ومنذ بضعة اسابيع استعنت به على نصب جبالة لاهلاك تنكريد وقارون

- اعترف بذلك

- يا شقية بين النساء قتلتِ رجلين معاً ولكن لم يشأ القاضي العادل ان يوقع خصميك في حبالك ليظهر فيك تقمته السماوية . فها حيان امامك
 فرفعت رأسها وقالت . حيان . . . يا لله . . . حيان
 ثم عادت الى سكينتها وقالت قد اتقضى الامر . اتقطع الرجاء . خاب الامل
 كل ما بنيت من الصروح المتينة هدم في دقيقة . فافعلوا بي ما تختارون
 واما قين فما ادراكم ايها الاخوان ما حل به في تلك الساعة الهائلة « وقع لا من
 يده ولا من رجله » تلاشت قواه تشتت افكاره . ضاع رشاده . اقتبض قلبه .
 صبغ صباغ الجحيم وجهه . اصطكت اسنانه . غارت عيناه . ارتجفت ركبته . تقطعت
 امعاه . ارتعد كل بدنه واسترخت مفاصله فهبط الى الارض واختبأ تحت مقعد من الخشب
 وقال . صدقت رؤياي . أعدت المشقة والان يصوبنون الحبال
 ثم نظر القاضي وقال وصوته يرتجف من الخشوع . ايها السادة ما أشد عمى القلوب
 التي تشكك بالعناية الالهية ما أغلظ رقاب الجاحدين ما أقل عقول المعطلين . في
 ساعة كهذه يعلن الله عنايته للبشر بطرق عجيبة حتى تخرس ألسن المجرمين ويعترفوا
 صاغرين . يرميهم اذلاءً حيارى في يد العدل فاعتبروا الآن ما استطعتم واعلموا ان
 حكم الحكماء قد لا يكون عن يقين فلا يتركهم الله في ضلالهم وان ظنوا انفسهم
 مصيبين . وعيناه على المظلومين لينتقمم بذراع قوية

وهذا اليوم ايها السادة جليل في عيوننا عظيم الاعتبار . حضر الاله الحق فيه
 بيننا وأظهر فينا عجائبه . وأنت يا نور القارونية يا ملاك المحبة والخلوص امرأة لؤلؤ
 الشرعية قد باركك الله ومسح كل دموعه من عينيك واثابك أحسن ثواب . رداً اليك
 زوجك فلا حق لغيرك به . لان زيجته الاولى مفسوخة لا يعرفها الشرع ولا يعترف
 بها التاموس . وأنت يا لؤلؤ الوفي الصادق قد أطلق سبيلك ونلت جزاءك فتمتع
 بجلال امرأتك نور وجهها وكونا سعيدين في الدارين . وانت يا قينة الرقاصة يا خائنة
 بعلمها وسافكة الدماء الطاهرة امرأة تنكريد النجكي الشرعية قطعت عهدته وهو حي
 واتخذت باخذاع والمكر زوجاً آخر وقتلت النفوس النقية فقد صب الله عليك تقمته

وادركتك يد العدل فيقبض عليك وعلى أخيك الغاصب القاتل اللص المحتال ويُنفذ
فيكما عدل الله في الحال

وبإشارة من القاضي احدثت بهما الشرط وأوثقوها وكان قلب نور يرقص
فوثبت نحو لؤلؤ وقد فتح لها ذراعيه وعانقته وذرفت دموعها بسخاء وبكت ايضاً
سليمة من شدة الفرح وصارت تهتز تيهاً وعجباً . وارتفعت اصوات الناس بالتهاني والافراح

الفصل الثاني والاربعون

« اجتماع الشمل »

وبعد بضعة اشهر من هذه الحوادث نال تنكريد براءة من رئيس الدين بفسخ
عقد الزواج بينه وبين قينة وقد حكم عليها بالقتل (وسيأتي تفصيل اخبارها الجديدة في
الجزء الثالث) ولزيادة نعمته جعل اميراً على احدى السفن الملوكية
فكلف احد الايام برسائل خاصة يؤديها الى والي مدينة جبل طارق فرحل بسفينته
الى ان قابل سواحل البرتغال بعد الظهر وظهر تجاه رأس ادريانوس حيث اصابته
الدفنين تلك المصيبة العظيمة قبل هذا العهد بستين . وكان من جملة الركاب معه
صديقه قارون لان قينة خدعته بتلميقاتها ومواعيدها الكاذبة وهي في سجن ننت حتى
سعى في تخليصها ففرت منه خفية وتركته بعدها يقرع الناب ويكسر الارعاظ (١)
فلحق بتنكريد واستمر في صحبته فصار يبذل الجهد في تسليته وهو لا يزداد الا لهفاً
وتحسراً على نجاتها من يده وحاول كثيراً ان يساو حبه فلم يزد الا شغفاً بها حتى ذاب
قلبه ونحل بدنه

وبينا تنكريد وقارون يتمشيان على ظهر السفينة اذ عصفت الرياح وتعالته
الامواج وصارت تتقاذف المركب كما تتلاعب الريح بالريش المتوف ومع ذلك لم تظهر
اشارات خطر قريب . فكانا ساكتين لان هزير الريح وزجرة البحر وضوضاء البحرية

(١) يقال في المثل تركه يكسر ارعاظ النبال كما يقال يحرق الارم ويقرع الناب والمعنى في
غيظ شديد

لا تسمح لها بسهولة السمع . وكان قارون يجبل نظره في اللجة متأملاً فرأى شبحاً صغيراً كقطعة من الخشب سوداء تختفي تارة بين الامواج وتظهر اخرى على رؤوسها فتقدم الى تنكريد وامسك يده ثم اشار الى ذلك الشبح

فجعل تنكريد يتفرس ويجدد بصره ثم قال هذا زورق صغير يكابد المشقة في هذا النوء ولا يكون اسمي تنكريد النجكي اذا كان لا يفرق بعد خمس دقائق

لكن لم يصادف ظن تنكريد محلاً في هذا الحساب فان الزورق ما زال يعلو ويهبط وهو كأنه يطير على وجه المياه سالماً حتى قارب السفينة وحاذها ومرّ بجانبها مرّ السحاب وبقي يتقدم نحو الساحل . وكان تنكريد قد نظر الى جوفه وهو سائر فصاح عجباً ودهشاً

وكان في هذا الزورق رجلان صيادان وبينهما في وسطه فتاة كالبدر ليلة تمامه لابسة ثياباً حقيرة وشعرها الاشقر منسدل على اكتافها كخصل الحرير وهي رافعة عينيها الى السماء ونور اللطف يفيض منهما

فلما صاح تنكريد تلك الصيحة قال له قارون مالك ماذا رأيت . قال يا للعجب رأيت انيسة يا قارون

- ما تقول هل اختلّ عقلك او اتقلب بصرك

- لا هذا ولا ذاك بل مع علي انها دفينة في هذه اللجج لا اشك اني رأيت شبحها او روحها تمثل لدي كالخيال

- أفلا تظن من الممكن ان تكون هي بعينها نجت باعجوبة وباقية حية في هذه الاقطار

- لا يحتمل ذلك لانها كانت على الاقل ارسلت خبراً باحد الوجوه الى فرنسا الى بيت خطيبها

- ليس على الله شيء عسير وقد يظن الانسان ويصيب وقد يخطئ فكم مرّ علينا في هاتين السنتين من غرائب الاتفاق

- فلا بد ان اكشف خبر هذه الفتاة ولو بذهاب حياتي

ثم امر النوتية ان يطووا القلوع ويلفوا المراسي ففعلوا وهم يعجبون لبقاء السفينة

في خطر مثل ذلك الوقت

واستمروا كل بقية ذلك النهار وطول الليل في اشد الاهوال من عواصف الرياح وتلاطم الامواج فلما طلع الصباح ركبت الريح وسكن البحر وطلعت الشمس فنظر تنكريد الى جهة الساحل فرأى شاطئاً رملياً محدوداً فيه بعض بيوت حقيرة وحوها شيء من الخضرة فانزل من السفينة زورقاً متيناً وركبه هو وقارون وبعض النوتية وتقدموا باجتهاد حتى بلغوا تلك المزرعة الحقيرة المؤلفة من اكواخ الصيادين

وكانت تلك المزرعة مشهداً لحادث عجيب نأتي على خبره هنا اتماماً لمجرى الحديث . وذلك انه ثاني يوم غرق الدلفين تجاه ذلك الساحل (منذ اكثر من سنتين من مجرى هذه الاخبار) كان احد شبان تلك المزرعة قادماً عند الضحى يتمشى في طريق محاط بالعوسج والعليق وعلى ظهره حزمة جلد وحطب وهو يتزعم ويسرع الخطى الى ان وصل الى منعطف عنده ثلثة اشجار من السنديان تحتمها صليب من خشب والطريق من هناك تؤدى الى البحر فالتى حملته عن ظهره واخذ سبخته وطرح برنيطته وجعل يتلو الصلاة الربانية

وبالاتفاق وقع نظره على لطح من الدم فلشدة اشتغال باله تهباً للمسير فما تقدم خطوتين حتى رأى جسداً بشرياً منطرحاً وراء احدى السنديانات فنظر واذا هي امرأة نائمة ووجهها الى الارض فارتعش بدنه وتقدم اليها ورفعها بين يديه فرأى لها صورة بديعة المنظر بهية الجمال وعليها اصفرار الموت ملطخة بالدم ومعفرة بالتراب وشعرها منسدل مبلل بالماء وثوبها اسود ممزق ومغمس بالماء ايضاً واعضاؤها لطيفة نحيفة ورجلاها حافيتان مخدستان

فوضع يده على قلبها فلم يشعر بحركة ففك حزمته واخذ منها مرآة صغيرة وادناها من شفتيها فاغبر سطحها فعلم ان الروح لم تفارقها فحملها على منكبيه واسرع بها الى بيته . فاستقبلته امرأة عجوز فقال لها اصبحت بخير يا امه قالت وصباحك مبارك يا ولدي . كنت البارح انتظر قدومك فما الذي ابطأ بك . وما الذي تحمله . ويلاه امرأة ميتة

- ليست ميتة

- من اين اتيت بها وما خبرها

- ما ادري من هي وما بلادها وقد وجدتها تحت السنديانة في منعطف طريق البحر فرق قلبي عليها واتيت بها لعلنا ننعش قلبها وتعود الى الحياة فنكسب من الله الثواب لاجلها

- حسناً فعلت يا ولدي عسى الله ان يحقق آمالك

فدخل واضجعها على فراش من القش الخشن وقال لامه عليك بها الآن اصلحي شأنها والبسيها غير هذه الثياب وانا امصني واسخن قليلاً من الخمر عسى ان تشرب وتنعش فعكفت المرأة على العمل وبادرت الى نزع الثياب ثم صاحت . آه يا الهي يا يسوع الحلوما الطف هذه الفتاة هذه صبوية لم تتجاوز الثامنة عشرة و اسفاه عليها صفراء مخدشاً اشفق يا الله عليها واحبها . ثم جعلت تغسل دمها بماء بارد وتنضح على جبينها وصدغيها وبعد قليل دخل الفتى وقال كيف تجدين جراحاتها يا امي

- لا خطر منها ويظهر انها ساقطة على حجر فانجرح جبينها وتخدشت رجلاها من

المشي على حجارة نخرة

- ألم تحرك

- لم تختلج وما اظن فيها رماً لانها باردة كالثلج

- فاسقيها حالاً من هذه الخمر الساخنة

فاخذت العجوز ملعقة صغيرة وملاؤها وافرغتها في فمها بين اسنانها فلم تمض دقيقة حتى بدت منها حركة خفيفة فقال الفتى رأيت يا امي الحمد لله حية اسقيها ايضاً خمرآ فالعلاج شاف باذن الله . فسقتها ملعقة اخرى فتحركت ورفعت رأسها ولم تفتح عينيها . ثم وقع رأسها على الوسادة

وبقي الفتى والعجوز فوق رأسها ينظران اليها وينتظران الفرج فسقتها ملعقة ثالثة فتحركت ايضاً وانهمضت رأسها وارفتت على مرقبتها وفتحت عينيها ونظرت حولها وهي منذهلة . وبعد برهة امرت يدها على جبينها كأنها تتذكر امراً ثم انطرحت على الفراش وانهمضت عينيها فبادرت العجوز الى الخمر وسقتها ملعقة اخرى فما استقرت في بطنها حتى نهضت وقد استفاقت وصارت تنظر الى ما حولها وتكلمت كلاماً مختلطاً من جملته « ابي ... قينة ... » ثم القت رأسها على الوسادة واستغرقت في النوم

فَقَالَتِ الْعَجُوزُ مُسَكِنَةٌ هَذِهِ الْفَتَاةُ أَصَابَهَا الْجُنُونُ . وَكَانَ الْأَمْرُ فِي الظَّاهِرِ كَمَا قَالَتْ
 فَهَذِهِ أَيْسَةُ الرَّوْبَرِيَّةِ الْحَزِينَةُ اخْتَلَتْ عَقْلَهَا مِنْ جَرِي الْحَوَادِثِ الْعَنِيفَةِ الَّتِي قَاسَمَتَهَا
 فِي غَرْقِهَا . فَإِنَّ الْأَمْوَاجَ تَقَادُفَتُهَا وَهِيَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ بَعْدَ أَنْ انْقَلَبَ الْقَارِبُ الَّذِي
 كَانَتْ فِيهِ وَتَشَبَّثَتْ بِخَشَبَةٍ كَبِيرَةٍ حَتَّى الْقَتْمَا عَلَى الشَّاطِئِ غَائِبَةٌ عَنِ الْوُجُودِ فَلَمَّا اسْتَفَاقَتْ
 نَهَضَتْ وَجَرَّتْ نَفْسَهَا إِلَى أَنْ بَلَفَتِ السَّنْدِيَانَاتِ الثَّلَاثَ وَكَانَتْ قَدْ وَقَعَتْ مَرَارًا عَلَى
 الْحِجَارَةِ فَانْجَرَحَ جَبِينُهَا وَتَخَدَّشَتْ رِجَالَهَا وَصَارَ الدَّمُ يَقْطُرُ مِنْهَا فَوَصَلَتْ وَانْطَرَحَتْ
 تَحْتَ السَّنْدِيَانَةِ وَقَدْ اخْتَلَتْ عَقْلَهَا

وَكَانَ لِلْعَجُوزِ صَاحِبَةٌ ذَلِكَ الْكُوخُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ كُلُّهُمْ يَتَعَاطَوْنَ الصَّيْدَ فَحَنَّتْ قُلُوبَ
 الْجَمِيعِ عَلَى أَيْسَةَ وَاحْسَنُوا مَعَامَلَتَهَا وَفَاضَتْ عَلَيْهِمُ الْبَرَكَاتُ بِوُجُودِهَا لِأَنَّهَا مِنْذُ دُخُولِهَا
 يَتَّبِعُهُمْ زِدَادَاتُ أَرْبَابِهِمْ وَتُوفِقُوهُمْ فِي مَسَاعِيهِمْ وَجَمَعُوا مَبْلَغًا وَأَفْرَأً وَكَانُوا يَنْجَحُونَ فِي كُلِّ
 مَا يَعْمَلُونَ وَصَارُوا يَنْزِلُونَهَا فِي قَارِبِهِمْ إِذَا رَكِبُوا الْبَحْرَ مُعْتَمِدِينَ أَنَّ اللَّهَ يَبْرِكُنَهَا يَدْفَعُ
 عَنْهُمْ مُضَارَ الْأَنْوَاءِ وَسَائِرَ مَخَاطِرِ الْبَحْرِ وَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . وَمَعَ ذَلِكَ مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ
 أَنْ يَكْلُمُوهَا وَلَا كَانَتْ تَكْلِمُهُمْ وَلِهَذَا السَّبَبُ رَأَاهَا تَنْكِرِيْدَ فِي الْقَارِبِ شَاخِصَةً بَعَيْنِهَا
 إِلَى السَّمَاءِ لَا تَبْدِي حَرَكَةَ

وَلَمْ يَزَلْ تَنْكِرِيْدُ وَقَارُونَ سَائِرِينَ فِي الزُّورِقِ حَتَّى بَلَغَا الشَّاطِئَ فَوَجَدَا أَحَدَ أَوْلَادِ
 الْعَجُوزِ وَجَعَلَ تَنْكِرِيْدُ يَسْأَلُهُ اسْمًا مُخْتَلَفَةً فَعَرَفَ مِنْهُ أَنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي فِي الْقَارِبِ مَقِيْمَةٌ فِي
 يَتِيْمِهِمْ فَاعْطَاهُ دِينَارًا وَقَالَ امْشِ أَمَامَنَا إِلَى الْبَيْتِ فَفَرِحَ الْفَتَى فَرَحًا شَدِيدًا وَجَرَى
 أَمَامَهَا حَتَّى وَصَلَ

وَكَانَتْ أَيْسَةُ وَاقِفَةً أَمَامَ الْبَابِ فَحَالَمَا وَقَعَ نَظَرُهَا عَلَى تَنْكِرِيْدِ صَرَخَتْ صَرَخَةً
 شَدِيدَةً وَضَمَّتْ يَدَيْهَا عَلَى قَلْبِهَا وَاسْتَرَخَى بَدْنُهَا فَوَقَعَتْ مَغْمَى عَلَيْهَا . فَرَكَضَ تَنْكِرِيْدُ
 وَاخْتَدَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ وَامْعَنَ النَّظْرَ فِيهَا فَعَرَفَهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ

وَلَمَّا اسْتَفَاقَتْ مِنْ غَشِيَّتِهَا عَادَ إِلَيْهَا عَقْلُهَا وَنَطَقَتْ نَطَقَ الْعَقْلَاءِ
 فَجَعَلَ تَنْكِرِيْدُ يَحْدِثُهَا وَهِيَ تَحْدِثُهُ وَقَصَّتْ عَلَيْهِ مَا أَصَابَهَا فِي ذَلِكَ النَّوْءِ الشَّدِيدِ
 وَكَيْفَ نَجَتْ بِذِرَاعِ الْعَنَاءِ وَقَضَتْ أَيَّامَهَا هَذِهِ الطَّوِيلَةَ فِي هَذِهِ الْمَرْزَعَةِ لَا تَعْرِفُ مِنَ
 الدُّنْيَا شَيْئًا حَقِيقِيًّا وَكَانَهَا فِي حِلْمٍ عَمِيقٍ مُخْتَلِطٍ . وَحِكْيٌ هُوَ حِكَايَةُ قِيْنَةَ وَمَا فَعَلَتْ فِي هَاوِرِ

وغرائب مكايدها وما توقع لها بعد ذلك وكيف انتهى بها الحال . ثم ذكرها بايامه القليلة التي قضاها في بيت ابيها في هوانة وما اثر لطفها في قلبه وكيف خدعته قينة حتى تناسى ذكر انيسة وانه الآن تجددت به الصباية والوجد وكأنه بوجودها حصل على اثمن كنوز الدنيا

فكانت هي تجيبه على هذه الاشارات بتلميحات تؤذن بتعلق قلبها به وانها منعها الحياء في اول الامر من محادثته بيشاشة الحب فقال
- وما تأمرين الآن يا شقيقة القلب قالت الامر لك وانت اعلم الآن بعواطف قلبي فاذكر ما تختار لندبر

- احب ان تمضي معي الى السفينة وبعد ما نصل الى الغاية المطلوبة واقضي مصلحتي اعود بك الى بلادتي ويفعل الله ما يشاء
- هذا ما اتمناه الآن ومالي غير ذلك من الشؤون وقد قضى الله باجتماع الشمل بعد فراق طويل

- فاخبرني اذن هذه المرأة الفاضلة وودعيها وودعي اخوتك اولادها وقولي لها انك وجدت طريقة وقد عاد اليك عقلك ان تمضي الى بلادك فرنسا العزيزة فلا تلومك لانها لم تكن عالمة بشيء من امورك

فقامت انيسة في الحال الى العجوز واخبرتها بقصتها وانها كانت قادمة الى فرنسا ففرقت ونجت بعناية الله ووقدت عقلها على اثر ذلك والآن صادفت سفينة لهذا الامير صديق عائلتها الاعز . فشق ذلك على العجوز واستدعت بولديها الآخرين واجتمعوا كلهم حول انيسة ليكون لفراقها وشيعوها الى ان دخلت سفينة تنكريد

وبعد ان انجز تنكريد اشغاله في جبل طارق وقضى مصلحته القادم لاجلها عاد في الحال راكباً متون البحار وقد رأى في سفينته وفي قبضة يده ملك حياته وركن نعيمه انيسة الرويرية التي كان ابتداء غرامه بها في هوانة وتمام سعادتة بالاجتماع بها في مدينة هاور

فانه بعد ما اتى المراسي امام تلك المدينة نزل واياها وقاروناً في زورق مزين واقام الناس على الرصيف يشخصون بالابصار ليعلموا ما سبب تزوين الزورق فلما قابلهم تنكريد

بمن معه صفقوا طرباً وهناؤه بالسلامة واخبرهم عن الحادثة الغريبة التي اتفقت له في هذه السفرة فتعجب الجميع من هذا الاتفاق الغريب وتذكروا زورق فيليب لوليان المزين الذي أتت به قينة تلك المحتالة وقابلوا بين صفات هذه وصفات تلك فعرفوا الفرق العظيم بين ابن الاصل الحقيقي والمتلبس بالرياء

وشاع الخبر في كل المدينة ان انيسة الرويرية الحقيقية اقبلت مع الامير تنكريد النجكي وانها ستزف عليه بعد اسبوع وأتى نسيم الخادم مبتهجاً فرحاً يدب ويدلف وقابل تلك الفتاة الملائكية واعتنقها واعتناق الوالد الولد وقص عليها ملخص الاخبار التي فصلها لها تنكريد فكانت تزداد تعجباً من تلك الحوادث وفي الحال كتب الى مخدومه لؤلؤ بواقعة الحال فما سمح له تنكريد ان يبلغه هذا الخبر لانه قصد ان يلقاه بانيسة على حين غفلة

وبعد تمام الاسبوع تقاطر الاصحاب وسائر اعيان المدينة من كل فج وأقيمت صلاة الزفاف في الكنيسة التي كلل بها لؤلؤ على قينة فتذكروا ايضاً تلك الساعة التي كان ظاهرها سعادة تامة للؤلؤ وباطنها ويلاً لا يقاس به ويل
وبعد انفضاض حفلة الزفاف ركب تنكريد وانيسة وقارون عجلة البريد واغذوا السير قاصدين بلدة الناصرية

ولما دخلوا فندق اللويزي استدلوا على بيت لؤلؤ ونور ومضى تنكريد وانيسة وأقام قارون ينتظرهما في الفندق وهو على مثل جمر الغضا مما حل به من اعمال قينة يشغله همه عن كل شاغل

وكان دخول تنكريد وانيسة حديقة نور عند الغروب فابصرا من بعيد لؤلؤا ونور يتمشيان والنعيم يمشي امامهما فدخلوا وصاح تنكريد من بعيد هنيئاً للصديقين الخدوعين والمرأتين الفاضلتين فالتفت لؤلؤ ونور وعرفا تنكريد فتواقع بعضهم على بعض وسلموا سلام الاحباب وقعدوا يتحدثون وعرفها تنكريد بانيسة وحكى لها حكايته واطلّت سليمة من الكوة فوجدت مجمعاً زاهياً بالافراح فنزلت وحيّت يبشاشتها المعروفة وتعرفت بانيسة وصارت تصفق طرباً لما جرى لها فأمرها لؤلؤ ان تمضي الى الفندق تدعو قاروناً فمضت باسرع من البرق وأتت به بعد نحو ساعة من الزمان فاقاموا

اياماً بصفاء وسرور ورغد العيش يتذاكرون الاخبار ويشكرون الباري تعالى على اجتماع
الشمس بأغرب الطرق

و بعد ذلك انفصل كل من الزوجين عن صديقه ومضى تنكريد وامرأته لشأنهما
وأقام لؤلؤ ونور يقضيان بقية ايامهما في ذلك المنزل الفردوسي ورزقهما الله اولاداً صالحين
ولم يزلوا في انعم عيش وأطيب حال الى ان اتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات .
وسبحان الحي الباقي

واما قارون فكانت الدنيا لا تسمعه على رحبها ولا يقر له قرار من شدة همومه
فركب سفينة الى هوانة وعاد الى عيشته الاولى في الادغال وقد نحل بدنه وسقم قلبه
واعتل علة اعيت المداوين وقضى نجه في الثلاثين من عمره اسيفاً حزيناً محروق
الفؤاد مفتت الكبد على افلات قينه من يده وما اصابه من مكايدها العظيمة

الى هنا انتهى الجزء الثاني من رواية غرائب الاتفاق

ويليه

الجزآن الثالث والرابع

وفيها اخبار قينة وقين وما جرى لهما في باريس من الحوادث العجيبة



جزء الثالث

غرائب الاتفاق

تعريب فقيد النظم والنثر

الروائي الشهير

المرحوم شاكر شقير

« اللبناني »

« مساعد في تأليف دائرة المعارف سابقاً »

طبعت ثانية على نفقة مكتبة المعارف ومطبعتها

لصاحبها **يحيى بن زكريا** بمصر

—

ان الحكايات كنزٌ يستفيد به ذو الجهل عقلاً واهل العلم آدابا
فاحرز حقايقها واذكر بها حكماً اسرارها فتحت للعقل ابوابا

—

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

مطبعة المعارف بأول شارع الفجالة بمصر

سنة ١٩٠٦

الفصل الاول

« فرار قين وقينه من السجن »

قلنا في اواخر الجزء الثاني من هذه الرواية ان المحكمة استجلت قضية قينه ولؤلؤ بواسطة تنكريد وقارون وعرفت ان قينه احتالت على زوجها لتوقعه في الهلاك وان تنكريد وقاروناً شهدا عليها شهادة يئنه انها خادعة محتالة وان ذنبها مضاعف بما فعلته من التدبير في جسر وادي الجن بمشاركة اخيها وان المحكمة اطلقت سبيل لؤلؤ واذنت بان تكون نور زوجته الشرعية وحكمت بناء على اعمال قينه بقتلها وقتل اخيها ثم التأم المجلس ثانية لتقريره واستدعى لؤلؤ ليكون شاهداً في تلك الجلسة النهائية فحضر وتصرف امام القضاة بمروءته وكرامة اخلاقه لانه اسقط حقوقه وعفا عن جرائم قينه عفواً صريحاً ولم يأت بذكر السم الذي حاولت اهلاكه به غير ان مسألة جسر وادي الجن ثبتت صريحاً ولم يكن لاحد مداخله فيها الا الحكومة نفسها فاثبتت على قينه وقين حكم الاعدام عقاباً لهما وقضت بان يودعا السجن الى مضي سبعة ايام ثم يعلن قتلها

ولما ادخلا السجن طلبا ان تكون لهما فرصة للمقابلة مدة خمس دقائق كل يوم فأذن لهما . واول فرصة تقابلا فيها وجدت قينه اخاها في حالة يرثى لها من الاسف والجزع والياس وقد وهت قوته وما عاد يستطيع كلاماً واما هي فكانت لم تزل متجلدة تظهر من الضعف قوة حسب عاداتها غير ان اضفرار لونها وغور عينيها وسائر علامات الاسف كانت واضحة على هيئتها

فقال ل اخيها حين فابلته بصوت يدل على التهمك والشفقة

مالك يا اخي كثيراً حتى كانك لا تعرفني وانا امامك

فانفض قين رأسه ونظر اليها نظرة الازورار وقال بصوت اجش مرتعش

- يا قينه احترزي على نفسك لا تسخري بي ولا تنسي انك اختي وان الذي

جرى علي كان بسببك حتى صرت اكره حضورك كما اكره ابليس العين ولو...

- معنك ولو كان في مقدرتك لخقتني في الحال
- نعم هو ما تقولين لانك اوقعتني في اعظم النكبات
- مجنون انت يا قين لا تزال طبيعتك على حالها ليس عندك للمستقبل فكر تسلم نفسك بكليتها الى الحاضر فدع عنك هذه الهیئة الشیطانية وكلمني بجد. قل لي ما الذي تلومني به

فنظر اليها كالمعجب المحقر وقال

- تقولين ما الومك به
- نعم ما الذي تلومني به
- قاتلك الله هل يحتاج الامر الى تفصيل الا تعلمين اكثر مني ما جرى علينا بسبب قلة عقلك

- لا اعرفه ولو كنت اعرفه احب ان اسمعه من فيك
- اولاً دعوتني الى المشقة بترهاتك وجنونك . ثانياً قدمت بي من هوانة حيث هنا بهناء العيش وراحة البال لتوقعيني في بلايا كنت في غنى عنها واخيراً تهلكيني كلاكاً نيناً في اول عمري . ثالثاً لانك لم تسمعي شيئاً من نصائحي التي كان بها خلاصنا من الويلات . فكم مرة بذلت جهدي لانتخلص واياك من مخاطر جسيمة الا تذكرين سرعة قدومي من هاور الى الناصرية لانذرك بالمصاب العتيد ان يحل بنا والححت عليك بالهرب وقلت لك ان قاروناً وتنكر يد في الحياة يلاحقانا . أما قلت لك منذ ثمانية ايام ان افكاري مضطربة من جرى تلك الرويا التي خيل لي بها اننا مقتولان واكدت لك بحذقي وصفاء بصيرتي ان الفرار لنا نجاة . فلم تسمعي لي في كل ذلك واتبعته هوى نفسك وتصوراتك الفاسدة وكنت مصرة على عنادك تطلين الانتقام والمجد الكاذب الخادع . اعلمت الآن ان كل اعمالك وتدايرك كانت باطلة كقبض الريح وانك لا تعقلين مثقال ذرة . حتى اتلفت ثروتي وازلت راحتي وخيت آمالي ودعوتني الى السجن ثم الى المشقة . اما يكفي كل هذا يا قينة واي شر اعظم من هذا . وتقولين لي بماذا تلومني

ثم اتقطع قين عن الكلام وقد اخذ منه الغضب كل مأخذ وتلاشت قوته من

احتدام غيظه فقالت له قينة بسكينة وهدوء . أهذا كل ما عندك

- وما يكون أكثر منه

- افتظن انك هالك لا محالة خائب الرجاء

- افتخالين لي خيطاً من الرجاء وانا في هذا المطبق الخيف والموت قريب أفلا

نودع الدنيا بعد سبعة ايام يا قينة

فهمت قينة ما في صدر اخيها من المخاوف فهزّت رأسها ساخرة به فكأنّ قوة

علوية انعشت فوادهُ فقال لها

- ما بدالك يا اختي . هل سبيل للخلاص

- ما دام فكري معي فما عليّ مستحيل وحيلي لا تنفد

- أفخلص

- عسى

- تسخرين بي على علمي بمخدقك في التدبير

- لا اسخر بك وعندي ما لا تتصور

فتنفس الصعداء واخذ يدي اخته وضمها الى صدره وقال وهو كالحائر

- آه يا حبذا على اني لا اشك في دهائك . لم تخدعيني قط . كل ما تقولين

تفعلين . واذا لم يساعدك القدر فما عليك الملام لان كل تدابيرك حسنة وكل ارائك

صائبة . اثق بك كما تعلمين والبرهان اني كنت طوع ارادتك في كل شيء . يا اختي

يا حبيبتي قولي لي كيف يمكن الخلاص . من يخلصنا

- انا نفسي اخلصك

- اختك التي كدت تخنقها هي تخلصك

- عجباً يا شقيقتي كنت امزح فظننت كلامي جداً . اسأت الظن باخيك يا قينة

حتى احزنت قلبي كثيراً . والآن اخبريني ما الوسطة لخلاصنا

- لا تعينك الوسطة بل عليك الطوع لاوامري

- انا بين يديك فقولي ما تريدن

- انا اعلم ان عادتك ان تكون منطقتك دائماً مملوءة ذهباً

- نعم يا اختي وما احسن هذه العادة التي لا اغفل عنها دقيقة في حياتي
 - فنطقتك الآن ...
 - مملوءة ذهباً وبعناية الله قد حفظت اذ لم يخطر على بال الجنود ان يمدوا اليها يداً
 - فحلها واعطني قبضة
 فلم يجب قين بل تقطب وجهه حزناً وتغير لونه فقالت له
 - مالك . أتمتع
 - في المسألة نظر يا قينة
 - وبلي عليك يا منحوس يا منكود الحظ يا فاقد العقل الى متى ولمن تذخر الذهب
 افليس هذا وقت البذل لتسلم نفسك
 - صحيح . آه كل الصحيح
 ثم حل المنطقة واعطاها لاخته فاخذت منها قبضة وافرة ورددتها اليه وقالت علي
 الآن ان اسعى وعليك ان تسمع كلامي
 وحينئذ دخل السجن ليفرق بينهما ويودي قينة الى محبسها . فلما دخلت المطبخ
 واراد هو الخروج ادته اربعة دنانير وهماجت كشمس الضحى وقالت يا صاحبي اتحب
 ان تكون لك هذه الدنانير فشخص اليها محملاً عينيه واستغرب هذا البذل وقال لقينة
 اذا امكن ان تكون لي على ان لا اتضرر فلا بأس بها . قالت وما عليك ما تحذر فاني
 اريد منك قلماً ودواة وقرطاساً . فاسرع السجن واتى بالمطلوب فكتبت قينة اسطراً
 وطوت الورقة ورقت عليها اسم قارون . (حدث هذا الحادث قبل ان حل قارون
 ما ذكرناه في آخر الجزء الثاني كما اشرنا هناك) ثم قالت للسجان يا اخي هذا الرجل
 الذي اكتب اليه عدوي الالد هو الذي اسلمني الى التهلكة لكن لا يطاوعني
 ضميري ان اموت قبل ان اصلحهُ لان المسألة في آخر ساعة اوفى ما يتزود الانسان
 من اعمال هذه الدنيا فارجو ان تسلم اليه هذه الرقعة وهالك دينارين حلوانك . قال فهل
 تطلين جواباً
- لا جواب الاحضوره اليّ فان شئت ان تستصعبه فانا اعطيك دينارين آخرين
 - يسهل عليّ ان استصعبه اذا اراد لكن يصعب دخوله الى السجن ما لم يكن

بيده جواز (اي ورقة اذن بالدخول)

- لو كان معه يا اخي لما احتجت ان ادفع اليك ثمانية دنانير وضاحة لهذا الغرض

القليل الثقلة

فلم يجد الرجل لهذه الحجة اعتراضاً وخرج من عندها وهو متعجب من هذا الاتفاق الغريب الذي لم يخطر على باله طول زمانه لانه كان منذ خمس وعشرين سنة وهو في هذه المصلحة ولم تقع عينه على دينار يخصه فكان يمشي وهو يرقص من شدة الطرب

فما خلت قينة بنفسها صارت تتأمل قائلة . هل يأتي قارون . اذا ابى فالهلاك مؤكد والا فقد نجونا لا محالة . ولا بد ان يأتي لانه مها اشتد بغضه لي فني قلبه جرثومة حبي . ثم قامت وزينت نفسها بحسب ما استطاعت وقعدت تنتظر وهي كأنها على نار وبعد ساعتين من هذا الحال وهي تتقلب في لجة بين اليأس والرجاء طرق اذنها صرير القفل وانفتح الباب فرفعت عينها بشدة واذا بقارون داخل فصار قلبها يخفق من شدة الفرح . ومضى السجان ليكونا على خلوة تامة فتقدم قارون اليها وليس في هيئته شيء من الاضطراب ووضع يديه على صدره وقال لها دعوت بي فحضرت فما ترغيبين

ومن المعلوم ان قينة داهية دهما . وحية رقطاء تجعل لوجها الهيئة التي تريدها فيفعل تأثيرها في من يقابلها فعلاً عجيبياً بحسب مقاصدها فنظرت الى قارون نظرة اللطف والتذلل وقد مسخت من الهيئة الابليسية الى الهيئة الملائكية ومدت نحوه يديها وقالت . تسألني ما ارغب يا قارون الا تعرفه احب ان تصفح عما اسأت اليك وما كنت مضمرة لك من الشر وانا اجثو على قدميك اذا لزم الامر حتى لا ترد سؤالي لانك تعلم ان من يموت لا تخالف ارادته وها انا مفارقة دار الدنيا

فخرق كلامها قلبه الى اقصى عروقه وما عاد يقدر ان يحول نظره عن وجهها البديع الذي طالما كان موضوع همه وافكاره وتذكر تلك الايام السعيدة التي قضاه معها في المدة الاولى من خطبتها فتحركت عواطفه وكادت الدموع تملأ عينيه وشعر كأن ركبتيه ترتجفان تحته من فعل السحر العجيب . غير انه ملك نفسه وتجلد وقال لها

بسلاسة وبرودة طبع ما يهملك يا قينة صفحت عنك اولا هل علمت اني كابدت المآ
هل علمت اني ذاكر او ناسي آلامي . وما اكون انا منك سوى رجل اجنبي ليس له
شأن عندك . بل عدو مبين فما الفائدة لك من صفح عدوك

- اوآه . . . آه ما اقسى قلبك يا قارون ما اقل رأفتك . ليتك تشعر بحواسي
الآن ليتك تقدر ان ترى اعماق قلبي فترى اني على ما اعلم من سالف ذنبي واساءتي
اليك نادمة كل الندم متأسفة كل الاسف ومتأثرة مما جرى علي وهو كفارة عن جرائم
وانتقام لك بالقدرة الالهية

- ما هذا الجزع . هل تخافين الموت الى هذا الحد

- لا أخاف الموت كلاً واحب ان يقرب اليّ خطواته لكي استريح به من
عذابي . فما كآبتي من نزولي في ريعان صباي الى القبر بل من افكاري القلقة مما
اتذكر من مساويي . انظر اليّ يا قارون فلا ترى المرأة التي كنت تبجها ليست التي
تخاطبك قينة الاولى حبيبتك بل هي قينة جديدة لم يبق لها من الاولى الا الوجه
والتذكار . كاني استيقظت على اثر رؤيا هائلة وهذه الرؤيا هي عبارة عن زماني الاول
وما استفتت حتى رأيت الموت ماداً اليّ انامله

وكان قارون يسمع كلامها وهو كالخيران او كالسكران ورأى فيها تغيراً عظيماً
وانقلاباً عجيماً وطابقت ادلة كلامها ملامح وجهها المكسوف جماله

وعلمت قينة بما يختلج به قلبه فلكي لا تدع له فرصة يحو بها تأثيراته هذه قالت
له اسمع يا قارون ما اقول لك وانا اعلم ما انت عليه من حرية الضمير والخلوص دعني
اكشف لك قلبي فحينئذ لا تخيب فيك رجائي وتجود لي بعفوك فيكون لي تعزية
علوية . فاعلم اني ليس لي عذر عما فعلت في الماضي الا اني كنت مجنونة عمياء مررت
بالسعادة وما ابصرتها فادّى بي الجنون والعمى الى هذا المطبق وانا ملطخة باوزاري
ويد العدل عليّ والموت قريب مني

وسكنت هنيهة وهي تمسح بيدها على جبينها كأنها تبدد غيماً كثيفاً من الاكدار
المستحوذة عليها ثم قالت اتذكر ذلك الكوخ الحميم الذي كنت فيه انا واخي في هوانة .
اتذكر دخواك الاخير عليّ ومعك تانك اللؤلؤتان . آه يا قارون ما اشرف ذلك القلب

الذي حكمتني به . ما اصفى ذلك الحب الذي عاملتني به وانا احتقرته واسأت الى نفسي . فالجنون الذي ذكرته لك يكون هو الذي قادني الى التهور حيث اراني السعادة في الغنى والمجد فعميت عن السعادة الحقيقية التي ليست في هذا العالم الا الحب الخالص والقلب الودود

أفلسنت نظير حواء في جهالتي غرّها الغرار حتى حرمت النعيم الخالد . آه ما الطف تينك الدرّتين كأني اراها الآن موضوعتين على ذلك القطن الناعم في العلبة الظريفة التي قدمتها لي وانت فرح بما ظننت انه يكون لي من السرور برويتيهما فغشي بصري الغفوان ورددتهما اليك ورفضت محبتك . فاخذتهما وسحقتهما تحت اقدامك وغيرت عليّ قلبك . وا اسفاه كائناتنا رمز حياتي بعد ذلك لانهما من ذلك الوقت انسحقت تحت اثقال الشقاء المقدّر لاني ثاني يوم اخذت في السعي بسرعة الى هاوية الضلال وما كنت ادع مانعاً في طريقي طلباً للغنى والمجد حتى كنت ارتكب المحظورات لانال غاييتي الساقطة وكنت ارى كأن السعادة تتلأأ امامي وما عرفت انه سراب المغرور . فهذه هي الغاية التي اوصلني اليها جهلي . والآن استققت من تلك السكرّة وتجلت لي الحقيقة والحكم الصادر عليّ حق هو وعدل فلا اتذمر من حظي المنحوس بل الذي يعذبني اشد العذاب ضميري الحيّ الآن لاني امتنعت عن دخول سبيل النعيم الذي فتحته لي فكنت الآن عائشة معك بهناء ورغد ورخاء بال في تلك الغابات التي كنت اميرها وسيد اهلها . افهمت الآن يا قارون ما الذي اقايسه من العذاب ومع ذلك لا تمنحني العفو

ثم وقعت على اقدامه وضمت يديه بيديها وقبلتهما وهي تنتحب وتذرف الدمع السخين وتقول له اصفح يا قارون جد بعفوك اذا شئت ان اموت قريرة العين . باسم الاله الحي اقسم عليك ان تصفح عن اساءتي

وكان قارون يسمع هذا الحديث المؤثر في قلب الجامود وهو لا يملك نفسه من شدة ما فعل بعواطفه التي قلما تتحرك لدى العذابات حتى الموت فصارت ضربات قلبه مضاعفة ودموعه جارية على خديه وانهض قينة بيديه وقال لها بصوت مرتجف وقد خانته الجلد . يا قينة اذا كان سكون نفسك متوقفاً على صفح رجل طالما اسأت اليه

فلتطب نفسك فاني صافح من كل قلبي

- آه يا حبذا فليباركك الله وما اعرف كيف اشكر معروفك وقد كافأت اساءتي
بالاحسان . سكبت على رأسي حجر نار وانت اهل للحلم يا قارون هذا اعظم انتقام نلته
مني عفوك الجميل عن شقائي العظيم . قد اصفيت لك نيتي ولي فيك ثقة لا توصف
بلسان انك لا تخيب رجائي اذا سألتك سوء الا آخر

- قولي ما تريد عسى ان اقدر على ابلاغك المراد

- قادر على ذلك وهذا اعظم معروف تصنعه معي . انت تعلم اني اموت شتقا وهو
عدل ولا بد منه فكيف اطيق ان اهان واتعذب امام ارذال الناس واكون لهم سخرية
وموضوع شماتة . آه يا قارون هذا عندي اشد من هول الموت . فكان بودي ان
اشج راسي بجدران هذا الحبس لو كانت لي قوة كافية . فساعدني يا قارون وخلصني
من هذه الالهانة والعار واجعل موتي من يدك فيكون لي اطيب ما ارجو في حال اليأس
ويسهل علي جدا ان اموت غارقة في بحر جميلك

- ما مرادك في هذا الكلام

- اطلب اليك متوسلة ان تحضر لي سماً ناقماً يقتل في دقيقة واحدة . هذه راحتي

التي لا اناها الا من يدك يا صديقي الشفوق

فاحنى قارون رأسه وصمت متأملاً وهو مرتعش المفاصل فقالت فيم تبصر الا
تجيبني الى طلبي . فنظر اليها بعين متقدة وقال غداً اعود اليك وآتيك بالسم . ولم يعد
في طاقته البقاء لديها على هذه الحالة واحشاؤه تتمزق كآبة وخرج من السجن ودخل
السجان بعد برهة لينال ما عسى ان تجود به قينه من الذهب فقالت له الرجل الذي
كان هنا الآن يعود غداً واعطيك دينارين آخرين قال على الرأس والعين ادخله اليك
وخرج وقلبه مفعم فرحاً بهذا الكنز الجديد العجيب

وبعد نحو ساعة كان ميعاد اجتماع قينه باخيها فصار يسألها عما فعلت ويطلب

الاستفادة بالحاح شديد فلم تكن تقول الا هاتين الكلمتين . الامور حسنة

واما قارون فلا حاجة الى تفصيل ما حصل في قلبه من التغير العجيب بطلاسم

جمال حبيته القديمة وسلاسة حديثها فانه نسي كل ما احتمله بسببها من العذاب

والنكيات والخيانة والاحتيال ونحو ذلك من الشرور التي كانت تنصب عليه ويلاتها من غمر دهائها . وما عاد يذكر الاحسانات ومحاسنها وفتن لبه بهاها وجمالها الساحر . وكان يعصى صوت ضميره ورشاد عقله ولا يتصور الا اللذة العظمى بتحدد محبته الخالدة مدة طويلة فاستعرت في فؤاده الصادق نارها اللطيفة اللذيذة ورق كل الرقة على حال هذه الفتاة الفتانة . هذه الحبيبة المنطبع رسمها في قلبه وفكره حتى رأى انها معذورة في كل ما صنعت وان اسرها والحكم عليها ليس من باب العدل وان الدهر خانها وجرى القدر بخلاف ما كانت آملها تصوّر لها . وهكذا توجهت كل خواطره الى ما فيه خلاصها ليكسب رضاها ويثبت حبه في فؤادها فقال في نفسه لم تزل تحبني هذه الفتاة البديعة سعت للمجد فما ادركته وعلمت ان الراحة والسلامة بيدي ولم تفعل ما فعلت بغضاً بي بل الظروف خلطت عقلها وحاولت النفوذ في مقاصدها والآن عدت الى منزلي الاولى في قلبها وقد يئست من كل شيء واستفاقت من طيشها واصفت لي ضميرها فما هذه الورطة التي حصلت فيها وما اقسى قلوب هؤلاء القضاة الذين لم يرحموا صباها . آه يا قينة كيف اطبق فقدك وكيف اعيش بعدك كيف احتمل ان اناولك السم ولا ترتعد فرائصي جزعاً . لا . لا . لا تموت قينة . تحيا على الارض كما هي حية في فؤادي . لكن ما الوساطة ما الطريقة كيف السبيل الى خلاصها

وبقي كل ذلك الليل يتقلب على مهد الآمال والآلام من جهة تخليصها واحساسات قلبه المحب الصادق العاشق الوهان . وعلمت قينة بنفسها ان هذا التغير لا بد من حصوله في قلب قارون لما تعهد من سلامته الطبيعية ولذلك كانت تقول لاختها الامور حسنة وهي كل ساعة تتوقع بلوغ الامل

وثاني يوم في الميعاد دخل قارون السجن بواسطة السجان وقلبه يخفق ورجلاه تضطر بان واول ما وقع عليها نظره قال لها يا قينة لا تطلي الان ما طلبت البارح فقد وعدتك بالسم لكن عدلت فما السم آتيك به بل الفرج من هذا الضيق يجب ان اخلصك ولو احرقت الحبس ولو اجرئت الدم انهاراً

فصاحت قينة مندهشة خافقة القلب وعيناها متغرغرتان بالدموع وتنظران اليه

نظرة الدليل الكئيب وقالت . آه يا قارون تحبني الى الان

فوضع قارون يدهُ على قلبه وتهد وقال . تسألني قينة هل احبها . يا للعجب كانها
لا تعلم اني باشارة واحدة منها انتزع قلبي واطرحه رامياً على اقدامها
- اصدق اصدق يا حبيبي . آه يا الهي لك الشكر . هذا النعيم الاكبر بقاء قلبك
لي او بالحري رجوع المحبة اليه . الآن طاب لي الموت

- لا موت يا قينة والحياة تنالين

- هذا لا يكون ابداً

- لا بد من خلاصك

- ان وقتت الى المعجزات . ومع ذلك فاحب اليّ الموت على رضاك

- لم تكريهين الحياة

- لاني ما عدت مستحقة حبك ولا محبتك

ثم دار الجدال بينهما في هذا الشأن الى ان انتهى الفوز الى قارون كما هو متظر
طبعاً . وعزمت قينة على القبول بالفرار من السجن واخلاص من الموت اجابة لقارون
في الظاهر وقد جاءها الامر على ما تريد في الباطن فاخذت تعمل فكرتها القادحة في
كيفية التوصل الى هذه الغاية الشبية وكانت قبل ذلك قد مهدت لها بعض الطريق
فسألت قاروناً عن الكيفية التي ادخله بها السجن فاخبرها انه ادخله الباب الاكبر مع
حرسين ثم مرّ به بجماعة من الحرس يبلغون اثني عشر رجلاً شغلهم اللعب واللهو
والشرب واجتاز به دهليزاً طويلاً ليس فيه احد من الحرس ولا الجنود الى ان
اوصله الى باب السجن

فحينئذ اخذت تقرر لقارون التدابير اللازم اتخاذها وكتبتها له في رقعة اثلا ينسى
منها شيئاً فخرج من عندها وهو ثمل من الفرح والامل وخيلت له آماله انه في وقت
قصير يرى قينة متكئة على صدره في ظل غابات بلاده الشائقة

وبعد ساعة اجتمعت قينة باخيها فسألها عن الاحوال فقالت الى الغد ان شاء الله .
ولما كان الغد دخل السجن على قينة ومعه غداؤها حسب العادة وسألها هل تحتاجين
ان آتيك باحد اليوم . وذلك لانه اغترّ بكثرة بذلها وقال في نفسه حيث ان ايامها
قصيرة يجب ان اعجل جهدي باكتساب شيء من هذه الدنانير فلما اجابته ليس لي

حاجة باحد تمهد وقد يؤس من الدنانير لكنه شدد عزمه وحاول اقناعها بوجوب لقاء احد لوداع او نحوه فقالت ليس لي من اودعه اذ لم اعد من اهل هذا العالم ولم يبق لي الا مراد واحد وهو الاستعداد للقاء الباري تعالى

- اذن ادعو اليك بصاحب صدقات السجون فهو رجل كريم الخلق طاهر القلب
- بل الاولى ان تدعولي برئيس الدير لكي يعظني ويشجعني على الموت فهو اليق
من غيره على كل حال

- ليكن ما تحبين

- لكن يصعب ان تجده لاني نسيت اسمه

- اف لقله التوفيق

- غير ان عندي واسطة اخرى وذلك انه يوجد كل يوم الظهر في الكنيسة يصلي

صلاة خصوصية

- الحمد لله فانا اذهب اليه عند الظهر تماماً

- وتقول له امرأة مسجونة رأيتها مرة تدعوك اليها للارشاد والتشجيع

- الامر على ما تشهين فالظهر غداً يكون هنا

- وانا اعطيك عوض الدينارين عشرة

فخرج الرجل وهو يقول اتت السعادة وفي الوقت المعين دخل الراهب وقد لبس قبعه الكبير الواسع حتى غطى وجهه فقال السجنان أهذا يا مولاتي الراهب المطلوب قالت نعم وافرغت في يديه الدنانير الموعود بها فخرج واغلق الباب وكشف قارون عن وجهه واخرج من تحت جيبه صرة كبيرة سهل عليه اخفاؤها تحت تلك الجبة الواسعة واذا فيها ثوب آخر رهباني وحبل طويل وحلة جندي من جنود الحرس فقالت له هل معك سلاح فاراها خنجرين حادين فاخذت احدهما واخفته تحت ثوبها ثم تقدمت الى الباب وقرعته قرعة خفيفة فدخل السجنان فوثب عليه قارون واوثقه بالحبل وثاقاً شديداً وكانت قينة قد ربطت فمها بمندبل حتى لا يخرج صوته ثم لبست حلة الراهب التي اتى بها قارون واسدلت القبع على وجهها واخذت المفاتيح المعلقة بمنطقة السجنان وهو مطروح بلا حراك وفتحت باب مطبق قين فبهت من مرآها وظن ان الساعة قد جانت فجزع

جزعاً شديداً فكلمته حتى سكن وطفح الفرح على قلبه ولما رأى قاروناً ضمهُ الى صدره وحلف له انه كان دائماً يعتبره ويحبه ثم لبس حلة الجندي

ولم يبقَ اذ ذلك الا الخروج من السجن وهي صعوبة لا تقدر لان وجود احد الحرس معترضاً لهم كافٍ لكشف الخيانة اذا لم يطرح صريعاً بضربة واحدة . فتقدم قارون امام قين وقينه في الدهليز المار ذكره ولم يصادفوا احداً ففتحت قينه بابه النافذ الى طريق دار العسس فلم يجدوا في الدار احداً فتقدموا حتى حاذوا محل الحرس فكان هناك اثنان يتحدثان في النافذة فقال احدهما للآخر مالي ارى راهبين وما دخل غير راهب واحد . فوضع قارون يده على قبضة الخنجر . فقال له رفيقه لا بد ان احد هذين الراهبين الصالحين يكون قد سبق الآخر ولم نره لالتهاثنا ببعض الحاجات من الصباح الى الآن

فمرَّ الجماعة بلا معارضة وخرجوا الى الزقاق فكانت هناك عجلة استأجرها قارون فركبها ومضت بهم كجبوب الريح فلما امنوا الخطر صاح قين من صميم فؤاده الحمد لله مكتوب في اللوح اني لا اهلك مشوقاً وهذا خلاص لا يكاد يصدق ثم انعطف الى اخته وقال على ماذا عوّلت منذ الآن فقالت ساخبرك هذه الليلة

وكانت قينه قد اتفقت مع قارون ان يأتوا فريضة من اساكل بريتانيا ويسافروا منها الى انكلترا ومن هناك يسرعون الفرار الى هوانة في اول سفينة

وفي الساعة الاولى من الليل بلغوا فندقاً فتوقفوا عن المسير لراحة فرس العجلة تلك الليلة لان قوته كانت قد وهت من كثرة السير وسرعته ودخلوا الفندق واكلوا ثم قالت قينه لقارون ان يدخل حجرة وينام لانها هي ايضاً تنام في حجرة اخرى فمضى قارون اولاً لتقديم العليق للفرس ودخل قين حجرة اخته وقال لها اصحيح اننا نذهب بصحبة قارون الى هوانة كما قلت

- لا تزال مجنوناً يا اخي وعقلك عقل ولد

- فماذا قصدت اذاً

- ان نترك هذا البر بري في جوف هذا الليل اذا قدرت ان تتباع فرساً قادراً

نركبه كلانا

- الواسطة غير صعبة . ثم ابن نمضي
 - الى اقرب مدينة فنتأجر عجلة البريد ونمضي الى هاور لان ما حدث لنا في
 ننت لم يبلغ هاور حتى الآن فاخذ ما لي من الخلى والجواهر وما استطع من النقود
 وتركب طريق باريس تلك المدينة التي يدعوني اليها التوفيق
 - ما أجهل وما احسن ما ذكرتِ فالآن امضي وآتي بالفرس واصفر صفرة خفيفة
 فتدركيني

فلما كان نصف الليل سرق قين فرساً نشيطاً من الاصطبل وصفر فأتته قينة في
 دقيقة تسال كالا فمى فركبا الفرس ومضيا
 واما قارون فكان من امره بعد ذلك ما ذكرناه في آخر الجزء الثاني وانتهت
 حياته في غابات هوانة في اشد الآلام

ولما صار على بضعة فراسخ من هاور نزلا فندقاً في قرية ليستريحاً ويطعما الفرس
 فدخلا قاعة الطعام وجلسا يأكلان أكلاً قشفاً ويسمعان ما يدور من الحديث
 بين الموجودين فسمعا رجلاً يقول في هذا الصباح وصل الخبر من ننت ان اتفاقاً غريباً
 اتقد لؤلؤها من الحكم ووقعه على امراته واخيها والناس في مدينة هاور في فرح لا
 يوصف لهذا الحادث العجيب . فعند ذلك اصاب قيناً وقينة شدة انفذ فعلاً من
 الصاعقة وقد حبط مساعهما وسقطا في يدهما ويثسا من كل فائدة في هاور فعزما على
 سرعة الفرار الى باريس رأساً

فاما قين فكان يلعن ويشتم الف مرة في اليوم وهو اسيف حنق كئيب مختار من
 سوء الانقلاب واما قينة فكانت تشجع نفسها وتمنيها بالآمال الطويلة وترجو ان القدر
 لا بد ان يساعدها يوماً وخصوصاً بعد بلوغها باريس

وكانا يقطعان الطريق باكدار وعناء وعجز الفرس عن المسير بها ولم يعد في يدها
 نقود كافية لمصروف الطريق فباعا الفرس بخمسة عشر ريالاً وصارا يقطعان المراحل
 ماشيين ويكتفيان بكفاف القوت وهما مختاران كيف تكون عيشتها في باريس واعملت
 قينة كل فكرتها فلم تجد طريقة الا الرجوع الى مهنتها الاولى اي الغناء والرقص فاشترى
 طنبوراً وغيرها ثيابهما حتى عادا بالهيئة التي كانا فيها في بيت القمار في هوانة . وكانت

هذه الحالة تسوء قينة جداً . كيف بعد عزها وجلالها انحطت الى هذا المقام الخسيس حتى تصير اضحوكة وهزأة للناس في الاسواق والمحلات العمومية يا للانقلاب العظيم يا للمصيبة الكبرى . لكن ما العمل . هل تموت من الجوع هل يمكن ان تحصل على معاشها الا بهذه الطريقة . وبناء على ذلك جداً المسير حتى بلغا باريس في اسوأ حال واشترى قين حربة عتيقة بانحس ثمن واقاما يتعيشان مدة بهذه الصورة حتى ضاقت اخلاق قينة ولم تعد تطيق الصبر على الذلّ والعار وكان قين لسوء الحظ قد تعود لعب القمار فصار يخسر ما يبجانه من مهنتها فكان ذلك نحساً فوق نحس وسمعت قينة يوماً بعراًفة شائعة الخبر في باريس يقال لمنزلها المنزل الاحمر فقصدتها هي وقين وما معها غير ريال واحد كان في عزمها ان يتعيشا به ففضلت قينة ان تبذله في مقصدها هذا رغماً عن تمنع اخيها وقالت نيت بلا طعام على ان اعرف مستقبل نصيبي في هذه الليلة

الفصل الثاني

« عرّافة المنزل الاحمر »

اصل هذه المرأة من عائلة فقيرة حقيرة بريتونية ساكنة في اطراف مزرعة صغيرة على شاطئ البحر على مقربة من احدى مدن بريتانية وعلى نحو غلوة من الميكان المذكور كان قصر بديع المنظر لعائلة شريفة بارونية يقال لها الكرجانية وكان قد بقي من هذه العائلة بارون يقال له راجي الكرجاني له ولد وحيد اسمه لوقا وكان سنة ١٧٤٨ في السنة السبعين من عمره ومدخول ثروته اذ ذلك اكثر من مئة الف درهم في السنة وعمره ولده حينئذ اربع عشرة سنة وكانت امه قد توفيت بعد ان ولد بيومين فكان طالعه طالع نحس على ما ظهر

والعائلة البريتونية الفقيرة كان قد بقي منها امرأة عجوز اسمها حنينة الغلوية لها بنت واحدة صبية اسمها بريرة عمرها نحو ثمان عشرة سنة وهي بارعة الجمال متوقدة الفكر . وكان معاشها على الاكثر من نفقة البارون المذكور لان الاب كان من رؤساء صياديه

فكان يحسن الى عائلته بعد وفاته اكراماً لخدمته النصوحة
وعلى غلوة ايضاً من الجانب الآخر من القصر كان برج قديم منهدم لا يعرف
اصلهُ . وكانت بُرَيْقَةُ الغلوية تفوق سائر فتيات المزرعة في الجمال والحذق ليس لها
شيء من امياهن الصباية ولا تصوراتهن الطبيعية بل كانت في كل مشاربها تخالفهن
ولم تتخذ لها صديقة منهن لشدة عنفوانها وعزة نفسها وكانت لا تميل الى الاشغال
المألوفة لقيام بيت كيتها بل كانت نفسها دائماً تطمح الى العلاء وآمالها تصور لها الرفعة
والمستقبل الحسن المجيد . اوها لم تكن تدري كنهها ولا مصدرها . وكان لها ميل شديد
الى العلم تسمع به ولا تعرف منه شيئاً وتعتمد ان تحصيله يكون لها ارحب ابواب
السعادة فأخذت تحاول تعلم القراءة بلا استاذ ولا معين الا كتاب صلوات عتيق في
بيتها وما زالت تبذل جهدها حتى صارت تهجى . وكان لها ايضاً رغبة شديدة في
الامور المتعلقة بالسحر والعرافة ونحو ذلك وتعلمت كثيراً من مثل هذه القصص
والحكايات السحرية في صغرها فكانت لا تزال ترددها في افكارها ولسانها وهي تتشى
متأملة على شاطئ البحر

وفي ذات يوم قصدت البرج المنهدم المذكور آنفاً وكان شائعاً في البلد انه مأوى
الجن ولا يجسر احد ان يدخله لا ليلاً ولا نهاراً فقالت انا ادخله لانظر ما فيه وهذه
الخرافة الشائعة لا اعتقدها وان كانت صحيحة فالجن لا تضرني . فدخلته وصارت
تجبل نظرها هنا وهناك فوق بالاتفاق على وجه طويل اللحية كثيف الحاجبين اصلع
الرأس ابيض الشعر يتفرس فيها من نافذة عالية فارتعش بدنها وارادت الفرار ثم قالت
في نفسها ان كان انسياً فلا بد انه عالم بالسحر والطلاسم والا فما وجوده هنا فأتفجع به
وان كان جنياً فلا أخشى ان يؤذيني ولعله لبعض المقاصد ظهر لي

وحينئذٍ اختفى ذلك الوجه وسمعت حركة في الداخل وصوت مشية ثقيلة وفي أقل
من دقيقة ظهر امامها من باب في منعطف الحائط شيخ هرم قد احناه الكبر وعليه سيماء
الجلال والوقار فقال لها ما تصنعين هنا يا بنية

- أنفرج على هذه الآثار

- وكيف جسرت ان تدخلني هذا المحل

- لست ممن يخاف الخرافيات
- ومع انك رأيتني بطريقة غريبة كيف لم تخافي
- قلت انك لا بد ان تكون عالماً بالسحر والطلاسم فأحيت ان اكلك واستفيد منك علماً
- أو ترغبين هذه الامور
- أحب كل علم وأريد ان أتعلم كل ما يعلمه انسان
- أتعرفين القراءة
- لا أقرأ بل اميز الحروف
- فكيف يمكنك ان تتعلمي العلوم
- اذا كان لي نصيب فلا تفوتني
- أتجيبين ان اعلمك
- أرغب من كل قلبي ان كنت عالماً
- أنا من اكبر العلماء وأعرف كل ما تطلين معرفته
- فابتدي الآن بتعليمي اذا شئت
- بل من الغد تأنين في هذه الساعة كل يوم وسنرى ما يكون من المستقبل
- على الرأس والعين وترى مني من الرغبة والاجتهاد ما يفوق ظنك . ثم ودّعتهُ ومضت وهي ترقص فرحاً

وكان هذا الرجل المائياً اسمه اسحق وكانت همته تسمو به الى العلا فأقام في باريس ستين سنة يتعاطى فن التنجيم وصناعة السموم حتى نال شهرة سرّية عظيمة وحصل ثروة لا تحصى وصار عمره ٨٥ سنة فانكشف اخيراً سرّه وطلبته الحكومة ففر متخفياً وضبطت املاكه ولم يبق له الا نحو ٢٠٠ دينار في منطقتة . ففضى رأساً الى بريطانيا يقطع المراحل ماشياً ورأى البرج القديم المذكور فاختره مقرّاً له وبعد يومين من اقامته انفق انه صادف بريقة وجرى له معها ما تقدم ذكره فرأى منها نباهة أعجب بها وشوقاً للعلم تعجب منه . ومن ثم صارت تختلف اليه كل يوم برغبة شديدة فوجدها ثاقبة الفكر متوقدة الذهن فمكف على تعليمها باجتهاد وقال هذه تكون خليفتي

في هذا العلم العجيب فعلمها النجوم والفراصة والعرافة ونحو ذلك من الفنون الخزعبلية القديمة وكان يلج عليها ان تمارسها ولا تعتقد صحتها وان الناس مع ذلك تثق بها على بساطة القلوب في ذلك الزمان وشيوع مثل هذه الخزعبلات في كل اقطار العالم وبعد سنة اتقنت بريقة هذه الفنون فكشف لها حينئذ سر صناعة السموم ولم تمض سنة اخرى حتى مهوت في كل ما تلقت منه ثم مات وتسلم روحه ابليس بعد ما اوصاها ان تذهب الى باريس حيث يثمر علمها ثمراً غزيراً الواحد مئة ألفاً واعطاها ما معه من الدنانير

وبعد ما قضى اسحق نجبة تركته بريقة ومضت في طريقها فصادفت شاباً لطيفاً معه بنديفة صيد وكلبان وكان عمره نحو ست عشرة سنة وهو نفس لوقا الكرجاني المار ذكره . وكان هذا الفتى من مدة سنتين قد شغف بحب بريقة وهي لا تكترث به ولا تبالي بكلامه ولا تودده ولا مواعيده ولا شرف مقامه بل همها الوحيد العلم . واي علم . علم الشر والخداع . لا يميل قلبها الى الاباطيل الشهوانية ولا تعتز بزهاء الشباب وروثو الجمال

فلما رآها لوقا حينئذ استوقفها واخذ يث لها غرامه وشوقه الشديد وهو كأنه يضرب في حديد بارد وبعد حديث يطول شرحه ارادت الانصراف فمنعها ما لم تعده بلقاء آخر فوعده وعده عرقوب الى الغد قبل الغروب واسرعت الى منزلها فجمعت تجمع ثيابها اللازمة وعملتها صرة وعلقتها بعضاً وقبل الصباح بارحت البيت من غير ان تودع امها ولا تقول لها كلمة واحدة واخذت في طريق باريس

ولما كانت ساعة الميعاد كان والد لوقا قد اصاب بمرض فجائي اسرع به الى الموت فكان يحتضر حينما عزم ابنه على الخروج للقاء بريقة فطلب اليه ابوه ان لا يفارقه لئلا يموت وهو بعيد عنه فغلب عليه الشوق للقاء الحبيبة وسد اذنيه عن طلب اييه وخرج الى البرج فوقع نظره على جثة اسحق فارتعش ولم يجد بريقة فقال لعلها استكرهت وجود هذه الجثة فانصرفت وغداً اراها ثم عاد الى القصر فوجد اباه قد فارق الدنيا وبعد يومين اصاب لوقا هتان عظيمان اولهما انه عرف برحيل بريقة من البلاد ولم يعرف اي وجه قصدت والثاني ان ميراث اييه لم يسلم اليه لانه كان الى ذلك الوقت

لم يبلغ سن الرشد . فمضت عليه اربع سنوات وهو يلهو بالباطيل ويقتل الوقت قتلا بالصيد ونحوه ولا يصيب من ماله الا كفاية مصروفه . وفي تلك المدة ضعف حب بريقة في قلبه ولم يعد يبالي بها . وبعد انقضاء هذه المدة تسلم ميراث ابيه شرعاً فكان مقداره مائة الف دينار فجمع المال في صندوق وركب عجلة وقصد باريس ومن المعلوم ان شاباً لطيفاً ظريفاً شريفاً غنياً في عنفوان شبابه خالياً من الدين والادب والعلم في مدينة كباريس زاهية زاهرة بالافراح والهناء في ذلك الزمان تتدفق فيها اسباب اللهو والطرب والبدخ والاسراف لا يكون مسيره الا على طريق الخلاعة والباطيل . فهناك اقام لوقا يسرح ويمرح ويعتز ويتزين ويتفرج ويتنزه ويتخذ الاصحاب والصواحب ويبدل الدرهم والدينار جزافاً الى ان قارب شفير الدمار وفصلت له حلة العار

واما بريقة فكانت بعد دخولها باريس بايام قليلة قد اتخذت منزلاً صغيراً واطلقت نفسها عرافة منجمة وصارت تكسب كسباً معتدلاً مدة سنتين فرأت ان الحال لم يأت لها بما كانت تمنى وان الثروة التي تقصدها لا تحصل في مدة قصيرة فقالت لا شك ان الناس لا يثقون بي كل الثقة على ما بي من نضارة الشباب فلا بد ان اتخذ هيئة عجوز هرمة فنعظم ثقة الناس بي ويتواردون اليّ من كل فج لان الكبر اول دليل على سعة العلم وغزارة المادة . ومن ثم اتخذت وجهاً صناعياً من شمع مبطن بحجر برهيتها هيئة عجوز بنت مائة سنة . ثم استأجرت داراً قديمة في شارع قفر يقال انها كانت منزل احدى حظايا الملك وهذه الدار يقال لها المنزل الاحمر فنقلت اليها سرّاً كل ما لها وخرجت من محلها الاول متخفية وبعد مديدة اعلنت نفسها بصفة عرافة جديدة خبيرة بكل فن

فما مضى عليها زمان طويل حتى اشتهرت شهرة شاسعة وصارت لها علاقات مع كل عيال باريس الشريفة والوضيعة وصار الاكابر وارباب السياسة واعيان الاشراف يراعون جانبها ويسلمون اليها اسرارهم فاصبح بيدها زمام اكثر الامور وصارت الناس تهابها هيئة عظيمة والعامّة تخشى الدنو من منزلها واشتهر المنزل الاحمر بالمهابة والسحر والطمس ونحو ذلك وكان الرعب يستولي على القلوب عند ذكره وذكر صاحبه لانها

كانت ايضاً تباع السموم لكثيرين من الاعيان الذين يريدون تعجيل هلاك آبائهم لسرعة الاستيلاء على ميراثهم . ومن الذين لهم اغراض نفسانية على غيرهم وامثال هؤلاء ، ولذلك اطلق الناس على هذه المرأة اسم الغولة (١)

وكان لمنزلها منفذان يدخل من احدهما النافذ الى شارع قفر ويخرج من الآخر النافذ الى زقاق اسمه زقاق الاستفاضة . وكان كل من يدخل يضع على وجهه نصف وجه اسود نظير برقع لثلا يعرف واكثر الذين يضعون هذا البرقع من الامراء والاشراف وامثالهم . وكانت مع ذلك قد اشتهرت بالاقراض لاولاد العيال الكبيرة الذين يسلمون انفسهم الى التهور في القبايح فيفقدون ما بيدهم فاملاً بميراثهم تسلمهم المال بفائدة فاحشة ولا يجسر احد ان يخونها وخصوصاً لانها لا تقرضهم الا بكفالة معتبرة او رهن زائد عن اصل المال . فكانت كل علاقتها سرية فتنفذ في كل مشكل او مسألة نفوذاً غريباً لا يدري الناس مصدر قوته . وكانت قد اتخذت دفترًا تقيد فيه كل ما تسلم من الاسرار وتعمل من الاعمال العظيمة ولم يكن يخفي عليها شيء من اسرار اكبر العيال واعمال الاشرار . وكان لها وكلاء يتجسسون احوال المسرفين من ابناء الشرف ويأتون بهم اليها لتقرضهم ما يلزمهم على ما ذكر

ففي ذات يوم اتى احد وكلائها واخبرها انه وقع في شركه فتى بريتوني من اشهر العيال واكثر الشبان شرفاً واسرافاً اسمه البارون لوقا الكرجاني

فلما سمعت هذا الاسم ارتعش بدنها وتذكرت اوقاتها الاولى معه في بلادها . واجلت استقباله الى بضعة اسابيع وكان قصدها بذلك ان تستعلم عن احواله في بريتانية لتعلم هل له ارزاق أو عقار يستحق الالتفات فقرضه ما يجب على ما تقتضي بصيرتها . فوردت اليها اخبار مدققة انه كان قد باع كل ما يملك ولم يعد له في بريتانية اصبع ارض . فقالت ليس من الصواب ان ادخل معه في الدين لان كل ما اعطيه لا يكون الا مطروحاً في هاوية لا ينال قعرها . غير انها احبت ان تقابل بعد مضي عدة سنوات عشيق صباها فاستدعت به الى منزلها . فرأت فيه من الهيبة والجمال وقوة

(١) جرينا في هذه التسمية على لفظ العامة لان اشئ الغول عند العرب سحابة والغول عندهم ايضاً تطلق على الذكر والمؤنث

الصبا وتركن البنية ما اخذ بمجامع قلبها وعزمت انها اذا ارادت ان تتزوج لا تختار سواهُ بعلاً لها غير انها لم يضعف عزمها في منعه من مطلوبه المالي فقالت له حين جلس امامها

- ايها البارون علمت انك تحتاج الى دراهم
- نعم يا مولاتي في عزمي ان أقدم هدية لا غنى عنها
- كم المبلغ الذي تطلبه
- شيء لا يستحق الذكر . عسرة آلاف درهم
- هل لك كفالة تقدمها لي على هذا المبلغ
- عندي ما فيه الكفاية تستوردين مدخول املاكي الى ان تستوفي الاصل والفائدة
- كم قيمة مداخيلك
- ثلاثون الف درهم على الاقل
- فقالت في نفسها ما أرى هذا العاشق القديم مستقراً بل سالباً اذ ليس عنده ما يساوي درهماً . ثم قالت له
- الرهن حسن لكن لا يسد الحاجة
- لاي سبب
- لاني لا أحب ان تحمل ثقله في طلب مداخيل بعيدة عن هذه البلاد . أفليس لك هنا شيء من التحف أو الاثاث يقوم مقام هذا الرهن
- لا شيء الا في بريتانية
- هذا مما يسوءني ايها البارون . لكن اظن انك لا تخلو من صاحب غني من حاشية البلاط

- هذا امر لا ارتياب فيه . اهل البلاط اصدقائي الاعزاء
- ثم سرد لها اسماء المقدمين منهم وبعضهم اصحاب ملايين ومن الجملة المركيز الاندري . فقالت له هل يوقع المركيز الاندري على الكفالة
- اعتقد انه لا يمتنع
- اذن فاكتب لي سنداً باثني عشر الف درهم لاربعة اشهر عليه توقيع المركيز

وانا اعطيك عشرة آلاف

فضى لوقا وكتب السند واستحصل امضاء المركز ودفع اليها السند وقبض المال
وعند انقضاء المدة المعينة أتى الى المنزل الاحمر ليلة الاستحقاق فقالت له اهلاً
وسهلاً كنت في انتظارك واطن انك أتيت لا لتدفع ما عليك بل لتجدد غيره

- ما أراك الا ساحرة يا مولاتي تعلمين الغيب

- أما هذه مهنتي

- فأرجوك ان لا تخيبي رجائي من معروفك وتقرضيني مثل ذلك المبلغ

- هذا أمل بعيد ايها البارون

- على اني اؤكد لك . . .

- لا تاكيد ولا تحقيق . اجابتك من المستحيل والسند الذي بيدي ما اظنك

تقدر ان تفنيه وتوقيع البارون اراه مزوراً

فاضطرب لوقا جداً وذاب خجلاً وجعلت بريقة تضحك تحت وجهها المسيخ ثم

قال لها بجدة . اني احلف لك

- لا حاجة الى الحلف فالحق واضح لم تحاول الانكار . من حين أتيت لي

بالسند علمت ان التوقيع مزور

- وكيف قبلته

- لغاية عندي

- لكي تسعي بتلغي

- وي . واي نفع لي من اتلافك . لي غير مقاصد ومع ذلك فلست لك عدوة

بل صديقة قديمة بريتونية

- عجباً انت بريتونية وصديقة لي

فرفعت بريقة الوجه عن وجهها الواضح وقالت انظر ايها البارون انظر الي وحقق النظر

- بُريقة . . . يا للعجب العجاب انت بريقة

- نعم لم تخدعك عينك وقد سررت بكونك عرفتي من اول وهلة لعلمي ان كرور

السنين لم يغير من ملاحي . أفتحققت الآن اني صديقة لك لا اطلب هلاكك

- عرفت وتحققت ويزيد يقيني وثقتي بصدافتك اذا مررت السند امام عيني
 - عجباً اترعّم اني فاعلة بلا طائل غير اني اعدك وعداً صادقاً انه لا يكون له
 معنى عندي في المستقبل فكن مطمئناً . ولي امور كثيرة احب ان اطلمك عليها يا صاحبي
 وعلني اعرض عليك طريقة اتفافية بيني وبينك تكون نافعة لك والوقت معنا طويل ان
 كان قيادك بيدك

- ليس لي متعلّق من وجه من الواجه ومع ذلك فاني اترك كل علاقة لاجلك
 - حسناً تفعل وقد ذكرتني الآن بتلك الايام الودادية وتجددت بي عواطف
 اعتبارك فأحب ان تتعدى عندي ويرتفع بيننا كل حجاب

وهكذا كان بعد ذلك لان العلاقة بينهما تمكنت كل التمكين . وصار لوقا كاتم
 اسرارها وشريكها في خبايتها وساثر اعمالها وسلم نفسه بكليتها بين يديها خصوصاً لانها
 حافظة عليه ذلك السند الذي يكون فيه هلاكه اذا شاءت . وبقيا عدة سنوات لاتفاق
 المشارب في المكر والدهاء وارتكاب المحارم في ألفة شديدة وارتباطات متينة ووقعت
 بينهما محبة لاتقاس بأمثالها . عشق خارق العادة

ثم انقلب كل ذلك الى عكسه لان الزمان لا يدوم على حال ومحبة الغرض
 لا تثبت ورات بريقة من لوقا مكرراً عجيباً ودهاءاً غريباً وقوة بدنية وعقلية لم تكن تخطر
 في بالها ورأى هو منها اضعاف ذلك لان مقدرتها العالمية والصناعية اذهلتها فصار كل
 منها يحذر جانب الآخر ويتوقع غدره . وسيأتي تفصيل ما جرى لها في سياق هذه
 الرواية الى النهاية

الفصل الثالث

« اوائل المساعي »

مساء الثلاثاء الواقع آخر يوم من المرفعي في ٢٠ شباط (فبراير) سنة ١٧٧٢ بينما كان
 الناس طائفين في الاسواق في هرج ومرج وغناء وافراح وما يتعلق بذلك وهم مع ذلك
 متحاشون شارع المنزل الاحمر اقبل البارون المار ذكره وطرق باب ذلك المنزل وكان

على الباب عبد اسود طويل الجثة عريض المنكبين فدخل الى مولاته بريقة واعلمها ان
 بالباب شخصاً فقالت له افتح له وادخله الى قاعة الاستقبال وتعال اصلي من يكون
 فضى العبد وفعل ما أمرته واتى فأخبرها ان هذا الطارق هو البارون لوقا قالت
 يدخل غرفتي فأنت تعلم اني لا استتر عليه . فلم تكن الا دقيقة حتى دخل لوقا وحياتها
 بالسلام فردت عليه تحيته وبشت في وجهه ودار بينهما الحديث
 فقال لوقا يظهر انك ما كنت تحسبين قدومي هذه الليلة

- هو الصحيح ومن اين علمت ذلك

- لا يحتاج الامر الى معرفة غيب فان الوجه الذي تسترين به وجهك يداني فلست
 تستترين امامي

- وانت هل كان في عزمك المجيء او حصل بالاتفاق

- بل بالقصد لاني رأيت الناس ملء الشوارع ملتهين بانفسهم فاختلست الخطي
 وطرقت الباب

- حسناً فعلت لكن ما المانع ان تأتي من زقاق الاستفاضة حسب عادتك ومعلومك
 ان هذا الزقاق لا يجسر احد من الناس ان يدخله منذ دخول الليل وفضلاً عن
 ذلك معك مفتاح للباب الصغير

- نعم هذا المفتاح عندي لكن طلبته فما وجدته وعسى ان اجده غداً بين الامتعة
 او في مكان خفي علي هذه الليلة

- اياك ان تهمله دقيقة . منذ الصباح ابذل كل جهدي لتجده لانك تعلم ان
 فقده من يدك يشغل بالي وان لم يوجد قلمت القفل وجعلت مكانه آخر مخالفاً له لاني
 لا آمن على نفسي ما دام مفتاح القفل في غير يدك

- كوني مطمئنة يا عزيزتي لان شهرة المنزل الاحمر تغني عن البرهان بان اقدر
 الناس لا يستطيع الدنو منه لغاية مضرّة بأهله . ومع ذلك ففي الغد اجد المفتاح

والآن يا حبيبتى بريقة قد خلا لنا الجو ولا احد يراقبنا فاطرحي عن وجهك
 البديع هذا الوجه الشنيع فها انا اطرح وجهي الاسود المحملي

وفي الحال قرن القول بالفعل فانكشف وجهه الحقيقي الدال على غضاضة الشباب

وطلاوة الملامح وفعلت هي فعله فأنحني على يدها واخذها بلطف وقبلها بشوق وقال
 - هوذا الآن قد طاب قلبي وقرت عيني لأنك تعلمين اني اكره الوجوه الشنيعة
 ولا سيما اوجه العجائز وكيف اطبق صبراً على مشاهدة هذه الطلعة والحاسن الفتاة التي
 استأسرتني منذ عهد طويل

- اراك يا لوقا تنظب في محاسني وتبالغ في ملاطفتي فالظاهر انك محتاج اليّ
 - كيف لا احتاج اليك على اني ما قلت رياء ولا قصدي التدليس
 - فما الذي تريده
 - امر يقتضي كلاماً طويلاً فهل تصغين اليّ ساعة
 - اصغني اليك ما دمت هنا فليس عليّ ان اقبل احداً الآن والظروف لا تسمح
 لاحد في مثل هذه الليلة ان يطرق بابي

- اذن اشرع في حديثي واطلب رعاية سمع تام
 - المسألة مهمة على ما يظهر
 - في غاية الاهمية
 - هل لك كبير صالح فيها
 - لي ولك
 - فهات ما عندك

- يا عزيزتي بريقة اخبرك قبل كل شيء اني قد سئمت هذه العيشة الدنية التي
 اعيشها فاذا طال عليّ الوقت هكذا فاني لا محالة قاتل نفسي
 - دعنا الآن من هذا المزاج الخشن

- ليس المزاج ما اقول يا بريقة افلا تصدقين وانت تعلمين شجاعتي وكبر نفسي
 - قد يكون ما تقول اذا كان الامر مسألة مبارزة لكن من يصدق ان العاقل يقتحم
 الموت برجله ويأتي به يده . هذا جنون لا جسارة

- وحياة عينيك لا تأخر عن الاتحار عند الاقتضاء ولا ارهب الموت في هذه
 الحالة الشقية

- فقل الان ما الخطّة التي تريد سلوكها

- اعلمي اولاً أن علاقتي معك شديدة جداً وانت تقدرين في اي وقت اردت ان تحكمي بنفي بكلمة واحدة
- كيف ذاك وقد انتشلتك من ورطة عميقة منذ عشر سنوات
- خلصتني نعم ولكن تقدرين ان تهلكيني
- هل شعرت مني بشيء من هذا القبيل
- لا ولكن الوسطة الفعالة لاعدامي هي بيدك
- أليس لك في ثقة تامة أما اختبرت صفاء نيتي الى الآن
- الحق ما تقولين لكن يضطرب قلبي كلما تذكرت هذا البيت المشهور
- لا تأمن الاثنى زمانك انها دوماً ولو حلفت يميناً تكذبُ
- أفلا تعلم ان الوسطة التي تخافها عبثاً قد يمكنك الاستيلاء عليها
- نعم لو كان معي مئة الف درهم
- وليست معك فما الفائدة . فعد الآن الى ذكر مطالبك الاخرى
- شكائتي العظمى الفقر
- اي فقر تشكو وانت كأحد الامراء في زيك وسكنك وساثر احوالك وزد على ذلك تقليدك النقود الذهبية السائرة الآن خفية بين الناس . وأنادماً اقدم لك جوائز سنوية على قضاء بعض اغراض اكلفك بها . أفلا يكفيك كل هذا
- كل هذا ليس الا الفقر وأنا اطلب الغنى
- فما كان يحسن ان تلتف ثروتك الاولى بأشهر قليلة
- لم اكن قط صاحب ثروة
- ما هذا الكلام يا لوقا اتنكر ميراث ابيك الذي كان دخله اكثر من مئة الف درهم في السنة
- افتحسين بهذا الغنى يا بريقة . آه . ويلاه هذا هو نفس الفقر لرجل له مظامعي
- عجباً من امرك ايها البارون فما تطلب فوق ذلك
- ثروة واسعة . ثروة لا حد لها . الحصول على كل مشتبهاتي . أتمنى ان يجري الذهب انهاراً امامي والفضة بحاراً . ان تتدفق منازلتي بالذهب كما تتدفق السيول في

بطون الاودية بماء الامطار . بل كما يتحدر وابل الغيث من غمر السماء . ان تنهل من
يدي ملايين الدنانير في كل ساعة فتفيض بها مدينة باريس كما تفيض البحار بأسمائها
اطلب الافراح الفردوسية والولائم الملوكية والمآدب الخافلة بأسباب اللهو والزينة والمجد .
وبالاختصار اتمني ان اكون ملكاً . بل أعلى من ملوك هذا الزمان . افهمت الآن
ما مطامعي . اعلمت الثروة التي لا حد لها التي لا أرض بدونها

- وَي وَي وَي . جن المسكين

- ما جنت يا بريقة فأنا اعلم ما اقول وما اطلب والآن يظهر لك الحق وتعرفين
اني مصيب وتواقيني على رأبي اذا مددت الي يد المساعدة

- ويحك يا لوقا أجدًا تكلم

- ما نظقت الآ الجدد ولم ينطق لساني الآ بما انا فاعل اذا قت بنجدي

- أفترعم يا ممسوس ان تحلع الملك وتجلس على سريره

- ليس هذا قصدي ولا يفكر به عاقل في مقامي

- فحل لي المشكل واكشف هذا السر العظيم

- اعلمي يا بريقة ان من طبعي حب السيادة وقد مهدت طرقاً عظيمة جليلة ولا

بدان اظفر بمرادي . ولدت لاكون سلطاناً وسأملك على هذه المدينة العظمى ام

الدنيا مدينة باريس حاضنة الملوك . لا باريس التي تطلع عليها الشمس بل باريس الليلية

ملكة الدجى العجيبة الغريبة في اسرارها وغوامضها فيكون الملك الحالي ملك النهار

وانا ملك الليل

- ما ارى اني سامعة الا في المنام

- سأوضح لك الامر وترين ان حيرتك يسهل زوالها . اتكرين اني سليل الاشراف

- لا انكر انا ولا غيري

- فهذا الشرف ينهض بي الآن نهضة شديدة وكاني اسمع هواتف عظيمة تؤنبي

على خمولي بعد ذلك المجد فصممت على بذل الهمة لبوغ الدرجة التي سقطت منها

- باية طريقة

- بالبسالة والاقدام والحزم فهذه مراقي العلي وأريد ان اكون بواسطتها فاتحاً

لمملكة السعادة لمن يفتح البلاد باقدامه وحسن تديره

- وأي المناهج تسلك للوصول الى هذه الغاية
- أتعلمين ما أعمل منذ سنتين
- لا اعلم غير انك تسعى ليلاً ونهاراً في ضرب الزيوف وقد حصلت على بعض النفوذ

- هذا من جهة وأما من الجهة الاخرى فلم اطعمك عليها

- فما عسى ان تكون

- في اثناء دخولي اماكن الشبهة وكهوف اللصوص والمحتالين وحانات الاشقياء الذين لا يقدرّون للامور عواقب كنت دائماً استجلب الخواطر واستميل القلوب واستلفت الانظار من امثال هؤلاء حتى صار عندي جمع سرّي اجمعهم في اسراب تحت الأرض وليس زمامهم الا بيدي وصرت بهم قوياً عزيز الجانب ولا ازال اتقوى بالاكثر منهم حتى تكون باريس السفلى مآلف جنودي الليلي

- وما تصنع بهؤلاء الا وباش

- اجندهم عسكرياً ضخماً شديداً لا يبالي بالمهالك

- وعلى من تجمع وتجنّد

- على الناس جميعاً

- قفصك اذن ان تكون رئيس اللصوص

- اصبت الغرض لكن بطريقة ضرب الزيوف لا كما كنت تتوهمين فقد اتصلت

الى ان اجعل لمزيج المعادن الخسيسة نفس لون الذهب وثقله ورتبه وسأوسع معاملي

جداً بواسطة هؤلاء الجماعة واضرب كل يوم خمسمائة الف دينار فترين اني اجري

الذهب في باريس سيولاً تتدفق . أفلا تصوبين هذا الرأي

- اصوبه اذا كان ممكناً ان تخرج بقولك من القوة الى الفعل

- أتجددين شيئاً من الموانع

- كثيراً فأولاً يجب ان يكون بيدك رأس مال كافٍ

- حسبت حسابي ووجدت اني احصل على ما يكفي

- على كم مثلاً
- مبلغ زهيد ثمانمائة الف درهم
- أتستقلّ يا معتوه هذا المبلغ
- لا شك يعدّ قليلاً بالنسبة الى الوف الالوف
- ومن أي وجه تحصل على هذا المبلغ
- نتحدث بذلك اذا اظهرت بقية الموانع
- ثانياً لا يمكنك ان تفتح معامل هذه سعتها في بلاد تفتح بها العيون على كل حركات الامة قستلزم برأيي تحت الارض لا يهتدى اليها
- لا يهملك هذا فالبرابي موجودة في قلب باريس
- هذا مما لا يحتمل التصديق
- اقدم لك البرهان وحيث اطلعت على ثلاثة ارباع سري فلا اخفي عنك الباقي.
- فاعلمي انه يوجد في راس الشارع المعروف بشارع الجحيم قصر قديم العهد خرب فسيح الجوانب تزعم العامة انه مأوى الجن ولذلك دعي بمنزل الشيطان . فلا بد ان اصحابه يطلبون بل يتمنون بيعه باي مبلغ كان . وقد دخلت هذا المكان وتخلتته وعرفت اسراره فوجدت ان له مسالك خفية تتصل ببراب تحت الارض واسعة الاطراف بينها حواجز قديمة ومنافذ الى زوايا ودهاليز متسعة تحت المدينة وله منفذان آخران احدهما يتصل بصهرج في شارع آخر يقال له شارع الاساوره وهو واقع في ارض بور لا قيمة لها فيسهل ابتاعها والمنفذ الآخر يتصل بدهليز كالمنجم لا يلتفت اليه موقعه في السهل المعروف بسهل الجبل الاحمر . أفرايت يا بريقة ان الامر ليس عسراً كما توهمت وان معلمي البربوي يكون في وسط باريس . فما الموانع الاخرى
- بقي مانعان اولهما الدرّك فان مقدمهم ابن الشرطي رجل لا كالرجال لا يخفي عليه من اسرار الناس مثقل ذرة عجيب في البحث غريب في تقصي الاحوال خبير في كشف دقائق الدسائس وله جنود وجواسيس لا يكون ولا يملون لا ينجو من مساعيمهم احد ولا بد ان يكشفوا امرك
- هذا لا التفت اليه فان كثرة اموالي تشفع بدسائس اعماله

- لا يعرفك هذا فالرجل لا يرشى بوجه من الوجوه
- لكن ألا تعلمين ان حاشيته التي يستند اليها فيها كثير من الخواص الذين يبهر عيونهم الذهب فيبيعون اباؤهم ومواليهم بالدنانير الوهاجة فلا يبلغونه وشاية الناس بي حينما تصل اليهم
- مسلم لكن ما تقول في دفع المانع الآخر وهو ان الناس يعلمون في مدة قصيرة كثرة ثروتك ويرون من بدخك وسعة بذلك ما يوقع الريب وكيف يمكنك ان تسير زيوفك بهذه الكميات العجيبة في وقت قصير فيكون هذا على ظني سبب تلفك
- الآن اجيبك على هذا وعلى ما سألتني اولاً وهو قولك من اي وجه تحصل على هذا المبلغ فلكي سهل عليّ النفوذ في مقاصدي يلزمني فوق تحصيل المبلغ المذكور واسطة اخرى اصعب تحصيلاً وهو ان ارجع الى المنزلة الرفيعة من الشرف التي فقدتها بتصرفي السابق حتى لا يعود الناس يتكلمون بي الا طيباً وتمحى من افكار العموم اسباب العار الذي لحق بي بستوطني في هاوية الفقر
- فما هي هذه الوسطة
- امر بسيط . الاقتران بفتاة من بنات الاشراف لا تعرف من سيرتي الماضية شيئاً ويكون مهرها ثلاثة ملايين احدها تدفعه اليّ معجلاً والاثنان انالهما مؤجلاً
- فاخذت بريقة تضحك من هذا الكلام ضحكاً متتابعاً وقالت له
- اتكفتي بذلك فقط . يظهر انك قنوع يا عزيزي البارون
- وأيّ ظمع في هذا يحسب الناس
- وهذه الفتاة سلاله الاشراف وصاحبة هذه الملايين المحبوبة من تكون واين هي
- اعتقد اني وجدتها
- عجباً من اطوارك يا لوقا قد وجدت منك الآن رجلاً غير من اعهد وارك
- تنقاد الى الاوهام اقياد المحتلّ وتصوّرك امانيك الوصول الى غايات دون بلوغها
- خرت القناد
- ليس كما زعمت فلا تغرّني الاماني بل الامر واقع لا محالة وهذه الفتاة وجدتها
- واقتراني بها يكون اول مدارج السعادة

- أحب ان تثبت لي ذلك بالبرهان

- الامر سهل فاعلمي انه جرى لي البارح حادث عجيب الشان فكنت ذاهباً الى البستان الملوكي كسائر الناس للزهة فوجدت افواجاً من كبار وصغار قد ملأوا مسالك البستان . وبينما أنا اتمشى رأيت ورائي امرأتين احدهما عجوز والاخرى صبية في غاية اللطف والظرف ولوايح الشرف ظاهرة عليهما ووراءهما ثلاثة من الخدم فلما دتنا مني وقد قربت من حانة البستان خرج من الحانة المذكورة ستة من الجنود قد لعبت برووسهم الشمول وتقدم واحد منهم الى الصبية المذكورة وضماها الى صدره وقبلها فصاحت الفتاة وشتمته العجوز فأقبل الخدم الثلاثة وضربوه فارتكض اصحابه الخمسة بسيوفهم وجرحوا الخدم وأقوهم على الارض وداسوهم بأرجلهم وعاد الجندي الى الفتاة ليجرها الى الحانة والعجوز لا تزيد الا صياحاً وكان الناس قد تفرقوا حيناً رأوا بريق السيف بأيدي الجنود فتقدمت انا بحمستي المهودة وحميتي المشهورة وقتلت للجندي يظهر ان قوتك محصورة بالتعدي على النساء والخدم فالاولى ان تعرض لابطال الرجال فلم اكذ انتهي من الكلام حتى اندفع الي الستة معاً وسيوفهم مسلولة فجردت سيني واقحمتمهم وجلت معهم في القتال وساعدني القدر على الفوز لانهم كانوا سكارى لا يضربون ضربة صائبة ولا تستقرّ انظارهم من شدة فعل الخمر فقتلت كبيرهم وجرحت اثنين آخرين وكسرت سيف آخر وفرّ الباقيان متسللين بين الاشجار

- لاشلت اناملك يا ابا الهمم هكذا فلتكن الرجال . هكذا دفاع الابطال عن ربات الحجال . ثم ماذا جرى

- بعد ذلك تقدمت الى الصبية وقتلت الحمد لله يا مولاتي على سلامتك . والآن عبيدك لا يستطيعون شيئاً ففكرمي واستندي على يدي لاوصلك الى الغابة التي تصدينها . فصارت العجوز تبالغ في شكري والفتاة كانت دهشة مذعورة لا تدري ما تقول لي فاستندت على زندي وشارت ان امضي بها الى جهة منزلها . وبعد ما دخلنا عرفت بي اباها وامها فقابلاني بتحية غريبة وما عرفا كيف يكافئاني على هذا المعروف الجليل . فسألت عن هذه العائلة وعلمت انها من اشرف عيال فرنسا ثروتها تبلغ ثلاثة ملايين وقد خصت الفتاة بمليون مهوراً لها وهي وحيدة لابويها وبعدها يكون المليونان الآخران

في قبصتها

- أظن ان اقترانك بها يكون سهلاً
- لِمَ لا . فاسمي مشهور بطيب الاصل وقد خلصت شرف هذه الصبية من العار وحياتها من الهلاك على ظني فاذا ساعدتني فلا اخشى ان يُردّ طلبى
- بأى شيء اساعدك
- بأن تقرضني الف دينار
- الف دينار . امر غريب وطلب فاحش . هل جنت يا لوقا . وما تفعل بهذه الدنانير

- أقيم بها شأني الساقط لان كثيرين من الناس بل اكثرهم يجبل حقيقة حالتي وصار اكرامي يعود بالتدريج بواسطة الزيوف المستور امرها لكنها لا تفي بالمراد كله فدنانيرك وسيلة عظمى لظهوري بين اصحاب الشرف والثروة وتمكّنتي من اتخاذ وسائل فعالة بلوغ المرام . ومع ذلك فعند اقتراني بها وقبض المليون ادفع لك المبلغ الذي لك عليّ اي مئة الف درهم وازيدك ضعفيه . أيقنك هذا
- لا اجد في كلامك صواباً لاني لا اسلم انه سهل عليك الاقتران بمثل هذه الفتاة . ولا يمكن ان ابها يطرحها في يد رجل سمعته قبيحة وديونه ثقيلة وان كان شريف الاصل . فلا يحاول ما افكرت به الا الذي ذهب بعقله الغرور
- بجانتك يا بريقة يا عزيزتي لا تطرحيني في وهدة اليأس ولا تحرميني هذه المنية واني اقسام لك ان طالعي سعيد فلا اخشى الخيبة من دهري فامدّيني على الاقل بما امتحن به نصيبي . خمسمائة دينار ان استكثرت الالف
- لا تطمع بشيء يا لوقا ويصعب عليّ ان اردّ سوءالك
- لكن افنكري وتبصري . اذا اسعدني القدر يكون مني لك ثلاثمائة الف درهم . ما هذا بقايل يا بريقة
- اذا اسعدك القدر . ولكنه لا يسعدك
- أفتأترين مع ذلك ان المخاطرة لازمة اذ النتيجة تكون حميدة ان صح الفأل
- وما الداعي للمخاطرة وانا على يقين من سوء الانقلاب

- أفتمتنعين يا بريقة ولا يضعف عزمك
- هذا هو الواجب
- فأفديني على الأقل وسيلة اقدر بها ان لا اخيب من اقناعك
- ليس وسيلة الا ان تبرهن لي انك تنجح بمساعيك ولا ترجع خائباً فاعطيك ما تطلب

- ما البرهان الذي تطلبينه
- هذا لا يعني بل هو من مصلحتك وفي المثل من جدّ وجد ومن سعى رعى فاسع لملك تهدي الى سبيل الظفر فابذل جهدك وأفض ينبوع ظرفك وقوى عقلك بالمداخلة مع هذا الرجل الذي تطلب ابنته واستمل خاطره كما تقدر لنرى ما يكون من الامر

- هذا باب حسن لكن بدون المال كيف اتصل اليه الاتصال الذي اطلبه
- لك الف واسطة لمواصلته بدون المال ولو فاق الامر اسألك . من يكون هذا

الرجل العظيم

- يقال له الدوق الشميسي
- الدوق الشميسي . يا للعجب
- نعم وما عجبك من ذلك
- أهو الذي قصره في الشارع القلوي عند منعطف شارع خندق النصر في المكان المعروف بجبل جنينة

- نعم هو هذا ومن اين لك هذه المعرفة كلها
- فلم تجبه بل قامت الى خزانة كبيرة وفتحها واخرجت منها دفترًا ضخماً مجلد بجلد احمر وله قفل من فولاذ فوضعت على الطاولة وصارت تقلب اوراقه بسرعة حتى انتهت الى اوائله وكان على كل صفحة كتابة منمنمة عليها تاريخ السنة والشهر واليوم للحوادث المسطورة فيها . ووقفت على ورقة كانت هي المطلوبة وقرأت ما فيها بتامه ثم رفعت رأسها وقالت
- بنت الشميسي اسمها حنة

- نعم وما ادراك
 - وعمرها عشرون سنة تماماً لانها ولدت في مثل هذه الساعة . أما هي الثالثة
 من الليل ؟

- نعم
 - في مثل هذه الساعة من مثل هذا اليوم اي ٢٠ شباط سنة ١٧٥٢ . ما اغرب
 حوادث الدهر . هذه الاعمال السحرية التي اتعاطاها ولا اعتقد صحتها وهذا الفن فن
 العرافة الذي اهزأ به ايضاً من عجائب الدهر . وما كنت اظن ان هذه الخزعبلات
 تكشف المستقبل . فيا له من اتفاق غريب

الفصل الرابع

حادثة ٢٠ شباط « فبراير » سنة ١٧٥٢

ولما فرغت بريقة من كلامها صمتت متأملة بضع دقائق فراعى البارون سكوتها وصار
 ينظر اليها متحيراً حتى فرغ صبره فقال لها يا صديقتي المحبوبة ليس بيننا سرّ من منذ
 سنين فهل لك ان تسمح لي بكشف هذا السرّ الذي تذكرت به الدوق الشميسي
 وهل من علاقة بينك وبينه كنت قد نسيتهما

- نعم تذكرت اموراً عجيبة حادثة غريبة جرت في مثل هذه الساعة من هذا اليوم
 فاقلةتني . وليس لي مانع من ان اطالعك على هذا الامر لاني اعلم انه لا يمسه بصالح
 احداً غيرك لان المسألة تتعلق بهذه الفتاة الشميسية التي انت مزعم ان تزوجها
 - ما وجه العلاقة بينك وبينها

- علاقة اذا ذكرتها لك تصفق عجباً وتهتزّ طرباً
 - فبردي غليلي بسرّ كل ما يتعلق بها اذا حسن لديك ولا تضيق صدري
 اكثر فاكثر

- ارعني سمعك وانظر كيف تجري التقادير والى اين تودي الاتفاقات الغريبة
 - كلّي مسامع فهاني

- اعلم اني منذ عشرين سنة في مثل هذا اليوم اي ٢٠ شباط « فبراير » سنة ١٧٥٢ كنت غضة الشباب حديثة العهد في هذه المدينة ولا بد انك تذكر مجيئي سرا من بريتانية
- كيف لا اذكر وقد نغصت عيشي مدة طويلة بعد ذلك
- لا بأس فالآن قد جاد لك الدهر على بصيرة باكثر مما كنت تنتظر مني
- الحاصل ما لنا ولهذا الحديث الآن
- وكنت متخذة لسكنائي سقيفة في ظهر احقر بيت واقدمه في الشارع البروي اكشف الضمير بورق اللعب واشرح الطالع باجرة بخسة وكنت اعلم اني ساحصل ثروة جزيلة ويكون اسمي مهيباً . وصار صيتي يمتد بالتدرج وصدق كلامي ينتشر بين الاكابر والاصاغر وكنت قد سميت نفسي المنجمة الايوانية
- ومن اين اخترعت هذا الاسم
- لاني كنت احسب سقيفتي كايوان كسرى فنسبت نفسي اليه
- هذا اول الدهاء . ثم ماذا
- وكانت الشوارع مملوءة باصناف الناس كما كانت اليوم يضحجون ويغنون ويرقصون والحاصل يفعلون ما فعلوا اليوم فدفعني حب التفرج والظن انه لا يأتيني احد في ذلك اليوم الى ان خرجت اطوف في شوارع المدينة وازقتها الهو باعمال الناس وافتقد احوال البلد والناس مع ذلك يضحكون من زبي البريتوني الفلاحي ويظنونهُ لبس التخفي
- ما اعظم الفرق الذي حصل بين بريقة الغلوية اليوم والمنجمة الايوانية في ذلك الزمان اين كانت هذه الرزانة والمهابة
- لاجب بتقلبات الايام فان كرور السنين يأتي بالغرائب . فلما كان العشاء وقد كات رجلاي من المشي واخذ التعب من جسمي مأخذاً كبيراً توجهت الى منزلي ودخلت الشارع البروي وكان حينئذ قفراً مظالم تقريباً لقله انس السكان فيه كما هو شارع المنزل الاحمر اليوم . فلما دنوت من بيتي واردت الدخول اذا برجلين لابسين ثياباً سوداء ولكل منهما وجه مستعار قد دنيا مني بقتة وفي يد احدهما فانوس الحرامية فارتعد بدني ونكصت صارخة فامسك احدهما يدي وقال لارتاعي يا مولاتي فما عليك باس فرادنا ان تنكرمي بالافادة عما نسالك فقلت له اي سؤال لك معي

- نطلب امرأة نظنك اياها لما نرى من زيك البريتوني
 - من التي تطلبها
 - المنجمة الايوانية عسى ان تكوني اياها
 - انا هي وما تريد منها
 - نعلم انها تنبيء بالغيب وتشرح الطالع
 - فباقصدك بذلك
 - قصدي ان تأتي معي
 - الى اين
 - ليس لي اذن ان اسمي لك المكان
 - من صاحب البيت
 - لا يمكنني ان اقول لك
 - اذن لا امضي الى مكان مجهول
 - يسؤني ان اخبرك انك ان لم تأتي طوعاً تأتي كرهاً
 - وهل تقدر على اكراهي
 - ما من يمنعني ولكن ما ارى للاكراه لزوماً اذا اقنعتك بسلامة الغاية لان امرأة تريد مقابلتك لتفيد بها بعلمك السامي ما تحب ان تستفيد فتكون لك اسنى الجوائز
 - فانا امضي معك
- فأخذ الرجل بيدي ومضى بي ورفيقه وراءنا الى ان وصلنا الى الساحة العمومية فاذا هناك مركبة واقفة فدخل ودخلت وامر السائق فجرت بنا الخيل كالسهم الطيار حتى اذا قربنا من الغاية المقصودة ناولني الرجل منديلاً من حرير وقال ارجو يا مولائي ان تعصبي عينيك . فلم يدخلني وهم من هذا الامر لعلمي ان اصحاب البيت لا يحبون ان يعرفوني الطريق . ففعلت
- فلما بلغت المكان انزلني الرجل من المركبة وصعد بي سلماً ودخل بي الدار فاجتازنا اوائل بيوتها الى ان دخلنا غرفة مفروشة بالطنافس منارة بشموع كثيرة فنزع العصا عن عيني فرأيت غرفة نوم بهية الفرش ثمينة الاثاث لم ار في زماني احسن منها ولا اكمل زينة

ولا اجمل رونفاً . ورأيت على السرير صبية صفراء الوجه هزيلة الجسم حاضنة طفلاً وُلد
منذ بضع ساعات وبجانها على كرسي شاب نضير متركن البنية لطيف الهيئة ظريف الشكل
شريف الملامح ماسكاً يد الصبية يقبلها ويتبسم وعيناه مغرورتان بالدموع
فلما علمت اني في دار رجل شريف جليل الشأن ولم اكن قبل ذلك اعاشر
الأرعاع القوم وقعت في قلبي المهابة لكن في لحظة واحدة رجعت الى سكيتي اذ علمت
انهم لم يدعوني الاً لاحتياجهم اليّ . فقلت اني الآمرة فارتفعت وسمت همتي
وانجلت قريحتي

فقام ذلك الرجل عن كرسيه وتقدم اليّ بهدوء ووقار وحياني ببشاشة واكرام وقال
يا بنت الكرام سمعنا بغزارة علمك وصدق مقالك في معرفة الغيب وتكرر ذكرك على
السنة الناس حتى لم يعد احد يشك في سمو معارفك بالنجوم وما كنت مع ذلك احسب
ان تكوني فتية كما اراك فهذا دليل على شدة حدقك وسمو نيرتك وانا اعهد ان اصحاب
هذه العلوم لا يكونون الاً شيوخاً مجربين جلهم الشيب وتجمعت اسرّتهم وعبست
وجوههم من كثرة اهتمامهم في امور الغيب فاصدقيني يا فتاة هل انت المنجمة الايونانية
عن يقين

فقلت له بصوت رزين وهيئة الوقار يا مولاي ليس العلم بكثرة العمر ولا يحرم
الفتى عقل الكهول ومعارف الشيوخ والله يعطي من يشاء بغير حساب . انا المنجمة الايونانية
نفسها وسينجلي ريبك بصدق البرهان . فقل لاي شيء دعوت بي
فتقدم الرجل الى السرير واخذ الطفل بين يديه وادناه مني قائلاً . انظري يا مولاتي
انظري الى هذه الطفلة المحبوبة التي ولدت لنا اليوم . ترينها رخصة البدن سخيفة البنية
كالزهرة الذابلة معلقة بالحياة بأوهى من خيوط العنكبوت حتى قال الاطباء عنها قولاً
ازعج قلبنا وخوفنا من مستقبلها ولم يصرحوا لنا اتموت أم تحيا فصرنا في قلق زائد وريب
من كلامهم لا ندرى أيعرفون ولا يقولون ام يجهلون الحقيقة . فاخاف ان هذا القلق
يودّي بالأم الى التلف والبنث الى الهلاك . وسرعة القضاء اولى من هذا النزاع فنحب
الوقوف على اليقين ولو كان يأساً . فهل تقدرين بعلمك وسرّ صناعتك ان تطلعينا على
جلية الامر فاما ان تطيبي قلبنا وتسكني روعنا او تحققي مخافتنا وتسرعني بهولنا

قلت له كن على يقين من قولي فاني لا ادع في نفسك ريباً بتاً

- اذا صح كلامك فلا تمطينا عجلي ما استطعت فما عاد لنا قوة على الاحتمال
- قبل ان اجيب يجب ان اسأل الكواكب والا فكيف استطيع الجزم فالكواكب
هي الموكلة بطالع ابنتك وهي تخبرني بيهاء نورها عن النحوس والسعود ولا شك انها
تعلمني علم اليقين . وهذه الليلة في غاية الموافقة لاستشارتها لان الجو صافٍ
والكواكب نيرة

- تعالي معي فاصعد بك الى عليّة ترين منها اقطار السماء وتنجلي كل النجوم
بكل بهائها

- لكن يجب ان تخبرني قبل كل شيء الساعة بل الدقيقة التي ولدت بها .

- في الدقيقة الاخيرة من ساعة الظهر تماماً

- فامشي امامي

- هل تحتاجين الى شيء لاتمام عمالك من ادوات رصد او خلافها

- قرطاس ومحبرة وقلم لا غير

- تجدين ذلك وغيره في العلية

ثم اخذ قنديلاً وصعد بي الى مكان في اعلى الدار كأنه منظره بل مرصد فلكي في
سقفه نافذة مستورة بزجاج رايت منها السماء بسعتها وباريس كلها تحت يدي

الفصل الخامس

اخذ الطالع

وحينئذٍ وضع الرجل القنديل على طاولة عليها ورق ومحابر واقلام ونظارة فلكية
وبركار وبوصلة ونحو ذلك من ادوات علم الهيئة وقال لي الآن انا ماضٍ لكي تخلي
نفسك فبعدكم من الوقت اعود اليك . قلت بعد ساعة فخرج واغلق الباب فجلست
وباشرت العمل على طريقة ابي معشر شيخ المنجمين وحسبت مواقع السيارات في
ساعة ولادة الطفلة واخذت ورقة كبيرة ورسمت عليها صورة السماء بحسب مواقع الكوكبات

وصور البروج وقسمت الرسم الى اثني عشر قسماً جعلتها بيوتاً ووضعت فيها السيارات بحسب الزيجات المدققة وحصرت مراكرها بموجب الدقيقة التي ولدت فيها الطفلة وصرت آخذ طالها على مقتضى الصناعة فاتفق لي برج اسمال فكري كانت ولاذتها فيه فوجدت ان المريح وقع في اعلى زاوية من البيت الثاني عشر فدلني على ان البنت تموت ميتة فجائية شديدة الويل فدققت الحساب وقسمت السنين والايام فعلمت ان الحادث المذكور يفاجئها في السنة الحادية والعشرين من عمرها فراجعت الحساب وكررتُه ثلث مرات فلم يقع لي الا ما ذكرت فعجبت من هذا الاتفاق الغريب على عدم تصديقي هذه الخزعبلات . وحالما انتهيت من العمل فتح الباب ودخل الرجل وقال . مهيمم قلت قضي الامر وارتدت ان اطلعه على هذا السر الذي ينتظره بفروغ صبر فقال مهلاً الى ان نزل فتكلمين على مسمع من امرأتي

فلما دخلنا الغرفة وقفت على بضعة خطوات من السرير فشخصت المرأة اليّ ولم يسألني شيئاً وكان نظرها حزينا يدل على الكآبة . فتأثر قلبي شفقة عليها - فتبسم لوقاعد ذلك فقالت له ما هذا الضحك ايها البارون الكرجاني . المسألة منذ عشرين سنة وكان قلبي اذ ذاك رقيقاً ولعلك انت ايضاً منذ عشرين سنة كان ضميرك باقياً حياً . قال حقاً الامر كما قلت فتممي حديثك

فلست انسى تلك النظرة مدة حياتي فكأنها كانت تتوسل اليّ بخشوع شديد ان اشفق عليها كان حياة بنتها بين اصابعي او ان كلمة من في تقضي عليها بالبقاء او الغناء وضم الرجل يدها بيديه وقال لي الآن قد اجتمعنا ولا نفقد رشداً ولا شجاعة عند الاقتضاء فهاتي ما عندك . فقلت نظرت في النجوم وسألت الكواكب سعودها ونحوها فاجابني الجواب السديد فاذا نطقت فبصحة القدر انطق لا بعلمي ومعرفتي الشخصية كما يزعم هؤلاء المشعوذون الذين يدعون الغيب والفراسة من النظر الى الملامح والاسرّة . فقال وهو يكاد يذوب من كثرة الانتظار . اقسمت عليك الا اسرعت بالكلام فقدنا الجلد يا بنت الكرام

فقلت بالبشارة اتيت لا بالانذار . خير وفرح على لساني لا ويل وترح . مهد السلامة والسرور يهتر بين ايديكما لانعش الكآبة والجزع يخرج من داركما . هذه

الذت تعيش وتكبر وتسرح وتمرح بين اترابها وتذوق لذة الدنيا وترتع في نعيمها الى
أجل مسمى

فصرخ الاب والام معاً وقد سكرنا من شدة الفرح . أحقاً تحيا وتكبر . اصدقينا
بحياتك . قلت هذا هو كل اليقين لا يمكن ان الغال يسقط

فجمعت الامّ تضمّ ابنتها الى صدرها وتقبلها تكراراً بوجد وقد ملأت دموع الفرح
عينها وقالت لها بصوت ضعيف . يا حبيبتي حنة يا بنتي العزيزة يا كنز حياتي أسمع
ما قالت تعيشين وتكبرين وتكونين قرة عيون ابيك وامك وتسرينهما بمحبتك ولطفك
فتركتهما ينالان من الفرح غاية الاستطاعة ويتمتعان بهذه اللذة بضع دقائق ولم
ينتبه الى قولي « الى اجل مسمى » لشدة ما هزّها الطرب وطفح على قلبيهما الفرح .
ثم قلت لا بد لصفاء الجوّ من تعكير في زمن من الازمان وقد اوضحت لكما الرجاء
بالخير والآن يجب ان اطالعكما على ما يجب حذره من الويل
وفي الحال عبس الآب واصفرّت الامّ وقال لي الآب ايّ ويل نحذر فهل يقع
خطر على ولدنا

- الخطر واقع لكن لا اليوم فيجب اتقاؤه قبل وقوعه

- متى يكون هذا

- بعد اليوم الاخير من السنة العشرين من عمر هذه الطفلة . هذا اليوم هو العشرون

من شهر شباط سنة ١٧٥٢ ويتدىء زمان الخطر من ٢١ شباط سنة ١٧٧٢

- ما عسى ان يكون هذا الخطر

- موتاً مفاجئاً شديد الوقع

- من اين ياتي

- من حيث لا اعلم لم تصرح لي به النجوم

- الا يمكنك ان تسأل الكواكب ثانية

- لا فائدة من سؤالها فهي لا تجيب

- أو لا يمكن اتقاء هذا الخطر

- نعم يمكن لكن لا بلا مشقة وكدر

- فما الوسطة لانتقائه

- لست اعلم والذي اعرفه انه اذا مضت على البنت السنة الحادية والعشرون ونجت من الهلاك تعيش عمراً طويلاً بهناء وراحة . واكرر عليكما اياكما ان يسهو عن بالكما ان اول يوم من سنة ١٧٧٢ يكون ابتداء سنة النحس . والآن استودعكما الله . لقد اعطيت ما اعطيت

- لا تخرجين الآن

- ألك سؤال آخر

- نعم وتقدرين ان تفيديني من العلم

- سل ما بدا لك

- هل اكون حياً في ذلك اليوم الذي هو اول سنة النحس وامرأتى ايضاً وتقدر

ان تدافع عن ابنتنا

- هذا سؤال له شأن واخاف اذا فحصت ان يكون الجواب سبب حزن لكما

ما دتما في الحياة

- افحصي وقولي ولا تبالي فاحب ان تعرف كل شيء لنكون على بصيرة من المستقبل

فتقدمت الى السرير وقات للام اعطيني يدك فذت الي يداً صفراء ترفة نحيفة

كالزنبقة الذابلة وهي ترتعش فنظرت واذا في اصبعها خاتم استوقف بصري خاتم من

فضة عليه ميناء حمراء وفضة حبة مرجان وردية اللون على شكل الهلال وهو من

الخواتم التي يوتى بها من بلاد المشرق ويزعمون ان فيها طلاسماً واسراراً عجيبة وكأني

انظر اليه الآن وهو في اصبعها اللطيفة . ثم قلبت يدها وجعلت انظر في اسارير كفها

فلم اجد فيها خطأً يقاطع الخط الاكبر المعروف بخط الحياة فقلت ان صدق علم الفراسة فلا

بد ان تكوني في تلك السنة صحيحة معافاة تقدرين ان تدافعي عن بنتك والآن فالعلم

لله وحده . فنظر الي الرجل وعينه تبرقان حبوراً . وقدم الي يده وقال الآن نوبتي

ياسيدة العرافين فنظرت واطلت النظر وقلت له وانت الآخرة تحيا حياة مديدة وتعيش

عيشاً هينئاً . فقال اتيت هذا البيت بمثابة نبي ينبئ بالسعادة والخير قلت بل اتيت

نيئة للحق فليس كلامي الا منقولاً عن الهامات العلم ولورأيت غير ما رأيت لذكرته

حالاً . والآن لم يبق لي شغل ويا كما ان تنسيا سنة ١٧٧٢ قال كيف نساها وحيث ان الله ينعم علينا بالبقاء الى تلك الايام فلا خوف على بنتنا ندافع عنها جهداً وبعد هذا الكلام نهض واخذ بيدي الى الباب ودفع اليّ صرة فيها خمسون ديناراً ثم عصبت عيناى ونزل بي الرجل الذي اوصاني اولاً ودخل بي المركبة فسارت بنا الى ان بلغت منزلي

واعلم ايها البارون ان من طبعي الاستقصاء عن كل شيء وبذلك استفتت اشياء كثيرة . فلم يسترح فكري من قبيل هذا الرجل الشريف واحببت ان ابحث عنه حتى اعرفه فذكرت اني رأيت في اصبعة حين فحصت يده خاتماً عريضاً من الفولاذ عليه وسم الاشراف الخصاص باصحاب البيوتات فقرأت عليه كتابة لم انس منها حرفاً فسألت اصحاب المخبرة من يكون صاحب هذه العلامة فقيل لي انها تخص الدوق الشميسي فقيّدت في هذا الدفتر تفاصيل هذه الحادثة كما ترى

- فقال لوقا ما اثن هذا الدفتر واجلّ فوائده

- نعم انه من اثن ما يكون عندي لان كل مبادئ سعادي واسرارها مسجلة فيه فليس كتاب فيه من السحر والطلاسم ما في هذا وطالما استفتت من مطالعته فوائده مالية عظيمة جداً

- فهل يمكن ان تطلعيني على هذه الصفحة التي فيها تاريخ هذه الحادثة

- لا يصعب ذلك فانا اقرأها لك

وفتحت الدفتر واخذت تقرأ ما يأتي

« في ٢٨ شباط سنة ١٧٥٢

« البيت الذي أخذت اليه في ٢٠ الجاري موقعه في الشارع الاسترابطي صاحبه رجل من صنائع العائلة الشميسية . ولم يبق من هذه العائلة الا فتى واحد وضع يده على كل ميراثها يقال له الدوق يعقوب الشميسي . تزوج منذ سنة فتاة فقيرة يتيمة اسمها غرة الكستنائية . وكان بين عائلتها والعائلة الشميسية ضعفاً قديمة العهد فأحب يعقوب هذه الفتاة واراد ان يتزوج بها لكن خوفاً من غضب والدته ولعنيتها اخذها سرّاً واقام معها في البيت المذكور فولدت له في آخر السنة بنتاً لطيفة اسمها حنة اخذت طالماها

وحكمت على مستقبلها في مساء اليوم المذكور
 هنا توقفت عن القراءة وقالت للوقا قد عرفت ما كان من امر هذه الليلة فليس
 في الاعادة افادة . ومضت على ذلك سبعة أشهر ففي ٢٥ آب « اوغسطس » من نفس
 السنة كتبت ما يأتي :

توفيت والدة يعقوب الشميسي في اول هذا الشهر . فظهر نفسه وشهر اقترانه
 بالفتاة الكستانية وانتقل بها وبالطفلة الى قصره الخاص بمائلته الواقع بين الشارع القلوي
 وشارع خندق النصر على جبل جُنيوة
 ثم اطقت الكتاب وارجمته الى الخزانة واقفلتها وعادت فجلست في مكانها
 وقالت للوقا

قد علمت ان كل الحوادث التي تجري للناس ولي بها دخل مقيدة هنا من قبائح
 وفضائل ولم تقع لي حادثة بخصوص العائلة الشميسية بعد ذلك العهد فكنت قد نسيتهما
 لولم تذكرني بها آمالك البعيدة المتعلقة بتزوج حنة
 - الحق يقال ان هذا الاتفاق من اغرب ما يكون ولكن اوضح لي ما سبب
 بعد آمالي

- الامر اوضح من ان يذكر فقد رأيت ان كل ما انبأت به عن هذه الفتاة منذ
 عشرين سنة قد تم حرفاً بحرف وهذا اليوم اول ايام نحسها وسيتم النحس على يدك
 بتصميمك على عزمك

- عجباً كيف يتم نحسها على يدي وانا البارح خلصتها من الهلاك
 - انت تزعم انك خلصتها لكن اذا صح اقترانك بها فهو اشد الخطر عليها . ألا
 تعلم ذلك

وفي الحال قرع الباب الخارجي فلم يبق للوقا وقت ان يجيب بكلمة . ولوقت
 حضر العبد ووقف بالباب فقال لوقا لبريقة هل تقابلين هذا الطارق قالت لم لا فالذي
 يأتي في مثل هذا الوقت لا بد له من شأن عظيم ويخال لي ان هذه الليلة ذات
 شوون غريبة

الفصل السادس

« الكهانة والسحر »

قلنا ان العبد وقف بالباب وكان لابساً ثوباً أحمر فاستلقى لوقا على ظهره من شدة الضحك لمنظره العجيب وقال هذا احد غرائب هذه الليلة . ثم التفت اليه بريقة وقالت امض وادع بالشخص الطارق الى الغرفة الخارجية . واخذت في الحال الوجه الشمعي واحكمته على وجهها وقالت للوقا :

أيسوءك يا صاحبي ان تقطع حديثنا برهة للاشتغال بمن اتانا

- ساءني اولم يسؤني فقد انتهى امرنا ولم تبقي لي باباً للاستناد على مساعدتك لانال ما اتنى برغبة شديدة

- قلت لك اني اذا وقفت على دليل واحد يؤكد تزوجك بذات الملايين فاني

على ما تحب

- البرهان الوحيد هو اني آمل بالنجاح وانت لا تتقين به فلست قادراً على شيء

استودعك الله

- لا تذهب

- لم يبق لي شغل معك

- بل ابق فان لي معك ايضاً كلاماً مهماً يكون لك فيه خير اعظم من اقترانك

بينت الشميسي

- الامر لك واين اكون

- في هذه الخدع

ثم وضعت يدها على هنة في الحائط وادارتها فانفتح باب غير منظور يؤدي الى مخدع مظلم فدخل لوقا واغلقت الباب وحينئذٍ اقبل العبد وقال امرأة عليها سماء الشرف وعلى وجهها وجه مستعار اسود وعيناها كبيرتان فقالت له بريقة ائذن لها فدخلت المرأة ووقفت تتفرس في القاعة العجيبة التي فيها بريقة وهي لابسة ثياباً ثمينه جداً على

- بساطة زيّتها وعليها فرو سمور رفيع الشأن ظهارته من مخمل اسود ثمين
 وكانت برّيقة واقفة متكئة على طاولة مربعة غير مبالية بهذه المرأة . فقالت لها
 افيديني يا مولاتي هذا هو المنزل الاحمر المشهورة صاحبتة بالعرفاء ام ضلت الغرض
 - بل هذا هو بعينه وانا هي التي ملأ خبرها انحاء باريس ويسمونها الغولة فما شأنك
 - استشيرك في مسألة
 - تتعلق بالماضي او المستقبل
 - بالمستقبل
 - هل تختص بك نفسك
 - بمن هي بمثابة نفسي واعزّ
 - هل معك شيء من اثرها
 - خصلة من شعرها
 - هاتبها

فدّت يدها الى جيبها واخرجت الخصلة ملفوفة بخرقة حرير مضمخة بالطيب
 وهي كأنعم الحرير شقراء الى السمرة وناولتها اياها فدّت برّيقة يدها وتناولتها ورأت
 بيد المرأة عجباً كاد يودّي بها الى اعلان الاستغراب . خاتماً من الفضة مشرقى المصدر
 عليه مينا حمراء وفضة حبة مرجان وردية على شكل الهلال . فقالت في نفسها هذا
 هو الخاتم الذي وقع عليه نظري منذ عشرين سنة بيد امرأة الشميسي وفي الحال انجلى
 لها الامر وعرفت انها هي والدة حنة وقد دخلت البنت في سنتها الحادية والعشرين
 واشتغل بال والديها بانذار المنجمة الايوانية ولم يعرفا انها هي نفس الغولة عرافة المنزل
 الاحمر وساحرة باريس المشهورة وان هذه الام اتت تستشير كهاتما وتسألها عن
 الوسائل المانعة للخطر القريب

فاشارت اليها ان اجلسي واصبري قليلاً ودخلت محلها السري واتت بكانون
 صغير من الفضة فيه فحم لا يعرفه احد غيرها اول ما مسته النار التهب بسرعة وانتشرت
 منه رائحة عطرة واخذت شعرات من الخصلة والقتما على الحجر فرأتها تلهب وتلوى
 فرفعت صوتها بتعزيم لا تفهمه الدوقة وصارت تنظر الى الدخان الصاعد من الكانون

فلما اضمحل الدخان ولم يبقَ في الكانون غير الرماد التفتت الى الدوقة وقالت لها العلم الذي عندي يا مولائي صادق هو والآن تتحققين صحته فاسمعي ما اقول واذا وجدت غلطاً في كلامي فاوقفيني . صاحبة هذا الشعر صبية عذراء

- نعم هو الحق
- وهي ابنتك لا ريب فيها
- اصبت
- وفي هذا الوقت دخلت في سنتها الحادية والعشرين وهي مشرقة على خطر مبين
- يا للعجب العجاب ما اصح كهاتك
- أليس هذا الواقع تماماً وان قلت اخلت بحرف اقول انك ناسية لان علمي لا يكذب

- ليس عندي شك بصحة علمك لكن لا يقدر الانسان ان يملك نفسه عند الوقوف على هذه الغرائب من العلم

- فسكني الآن روعك واخبرني ما الذي قصدت ان تستفيديه مني
- اريد ان اعرف ما هو هذا الخطر ومتى يقع
- الآن امتحن الامر
- ألا تتأكد من الفوز
- قد يمكن ان الارواح تستعصي وتمتنع عن الافادة لكن نادراً لاني اعرف تعزيمات فعالة حتى ان اشد الارواح تمرّداً تطيعني صاغرة فاعلميني تاريخ ولادة بنتك
- الظهر في ٢٠ شباط « فبراير » سنة ١٧٥٢
- كفى عسى ان تكون الساعة ساعة خير

ثم رفعت عن الطاولة ورق اللعب والرقوق وغير ذلك واخذت قطعة طباشير ورسمت مربعاً مستطيلاً على جلد احمر عليه كتابة مشتبكة كالظلامم وقسمت المربع الى ٢١ بيتاً متساوية الاقدار وقسمت الحادي والعشرين الى ١٢ بيتاً وقالت هوذا رسم السنين العشرين الماضية والحادية والعشرين المقسومة الى ١٢ شهراً التي ابتدأت في ظهر هذا اليوم . ثم ذهبت الى مزرب الطيور بقرب المعمل وفتحت بابه فتصايحت

الطيور لهذه البعثة الليلية بين دجاج و بط وغيرها

فشعرت الدوقة بقشعريرة لهذه الهيئة السحرية في البيت وقالت هذا بيت الشيطان وهذا الوجه الذي اراه وجه ابليس بعينه لكن ملكت نفسها صابرة الى النهاية وبعد هنيهة عادت بريقة وفي يدها اليمنى حبوب وفي اليسرى دجاجة سوداء تصيح وتضطرب . ووزعت الحبوب في البيوت المرسومة على الجلد وافلتت الدجاجة في وسط الطاولة فصفت بجناحيها وصاحت ثلاث مرات مستبشرة بافلاتها وتقدمت الى الحبوب وصارت تلتقط برغبة وهي تضرب بمنقارها يمينا وشمالا وتثر الحبوب على البيوت المرسومة وبريقة تكتب على ورقة ما يسمح لها من الملاحظات وتتم بكلام مبهم وبعد دقائق شبت الدجاجة طبعاً فوقفت ووضعت رأسها تحت جناحها لتخفيها عن النور وتنام . فقالت الدوقة لبريقة ماذا رأيت قالت صه فالروح لما ينطق . . . ها هو ها هو حضر . وفي الحال باتفاق غريب اذهل الدوقة وملاً قلبها رعباً رفعت الدجاجة رأسها وصارت تمشي ببطء وتردّد وارتحف عرفها واضطربت اجنحتها وتقت نقيقاً غريباً غير مألوف في الدجاج كما يصعد صوت من حلق المحتضر واسترخت فقالت الدوقة ويح المسكينة ما جرى عليها قالت بريقة اتى الروح فهي الآن تموت

ومن العجيب انها لم تنته من كلامها حتى اصابت الدجاجة رعدة خفيفة ودارت على نفسها مرتين ثم اضطربت متشنجة وتلاشت وسقطت ميتة فبال الدوقة هذا المنظر الغريب وصرخت وستررت وجهها بكلمات يديها فاسرعت بريقة عند ذلك ووضعت الدجاجة الوضع الذي قصدته ولم ترها الدوقة . ثم قالت لها مالك يا سيدتي ما هذا الضعف في قلبك هل تأسفين لنوال مرامك على موت دجاجة وانت تأمرين كل يوم بذبح الفراخ وغيرها

- هالتي هذا المنظر لانه مخالف للطبيعة

- بل هو نفس ما يوافق الطبيعة فالروح اتى والروح تكلم والدجاجة ماتت به

- لا افهم مما تقولين شيئاً ولا رأيت ولا سمعت الا ما جرى في ظاهر الروية

- قومي الآن وانظري ما جرى

فالتزمت الدوقة ان تستجمع قواها وتطيع بريقة فقامت وتكلفت النظر الى ما

ارجف اعضاءها

- ومن اللازم هنا ان نكشف سرّ هذا الحادث لئلا يرتاب به الساذج والامر بسيط جداً طبعي فان الحب الذي نثرته بريقة للدجاجة كان مسموماً بحيث يقتل من ساعته وكانت قد صنعتها سابقاً لغايات مثل هذه ثم احكمت وضع الدجاجة حينما سترت الدوقة وجها

ولما نظرت قالت لها ترين يا مولائي ان موت الدجاجة كان فجائياً شديداً فهذا رمز الى الميتة العتيدة ان تصيب ابتك

فانذهلت الدوقة لانها ذكرت نفس هذا الكلام الذي سمعته منذ عشرين سنة من فم المنجمة الايوانية

ثم قالت لها وترين ايضاً ان رأسها ملقى على البيت الحادي والعشرين من هذا الطلمس . فمصاب بتك يكون في هذه السنة . وترين متقارها مفتوحاً ملقى على القطع الاول من البيت المذكور فالحادث يقع في الشهر الاول من هذه السنة . فقد اوضح لك الروح على يدي ما تتمنين معرفته

فزاد بالدوقة اللبال وقالت لبريقة عرفت شيئاً وفاتني اعظم منه

- سلي ما شئت فانا استشير الروح

- انت تعلمين اني ابذل ما استطيع وفوق استطاعتي ايضاً لدفع هذا الخطر القريب ولو اقتضى الامر بذل نفسي لاجبت الى سفك دمي فهل من واسطة لتخليصها من هذه النكبة وانا مستعدة ان افعل كل ما تأمرين به

- دعيني استرح دقيقة لاني عجوز مضطربة الفكر الآن ولقيت تعباً من العمل ثم احاول وجود طريقة للسلامة

- اصبر ما احببت ان افاد الصبر

ثم اتكأت على الطاولة المربعة ويدها على وجها

يرجع حديثنا الى البارون الكرجاني فانه بعد ما دخل الخدع وأغلق الباب رأى على الحائط نوراً ضعيفاً داخلاً من ثقبين يدخل الاصبع في الواحد منهما وهما فوق الباب بحيث ينالهما نظر الواقف فوقف ينظر منهما ويسمع ما يجري بين بريقة والدوقة

واما بريقة فانها بعد دقيقة رأت الدوقة غائصة في افكارها وعيناها مستورتان
بكفئها فتمشت الى ان بلغت باب المخدع ووضعت فاهها على احد الثقبين وهمست
بصوت يسمعه لوقا قائلة كن على اهبة مساعدتي فقد اقبلت الينا السعادة واليك خاصة
ففهم ما قالته وقال كفى

فتحققت بريقة انها تصادف نجاحاً في المشروع العظيم الغريب الذي لاح لها
وعادت فجلست في متكأها قرب الطاولة المربعة

فقال لها الدوقة وهي لم تغظن لما جرى والآن يا مولاتي هل اخذت الراحة المطلوبة
- نعم يا مولاتي والآن لي طريقة اخرى اناجي بها الروح . ثم قامت واخذت
ورق لعب وبسطته على الطاولة بنظام خاص واخذت قلبه وتديره وتنقل بعضه الى
مكان بعض وهكذا حتى لم تميز الدوقة شيئاً من سرّ حركاتها . ثم قالت للدوقة سلي
الآن فقد استحضرت اللازم من الاجوبة وعسى ان لا يكون الا الخير

فتنفست الدوقة نفس الراحة عند سماع وعدها المفرح ورفعت بصرها الى
السماء تشكر الله وقد ذهلت ان المكان الذي هي فيه مقرّ الابالسة والجنّ ثم قالت
الغولة الخطر جسيم والضربة هائلة لكن لي الامل ان اصرفه عن بنتك

- آه يا مولاتي قولي حالاً ماذا اعمل لتحويل هذا المصاب

- لا تستطيعين شيئاً

- ويلاه اذا كنت انا امها لا تستطيع شيئاً فمن يستطيع

- لا يستطيع الا رجل واحد

- من يكون هذا الرجل ما اسمه

- ما اعرف اسمه

فجزعت الدوقة نخبيتها وقالت الا تقدرين على الاقل ان تذكرتي صفته

- كيف اقدر وانا لا اعرفه

- اذن خاب الرجاء وفسد الوعد الذي وعدتني فقصدك ان تهزأي بي ولو وجد

هذا الرجل في هذه البلاد ورأيت فكيف اعرفه

- هو موجود يا سيدتي وقد لاح لي اني اقدر ان امثل لك شبهة فترينه

- عجباً تزيدني ويلاً على ويل كيف تريني اياه ومتى
 - في هذه الساعة امثله امامك في هذا المكان نفسه الذي نحن فيه
 - لا يمكن ان اصدق هذا الزعم لانه ليس هنا
 - قلت لك انك لا ترينه بشخصه بل شبحه يظهر لك كالتخيال على هيئة بخار
 تظهر فيه صورته بتمامها

فارتجف بدن الدوقة وقالت اتصنعين مندلاً وترعجيني بالشياطين
 فلم تجب بريقة

وبعد قليل قالت الدوقة وهي تضطرب الى متى اصبر المسألة مهمة فيها حياة
 بنتي وهلاكها فانا افديها بنفسني عند الاقتضاء فاصنعي يا سيدتي ما انت صانعة فحب حنة
 ينفي عني كل خوف

ثم جلست على الكرسي متلاشية

فدخلت بريقة معملاً واتت بكانون حديد كبير فيه فحم وبعلة نحاسية وقضيب
 ابنوس . واشعلت الفحم ووضعت الكانون بين الطاولة المربعة وباب المدخ
 ورسمت دائرة بالقضيب بين الطاولة والكانون وقالت للدوقة قفي يا مولاتي في
 وسط هذه الدائرة ولا تبرحي منها مطلقاً منذ ابتدئي بالتعزيم والا فاهلاك سريع
 واياك ان تلفظي كلمة حال ظهور الشبح
 - لا اكون الا سامعة مطيعة

وحينئذ فتحت بريقة علة النحاس واخذت منها قبضة من دقيق ناعم ايض
 والقتها على الجمر فارتفع دخان كثيف كالضباب سطعت رائحته كالبخور ودخلت في
 ذلك الضباب فاخفت عن نظر الدوقة . وقالت لها الآن انطق بتعزيم الاستحضار
 فتى انكشف هذا الضباب ترين امامك صورة الرجل الذي على يده يكون خلاص
 بنتك فاحدقي به بصرك جيداً او سريعاً لانه لا يظهر الا مقدار ثانية

ثم فركت رز الباب السري وعادت فجلست وراء الطاولة المربعة واحضرت قنديلاً
 كفانوس الحرامية وصبرت حتى رق الدخان وظهر من خلاله ظهوراً غير جلي مثال
 البارون الكرجاني فوجهت بريقة اليه نور الفانوس الساطع فضرب حلقة من نور بهيج

فوق رأسه من خلال الدخان الرقيق كان خيلاً سحرياً يتجلى للانظار بهاء وجلال
 فقالت الدوقة بصوت لا يسمع تقريباً هذا البارون الكرجاني بعينه . وفي الحال
 كانت بريقة قد طرحت في الجمر قبضة اخرى من ذلك الدقيق فكأثف الدخان
 واختفى الشبح . ولما رق الدخان كان لوقاً قد اغلق الباب
 فقالت بريقة عرفت ما تحبين يا مولاتي

فلم تجب بشيء ، واخرجت من جيها صرة كبيرة من الدنانير ووضعتها على الطاولة
 فقالت بريقة حيث يا مولاتي هذا كرم فوق اهمية الخدمة التي خدمتك اياها . ألك
 شيء آخر تسألينه

فرفعت رأسها اشارة النفي . وحينئذ صفرت بريقة بهنة معدنية فظهر العبد
 فقالت يا مولاتي هذا عبدي يمشي امامك الى المكان الذي تطلين بلوغه
 فخرجت الدوقة وهي كأنها في رؤيا مما شاهدت من هذه الاعمال السحرية ومشت
 مشية السكران وراء العبد

وبعد ما اغلق الباب فحمت الباب السري فخرج البارون وهو يكاد يطير من
 العجب والفرح فقالت له اسمعت ورأيت كل ما جرى

- كل ما جرى لم يقتني منه مثل الشعرة يالك من داهية حاذقة . فالآن قد تحققت
 نجاحي لا بد ان افوز كنت تطلين برهاناً فصار عندي الف

- ارأيت اني قت بحق عملي فالآن عليك انت ان تتكهن لي بالمستقبل

- قبل كل شيء اطلب المبلغ الذي احتاج اليه اي الف دينار

- في خمس دقائق تكون في قبضتك

- وبعد ثلاثة ايام اكون خطيب بنت الدوق الشميسي

- ما عدت انكر ذلك

- وفي ثلاثة اشهر اتزوجها ويوم العرس اقبض مليون درهم فتالين ثلاثمائة الف

- لاختلاف في ذلك

- ولا تمضي سنة حتى اكون اغنى خلق الله واقوى اهل باريس . ساكون

ملك الليل

- أرى طالعك سعيداً لوقا
- بهمتك يا حبيبتى لا يزال السعد يخدمني
- فهل لك ان تأكل معي لقمة فقد مضى الوقت واشتد الجوع
- آكل بكل لذة وسرور وان كان فرحي بك يعني اشهى الطعام فحضت بريقة واضرمت ناراً ووضعت عليها مرجلاً وقدراً فيهما طعام كان قد طبخ من اول الليل ولم يسمح لهما الوقت بالاكل لما مرَّ و بعد دقيقتين سخن الطعام فرفعه عن النار وساعدها لوقا بوضعه في الصحون وجلسا على مائدة صغيرة في غرفة ملاصقة لقاعة الاستقبال احدهما بازاء الاخر واخذ لوقا سكيناً و باشر تقطيع اللحم وملاّت بريقة كأسين ليشر با على سرّ الاجتماع السعيد والمستقبل المجيد

الفصل السابع

ظهور القينين

- كاد لوقا وبريقة يمدان ايديهما الى الطعام فطُرق الباب الخارجي ثالث مرة منذ اول الليل فجمد لوقا حنقاً وقال تبا لهؤلاء الناس ما اثقلهم أفي مثل هذا الوقت يكون دخولهم المنازل . ما تقولين يا عزيزتي بريقة هل تقبلين هذا الطارق في غير وقته
- لا بأس يا صاحبي فلو امتنعت حسب اشارتك عن استقبال الدوقة الشمسية لما كان السعد فتح لنا ابوابه الرحبة ولعل هذه الليلة تكون لنا اسعد ليالي الدهر فاني قلت لك يخال لي ان لها شوئنا غريبة
- ما كل سوداء تمر يا بريقة اتظنين ان كل طارق يكون طليعة سعد كما اتفق لنا مع الدوقة
- نمتحن نصيبنا في هذه الليلة المباركة لعل باباً جديداً يفتح لنا فيقع ما لا يكون في حساب
- فاذا كانت المسألة مسألة كهانة فلا تطيلي الوقت واقتصري ما استطعت

- افعل ان شاء الله ونراعي الظروف بحيث لا اطيل صبرك على الجوع
قالت هذا ونهضت الى قاعة الاستقبال فرأت العبد بالباب فقالت ادخل الضيف
ولبست وجهها الصناعي على العادة

وبعد قليل دخل العبد ووراءه شخصان بهيئة غريبة ولباس زري . وهما قين
وقينة بصفتها التي كانا عليهما في هوانة وهما يغنيان في الشوارع ويضربان الطنبور
ويرقصان وعلى وجهيهما وجهان صناعيان على عادة الذين يدخلون المنزل الاحمر
وكان قين قبل الدخول قد قال لاخته بحياتك يا أختي اسمعي مشورتي مرة في
الدهر وانزعج في طريقنا ونرج الريال الباقي معنا لعشائنا لئلا يذهب سدّي في هذا
المكان الملعون . فقالت اتظن يا قين اني اتيت وبلغت الباب لكي ارجع على اعقابني
وليذهب الريال والريالات لاقضي غرضي

- ونبيت بلا عشاء في هذه الليلة التي هي آخر ليالي المرفع ايطاوعك قلبك على
هذه التساوة

- قد عزمت ولا اغبر عزمي ولو قضي ان نموت جوعاً فليس بالطعام وحده حياة
الانسان والشرف اسبق وحينما دخلا القاعة قالت بريقة ما حاجتكما في جوف هذا الليل
فتقدمت قينة الى نحو نصف دائرة النور المنبعثة من فانوس الحرامية وكان باقياً على
الطاولة واما قين فبقي وراءها في الظل وقالت قينة لبريقة الذي نريده لا يخفى عليك
يا مولاتي ان كنت انت الغولة الناظرة في الغيب المتكهنه المشهورة في هذه المدينة

- انا هي التي تطلبانها لكن ارا كما فقيرين

- ما اعلمتنا شيئاً جديداً فنظر ثيابنا يدل علينا صريحاً

- وانا لا اقضي غرضاً مثل عرضكما الا لمن يدفع لي اجرتي افتقدران

- لو لم نكن قادرين لما طرقتنا منزلك فهودا ريال كالتعمر الزاهر

ووضعت قينة الريال على الطاولة فطار قلب قين معه واختلسه بعينيه وهو يتلف
عليه ويقول في نفسه ويلاه ودعني ريالي ثروتي . ودعني العشاء الذي كنت ارجوه .
ودعني اللحم والحمر المعتقة في هذه الليلة العظيمة ودعني كل ما احب . وا اسفاه

واما الغولة فنظرت اليه نظرة الازدراء وقالت لا آخذ اجرة الا من الذهب

الاصفر فاجابت قينة وقد حزنت لسوء الحظ يا مولاتي ليس معي الا هذا الريال لا هنا ولا في غير موضع هذا ثروتنا الوحيدة

قالت فخذيه وامضي بسلام

فصار قين يفرك يديه ويقول في نفسه عافاها عافاها الله هذه الكاهنة الفطنة ما ارادت ان تنزع منا قوام لذتنا . هيا بنا يا قينة عاد اللحم والخمر وامتلأ بطني دسماً ودماغني طرباً

واما قينة فلم تبال به ولا التفقت اليه بل قالت لبريقة وهي لم تفشل بجفاء كلامها لثبات جانها وقوة ذكائها . يا مولاتي يقول الناس انك غنية جداً وهذا قول لا يحتمل الريب لانك مشهورة بالمعرفة وصدق الانباء والناس كل يوم ياتونك باموالهم جزافاً وهم قادرون فاشفقي على قبرنا وتقبلي منا هذا الريال واحسبيه كلفس تلك الارملة ولك الفضل

- ليست هذه مهنتي فخذني ريكال وانصرفي

- اقسم عليك بكل عزيز عندك الا اجبت سوءالي يهمني يا مولاتي ان اعرف

مستقبلي يهمني جداً ان يعلق لي امل او اتحقق اليأس من ايامي

- لكن انا لا يهمني ما ذكرت فاطلبي سواي لعلك لا تخيبي فلست اعرف شيئاً

من مستقبلك

- ارجوك يا سيدتي كل الرجاء

- اطلت الكلام يا فتاة فانصرفي عني لان لي شغلاً اهم من شغلك . اذهبي

- سيدتي اجثو على ركبتي امامك واقبل يديك اذا شئت

- كفالك وقاحة انغصبيني منزلي وتسترقين كلامي . امرتك ان تخرجي والا استعملت القوة

فلما سمع قين ذلك « لف ذيله » وانسل وعينه على الريال وهو فارغ الصبر ليرى

يد اخته مدّت اليه . واما قينة فعاكست فعل اخيها . تقدمت خطوتين امام بريقة

حتى صارت في النور الجلي وكشفت عن وجهها الستر الاسود وقالت بغيظ وشهامة

انظري يا مولاتي حققي النظر في وجهي لكي تعرفيني يوماً ما قد منعتني رجائي الذي

احسبه خادعاً وانا محتاجة اليه فساو لي لاني لست من اللواني يسقطن تحت اثقال

الخبية ويتقاصرون عن الارتقاء في سلم الايام . بل انا من اللواتي يتشبثن بخيط العنكبوت
لبلوغ قم المجد وقد جربت نفسي وساعدتني الايام اكثر من مرة لو تعلمين . وسامتحن
ايضاً طالع سعدي ولا بد ان اظفر بالارتقاء وحينئذٍ آخذ بثاري فاحذري ان
كنت تعقلين

وبينا قينة تتكلم كانت بريقة تنظر اليها باندهاش وامعان غير ارادي وقد عجبت
من جمالها ووضحت لها ملامحها ولا سيما في حالة الغضب فرأت فيها هيبة ووقاراً حيرها
وقالت في نفسها ما هذه الفتاة من رعا ع الناس واني اتوسم فيها دلائل الشهامة والنفوذ
فلا يصعب ان الدهر يساعدها ويسعدها فلا وفق ان مثل هذه لا تعادى بل تتخذ
صاحبة معينة

وكانت قينة بعد ان فرغت من كلامها ادارت ظهرها وتقدمت نحو الباب فقال
لها اخوها الريال ويحك هل تركينه لهذه الفاجرة . فلم تجبه بشيء واستمرت ماشية
فقال لها بريقة مهلاً يا فتاة

فانعطفت اليها وقالت مالك ياسيدة المكان

- تعالي لعنا تتفق على المسألة

فقال قين في نفسه يارب ارحم اذا اتفقتا اخذت هذه الساحرة الريال المحبوب
فلما صارت قينة في وسط دائرة النور قالت لها بريقة قلت لك اني لا آخذ اجرتي
الا ذهباً احمر وهو الصحيح لاني احسب علمي حقيراً اذا بعته بالفضة غير اني ارى فيك
شيئاً حيرني ما ادري ما هو ولكن اعجبني حتى اقضي غرضك مجاناً بعد ما امتنعت ان
آخذ هذه الاجرة القليلة . او اذا شئت اقضي شعلاً بشغل لاني رأيت من شهامتك
وعزة نفسك ما حقق لي فيك اهلية في الاعمال

- ما الذي تطلبين مني

- الهيئة التي اراك عليها وزبي رفيقتك وطنبوره دليل على انكما تعرفان الغناء

- نعم هو هذا

- فانا اعلم بصناعتي لاجلك وانتِ تعملين لي بصناعتك

- اجبتك واشكر فضلك

- فخذني ريكال

فلم تعجل قينة باخذه فتقدم قين بلهفة كالدُّب الكاسر وقبض على الريال باصابع
كمخالب الجوارح ودسه في جيبه وزجع الى مكانه

فتبسمت بريقة تحت وجهها الصناعي وقالت من يكون هذا الرجل فقالت قينة وهي
محمرة من الخجل هو اخي يا سيدتي وهو يحبني حباً غريباً حتى يبذل نفسه دوني . له
المام حسن بالآلات وشهامة وحذق في الاعمال ومهارة في ضرب السيف

فقالت بريقة في نفسها لا بد ان ينفعنا هذا السيف يوماً على خساسته فلا يحسن
ان يستخف الانسان بشيء ولو كان حقيراً . ثم قالت لقينة هاتي يدك يا صبية فقدمت يدها
وجعلت بريقة تنفوس فيها فوجدتها ترفه لطيفة دقيقة الانامل والخطوط عليها كالشبكة
متداخل بعضها في بعض . ثم تركتها وامعنت النظر في وجهها فسألتها قينة ما رايت يا مولاتي

- رأيت انك تسخرين بعلمي في باطنك اذا ما اظهرت لك صحة معرفتي

- ما معنى هذا الكلام

- معناه اني لا اغفل عن هذا التخفي ايتها السيدة وان قصدك ان تخدعيني

- اي تخفّ تقصدين . كلامك مبهم

- اظننت انك تعرّنيني وتكشفين مني سوء مخبرة والحال اني اعلم علم اليقين لست
دخيلة في فني ولا مدعية ما ليس في . وقد احسنت الحيلة لكن كشفها بفراستي لان
مثلي لا يلبّ بعقله . لست رقاصة ولا مغنية انت سيدة شريفة لا تحاولي الانكار
وانا على يقين من كلامي وانت تعرفين اني صادقة

فابرت اسرة قينة عند ذلك ثم كظمت ابتهاجها وقالت لبريقة بصوت الخشوع
اسمي يا مولاتي وصديقي قولي علمك عزيز كما ارى ورايك صائب غير ان بعض الحظوظ
يعترض دون ظهورها حجاب كثيف وحظي من جملتها فالذي ذكرته لي ليس بخطأ
صریح ولا اصابة تامة فانا اقسم لك وابريئيني اني الآن على حقيقة ما ترينني لست
متنكرة ولا زني زني تخفّ ولا تملك يدي الا هذا الريال الذي ازدريت

- اذا كان ما تقولين صحيحاً فانك ولدت في طالع غريب الحال وقد رأت عيناى

الآن ما لم ارقط ولن ارى ابداً

- ما الذي عرفته من خطوط يدي واي شيء القالك في الحيرة من امري
- عرفت مستقبلاً عجيباً وابهة لا مثيل لها وسلطة لاحد لها وبالاختصار مستقبلاً ملوكياً
- يا للغرابه انا احصل على ابهة وسلطة وملك افي يقظة اسمع هذا ألم تحدعني أذني
- الست ساخرة من سلامة طوبيتي ألم تهكمي على فقري الواضح
- انا الاخرى احلف لك اعظم الايمان اني ما قلت الا الصواب وما بشرتك
- الابما سيقع
- أليس في ذلك ريب
- لاشيء من الريب وما كلامي على سبيل التخمين بل من باب اليقين كأنى مبصرة
- بعيني ما ستكون فيه من الحمد والجلال
- أقریب هذا الزمان الذي تزعمين فيه ارتقائي العجيب الى سدة الملوك
- اعطيني يدك ثانية حتى لا احكم حكماً حديساً
- فدت يدها ودققت بريقة نظرها فيها وقالت لا تحسبي ما قلت الا في زمان
- قريب جداً
- ما الوسائط التي تودّي بي الى ذلك
- هذا امر ليس في غزارة علمي شيء من الاطلاع عليه
- وكيف ينتهي بي الحال
- ولا هذا ايضاً اقدر ان افيدك اياه لان الدلائل التي رأيتها في يدك لم يقع نظري
- على مثلها وانا بنت مئة سنة قضيتها في مثل هذه الامتحانات فانظري الى خط الحياة
- هذا الكبير فانه لا يأخذ بالاسطالة صريحاً فيدل على طول الحياة ولا يتقاصر قطعياً فيدل
- على موت فجائي بل يمتد بالتدرج مختلطاً بخطوط اخرى غريبة الشكل مبهمه التأويل
- فلا اعرف كيف ولا اين ينتهي لأحكم بموجبه
- فتكون حياتي على ما يظهر قصيرة
- اذا كانت قصيرة فانها ذات ابهة وفخامة على ما ارى
- سلمت وارتضيت واحسن ما كنت اتنى من الحياة ان تكون كما وصفت ولو

قصرت وقد احييت في قلبي كل ما كان لي من الامل في مستقبلي وهذا ما كان يختلج به صدري وتصوره لي فظنتي فاشكر فضلك كل الشكر ولست ناسية معروفك . واذ قد عملت ما عليك بقي ان اعلم انا ما علي . ثم اشارت الى قين فتقدم وهياً طنבורه فقالت بريقة البسي وجهك الصناعي لاني احب ان ادعو صديقاً لي من الاشراف ليسمع ويرى صناعتكما لئلا يلتهي بسحر عينيك عن سماع الحانك وها هو هنا داخل هذه الغرفة

فعلقت قينة الوجه الاسود وقامت بريقة فدعت بلوقا ولما دخلا قالت له ايها البارون تسمع لي ان اعرفك بهذه الفتاة اللطيفة التي رأيت لها مستقبلاً عجباً من السعادة وهي مغنية تحب ان تسمعنا شيئاً من الحانها وهذا الرجل اخوها وهو شهيم ظريف وسياف مشهور . فسلم لوقا على القيمين وجلس

وكان قين ينظر نظر الالهف الى قينته خمر كذب العقيق موضوعة في زاوية القاعة وبريقة تنظر اليه نظر الحاذق فقامت واتت بالقينة وقدمت وملاّت قدحاً وناولته فشرب وملاً لوقا القدح الآخر وناول قينة فجرعت منه جرعة خفيفة وارادت ان تضعه على الطاولة فتناوله قين وقلبه في مغارة حلقه .

ثم قال لوقا قينة ان شئت ان تشفي اسماعنا بالحانك الشجية فلك الفضل قالت على الرأس والعين يا مولاي ابدىء باغنية الاشراف

فاهتر لوقا عند سماع صوتها اهتراز الدهشة فقالت بريقة مالك اختلجت قال اخال اني سمعت صوت هذه الفتاة قبل الآن . قالت قينة ليس الامر كما ذكرت يا مولاي فاني واخي حديثا العهد في باريس وهذه اول مرة قابلت سيادتك . قال صدقت وقد فظنت الآن الى الصوت الذي سمعته وكأنه صوتك تماماً . ثم همس باذن بريقة قائلاً كأنه صوت حنة الشميسية وكأنني اسمعها الآن تنكلم

وبعد سكون قليل قالت قينة لاختيها ابدأ يا اخي . نجس قين اوتار طنבורه وشرعت قينة بالغناء

وبعد ان انتهت اهتر لوقا وبريقة طرباً وقد خرقت نبرات قينة اعماق قلوبهما

فقالت بريقة للوقا اترى من التي تسمع صوتها

- أغير مغنية هي ؟
 - لابل هي ملكة في مستقبل الزمان
 - ملكة المراسح على كل حال فما سمعنا الذّ ولا اطرب من ألحانها في ملاعب باريس
 - لا ذكر للملاعب هنا ايها البارون بل ستكون ملكة حقيقية ذات سلطان مطلق
- ومجد لا يحدّ هكذا ظهر لي من فن الفراسة

فبسم لوقا كغير المصدق . فقالت بريقة اتهمك على كلامي فاذا رأيت وجهها البديع التزمت ان تصوّب مقالتي ثم مدت يدها وكشفت الوجه الاسود عن وجه قينة فحالما وقع عليه نظر لوقا شق وتلاشى على كرسيه ثم ملك نفسه حلالاً وعاد الى سكونه وقال الآن سلمت يا مولائي . ما كنت اظن اني ابصر هذا الجمال القتان . وبناء على هذا الرجاء اتبها الحوراء البديعة اكون تحت اوامرك منذ الآن آتمر بما تأمريني

فقالت قينة ليس لي ياسيدي ما اصدع خاطرک به . فاعترضها قين بجدة وقال اقسمت عليك بجميع القديسين يا اختي ان لا تحاولي عزة النفس . لا تصدقها ياسيدي البارون . نحتاج الى كل شيء ليس بيدنا الا ريال واحد ستة دراهم فقط نفقها هذه الليلة على عشاءنا وفي الغد نبقى « على الارض يا حکم » (١)

فاخرج لوقا من كيسه خمسة وعشرين ديناراً من الالف التي اقترضها من بريقة . وقال لقينة ارجو ياسيدي ان تقبلي هذا المبلغ الحقيقير الى اجلٍ ريثما ياتي وقت مجدك فتردّينه لي

فلم تمدّ قينة يدها واما قين فمدّ كفّاً كالمدرى وتناولها قائلاً نشكر فضلك ياسيدي البارون فقد زرعت في تربة جيدة وانا المتكفل لك بردّ مالك مع فائدته مضاعفة وقد رأيت منك شريفاً لا كالشرفاء وفاضلاً لا كالفضلاء وها انا لك مأمر اخدمك بسببي هذا البتار وابذل دمي امامك ولو كان خصمك ملكاً

- تكرمت وتفضلت ايها البطل الشجاع ولعلي احتاج الى ذراعك في زمان قريب
- فقل لي اين تنزلان حتى اذا احتجت اليك ذهبت ودعوتك
- يا مولائي منزلنا الآن حقير نزلناه موقناً الى ان يسعنا الزمان وتتخذ منزلاً لائقاً

(١) كثيراً ما استحسننا ان نستخدم في هذه الرواية امثالا وعبارات عامية لمناسبة المقام

بمقامك . ومحلنا الحالي في الزقاق المعروف بالبئر الناطقة في الفندق المسمى الفندق الانطوني . على الباب تمثال خنزير من خشب مدهون باحمر والاقدام مدهونة بدهان ذهبي

- وما الاسم الذي تعرفان به هناك

- لم اذكر لصاحب الفندق كنيته الشريفة ولا اسمي المجيد لان الدهر حطاً بنا على غير استحقاق فنُعرف الان بالاخوين المغنيين

فاخذ لوقا ورقة وسطر عليها سطرين وقال لقينه يامولاتي اذا اردتني ففي هذا المكان تطلينني

وحينئذ لبست قينة وجهها المستعار وعلق قين طنوره بمنطقته وخرجا . وصار قين يجسّ جيبه لئلا يكون قد نال الدنانير في حلم ثم يحركها فيسمع صليلها فيطير قلبه ابتهاجاً ويهنزّ طرفاً وصار يحسب الوان الطعام وانواع الخمر التي سيحظى بها بعد تلك الغافة الشديدة والتعسف العظيم

واما اخته فلم يههما هذا الشأن بل كانت موجهة كل افكارها الى مستقبلها البهيج واما بريقة ولوقا فجلسا ينظر احدهما الى الآخر نظر المتعجب ثم قالاً معاً . لنوضح الآن امرنا فقال لها لوقا فما الذي قصده بهذه الكهانة التي ملأت بها دماغ هذه الصبية باوهام لا حد لها

- لم اخدعها يا لوقا والحق ذكرت لها بحسب ما رايت من خطوط كفها

- أفصحيح ما قلت

- صحيح نعم مستقبلها يكون محفوفاً بالغنى والمجد

- لكن طالما قلت لي انك لا تعتقدقين صحة كهانتك

- هو ما قلت لكن قد يعرض ما يخالف الاعتقاد والدلائل الحاضرة ربما ادت الى

صدق نبيائي وانت اخبرني ما سبب هذا الاندهاش الذي حلّ بك والشبهة التي شهقتها حينما وقع نظرك على وجه الصبية فهل امرت فؤادك برونق جمالها وحوّلتك عن مقاصدك الاولى

- ليس هذا يا بريقة لكن ياله من اتفاق غريب لم يخطر على قلب بشر . هل

رأيت في زمانك او سمعت يقال ان زهرتين على غصن واحد تسمى معاً وتذبلان معاً
الواحدة بجانب الاخرى متماثلتين شكلاً وصورة ولوناً ورائحة لا تميز العين الحاذقة بينهما
حتى كان الواحدة منهما صورة الاخرى منعكسة في مرآة صافية

- هذا امر غير مستحيل وقد رأيت مثله

- فاذا كان ما ذكرت فهو واقع بين حنة الشمسية وهذه الفتاة المغنية

- يا للعجب هذا لا يمكن بين البشر

- وقد وقع ورأيتُه بعيني ما ظننت حين سمعت كلامها الا اني سامع صوت حنة تماماً

وما سطع نور جبينها وانجلي بهاء وجهها الا خلت اني ارى حنة بعينها . ليس بين هاتين
المخلوقتين فرق في شيء . الملامح والقد والهيئة واللفظ وسحر العيون ولونها والشعر
وطوله ولونه ورقة الاعضاء وامتشاق القوام والرشاقة في الحركات وهيئة الوقوف والاشارة
والمباسم والنظر وعزة النفس كلها في الاثنتين واحدة حتى لو رأتهما الدوقة الشمسية بلبس
واحد . ومكان واحد لم تفرق بينهما ولم تميز بينهما من هذه المغنية ولا بد ان العواطف
الوالدية تميل الى الواحدة كما تميل الى الاخرى اذا لم تكن الاثنتان معاً ولم تكن الام
متحقة بنتها . فما قولك يا بريقة في هذا الاتفاق الغريب والمظهر العجيب

فسكتت بريقة قليلاً ثم قالت قلت لك ان هذه الليلة من اسعد الليالي وقد اتت

بالعجائب ومن الضرورة ان تلتفت كل الالتفات الى هذه الصبية واخيها لان لنا بهما
اجلاً مصلحة

فنشر لوقا الورقة التي كتب عليها السطرين وقرأ « زقاق البئر الناطقة . الفندق
الانطوني . الاخوان المغنيان » ثم قال لبريقة قد فطنت لدخيلتك يا صديقتي وشقيقتي
واحسب اني ارتأيت نفس ما وقع في ضميرك من هذا القبيل . يا لتحقق الآمال
ونجاح الاعمال

الفصل الثامن

« العائلة الشمسية »

قلنا آنفاً ان الدوقة الشمسية خرجت من المنزل الاحمر تعثر باذيالها من شدة

حيرتها واندها لها لما شاهدت من اعمال الغولة الغريبة
ومن المقرر في علم الحكمة ان الدنيا لا تصفو لانسان فاذا اتته السعادة من وجه
اتاه الشقاء من وجه آخر فلا بد لصفاء العيش من كدر ظاهر او خفي . فهذه المرأة
كانت راتعة في مجبوحة النعيم لا تحتاج من مشتهيات الدنيا الى شيء . بلغت الاربعين
وهي في نضارة الشباب ولها من العز والشرف ما لا تحسد عليه احدًا . ثروة جزيلة
ومقام رفيع وزوجها يحبها بعد العشرين من الاقتران كما كان يحبها في اوائله ولها بنت
صبية لطيفة مهذبة بارعة الجمال تمني كل عين ان تراها وتمسحتها القلوب والافكار .
الا ان كاس صفائها كانت مكدرة بقطرة من السم ممتزجة بالدم تتوقع منها اعظم
الويلات . فان نبوة المنجمة الايوانية كانت لا تزال شاغلة افكارها نهاراً وليلاً ومغصّة
عيشها منذ عشرين سنة لا تعلم كيف تخرج من هذه الورطة الوخيمة . اى مصاب
يحل بها عند تفكرها بالخطب المزمع ان يلم بقرّة عينها وحديثها التي هي بمثابة روحها .
وطالما حاولت ان تحوّل هذه الوسوس من افكارها لكن غلبة الخنوّ الوالدي لم تزل
تصوّر لها وقوع الخطر فتزيد قلقها . وكيف تستطيع محو هذا المسطور وقد وضحت
لها دلائل اليقين . ورأت بعينها وسمعت باذنها ما خيلته لها الغولة من الاوهام
وكانت قبل دخول منزل بريقة الكاهنة المشهورة تأمل ان تسمع منها ما ينبغي من
افكارها خزعبلات التنجيم ويثبت فساد مدعى اربابه لكن لسوء الحظ كان الامر
بخلاف ما ترجت فبعد ان كانت مقيدة بسلسلة من الوهم رأت نفسها بجبل الداهية
معرفة بشبكة لانفوذ منها فاضطرت ان تعتقد صحة الانذار لانها رأت ما لم يكن
يخطر لها ببال

وما احسن قول حكيم الشعراء في هذا المقام

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وكان في منعطف شارع يقال له شارع السنونو كنيسة صغيرة قديمة العهد على اسم
سيدة الاوجاع تفتح ليلاً في يوم ثلاثاء المرفع لاقامة الصلوات الليلية فدخلتها الدوقة
وسجدت وصلت وسكبت دموعاً سخية ثم القت في صندوق الفقراء قبضة (١) من

(١) القبضة ما يتناول باطراف الاصابع فهي اقل من القبضة

الدنانير وخرجت من الباب الآخر فوجدت مركبتها في انتظارها فلم يشك الخادم أنها كانت تصلي في الكنيسة وركبت حالاً ومضت الى قصرها

وكان هذا القصر في شارع خندق النصر كما قلنا وحوله اراضٍ متسعة تختص به ممتدة الى الشارع القلوي وهي عبارة عن جنيحة كبيرة ارضها عالية جداً يضمها جدار متين البناء ارتفاعه نحو اربعين قدماً. والشارع القلوي متحدر كثيراً عند التقائه بشارع خندق النصر فلما دخلت الدوقة دهليز القصر تسارع اليها الخدم وصعدوا بها الدار وبايديهم القناديل فسمعت صوت بنتها الحبيبة مترجبة بها وقد اسرعت الى لقاءها وعانقتها. ثم اقبل الدوق يعقوب الشميسي وضم الاثنتين معاً وقبلهما وقال . امرأتي العزيزة ابنتي المحبوبة انما قوام حياتي وكل ما احب على وجه الارض

وحينئذ قالت حنة لامها بصوت الدلال وهي تفتخر عن مثل اللآلي ابن كنت يا امي العزيزة حتى تأخرت الى هذا الوقت

- كنت يا ولدي المحبوبة في كنيسة سيدة الاوجاع اصلي لاجلك

- مالي اراك صفراء هل لقيت ما يزعجك

ف نظرت الدوقة في المرأة ورأت لونها مخطوفاً فارتعش بدنها وقالت لحنة ما اعلم يا بنية

لعل هذا نتيجة البرد

- أفلسيت متكدرة ولا حزينة

- لا ذا ولا ذا

- فاكون اذن طيبة القلب ويزداد سروري

- ما هذا السرور وانا ارى على وجهك لوانحه

- لي فرح عظيم وكنت اشتاق جداً لملقائك هذه الليلة لتشاركيني في افراحي

- وقد حضرت يا ولدي فاخبريني قضيتك

- حصل لي هذه الليلة حظان سعيدان

- ما هما

- تعلمين ان هذا اليوم يوم مولدي وقد دخلت منذ ساعات في سنتي الحادية والعشرين

- وما معنى ذلك

- انظري يا اماء انظري ما ألطف ما اهداني ابي لدخولي في سنة جديدة
- قالت هذا واخرجت من جيبها عقداً من انفس اللؤلؤ وعلقتة في عنقها وقالت كيف تجدين هذه الخلية يا امي أليست غاية في الظرف
- تبهج الانظار وتسرّ القلوب فلتكن مباركة لكن يتقصها شيء
- عجباً اي تقص هنا
- اسوار من جنس هذا العقد
- املي احصل عليه في السنة القادمة
- لا بل تحصلين عليه الآن فلا تنتظرين سنة كاملة
- وفتحت صندوقه صغيرة واخرجت منها علبة مغطاة بمخمل قرمزي ففتحتها واطلعت اسواراً حبة كحب العقد تماماً وطوقت به معصم حنة فانبهجت جداً وجعلت تقبل امها تكراراً شكراً لها على هذه التحفة السنية . فقالت لها امها حيث قد اتممت حظك الاول فاخبريني ما عسى ان يكون الثاني
- فكسرت حنة جفنيها حياءً وقالت . بعد ما خرجت من هنا تناول ابي رسالة من السيد رُعين الزهري طيها ألوكة باسمي
- سقياً لرعين ولدي العزيز ابن هو الآن
- في سفينته بمدينة برست
- ما يقول لك بهذه الرسالة
- كيف ما يقول لي . . .
- يقول انه باقٍ على حبك وانه في اشد شوق للقائك هكذا اظن
- بهذا المعنى او نحوه
- أهذا ما يذكر فقط ؟
- لا بل يخبرني انه استأذن بالحج الى هنا فلا يمضي شهر او ستة اسابيع حتى يكون عندنا
- اهلاً وسهلاً ومرحباً ويا حبذا لو عجل القدوم لتقرّ عيني بروية الخطيبين
- لو كان ذلك بيدي لما تأخر دقيقه كما تعلمين

واستمرت هذه المناغاة بين الام وبتنها نحو ساعة ثم دخلت حنة غرفتها لتنام او
بالاحرى لتتأمل عينها وقلبها قبل النوم من كتاب خطيها الطافح شوقاً وحباً
وبقيت الدوقة والدوق في القاعة الصغيرة وجلست بازائه فقال لها يا عزيزتي قد
لاحظت كما لاحظت حنة اصفرار وجهك عند دخولك لكن ما قنعت بجوابك كما
قنعت حنة فلا أشك انك منزعجة الحواس متكدرة المخاطر

- ظنك في محله يا سيدي
- فما سبب ذلك
- امور هائلة مخيفة
- صرحت لي بما جرى فقد اضطرب قلبي . هل قادم علينا خطر
- خطر جسيم يدهمنا جميعنا لانه مختص بحنة . باللداهية
- اي خطري فاجئها ونحن في قيد الحياة ألا تقدر ان ندفعه عنها
- لا دافع منا اسفلاً لا تقدر على شيء لانستطيع ان نحمي ولدنا . ويلاه
- يا للعجب ما هذا الامر الغريب
- اسمع يا يعقوب اسمع ما اقول لك قلت لحنة اني كنت في الكنيسة
- اوليس الصحيح ما قلت
- صحيح نعم وانت تعلم اني لا انطق كذباً . لكن لم اقل لها كل شيء فقد زرت
- مكاناً آخر قبل الكنيسة . دخلت منزل امرأة اشتهرت عند الخاص والعام
- من تكون هذه المرأة
- امرأة بنت مئة سنة وهي بريقة الغلوية المشهورة في باريس بالغولة
- أفي المنزل الاحمر كنت
- في المنزل الاحمر نعم
- ما الذي جرى عليك هناك

فجعلت تقص عليه كل ما رأت وسمعت من ادق الاشياء الى اجلها ومن الجملة
تجلى شبح لوقا الكرجاني العجيب . وكان الدوق مصغياً اليها كل الاصغاء وهو منذهل
من هذه الاحوال السحرية حتى اذا انتهت من حديثها قالت له ما تقول الآن ياسيدي

وقد عرفت الحقيقة كما هي . فلم يجب واستمر عدة دقائق غائصاً في افكاره . ثم قال لها قد علمت الآن شدة ما اصابك لكن لا اشاركك بمخاوفك الا بعض المشاركة

- اتشك اذن في وقوع الخطر المنذر به هذه الليلة والتي مثلها في سنة ١٧٥٢
- ليس هذا لانه لم يبق للريب محل اذ لا يمكن اتفاق الصدق في انذار شخصين متباينين فمن اين تعلم المنجمة الايوائية الفتية ما تعلم غولة المنزل الاحمر العجوز وينطبق كلامهما كل الانطباق مع ان الحادثة عن كليهما لا تقتضي هذه الاهمية وخصوصاً بعد عشرين سنة من ذكرها . والمظاهر التي رأيتها تؤيد صحة الانذار فلا ارتاب بوقوع الخطر الجسيم على بنتنا

- فاذا كنت تشاركني في التصديق فلم لا تشاركني في الخوف
- لاني اعتقد اننا ندفع هذا الخطر مهما كان شديداً وذلك ان البارون الكرجاني الذي لم نكن نعرفه قبل البارح أظهر اول دفاع عن ولدنا فهذا دليل على ان السعد الذي يخدمه يتغلب على النحس الواقع على بيتنا وانا اعلم انه رجل شريف اديب فلا يتمتع عن معاونتنا ثانية وهو يعرفنا وقد فعل المرة الاولى وهو لا يعرفنا . ومعلومك ان شرف عائلتنا قديم العهد وتتمنى الملوك ان تقوم لدينا بمصلحة كهذه المصلحة تشرفاً بخدمتنا فلا يهمل البارون هذا الشرف ولا فخر الظفر في هول شديد كالمعدنا
- قد اتعش قلبي بهذا البرهان واشرق علي نور من الرجاء لكن من يفيدنا ان هذا الرجل الذي ليس له معنا شيء من العلاقة يكون في وقت الخطر في ساعة الاحتياج اليه حاضراً فيما بيننا ويتخذ حنة من الويل

- من هذا القبيل لا ترتابي فانه سيكون في نفس تلك الساعة
- ما الوسطة لوجوده في الوقت المعين وباي تدبير عجيب يتم هذا
- بتدبير سهل وواسطة بسيطة . الحرية المطلقة احسن وسيلة احب اتخاذها فاني كنت عازماً قبل ان تجرى ما جرى هذه الليلة ان امضي غداً لزيارة البارون واشكر فضله على ما بذل من الهمة في تخليص بنتنا من يد اولئك الاشرار والآن قد صممت ان اكشف له هذا السر واعلمه بالاحتياج العظيم الذي لنا اليه واقول له قد صار لك علينا اعظم الحقوق بما فعلت وازيدك حقاً ليس مثله حق وهو ان تكون المنقذ الوحيد لبنتنا

وتكون أخا لها في منزلنا وجزء لك على صنيعك اقدم كل حياتي حينما تختار . فاعلمي ان رجال الشرف لا يسمعون مثل هذا الكلام ويفضون عن مضمونه طرفاً واني متحقق انه سيمد اليّ يدهُ ويقول انا رهين مصاحبتك

فقلت الدوقة بعد دقيقتين أفيكون البارون اذن مقيماً عندنا كواحد منا

- نعم اليس هذا المقتضى
- أيصح ان يكون رجل غريب مراقباً لحنة في كل ساعة لا يبارح خدرها
- تكونين انت معه ومعها وما المحذور في ذلك
- لا محذور من جهة حنة على كل حال لكن يخشى ان الملائمة تودي بهذا الشاب الى الهوى بعد الاخاء
- هذا شيء لا اخافة لان مقام عائلتنا ارفع بدرجات من مقام عائلته فلا يجسر ان يفتح فاه بهذا الحديث
- أفي الحب امتياز بين رفيع ووضيع يا يعقوب . تبصّر
- لك حق في هذا المعنى لان الهوى كثيراً ما يمزق حجاب الشرف لكن لا يصعب عليّ ان اصرح له بان الفتاة مخطوبة فلا يوذيه هذا
- حسن ما قلت غير ان في خاطري امراً آخر يشغلني
- ما هو
- هو ان استمرار رجل اجني في دارنا وملازمته لحنة في كل حين مما يكدر صفاء رُعين الزهري
- ما اظنه داعياً لتكديره
- كيف وانت تعلم انه مشغوف بحنة مسحور بلطفها
- هذا لا بد منه طبعاً لانها خطيبته
- والعاشق يغار على معشوقه من النسيم كما تعلم
- وأعلم ايضاً ان الغيرة توذن بالريية واتهام حنة بالريية من اعظم الكبائر في حسابنا واكبر الاهانات لشرفنا فاذا لاح ذلك لرعين فلا يكون مستحقاً لهذه الدرّة الثمينة ويجلب الاهانة ايضاً لمنقذها فضلاً عن العار الذي يلحق بحسبنا ونسبنا . وانا

احسب ان وهمك لا طائل تحته وان رعيناً متى علم مجرى الاحوال يتقدم بالاكرام
للبارون الكرجاني ويدعوه اخاه

- اتنى هذا من كل قلبي عسى الله ان يلهما التصافي والموادّة

- لكلي اراك يا عزيزتي قلقة كئيبة غير مقتنعة كما احب فاخبريني هل في خاطرك

شيء آخر

فسكنت الدوقة نحو خمس دقائق ثم رفعت رأسها وقالت بجدّة . امّا وقد برح

الخفاء فان قلبي يرتعد من ذكر هذا الرجل الكرجاني وافكارى مضطربة من جهة .

احب ان تهمني بالجنون فلك ما تحب . نفسي لا تطيقه ولو اكرهتها لعصتي

- يا للعجب من هذه الوسواس . أهذا الرجل تكرهين . نعم هو عين الجنون . هو

فساد النية . هو من اسوأ الظنون . هذا اثم لا يطاق . لا اصدق انك انت الناطقة

بهذه العبارة . رجل شريف مُعدّ لا تقاذ ولدنا من اشد الاهوال ولو بذل دونها نفسه

تشمئز نفسك منه وتخافين حضوره . أهذا جزاء المعروف عندك

- ما لي كلام احبيك به قد ثقّلت عليّ وافحمتني رغماً عن اعتقادي . انت تبرهن

صواباً لكن قلب الام ينتبه باذني شعور حتى بالوهم . هذا ما يخامر سرايري ولا ادري

السبب . من الواجب عليّ ان اكرم هذا الرجل واخدمه بنفسى ويدي لانه اتقد

ولدي وسينقذها من الهلاك ويجب ان احترمه واوده لكن ليس الامر في طاقتي ونفسي

لا تطاوعني . يدلني قلبي على الارتباب وصوت داخلي لا بد ان يكون الهاماً من الله

لقلب الامهات يقول لي ان احذرهُ ما استطعت وانه سيكون مشوماً علينا ويصبّ

الويلات على رؤوسنا . فالبارحة بينما كنت اشكرهُ كنت اشعر بنفور قلبي من محادثته

ووضعت يدي بيده وهي ترتجف . كنت ارى في عينيه صورة الرعب وفي وجهه الشريف

الظريف هيئة الهول . وهذه الليلة ارتني الساحرة مثاله فرأيت له صورة جامدة صفراء

عليها لوائح الكآبة والنحس ولا تبرح من مخيلتي تلك الهيئة الابليسية . فالظاهر يقول

لي ان هذا هو منقذ ولدك والباطن يصيح هذا روح شرير

فكان الدوق يسمع هذا الكلام وقد أخذه الانذهال واحنى رأسهُ فلما فرغت

امراتهُ قال لها ألا تعلمين ايها العزيزة الضرر الذي اصبتني به والحالة السيئة التي القيتني

فيها كان في املي ان اجدد نشاطك واحيي آمالك فرأيت انك اضعفت رجائي. أفنيأس من حياة بنتنا قهلك وليس لها نصير . افنصدق النبوة ام ندعن لعواطفك الوالدية . كيف تقولين . ما رأيك . حيث رأيت السلامة اريتني الهلاك شرّدت عقلي واضعت رشدي فقد صرت آسف على وحيدتنا وانديها بعد ان رجوت حياتها

وحينئذٍ تلاشت قواه وانطرح على المتكبر وفاضت عيناه بالدموع فتحركت في امراته عواطف الخنورأت من اللزوم ان تمنعه ولو تلفت حياتها فركعت امامه واخذت يده وضمته الى صدرها وقالت له اقسمت عليك بالاله الحي وبجيدتنا حنة ان تصفح عن زلتي . اظهرت لك الضعف في ساعة تقتضي الشجاعة فقد اخطأت واسأت اليك لكن لا يخفك اني امرأة ووالدة ليس لي عذر آخر سوى هذا . كان يجب ان اكنم عنك اوهامي هذه وقد ندمت على ما فعلت فتناسه اكراماً للمحبة . انت سيدي ومولاي والرجل له القوة والتعقل لا المرأة . فانا على ما تريد . اسلم اليك نفسي وقلبي فاسع بما انت ساع وثبت خطواتك فليست وحياتك اخالفك في شيء . كلانا نتمنى سلامة فتاتنا غير ان رأيك اولى بالاتباع ففرني يا مولاي وأمتك تطيع بلا تردد وكل ما تفعل فهو ما احبه

فانصدع قلب الدوق بهذا الخطاب المؤثر ورفعها بين يديه وضمها الى صدره وبقيا ساعة متعاقبين وقال لها يا عزيزتي الشريفة النفس الطاهرة القلب ايتها الام المسكينة جزاك الله كل خير على ملاطفتك وحنوك والله عادل لا يبعد عنك رحمة وصالح هو فلا يطيل زمن عذابك فليكن لك الرجاء بمعونته تعالى

فقالت وهي تسكب الدموع السخية وقلبها يخفق من شدة تأثرها . نعم نعم يا سيدي الله صالح . الله عادل . الله رحيم . لا يتخلى عنا ولا يهلك ولدنا امام عيوننا وثاني يوم اظهرت الدوقة الانبساط وراحة البال وصدرها مملوء هواجس فكانت تخفي كل اثر لقلبها الشديد وتكظم بلبالها جهدها حتى لا يشعر زوجها بشيء من بواطنها الحزينة المضطربة

وبعد الغداء امر بمركبته ولبس ثيابه الرسمية واعرخدمه ان يلبسوا احسن ما عندهم ليضوا به للقاء البارون الكرجاني كأنه ذاهب للقاء الملك . فقُطرت بالمركمة اربعة

روؤوس من جياذ الخليل بالعدد الفاخرة وتقدم الى امرأته وابنته يودعهما وقال عسى ان
 نلتقي بعد ساعة ومعى بشائر الخير . وادار ظهره ليخرج واذا بالباب الخارجى باب الجنينة
 قد طرقت طرقة شديدة ففتحها الخدم ودخلت مركبة فشقت في الجنينة ووقفت قرب
 مركبة الدوق المتأهبة للمسير

وبعد ان كلم السائق سائق مركبة الدوق والخدم دخل احد الخدم الدار وقال
 للدوقة هل تقبلين يا مولاتي زيارة البارون الكرجاني

فلما سمعت هذا الاسم الذي شغل خاطرها شغلاً عظيماً جمدت مبهوتة واصفر
 لونها غير انها ملكت عواطفها وثبتت جناها اكراماً لزوجها غير انه لم يخف عليه ما حصل
 لها من الاضطراب وقالت للخدام ليدخل فاني مستعدة للقائه

فلما خرج الخدام قال لها زوجها قد ساءني يا عزيزتي تأخري عن زيارته الى هذا
 الوقت وكان يجب ان ازوره البارح واشكر معروفه قال هذا وخرج من القاعة ليلقاه فلما
 ادار ظهره واغلق الباب تقدمت الدوقة الى بنتها وضمتها الى صدرها ضمة شديدة
 وصارت تقبلها بلهفة حتى تعجبت الفتاة وقالت لها لم هذا يا امي قد خوفتني اعل فراقاً
 طويلاً معداً لنا ام خطراً عظيماً يرصدنا

- كلاً يا بُنتي لا هذا ولا هذا غير ان حب الوالدة لا ينكره احد وشوق اليك
 كل دقيقة يتجدد . فلا يمكن ان يفرقنا شيء ولا يخطر ببالك الخطر وانت في
 احضان ابويك

فقنعت حنة بهذا الجواب وقبّلت والدتها وقالت لها اتظنين من الزوم او اللاتق
 ان اكون حاضرة امام البارون في زيارته هذه
 - ان احببت فلا بأس

- لا احب يا اماه . نعم انه اعانني البارح وخلصني من شرك عظيم بيسالة الابطال
 فانا اشكر جميله كل الشكر غير ان قلبي اراه نافرأ من هذا الرجل الشريف ما ادري
 ما السبب ولعلّي اهتم بالجحود

- لا يهمك هذا الامر يا والدي فليطب قلبك بهذا النفور ليس ناتجاً عن رداءة
 طوية فان للقلوب اميالاً سريعة غريبة ودلائلها لا تخفى على اصحابها ولا يمكن مضادة

الاميال بل قد يجب ان تطاع حاسيات القلب التي فنفسك كنفس الملاك الطاهر ولست
 ترمين بالجحود اذا اطعت هذه الحاسيات التي لا تعرفين لها سبباً . والآف اسمع
 صوت اييك وصوت البارون فتعالي اقبلك قبلة اخرى وامضي الى غرفتك حيث لا
 يعجبك المقام معنا وكوفي مطمئنة القلب من هذا القبيل فاني اكلم البارون بلطف وانوب
 عنك بشكر صنيعة

- واذا طلب ان يراني او سأل عني فما تقولين

- اعتذر له بما يلهمني الله بحيث لا يمك بلام

فاحت الفتاة رأسها لامها فقبلتها . ثم خرجت من باب داخلي ودخلت غرفتها
 وفي الحال دخل الدوق ووراءه البارون

الفصل التاسع

« الخطبة »

كان لوقا الكرجاني على ما نعلم فاسد السيرة سيء الطوية شديد الميل الى اللهو
 واللذات الجسدية ولا سيما الشهوات الليلية حتى اثرت فيه هذه الاحوال تأثيراً بيناً
 وغيّرت ملامح وجهه . غير انه لما دخل منزل الدوق الشميسي ظهر عليه رونق الاشراف
 وغضاضة الشباب وما ذلك الا بقوة الادوية والاعمال التي صنعتها صاحبته بريقة الداهية
 العظمى لانها كانت تعرف سر صناعة الادوية المحسنة والادوية المشنعة . وكان ايضاً
 قد لبس الثياب الفاخرة على اتم كسم وابهى زي فلم يكن في لباسه شيء من الانتقاد .
 وكان ايضاً قد تحلّى ببعض جواهر نفيسة ولو في الظاهر من جملةها دبوس يضم به
 قميصه على صدره في راسه حجر من الالماس لا يعهد له نظير في الكبر وحوله ترصيع
 بيواقيت هبّية . وهذا الحجر لم يكن الا تقليداً صنعته له بريقة بمعرقها الكيماوية وقطعته
 تقطيع الالماس الصحيح حتى كان امهر الحجارين لا يفرق بينه وبين احسن انواع
 الالماس البراق لصفاء مائه وتلون مشوراته فكان من يراه يظن انه يساوي مائة
 الف ريال على الاقل لكنه بالحقيقة لم تكن قيمته اكثر من ثلثمائة درهم

فكان ظاهر هذا الرجل كظاهر الامراء الكبار واعيان الاشراف حتى لا يمكن ان يتجمل احد اكثر من تجمله فكان له في نفسه كل الثقة انه يعجب كل من يراه مهما كان عالي المقام ولما رآته الدوقة لم تكذب تصدق انه الشخص الذي اظهرت لها بريقة مثاله ضمن تلك الدائرة السحرية

فانفتح الحديث وصار لوقا يظهر كل ما يستطيع من الملاطفة والانس والحدق والفظنة ويحجب على تشكرات الدوق والدوقة الالفة والاحبة وهو يعجب بنفسه باطناً بما اثبت عليه من البسالة والشهامة والحمامة عن الاعراض . ولم يزل معهما على احسن الظواهر وارق الاحاديث حتى رأى من المناسب ان يعرض لها الغرض الذي اتى بصدده وهو يعتقد ان رجاءه لا يخيب . كيف وقد ظهر انه ملك قلبي الوالدين بابهي صفات الانسانية والادب

غير ان فتح حديث الخطبة في مثل هذه الظروف مع مثل هؤلاء الجماعة لا بد ان يحرك العواطف ويظهر التأثير الداخلي ويجعل في اللسان تردداً وفي الافكار جهداً غير انه قال في نفسه وقد عرف انه هو المنقذ الوحيد لفتاة عزيزة على ابويها من مصاب لادمن وقوعه كيف يمكن ان هذين الابوين بمنعاني طلبي كيف يمكن ان يجب رجائي بالحصول مع فتاة تتوقف علي حياتها . ولذلك استجمع قوى عقلي وثبت جنانه وفتح الكلام قائلاً

يا سيدي الدوق احب ان اتكلم وقلبي يخفق ويا سيدي الدوقة ارى لساني يتلثم في الكلام عند ابداء مقصدي لان الجسور الذي يبالي بالاهوال لا يقدر في مقامي ان يفتح قلبه ويظهر مقاصده لذوات من اهل المكانة والشرف نظير كما فكان الاولى بي ان الزم السكوت غير ان ملاطفتك قد قوت قلبي وموانستك انعشت نفسي وسهلت علي الكلام ولو كنت غير مستحق ان اتشرف لديك بهذا الحديث الجليل . فان شئت ان تسمعا كلامي فلكما مزيد الفضل وانما تكونان الحكيمين في حياتي ونصبي فعلى جوابكما تتوقف سعادتني وشقائي فاحكما بما تريان مناسباً ولكما الامر

فما فطن الدوق للغاية التي قصد البارون الانتهاء اليها فنظر اليه متعجباً من حديثه واما الدوقة فاخترت قلبها بتلك الهواجس الالدية التي لم تكن تبارحها يوماً واحداً واظهرتها

لزوجها بتلك الهيئة الخيفة المحزنة. فشعرت بمرامه وامتنع لونها واتفضف عروقها وتضايق صدرها حتى كاد يغمى عليها فانطرحت على متكأها وقالت في نفسها ويلاه ويلاه من هو اجسبي

وحسّ البارون بما اصابها فقلق قلقاً شديداً وخطر له في الحال انها تكون له عدوة لا صديقة وتحول دون مرامه . لكن لم ير من الصواب ان يطوي ما نشر . وقد خطا اول خطوة في هذا السبيل الضيق فما عاد يسهه الرجوع فقال يا سيدي الدوق لا تصدع فؤادي . يا سيدي الدوقة لا تثقلي عذابي اذا كشفت سرّي الخالص بكما وما عدت اطيق عنه صبراً فقد فاض من قلبي ناراً وهذا السرّ هو هذا « احبّ مولاتي حنة » فاهتزّ الدوق مضطرباً وحملق اليه قائلاً تحب حنة ايها البارون . واما الدوقة فتنهتت تنهداً عميقاً وهي منقلبة على المتكأ وقالت ما الذي سمعته أفي منام انا ام سمعت صواباً فانحني البارون وقال الصواب ما سمعت يا مولاتي احب فتاتك حباً شريفاً قتيلاً . فقال الدوق ملججاً كيف وقع هذا الحب وانت لا تعرفها وما رأيته الا مرة واحدة فاجاب لوقاً بحدة يحتاج الانسان ان ينظر الى الشمس مرتين حتى ييهر بصره نورها . احبّ حنة من كل قلبي ونفسي . مشغوف بها اشد الشغف فاسمح لي ان انال الشرف والسعادة بنوالها

فسكت الدوق وبقيت الدوقة متحيرة منذهلة كثيفة ورأسها منقلب الى الورا ولونها مردياً كأنها في غشي شديد

فعرف لوقاً صعوبة مركزه وقلق اشد القلق لهذا الصمت المكرب من كليهما فضايق صدره واحب ان لا يطيل مدة سكوتها فعاد الى كلامه قائلاً . اقض لي بالعدل يا سيدي الدوق لكي اقتنع اني ما تجاوزت الحد في مطالبتي ولا تحسب وقاحة هذه المطاعم التي ابديتها . نعم لست من سلالة اميرية او دوقية حتى اتجاسر على طلب فتاة شمسية ولا صاحب ثروة تغرّ مثل عائلتها لكني رجل محسوب من العيال الشريفة القديمة ومداخيلي ليست اكثر من عشرة آلاف ريال في السنة فلا يكون هذا شيئاً في جانب الحقوق التي لك ان تطلبها مني ويا حبذا لو كنت ملكاً جالساً على سرير الجلال فما كنت امتنع بل كنت ارجب جداً ان التي ناجي على اقدام الفتاة المالكة

قلبي وعقلي . فان كنت تقنع بالحال التي انا عليها مع تحمقك اني شديد الوجد للاتصال
 بك اتصال عائلة في الرجاء ان تحبيب طلي وانا اقسم لك بالشرف والانسانية اني ابذل
 غاية جهدي في راحتها وقره عينها حتى لا تكون فتاة اهنأ عيشاً منها بين امثالها
 فلما انتهى من هذا الكلام الصادر من فؤاد محرور رفع الدوق رأسه وكان قد
 احناه على صدره متفكراً واراد ان يتكلم فمعه البارون قائلاً . يا سيدي اتوسل اليك
 ارغب اليك طالباً نعمةً وجميلاً ان لا تحيب الآن بشيء لان كلمتك بها حياتي وتلني
 فلا تعجل بهذا الحكم كيفما كان دعني معلقاً آمالي الى الغد وتبصر انت وسيدتي الدوقة
 في امري فعداً اتشرف بالمشول لديك واسمع قضاءك فاما ان اكون به اسعد الناس او
 اشقى خلق الله . فان صببت علي المصائب فاني اعاهدك ان اكنم احزاني واخفي
 آلامي لا اشكو اليك لثلاً اكدر خاطر في المساء اخرج من باريس صابراً على
 القضاء والقدر وبعد ثلاثة ايام ابارح فرنسا وانزوي في عزلة اقاسي العذاب واللوعة الى
 اقضاء حياتي والآن استودعكم الله . ياسيدتي الدوقة ارجو ان تقبلي احتراماتي القلبية .
 وانت يا سيدي الدوق ارجو ان تنعم بالرضى وتشرفني غداً بلقائك
 ثم ودّع باحترام ووقار وطف لا مزيد عليه وخرج من القاعة وركب عجلته وقد
 شيعه الدوق اليها فالحنى امامه مودعاً ثانية وقال الى الغد يا مولاي ثم مضى في قلق
 عظيم بين الخيبة والرجاء وصار يقول بنفسه . يا للمصيبة يا لسوء الحظ ما كنت اتوقع هذه
 الماطلة والدوقة لا تميل الي ولا بد ان تعترض في سبيل آمالي . ما السبب . لا بد ان
 اعرفه بعد ايام . وقد احسنت في منع الدوق عن اجابتي لان جوابه لا بد انه كان
 لغير صالح ومن الآن الى الغد يتبصر ان على رواق الافكار ويعرفان انهما محتاجان
 الي اشد الاحتياج فاخباري اياهما اني ارحل من هذه البلاد الى مكان منعزل لا بد
 ان يجعل فيهما تأثيراً ويأتي بنتيجة حسنة وان اقتضت الاحوال فعندي في قبضة يدي
 هذه المغنية العجيبة الشبه بجمته فهي التي استخدمها لاجب الاعمال وحينما اريد اهتك
 شرف بتبهما مستعيناً بهذه وهما لا يعلمان . فعلى كل الاحوال يجب ان افوز وسأفوز
 ولو بالف حيلة

الفصل العاشر

« تشاور والدين »

بعد ما سار لوقا بمركبته رجع الدوق الى القاعة فوجد امرأته في حالة يرثى لها من الكآبة ووهي العزائم ودموعها تسيل على خديها وهي غارقة في لجة من الوسواس لا قرار لها فلما دخل نظرت اليه متتهدة وقالت . أرايت اني اصببت في ظني أعلمت ان هذا الرجل سيكون سبب الويل في بيتنا

وكان الدوق بالحقيقة مضطرب الافكار جداً واقلقته هذه المسألة اشد القلق ومع ذلك ملك نفسه وقال بسكينته يظهر يا عزيزتي انك مبالغه في وصف الصعوبات والاختار التي نحسب انفسنا فيها

فرمته بنظر مريب ولم تجب بشيء . فقال لا شك ان الطالب الذي سؤلته نفس البارون اليه في غير محله على اعتقادنا لكن اذا نظرنا اليه بحد ذاته لا نرى فيه شيئاً من العجب وقد اظهر افكاره بالطف اسلوب وانكسار فؤاد وشوق لا لوم فيه . وهذا الرجل شريف لا ريب فيه واحسبه فوق ذلك من الطف الشبان وارقيم حساً وادمثهم خلقاً وشغفه بحب حنة من اول نظرة ليس عجباً لانها كما تعلمين فتانه تخلب الالباب برشاقة قوامها وسحر عيونها وبهاء منظرها . والبارون اطلعنا على وجده بطريقة شريفة فكيف نلومه او كيف نحسبه لنا عدواً ونحن في اشد الاحتياج اليه

- ماذا تقول يا يعقوب كيف تعاكس الامور اما تعلم ان حنة هالكة . هالكة لا محالة اما عرفت ذلك وانت ابوها

- وما معنى هذا الكلام وكيف اخشى هلاكها والبارون منقدها
- لا ينقدها لا يلتفت اليها ما لم تجبه الى طلبه . وهذه هي المصيبة . ويلاه
- فلا يكون اذن حي القلب ولا شريف النفس
- انا لا اسلم بقلبه ولا بنفسه ولا اعتقد انه من الرجال الذين تحسبهم من

اهل التاموس

- فما بقي علينا اذن الا باب واحد . ان تقبله صهراً

- بالنكبي . تزوجه حنة . هذا هو الهلاك الذي اتوقعه لها . انسيت انها مخطوبة
 اما تعلم انها تحب رعيناً حباً لا مزيد عليه . حباً طاهراً لا يدخل قلب مثلها الامرة واحدة
 في الحياة اما تعلم ان طبعها كطبعي واني كنت افضل الموت على انقطاع محبتي عنك
 وان حنة لا تغير قلبها ولا تبدل حبها ولو على تلفها وهل يليق بك ان تدعى بنتك
 خائنة ناكثة

- لا خيانة ولا نكث اذا حكم القضاء وانا اعرف طوية رعين واجيبك عنه انه
 يفضل بقاءها حية ولو مات باقضاع نصيبه منها فاذا علم جسامه الخطب لا يلومها ولا
 يلومنا وباتم الرضى ينفضل عنها

- لكن حنة لا تقبل بذلك وتحافظ على عهدها قطعاً حتى لو امتنع عنها

- هذا ما لا اصدقه لان بنت عشرين قادمة على مستقبل طويل وآمال واسعة

- وما اشأم المستقبل وامراً الحياة لقلوب يتقطع رباط حبها الخالص الطاهر

- فما عاد لنا الا ان نبكي ونندب سوء حظنا ونحسبها ميتة وهي في الحياة . وهذا مما

لا يحتمله مثلي ومثلك منذ عشرين سنة هي وحدها قوام فرحنا وملزمتنا ورجائنا وفخرنا

فاذا فقدتها فما يجلب بي . فاذا اقتضى الامر اترامى على اقدامها واستعطفها واتوسل اليها

ان تمتنع عن رعين وتميل الى البارون فاني اوثر حياتها ولو تعيسة على فقدها من بيتي .

الست على رأيي انت

- ما العمل ما الحيلة افعل ما تحب فلست اخالفك واحمل مصيبي بالشكر . ويلاه

- أفلا ترين يا عزيزتي من اللزوم ان نخبر حنة الآن بهذه الاحوال جميعها

- يوافق جداً

- فعليك اذاً بهذه المسألة ولا تخفي عنها شيئاً من الحقيقة وادخلي معها في وجوب

اقترانها بالبارون الكرجاني واستعطفها جهداً

- افعل ذلك لكن يجب ان تعلم ان في القضية نظراً

- ما وجه النظر

- يظهر من هذا الحنو الذي في غير محله انك تقبل ان ترى ابنتك تعيسة بشرط

ان تبقى حية لكن لا اشك انك تختار موتها على ثلم شرفها

- لا يخفى عليك يا عزيزتي ان الحياة افضل من كل شيء لكن الشرف افضل من الحياة فالموت اولى من العار
- فاذا كان ما تقول فيجب ان تفحص اولاً عن سيرة هذا الرجل لتعلم هل شرفه صحيح وليس في اسمه ملام
- عجباً هل عندك ريب في هذا الامر
- بل عندي احساسات داخلية كما علمت فهي تقلقني من هذا القبيل وعلى كل حال أليس من الضرورة واشد الضرورة ان تستعلم عن كل احواله ماضياً وحاضراً او يليق ان تسلّم مثل ابنتك لرجل لا تعرف الا ظاهره كمن يسير معتمفاً ويسري خابطاً خبط عشواء
- صواب وكل الصواب ما قلت فيها انا منذ الآن ابادر لكشف هذه الامور وقبل المساء تكون لي المعلومات المفصلة المدققة التي لا تدفع بشبهة
- ما الوسيلة التي تحصل بها على ما ذكرت
- عندي احسن وسيلة وآمن سبيل . تعلمين ان ابن الشرطي مقدم الدرك من اعز اصحابي فلا يكتم عني شيئاً مما يعلم . وتعلمين ايضاً انه لا يفوته شيء من احوال الناس لانه احذق من قام في هذه الخطة الدقيقة
- أتمضي الآن اليه
- في هذه الدقيقة فركبتي الى الآن واقفة متأهبة
- فامض لسألتك اذاً وانا اكلّم حنة عند رجوعك يبلغك ما اجابت
- وحينئذ مضى الدوق في سبيله واختلت الدوقة تصلي الى الله ليعطيها قوة بها
- تقدر ان تفتح لابنتها هذا الحديث الهائل ثم قصدت غرقها
- وكانت غرفة هذه الفتاة اشبه بيوت مقدس كل ما فيها يؤذن بالطهارة الملائكية والعمّة المريمية ليس فيها شيء من زخرف صبايا العصر ولا من ادوات ذوات الدلال . فيها صورة العذراء والمسيح ومصلى بسيط لطيف ومزهريات فيها ازهار غير عطرة وساعة معلقة ومرآة تقيّة واربعة متكات صغيرة وفرش ساذج
- فلما دخلت الدوقة كانت حنة جالسة ورأسها منقلب الى الوراء وعيناها شاخصتان

في السقف وهي غارقة في بحر الآمال وعلى حضنها رسالة رعين والظاهر انها كانت تردد قراءتها وتتأمل موضوعها الشعبي وقلبها يرتقص . ففي الحال طوت تلك الرسالة المحبوبة ونهضت لاعتناق امها وقالت لها هل اذن الله بانصراف الكرجاني يا امي حتى اتيت اليّ ٥

- نعم
- وابي خرج من البيت
- على اثر خروج البارون
- فلم لا اعلمتني لكي اوافيك
- احببت ان آتيك انا لكي اتمتع معك بالحرية التامة في غرفتك هذه الخاصة حيث لا يجسر احد من العالم ان يضع قدمه فأحدثك ملياً في اتم خلوة
- وما الذي قصدت ان تحدثيني
- حديث ذو شأن
- ما عسى ان يكون . على اني ارجو ان لا يكون مكذراً
- فلم تجبها الدوقة بكامة بل ظهرت مطرقة برأسها الى الارض فقالت حنة على الفور (١)

- لعلمك اتيت بخبر غير مقبول والا فالي اراك مطرقة لم تجيبي
- ستبصرين بكلامي وتحكمين عليه بنفسك
- فعجلي يا امي لاني اشعر بشيء من الخوف على ما ظهر منك
- فاخذت الام يد ابنتها وضمتها بين يديها وقالت لها تعلمين ما اتى يصنع هنا البارون الكرجاني
- كيف اعلم ما لم تخبريني
- اني يخطبك

فقلبت رأسها مهنفة (٢) عن درّ في مرجان كوميض البرق في حمرة الشمق . وقالت ما هذا الخطاب الغريب والخطبة غير المنتظرة . أحق ما تقولين

- حق لا ريب فيه وما امرح بحرف
- هذا من اغرب ما يكون . وبأية علة خيل له ذلك وعلى اي شيء يستند
- بعلة انه مشغوف بك وانه اذا لم يحصل عليك يكره الحياة و يلقى شقاءها ومر عذابها
- عجباً ما الداعي لهذا الشغف وهو لا يكاد يعرفني
- قال ان اول نظرة اورثته هذه الحسرة
- لا اسلم والله الحمد بهذا الحب ولا يدخل قلبي منه اثر الاثر والا لكنت اتكدر
- جداً من ردّ هذه البغية التي يتطلبها ومكافأة جميله بالاعراض . ومع ذلك فما اجاب
- علي منعك ومنع ابي
- ما منعاه

فحولت حنة في وجه امها منذهلة وقالت وهي تضطرب كيف . كيف لم تمنعاه .
هل اجبتاه الى طلبه

- لم تمنع ولم يجب ارادة ان نستشيرك
- ما اظن نفسي يا أمي الآ في منام لاني اسمع كلامك ولا اصدق اني فاهمة منه
- حرفاً فارجو ان تفسري لي هذا المعنى وتكشفي لي هذا السر الغريب
- لا اشكال ولا غموض يا حنة اصرح لك اني اتيت استشيرك هل تقبلين خطبة
- البارون الكرجاني

- ما لك تكررين على سمعي كلاماً لا افهمه أنستشيريني وما معنى هذه الخطبة
ومن هذا البارون الكرجاني انيت انك وابي وعدتما بي رعيناً الزهري او ما علمت
اني بعد القبول قد خصصت نفسي به وحده وانه لا يمكن الاستبدال حتى ولا بمعجزة
ولا بموت . فانا لاشك في منام واسمع كلامك ولا اعيه او قد اختلفت
- يا والدي الحبيسة سلي ضميرك . جسي فوادك هل تحبين خطيبك حباً
شديداً أكيداً

- ما هذا السؤال يا امه كيف تهمين قلبي بالتردد
- تحمينه اكثر من كل انسان
- لا اقول اكثر منك لكن اكثر من نفسي بالف مرة

- فلو خيرت بين الموت وتزوج غيره لاخترت ماذا

- الموت بلا تردد . عجيباً وما معنى هذه الاسئلة العجيبة الخارقة العادة . وما العلاقة بين هذا التخيير وذكر البارون الكرجاني وما الذي يجري وانا لا اشعر به واني سرّ يتعلق بي وانت تحفنيه عني

- لا سرّ يكتم عنك يا ولدي وستعلمين كل شيء وحينئذٍ حينئذٍ تكونين في الخيار وتقولين ما يلمك قلبك ويرشدك اليه ضميرك

- فقولي لي وانا سامعة على ما بي من القلق الشديد لهذه الاشارة الهائلة

فاخذت تقص عليها هذه الاخبار العجيبة وما توقع لها يوم ولادتها وكيف انطبق انذار المنجمة الايونانية على كلام الغولة صاحبة المنزل الاحمر بعد عشرين سنة وكيف ارتها مثال لوقا الكرجاني بطريقة سحرية وان الموت واقع لا محالة ولا ينجبها منه الا هذا الرجل وانه بدون اجابته الى مرامه لا يمدّ لخلاصها يداً

وكانت حنة تسمع هذا الحديث والعرق البارد يتحلّب من جبينها وعيناها شاخصتان في امها ولا تبصران لشدة اضطراب فكرها . غير انها بقيت في شجاعتها الاديبة وعزمها الصحيح الثابت لم تخش عارضاً ولو محققاً ولم تبال بموت ولو مسها بانامله فقالت لامها قد علمت المراد فتيقني اني لرعين الزهري قلباً وجسداً لا يفصلني عنه الا القبر في هذه الدنيا وارجو ان القاه في الآخرة لا يكون الا هذا اذا سمح الله يقصف غصن حياتي الرطيب وانا محبة ومحبوبة وآملة انعم العيش والذ الحياة . فلا تنهقر شميسية امام الموت بحيث تعدّ ناكثة

فضمتها والدتها حينئذٍ باشد شوق وقبلتها في جبينها مفتخرة بجوابها وشرف احساسها وقالت اذن لم يبق لنا رجاء الا بالله فصلي معي يا ولدي نرفع اليه قلوبنا ونطلب الى عزته الالهية ان يرشدنا الى اقوم سبيل



الفصل الحادي عشر

« تقرير الشحنة ^(١) »

وما مضت ساعتان حتى كان الدوق قد لقي الشحنة ابن الشرطي فوعدهُ جميلاً
واخذ يسعى في استقصاء اخبار الكرجاني ارضاءً لظاظر الدوق الشميسي وقد قال له
ان يرسل اليه التقرير الوافي مساءً

وقبل الساعتين المذكورتين حدث حادث يجب الالتفات اليه وان كان في ظاهر
الامر لا معنى فيه الا انه منطوق على مسألة مهمة جداً في عاقبة هذه الاحوال
وذلك انه لما خرج الدوق من عرصة قصره وعطف في شارع النصر ليدخل منه
الشارع القلوي كان رجل لا بس حلة الشرط جالساً في مكان ازاء قصر الدوق فمض
حينما رأى المركبة جارية وتأثرها وما زال بعيداً عنها نحو عشرين خطوة ولم تكن المركبة
تقدر على السرعة لازدحام الناس في تلك الشوارع الضيقة فاستطاع ان يتبعها خطوة
خطوة وبقي جارياً وراءها الى منزل الشحنة ابن الشرطي ففحص القضية وعلم ان
الدوق الشميسي دخل للقاء الشحنة وانه رحب به فرجع من ساعته يوسع الخطى ويتعثر
بالمارة فلا يبالي كاهه نمر حردان او فرس جموح حتى بلغ محلة قرب نهر السين يقال لها
محلة الحاجز البولسي لان للنهر هناك حاجزاً يمنع فيض المياه . ووقف امام دار لها ثمانية
شبايك مطلة على النهر فاخرج من جيبه مفتاحاً وفتح باباً صغيراً قرب الباب الكبير
ودخل . وكانت الدار المذكورة منزل البارون لوقا الكرجاني . والرجل المذكور خادمه
معيلى امين اسراره

فلما بلغ باب غرفة لوقا حك الباب فناداه من الداخل « معيلى » قال نعم قال
ادخل فاننا في انتظارك فدخل ووجد مولاه متكئاً على ديوان مفروش بالطنافس وفي
يده رواية يطالعها . فالتى لوقا الكتاب عند دخول الخادم فحياه غلامه ووقف على
خطوات منه ووقوف الهيبة والاحترام فقال له ما الخبر

(١) شحنة البلد في عرف العرب ايام الخلافة هو نفس من عرف بعد ذلك بمقدم الدرك
المعروف في زماننا برئيس البوليس

- خرج الدوق من قصره
- راكباً او ماشياً ؟
- في مركبته يا مولاي
- هل قفوت اثره
- لم اخالف امر سيدي
- اين مضى
- الى مقدم الدرك
- هذا ما حسبتُه . اعلمت انه استقبله
- في حال وصوله اذن بدخوله . فأتيت على الفور لاعلم سيدي البارون
- حسناً فعلت . فالآن اريد الخروج
- هل آتي بالخليل
- لا بل امضي راجلاً واحب ان تحضر لي ثيابي
- اي ثوب يأمر به سيدي البارون
- الحلة الكستنائية مع الضفار (١) المستدير والبرنيظة السوداء الخالية من العصابة
- لاني احب ان اغيب ساعة او ساعتين في زي قروي (٢)
- أتريد ان تلبس هنا
- لا بل في غرفة منامي

فتقدم معبلي الى الحائط ورفع ستراً من الاطلس وفرك زراً في الحائط فانفتح باب سرّي ودخل الغرفة . وكان فيها من الخلال ما يفوق الوصف حتى لا تظهر الجدران خلفها من كل زي وكل لون من ملابس اشرف الامراء الى ملابس احقر العامة وملابس كهنة ورهبان وتجار وصنّاع وحمّالين وفجّامين وفعملة وغيرهم من اصناف البشر . وفي الوسط مائدة كبيرة عليها ألوان واشكال من البرانيط والصفُور والعصي والقضبان والسيوف والغدرات والخناجر ونحو ذلك مما يُتزيى به او يحمل لمقاصد مختلفة . وكل

١ الضفار في الاصل ما صُفر من الشعر عريضا كالصفيرة . استمرناها هنا لما يسمى بالشعر المستعار
 يغطى به الشعر الاصلي او ينوب عنه (٢) اي من اهل القرى لا المدن

حلة كاملة لذاتها من نوعها من لبس الرأس الى لبس القدم
فاختار معيلي من هذه الخلل التي طلبها البارون وقدمها له فلبسها في اقل من عشر
دقائق وخط على وجهه بقلم الرصاص رسوماً تمثل اسرارير الوجه حتى ظهر كأنه كهل ومما
ساعد على خفاء هيئته الضفار المذكور وحتار (١) البرنيطة الملتوي على وجهه . ونزع
الخاتم الذهبي من يده ووضع خاتم حديد عليه صورة مشعل موقد واخذ في يده عصاً
ضخمة من الخيزران قبضتها من عظم على شكل منسر (٢) والتي في جيبه قبضة من
الدنانير ثم نظر نظرة في المرآة وخرج من محلة الحاجز البولسي وجعل يقلد تقليداً متقناً
مشية القروي الذي يتمشى في الازقة لقتل الوقت . وسار راساً في الطريق المودية الى
منزل الشحنة ابن الشراطي الى ان وصل فدخل الدار الخارجية وصعد سلهماً الى يساره
كأنه ابن المكان وحصل في عرصة الطبقة الاولى فلقى هناك كبير الحجاب لابساً ثوباً
اسود وعليه هيئة الخشونة وكان من وظيفته ان يمنع كل احد عن دخول منازل الدرك .
فلما رأى البارون قال له بصوته الجافي ما دخولك هنا . فرفع البارون برنيطته وبش
في وجهه وظهر هيئة الاتضاع كأنه نفس الشخص الذي تزييا بشخصه وحياه تحية
الاحترام وقال له

- يا سيدي العزيز بودي لو امكن الحال ان اقابل واحداً من المتوظفين هنا
- الحاجة تخصك ؟
- نعم يا سيدي
- لا يسمح بالتثليل على المستخدمين
- هذا القانون العام لا يخفى علي يا سيدي العزيز لكني ارجو ان يخرق هذا القانون
في بعض الظروف مراعاة لبعض المصالح
- كلاً لا يمكن خرق القانون فارجع من حيث اتيت
- يا سيدي ومولاي العزيز منزلي بعيد من هنا بعيد جداً وقد اتيت لمصلحة خاصة
مهمة ويكدرني ان اعود خائباً ولا ارى من لطفك وموانستك ما يجبر خاطري فلا تغض

(١) الختار في الاصل ما استدار بالشيء . اردنا به هنا الحرف المستعرض المشرف من البرنيطة

(٢) المنسر منقار الجارح من الطير كالعقاب والنسر

عني طرفك وكن على يقين من حسن الجزاء اكا فتك حالاً
 قال هذا ومد يده الى جيبه واخرج ديناراً ودسه في يد الحاجب . فابرت
 اسرته على الفور وانجلت سحته وقال
 حياك الله ايها الرجل الكريم اني احب امثالك حباً شديداً وانا الآن احترم
 ارادتك . فما اسم المستخدم الذي تطلبه

- اسمه تقولا بربط

- وانت ما اسمك الكريم

- اخوك داود الزجاج

- اسم اكارم الرجال لكن تعلم اني لا استطيع ان ادعوه اليك هنا . لان هذا
 مخالف للقانون فانا امضي واقول له ان احد اصحابك يريدك فانزل الآن الى العرصة
 الخارجية وهو ينزل وراءك وتلاقيان بهيئة كأنها على سبيل الاتفاق فاخلص انا
 من المسؤولية

- الامر كما تحب فلست اخالفك

فدخل الخادم ونزل لوقا الى الدار السفلى . وبعد هنيهة اقبل رجل صغير الجثة
 مكشوف الرأس لابساً اكماماً سوداء ليستر بها اكمامه البالية فتلقاه البارون بالتحية
 والاكرام فقال له كالتعجب هذا انت يا معلم داود

- أترى اني غير من تعرفه

- فما الذي تطلبه لابذل وسعي في خدمتك

- تعال معي لنفرد في تلك الخلوة من الدار

فمضى معه وقد علم انه لا يمكن ان يراقبهما احد ولا يسمع حديثهما فقال لوقا
 اليه وقال له همساً

علمت ان رجلاً يقال له الدوق الشميسي دخل على المقدم ابن الشرطي فاحب
 ان اعرف ما كان مراده منه

- ليس الامر مستحيلاً لكنه صعب لان حاجب الشحنة الخاص يسمع كل

حديث يجري معه

- كيف انت وهذا الحاجب
- على احسن حال
- فلا يمتنع ان يخبرك
- لا يمتنع لكن ...
- لكن ماذا
- لا بد من تجشّم شيء
- كم تظن انه يكفي
- عشرة دنانير بها الكفاية
- اسهل ما يطلب فما هي حاضرة
- متى تريد الجواب
- في الحال لو امكن . وعلى الاقل بعد نصف ساعة
- سأفعل على ان لا تنتظرنى هنا لثلاث ايام بك من يراك فاذهب وانتظرنى في
- الحانة المجاورة للنهر التي اسمها الجبّ الحمري فاجلس في الحجر التي خلف القاعة الكبيرة
- وانا امضي اليك بعد نصف ساعة
- السمع والطاعة
- ولم يمض اكثر من ربع ساعة حتى تلاقى تقولا ولوقا في تلك الحجر فقال له لوقا
- ما وراءك هل حكى الحاجب
- حكى
- هات
- طلب اللوق الى المقدم ان يقدم له تقريراً مفصلاً مدققاً عن احوال رجل
- من الاشراف يقال له البارون لوقا الكرجاني
- وما اجاب المقدم
- وعده ان يرسله اليه في هذا المساء وارسل اليّ في الحال ان اقلب صفحات
- السجلات واعلم بما يتفق لي من اخباره
- فانت اذن المكلف بهذه المسألة

- لا بل احد زملائي
فصار لوقا يفرك يديه ويقول في نفسه حقاً ان الامور جارية معي على احسن
حال . ثم قال للرجل
اطلب قلماً وقرطاساً ودواة
- ما تصنع بها
- ستعلم
فأمر حالاً واذا بغلام الخانة قد اتى بالمطلوب فأخذ لوقا القلم وسطر عدة سطور
بخفة يده وقدم له الورقة . فنظر اليها متعجباً وقال ما هذا
- هذه مسودة التقرير المراد تحصيله فما عليك الآن الا ان تبيضه وترسله رسمياً
الى الدوق وقد ارحت زميلك من هذه الثقلة
- لكن يا اخي ...
- لا لكن ولا حيث يا صاحبي ارجو ان تصنع ما اقول بلا تردد ولا تطل الجدل
على غير طائل فقل لي ما يكلف هذا العمل وفي الحال تقبض الدنانير
- اظن عشرة دنانير تكفي زميلي
- وانت كم تريد
- انا . انا لا ارتشي يا اخي الا اني لا احب ان اكدرك خاطر ك برفض جميلك
فأقبل ما اتراه موافقاً
- اتكفيك ايضاً عشرة دنانير
- هذا فضل زائد وكرم فوق الاستحقاق
- لا تقل يا صاحبي الا اني سلكت سبيل الانصاف . والآن اعتمد على مروءتك
- كن مطمئناً فقد قضي الامر
- اشكر فضلك واستودعك الله
فانفصل الرجلان ذلك ذهب الى مكتبه وهذا الى عرينه النهري
ولما كان المساء اقبل رسول ابن الشرطي الى قصر الدوق ويده غلاف كبير محتوم
بالطابع الرسمي وطيه التقرير ورسالة من الشحنة هذا مضمونها

« سيدي الدوق »

اجابة لامرهم قد بادرت الى استقصاء الاخبار عن البارون لوقا الكرجاني وارسلت لك هذا التقرير المدقق المحقق وقد سررت جداً حيث علمت عنه اموراً تسر خاطرهم لما لكم معه من العلاقة وزادني سروراً يا سيدي الدوق اني قمت لديكم بخدمة لا احسبها تستحق الذكر وكنت احب ان تكلفوني باكثر من ذلك ولكم الفضل وطول البقاء «
الامضاء

واما التقرير فحيث علمنا ان لوقا كتبه بيده فلا احتياج ان نبين هنا ما كتب لانه بالطبع بالغ في مدح نفسه وذكر احسن المناقب التي يتحلى بها اهل الشرف والاداب والغنى

الفصل الثاني عشر

« زيارة الدوق للبارون »

كان الدوق عند دخوله قصره بعد زيارة الشحنة قد علم من امراته ما ادت بحنة كرامة اخلاقها وطيب اصلها الى العزم عليه فسقط في يده من جبهة لانه علم ان كل ما بناه من الامال قد تهدم وافتخر بعزة نفس ابنته مراعاة لشرف مقامه وصون رفعته من الحطه . فخلا بنفسه في غرفته اسيفاً كثيراً لحيرته بين الامرين وجعل ينتحب ويندب سوء حظهِ فهاجت به الحال اولاً وكادت عواصف الغيظ تثور به اذ رأى انه لا مناص من وقوع البلية لتوافق الانبياء بن اباء الايوانية وانباء الغولة غير ان الدين المغروس في قلبه طبعاً ادى به الى الاذعان لارادة الله واحتمال بليته بالشكر فصرخ من صميم فؤاده قائلاً بصوت الخشوع والانكسار يا الهي انك قادر على كل شيء ولو شئت اتيت المعجزات فاطلب اليك ان تدبر امورنا حسب مشيئتك ولا تدع هذه الولد العزيزة تقع تحت اثقال البلايا وان كان لا بد من وقع الخطر فليكن عليّ انا عبدك . فالاولى اذا كانت مشيئتك ان تذهب الشجرة التي لا نفع فيها ويبقى الغصن
النضير المعلق عليه امل طويل

والوقت قرع بابه واخبره الخادم ان الدوقة تريد مواجته فلم يجب طبعاً الا
بالايجاب فأتت ومعه تقرير الشحنة ففض ختمه في الحال وقرأ رسالة الشحنة ثم التقرير
على مسمع من امرأته حتى اذا انتهى اهتزت الدوقة وقالت وهي فرحة استغفر الله
ما جنيت واعوذ بالله من الشيطان الخناس الذي يوسوس في صدور الناس . ما كانت
هواجسي تلك الا كاذبة فيظهر لي ان هذا الرجل من اعيان الاشراف واهل الادب
فاشرق جبين الدوق حينئذ وبرقت عينه طرباً وقال شريف نعم شريف
والآن عاد لي املي بعد الخيبة وما عدت اصبر الى الغد ان يأتي اليّ ويطلب الجواب
بل احب ان امضي اليه قبل الميعاد واخبره الخبر واطلعه على كل شيء واطلب ان
يكون حامية ابنتي ودافعاً عنها الغائلة الهائلة ولو حسب ذلك عليه ثقله فانه مع ذلك
يحسبها خدمة صالحة وجبه لحنه يمثل له الخلاص في نفس الهلاك

وثاني يوم عند تضاجي النهار ركب الدوق عجلته وسار الى منزل البارون
وكان البارون قد احب الليل وهو يضرب اخماساً لاسداس يبني من الآمال
صروحاً باذخة . فما غمضت عينه صباحاً الا وخادمه مبعلي يطرق الباب فانتبه فقال
بالباب امرأة مبرقعة بسيطة الملبس اتت على كرسي يحملها اربعة رجال تطلب مقابلتك
في مسألة عظيمة الشأن وقالت انه لا يمكن منعها

فأمر البارون بدخولها وقد خالج قلبه انها لم تأت الا في مصلحة تختص به وكان
في مثل الظروف الحاصل فيها يجب الوقوف على كل ما يعرض له من الماكرات لعله
يستفيد من احقر الاشياء اكبر الفوائد

فدخلت المرأة قاعة الاستقبال ولبس هو ثيابه واقبل ينظر اليها ولا يعرفها لان
برقعها كان كشيئاً فقال من تكون السيدة التي شرفنتي بوجودها

فلم يكن الجواب الا قهقهة ادوت لها القاعة . ثم سمرت عن وجهها البهي واذا هي
صاحبتة بريقة فقال عجباً يا بريقة ما اقدمك في هذا الوقت الى منزلي الحقير

- ليس الا شوقي الى رؤيتك

- هذا من جملة الكلام المؤلف ولا طاقة لي بتصديقه خالصاً فلا بد من امر

اكبر شأنًا اتيت به

- هو ما تقول لست كاذبة في ادعائي الشوق لانك تعلم ما بيننا من الالفة واما
الداعي الآخر فهو حبي الوقوف على مجاري الامور الحالية ارجو ان تكون احوالك جارية
احسن مجرى وانك بلغت من الآمال ما كنت تترصد فتقصيرك عن زيارتي جعل لي
هذا الرجاء بحسن حالك

- العفو يا عزيزتي ما اتيتك لانه لم يكن شيء اخبرك به

- وبلي منك يا افك . لا شيء تخبرني

- صدقي ما قلت يا عزيزتي لا شيء محقق

- ومع ذلك رأيت الدوق وطلبت اليه عرضك

- نعم وما المعنى

- وما المعنى

- الجواب لا يكون الا في هذا النهار وما ادري ما يكون

- فاطلعي على كل ما جرى لك مع الدوق والدوقة حرفاً بحرف لان اقل حادثة في

مثل هذه الاحوال تكشف لنا اموراً كثيرة والانسان يجب ان يتبصر في الدقائق حتى

يتوصل الى كبار الحقائق

فاخذ لوقا يث لها الحلو والمرة واخبرها اخيراً ما جرى له من زيارته لصديقه

المستخدم في دار الدرك على اثر زيارة الدوق . وكيف كتب التقرير بيده وتحقق انه

يرسله الى الدوق بلا تغيير حرف منه

فلما انتهى صممت دقيقة تتروى ثم قالت سلكت مسلك الدوق والتعقل وحوّلت

مجاري الامور الى مصلحة نفسك ولولا ذلك لتلفت حالك فاهناً بما فعلت وقد ظهر

لي من حديثك ان الدوقة ليس لها ميل اليك وما ادري ما هذه السليقة الأتية التي

كشفت لها الحجاب عن احوالك واما الدوق فليس له فيك اقل ارتياب وهذا

الوالدان يتوقف وجودهما على حياة ولدهما كما يظهر وقد عرفنا ان حياتها متوقفة ايضاً

عليك فبهذا الاتفاق وتوقعك بتحرير التقرير ارى ان سعدك غالب علي نحسك

- كيف لا يا عزيزتي وانا اعلم ذلك حقاً

- اي وقت تقصد لقاء الدوق

- بعد ساعتين

- فانا الآن امضي عنك

- لم العجلة

- هذا تلتطف منك يا صاحبي . ومساء تأتي الي في المنزل الاحمر قطعاً فقد فرغ

صبري لا علم ما يكون من العاقبة

- وانا اعدك الوعد الشافي اني آتيك

- هذا الذي آمله طبعاً . فنحن الآن على الوعد . استودعك الله

والقت البرقع على وجهها ونهضت لتمشي ثم وقفت قائلة

ماذا اسمع . هدير مركبة . هل تنتظر احداً

- لا . ولعل اذنك خدعتك

- بل اسمع حقاً ما ذكرت

ثم اطلت من النافذة وقالت ارى عجلة فاخرة وخيلاً كريماً ولباس السائق زي

العائلة الشمسية

- كيف ذاك والدوق ينتظر قدومي

- وانا ارى الحق بعيني

وحينئذ دخل معبلى على عجل وقال يا مولاي الدوق صاعد في السلم

فاضطرب لوقا واخفى بريقة حالاً في حجرة داخلية وخرج لاستقبال الدوق ولم

يكن في حسابه بحيثه هذا الوقت

فطربت بريقة لهذا الاتفاق والصمت اذنها بثقت القفل واقامت تسمع كل ما

يدور بينهما من الحديث وقالت في نفسها قد وقفتي القدر الى ما لم اكن اترقب فاعلم

الآن صدق كلام لوقا من كذبه واقف على الحقيقة

ولما جلس الدوق والبارون فتح لوقا الحديث بهذا الكلام

هذا منك فضل فوق فضل يا سيدي الدوق فبأي لسان اشكرك وبأي كلام

اثني عليك فعسى ان تكون هذه الزيارة لخير مفاجيء

- يا سيدي البارون انظر الى هذا الشيخ الذي يكلمك واعلم من تجعيد خديه

انكسار قلبه من شدة آلامه الداخلية وقد اتى اليك هذا الشيخ كما يأتي اليئس الى من
 يتقده من الهلاك فهذا الامل العظيم محصور في شخصك الكريم فهل تصدّ شيخوختي
 وهل اعود من عندك خائباً بعد سكب دموعي امامك في قضية بها قوام حياتي وحياة
 عائلتي الحزينة الكئيبة المعلقة بك جل رجائها الوحيد . هذا ما لا اخشاه لاني اتوسل
 اليك وانا رجل شريف ووالد حزين وانت رجل شريف والنسب والحسب صافي النية
 كريم النفس . وبناء على كل ذلك لا اخاف ان تردني خائباً

- ما هذا يا سيدي يا ابي اثقلت عليّ يدك وتنازات فوق المتظر قد اضطرب
 قلبي من هذا الكلام حتى ما افهم منه حرفاً فصرح لي يا سيدي صرّح لي ما معنالك
 في كل هذا

ايها البارون الكرجاني اعلم اني احترمك احتراماً ما فوقه احترام والدليل على ذلك
 اني آت اليك متوسلاً بقضاء مصلحة من اهمّ المصالح على اني ايضاً آتيك بكدر يشق
 القلوب اسفأ

- يا سيدي قل في الحال اوقفني على هذه الاسرار الغريبة والاحوال العجيبة وانا
 صديقتك على كلا الوجهين

- قلت لي انك تحبّ حنة

- نعم احبها حباً ما بعده حبّ حباً يتزايد في فؤادي كل دقيقة فيضرم ناراً لا
 تزال تتأجج بريح تصوورها وتوقع بذلك الغناء او سعادة الحياة

- آه يا سيدي البارون باسف شديد وكدر لا يوصف اجسر ان ادعوك الى
 التجلد والثبات وتقوية العزم والقلب ولساني يتلثم كما ترى بهذا الخبر الفاجع . كنت
 اتنى من كل قلبي ان اتشرف بمصاهرتك لكن يا لمصيبة فوق مصيبة ليس زمام
 حنة بيدها

فانتفض لوقا جزعاً كمن يشعر بخنجر خرف فؤاده وصاح بصوت قد خنقه
 الغيظ والالم

اذن تمنعني منيتي وتدفعني الى منيتي

- كلا يا سيدي كلا استغفر الله من ذنوبي ويشهد الله عليّ اذا حلفت لك

اصدق الايمان اني احسبك نظير ولدي ولي بك السعادة غير ان الارادة التي تمنعك هي فوق ارادتي وفوق كل ارادة ولا يمكن ان نحاول اذعانها

- ارادة من يا سيدي ارادة من

- ارادة حنة يا ولدي . آه واسفاه

- أفكرهني حنة وتنظر اليّ بعين المقت والاحتقار . آه يا لشقائي كان يجب ان

احسب هذا الحساب قبل ان تورط في هذه الورطة العظمى

- ليس ما تقول يا سيدي بل لحنة اليك ميل صادق تحترمك اشد الاحترام وتعتبرك

عيناً بين الشرفاء ولا تعرف باي شيء تكافئ صنيعك الجليل وكان يسهل عليها جداً

ان تهيبك قلبها لو لم تعد به غيرك منذ سنة

- من يكون هذا السعيد البخت الذي حظي بعطفها

- رجل من ذوي قرابتنا يقال له رُعين الزهري وقد اخذ الوعد الشافي من لساني

ولسان امها انه يكون خطيبها قطعاً

فاحنى لوقا رأسه على صدره وغاص في لجة من الكدر والوساوس

ثم نفض منكبيه فجأة كمن يلقي عن عاتقه حملاً ثقيلاً ورفع رأسه فظهرت على

وجهه لوائح الكآبة والانتباض وقال بصوت منخفض بطيء

سيدي الدوق عرفت مرادك ووعد الشريف لا يكون اثنين وبنيت عريقة في

نسب كريم لا تحب مرتين قد ارتبطت بحب المولى رعين فانقطع جبل رجائي بتأ

والمصيبة التي دهمتني شديدة لا اتوقع اشد منها وجراحة قلبي بليغة تعبي دونها نفطس

الاطباء . وهذا الشقاء عليّ وحدي وقع فلا اكدر به صفاء عيشك فقد قضي الامر

ونفذ المقدّر . فلنقطع عن هذا النظر وتحدث في شأن المسألة الاخرى التي ذكرتها .

فقل لي ما الخدمة التي آتيت تطلبها مني فتراني موقوفاً لها ولا اكون الا رهين اشارتك

فاخذ الدوق يد لوقا وضمها بكلمات يديه وقال له

يا سيدي البارون احب اولاً ان اقص عليك خبراً و بانتهائي منه تعرف ما آتيت

ارجو منك

- الامر لك يا سيدي هات ما عندك

فشرع الدوق يطلعه على الحوادث المار ذكرها ولوقام مع ذلك لا يبجها ثم قال له
قد وضع لك يا سيدي ان نصيب العائلة الشمسية بين يديك ان شئت اتلفتها
وان شئت انصفتها فما تقول

- اقول اني لا احيد عن خطة الشرف واقوم بما علي لمصلحة العائلة الشريفة بالتردد
ولو افضى بي ذلك الى تلف نفسي

فلم يعد الدوق يملك نفسه من شدة الفرح وتأثير الجميل فضم البارون الى صدره
واعتقه متهداً كأنه الولد الذي يلقى اياه بعد غيبة طويلة . حتى اذا سكن جاشه قال له

- يا ولدي . يا ولدي الحبيب . أحق ما تقول . أتقوم بهذه المصلحة السامية

- عبدك وخصيصك يا مولاي فكن على يقين من وعدي

- وهل حسبت ما يترتب على ذلك من المشاق والاكدار المزمع ان تقاسيها

- مهما تكن لا ابال بها فان كان قلبي جريماً فوجهي لن يزال صريحاً

- أفعلم ايضاً انك منذ الآن حتى ساعة وقوع الخطر يجب ان تكون في دارنا

ملازماً لحنة

- ان لم يكن لي بذلك الفرح الاعظم فاني احسبه الشرف الاكبر فاقوم بحق ما

يقتضيه هذا الشرف

- اذن اقدر ان اخمد لوعة تلك الام الحزينة واقول لها اني وجدت منك اوفى

من وفي واكرم من عفا

- تقول لها اني اسير ارادتك في كل حال

- فاشكرك يا ولدي من صميم فؤادي وان كانت بركة شيخ مثلي تجلب نعيماً فكن

مباركاً حيثما كنت وكيفما سمعت

- لا تمضي ساعتان ياسيدي البارون حتى تراني قائماً في خدمة قصرك رقيقاً لا لطفانكم

وعلى هذا القدر انتهى بينهما الحديث واسرع الدوق الكرة للقاء امراته وابنته

حاملات اليهما هذه البشارة البهجة وشيعه البارون باحترام يليق بامثاله الى ان ركب

عجلته وهو يفيض عليه عبارات الشكر واشارات الوداد . ثم رجع للقاء بريقة في مكانها

فقالت له حين قابلها ما هذا الاصفرار الذي يعلو وجهك

- هذا لا بد منه واذا وضح السبب بطل العجب
- لم يغب عن معرفتي شيء من امورك
- هل سمعت حديثنا
- لم يقفني منه حرف
- فقد علمت اذن ان كل ما بيناهُ سقط
- هذا رأيك يا قليل التدبير
- ألك غير هذا الرأي يا داهية
- نعم . نعم . وانت تعلم سداد رأبي
- كيف وقد خاب املي من حنة في الحال والاستقبال
- لِمَ ذاك
- لانها مخطوبة لرعين الزهري وتجهه
- وما يضرّ هذا
- كيف ما يضرّ سيتزوج بها
- لا احسب هذا واقعاً
- هذا منك اكثر من وهم
- لا بل هو حقيقة صريحة . انسيت الخطر العتيد ان يصيب المسكينة
- ما هو الا خطر موهوم كما نعرف انا وانت
- لا بل هو موجود ومحقق وقد ابتدأ وقوعه من هذه الدقيقة
- من اي سبيل
- بارادة لا ترده وعزم لا يصدّ
- ارادة من
- ارادتي انا فقبل شهر تحصل على المليون مهر حنة
- اتحاولين خدعي بالحال
- لا خداع البتة فالذي اقوله افعله لا يمنعني مانع
- لا اصدق شيئاً من مدعاك فلا يغير الحال الا قدرة الهية

- فكيف اذن قبلت ان تدخل قصرهم وتنفى بالوعد الذي اتاك الدوق بطلبه
 - هذا مقتضى الشرف والانسانية ويجب ان ابقى مواظباً على السعي صابراً
 الى النهاية

- أفما تعلم يا خامل العقل انك متى حصلت في دارهم على الحال التي وصفت ولهم
 فيك الثقة التامة تستطيع كل شيء خصوصاً بوجود السلاح الفتاك الذي بيدنا

- اي سلاح تريدين

- مسكين فاقد الفطنة . أفى يومين تنسى مسألة هذه المغنية الاندلسية

- ما نسينها قط والبارح كنت احسب بوجودها بعض الآمال لكن ما عرفت

كيف اتصرف

- ان كنت قاصراً فانا قادرة على التصرف ولعل الذي حسبتهُ انت ما كان الا
 خيالاً واما الذي احسبه انا فهو عين اليقين

- فما التدبير الذي دبرته

- تدبير لا يخيب ولا تسقط نتيجته

- فتولي ما بدا لك ما عدت اطيع عنه صبراً

- لا بل عليك بالصبر فلا تعرفه الا مساء فتأتي الي الساعة الثالثة . واكرر لك

انك قبل شهر تكون زوج حنة الشميسية

- اذا تم ذلك اقول انك ساحرة

- أفلست الآن ساحرة اولا يسمونني الغولة . فسل من اردت يعترف لي .

نراك بخير

- الساعة الثالثة اذن تقضي امورنا

- على كل حال

ومضت بريقة في سبلها وصعد لوقا غرفته ليلبس ثيابه الرسمية لدخول القصر الشميسي

فلما انتهى الى ما اراد من التزيين والتصفيف ركب عجلته وكان قد اشتراها

بقسم من المبلغ الذي اعطته اياه بريقة وامر السائق ان يسرع به الى القصر المذكور



الفصل الثالث عشر

« مساعي لوقا »

ليس من اللزوم ان نشرح هيئة السرور التي لوقي بها البارون في القصر الشيشي لعلمنا انه كان يعدّ هناك المنقذ الوحيد لحياة الفتاة الوحيدة من خطر لا بدّ ان يلمّ بها . لكن يجب ان نقول ان الدوقة غالطة نفسها وكذبت تلك الهواجس الوالدية التي طالما اقلقتها وقالت يجب عليّ وأهفو ايضاً ان احب هذا الرجل الشريف كأنه ابني حقاً . وعزمت حنة ان تظهر له بل تقدم له المحبة الطاهرة الشديدة كمحبة الاخت لاختها لانه بذل نفسه لاجلها غير متدمر باقل اشارة من الصدود الذي كسرت به خاطره . وكان معظم اهتمام الدوق والدوقة حفظ البارون في بيتهما كل ذلك الشهر بناء على انذار الغولة للدوقة بدلائل الدجاجة ان المصاب يقع في الشهر المذكور . فكانا يبذلان غاية جهدهما ان لا ييارح القصر دقيقة من الصباح الى ساعة النوم حيث تحتلي الام بولدها ترعاها عنها بتمامها بعد عين الله . فكان يتيسر لوقا الخروج في ذلك الوقت من الليل ويعود صباحاً قبل الشمس وهكذا وقع اتفاقهما معه وعليه جرى لوقا فلما مضى ذلك النهار وحانت ساعة النوم خرج البارون للقاء بريقة حسب الميعاد . وصارت هي تشرح له التدبير الذي عزمت عليه بتفصيل كافٍ . وسيتضح هذا من مجرى الحوادث في الفصول التالية

و بعد ذلك مضى الى داره في محلة الحاجز البولسي فلم يمكث الاّ ريثما خلع ثيابه ولبس الحلة الموافقة لمقصده اذ ذلك وهي التي تزيها بها حين قصد دار الدرك فلما خرج من داره واقفل الباب اذا بعجلة اجرة مارة وليس فيها احد فراه السائق بهيئة قروي كهل فقال له تقدم يا صاحبي واركب هذه العجلة فهي جديدة وخيلها مستريحة نشيطة اسير بك الى حيث شئت والاجرة قليلة لا تستحق الذكر خمسة عشر فلساً فقط كل ساعة . فقال له لوقا قف يا غلام اركب معك فنزل عن كرسيه وفتح الباب فدخل لوقا وقال له امض بي الى زقاق البئر الناطقة وقف عند مدخله

فساق الغلام بسرعة وبلغ المكان في طرفة عين فقال لوقا هوذا ثلاثون فلساً على ان تنتظري هنيهة فأعود معك قال حباً وكرامة أنتظري ما شئت يا مولاي
فضى لوقا بمشي الهويناء في ذلك الزقاق الضيق الغاص بالوحوول وهو ينظر يميناً ويساراً ولم يمض نصف ساعة حتى وقف وقد اهتدى الى المكان المقصود بواسطة ضوء القمر فإنه رأى باباً عتيقاً فوقه تمثال خنزير مصبوغ بأحمر وقوائمهُ بلون ذهبي وفوقه رقعة مكتوب عليها بالاحمر القرمزي « الفندق الانطوني • منزل حسن » فدفع الباب ودخل متكرهاً من روائح القنار المنبعث من ذلك الفندق فوجداهلُ في القاعة السفلى منهمكين في انواع الشواء وصاحب المنزل رجل قصير ضخم الجثة واقف ويده سكين حادة يناظر على الاعمال فالتفت الى لوقا وقال اهلاً وسهلاً أَلطعام قادم ام لنام • مُر بما تشاء فترى ما يرضيك

- لا طعام ولا لنام يا معلم بل طالب مقابلة ناس في منزلك
- من الذي تطلبهُ
- رجل وامرأة يقال لهما الاخوان المغنيان الاسبانيان
- فلما سمع الرجل ذلك ارتعد كل بدنه وظهرت امارات الغضب الشديد على وجهه وقامت عيناه في ام رأسه وصاح بلوقا قائلاً
- من تطلب . الاخوين المغنيين الاسبانيين
- نعم وما الداعي لهذا الانزعاج
- هل تعرفهما
- هل تجد في معرفتهما محظوراً
- فانت شريك لهما في اللصوصية فالقرين من المقارن يعرف وما اراك الا عياراً محتالاً وان كانت بزتك حسنة فليس الفتى بلباسه ولا يؤخذ الانسان بالظواهر . فأخرج من هنا والأدعوت من يقبض عليك ويوقفك على حد الاستقامة . اخرج حالاً ايها العيار

فتبي لوقا واقفاً وقد اخذه الانذهال فتقدم اليه الفندق كالفردان واراد ان يدفعه بعنف وهو خارج عن دائرة الاعتدال لكن لما رآه ثابتاً في مكانه وعليه سماء

الشهامة وقف محتاراً في امره واخذته الجدة فقال له لوقا بصوته الوقور المهيب
 - اراك ايها الرجل قد تجاوزت الحدود وتورطت في السفاهة اتفاقاً لكن ألم يخطر
 ببالك ان هذه القحة تؤدي بك الى ما لا يرضيك . أو ما تعلم ان سوء تصرفك على
 غير تروءٍ يجلب عليك الوبال بحكم العدل فبأي سلطان قل لي تعامل هذه المعاملة رجلاً
 اديباً لست تعرفه وتنسبه الى الاصوصية . وبأي حق تتقدم اليّ متهدداً وشامئاً وبأي
 حق تأمرني بالخروج من منزلك وليس ما يدعوك الى ذلك الا شراسة اخلاقك وسوء
 ظنك . فان لم يكن هذا جنوناً منك فماذا نسميه

فوجم الرجل وقد افحمه هذا الكلام وقال ولسانه يتلجلج

- المعذرة يا سيدي اخرجتني الحدة عن حد الادب فلم اقدر ان املك طبعي وقد
 ساءني سؤالك عن هذا الخنث الاهوج واخته المحتالة الخبيثة وصعد الدم في دماغي
 وظننت انك رفيق لهما فقصدت القبض عليك

- وكدت تفعل

- نعم كدت وما ادري

- فكنت وقعت تحت اشد المسؤولية . لكن لا بأس والعفو من شيم الكرام فلنضرب
 عن ذلك صفحاً فقد فات ما فات واني اطلب ان اكلم هذين الشخصين اللذين اغضبك
 ذكرهما والظاهر انهما خرجا من منزلك ونزلا موضعاً آخر

- نعم خرجا من هنا فان احببت ارشدتك الى منزلهما

- اشكر معروفك سلفاً

- فاذهب اطلبهما الخبيثين في مطابق الحكومة

- ما تقول . هل قبض عليهما

- سيقبضان عن قريب لاني مزعج في الغدان اقدم عليهما الشكوى واخبرك

الصحيح اني رجل معروف في هذه المحلة وكتي نافذة في المحكمة

- وما شكائتك منهما

- هذا امر لا يعينك

- بل يعينني . نعم اني لا اعرفهما حق المعرفة وقد رأيتهما مرة واحدة لكن لي

دواعٍ تضطرنني الى النظر في مصلحتهما
فنظر الرجل في وجه لوقا متفرساً وقال في نفسه هكذا يقتضي الواقع لان الفتاة
جميلة بديعة المنظر وفي عينيها السوداوين سحر ينطوي على غوامض لا تحصى ثم
قال للبارون

فحيث لك مصلحة تتعلق بهما اقول لك انهما سرقا متاعي

- ما سرقا لك
- شيئاً كثيراً
- مثلاً
- على الاقل بقيمة ثلاثة دنانير
- ولاجل هذا المبلغ الحقير تريد ان تجسهما المسكينين
- ما تقول . مبلغ حقير . ثلاثة دنانير يا اخي اكثر من ستين درهماً وفوق الثلاثمائة
- فلس (١) لكن على كل حال ما لا تعب عليه الايدي لا تحزن عليه القلوب فلو خرج
- هذا المبلغ من كيسك لأسفت عليه كما أسف انا فهل يخطر ببالك ان تدفعه لي انت
- ايها المدعي حقارتة
- ادفعه بلا مراء فيها ثلاثة دنانير ونصف دينار فوقها
- فمد الرجل يده وقبض المطلوب ثم صار ينظر الى ذلك متحيراً دهشاً واخذ
- الانذهال كأنه رُبط بطلمس وانحنى الى الارض شاكراً هذا الكرم الذي لم يمهده
- نظيراً في زمانه ولا مقارباً وسراً بنصف الدينار سروراً غريباً
- فقال له لوقا ابقى لك عليهما شيء من الحقوق
- بل صار لهما عليّ الفضل بموتك ايها الرجل الشريف
- لست أعدك من الشرفاء بل انا كما ترى رجل قروي لي كفايتي من الثروة وكفى
- نعم ايها المولى الكريم
- فذ الان لم يعد محل للدعوى

(١) اصطلاحنا في هذه الرواية على استعمال الدينار الليرة والدرهم لنحو الفرنك لان اصله ذرخة
باليونانية والفلس للفرش

- طبعاً يا سيدي

- فأوضح لي سبب شدة حنقك على هذين المسكينين اللذين لا اظنهما كما تظن
اعلم يا سيدي ان ذلك المخنث المدعي صناعة الانعام ليس الا شيطاناً في صورة
انسان واخته تلك الخبيثة مع ما لها من الجمال والظرف من ادهى الدواهي . دخلا
منزلي منذ ايام واستأجرا حجرتين وصارا يا كلان من احسن ما عندي ويعداني جميلاً
فلم اخف اولاً من هيئة الرجل القبيحة الدالة على طبعه استثناساً بصورة المرأة اللطيفة
التي لا تدل هيئتها على ظاهر مهنتها بل على انها من بنات الملوك ومع ذلك ما كانا
يقصران في دفع مطالبي كل يوم من الاجرة وثمن الطعام لكن في الاسبوع التالي قصرا
وامسكا فصبرت ثم زاد الامر حتى كدت اطردهما والحجت عليهما . ثم امتنعت ان
اقدم لهما الطعام فصار الخبيث يتلقني ويملاً اذني من مواعيده واخيراً دخلا اول البارح
مساء (الثلاثاء اخر المرافع) وهما مبتهجان يطفح السرور على وجهيهما فقلت في نفسي
لا بد ان معهما شيئاً من القود فطلبنا الطعام بقوة قلب فقدمت احسن طعام ثم اريت
الرجل قائمة المطلوب فسخر بي وافرغ من جيبه امامي اكثر من عشرين ديناراً حتى
انهر بصري

فقال لوقا في نفسه هي الخمسة والعشرون ديناراً التي وهبتهما اياها

- ثم دفع اليّ مطاوي وزيادة فسُحرت من فعله وثاني يوم اي البارح قضى النهار
على احسن حال وفي المساء خرج الرجل وغاب نحو ساعتين وعاد منقبض السحنة
فقدمت له القائمة حسب العادة وقد بلغت في نهار واحد ستين درهماً . فنظر اليّ نظر
الكئيب وقال بعد خمس دقائق اصعد الى حجرتي وخذ الوصل بيديك فادفع لك فاطمان
قلبي وبعد خمس دقائق صعدت ودخلت . فيا للعجب ويا للنكبة فاذا الحجرتان خاليتان
فكانا قد اختبأوا خلف الباب عند صعودي السلم وانسلا حينما وقفت جامداً مهتوئاً وفوق
ذلك وجدت انه بمروره في قاعة الاكل سرق فخذ خنزير تساوي اثني عشر درهماً
فاحكم الآن يا سيدي على هذه الفعلة التي ليس في الدنيا اقبح منها وهذا الخبيث الذي
لا يخطر على قلب بشر . أفلم يحق لي ان ابادر في الحال والعجل واطلب الى الحكومة
تحصيل حقوقي

- لك اكبر حق نعم ولست ملوماً في شيء من تصرفك معهما
 ثم خرج من عنده فوجد العجلة في انتظاره وكان يقول في نفسه حقاً ان السعد
 يخدمني ونجمي يتلألاً فوق السماك الأعزل (١) فأرى ابواب النجاح مفتوحة لدي ولو
 تاخرت الى الغد لمحبط المسعى ورجح المسكينان في السجن وذهبت من يدي هذه التي
 عليها تتوقف سعادي فيجب الآن ان اسعى في وجودهما ولا بد ان اجدهما الليلة او
 في الغد قبل الضحى

ثم ركب العجلة وقال للسائق امض بي الى درب اصطاكه (٢)
 فضى السائق لا يعرج على شيء الى ان وقف في المكان المعين فناوله لوقا
 ثلاثين فلساً ايضاً وامره ان ينتظره . ثم تغافل في زقاق ضيق وحل كان عادة ملقى
 للصوص ولم يكن لوقا يهاب جانبهم وفي عصاه حربة حادة . ثم وصل امام بيت حقير
 الظاهر له باب وشباك وكلها مغلقة لكن رأى النور من خلال الشقوق وسمع اصواتاً
 مختلطة وفوق الباب علم لا يرى في ظلام الليل وفي النهار ترى عليه هذه الكلمات «حانة
 الندمان» وعرف لوقا انها خمارة من الاصوات المذكورة فدفع الباب فانفتح واذا بيت
 كالكهف ليس اقبح من منظره ولا احقر من داخله وصاحبه رجل متقدم في السن
 ذميم المنظر تحت امرته غلامان خفيفان يقدمان القناني المختلفة الالوان للجلوس فجال
 لوقا نظره في الجماعة فلم ير الاوجوهاً قيحة وسحنناً ابليسية على جميعهم امارات اللوصية
 فكان ذلك المنزل مأوى حقيقي لقطاع الطريق والعيارين (اي النصابين بلغة العامة)
 فجعل الجماعة يرجون لوقا بالاحداق وسكتوا برهة وصاروا يتناجون بكلام مضطرب
 فلم يكثر بهم واستمر يتقدم وهو ينظر الى كل منهم نظرة خفيفة ولا يقف الى
 ان انتهى الى آخر المنزل فظهر عليه السرور وقد وجد مطلوبه فوقف امام الشخص
 وامسك يده وهو جالس وراسه منقلب الى الوراء وعيناه مغمضتان وامامه قنينة كبيرة
 من الخمر وفي وجهه اثر جرح كبير وتجميد ظاهر وثيابه رثة شكلها شكل ثوب عسكري

(١) في السماء نجبان يضرب بهما المثل في الارتفاع يقال لاحدهما السماك الرامح وللآخر
 السماك الاعزل

(٢) الدرب في اصطلاح المولدين الطريق التي تتخلل البيوت شبه الزقاق الا انه اخص ويراد
 بالزقاق هنا الشارع الصغير

قديم العهد

فلما امسك لوقا يدهُ قال بصوت أجشّ كالرعد ما يريد مني الثقل . امض في سبيلك . قال افتح عينيك وانظر . ومد لهُ يدهُ

فنظر الرجل ورأى الخاتم الذي عليه صورة المشعل فلحال اظهر الاحترام ونهض محيياً بخضوع تام (ولهذا الخاتم ذى المشعل سرّ غريب سينكشف فيما بعد) وقال للوقا وهو يظنه غير من هو . المعذرة من المولى داود على ما نطقت به امامه فاني لم اعرفه

- لا بأس . لا بأس يا ابا بدر والآن قد عرفت

- فتراني طوع امرك

وبينا هما في هذا الكلام زادت جلبلة الجالوس وثار شعبهم لانهم رأوا ان ثوب هذا الداخل الغريب احسن من ثيابهم فعدوا ذلك اهانة لهم وارادوا اخراجه

فقال لوقا لصاحبه سكن هؤلاء فقد ساءني شعبهم

فنهض وصرخ بهم كالرعد القاصف « شانكم وانفسكم واقطعوا الستكم ألا ترون ان الرجل من زمرتنا فن حرك ساكناً فلامه على نفسه » فسكتوا جميعاً سكوتاً تاماً

فاخذ لوقا كرسيّاً وجلس امام الرجل الذي دعاه ابا بدر وقال لتحدث الآن

- لعلك تحتاج اليّ

- نعم

- هذه الليلة

- هذه الساعة

- حاضر مطيع

- ولا يذهب الامر سدّي فلك في ذلك ربح عظيم اذا راعيت ارادتي

- حيّاك الله جئت لوفق الامر فاني محتاج الى النقود

- كم تقول في هذا المكان من المشاعلية

فوقف الرجل على الكرسي ونظر اليهم نظراً مدققاً وقال اربعة عشر

- هذا العدد غير كافٍ

- أجمع لك في نصف ساعة خمسين واكثر فاني اعرف مقر كل منهم فاذا اجتمعوا

فما تصنع بهم

- ابثهم في باريس وأمهم ان يدخلوا كل الحانات وكل اماكن الاجتماعات الخاصة
والعامه ليجدوا من اطلب
- ومن الذين تطلبهم
- شخصان يقال لهما الاخوان المغنيان كانا البارحة نزلي الفندق الانطوني
- وما علامتهما
- فشرح لوقا يصف له صفتها حتى صار يعرفهما كأنه يراها. فقال على الرأس والعين
في هذه الليلة اجدهما
- هذا املي بهمتك
- واذا وجدتتهما فهل آتي بهما اواراقبهما
- لا ذا ولا ذا ولا احب ان يعرفا ان احداً يقتش عليهما بل تأني وتخبرني
- واين اجدك
- في طرف الزقاق تجد عجلة واقفة اكون فيها في اول درب اصطاكه
- كني
- ثم صار يطوف على الجماعة الموجودين ويكلمهم كلاماً سرّياً موجزاً فقام بعضهم
وخرجوا من المكان متابعين وبينما هو يكلم الباقين اذ وقف وصفق بيديه طرباً واطهر
العجب واتى الى لوقا فقال له ما سبب ما فعلت
- لك يا مولاي حظ يفتق الصخور
- ما معنك هل وجدت الشخصين
- رآها هذا الرجل الذي كلمته اخيراً منذ نصف ساعة
- اين
- في كهف نظير هذا في الزقاق الغرغوري
- اشكر همتك يا ابا بدر وحسن توفيقك . فخذ هذه الدنانير القليلة ودعني
- أتمضي وحدك يا استاذ اما تعلم ان ذلك العرين مأوى اللصوص
- لا يهمني ذلك فلي قلب اقصى من الصوان

- هذا عين الغلط فمنذ يومين قتل اثنان هناك لاجل قليل من النقود وكنت انا هناك وشهدت المعركة بنفسى وارتدت ملافاة الامر فلم اقول عليهم فاذا رأوك بهذه الثياب فلا بد ان يطعموا فيك فلا يدعونك تخرج وما تفعل شجاعتك مع هؤلاء الوحوش الضارية فدعني اذهب معك فأجيبك
- افعل ما تريد

فخرج كلاهما وركبا العجلة وقصدا المكان المذكور

الفصل الرابع عشر

« لقاء الاخوين »

وكان ذلك المكان كالمطبق تحت الارض يُنزل اليه بست درجات وفيه من رذالة الاوباش اشكال والوان كأنه كهف في جهنم قد جمع شر الشياطين فلما وصلا وقف لوقا امام الباب مستشرفاً ثم قال له ابو بدر . هل وجدت مطوبك قال نعم ها هو الرجل ذلك الواقف وراء تلك المائدة ينثر ورق اللعب من يده

- حقاً يا سيدي لورأيتُهُ انا دونك لعرفتهُ بحذق اشارتك

- هلمّ تتقدم اليه

- لكن خذ يدي حتى اذا عرفوا انك مرافق لي لا ينطق احد بكلمة ضدك

ففعل لوقا على كره منه وولجا ذلك الوجار يتخللان الصفوف الى ان قربا من موضع قين فرأيا ايضاً قينة مستندة على اسطوانة ويدها طنبور اخيها وهي تنفوس في لعب الورق

ورأى لوقا امام قين عموداً ضخماً من النقود النحاسية والفضية وسمع رجلين من كبار اللصوص يتسارآن فوقه في اذنه بعض كلامهما ففهم ان الجماعة قاصدون المهجوم على قين وقينة فينتهبون مال قين ويقتلونهُ ويسبون قينة فعرف جسامته الخطر القادم عليهما واحب ان يتداركهُ بأبي وجهه كان فأمر صاحبه ان يقبض نصلهُ ويستعد للقتال واستل هو حرته من العصا ووقف الاثنان بين قين وقينة

فلما انتهى دور اللعب اذا بقين يصيح ربحت المبلغ واطربا فصاح احد العيارين « على السارق على السارق » فهض ستة اشخاص بحراهم وتقدموا اليه واذا بلوقا وابي بدر قد اعترضاهم وجرّ لوقا قيناً من يده الى الوراء وعظم الشعب وتفاقم الامر وتكاثرت اللصوص على الرجلين وهما يدافعان دفاع الابطال وقين يرتعد وراءهما وحرته في يده ترتعش ثم ان ابا بدر صرخ بصوت كالرعد اليّ يا مشاعلية . فهض اكثر من خمسة عشر عن كراسيهم واشتبك القتال فقتل اثنان من اولئك اللصوص وجرح واحد من المشاعلية ثم انفصلوا حالاً ولزم كلُّ شأنه

ثم ان ابا بدر قال للوقا هلم يا معلم داود نخرج من هنا لثلاثاً تقع في شرّ اخر قال هو الحق وتقدم الى قينة وهي كالصنم لا تدري سبب هذه المعركة وقال لها يا سيدة ان ما جرى الآن كان لاجلك فهلمي وراءنا ولا تراعي فليس في البقاء الا الشرّ قالت السمع والطاعة وما دخلت هذا المكان الا وانا مكرهه فقبحاً له وشقحاً لاشقيائه . وقال قين ياسيدي لا شلت اناملك فما رأيت لي ولك بين الابطال امثلاً فنحن نسير وراءك ولو ولجت بنا النار . لكن ياسيدي اخرج وترك النقود التي ربحتها واتهبها هو لاء الاخساء قال لا بأس فسأعوض عليك ضعفها

- اذن فلنخرج من هذا المكان اللعين وقد وثقت بوعدك في في ذمتك على حسابي ثمانية واربعون درهماً ولكن لكي يسهل الحساب ويختصر بكلمة نجعلها خمسين هكذا عزمت

فلم يملك لوقا نفسه من الضحك على صعوبة الحال اذ ذلك . واخذ بزراع قينة وشق في ذلك الوجار الى ان خرجوا جميعاً سالمين . فقال لوقا لقينة اين تحبين يا سيدتي ان امضي بك

فلم يمهلا قين حتى تجيب وقال يا سيدتي نحن غريبان في هذه المدينة اتينا منذ يومين ونسينا اسم الشارع الذي فيه مكان نزولنا واسم الفندق ايضاً وفيه متاعنا ونقودنا وبأقيح الاتفاقات دخلنا هذا المكان اعتسافاً

فقات قينة لاتصدق كل ما قال يا سيدتي
فلكرها قين أن اصمتي فأتمت كلامها غير مبالية به وقالت

نعم اننا غريبان قدما منذ اسبوعين واكثر وليس لنا تقود ولا متاع ولا مأوى
فاذا تركتنا كان وطاؤنا التراب وغطاؤنا السحاب

- ليست حيرتي يا مولاتي اقل من حيرتك بهذا الصدق على اني ارى من الصواب
في مثل هذه الساعة من الليل ان تعودا الى منزلكما في شارع البئر الناطقة

- عجباً كيف عرفت هذا

- باستقراء احوالكما

- اذن تعرفنا قبل الآن

- اسعدني القضاء مرة

- اين رأيتنا

- سأخبرك ان شاء الله

- أعلمت اننا خرجنا كرهاً من ذلك المنزل لدين لزمنا ولم نستطع وفاءه

- علمت ذلك وقضي الدين

- انت دفعت المطلوب

- نعم بلا تردد

- هذا اعجب وبأي داعٍ ولاي غرض

- بداعي اتقاذك من شركٍ نصبه لك صاحب الفندق فخفت ان تذوقني ضيماً

كنت في غنى عنه

- حقاً يا سيدي اني لارى العجب في كل تصرفاتك هذه كأنك ملاك رحمة

ارسلت اليّ

- لاعجب في شيء من هذا والامر بسيط فاني اسعى في طلبك

- ما تقول . زدتي تعجباً فليس اتفاقاً اذن قدومك في هذه الساعة التي كدت

فيها اذوق البلاء

- ما للاتفاق دخل

- فغررت بنفسك في هذه الهاوية لاجلي

- لاجلك نعم وما ذاك الا لان لي معك مصلحة عظيمة

- قد وضع لي البرهان من اقدامك على هذه الشدة لكن اسمح لي ان اسألك
ما هذه المصلحة يا سيدي

- ليس الآن وقت اخبارك لان المكان لا يناسب

فما اتهمنا من هذا الحديث حتى وصلا الى المكان الذي فيه العجلة واقفة فأيقظ
ابو بدر السائق ودخلوا جميعهم ومضوا الى شارع البئر الناطقة ووقفوا امام الفندق
الانطوني وكان الباب مقفلاً والضوء مطفأً وهدو الليل سائداً فنزل ابو بدر وقرع الباب
اولاً وثانياً فلم يجب احد فأخذ حجراً وصار يضرب عليه بعنف شديد حتى ارتج
المكان وكاد الباب ينخلع . واذا بشباك قد انفتح وبرز منه راس صاحب الفندق وقد
هب مذعوراً وصاح بهم وهو لا يعي قائلاً « من الطارقون في هذا الليل الدامس والناس
نيام . تباً لكم يا شقى الاشقياء واخبث الخبيثاء واشأم المخشئين . لصوص . عيارون . او باش .
ارذال . انذال . همتج . سراق . كلاب الزقاق . اغربوا والا اطلقت عليكم
الرصاص عندي ثلاث بنادق فضلاً عن الغدارات والطبنجات والعصي . ايتهم تنهبون
بيوت الادياء ودونكم ضرب حسام يفلق رؤوس الابطال . انكصوا اخزاكم الله »
فقال له ابو بدر مهلاً . رويداً . على رسلك يا معلم لا قصد نهب ولا سرقة اتينا ولا
لزوم لمسلحتك الملوكية وانما نحن اضياف دهمنا الليل فطرقنا منزلك

فسكن جأش الرجل بعض السكون لكنه لم يركن ولا وثق بهذا الكلام ثقة تامة
حتى نزل لوقا من العجلة واظهر له نفسه وكلمه فاطمان واستعذر واخذ فانوسه وفتح الباب
فدهش لرؤية قين وقينه فقال لهما ماذا . رجعتما يا خبيثان فقال قين روق كدرتك يا معلم
فبم آدينك وانت الذي اسأت الينا فالخذ التي اطعمتنا كانها مشحونة بالملح ولم يشف
غليلي من الماء من الصباح حتى الآن

- فقال لوقا يا معلم لا بأس وما الآن وقت مزاح فاحضر الطعام وهيء مكان المنام
فاسرع الرجل بما طلب وقدم الطعام والمدام واجتمع لوقا وقين وقينه في حجرة
واحدة واغلق لوقا الباب وجلس امامهما

الفصل الخامس عشر

« المؤامرة »

و بينما هم جالسون كانت قينة تنظر الى لوقا نظر المتأمل وقالت في نفسها قد تحمقت اني رأيت هذا الرجل مرة لكن متى واين . لا ادري . وفطن لوقا لما هي فيه فقال لها سيدتي انا اكشف لك هذا السر . ثم رفع برنيطته ومسح وجهه بمنديله لتزول الرسوم المخطوطة بقلم الرصاص ممثلة للتجعيد وقال انظري الآن اما عرفتي قالت نعم نعم ذكرت الآن . وقال قين كيف ننسك يا سيدي وانت مفضل علينا والا فنكون من اخس الناس ولا نستحق جميلك ثانية . فلا ننسى مطلقاً دنانيرك التي انعمت بها علينا تلك الليلة

قال يا حبذا لو نفعت النفع المراد منها

- ويلاه ما كان الامر بيدنا فقد وقعنا في زمرة من العيارين فداغت دفاع الاسود

وما قدرت عليهم

فقلت قينة كذب اخي فانه خسرها بالقمار

- صحيح ما قلت على اني كنت ارجو الكسب كنت امل ان تصير خمسين بل

حسبت اني اصيرها مئة غير ان القدر لم يساعدني والدهر لم ينصفني

ثم قال لوقا لقينة فقد علمت الآن ابن التقينا؟

- نعم وذكرت كل ما جرى بيننا

- وان الغولة انباتك بالسلطة والسيادة والغنى

- نعم سخرت بي بمثل هذا التلفيق

- لا تقولي هذا فما كانت ساخرة بل حكمت الواقع والامر في قبضة يدي اقدر

عليه انا وحدي وآتيك فوق ما تتصورين

- لا تقل فوق ما اتصور لانك لو ادركت كُنْته تصوراتي لما خطر ببالك ان تعذني

هذا الوعد

- فما تطلين فوق السيادة والمجد والثروة التي ليس لها حد

- اطلب فوق ما تتوهم . اطلب ما لا يطاق الحصول عليه . اطلب سرير سلطان مطلق

- التصرف عظيم السيادة ومالاً اذا فاض في باريس اغرقها
- يسرني ان اجد فيك هذه المطامع فاني على مشربك تماماً وهذا الذي اعدك بالحصول عليه على ان تساعدني حق المساعدة بالمشروع الذي اشرعته
- ما عسى ان يكون
- ما اسمك الكريم
- أمتك قينة
- اذن يا قينة جودي عليّ باطلاعي على حقيقة بواطنك سلمي اليّ سرائرك ولنكن روحاً في جسمين وقلباً في صدرين والّا فالرياء بيننا يهدم ركن كل آمالنا
- مهما تسل اجبك عنه صدقاً لا اخفي عنك مثل حبة خردل اكشف لك كل دقائق فكري وضميري
- تتمنين السيادة والثروة
- والّا فالموت احبّ اليّ من البقاء فاني اشتهي ان اتمتع بكل ملذات العالم بكل افراح الناس بكل فخفخة الدنيا أو لا فالكفن والنش
- فاذا عُرض عليك كل ذلك فما تبذلين لنواله
- ما لي ما اعطي ولا بي منع شيء على اني وافقك على كل ما تريد ولو كنت الشيطان في صورة انسان اتاني محتالاً ليقبض روحي فاذا كتبت لي سنداً بذلك اوقع عليه من غير ان اقراه قابلة بكل شرط تشرطه
- لست الشيطان لكن لي قوته حينما اشاء
- فاطلب مني ما تختار جسدي ونفسي بين يديك
- اريد نفسك وجسدك وارادتك بتمامها تنقادين اليّ انقياد اعمى وتسلمين بكل ما اقول وافعل وتطاوعينني في كل ما استخدمك لاجله
- فاحسب اني متاع اشتريته بمالك الخالص لا يخص نفسي من نفسي شيء مذ الآن . لك بي حق التصرف كيفما شئت
- تفعلين كل ما اقول
- كل ما تقول واكثر ان استطعت

- ألا تنقهرين امام شيء البتة

- اقتحم كل هول حتى . . .

- حتى الجناية

- حتى اكبر الجنايات ان لم يؤدَّ غيرها الى السبيل المقصود . فهل ترتاب بخلوص

نيتي بعد الآن

- كلاً فقد اثبت لي كل ثقة علي ان تُقدِّمي معي في السبيل العظيم العازم على سلوكه

- ما هو هذا السبيل

- اذا كشفت لك بواطني وشاركتك في اسرار قلبي واريتك مدخل هذا السبيل

السري العجيب العظيم فاعلمي اني قد سلمت اليك نفسي وجسدي وصار قيادي بيدك

وزمامي في قبضتك تلتفين حياتي اذا شئت وتكونين السائدة علي في كل حال . افهمت

مقدار الخطر ؟

- فلا تكشف لي شيئاً . وقد بذلت انا نفسي وانا على ثقة منك فافعل ما تشاء وسر

في كل سبيل تختار فتراني طوع يدك فحياتي قد عفتها وعيشتي كرهتها فأقدم اماً هلك

واماً ملك

- لكن هذا لا يستطاع لاني احتاج الى رأيك وحذقك وحسن تديرك ولا نصنع

شيئاً من دون مشاركة عقلك فيجب ان اطعمك على كل شيء

- فقل ما تريد ان افعل وما التدابير التي اتخذها وما المهج الذي في طاقتي ان انهجه

- لكي اشرح لك بواطني واطلمك على مكونات قلبي يجب ان اطعمك على كل سر

من اسرار ضميرك . فتعلمين انك تكونين لي كالقمرن الشديد اسلمك سلاحي نحار بينتي

به فيجب ان اتخذ منك سلاحاً ايضاً واقمعك به عند اقتضاء الاحوال . ولا سمح الله

- ما هذا السلاح الذي تسالني

- اعيدي نظراً الى غابر زمانك لعلك تجدين ما يتكلم لي بضمانة كافية من هذا القبيل

فاستغربت في الضحك وقالت اراك يا سيدي البارون لا تفرق بين صدق الكلام

والبهتان ولا تحسن الفراسة

وكان قين اذ ذاك منهمكاً في شربه لا يبالي بشيء فلما سمع ذلك التفت الى اخته

منزعجاً وقال ويلي منك يا قينة ما مرادك ان تصنعي . في كلامك الهلاك ويحك .
فنظرت اليه شزراً وقالت شأنك يا مخنث ان كنت قصبة اذا هب نسيم الخوف فاني
صخرة الوادي لدى زعازع الاهوال فاطلق ساقبك للريح ان اخترت فاني عزمت وعزيمي
لا يتزعزع ولو كان البارون مقدم الدرك بالذات لاطلعت على عُجْرِي وُبُجْرِي وبثته
الحلوة والمرّة

فنهّد قين من اعماق قلبه اذ ينس من اقناع اخته ففتح قنينة من الخمر وافرغها في
حلقة نفساً واحداً لكي يتقل دماغه خدرًا . ثم وضعها وقال على ان لا تخونيني يا شقيقتي
فنظرت الى لوقا نظرة الرضى والانبساط وقالت له ما تريد يا سيدي البارون
فكن على ثقة من كلامي . ان احببت الا يجاز اختصرت او الاسهاب فصّلت قال بل
احب اليّ ان اقف على التفاصيل

فاخذت تقص عليه اخبارها من اولها الى آخرها وقد سبق بيانها في الجزئين الاول
والثاني من هذه الرواية فلا فائدة من اعادة خلاصتها . وما انتهت من حديثها الا وقد انبثق
السحر . ثم قالت للوقا قد علمت الآن يا سيدي ان هلاكي وحياتي بيدك وهذه الثقة
التي جريت معك فيها اما ان تأول الى عقاب او الى ثواب . وما اعدت سلوكي هذا
السبيل الا ضرباً من الحمق . على اني على رأي القائل «انا الغريق فما خوفي من البلل»
فاحكم الآن بما تريد وقل لي ما مرادك ان تفعل بي

- انصبك ملكة يا سيدي قلبي

- ألا تزال تقول هذا القول

- لا ازال لانني انطق بكلام الجدد ووعدني صادق تعتدينه كما تعتقدين ان اسمي

البارون لوقا الكرجاني . فاعلمي انك ستكونين ملكة الليل

- ملكة الليل . ما معنى هذا

- اوضح لك الآن مقاصدي لاني ما عدت اخفي عنك شيئاً . ففي ثلاثة ايام لا

تعود موجودة قينة المغنية . قينة ارملة تنكريد النجكي . قينة امرأة ناخذاة (١) هاور .

(١) الناخذاة فارسية الاصل وجمعه نواخذة وهم ملاك سفن البحر ووكلأؤهم والمراد به هنا

ابن فيليب لوليان لانه كان رئيس تجار البعارج كما سبق الكلام

قينة حبيسة. نذت . تخرج من ظاهر الوجود وتكون الابنة الوحيدة للدوق يعقوب الشميسي كما كانت مرة انيسة الزويرية . وبعد شهر تصير امرأة البارون الكرجاني وبعد سنة يوضع على رأسها تاج الملك . فهذا هو المستقبل السحري الذي انبأك به الغولة وبني وحدي يقوم

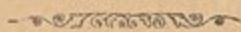
- أفي حلم انا؟

- ليس هذا حلماً . او هو ابتداء حلم بهيج عجيب لا يقظة وراءه

- صدقت مقالك ووثقت بكلامك . لكن لا يقر لي قرار حتى تشرح لي كيف

تم هذه الغرائب

- حباً وكرامة يتضح لك كل شيء وتكون يدنا واحدة في التدبير



الفصل السادس عشر

« نصب الشرك »

ولم يمض نصف ساعة بعد هذا الحديث حتى وقفت عجلة في زقاق الاستفاضة تجاه الباب الخلفي من المنزل الاحمر . وكان فيها لوقا وقينة . فنزل لوقا وطرق الباب طرفاً خاصاً فأتى العبد المعهود وفتح له فقال له ان يعلم مولانته بقدمه مع رفيقين وبعد ان ادار ظهره نظر لوقا هنا وهناك فلم ير احداً فاشار اليهما فنزلا ودخلا بهما واغلق الباب وصعدوا سلماً لولبية الى ان دخلوا قاعة بريقة التي تجلس فيها الناس وتعمل اعمالها

فسأته عن احواله فقال كاد عملي يجبط لو لم يتداركني الطالع السعيد وقد غررت بنفسي هذه الليلة راكباً خطراً جسيماً

- فعسى ان تكون استوفيت حق النجاح

- إبي والحمد لله

وتقدم الى قينة واخذ بيدها وكشف برقعها وقال اعرفك يا بريقة بالسيدة حنة الشميسية التي ستكون امرأتني

فقال لها بريقة (وهي لابسة وجهها الصناعي حسب العادة) يا ولدي المحبوبة لو
لم اكن هرمة شنيعة وتكوني صبية بارعة الجمال لطلبت اليك ان تأتي وتعاتقيني لكن لم
يجمع بين خدودي المجددة وورد خديك النضير
وبعد دقيقة قالت ايضاً قد علمت الان ان نبوتي لم تكن حدساً ولا تخميناً وان
زمان تحققها قد ابتدأ

فقالته حيث يا مولاتي ولولا ثقتي فيك ما اتيت اليك وكان صوتي داخلي يقول
لي اني اجد في منزلك تبشير الآمال العظمى
فالتفتت بريقة الى لوقا وقالت له « والعمل الآن »

- العمل ان حنة خطيبتي لا تخرج من هنا بعد الآن الا لتدخل قصر الدوق
الشميسي فخصيها بحجرة موافقة لراحتها لانها قضت تعاباً شديدة هذه الليلة ولم يغمض
لها جفن

فقالته لها تعالي معي يا مولاتي ومضت بها الى مقصورة صغيرة لطيفة الهيئة نفيسة
الفرش فيها من الاثاث وادوات الزينة ما لا يوجد الا في قصور الملوك والسريير من
الابنوس المرصع بالعاج . وقالت لها هنا تأخذين راحتك وهوذا جرس صغير من فضة
اذا احتجت الى شيء فمالك الا ان قرعيه

وبعد ان مضت بريقة قالت قينة في نفسها هوذا مبادئ السعادة لاشك فيها
ولا اخاف عكساً

وكان قين بعد خروج بريقة وقينة قد طرح نفسه على متكأ بريقة وقال للوقا ترى
يا سيدي البارون ان نصارة شبابي وقوة بنيتي ونشاطي لا تمنع ان يلاشيتي الكلال .
فليس جسم الانسان حديداً كما تعلم

- كن في راحة بال يا اخي فبعد النظر في احوال اختك نظرت في احوالك
- لكن ايها البارون العزيز احب ان تكون منامتي حسنة لان فراشي كان في بيت
لوليان كالجيلب المؤلف من الزغب والزف (١) فكنت اغرق فيه كاني في سحابة فانام
اربع عشرة ساعة كل ليلة على جنب واحد

(١) ريش النعام خاصة

- وانا اسعى ان يكون فراشك على ما تحب
- واعلم انه يلذ لي خصوصاً ان يكون في غرفتي شيء من قناني الخمر الاندلسية
- كخمر أليقننت وشريش ومالقة ونحوها من مدن الاندلس المشهورة
- سيكون لك ما تشتهي
- اما ترى ايضاً ان حلتي هذه وان كانت من حلال الاشراف قد صارت الآن

حقيرة المنظر

- نعم فسترى اذا نهضت من النوم تسع حلال من ازياء مختلفة
- ما اكرم نفسك يا سيدي البارون . فاسمح لي بسؤال آخر
- قل ما شئت
- ما هي ساعة الغداء في هذا المكان
- الغداء الظهر والعشاء الساعة الثانية من الليل
- والاطعمة
- اظن انها تسرك
- هوذا ما صار عليه القرار وكل شيء حسن لم يبق الا ان نظن في امر ذلك

الحساب الحقير

- اي حساب تعني
- انسيت يا سيدي البارون انك وعدتني بان تعطيني خمسين درهماً هذه الليلة
- حق ما قلت فهذا عشرة دنانير
- فبهت قين منذهلاً وقال لعلني وهمت بما سمعت يا سيدي
- ما وهمت فاعطيك الآن عشرة دنانير ثقيلة العيار اي ٢٤٠ درهماً مصروفاً مؤقتاً
- والوقت يأتي باحسن من ذلك
- فالتي قين الدنانير في جيبه واخذ يد لوقا وضما بيديه شديداً وقال قسماً بشرفي
- يا سيدي البارون لك عندي احترام لا يقدر ومكانة من الكرامة لا تُرام فقد اسرتني
- بافضالك . ومشربك اتى طبق مشربي
- وحينئذ دخلت الغولة وقالت لقين انها هيات له غرفة لنامه وفيها كل ما يحتاج

اليه فمضى وارهأ وادخلته الغرفة . وقالت كن كيفما شئت . ثم خرجت واتت الى البارون واخذوا يحوكان شرك الخبث والمكر فقالت له ترى اذن من اغرب الاتفاق شدة الشبه بين قينة وحنة وليس في الامر اقل شبهة

- من اعجب ما يكون يا بريقة لا يفرق بينهما احد ولا امها وابوها
 - أو تظن هذه الفتاة لها فطنة كافية لتقوم في هذه الخطة الصعبة التي اعدناها لها
 - لا اقول الا ان فطنتها تحاكي فطنتك وكفى
 - سلمت . لكن هل يرتاح اليها القلب
 - سلمت الينا نفسها بكليتها وانا الضمين
 - الا يأتي يوم ترى فيه اخلون مناسباً
 - لن يأتي ابدأ فليست مذ الآن تسعى الا مساعينا ولا تلتفت الا الى صواحننا
 لدوام قيام مصلحتها ورهنت نفسها بيدي رهناً وثيقاً وكشفت لي كل بواطنها واسرار حياتها
 ثم اخذ يقص عليها ما اخبرته بالتفصيل عن غابر ايامها . فقالت له الآن اطمأن قلبي وطابت نفسي وصحت ثقتي

- فلنبادر الى السعي اذ ليس في التأخير فائدة . فكم تطلبين من الوقت لتحضير اكسير السبات الذي ذكرته لي (١)
 - لا اكثر من اثنتي عشرة ساعة
 - فمتى صار في يدي لا يبقى الا ان افعل به فعلي . فخذ الغد اترقب الفرصة المناسبة ولا ادع الايام تطول . ثم ألا ترين من الموافق ان تدخل قينة ساعة من النهار قصر الدوق وتظهر امام حنة وامها

- ما هذا الجنون الذي طرأ عليك واي فائدة من هذا
 - لنزيد الثقة وتعرف قينة وجه تصرفها خصوصاً لتكون علم يقين من المائلة العجيبة
 بينها وبين حنة . أفليس من الضرورة ان تعرف قينة والدة حنة وتتداخل بعض المداخلة

(١) يراد بالاكسير حديثاً دواء يركب بصناعة خاصة وبالسبات النوم الثقيل . والحاصل الدواء المنوم

في احوال بينهم لكي لا تعثر في بعض الامور وتنظر الى حركات حنة وكيفية تكلمها
وهيئة لبسها وزينتها حتى لا يفوتها شيء من الاسرار ولا يظهر للدوقة شيء من
مخايل الدسيسة

فاطرت بريقة ساعة متفكرة ثم رفعت رأسها وقالت الصواب ما قلت وانا كنت
على غير هدى فيجب ان تعرف قينة الدوقة وحنة وتدخل القصر في النهار وتلاحظ
كل شيء مما ذكرت

- لكن ما الوساطة

- قد وجدتها

- عجباً هل من سبيل لهذا الامر الذي لا اصعب منه فحياتك لا تطلي صبري

افيدني في الحال

- جاً وكرامة . انت ترى الدوقة اليوم على كل حال

- اراها لا محالة اليوم وكل يوم وتكون حنة معنا

- فاخبر الدوقة اذن انك تلتفت الى صالح امرأة فقيرة مهذبة تنجر بادوات الزينة

تريد دخول القصر لتكشف للدوقة وابتها بضائعا النفيسة من الهند والصين والعجم

وسائر المشرق وقل ايضاً ان هذه العجوز التاجرة تستصحب أمة مغربية لطيفة لابسة

لبس نساء المغاربة ولا تعرف كلمة من اللغة الفرنسية

- فهمت مرادك انت تكوينين العجوز التاجرة

- نعم وتكون قينة الأمة المغربية وانت تعلم ان العادة عند نساء المغاربة ان

يضعن برقعاً لا يظهر منه الا العينان

- فهذه الوساطة تتمكن قينة من رؤية كل شيء ولا تُرى لهاصورة . عشت ونعشت

يا عزيزتي بريقة . ما اسمي فكرك

- فاليوم تجاير الدوقة بهذا الصدد وتفيدني المساء ما تتفقان عليه وانا غداً أهى لوازمي

- هذا هو الرأي الصائب فاعلمي بفكرك الثاقب

- ومضى ذلك النهار ولم يحدث فيه شيء يستحق الذكر فلما كانت الساعة الثالثة

من الليل اتى لوقا وطرق باب المنزل الاحمر ودخل وكانت بريقة في انتظاره فقالت له

ما وراءك

- كل ما تحبين . فقد اتمجت حنة بهذا الخبر حتى صفقة يديها كالولد وقالت امها يكفي ان تكون هذه المرأة تحت خاطرك حتى يكون لها منا كلُّ اكرام . فغداً بعد الظهر تكون الدوقة وابتها في الانتظار بفروغ صبر واطن ان حنة لا تذوق النوم هذه الليلة لشدة فرحها بما ترى غداً

- ان لم تنم الليلة فستنام طويلاً

فلم تخف على لوقادخيلة هذا الكلام بدليل انه سألها حالاً « هل اعددت الاكسير » قالت قريباً . تعال معي . وتقدمت امامه الى باب معملها الكيمي وفتحته فانشرت منه ابخرة كثيفة ذات روائح نفاذة فوقف الى ان تبددت الابخرة فدخلت بريقة واما لوقا فتاخر لانه غير متعود شم هذه الروائح التي تنبعث من البواتق والانايق المختصة بكيميا السموم والادوية المخدرة

فكان هناك موقد من القرميد مملوء جمرًا وعليه انبيق مصنوع من الذهب الابيض (البلاتين) وفي عنقه ملحوم انبوب من زجاج متصل بقرعة (١) من بلور في حجم البيضة وفيها قليل من سائل شفاف احمر كالقرمز حتى يخال من يراه انه ياقوت ذائب فاطفات بريقة النار ورفعت الانبيق بملقط من فضة واتت بقنينة صغيرة جداً سداتها من ذهب تسع عشر قطرات وافرغت فيها ما في القرعة فامتلات . وكانت القطرة تقع فيها ويسمع لها لتقلها صوت معدني . ثم سدتها سداً محكمًا جداً وقدمتها للوقا وقالت له « هذا مفتاح سعادتك ايها البارون »

- اشكر همتك يا مولاني وكيف طريقة استعماله

- سهلة جداً فاعلم ان فعله ينتشر بعد ست ساعات من شربه وانه لا يغير في الرائحة ولا الطعم ولا اللون اذا مزج بالخمر وان كل قطرة منه تنوم ساعة واحدة نوماً ثقيلاً جداً حتى لا تؤثر في النائم هزة ولا هدة ولا تحريك عنيف . وست قطرات معاً تخدر ليلة كاملة وعشر قطرات قتالة . وليس في هذه القنينة اكثر من ذلك

(١) القرعة عند العرب هي وعاء اجوف يتصل بالانبيق وينزل فيها البخار الصاعد من الانبيق قطرات . وكلاهما على شكل الكركرة عند العامة

- فعاقبها الموت اذن
 - نعم يا عزيزي البارون . وعليك انت ان تحم بعدد القطرات التي تستحسن ان
 تسقيها اياها

الفصل السابع عشر

« لَيْلَى »

في الوقت المعين بين لوقا وبريقة كان هو مع الدوقة وابنتها في القاعة الصغيرة من القصر فأتى خادم واخبر ان امرأتين في زي غريب تطلبان الدخول فقال لوقا هما اللتان اخبرتك عنهما يا سيدتي الدوقة قالت فلتدخلا . فدخلت بريقة قد طرحت الوجه المستعار وكيفت وجهها حتى صار من يراها يقول انها مناهزة الستين وملابسها على زي بعيد العهد مشرقى الشكل وقينة ملتفة بملحفة من الحرير الازرق مخططة بخطوط ذهبية وعلى وجهها برقع طويل من حرير نفيس وفي رجليها باج من القطيفة مطرز بالذهب .
 وحينئذ دخل اثنان من خدم القصر ومعهما صندوقان من خشب الارز مرصعان بصدف اللؤلؤ وفتحتهما بريقة واطلعت منهما نفائس الثياب الحريرية بين مدبج ومقصب ومزركش ومطرز وهلم جرا وغير ذلك من ادوات الزينة والحلى فابتهجت حنة بهذه النفائس واختارت منها شيئا كثيرا بلغت قيمته مبلغا عظيما وقامت الدوقة لتأتي بالنقود المطلوبة فنظرت حنة الى قينة وقالت لبريقة . يا مولاتي
 أفناة هذه المرأة المغربية

- نعم يا مولاتي عمرها ثمانى عشرة سنة
 - وكيف وجدت في باريس بعيدة جداً عن وطنها وبيت ابيها
 - ليس لها أب ولا أم وانما الدهر اوصلها الى هذه المدينة
 - مسكينة فهي يتيمة
 نعم يا سيدتي كان ابوها تاجراً من بلاد الجزائر فجمع كل ماله من المال وشدت
 تجرة كبيرة وخرج في سفينة له فأصابها نوء شديد ففرقت وذهبت كل البضاعة وكان

للناس على الرجل ديون كثيرة فعزموا ان يبيعوا ابنته الوحيدة ليلى وهي هذه الصبية لكي يوفوا بعض الديون . فلما رأى عميلي هناك ما صارت اليه المسكينة رقاً لها واخفاها عنهم وارسلها اليّ منذ بضعة اسابيع . وقد رأيت منها لطفاً وخفض جناح ووداعة اكثر مما كنت اظن ولي الامل انها تتعلم اللسان الفرنسي وتعييني فيما بعد في اعمال التجارة

- مسكينة ليلى

- يا ليتها تفهم يا سيدتي انك تشفقين عليها

- أجميلة هي

- بديعة الجمال مثلك يا مولاتي

فما الوسطة حتى تفهم منك وتفهمي منها

لا واسطة الا الاشارة فتفهم كاحذق الناس

- فافهميها اني احب ان ارى صورتها

- امل بعيد يا سيدتي . لو بذلت غاية الجهد لما رفعت برقعها ولا ارتك من وجهها

بمقدار الدرهم لان العادة في بلادهم ان لا تري المرأة وجهها لنصراني ولا نصرانية حتى

اني انا نفسي ما اقدر ان اراها الا على غفلة او وقت نومها

- لكنها هنا في غير بلادها

- سنة الآباء لا تتغير بتغير البلاد

- قد زدتي شوقاً لرؤيتها

- وما الفائدة يا مولاتي عسى انها متى صارت تعرف اللسان تقنعها ان تري

صورتها للنساء

- انا ما اعهدان المسلمات يستترن عن النصرانيات . واما هذه فاستغربت اعتقادها

- لعلمها تخشى ان يبغتها رجل بنظرة لان الرجال هنا يدخلون والنساء موجودات

ولو عرفوا بوجود مسلمة عندهن واما في الشرق فلا يدخل الرجل بيته ولا يواجه امرأته

اذا كانت عندها امرأة مسلمة . وكذا النصرانية عندهم لا تظهر للمسلم . هي سنة قديمة

لا يمكن تغييرها

- على كل حال قدمال قلبي الى هذه الفتاة اليتيمة واحب ان اجعل لها مني تذكراً

قالت هذا ونزعت من عنقها سلسلة ذهبية معلماً فيها صليب من ذهب مرصع
بالجواهر وتقدمت الى ليلى (قينة) وامسكت يدها لتجعل السلسلة في معصمها
فنفرت نفرة شديدة ورجعت مقدار خطوتين فتمجبت حنة وقالت لبريقة قد خوفتني
بهذا العمل فما السبب

- السبب هو ان الصليب اشارة النصرانية فلا تحمله
- نعم نعم . ما فطنت اولاً لهذا . ولكل مذهب علامات خاصة يجب الانتباه اليها
وعند ذلك دخلت الدوقة ودفعت المبلغ قيمة ما اشترت حنة فخرجت بريقة وقينة
في الحال . فقالت بريقة وهما في الطريق لم امتعت عن هذه التحفة يا قينة
- كيف اقبلها من كف فتاة اظهرت لي الخنوع وانا ساعية في اهلاكها والقيام مقامها
في شرفها

- ويحك يا قينة اهذه بسالك التي اخبرت عنها البارون
- بساتي لا تزول وعزيمي لا يضعف غير ان الظروف اعتبارات
- فلعلك اذن تتقهقرين امام مسألة كهذه او اعظم منها
- لا اتقهقر امام شيء ، ولو ادمى فؤادي باطناً لاني منتظرة بفروغ صبر الحظ
الذي سأناله

- فايك يا قينة والا فيكون نصيبك حكم نتت اذا خنتنا بأقل شيء
- يا مولائي لا يخوفني الوعيد فما هذا الذي يلزمني ان اطوعك بل مصلحتي
الخاصة المتعلقة بها مصلحتك

الفصل الثامن عشر

« إجراء الحيانة »

في الساعة الثانية من الليل كان الدوق والدوقة والبارون وحنة على المائدة في
حجرة الاكل المطلة على الجنيحة وكان لوقا جالساً بين الدوقة وابنتها يلاطفها كل الملاطفة
ولم يكن لديهم الا خادم واحد يقضي حوائجهم

فلما انتهوا من الطعام قدم الخادم صحون النقل وقناني الخمر وخرج لبعض الاغراض فأخذ الدوق قنينة بلور منقوشة بالذهب فيها الى نصفها خمر معتقة من اشهر خمور الاندلس . وقال اعلم يا صديقي البارون ان هذا النبيذ من برمبل اهداء الملك لوالدي يوم مولدي . ولشدة احترامنا هدية الملك كنا لا نشرب منه الا في الاعياد والاحتفالات الرسمية . ولذلك بقي منه الى هذه الايام بقية كافية فليس اليوم خمرة اجود ولا اعتق من هذا في مدينة باريس . واذا كان وجودك عندنا في هذه الايام من اكبر النعم التي انعم الله بها علينا احببت ان نشرب جميعاً من هذه الخمرة على صحة الملك فقدموا لي اقداحكم

فقدم كل من الحاضرين قدحه فسكب في قدح الدوقة الى نصفه وكذا في قدح حنة وملاً قدح البارون وقدحه ووقف احتراماً لذكر الملك وفتح فمه ليقول الكلام المصطلح عليه عند الشرب على سرّ مثل هذا واذا بحادث غريب فجائي شغل خواطر الجميع وصاحت الدوقة وحنة صيحة الانزعاج . وترك كل منهم موضعه وتقدموا نحو النافذة المطلة على الجنيّة وهم حيارى

وكان لوقا حين اداروا ظهورهم قد اخرج القنينة التي فيها اكسير السبات وافرغها في كأس حنة بخفة وسرعة عجيبة ومضى وراء الدوق الى النافذة وقال ما جرى يا سيدي ما هذا الذي خفتموه وما عسى ان يكون سببه . قال هذا من اعجب ما يكون وما اعرف له سبباً ولا يخطر بفكري ان اعلل عنه بشيء الا ان يكون بعض الاعاجيب وكان هذا الحادث الغريب الذي اقلق الخواطر انه لمع نور ساطع كنور الشمس او كأنه وميض برق خاطف جعل الظلام نهراً ثم سمع صوت كأنه انفجار المدفع او قصف الرعد بسقوط الصاعقة وارتفعت من الارض سيول من الشرر كأنها لهب اتون محتدم . ثم انطفأ ذلك النور واضمحلت الشرر وكل ذلك في اقل من دقيقة

وبقي الجماعة على النافذة مبهوتين متحيرين وضمت الدوقة ابتها الى صدرها وقالت يا حبيبة قلبي لعل هذه طليعة الخطر المزمع ان يقع علينا لكن لا تخافي فهوذا ابوك وامك وحاميك البارون بين يديك

فقال البارون لا بد ان اكشف هذا السرّ اذ ليس هنا مسألة اعجوبة فيجب ان

يكون لذلك سبب طبيعي

وفي الحال نزل من الغرفة الى الجنيئة وامر الخدم ان يلحقوه بالمصاييح وجعلوا جميعهم يطوفون في انحاء الجنيئة . وما مضت خمس دقائق حتى تقدموا كلهم الى مكان واحد وعادوا في الحال الى جهة القصر

وكان الدوق وصاحبته باقين في النافذة يشرفون عليهم

وصعد البارون الى غرفة الاكل فتلقاه الدوق وقال ما الذي عرفت

- عرفت امراً ليس ابسط منه ولا اقلّ خوفاً انظر ما في يدي

فنظر الدوق والدوقة واذا قصبه طولها نحو ذراعين وفي رأسها لفافة من الورق

المقوّى (الكرتون) مسودّة مفرّرة تنبعث منها رائحة الكبريت وملح البارود

فقال الدوق يا للعجب من اين اتى هذا السهم الناري . قال لوقا لا عجب من

هذا . قذفه بعض الناس من ناحية بعيدة فسقط في الجنيئة

- الحمد لله يا سيدي البارون قد ارحمت افكارنا بهمتك وازلت قلقنا بغيرتك فلنعد

الآن الى ما كنا عليه ونشرب على سرّ الملك

فجلس الجميع على كراسيهم ثم وقفوا وشربوا الكؤوس

فنظر البارون الى كأس فلم يجد فيه قطرة فاطمأن باله وقال قضي الامر .

والتفت الى ساعة معلقة في الحائط وقال في نفسه بعد ثلاث ساعات تجب المباشرة

في المشروع

فلما كانت الساعة الثالثة من الليل خرج من القصر حسب العادة وتوجه رأساً الى

المنزل الاحمر حيث كانت بريقة تنتظره على مقالي النار وبجانبتها قين وقينة

فأول كلمة قالها عند دخوله « كل شيء حسن وهذه ليلة الاجراء » فقالت قينة

وقد ارتجف بدنهما « هذه الليلة نفسها » قال ان كنت قد خفت فما هذا كان عهدي بك

وقالت بريقة احذرْك يا قينة من الفشل فانك صرت في قبضة يدنا وما عاد لك

سلطان على نفسك . فأجابت وهي تهكم قلت لك يا مولاتي ان الوعيد لا يخوفني

وارى انك لا تعرفاني كما انا فلست ممن بهاب الملمات ولا يقدر العواقب غير ان قلق

نفسي عند مباشرة عمل عظيم كهذا يدعو الى ارتعاش جسمي مع اني قضيت حياتي في

مثل هذه المخاطرات الجسيمة • فكونا مطمئنين اذا حانت الساعة ترياني أقدم
اقدام الاسود

فقلت بريقة لوقا اخبرنا الآن ما فعلت وكيف تتمشى الامور

فجعل لوقا يقص عليهم كل ما حدث ولما انتهى الى حادثة السهم شمخ قين بأنفه
وقال حقاً اني فعلت فعل الحاذقين وهذا الرأي الذي ارتأيتُهُ يا سيدي البارون لتحويل
الافكار اصاب احسن اصابة

- ولكن لو تأخرت دقيقة لغات الغرض

- ألت عارفاً بمجري الامور وقد قضيت النهار اترقب هذه الدقيقة حتى خلت

الازقة من الناس فرميت السهم في اول فرصة واني افتخر بحسن تصرفي في وقته

- لك الفضل ايها السيد المحترم فلا بد ان تكافأ على صنيعك

- على كل حال هذا الذي آمله

- وانت يا بريقة هل بقي عليك شيء

- هيات كل شيء

- كيف السلام

- خفيفة متينة تتركب الواحدة من اربع قطع فيسهل حملها ونقلها

- وكروسي الجمالين

- حاضر في القاعة السفلى

- والملابس

- على عضائد الكرسي

- وحلة قينة

- كحلة حنة تماماً التي كانت عليها البارح

- فما بقي الا ان اخبر رجالي في هذه الساعة

ثم قام وخرج فلقي خادمة معبلي وكان قد اعلمه بأمر تلك الليلة ومضى معه الى
حانة تعرف بحانة المعلم جرجور وكانت ذات ثلاثة منازل منها واحد عام واثنان خاصان .

فتقدم معبلي و اشار الى جرجور اشارة معلومة بينهما ورجع وقال لوقا ان الرجل ينتظر

في المنزل الايمن . فضى لوقا وكلمة ونظر الى المنزل العام من نافذة وقال له اذهب الى ذلك الرجل المنفرد في تلك الزاوية وقل له ان واحداً يريد مقابلتك . ولئلاً يرتاب خذ له هذا الخاتم ليراه

وانتزع من اصبعه الخاتم الذي عليه رسم المشعل
فضى جرجور وارى الرجل الخاتم فأنى في الحال وقابل لوقا ولم يعرفه لاستتار وجهه
بختار البرنيطة وارتفاع طوق جيبته على عنقه فقال له انت تريد مقابلتي

- نعم يا أبا بدر

- من قبل المعلم داود اتيت

- نعم

- فربما تحب لانني مقيم في هذا المنزل بأمره منذ ثلاثة ايام لا ابرح (قد مرت
الاشارة الى منزلة هذا الرجل ابي بدر عند المعلم داود زعيم المشاعلية وكان لوقا يسمي
نفسه هكذا لمقاصده الشريفة)

فامر لوقا المعلم جرجور ان يأتي بقنينة شراب فأنى بها ووضعها على الخوان ورجع
فقال لوقا قد خلانا المكان فلتحدث

وكان ابو بدر واقفاً امامه يتفرس فيه وهو كالمتهجير فقال له عجباً كأنك لا تعرفني
- يا سيدي لا اعرفك معرفة تامة وارك تشبه المعلم داود وان كان اكبر منك بعشرين
سنة لكي ارى عليك هيئة الاشراف وهذا ما حيرني فهل انت من اقارب المعلم داود
- بل انا هو نفسه

- اظنك تهزأ بي

- لا بل اقول الحق والاولى ان اقول لك ان ليس في الدنيا احد اسمه المعلم داود
غيري فانا اتزياً بكل زي تحت هذا الاسم ولكي تكون على يقين اخبرك بكل ما وقع
بيننا في الماضي واعلمك اني الآن في زيي الحقيقي

ثم صار يخبره بأمر كثيرة جرت بينهما حتى علم ابو بدر الحقيقة فقال له انت
الشیطان على ما ارى

- لست اياه ولكني الرئيس الاعظم لزمرة المشاعلية وعلى تنوقف سعادتهم كلهم

وسعادتك أولاً وأطلب اليك ان تختار بين السعادة والشقاء

- بل اطلب السعادة واريدك سالماً فرب بكل ما تريد تجدني طوع امرك
- واحب ان تكون هذه الطاعة من غير تكلف
- فاذا كان الامر كما تطلب فهل تضمن لي الثروة
- اضمن لك حافلاً بأعظم الاقسام ثلاثة آلاف درهم كل سنة
- وفيها الكفاية واكثر وبناء على ذلك اكون آله يديك تحركها كيف شئت ولا
- حكم لي على نفسي الآن والى اقتضاء الاجل
- فأطلب منك الآن رجلاً شديداً الساعد قوي القلب مجرباً في الشدائد
- عندي اكثر من عشرين رجلاً بهذه الصفة لكن احسنهم القوقلي
- اين يكون الآن
- كم الساعة يا سيدي
- باقى الى نصف الليل نصف ساعة
- فلا شك انه في مأواه تحت قنطرة الجسر السيدي
- فاذهب اليه وكن وياه في انتظاري الساعة الاولى بعد نصف الليل والقافكا في
- شارع السنونو قرب كنيسة سيدة الآلام
- سمعاً وطاعة وهل تستزم المسألة سلاحاً
- ليتقلد كل منكما سيفاً وكفى
- وكان ابو بدر قد جرع قبل الحديث من قنينة العرق جرعة كبيرة فذهب بنصفها
- وقبل خروجه ذهب بالنصف الآخر ومضى لعمله وقام لوقا ايضاً وخرج وقد ناول صاحب
- الحانة ديناراً ولقي معيلى في انتظاره على الطريق
- فلما كانت الساعة المعينة اقبل لوقا ومعيلي الى الميعاد فوجد الرجلين ابا بدر والقوقلي
- كامنين في احدى الزوايا فمرقاه وظهراله فالتقى عنان فرسه في يد معيلى وتقدم الى
- الرجلين فسلم عليه سلام الاحترام والخضوع . وكان القوقلي عالي الهيكل عريض المنكبين
- متين العصب . فأمرهما ان يمضيا وراه ومعيلي وراهم وتقدموا حتى دخلوا زقاق
- الاستفاضة فاخرج لوقا المفتاح المعهود وفتح الباب ودخل بهم

ولم يكن هذان اللصان يعرفان ان للمنزل الاحمر باباً من تلك الجهة فما عرفا انهما
دخلا عرين الغولة

وكان عند اسفل السلم مصباح صغير فأخذهُ لوقا ودخل واياهم القاعة السفلى حيث
السلام والمحمل والملابس المعهودة . وكانت بدلتين واحدة لمعيلي وواحدة للقولي وهما
المعدان لحمل المحمل

وبينما هما يلبسان صعد لوقا الى الطابق الاعلى فوجد بريقة والقينين وحلما وقع
نظره على قينة جمد متعجباً لان قينة كانت لابسة حلة كحلة حنة على التمام لا تنقص ولا
تزيد شيئاً وكل ما على رأسها من هيئة وشكل ولون طبق ما على رأس حنة فظن انه
يرى بنت الشميسي امامه او انه في منام . فقالت له الغولة ما تقول في هذا التقليد
- اقول ان كل شيء حسن غريب الحال وان الظروف تساعدني على نوال مرامي
واني لا اتأخر دقيقة في مشروعى ولو اقتضى سفك دمي

فقال له قين وانا ما تقول في يا سيدي البارون

- من احسن الرجال هيئة ووضعا حتى اظن انك غير السيد قين الاندلسي
فصار قين يرم شاربيه عجباً بنفسه وقال للبارون اعترف يا سيدي انك حاذق
صادق النظر نعم ان اللباس لا يقيم الفنى لكن الريش يزين الطائر فأنا من طبعي صاحب
هيئة وظرف فاللباس الحسن يظهر ما يخفيه الملبوس الزري الذي ليس من مقامي
وكانت بدلة قينة بالحقيقة فاخرة كلها من حرير ومخمل بطرازات ذهبية والوان بهية
فقال له البارون حقاً ان الذي يراك لا يقول الا انك من اعيان الفرسان المتقدمين
في البلاط لكن يسؤني ان اخبرك ان تغيير هذه الحلة الذي لا بد منه الليلة يعود بك
الى هيئة اسافل القوم

- لم التغيير يا سيدي

- لان مسيرنا هذه الليلة ليس الى محل قصف ورقص فيجب ان تلبس كلبسي
ثم رفع جبته واره حلتته وكانت سوداء كالليل لا زخرف فيها ولا قيمة لها وقال له
امض في الحال والعجل واخلع ما عليك وتزي بزري
فلم يحتمل كلامه تردداً في الاجابة ومضى قين حسب اشارته ولبس كما قال وعاد

حالا فصوب البارون فعله وشكر همتة واثني على طاعته واما هو فاسف على ترك
اللباس الفاخر

واما بريقة فمضت واخرجت من جرارة علبهٴ مر بعة صغيرة وقدمتها للوقا وقالت
هوذا ما سألتي

ففتح لوقا العلبه فكانت مقسومة الى بيتين في احدهما قلم من فولاذ في راسه قطعة
محددة من الالماس وفي الآخر كرة صغيرة من الزيت

فانحنى قين ليرى ما فيها وقال وهو لا يعقل ما وراء كلامه «وي هذا ما نحتاج اليه
فيه لخرق الزجاج من غير ان يسمع صوت . واني لخبير بهذه المصلحة » فلما قال ذلك
صنع الخجل وجنتي قينه وصارتا كالقرمز القانيء لان سر اخيها انكشف وعرف انه
لص مجرب

قال له البارون ما كان يخطر ببالي ايها السيد ان خرق الحرز (١) حرقه لك

- كيف ذاك هل نطقتم بهذا الكلام انا

- تقريرا

- فلا ارجع في كلامي وكيف تريد يا سيدي اذا عرض للانسان في احوال الحيوة
بعض المشاكل أفلا يجب حلها بأي طريقة كانت . فما الذنب على الحرف بل الذنب
على سفاهة الناس

- حسنا اعتذرت . لا فض فوك

وعند ذلك كشف لوقا الساعة فوجد انه فات نصف الليل بساعتين فقال هوذا
الوقت . اين يا بريقة وجه قينه المستعار قالت ها هو وناولتها اياه وكانت قد التحفت
بجبة ذات قبع كبير . ثم قالت للوقا وفق الله مسعاك ايها البارون واعلم اني اسمهر هذه الليلة
اعد الدقائق الى ان تعود . وقالت لقينه اراني الله وجهك بخير يا سيده حنة الشميسية
ونزل لوقا والقينان الى القاعة السفلى وجلست قينه في المحمل وحملها معبلى والقوقلي
واخذوا قطع السلم ومضى الجميع يخلصون الخطى وبراقيون الطريق . وكان خروج الناس

(١) هو في اصطلاح الفقهاء عبارة عما يفعله اللص من كسر او هدم او نحو ذلك ليدخل
البيوت ويسرق

نادراً جداً في ذلك الوقت لشدة برد الليل وقلة اكتراث العسس بنوادير الحوادث
وتكاسل اللصوص عن الجولان

فلما بلغوا سور الجنينة من جهة الشارع القلوي امر لوقا بالوقوف وقال لمعيلي والقوqli
تقدما واسمعا ما اقول لكم . اما انت يا معيلي فتذهب وتكمن على مسافة خمسين خطوة
من هنا في منعطف شارع خندق النصر واذا اتفق مرور احد فاياك ان تدعه يتجه نحونا
واذا اقتضى الامر فامنعه بالسيف . وانت يا قوqli تجلس على خمسين خطوة ايضاً في
الشارع القلوي وتحافظ على الطريق . واذا اتفق مرور العسس واظن ذلك فوق العادة
فاسرعا الى المحمل وابعدا به اختلاصاً الى ان يفوت المخدور . واذا سمعنا من جهتنا
صوتاً مريباً فارجما اختلاصاً ايضاً ولا تدنوا من جهتنا اذ نحن ثلاثة فينا الكفاية للدفاع
عند اللزوم

فمضى الرجلان كما قال لوقا وتقدم هو وقين وابو بدر الى السور واحكموا تعليق
السلم بشناكل من حديد وصعدوا وتقدموا الى ناحية القصر

يرجع حديثنا الآن الى ما حصل لحنة . كانت هذه الفتاة التقية عند ساعة النوم
تدخل مقصورتها وتخلع ثيابها النهارية وتلبس حلة الليل وتركع وتصلي صلاة موجزة حارة
وتنام متكئة على عناية الحارس الامين . واما تلك الليلة فكانت قد شعرت بخدر في
جسمها ودماعها وثقل في رأسها وعينها كان يزداد بتعاقب الدقائق فلم تبال به لانها لم
تعرف سببه . فدخلت غرفتها على عادتها وركعت لتصلي امام مصلاها فكانت لا تعقل ما
تقول كأنها سكرى او في غيبوبة . فنقلت اجفانها وضاع رشادها فاتكأت على المصلى
وغرقت في سبات ثقيل

واما امها فكانت على ما يعهد دائمة القلق والوساوس لا يقر لها قرار في ليل ولا
نهار . وفي الليل خاصة كانت تنقلب على مهاد الهواجس والاضطراب فلا يغمض لها
جفن الا غراراً (١)

وزاد قلقها في تلك الليلة بدليل القلب الطبيعي وبتنبها خاصة لحادثة السهم لان
فكرها لم يقنع بان تلك الحادثة اتفاقيه . فما استقرت في فراشها بعد دخول حنة غرفتها

(١) يقال فلان ينام غراراً اي نوماً قليلاً كالغفلة مثلاً ثم ينتبه

حتى نهضت وفتحت باب ابنتها بلطف ودخلت فوجدتها منحنية على المصلى على الحال التي وصفناها فلم تنبه لدخول امها فتقدمت اليها ووضعت يدها على كتفها وقالت . حنة . استيقظي يا ولدي . فانتهت حينئذ كأن عقلمها عاد الى صحته وجرى الدم في عروقها والتفتت الى امها وقالت ما كنت نائمة يا أمي

- فهل شعرت بفتح الباب ودخولي

- لا

- كنت في غيبوبة الصلاة

- ولا كنت اصلي

- بل كنت تتأملين

- ولا هذا ايضاً

- فما كنت تصنعين اذاً

- ما اعرف . شعرت كأن سحابة كثيفة غشيتني وكأن فكري خمد وكنت كاني ارى من خلال ضباب . وما اعرف اني نمت قطعاً

- فهل تشعرين بشيء من الألم

- لا . ولم هذا السؤال

- اراك مصفرة . وهذا الاصفرار شعرت به بعد العشاء فاشتغل بالي وما قررت قراري حتى اتيت فرأيتك قد ازداد

- لا يشغل خاطرك هذا يا أمي لاني في اطيب عافية هذه الليلة أكثر مما قبلها . ولعل

مابي نتيجة تعب ونعاس ولا سيما في هذا الوقت عند نصف الليل . نعم اشعر بثقل في رأسي وهذا امر لا بد منه حينما يسقيني ابي اصعباً او أكثر من الخمر الجيدة وهذه الخمر خصوصاً شديدة الفعل سريعة التأثير

فعاقتها الدوقة وخرجت وهي عازمت على الرجوع بعد ساعة

واما حنة فجلست امام سريرها واخذت رسالة خطيها لتقرأها قبل ان تنام حسب عاداتها . لكن حالما القت عليها نظرها وقرأت سطرين اضطرب بصرها وعاد الخدر الى دماغها

وقد عرفنا طبعاً ان هذا الفعل ناتج عن اكسير السبات فانه اثر بأقرب وقتاً مما ظننت الغولة لان الكمية كبيرة جرعت دفعة واحدة وجسم حنة لطيف غير متعود مثل ذلك

وشعرت المسكينة بازدياد خدر اعصابها عما كان في المرة الاولى فحاولت المقاومة جهدها واستطاعت بعد العناء ان تطوي الرسالة وتضعها في جيبها وتطفىء القنديل وتنطرح على فراشها وتلتف بالغطاء ولم تلق رأسها على الوسادة حتى صارت في غيبوبة شديدة واستحوذ عليها سبات ثقيل

وبعد نحو ساعة عادت الدوقة لتفتقدها كما اشرنا فوجدتها غارقة في نوم هادٍ لا يختلج لها جفن . فلست يدها على جبينها وقبلتها وانصرفت مطمئنة ولنعد الآن الى ذكر ما فعل لوقا وصاحباها فانهم تقدموا في الجنيئة بمشون همساً ومعهم قطع سلم اخرى . وكان لوقا في المدة التي اقامها في القصر يتفحص كل مدخل ومخرج في داخله وخارجه حتى صار يعرف مسالكه ومقرآته كاحذق جاسوس في مدينة العدو . فوصل بهما تحت نافذة الغرفة النائمة فيها حنة وقال هنا نصب السلم ففعلا كما اشار . ثم اخرج لوقا وجهاً مستعاراً وعلقه على وجهه واخذ في يدو فانوس الحرامية وكان معبلي قد استصحبه لهذه الغاية . ورقى السلم الى ان بلغ الطنف (١) المشرف من الطبقة العليا من القصر فمشى عليه وبلغ النافذة فألصق وجهه على الزجاج ونظر فاذا الظلام حالك فكشف حجاب فانوس قليلاً ووجهه نوراً خفيفاً الى انحاء الغرفة الى ان رأى حنة على سريرها وعلم من هيئة وجهها انها في اثقل سبات فحجب النور ورجع الى صاحبيه فقال له قين كيف وجدت الظروف

- على احسن حال والظفر مؤكد . والآن يا اخي اتت نوبتك للعمل

- اي عمل لي هنا ويلاه

- قد عرفنا انك تتقن صناعة الماسة والزفت فخذ هذه العلبة واصعد في الخال

واثقب زجاج الشباك بحيث تدخل اليد وتفتح الشباك من الداخل وتعمل لنا اشارة

فنصعد اليك

(١) هو ما يسمى عند العامة . بالبلكون . من الافرنجية

فخفق قلب قين عند ذلك وما كان يظن انه يكلف الاقدام على هذا الخطر العظيم . فتململ واراد ان يعتذر بتلفيق لا طائل تحته وقال لوقا . وكيف يا سيدي . . .
- لا تحاول الجدال وتلفيق المعاذير فالوقت قد ضاق والانمام لا بد منه وليس غيرك يقوم هذا المقام

وكان قين يهاب لوقا كما يخاف الخطر القادم عليه لكنه اختار امون الويلين والمهجوم على ابعد الخطرين فتناول العلبه والفانوس ورقى السلم وبلغ الشباك فالصق كرة الزيت بالزجاج الصافاً شديداً وخط حولها بالماسه دائرة على قدر قبضة اليد ثم حرك يده بالزفت فانترع بخفة قطعة الزجاج ومد يده وقتل لاقطة الشباك (اي الفاكورة) برشاقة وفتحه من غير ان يسمع له اقل صوت . وعاد الى حافة الطنف وانحنى ووضع يديه حول فيه وقال « هلم » فصعدا عجبلاً

وكانت الدوقه بعد ان غمض جفنها وهي مطمئنة قد شعلت نفسها احلام مخيفة مختلفة التأويل وكنها شعرت بكابوس اثقل صدرها وضيق نفسها ورأت كأن الخطر المزمع ان يقع على بنتها قد قرب جداً فارادت الهوض من فراشها فلم تستطع حراكاً وحاولت رفع صوتها بالاستغاثة فلم تطاوعها حنجرتها وشعرت كأنها تسمع حشرجة (١) خيل لها انها حادثة من احتضار بنتها حنة وهي تجود بنفسها (٢) . فاضطربت اضطراباً شديداً وصارت تتصور وتململ على فراشها والكابوس يشتد عليها حتى ضاق صدرها وكادت روحها تبلغ التراقي (٣) وثملت عليها هذه الاحلام الشديدة الهائلة

وفي تلك الاثناء كان لوقا وصاحابه يتشاورون فقال لوقا ندخل ثلاثتنا فيدخل اولاً ابو بدر فيجد عن يمينه سريراً عليه حنة منطرحه فيلقبها بغطائها ويحملها ويعينه السيد قين وانا رقيب اراعي الانحاء والحركات

فقال ابو بدر واذا اتبتهت وصاحت فما يجلب بنا

(١) الحشرجة الفرغرة وتردد النفس عند الموت

(٢) الاحتضار دنو الموت يعبر به عن ساعة النزح . ويقال فلان يجود بنفسه اذا كان في آخر ساعة من حياته وهي ساعة النزح ايضاً

(٣) التراقي اعالي الصدر يكنى بيلوغ الروح التراقي عن قرب الاجل بخروج الروح من الفم —
(تفسر ما تفهمه الخاصة لكي تدركه العامة)

- لا تخف من هذا القبيل فلن تنتبه ولو قطع من لحمها
- فهمت فهمت . وقد احكمت الحيلة يا سيدي
- لا بد في ظروف كهذه من احتياطات شديدة . ثم اتناولها انا على رأس السلم وانزل بها وتتبعاني

ثم كشف حجاب الفانوس ودخل الرجلان وباشرا العمل ولفها ابو بدر بالحاف وحملها وهو لا يجد لها ثقلاً واراد الخروج بها وقد سبقه قين الى الشباك ولوفا يده القنديل يضيء لها نوره الخفيف

فيا للاتفاق الغريب ويا لحبط المسعى وخيبة الامل . كاد هؤلاء الخبيثاء يذهبون بالفتاة الشمسية وينجون كفلات العصفور من القفص واذا بباب الغرفة انفتح واشرق فيها نور ساطع والدوقة واقفة بالباب ويدها مصباح وقد جددت متحيرة منذهلة وهي لا تكاد تصدق ما ترى وتظن نفسها باقية في احلامها ثم انجلت لها الحقيقة باقل من خفو البرق وصاحت صيحة كما تزار اللبوة وهي ترى اشبالها تذبج امامها

وسقط القنديل من يدها فانكسر وانطفأ ووثبت كالتمر الحردان الى ابي بدر وتقبضت بكلتا يديها على عنقه وصررت عليها اصابع اخذت حينئذ قوة برائن الاسود . فتضعض من هذه البعثة والقي حنة على فراشها وصار يحاول حل تلك الاصابع وهو يصيح صياح المخنوق . وعبئاً عالج الخلاص وكان يظن ان يديه الشديدين تضعفان عن حل اصابع امرأة لطيفة كما تضعف قطعة الرخام عن قلع اصابع من فولاز وما كانت هذه القوة في الدوقة الا نتيجة حنق شديد وخوف عظيم . وما عادت ترجو الحياة الا للانتقام ولا تبالي بعده بشيء هلكت او سلمت

وكان لوقا قد حجب نور الفانوس وحلك الظلام داخل الغرفة . واما قين فكان قد انسل وهو لا يصدق بالنجاة واعاره الخوف جناحي نسر وساقمي نعامه ووقف لوقا متحيراً واختبط دماغه اختباطاً شديداً وبقي كالمأخوذ لا يدري ما يفعل في تلك الشدة . وكان يسمع صوت ابي بدر المخنوق وضجة في داخل القصر تزداد كل ثانية . لان صراخ الدوقة كان قد ايقظ الجميع فهبوا مدعورين وهجموا بأسلحتهم على غرفة حنة

فأفكر لوقا قائلاً إذا فررت وتركت ابا بدر فلا بد ان الدسيسة تنكشف لانه يقول لهم اني استخدمت ولا جنحة على المستخدم . ويذكر صفات لوقا وما رأى من شدة الشبه بين حنة وقينه (لانه كان قد صرّح بذلك اول ما رآها وانكر لوقا وقين ما لاحظته فلم يقنع واطهر ان في المسألة دسيسة منكورة .) ولذلك ما عاد في طاقة لوقا ان يتركه واراد تخليصه ولو ادّى الى هلاكه . ففتح الفانوس حتى ظهر منه نور بقدر ما يهتدي به واستل حر بته ودخل ورفع يده ليطعن الدوقة بين كتفيها فكاد يقضي عليها لو لم يخطر له خاطر اوقف يده عن الشر . فقال في نفسه اذا قتلها فلا فائدة لي بل بالعكس يستلزم الامر حداً طويلاً وتغيراً بيناً في الاحوال ولا يعود سهلاً تزوج حنة . فادار الحربة وضربها بقبضتها على رأسها ضربة طرحتها غائبة عن الوجود ولم يقصد ان تكون قائلة فتنفس ابو بدر حينئذ قائلاً الف شكر لهمتك يا سيدي فلواتخرت دقيقة لتقضيت محبي

كل ما جرى لم يستلزم من الوقت اكثر مما تستلزم قراءة الخبر
واسرع الاثنان الى السلم فاذا هي مفقودة . فطار صواب لوقا واضاع رشاد ابي
بدر وصاروا يبربران ويشمان بكل شفة ولسان
وكان صاحبنا قين (رحمهم الله) هو الذي فعل هذه النكته اللطيفة فانه اسرع
الكربة عند ظهور الدوقة وحاملاً بلغ الارض قلب السلم خوفاً من ان يتبعه احد وهذه
كانت فطرتة ان لا يلتفت عند الشدائد الا الى نفسه
واما البارون فاسودت الدنيا في وجهه وانطبقت عليه السماء وقامت عيناه في ام
رأسه ولم يبق له وقت للتفكير وكانت اصوات الاقدام قد تدانت من الغرفة . فباتفاق
غريب خطر له ان يقفل الباب لكي يعوق دخول القادمين فدخل واقفله وبمساعدة
ابي بدر التي وراه اثقل ما وجد من الاثاث . ثم يبداه عجيبة وهو يجيل نظره رأى
سجوف (١) الشبايك فانتزعها وجدلها وربط بعضها بيمض ربطاً متيناً وعلقها في
حافة الطنف وامر ابا بدر ان يتدلى ثم تزلق عليها بعده . ولم تطل قدماه ارض الجنيحة
حتى سمع هدة الباب في الغرفة وكان اهل القصر قد دفعوه دفعاً عنيفاً حتى انكسر

فقال لوقا نجونا بخرقة الرجل واسرع هو ورفيقه الى طرف السور فنظر لوقا وعض
انامله حنقاً ولطم وجهه غيظاً وياساً وقال هلكننا لامحالة
وكان قين قد قلب السلم هناك كما فعل اولاً

وتزايدت الانوار في غرف القصر وكان الدوق وحاشيته يطوفون في جوانبه
ليهدوا الى اللصوص القتلة . ثم نظر لوقا واذا بباب القصر النافذ الى الجنيحة قد انفتح
وخرج منه الجماعة وبايديهم المشاعل . فقال تباً وتعساً للخائن الجبان النذل الغدار .
والف لعنة على هذه الليلة المشومة . هلكننا الآن تباً . لكن سأبذل سبفي فيهم ولا أقتل
حتى اجري الدماء نهراً

وفي تلك الدقيقة سمع صوت معلى يدعوه من تحت السور ويقول يا سيدي البارون
الخطر قريب فما تريد ان تعمل

- ان تخلصنا ويالك في الحال والعجل . انصب السلم

- حاولت يا سيدي فهي ثقيلة وانا وحدي

- شدة عزمك ويك وابذل غاية جهدك

فصار المسكين يحاول رفع السلم فلم يستطع ونادى رفيقه القوقلي فلم يسمع لانه
كان بعيداً بحرس قينة ولم يعلم شيئاً مما جرى وانما كان مجيئاً معلى بالصدفة

وصار لوقا في تلك الشدة يتنف شعره ويمزق طوقه ويخدش صدره حنقاً . وانتشر
الخدم في الجنيحة وهم يجولون هنا وهناك مسرعين وبايديهم السلاح ثم دنا واحد منهم
من جهة لوقا ورفيقه ورأى شبحيهما على ضوء المشعل فصاح . هوذا اللصوص هلموا الي .
فترا كض الجميع وهم يصيحون . عليهم عليهم الاشقياء

واذا بالدوق يصيح بهم ويده سيفه ويقول دعوهم لي انا . انا وحدي اشفي غليلي
منهم . لا يدين منكم احد . فتأخروا وتقدم وهو يزجر ويهدر كالبعير الهائج

فاخرج الدوق غدارة وقال لابني بدر لعل هذا الاتفاق ينجينا فاني اقتل هذا الرجل
فيتهاقت عليه خدمه ويلتمون به فنغتم الفرصة وتدبر طريقة للنجاة ثم خطا نحو الدوق
حتى بقي بينهما خمسون خطوة فوضع اصبعه على الزنبرة وقال بعد اربع خطوات اطلق
الرصاص . وفي الحال سمع ابو بدر صوت معلى في الشارع يصيح قائلاً يا سيدي

البارون ياسيدي البارون نضبت السلم اسرع الي . فنادى لوقا وقال له هلم عجلًا قد نجونا

فالتفت لوقا وتوقف وقال اصبر اصبر

- عجبًا ما هذا الصبر والخلاص قريب

- لا تخالفني خذ سيفك ودافع عن نفسك

- أَدافع مِن

- دافعي ولا تقل كيف ذاك

فامتثل لامره ولم يفهم المراد وتقدم اليه البارون وجاوله واشتبك السيفان

وبعد نحو دقيقة قال له اهرب الان امامي لترى ما انا صانع وانزل في السلم

فلم يدر المسكين انظن انك تنجو مني . واطلق عليه غدارته فوقع صريعاً يتشطح بدمه

ايها النذل الجبان اتظن انك تنجو مني . واطلق عليه غدارته فوقع صريعاً يتشطح بدمه

فقال لوقا في نفسه حسناً عملت لان هذا الخبيث قد عرف الدسيسة فبهلاكه مصلحتي

وكل هذا جرى في لحظة كما قلنا وحينئذ وصل الدوق الى لوقا فتقدم اليه وقال

له . يا سيدي الدوق باتفاق غريب ارسلني الله في هذه الساعة العظيمة الويل لا تقذ

هذه العائلة الشريفة من مصاب ما فوقه مصاب

وكان الدوق على جانب عظيم من طهارة القلب وسلامة النية . فلم يخطر بباله ان

يبحث عن السبب الذي اتى بلوقا الى الجنيحة في اخريات الليل والابواب مغلقة . وكان

يعتقد كل الاعتقاد انه المتخذ الوحيد لعائلته من الخطر المنذر به فكيف يلوح له ان في

اعمال لوقا شيئاً من الريبة ولم يظهر له منه سابقاً الاكل صلاح واستقامة سيرة

الفصل التاسع عشر

« التسليم الاعمى »

فلما سمع الدوق صوت لوقا ووقع نظره عليه وضع يديه على عينيه وصاح من فواد

محروق واسفاه يا ولدي . نام عصام ساعة الرحيل (١) فات الوقت فات وما اجدى

وجودك نفعاً

(١) مثل يضرب لغيبة الشخص حين الحاجة اليه

- ما تقول ياسيدي الدوق ارجفت بدني ما الذي جرى واي الخطوب وقع
فلم يعد في طاقة الدوق الكلام والتي يديه على عنق لوقا واسند رأسه على كتفه
وصار ينتحب كالطفل فلما انفثت لوعته قال وهو يتلجلج ويلاه واحسرتاه حل المصاب
نكبت عائلي فقدت ركن حياتي وزوجتي وابنتي يا لوقا
- يا للداهية ياسيدي كيف فقدت زوجتك وابنتك
- فقدتهما نعم . ماتتا . قتلنا الواحدة بجانب الاخرى
- ما هذا الوهم ياسيدي هذا مما لا يحتمل التصديق هل رأيت بعينك هل تحتمت
- رايت حنة منظرحة غائبة عن الوجود وامها دامية لا تعي على الدنيا وليس فيهما
عرق ينبض . فطار صوابي وما عدت املك رشداً وثمرت في اثر هؤلاء اللصوص
الاشقياء فسبقتني وقتلت احدهم ولم اشف غليلي

- ياسيدي انا اعتقد ان قلب الانسان دليله واني في هذه الساعة اسمع صوتاً داخلياً
ينبئني ان جزعك في غير محله واني ارجح بل اثبت بدليل ضميري وشعور قلبي لما يبني
ووينكم من العلاقة ان سيدتي الدوقة وابنتها في قيد الحياة وان وهمك اراك خلاف الحقيقة
- كيف يمكن هذا . آه يا ولدي عسى الله ان يعطيك حسب نيتك الصالحة تعال
معي لترى

فضيا ودخلا الغرفة وهي في حالة عجيبة من الانقلاب ودلائل الويل . وحالما
تفرس الدوق في داخلها صرخ صراخ الاتهام والتعجب معاً . فقال له لوقا اما قلت
لك هذا . اما دلني قلبي على الصحيح فها هي سيدتي الدوقة حية
وكان الامر صحيحاً لاننا ذكرنا ان البارون لم يضربها ضربة قاضية بل اراد
تخدير دماغها فلما سقطت لطم جبينها بكسر القنديل فانجرح وسال دمه ثم عاد اليها
وعبها بالتدريج لكن بقي عقلها شاردًا لا اختلاط دماغها من ضربة لوقا فكانت جالسة
على حافة السرير وهي تنظر على غير هددي وكانها سكرى لا تعي على شيء مما جرى
ثم قال الدوق واما حنة . وا والداه . فاراها جثة بلا روح

- لا يا سيدي لا تدل هيئة وجهها على الموت فارجوك ان تقوي قلبك وتضع يدك
على صدرها

- فقدم وفعل ما قال واذا بجبينه قد اشرق فقال لوقا كيف ترى
 - الحمد لله . الحمد لله . قلبها يضرب . حية هي باذن الله
 - قلت لك انها نائمة وهيئة وجهها لا تدل على الموت
 - لكن يا للعجب ما هذا النوم الثقيل كيف لم تنع على كل ما جرى
 - لا بد ان عدم افاقها نتيجة رعب ذهب بعقلها وقلبها فأغشى عليها
 - هذا محتمل كل الاحتمال

وكانت الدوقة ايضاً قد رجع اليها صوابها فصوّبت كلام لوقا بهذا الصدّد
 وهكذا صار الجميع على يقين من زوال الخطر عن الام والبت وفاض قلب الدوق
 بالفرح بعد ذلك اليأس العظيم . وحينئذٍ سال البارون عن سبب وجوده في الجنيّة في
 تلك الساعة غير المنتظرة وقد احتار من هذا الامر . فقال بريانه الخاطي « بعد ما خرجت
 من القصر قاصداً مضجعي بقي فكري مشتغلاً في قضية هذا السهم الناري الذي سقط
 في الجنيّة وما اعهد سبباً في هذه الناحية لرمي سهم نارية في تلك الساعة . وفضلاً عن
 ذلك لم يسببه ولم يعقبه سهم آخر فاحترت في امره . وقلت لعله طليعة شرّ اعادنا الله
 من ويلات هذه الليلة . فلما بلغت منزلي اردت ان انام وقلت غداً ابحث عن هذا
 الامر فبقيت قلقاً نحو ساعة غير ان الحفرة التي اكرمتي بقدرح منها لم اعهد لها نظيراً
 فكانت شديدة الفعل واثرت بي تحديراً كافياً لان اغض جفوني فتمت . وبعد نحو
 ساعتين على ما ظهر لي حملت حلاًماً ملاً قلبي رعباً . فرأيت كأني اتيت القصر ودخلت
 هذه الغرفة التي نحن فيها ولم اكن اعرفها قبل الآن والسيدة حنة نائمة على سريرها
 وهي تلفظ اسم امها في نومها فتمعجبت وخفت ايضاً من هذه الجسارة التي اوصلتني الى
 هذا المكان الطاهر و اردت الخروج احتراماً لصاحبته وخجلاً من جسارتي واذا بهذا
 الشباك قد افتتح وظهرت منه اوجه ابليسية قمهضت السيدة حنة وصاحت منزعجة
 مرتعبة ثم سقطت من شدة رعبها مغمى عليها . فاتبهت من النوم مرتعشاً ثم قلت هذه
 اضغاث احلام . غير ان التأثير الشديد الذي اصابني من هذا الحلم بقي يتزايد وكأني
 سمعت في داخلي صوتاً يقول « انهض ولا تتوان الخطر محقق بحنة الشمسية وهناك
 مقامك الآن » فبادرت في الحال وقلت ولو خدعني الوهم فان الظروف هكذا تقتضي

فلبست هذا الثوب واخذت سلاحي واتيت وحدي اتعثر باذيالي في اذقة المدينة
 وكنت كلما تقدمت اشعر باضطرابي يزداد . فحالما بلغت الشارع القلوي رأيت ما
 اثبت لي ان هذا الهام من الله لسلامة العائلة الشريفة رأيت سلعاً منصوبة على سور
 الجنيينة وثلاثة رجال من سفلة اللصوص فهجمت عليهم ففروا قبل ان ادركتهم فقفوت
 اثرهم ففاتوني فقلت الاولى ان اعود لارى ما يجري في الجنيينة فرأيت ايضاً رجلين نازلين
 على السلم بسرعة ثم ركضا مذعورين واختفيا عن نظري وسمعت حينئذ جلبة وحركة
 شديدة ورأيت آثار الانوار بين الاشجار فتسلقت السلم في الحال واذا بالاص الاخير
 يعدو نحوي ليهرب فاعترضته وهو شاهر سيفه وجاولته برهة فما قدرت عليه واقلت من
 يدي وقصد السلم فأطلقت عليه غدارتي فسقط صريعاً . وقد شاهدت يا سيدي الدوق
 هذه المعركة الاخيرة كما اظن

فلما انتهى لوقا من هذا الحديث الملقق تنهدت الدوقة وقالت . آه يا سيدي
 البارون لا شك ان يد الله في هذه الحادثة المريعة . فكما انه الهمك بالحلم ان تأتي
 لنجدتنا المعني انا الاخرى بحلم على طريقة حملك ان انهض لمعونة حنة وهي في ساعة الشدة
 فهذا الاتفاق الغريب رفع لوقا في عيني الدوق الى اعلى منزلة فضلاً عن كونه نفي
 من افكاره وافكار الدوقة كل تهمة وكل شبهة من جهته . وزاد اعتقادها انه هو المتخذ
 الوحيد لولدها من المصاب وهكذا اتقادا الى التسليم باكاذيبه وخزعبلاته اقياد اعمى
 وكانت حنة كما اشرنا في سبات لا تصحو منه الى الصباح ولم تشك انها في
 اغماء تستفيق منه قبل الصباح ولذلك حين ودعها البارون ليخرج بقيت جالسة بقربها
 وعزمت ان لا تفارقها دقيقة الى ان ترى عينيها مفتوحتين وتسمع كلامها المنعش فوادها
 وخرج الدوق مع لوقا مشيعاً وهو يبلغ في شكره والثناء على همته وخلوصه

وبينما هما ماشيان قال لوقا للدوق هلم يا سيدي لنرى هذا الشقي الذي اطلقت
 عليه الرصاص لعل فيه رمقاً فنجهز عليه (١) بيدك وتشفي منه قلبك قال صدقت
 وكان قصد لوقا الصحيح ان يتحقق موته احتساباً من خبثه في المستقبل
 فتقدما ومشى امامهما ثلاثة من الخدم بالمشاعل الى ان بلغا طرف الجنيينة عند السور

فوجدنا الرجل مطروحاً والدم حوله كالبركة قلبه لوقا وصار هو والدوق يتفرسان في وجهه وقد تغير تغيراً شديداً . وحينئذ صاح لوقا قائلاً . وَيَا سَيِّدِي الدوق هذا هو الشقي هذا هو العيار وقاطع الطرق

- عجباً من اين تعرفه

- مرة واحدة طاعته فنجنا مني

- كيف ذلك واين

- هذا احد الاشقياء الذين تعرضوا لسيدتي حنة وهي في المنتزه مع حاضمتها

منذ ايام

- بالاتفاق الغريب . واذا وضع السبب بطل العجب فقد اتى هذا اللعين مع رفاقه في هذه الليلة ليأخذوا بثأرهم ويقتلوا ابنتي او لعلمهم قصدوك وقصدوها لعلمهم انك

مقيم هنا

- المرجح ان هذا سبب مجيئهم لكن الله اراد غير ما ارادوا واحبط مساعيهم الشريرة

- فالآن يجب ان نحذرهم لعلمهم يعاودون فعلهم على حين غفلة ويستعدون لشرمهم

استعداداً كافياً

- ما اظن هذا يقع ثانية لكن التحفظ اولى فأرى ان تكلف جماعة من حاشيتك

ان يسهروا مناوبة في الجنيحة الى آخر الليل فاذا انقضى هذا الشهر المنذر بانخطر فيه

اطمأنت افكارنا

- هذا عين الصواب ولا بد ان افعل ما اشرت به منذ الآن

- ولا يثقل علي يا سيدي ان اكون بعض ساعات ساهراً معهم فارجوك ان تقبل

مني هذا الطلب لان الدهر غدرات والعميون غفلات

- اغرقتني بفضلك يا ولدي وعلى كل حال انت هنا السيد ويديك خلاصنا من

الاطخار وقد ابتدأت فتمم كما تريد لا امتنع عن شيء مما ترتبه

وعند ذلك انصرف لوقا وقد عرض عليه الدوق ان يمضي بمركبته او يصحبه ببعض

خدمه فامتنع وشكر فضله

وكان سبب امتناعه وحيه للمسير وحده اشتغال باله من جهة قينة ومعلمي

والقوqli . فقال في نفسه لا يمكن ان معبلي يذهب بقينه وحده الى المنزل الاحمر من غير اذن سيده . وحينئذ صار يستقري تلك الناحية ويراقب كل حركة تعرض . ولم تمض دقيقتان حتى سمع صوت خادمه الامين قائلاً « آه يا سيدي هذا انت او شيخ اراه » قال اين انت يا غلام فأنا هو لا تخف

- تعال يا سيدي انا هنا

فتوجه نحو الصوت فوجده لاطياً في خربة قد غشيها العوسج واشتبك على جدرانها العليق وهناك ايضاً كان قد خبا قينه ومحملها وهي ترتعد من شدة البرد . واما القوqli فكان منعزلاً خلف الخربة

فقال معبلي لمولاه اين نمضي الآن قال الى المنزل الاحمر . وخفض صوته حتى لا

يسمعه القوqli

فدعا معبلي برفيقه وحملوا المحمل وفيه قينة وامامهم البارون . واسرعوا المسير لكي تدب الحرارة في ابدانهم . ولما وصلوا ودخلوا القاعة السفلى خلع القوqli ثوبه ولبس حلتة الاصلية فناوله لوقا بضعة دنانير فشكره شكراً جزيلاً وقال ارجو ان لا تبرحني من فكرك كلما احتجت الى رجل ينفع في مثل هذه الظروف . ثم خرج وأغلق الباب وراءه . وقد اعلمه لوقا بموت ابي بدر فاسف عليه ظاهراً وقال كلنا الى هذا مصيرنا

ثم صعد لوقا وقينه الى حجرة الغولة وهي في قلق شديد من الانتظار ومن العاقبة خصوصاً . فلم تحسب الا وياً دهم الجماعة

فلما دخل لوقا عليها بعد يحدتها بكل ما جرى وهي تسمع بهدو وسكينة لا تنطق بكلمة كأنها لا تفهم ما يقول . وبعد ما فرغ من حديثه ارتفعت على خوان بقربها واسندت رأسها على يدها وغاصت في افكار عميقة . فتركها لوقا بضع دقائق ثم قال لها يم تفكرين يا بريفة

- بما حدث هذه الليلة من سوء الانقلاب . كل التدبير الذي دبناه كان حسناً جداً فيه من رجاء النجاح تسعة وتسعون جزءاً ومن الخيبة جزء واحد فتغاب هذا الجزء بانفاق غريب . فأنا الآن افكر في تدبير آخر لا يمكن ان يخيب كيفما كانت الاحوال - ما تقولين اتعودين الى العمل

- اعود نعم
- الجدة تقولين او تمزحين
- ما الداعي للعزاح
- فهذا اعجب العجب
- لا شيء من العجب
- فلم يضعف عزمك اذن
- ألا تعرف اني دائماً شديدة العزم كثيرة الاقدام
- لكن اعلمي ان الدوق والدوقة صارا يأخذان اشد الاحتياطات
- ما يهمني هذا
- ولا يمكن ان تكون حنة مذ الآن دقيقة واحدة الا ومعها احد
- وهذا لا يشغل بالي
- واعلمي اني انا نفسي اشرت على الدوق بالسهر والتيقظ والتحفظ والمراقبة ليلاً ونهاراً بحيث ينسد كل باب لنفوذ القوة
- أولاً يقوم الامر الا بالقوة يا سخييف العقل . يا قصير الفكر اما تعلم ان الانسان عند سقوط القوة يلجأ الى الحيلة حتى صار الآن مقام الحيل فوق مقام القوة اضعافاً .
- فالحيلة التي أدبرها لا يمكن ان تخيب
- وما هي بحياتك
- لا تقدر ان تعرفها الآن حتى اني انا نفسي لا تخال لي الا كخيال غير واضح فدعها تنجسم وتظهر وتنجلي لي وغداً اشرحها لك فتعرف اني قادرة لا اخيب
- فلا أمل اليلة
- لا أمل فامض انت وقينة وناما غابر هذا الليل
- وكانت قينة في اشد الاحتياج الى الراحة والنوم فمضت حالاً الى حجرتها وغرقت في النوم . واما لوقا فحين اراد الخروج اوقفته بريقة وقالت اصبر ووقفت تفكر ثانية ثم قالت « وجدت » وانتشرت لوائح السرور على جبينها ثم قالت للوقا اسمع ما اطلب منك وافهم كلامي اريد في الغد ان تأتيني بشيء من الازهار

- ومن اين احصل على الازهار في شهر شباط وليس في الارض عرق اخضر
- دبر الف طريقة ويجب ان تأتي بالمطلوب ولو كانت ثمن الزهرة ديناراً
- كم يلزم
- باقتان احدها ذات الوان بهية وازهار ثمينه والاخرى ذات الوان لطيفة تليق
بالابكار كالبنفسج والزنبق مثلاً
- لمن هاتان الباقتان . اظن لك ولقينة
- لاي ولا لها بل للدوقة وابنتها
- فخرج وهو يقول وقفنا الله . على التيسير

الفصل العشرون

« السم في الدسم »

لامرّد قضاء الله ولا دافع لما يشاء القدر . واذا اراد الله امرأ مهتد له من شعاب (١) التدبير ما لا يخرفه الوهم من المعلوم ان الازهار في البلاد الباردة في فصل الشتاء عزيزة الوجود وقد يقال ان وجودها ضرب من المستحيل . وخصوصاً لان نطاق المواصلات التجارية في ذلك الزمان كان ضيقاً فلا يتيسر نقل مثل هذه الاشياء بالسهولة التي يتيسر بها في هذا الزمان ولذلك كان البارون الكرجاني متحيراً في هذه المسألة وعلم انه لا بد من اجابة الغولة الى طلبها لانه لم يكن يسهه ان يخالفها في شيء تأمره به . فأخذ يعن الفكر ويشدد في البحث والاستقصاء حتى الهمة الشيطان طريقة امل ان يفوز بها بالمطلوب وذلك انه تذكر رجلاً من معارفه من اعيان الشرفاء كان مقيماً في داره بالبرية في مكان يعرف بوادي الذئاب . وعرف ان عنده روضة صغيرة لاتقطع منها الازهار صيفاً ولا شتاء غير انه احرص عليها من النملة واضن من الرمضاء (٢) بالرطوبة وكان

(١) الشعاب جمع شعب وهو الطريق الصعب في الجبل
(٢) أضن اي ايجل . والرمضاء الارض الشديدة الحرارة

الامراء والاعيان حينئذ يتفاخرون بما يتفق وجوده عندهم من الازهار في فصل الشتاء ويباهون بها ويغالون في قيمتها ولم يكن احد منهم يبيع منها زهرة واحدة لانهم كانوا يهادون بها نساء الملوك والوزراء فينالون فخراً عظيماً ومقاماً جليلاً

فقال لوقا لا بد ان امتحن حظي لعلي احصل ولو كلفت ما كلف يعقوب عند لابان (١) . ثم ركب عجلته وقصد وادي الذئاب

فلما وصل استأذن بالدخول لزيارة صديقه فتلقا بالترحاب واخذ بيده الى الروضة المذكورة مفتخراً بما عنده فجعلا يتمشيان ولوقا يطنب في وصف تلك الازهار العزيرة ويبالغ في الاطراء على همة هذا الرجل الشيخ . ولم يزل يلاطفه ويجول معه في احاديث مختلفة الى ان وجد فرصة مناسبة فتح له بها قلبه واعلمه بمطوبه . فتحبهم الشيخ لطلبه (٢) وقطب حاجبيه واجاب بكلام مبهم يدل على امتناعه من الاجابة . لكن لم يضعف عزم لوقا ولا خاب رجاؤه وقدح زناد فكرته واستطلع طلائع فطنته ودهائه فأخذ يقص على صاحبه قصة غرامية في غاية ما يكون من اللطف والرقه وكانت نتيجتها ان الازهار الشمية تكون سبباً لنتيجة حسنة وعاقبة حميدة

فلم يقدر الشيخ ان يكظم انشراح صدره من هذا الحديث الذي ذكره اوقات الصبا وساعات الغرام . فبش في وجه لوقا وآل به الامر الى ان سمح له باكثر مما يمتنى حتى تعجب من سعة بذله . فجمع كمية من احسن الازهار روثقاً واذكاهاراً نحة واكبرها قيمة ورجع حالاً الى المنزل الاحمر ودخل على بريقة وهو يكاد يطير من الفرح . فقالت له ارايت ان من جدّ وجد . ثم قدمت تجمع من الازهار ضمتين تباها بهما نساء الملوك . فاما التي الغتها من الازهار البهية الالوان فوضعتها في وعاء من الخزف الصيني وسكبت فيه ماء قراحاً . واما الاخرى فاخذتها بيدها ودخلت معملها فقال لها لوقا ما تصنعين بهذه . قالت آله سعادتك . فقبعها لوقا فقالت له اتريد ان ترى ما اعمل قال اذا شئت ولم يكن مانع قالت لا مانع حيث تحب لكن علقى على وجهك هذا الوجه الزجاجي كما افعل انا خوفاً من ان يؤذيك البخار وتحنك الروائح ثم دخلا المعمل الشيطاني فرأى لوقا على موقد مطلقاً قدحاً من بلور مملوءاً سائلاً

صافياً فذنت منه بريقة وغمست فيه سوق الازهار فصار يغلي بأزيز شديد وانتشر منه بخار كثيف غشى الازهار فاستنشق لوقاً رائحة نفاذة لم يطق قوتها وضاق صدره فخرج على الفور لا يلوي على شيء . وبعد ذلك خرجت بريقة وقالت له . ويح الرجال امثالك ألا تطبق رائحة اقدر وانا امرأة ان استنشقتها ملياً ولو كانت قتالة

- لو بقيت دقيقة اخرى لاخنتت وفقدت الحياة وانت متعودة مثل هذه الامور منذ الصغر فهل اطبق ما تطيقين . واضن ان الازهار ذبلت ذبولاً تاماً
- سترى بعد خمس دقائق عكس ما ارتأيت

وبعد انقضاء هذه البرهة دخلت بريقة المعمل وخرجت وهي ماسكة الباقية بملاقط فضية واذا هي في غاية النضارة والرونق ولها رائحة عطرية تنمش القلب فقال لوقا يا للعجب هذه احدى المعجزات

- واني لا اعجز عن مثلها كما تعلم . والآن يجب ان اتمم تهيتها ولا يبقى الا ان تأخذها وتقدمها . ثم فتحت خزانة واخذت ورقتين كبيرتين مشرقتي البياض وعملتها على شكل قرنين ووضعت في كل واحدة باقة ور بطها بشريط من حرير احمر وقالت للوقا قد انتهى الامر لكن اعلم انك متى اردت تقدمتها تنزع الظرفين ولا تمس باقة حنة الا وفي يدك كف من جلد ولا تطل مسها ثم اذا خرجت من القصر تطرح الكف وتمزقه او تحرقه

- اذن ليس الثبات في هذه الباقية بل الموت
- والموت ليس الا سباتاً ثقيلاً طويل المدة
- فقصدك اذن ان تقتليها
- القصد اخفاؤاها فان كان يقتل او يغيره فالنتيجة واحدة
- فهل تسقط دفعة واحدة
- لا بل تقضي ايامها بسكينة وتنظف كالمصباح الذي ينفذ زيتة بالتدريج
- بكم من الزمان
- قبل انصرام الشهر . حتى تم النبوءة

فسكت لوقا برهة وظهر عليه اشتغال الفكر ثم قال لها يا بريقة وعدتني البارحة انك

توضحين لي تدبيرك اليوم

- ألا يصح ان اوّجل ذلك الى وقت آخر
- لا آخذ الباقيين ما لم تقولي الآن ما دبرت
- ما قصدك من ذلك
- قصدي اني لا أكفء الشر بالشر وهذه القتلة التي لانفع منها تمقتها نفسي
- اتظن ان قتل حنة لا يجديك نفعاً
- ولا مثل الهبأة فقدمعت الفكر فما وجدت ان موت هذ المسكينة يقوم بمصلحتنا .
- وما فهمت ايضاً باي حيلة جهنمية أو دسيسة شيطانية تقيمين قينة في مقام حنة امام عيني امها

- ان كنت لم تفهم فانا اوضح لك

- ثم اخذت تشرح له ما عوّلت عليه حتى انقلبت افكاره انقلاباً عجيباً ووثق بكلامها وصاح قائلاً يالك من داهية حاذقة تخدعين بعازبوب بمكرك وحبلك
- اذهب بسلام ولا تكن مشككاً . لكن اعلم قبل ان تذهب ان قيناً لم يرجع
 - أختبأ الشقي خجلاً من قبح فعله ونعماً فعل لاني بعد ان اظهر هذا الفشل والجنين
 - وخان هذه الخيانة في تلك الشدة بقلبه السلام حتى يوقعني في ورطة الهلاك صممت على قتله حال وقوع نظري عليه

- بل الاولى ان ترفق به وتحافظ على حياته

- وما يرجي منه من المنافع حتى أقي عليه

- ان لم ينفع شيئاً الا لراحة بال اخته فقد كفي بها منفعة نضطر اليها

- فليكن ما تحبين لكن اذا عاد الى هنا فقولي له ان لا يتراءى لي الا بعد ايام

حتى يخمّد غضبي

وحينئذ مضى البارون الى القصر الشميسي وقد بقي للظهر ساعة وكان من اللزوم

ان يتغذى هناك

فلما وصل ترحب به الدوق أعظم ترحاب وقال له يا عزيزي البارون قد جعلتني

اسعد الناس بهمتك العلية وادب اخلاقك

- وكيف سيدي الدوقة الآن
- تشعر بألم خفيف في رأسها يزول عن قريب ان شاء الله
- ومولاي حنة
- في غاية ما يكون من الصحة وبعد قليل تأتي لتراك . استفاقت منذ ثلاث ساعات كأنها كانت نائمة
- ألم تذكر شيئاً مما جرى
- لم تذكر اقل حركة كأنها كانت غائبة ولذلك تعجبت من الانقلاب الذي رأيته في غرقها وزاد تعجبها لما سمعت خبر هذه النكبة التي كادت تلم بنا . ألا ترى هذا الامر غريباً ايها البارون فما سمعنا بنائم استغرق هذا الاستغراق
- لا شيء من الغرابة هنا فطالما يسبب الرعب الشديد المفاجيء ذهولاً شديداً وانحاءاً سريعاً فاذا انقضى ينسى الانسان كل ما حدث
- ما اسرع خاطرک في الاجوبة واغزر فطنتک في تعليل الامور فانت رجل الدنيا وواحدھا
- العفو يا مولاي فقد يغشى الحب البصيرة حتى يرى المحبوب بخلاف ما هو في الواقع
- هذا كرم اخلاق وتلطف منك . وما الذي اتيت به اليوم ووضعتهُ على الخوان
- بعض ازهار حقيرة
- فتقدم الدوق ونظر اليها وقال ماتقول أحقيرة هذه يا سيدي الحبيب هل في الدنيا ابداع واجلّ من هذه الطرفة (١) في مثل هذه الايام . فهل تسمح لي ان اسألك من اين حصلتُها . ومدّ يده الى احدى الباقيتين فقال له لوقا سيدي ارجوك ان لا تمس ولا تشم لاني عزمت ان لا تمسها يد قبل سيدي
- وهو الحق فاخبرني من اين لك هذا
- مضيت اليوم لزيارة صديق لي من الاشراف في وادي الزناب فاكرمني بهذه الهدية النفيسة
- يا للغرابة يظهر ان لك اعظم نفوذ في قلوب الاشراف فالذي صنعه معك

لا يصنعهُ مع احد

- ارجو ان سيدتي الدوقة ومولاتي حنة تقبلان هاتين الباقتين اذا طرحتهما على اقدامهما
- يكون لهما اعظم السرور وسترى ما يكون من اندهاشهما فقد اقبلتا
- وحينئذ دخلت الدوقة وابنتها للقاء البارون فقالت له حنة يا سيدي البارون قد اعلمتني امي ما جرى في هذه الليلة وما صنعت من الجميل الذي لا اعرف كيف اشكرك عليه فأراد لوقا ان يجاوبها فقاطعه الدوق وقال يا عزيزتي لم يكتف بكل ما صنع من الجميل حتى اتى اليوم يزيدك فضلاً على فضل فانظري باي تحفة جاء يطرفك
- فقدم لها البارون الباقة الخاصة بها . فدهشت لها وصاحت كالولد المبتهج ياما اشهاها واطيها هذه الازهار الطيبة المحبية الذكية البية . اي شكر اقدم لك يا سيدي البارون
- ان تكرمت بقبولها يا مولاتي فهو حظي الاعظم
- كيف لا اقبلها . ثم وضعت الباقة على وجهها وملات دماغها من رائحتها العطرة ثم التفت لوقا الى امها وقال ايكون لي الحظ يا مولاتي بان تقبلي مني ايضاً هذه الباقة الاخرى

- اقبلها يا عزيزي بشكر لا يقدر فاني ما رأيت الطف منها ولا ارق من ملاطفتك وبقيت الباقة في يد حنة وهي تشمها الى ان جلسوا للغداء . وبعد ان اتهموا اخذتها ايضاً برغبة شديدة وبقيت في يدها غابر النهار

وبعد العشاء ذهب لوقا الى منزله حسب العادة ودخل غرفة ونزع من يده الكف ومزقة ورمي به فتناولته كلبة صغيرة كانت عنده وصارت تقطعه بانباها فاخذه منها والقاه في النار . ثم لبس ثيابه ومضى ليخبر القولة بما جرى

فعلم منها ان قيناً لم يرجع ولم يقف له احد على خبر فتحيروا وزاد قلق اخته وقبل نصف الليل عاد الى منزله ليغير ثيابه ويذهب الى جنية القصر الشميسي يناظر حراسة الخدم كما اشرفنا انفاً

فاقاموا كل الليل يجرسون ولم يظهر للعدو (لوقا) اثر ولا اقل اشارة خارج السور (لانه كان في قلب الجنية) ورجع صباحاً الى داره فلقية معبلى بوجه كالح فقال له وبلك

مادهاك

- يا سيدي ماتت حليّة (هو اسم الكلبة) اسفي عليها المسكينة ما أسرع ما ماتت
والسبب لا يجبله القارىء وذلك انها لما مزقت الكف المسموم بأنيابها سرى السم
في عروقها فأسرع بهلاكها

الفصل الحادي والعشرون

« نقوذ المقدّر »

مضى اسبوعان بعد مجرى الحوادث المار ذكرها ولم يحدث في المنزل الاحمر شيء
يستحق الذكر الا ما جرى لقين في غيبته . فانه بعد ثمانية ايام من اختفائه عاد صباحاً
في حالة يرئ لها ممزق الثوب محدش الوجه منقبض السحنة فيستدل من هذا انه كان
في معركة (لا مهاجماً اذ ليس ذلك من شأنه بل مدافعاً) فسألته الغولة وقينه عما جرى
له فلنق حديثاً كله كذب وبهتان فعلى قوله انه لما دخلت الدوقة الى غرفة ابنتها
حينما كان هو وابو بدر هناك وصاحت تلك الصبيحة واخذت بخناق أبي بدر بادر هو
الى المسير الى معبلي والقوقلي ليدعوها الى النجدة فلما نزل السلم وصار في الجنيئة هجم
عليه رجلان لا يعرفهما وأوثقا اطرافه وهو يدافع دفاع الابطال وحملاه وأتياه في مخدع
مظلم في دار قديمة على ضفة النهر فقاسى هناك اشدّ العناء من الجوع وسوء المعاملة مدة
اسبوع . وكان في اثناء ذلك يحاول بكل حيلة حل وثاقه حتى تيسر له وفرّ متسللاً
من نافذة صغيرة ولم يره احد فضحكت قينة لهذا الحديث الختلق وسخرت به بريقة
فقال أرى انك لا تصدقاني وهذا أمر يهين استقامتي ولسنت ممن يقصّ احاديث خرافة
فقالت بريقة في ايّ حيّ كنت اسيراً

- في حي بعيد لا أعرفه
- هل تقدر ان تدل عليه اذا مضى احد معك
- ربما لا
- واذا رأيت البيت الذي كنت محبوباً فيه فهل تعرفه
- لم أره الا ليلاً فيصعب ان اهتدي الى معرفته

- فقد كفى ولنضرب صفحاً عن هذا الامر

والصحيح انه بعد ما هرب وقلب السلمين من شدة خوفه ونجا بروحه صحا لنفسه بعد حين وعلم ان البارون لابد ان يعاقبه على خيائته اشد العقاب اذا خرج من تلك الورطة فارتبك ولم يدر ما يفعل ولا أين يمضي ولا كيف يقضي أوقاته ولا أين يأكل ويشرب مستقلاً . ثم جسّ جيبه فوجد قبضة من الدنانير والدرهم فقال في نفسه اسهل مصلحة لي ان اقامر فأربح واعيش مستغنياً عن سؤال زيد وعمرو فدخل دسكرة فيها امثاله من الرعاع (١) وانخرط في سلكهم ولعب معهم فرح اولاً ربحاً عظيماً ثم انعكس معه الحال شأن كل مقامر فحسر الربح والاصل ورأى تقوده قد اختفت من يده كما يذوب الثلج في حرّ الظهيرة فحاول الخداع وسرق فكشفت مكره وأشبع ضرباً وطرد

وأما ما جرى في القصر الشميسي فأمر يستوجب الالتفات ويستوقف النظر فقد تراءت في ارجاء هوائه سحائب متلبدة من الهموم والغموم . وذلك ان حنة بعد ما استتمت عدة ساعات بمنظر وروائح تلك الباقية التي قدمها لها البارون الكرجاني شعرت ثاني يوم باعراض مرض ثقيل غريب الحال وكانت هذه الاعراض تزداد شدة يوماً بعد يوم بل من ساعة الى ساعة . نعم انها لم تكن تشكو وجعاً بل اخذتها حمى بطيئة ملازمة محرقة فصار دماها يفسد ويقلّ فأسرع بها الوهن سرعة عجيبة ونحلت نحولاً بيناً وسقطت واهية القوى في ايام قليلة واشرفت على الموت

فاستدعى ابوها احذق اطباء باريس وأمر المتضلعين من فن التشخيص فبقي الجميع حيارى لا يدركون شيئاً من كنه ذلك الداء العياء واتخذوا كل التدابير التي عرفوها واستعملوا كل نوع من العلاج لكن كانوا كمن يضرب على حديد بارد أو يخطّ على صفحات الماء الجاري . فلم تزل الاعراض تتفاقم والداء يشتدّ ولم يمكن بوجه من الوجوه توقيف سير الحمى ولا تسكين نارها

وكانوا يكرزون على حنة الاسئلة المختلفة ليقفوا على اشارة أو اقل دليل بهتدون به الى شيء من هذا السرّ العظيم فكانت تجيب اني لا اعرف كيف اصف لكم . ما

(١) يراد بالدسكرة هنا البيت الذي يحتوي على الشراب والملاهي والرعاع رذالة الناس

اشعر بشيء اعرف له وصفاً وانما الذي اعرفه ان الحياة تفارقني كما يفارق النوم صاحبه .
ولا احسّ بهذه المفارقة حسّاً بل اشعر بها تخيلاً . نعم اني اشعر ان ضربات قلبي
آخذة بالضعف والبطء ودمي يبرد في عروقي غير اني لا اشكو شيئاً من الألم وأنا على
يقين اني مفارقة هذه الدنيا في نضارة شباني وقد دنت الساعة . لا دافع من قضاء الله .
فتأتي ساعة يروني فيها ويظنونني نائمة واكون قد فارقت الحياة وهم لا يعلمون

فكيف يمكن هنا ان نصف الاحزان التي استولت على قلب الدوق والدوقة والمهم
الثقيل الذي استحوذ على افكارها والبلية العظمى التي سقطت عليها والفجعة الشديدة
التي لاشت قواهما العقلية والجسدية عند وقوفها على حد اليأس

وأما الدوقة فكانت لا تريد أن تتصوّر الخيبة وكانت أوهامها الولدية تصوّر لها
امكانية انقاذ حشاشة نفسها ولدها الحبيبة حنة من هذا الهلاك المماجي . وكثيراً
ما كانت تستخدم غيظاً من ضعف عزم الاطباء وترتبهم عن المعالجة

فقالت لهم يوماً وقد عدت رشدها . ما الذي تنتظرون أنتركون وحيدتي وقرّة
عيني تموت بين يدي وأتم حيارى لا تصنعون شيئاً ولا تجربون علاجاً . فقال لها
طبيب الملك من أشدّ الاسف يا مولاتي ان العلم هنا قاصر والعلاج غير ناجع

- ففتقلون ابنتي ولا تبالون

- هذا حكم الله ليس في يدنا تدبير ولا في طاقتنا علاج فقد اختار الله ملاكّة
الطاهر ونفذ المقدّر

- ويك يا طيب . يا طيب البلاط ارحمني بكلمة . قل لي ان حنة قد تمنجو .
قل لي لا تموت ابنتك لديك

- يا حنذا لو كان في استطاعة البشر اجتراح العجائب ما المعجزات الاّ الله وحده .
أفكذب عليك وأنت تعرفين كما نعرف

- يا للفشل يا لسوء فهمكم وقصور معرفتكم . ان كان خلاصها متوقفاً على معجزة
فاني أقوم بها وأنقذها دونكم . أنا امها امير الاطباء بطرق علاج ابنتي

- والامهات انفسهنّ معجزات يا مولاتي . لا تقدّر الملوك ما تقدّر الوالدة
فألقت الدوقة بنفسها على كرسي وجعلت وجهها بين راحتها واستخرطت في البكاء

حتى تقرحت جفونها وجفت ما قبيها (١)

ثم رفعت رأسها ولم يبق هناك احد من الاطباء فرأت امامها لوقا واقفاً ساكناً ينظر اليها نظراً الحزين ينتظر ان تلتفت اليه . فنهضت في الحال وهي في غيبوبتها الحزينة وأخذت يديه وجثت امامه وقالت له أسمعت ما قال هؤلاء الناس . يدعون باني تموت ولا يمدون اليها يداً . فما تقول أنت ايها البارون هل تموت حنة . أيمن ان تموت . كلاً . أما هكذا تقول . لا تموت حنة . أما هذا اعتقادك وأنت من كرام الرجال ولك في حياتها علاقة سرية لا يجهلها . فقل لي بحيانك انك لا تزال منقاداً لها وانك ستحييها عن قريب

- يا مولاني لو اقتضى خلاصها سفك دمي في الدقيقة لما تأخرت قطعاً

- آه يا سيدي أفلا ينفعها سفك دمك شيئاً ما هذا الوفاء الذي لا يجدي نفعاً

وتدعي به الجليل

- يا مولاني قد مررت بصدري بهذا الكلام فما العمل وبلي ما حيلتي قولي لي هل

اقدر على شيء فتريني ابذل فوق وسعي حتى حياتي كما علمت

من المعلوم ان اليأس اذا تجاوز الحد يؤدي الى الاختلال ويوري من الماء ناراً

ويجعل للحمل الوديع اخلاق الذئب الكاسر فيفعل الانسان به ما لا يتصوره وهو في

سلامة افكاره

فالدوقة وصلت الى هذه الدرجة من الاختلال لشدة الويل الذي هدأ اركان

رجائها فنظرت الى البارون ازوراراً وقالت له بصوت جاف جاف « فاذا كنت ايها

البارون لا تقدر على شيء فمجيئك هنا »

- مجيئي حسب العادة تفقداً للاحوال وتهميداً للاشجان على علمي اني محسوب

مثل ولدكم فاشارككم في احزانكم واعلم خيراً عن مولاني حنة المتملقة بها آمال قلبي

- فحنة الآن لم تعد من ابناء هذه الدنيا . فقد عرفت ما جئت لتعرف والباب

لديك مفتوح

- اذن اخرج من بيتكم حيث صار وجودي مكروهاً أمضي منكسر القلب معاقباً

اشد العقاب على عجزى عما هو فوق طاقة البشر

قال هذا وادار ظهره ليخرج فالتماه الدوق وكان قد سمع كلام امرأته الاخير وهو في غرفته . فدنا منه واخذ بيده وقال متلطفاً . يا ولدي العزيز بحياة حنة لا تؤاخذ هذه الام المسكينة على اختلالها فقد اعى اليأس بصيرتها وذهب بصوابها حتى نسيت افضالك وما عادت تهدي الى الحق لكن غداً تستفيق من سكرتها وتندم على عملها . فتعال معي يا ولدي نفرد ونسكب دموعاً مشتركة على حياة حبيبتنا

ثم دخل به غرفته ومضت الدوقة الى مقصورة حنة وجلست عند رأسها . وكان منظرها في تلك الساعة الشديدة من نزع الموت يفتت قلب الجلمود حزناً على صباها . ففتحت عينها وادارت رأسها لجهة أمها وحركت شفيتها . فعرفت ان مرادها الكلام فأنحنت عليها واحاطتها بذراعيها وقالت تكلمي يا ولدي وقرة عيني فاني سامعة . فقالت وصوتها لا يكاد يسمع من شدة الضعف

يا أمي اطلب اليك شيئاً فلا تمنعيني اياه لانه يكون آخر مطالبي من الدنيا فشرقت الدوقة بدمعها ولم تقدر على الكلام بل اشارت أن كل ما تطلين فاني طوع ارادتك قلت أحب ان اكتب

- عجباً تطلين ان تكلمي

- نعم

- الى من

- اليه . الى رعين

- لكن لا تقدرين يا ولدي

- بلى ولو على وهن قوتي . فان الشوق ينشطني ريثما ارقم سطرين

- أفليس الاسهل ان اكتب أنا وتملي عليّ

- لا . لا يا أماه . لا يكون التأثير واحداً . يجب ان يرى خطي وهو يسقط تحت

المصاب الفادح من نفس كلاي . فلا يبقى له مني غير هذا الاثر القليل

فقامت الدوقة وأتت بورقة وقلم ودواة وناولتها الورقة والقلم وأمسكت الدواة بيدها فلما أخذت القلم وادارت ان تكتب لم تطاوعها يدها وكاد القلم يقع فقالت لها أمها ألم

أقل لك هذا يا ولدي . فتحركت حمية حنة وارادت بألف جهد ان تكتب ولو سطرين فانتشر في وجهها اثر من دمها وتصبب جبينها عرفاً وخطت بيد مضطربة لكن بحروف واضحة ما يأتي :

« تشجع يا رعين . لا يستظ قلبك جزعاً يا حبيبي . ودع آمالك . ودع صفو الحياة . . . أنت ساعتي . ولا مناص وأنت . حياتي . سلمت اليك قلبي وكدت تقبض على زمام ايامي . فاذا كل ذلك برقٌ خُلب وسحاب جهام . فتعال وانظرنى النظرة الاخيرة . تعال واجتمع بأبي وأمي فوق رأسي . تعال ولا تبطل ولا يمنعك مانع »

﴿ حنة ﴾

فما انتهت من آخر كلمة حتى نفذ ما انالتها الحمية من النشاط وانطرحت مغعى عليها تعاني سكرات الموت . فقامت امها ونضحت على جبينها ماءً بارداً ونشقتها من شمامة (١) نفاذة الريح حتى عاد اليها وعيها فقالت لأمها اطوي الكتاب واكتبي العنوان فقد اكتفيت بما كتبت وما عدت استطيع شيئاً . ففعلت ما قالت وهذه صورة العنوان « للمركز رعين الزهري احد قواد الاسطول الملكي في مدينة برست » فقرأت حنة العنوان وتبسمت لاسم الحبيب ثم قالت يا اماه ان البريد بطيء الوصول جداً ففري اكراماً لخاطري واحداً من خواص حاشيتنا ان يأخذ كتابي ويسير بسرعة الطائر وينثر الذهب في الطريق ولو اهلك عشرين فرساً ليصل بأقرب ما يمكن من الوقت . هذه بغيتي الاخيرة من هذه الدنيا فلا تنواني في قضائها

فخرجت الدوقة وقالت يعطلي الفرح من الضعف قوة حتى يأتي العجب . وبعد خمس دقائق عادت فنظرت اليها حنة فقالت مضى غلامنا انطون على الاصهب . وهو من اكرم الخيول العربية التي في مرابط ابيك . فيقطع الساعتين بساعة واذا قطع المرحلة الاولى يدع الاصهب ويركب غيره فلا يقف دقيقة واحدة ويسبق البرق والريح

- وكم مرحلة من هنا الى برست

- يصل في نحو اربعين ساعة لا اكثر

- فبعد ثلاثة ايام يكون رعين في باريس

(١) الخفاضة في اصطلاح العامة . وهي نبتة تحتوي ارواحاً خارقة الرائحة كروح الخلل والنشادر

- على كل حال

فقلت حنة في نفسها « وحرّ قلباه ممن قلبه شسيم » ماذا يحلّ بالمسكين اذا بلغه كتابي ولا بدّ ان يقاوم موانع الدنيا ويأتي على اجنحة البراة . لكن يا لوعتي . ثلاثة ايام . ما اطولها . آه ما اطولها . فما اظن انه يصل قبل ان افارق الدنيا . فهل اراه يا ربي ولو لحظة واحدة . . . وخفتها العبرة . واطبقت جفونها

وكانت أمها لا ترفع منها نظرها فظنت انها نامت على اثر ما اصابها من العياء فانحنت وتفرست في ذلك الوجه الرضيّ حتى يرسخ رسمه في قلبها بعد فراقه القريب وان كان راسخاً في نفسها منذ عشرين سنة . وبينما هي شاخصة فيها اذ رأّت دموعاً كباراً تتحدّر من بين اجفانها كاللالئ فاضطربت وقالت لها مالك يا بنية هل تشعرين بألم ما هذا البكاء

- تعالي يا أمي وقبلي

فضمت رأسها بيديها وجعلت تشمّ جبينها وتقبل خدودها حتى كادت انفاسها تحرقها . ورفعت حنة يديها واعتنقت أمها وقالت

تسألين ما هذا البكاء . وهل اشعر بألم . ليس بي من ألم لكن نفسي حزينة جداً جداً والكأس التي أنا على وشك شربها شديدة المرارة . فاسمعي يا أمي . لا اخفي عنك شيئاً مما في نفسي . يخال لك اني مسلمة مذعنة لحكم القدر محتلة بالصبر مصيبي . لكن ليس الذي يظهر لك صحيحاً لاني في اشدّ الاسف على حياتي تيقنت حلول الاجل فجزعت من الموت نفسي . الموت رهيب عليّ اخافه خوفاً شديداً . يشهد الله اني ما اقاوم مشيئته . غير انه بعفوه ورحمته لا يقيم عليّ خطيئة اذا نحت على نفسي كما فعلت بنت يفتاح . فالكتاب الذي ارسلته الى رعين جدّ د بي تذكر كل تلك الآمال اللذيذة التي كنت واصلة الى تحقيقها . ذقت بالوم لذة ايامي القابلة فكدرني جداً انصرام حبل رجائي من ذلك النعيم . آه يا امي ما أصعب الموت في مثل حالي . في شرح شبلي . في عنفوان عزّي . في صفاء نبعي . في الذّ اوقاتي . في اطيب عيشي . آه ما امرّ الموت . ما اقساه . ما اظلمه . ما ارهبه على بنتك حنة . مُحبة . محبوبة . صبية مكلمة . سعيدة غنية . لا تشتهي نفسها من الدنيا الا البقاء لتمتع بهذه

المسرات . فهل اقول بعد يا نفس كلي واشربي وتنعمي . لكن على غير ذلك الاس
 كنت بانية امالي فقد فاتني انس ابي وملاطمة امي ومغازلة حبيبي بينهما . آه يا لسقائي
 لا اقدر ان اتصور هذا البلاء الا ويتصدع قلبي وتنفطر كبدي . ما ذنبي امام الله حتى
 يضر بني هذه الضربة الشديدة . لا ينكسر قلبك يا امي بكلامي . وما في طاقتي ان
 اكنم سرّي . لو امهلني الله الى ان اجتمع برعين واعيش واياه معكما الى الربيع القادم
 فأذوق شيئاً من حلاوة هذه الحياة لهان عليّ حينئذ الموت وقد نالت نفسي مبتغاه من
 نعيم الدنيا واما الآن . الآن في اول شعوري بالنعيم مدّ اليّ الموت انامله وفتحت
 امامي الهاوية باها . . .

فهنأ لا استطاع لقم ابلغ كاتب ان يصف بعض ما تأجج في نفس تلك الام من
 نار الآلام

الفصل الثاني والعشرون

« خبر رعين »

هذا الرجل الذي تكرر ذكره فيما مضى يجب ان نأتي على تفصيل خبره الآن
 لانه « سيلعب دوراً مهماً » (بعبارة الفرنسية (١) . ومعناه بلغة العرب يكون له
 دخل عظيم) في سياق هذه الرواية

كان رعين هذا من عائلة شريفة بريتونية بينها وبين العائلة الشمسية عرق قرابة
 من جهة النساء لان احدي جداته كانت قد تزوجت برجل شميسي وكان الدوق
 يعقوب يراعي صلة الرحم هذه ويعدّ رعيناً من ذوي قرابته وكان عمر رعين اذ ذلك
 نحو ثلاثين سنة وهو يتيم وله ثروة واسعة . وكان ماثلاً منذ حدائته الى فن سلك
 الابحر الى ان ارتقى الى امارة البحرية

(١) يدو اهل الدوق من ابناء العربية ويضر باساليب الكتاب الذين ليس لهم اطلاع على اسرارها
 ان يقرأوا ترجمات بالفاظ عربية لكن ما انزل الله بها من سلطان بلسان العرب . فيذهب رونق
 المعنى بسقم القرايب وفساد قوالب الكلام . حتى يمجج الدوق وتنفجر منه النفوس

وكان له ميل شديد الى الدوق يعقوب بحبه ويحترمه نظير والده وكثيراً ما كان
 يصرف اسبوعاً أو نحوه في بيته حيناً تسنح له الفرصة . وفي اكثر الاوقات كان
 لا يدخل القصر الاّ ومعهُ شيء من التحف والطرف لتسليه حنة حينما كانت صغيرة
 ويعتبرها اعتبار اخته لاييه وامه ولم يكن يداخل ضميره شيء من امر التزوج بها لان
 شدة الالفة مع وجود القرابة كانت تبعده هذا الرأي عن افكاره

فاتفق مرة انه سافر بسقيته واطال الغيبة بضع سنوات فلما عاد ودخل القصر
 كانت حنة قد دخلت في السابعة عشرة من عمرها فوجدتها غاية في الظرف والطف
 مكلمة بالجمال والادب فلما دنا منها وقبلها القبله الاخوية حسب العادة احمرت وجتأها
 حياء . فشعر بخفقان قلبه وانطبع رسمها في مخيلته وتجاذبتهُ شواغل لا توصف . وكانت
 هي ايضاً قد شعرت باختلاج صدرها حينما رأت منه شاباً لطيفاً ظريفاً شريفاً اديباً .
 فما عادت منذئذٍ تنصرف معه تصرف الاولاد الصغار مع اخوتهم الكبار كما كانت
 قديماً . وداخلها اشتغال لا تقدر ان تخفيه ولا تتحقق سببه لان تصوراتها لم تكن تميل
 بها الى بواعث الفرام السريع ولم يخاطر هذا الخاطر بياها لما تربت عليه من الاداب
 الدينية والدنيوية

وهكذا ارتبط قلبه وقلها برباط الحبّ الفعّال وبقياً مدة طويلة لا يعرفان اولا
 يقصدان ان يتكاشفا الهوى . ولحظ ذلك الدوق والدوقة وعرفا حقيقة ماها فيه قبل
 ان يعرضا به . وسرّ قلب الاب بهذه العلاقة السريّة لانه وجد من اصوب الاراء
 اقتران حنة بهذا الفتى الكامل المروءة والادب

ومضت على ذلك سنة كاملة فصرح رعين للدوق بارادته خاطباً اليه فتاته البديعة
 فقال له اجيبك الى طلبك في السنة القادمة اذا حصلت رتبة نائب قبطان فلما انقضت
 السنة نال رعين هذه الرتبة وعاد في طلبه فقال له الدوق قد صارت حنة مذ الآب
 خطيبتك لكن لا تقترن بها قبل ان تصير قبطاناً . قال في الامل يا سيدي ان اكون
 معدوداً ولداً لك بعد سنة

والحق ان الدوق لم يكن يبالي بتقدم صهره في المناصب البحرية بل كان مزعماً
 اذا ارتقى الى الدرجة المذكورة ان يستميل اليه العواطف الملوكية ويجعله في مركز من

اعلى مراكز البلاط حتى لا يكون بعيداً عنه متى تزوج بل احب ان يقضي حياته في قصره . وكان له قصد آخر اعظم شأناً وهو ان لا يعجل بتزويج ابنته قبل الحادية والعشرين من سنها حتى تكون قد تكملت في الاداب ومعرفة احوال البيوت ويبلغ عقلها الدرجة المطلوبة لنساء البيوتات

واما رعين فلم يكن في حسابه شيء من هذا فكان دأبه الاجتهاد الى ان يرتقي الى رتبة قبطان ويفوز بهذا النعم المتظر من الاقتران بهذا الملاك الارضي . وكان في ذلك التاريخ الجارية فيه هذه الحوادث قد حصلت لرعين اهمية عظيمة في اعمال البحر وحاز الالتفات العالي من البلاط وأنعم عليه بالرتبة المطلوبة فاقام ينتظر ورود الوسام والبراءة عالماً انه لا يمضي عليه شهر حتى ينالها فأرسل تلك الرسالة الى حميه وطيهارسالة الى حنة كما سبقت الاشارة في الفصل الثامن . ولم يمض بعد ذلك الا نحو عشرين يوماً حتى ورد اليه الوسام والبراءة فاولم وليمة فاخرة وجمع اليها اصحابه وجلسوا يتنادمون ويشربون وهم في فرح عظيم وطرب لا يوصف لانهم كانوا جميعهم يحبون رعيناً حباً صادقاً . وبعد ان دارت الكؤوس وشربوا على اسرار مختلفة وقف رعين وقال يا اخوتي الاعزاء ان كنتم تحبونني فاشربوا الان معي على سرّ جديد قالوا حباً وكرامة فأنت عندنا في اعلى مكان من الوداد فسرّ من يكون هذا قال سرّ القبطان رعين الزهري . ففي هذا المساء وردت البشارة والعلامات . فصاحوا كلهم باصوات الطرب وهنأوه تهنئة خالصة من قلوب سليمة الوداد

فقال لهم يا اخوتي احسب نفسي الآن في الذنوع بينكم فالالتفات الذي حزنته منكم لا يفوز به احد من البشر من جماعة نظيركم من الطف الشبان واكثرهم ادباً ومكارم اخلاق غير اني ابشركم ان لي فرحاً اعظم من هذا بكثير نعيماً لا انتظر اوسع منه ولا يمكن ان الله ينعم على انسان بسعادة اكثر من هذه السعادة القادم انا عليها . فاني بعد شهر اتيكم واحضر لديكم امرأتي التي اتعشقتها منذ ثلاث سنوات وطالما سمعنا يقل لا يصفو للانسان زمان فما قد صفا لي الزمان واعمض عني الدهر عينيه بل عمي فلست ارهب صروفه . ومالي ولا حداث الليالي وقد تحققت السعادة وقبضت على نعيم الدنيا بيدي سبحان الله والعياذ بالله . ما اجهل الانسان واغفله عن تقلبات الزمان اذا كان

هذا بظرة وليس بيده زمام الكون فما يكون من امره اذا كان صاحب الحل والعقد وقاد الزمان بأمره ونهيه . لا تقول ان رعيماً لم يكن من العقلاء بل تقول ان طيش الصبا يطرح صاحبه في وهاد الشقاء . والبطر يعمي البصر . أفعن سبب حقير كانت سقطت الملائكة من السماء . أفليس العجب بالنفس والافتخار بنعم الدنيا وكفر نعمة باري السموات من اكبر الدواعي لتهور الانسان في هاوية الطغيان وجره بسلاسل الهوان الى مطابق الحرمان . وما احسن تكرار قول الشاعر في مثل هذا المقام

احسنت ظنك بالايام اذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

فما انتهى رعين من كلامه حتى طرقت طارقة البلاء العظيم وفجته فاجعة المصراع الجسيم . فكأوا قد سمعوا في اثناء كلامه دبابة فرس يقرع بلاط الرصيف بحديد نعاله والشرر يتطاير من تحتها . ثم سقط الفرس سقطت قاضية لشدة عنائه من تواصل السير والسرعة وسمعت صرخة شديدة امام باب المنزل الخارجي تنذر بمصاب كبير . فارتكض رعين واصحابه الى الشبايك وتطلعوا فرأوا فرساً ورجلاً منطرحين والفرس يختبط تشنجاً والرجل ليس به حراك . فقال رعين وبل المسكين ما هذا المصاب قد كبا به الفرس فصرعه على البلاط هلموا ننظر في مصلحته . واذا بجماعة من الخدم قد خرجوا على عجل وانهمضوا الرجل بين ايديهم وحملوه الى داخل الطابق السفلي فارسل رعين خادماً من عنده يسأل عما جرى ويخبره ما اصاب الرجل

فمضى الخادم ورجع بعد دقائق قليلة وقال يا سيدي ليس الرجل ميتاً ولا جريحاً
غير ان الرضة عظيمة من شدة السقطة وقد ظهرت عليه علامات الحياة واتضحت .
قال وهل عرفت هذا الرجل وما شأنه

- يظهر يا سيدي انه خادم عليه بزة عائلة شريفة وانه آت من مكان بعيد في شوط واحد . وفي جيبه كثير من الدنانير
- أعددكم ما يلزم لمعالجته وهل احسنوا الالتفات اليه
- الكل مهتمون في امره لم يبدُ تقصير من احد كأنه من الاشراف والآف
يفركون صدغيه بالماء البارد والخل وينشقونه الروائح المنعشة

- وفرسه مات او باق في الحياة
- ليس عليه دلائل الحياة فلا ينهض من عثرته
- أفرس كريم
- لا بل من خيل البريد
- فانزل واذا استفاق الرجل وتكلم فاخبرني لانظر ما شأنه
- السمع والطاعة

وعاد الجماعة الى انبساطهم ومسامرتهم ومضى عليهم نصف ساعة وهم يتحدثون رعيناً في شأن خطيبته ويهتونه بالزفاف السعيد القادم عليه ، ثم كان نصف الليل فارادوا الانصراف واذا بانظام قد دخل وقال يا سيدي المركيز قد تكلم الرجل وطلب مقابلتك

- ما تقول يا غلام وما حاجته اليّ انزل واستفهم
- يا سيدي العفول تخدعي اذني فانه حالم ففتح عينيه نظر حوله نظر الحيران فقيل له ما تطلب يا اخانا قل خذوني حالا الى سيدي المركيز رعين الزهري . وحاول الوقوف فما طوعته رجلاه فقلت له المركيز هنا في المنزل قال فالحمد لله فاسرع واخبره اني اريد مقابلته ولا استطيع نهوضاً وقل له اني آت من قبل الدوق يعقوب الشميسي . فهذا ما علمته يا سيدي واتيت لاخبرك

فلما سمع رعين هذا الكلام اتقبض قلبه وخالجه هو اجس شديدة ونهض مسرعاً فنزل السلم ودخل القاعة التي فيها الرجل واراد ان يكلمه فما امهله وناولته رسالة حنة وقال اقرأ يا سيدي اقرأ حالا . فاخذ الرسالة ونشرها وقرأ سطرين فتضعض وكاد يسقط ثم اتم القراءة فارتعدت فرائصه وتمعر وجهه ونشف دمه وجد دمه وشخصت عيناه وقد اظلمتا وصرخ بصوت اجش مرتجف « فرساً . فرساً » فتبادر الخدم فسبقهم هو الى المربط واسرج فرساً وركب وطار به كالبرق انخاطف لا يلوي على شيء ولا يلتفت الى ما وراءه . والله يعلم كم هلك تحته من الخيل وكم نثر من الدنانير على الطريق وكان مراراً يعتصب الفرس الذي يمنع اكتراده وكاد مرة يقتل صاحب فرس وهو مختل العقل ضائع الفؤاد . ما يهمه من يموت او من يجيا فان حنة تجود بنفسها ولا

اسف على الدنيا بعدها . وهي تطلب ان تراه . فاي مانع يعترض دون الوصول اليها ولا يخرقه ولو على تلفه . فدخل باريس بعد اثنتين وسبعين ساعة من تسليم حنة الرسالة لامها لتبعث بها اليه مع الخادم المار ذكره

الفصل الثالث والعشرون

« مصرع هائل »

بعد اربع وعشرين ساعة من مسير الخادم بالرسالة اشارت حنة الى امها ان تدنو من سريرها وكان المرض قد اشتد بها جداً حتى لم تعد تستطيع نهوضاً ولا بمعاونة امها وضعف صوتها ضعفاً بيناً حتى لم يعد يسمع الا على مسافة فتر . فاحنت الدوقه رأسها وادنت اذنها من شفيتها فقالت حنة . حلّ الاجل يا امي وفرغ المكتوب . ورعين لا يصل عن قريب غير اني تعزى بعلمي انه آتٍ . . . فتحدثينه عني وتمزبن بوجوده وهذا اول حزن اصبتك به يا امي وما بيدي صرفه عنك

فتمزقت احشاء الدوقه جزعاً وما قدرت ان تنطق . فقالت حنة قولي لرعين اني كنت احبه حباً متيناً ولو احياني الله لكان بي سعيداً جداً . فاعطيه هذه الذخيرة التي فيها صورتي وقد سمحت لي منذ سنة ان اقدمها له فلا يدعها تفارقه ليلاً ولا نهاراً . واني اعلم بقلبه ونفسه فلن ينساني ويبقى محافظاً على الوداد الى آخر حياته كما كنت انا عازمة من جهته . وقد دنت الساعة يا امي فالفراق سريع

فكانت الدوقه تنتحب وتشرق بدموعها فقالت لها وصوتها يتقطع . لست تفارقيني يا حبيبتي فاني سائرة على اثرك

- بل بقاؤك لازم يا اماه . واجب لتكوني تعزية لابني من بعدي فهل يجوز من الله ان تتركه وحده ينزل الحزن بشيئته الى القبر . . . منذ البارحة انعم الله عليّ بالصبر الجميل والتسليم لمشيئته تعالى فلست بعد ائذمر من قضائه وسهل عليّ الموت اكثر مما كنت اظن فلست آسفة على حياتي لاشتغال افكاري بالآخرة الآن فقد صرفت كل نظر عن هذه الدنيا . فاريد ان اطهر نفسي من كل اوساخها العالمية فادعي

لي برؤساء الدين

فجأبت طلبها في الحال واتي شيخ قد جلّله الشيب وعظمه الوقار فقالت له اني اعترف بخطيبي يا ابي فسل الله ان يغفر ذنوبي . قال اعترف لي لله يا ولدي وهو غفور رحيم وبعد حين طلبت ان يجتمع حولها كل حاشية القصر فلما اجتمعوا رجالاً ونساءً قالت لامها سليمان يا ابي الصفيح عن كل ما صدر مني بحقهم من الهفوات لعلي اسأت الى احد ولم اعلم

فكلمتهم الدوقة وهي تنتحب . فما عدت ترى الا وجوهاً عابسة ودموعاً جارية وصدوراً خافقة وتهدات متقطعة حتى كانت ساعة يتفتت لها قلب الصخر الاصم . ولو كان لوقا وبريقة وقينة حاضر بن لعلمنا الى ابي حدّ تصل قساوة قلوبهم عند مشاهدتهم نتأج فظائهم

وبعد انصراف القوم نظرت حنة الى ابيها وامها وتبسّمت قليلاً واخذت يد كل منهما ووضعتها على صدرها ثم حولت نظرها واطبقت جفونها وغرقت في سبات عميق . ومضت بضع دقائق واذا بالدوق والدوقة ارتعشا معاً ونظر احدهما الى الآخر نظرة الجزع وذلك لانهما شعرا ببرودة يد حنة كأنها قطعة من الثلج فالتجحت الدوقة على جبينها وقبلته فشعرت بالبرودة ايضاً ثم ادنت خدها من فم حنة فما شعرت باقل نفس فيا للجزع ويا لهول المصرع . انطبقت السماء على رأسها وصاحت كالمجنونة «ولدي ولدي . افيقي كليني باسم الاله الحي انظري الي يا حنة»

لو كلمت صخراً لاجابها صده . لاحياة لمن تنادي «صح الصحیح واتقطع الرجاء» حل المصرع وجل المصاب . فوقفت الدوقة ونظرت الى الدوق وهي كالصنم . ثم قالت ماتت حنة . عدمت ولدي . ووقعت على صدره فاقدة الشعور . . .

وفي الغد فتح معبد القصر وفرش بطنافس بيضاء ونثرت فيه حبوب من فضة على شكل الدموع ووضع النعش امام الهيكل وهو مجلّل بالاطلس الابيض ومكّال بالرياحين وسجّيت (١) فيه حنة وقد البسوها حلة بيضاء كالثلج ووضعوا على جبينها اكليلاً من النسرين ثم اوقدوا الشموع حتى خيل ان المعبد مشتعل . وكانت صورة حنة كصورة

(١) يقال سجي الميت اذا طرحه على نعشه في الوضع المعروف

الملاك وجهها صبح على صفرته الفاقعة وروث شفتيها يقطر شهداً لم يغير الموت ملامح لطفها ولم تذهب حلاوتها بذهاب نضارتها . فكان يخال لمن يراها انها راقدة رقوداً هيناً مع انها منذ ساعات في هذه الحالة . وقد حكم الاطباء ان النفس فارقت الجسد واصطف الكهنة حول نعشها يتلون الصلوات والرجال والنساء من اعيان الاشراف يسمعون ويتأملون وكأن على رؤسهم الطير (١) واما الدوق والدوقة فكانا جالسين في زاوية المكان خلف ستر من الجوخ لا ينتحبان ولا تجري لهما دمعة . وقد صيرها الحزن صنمين من لحم ودم . ومضى ذلك النهار والليل بعده لا يدوقان قوتاً ولما كان الصباح حدث مشهد اخر يمزق كبد الجماد . فيما الناس في تلك الكآبة والسكون أقبل رعين على فرس قد دميت خاصرته وغشى الزبد شديقه وسقط به امام باب الجنيينة كما سقط فرس الخادم به على رصيف برست . ودخل رعين وهو كالح الوجه مغشى بالغبار عاري الرأس لا يعرف اين يضع قدمه فصادف واحداً من الخدم وهو ينظر اليه مستغرباً فقال له . اباقية في قيد الحياة . فما عرفه الخادم وخاف من منظره وهرب فتقدم رعين وصعد الدار ولم ير في المقاصير انسياً والسكون سائد والابواب مفتحة فجمد دمه وشعر بهول المصرع . وقال . ماتت ولم يرحمني الله . ثم وصل الى باب المعبد وازاح السجف فاوّل ما وقع نظره على وجه حنة في نعشها وهو يتلألاً كوجه ملاك النور

فحس كأن قوته انسحبت منه « انسحاب الشعرة من العجيين » وطار صوابه وسقط على ركبتيه وصدم جبينه البلاط ومزق طوقه وخدش وجهه وتف شعره وصرخ وهو لا يعي « لبيك يا حنة . اتى حبيك . لم تمهلي حتى اصل . عجلت الرحيل فانا بك لاحق . ما بقاءني بعدك على الارض » . ثم سحب خنجره وطعن به صدره لكن لضياح رشده وارتجاف اعضائه لم يتمكن الخنجر من فؤاده بل شق ثوبه وجرحه جرحاً خفيفاً سال منه الدم . فرفع يده واراد ان يثني وكان الناس قد تبادروا اليه وامسكوا يده وقال له كبير الكهنة هذا عمل لا يرضاه الله يا ولدي اي سلطان لك على نفسك . انت الآن بحضرة الله وتعلم انه حرم قتل النفس . فثبته رعين بهذا

الكلام وكان مطبوعاً على خوف الله وادب الاخلاق . وقال ما تنفني الحياة وكيف
يمكن ان اعيش بعدها

وكان الدوق قد خرج من خلف الستر وتقدم اليه وقال ترى اني انا ووالدتها لم
نمت يا ولدي فكنا مثلنا

وحينئذ نهض رعين ووقع على عنقه واستخرط في البكاء وعلا نحيبه حتى تصدعت
قلوب الحاضرين وتفطرت اكبادهم

وبعد ما هدأ روعه قليلاً قال له الدوق تعال معي يا ولدي وانعش بحضورك
قلب امرأتي الحزينة فانها في هوة من الآلام لا خروج منها داخل هذا الستر . فقال
دعني يا ابي قبل كل شيء اجشو امام هذا الملاك الذي فقدته واسأله ان ينعم عليّ
بالصبر الجميل . ثم ركع امام النعش وبلله بدموعه السخية وتلا بعض صلاة خشوعية
بنفسه ونهض على اثر الدوق

فنظرت اليه الدوقة نظراً جامداً وأشارت ان يجلس بجانبها . وبعد سكوت قليل
قالت له كانت تحبك حباً متيناً . كانت تحبك حباً حسدتك عليه وانا امها . والآن لم
تبق لي ولا لك . صارت عروس البلى . رأيتها قد ماتت فاضت نفسها لديّ وانا بقيت
حية . اتقدر ان تفهم هذا يا رعين . انا لا اطيق تصوّره ولا افهم هذا السرّ

فلم يجب بكلمة وقد غلبه الاتعاب

ثم اخنت الدوقة رأسها على صدرها وهي تتمم وغاصت في تأملاتها كما كانت
وراعى الدوق ورعين مقتضى الحال

الفصل الرابع والعشرون

« سرّ خاص »

وفي تلك الساعة دخلت دار القصر مركبة وخرج منها البارون لوقا الكرجاني
وصعد السلم وتخلل المقاصير ودخل المعبد وتقدم وركع امام النعش وعليه هيئة الكآبة
وتلا صلاة طويلة وهو يتفرس في وجه حنة . ثم خرج ولقي كبير الخدم وقال له على

افراد قل لسيدي الدوق اني اطلب مقابلته الآن فمضى وعاد وقال له ان سيدي الدوق في اصعب حال تتصوره ويعتذر عن عدم امكانيته ان يقابل احداً ولو كنت انت الذي يحترمك ويعتبرك اعتباراً اعز الاصدقاء واوفى الاخوان . يا سيدي البارون لورأيتهُ ما عرفته لكثرة ما غيرته الهموم في هذين اليومين فلا بد ان يؤدي به هذا المصاب الى القبر . واما الدوقة فهي لا محالة هالكة قبله لانك لا تراها وتقول انها تعدُّ من الاحياء فكانها خيال نشر من القبور . فقال له

- والدوق والدوقة وحدهما او عندهما احد

- عندهما المولى رعين الزهري اتى منذ ساعتين يعتسف الطريق ويقتل الخيل تحتهُ آملاً أن يفوز منها بنظرة قبل ان يقضى عليها . فلما علم لوقا بوجود رعين عبس وضاق صدره ثم قال للخادم اكرم عليّ بورقة وقلم فاني اريد ان اكتب الى الدوق . فدخل به مكتب الدوق فجلس وكتب ما يأتي :

« سيدي الدوق

« ليس إلحاحي بطلب مقابلتك الا لداعٍ اكبر ولسبب عظيم الشأن . المصلحة»
 لاغنى عن النظر فيها في مثل هذا الوقت . نعم اني لا ارتاب بشدة حزنكم الذي اثر فيّ ايضاً اشدّ تأثير لكي من وجه اولي احب ان اطالعك على فائدة تقصّر دونها نطس الاطباء وحذاق العلماء في هذه الايام على ان الاقدمين قد اورثوا الباحثين في آثارهم تعاليم لا يحسبها اهل هذه الاعصر الا من خوارق العادة . وتظهر فوائدها العجيبة حيث تعجز القوة البشرية في هذا الزمان فالمصلحة التي بشأنها اكرر الرجاء بالمثل لديك تختص بالسيدة حنة فقيدتكم العزيزة . وعلى هذه المقابلة يتعلق على ما اضن تفريجهومكم وسعادة حياتكم الغابرة . ولا بد انكم تندمون اشد الندم اذا سددت اذنك دون طلبتي هذه ندماً لا تفارقكم حسرتهُ طول الحياة . فالآن لا اخشى ان تحيب رجائي وتنحقق اني لكم المحب المخلص والصديق الوفيّ

لوقا الكرجاني

ثم طوى الرسالة وختمها وسلمها الى الخادم فاخذها الى سيده ففضها وتلاها وتخير فاسرع واتى المقصورة التي فيها لوقا وعليه اغبرار الموت وعيناه كبرك الدم . فاخذ يد

لوقا وسلم عليه وجلس بجانبه وقال له بعد هنيهة . اعذرني يا ولدي العزيز حيث قصرت
 عن اجابتك من اول مرة وانت لا تشك في محبتي واحترامي لك غير ان قلبي منسحق
 ونفسي تكاد ترهق لشدة هذه المصيبة . وقد احسنت بالحاك لان محضرك يونسني
 فقل ما تشاء لعلك تخفف احزاني بالطافك

فقال له هل قرأت يا سيدي الرسالة التي ارسلتها اليك وفهمت معناها

- قرأتها نعم لكن كأني سكران عياني تنظران وعقلي ليس معي . نعم ظننت اني
 حصلت من معناها ما يراد به دفع الموت وهذا امر لا يخطر على قلب بشر فاعذر
 قصور عقلي لان الحزن خلطه واعمى بصيرتي

- لا بل قرأت صواباً وفهمت حق الفهم

فنظر اليه الدوق نظر المتحير الدهش كأنه ينظر الى مجنون في اول اختلاله .

فقال له لا ترتب في صحة كلامي

- انت رجل شريف امها البارون كريم الاخلاق حسن الطوية . مزايا ثلاث لا
 يتأني لمن جمعها ان يسخر بشيخ نظيري قد قصم الحزن ظهره . فاوضح لي ما مرادك
 بهذا الامل البعيد الذي تفتح لي ابوابه ولا يميل اليه الا فقد العقل

- يا سيدي ان شدة الفرح تقتل صاحبه كشدة الحزن فهل تقدر على التجلد اذا صرحت

- ما هذا الفرح الذي تذكره واي دخل للفرح في هذا الوقت والحزن الى الابد

في بيتي

- ربما اصبت وربما اخطأت

- انا اعلم ان ابنتي ماتت فاحزاني تتبعني الى القبر ولا ينفك بيتي عن الحداد

- لعل القضاء مؤجل

- فصرح لي اقسمت عليك بمكون الاكوان وشرف الانسانية اكشف لي هذه

القوامض واجل لي نوراً خفيفاً في هذا الظلام المدهم

- اما ابنتي يا سيدي ان ابنتك تموت ميتة شديدة الهول واني انا وحدي اتقدها

من الهلاك

- نعم وعلمت ايضاً ان الانبياء كاذب فقد ماتت وما قدرت على شيء

- ما لم يكن في الماضي يأتي به المستقبل
 - وما يفعل المستقبل وقد ثبت موتها بالبرهان القاطع . ويلاه ما هذا القلق الذي
 تحملني اياه فوق مصيبي

- انسيت يا سيدي احياء ابنة ياثير . انسيت قيامة لعازر من بين الاموات
 - أو نسيت انت الآخر ان الذي صنع هاتين المعجزتين هو الله القادر على
 كل شيء .

- أفلا تذكر اذن ما قلت لك في تذكرتي « ان الاقدمين قد اورثوا الباحثين في
 آثارهم تعاليم لا يحسبها اهل هذه الاعصر الا من خوارق العادة . وتظهر فوائدها
 العجيبة حيث تعجز القوة البشرية في هذا الزمان »

- فهل انت ممن جنى هذه الفوائد . أعندك شيء من هذه الاسرار المكنونة في
 بطون الاوهام

- ربما

- ارحمني يا ولدي . اشفق على شيبتي . قد اضطرب عقلي بكلامك حتى ارى
 نفسي كاني في منام . لا يطاوعني عقلي على تصديقك غير ان كلامك المبهم قد انعش
 فؤادي واحيي نفسي . فاذا كان بهذا السرور هلاكي فاني قابل به فقل لي . قل في
 الحال ولا تماطلني قد فرغ صبري

- اقدر ايها الدوق ان احبي بنتك . اقدر انا لوقا الكرجاني ان اردد اليها الحياة
 - يا للعجب . يا الهي . جننت . تضعضعت

- أما تصدق . اما تثق بقولي
 - كيف اصدق ويلاه هل ينجو حي من مخالب المنية . هل لاح هذا الجنون
 بفكر احد من البشر . هل حاول المجانين اجتراح هذه المعجزة

- الحق ما تقول لكن ابتك لم تفارقها الحياة . لم تمت السيدة حنة الشمسية
 - هذه نمة الجنون . منذ يومين منظرحة بين ايدينا ليس في صدرها اقل اختلاج
 ولا يخرج من شفيتها نفس يكدر المرأة الصقيمة وقد صرح بذلك الاطباء

- الاطباء حكموا بذلك على ظاهر الحال بحسب معرفة البشر واما انا فليس هذا

العلم الذي اهتم به بل هو علم يجهلونه الآن ويبقى مخفياً عنهم الى الابد فاني اقسم لك بشرفي وبجياة حنة انها حية الى الآن . واحلف لك اني متحقق لا مرجح ان حياتها بيدي

- اذن لم تمت حنة . باقية في قيد الحياة . تعدّها من الاحياء . أفحمتني باقسامك حتى اكاد اثق بكلامك

- ليكن لك كل الثقة

- فقل هذا للاطباء لئري ما يكون من جوابهم ألا يهزأون بك ألا يستخفّون باوامك

- نعم هكذا يفعلون ولهم حق لكن اقول لك ان صدق البرهان يجلوه الامتحان فليس احد في الدنيا يجيبها غيري (مع قطع النظر عن مسألة المعجزات اذ ليس لها هنا محل) وفي احيائها فقد حياتي

- كيف فقد حياتك . وهل تقتحم هذا الهول العظيم وتفدي بنتي بنفسك
- ائذن لي يا سيدي الدوق ان اقص عليك خبراً ظريفاً بوجيز العبارة فتستنير به وتزول شكوكك وتعلم به ان غرائب الاتفاق اوجدت بي هذه القوة العجيبة التي لا شك فيها التي لم تقع لغير عائلتي ولن تحصل لاحد بعدي فاسمع وتفهم ما اقول
كان والد جدي رجلاً قوي البنية متين العضل شديد العصب كأنه منحوت من صخر صلد . تزوج وهو ابن خمس وعشرين سنة وعاش مع امرأته بهناء وصفاء خمسين سنة لكن لم يرزق منها ولداً فاتفق انها ماتت ومرض بعدها بخمس سنين مرضاً عضالاً وحكم الاطباء بموته بعد ثلاثة ايام من المشاهدة الاخيرة فاخذ اهل بيته من حاشية واقارب (وقد اتوا لاقسام الميراث) يجهزون له لوازم المأتم والدفن . واتفق في الليلة الاخيرة ان بعض خواص خدمه كان مولماً بمحبته ولماً شديداً لاسباب لا موضع لبسطها هنا فطلب ان يبيت عنده تلك الليلة لقضاء مصالحه والتذنيه على انفصال الروح اذا حدث ذلك والناس نيام . فقام الناس صباحاً ووجدوا الشيخ ابن الثمانين سنة قد نهض من فراشه ونفض عن نفسه غبار الموت ولبس ثيابه واكل بلذة وخرج للصيد ماشياً . وزعموا انه على اثر ذلك المرض ظهرت فيه لوائح الشباب وصار كأنه ابن اربعين

سنة . و بعد عشرين سنة اي حين بلغ المائة تزوج بنتاً شريفة لكن غير ذات ثروة فولدت له جدتي في السنة الاولى وعمت . وعاش بعد ذلك اربعين سنة ولم يمت بمرض بل سقط مرة عن الفرس فصدم صخرة حادة شقت صدره فنزف دمه ومات من ساعته

- يا للعجب اذا كان هذا صحيحاً

- ستتحقق صحته اذا اتينا الى الغاية يا سيدي الدوق

ثم جرى على جدي نفس ما جرى على ابيه . فانه مرض مرضاً ثقيلاً وهو ابن خمس وسبعين سنة ويئس الاطباء من حياته . وفي آخر ليلة وهي التي عين الاطباء انفصاله فيها قعد ابي فوق رأسه يسهر عليه ولم يسمح لاحد ان يكون معه . فثاني يوم وجدوه قد قام معافى في نضارة الشباب واولم وليمة حافلة جمع اليها اقرباءه واصحابه الذين كانوا حاضرين ليشهدوا جنازته . واما كم عاش بعد ذلك فما ادري غير اني اعلم انه قُتل بعد المائة في مبارزة . والآن تسمح لي ان آتي على ذكر ما جرى لابي ولو طال الحديث فانه عمر الى السبعين ومرض ايضاً مرضاً شديداً حتى عجز الاطباء وعييت انا من كثرة الوسائل لانعاش قوته فتحققت موته واشيع الخبر . واما انا فبقيت ارجو له ما حصل لايه وجرده . فأقمت عنده وحدي بعد ما ظهرت علامات الموت وكنت اترقبه بحرص شديد لعلني ارى منه حركة فطلع النهار ولم يظهر شيء فخاب رجائي واحتفلت بجنازته ودفنه . وبعديام سكنت لوعة حزني وقت فنضت ختم الوصية لاعلم ما كتب فيها فوجدت فيها رسالة باسمي في مغلف كبير ومعها قنينة صغيرة من بلور سدادتها من ذهب فيها الى ثلثها سائل احمر كالدّم وشفاف كأه ذوب الياقوت . فقرأت الرسالة المعنونة باسمي فاذا فيها سرّ عجيب من اعجب ما يتصوره بشر . فعلمت منها ان والد جدي كان صديقاً وعشيراً لرجل مشهور في صناعة الكيمياء وفن التنجيم اسمه نقولا الدر باقي . وكان والد الجد قد افضل عليه فضلاً عظيماً جداً فكافاه بان اهداه هذه القنينة المذكورة مملوءة من شراب يقال له اكسير الحياة وقال له اذا مات الانسان موتاً طبيعياً من هرم او مرض شديد فالروح لا تفارق الجسد فرافاً قطعياً بل تبقى محوومة حول شغفیه مشاقفة اليه مدة ثلاثة ايام كأنها باقية متعلقة به بعلاقة ضعيفة . ثم علمه كلاماً يقال

للروح قبل اقتضاء المدة المذكورة وبعد ذلك يُصبّ في فم الميت ثلث هذا الأكسير
فتعود الروح الى الجسد وينتفش وتتعاشأ عجيباً وترجع اليه قوته اضعافاً وتطول حياته
الى حدّ ليس بعده امكان للحياة الطبيعية في البشر

ويقول لي ابي في رسالته حينما اموت يا ولدي اكون قد شعبت من الدنيا فلا احتاج
الى العود الى الحياة فاحفظ لنفسك هذا الثلث الاخير الى وقت الحاجة اليه اذا سمح
الله ان تقع في مرض شديد او كنت تحتاج الى البقاء مدة وقد قضيت نجحك هرماً
فالان يا سيدي الدوق قد انجلى المعمى ووقفت على اليقين

- نعم صرت اعتقد كل ما تقول وهو من غرائب الاتفاق فقد احييت رجائي
واريتني الحقيقة عياناً . واهاً لتلك النبوة ما اصدقها هكذا قضت ان تكون انت المنفذ
الوحيد لبنتي من هذه المصيبة العاجزة . فهل تتكرم يا سيدي البارون هل تنعم علينا بهذه
السعادة . آه ما ادري ما تجيبني وايّ ويل تصبّ عليّ اذا قلت اقدر ولا اريد
- يا سيدي الدوق حياة بنتك متوقفة على ارادتك

- يا للعجب ما لك تهنأ بي أنتشيري في حياتها . وَيّ وَيّ
- افهم ما اقول ايها الدوق لاشك في المك تبذل نفسك دونها لكن معاني ان
لي شروطاً اذا قبلت بها احييتها

- لك شروط . هذا مما يخيّر . تشترط عليّ لاجياء بنتي وتساألني القبول
من العلوم ان لوقا كان سيد الامر والنهي حينئذٍ ويعرف المركز الذي فيه الدوق
وانه مهما طلب فلا يراجعهُ بكلمة على ان تحيا ابنته التي هدم مصرعها اركان حياتها
فقال له لوقا بهيئة الوقار والسلطان . انت تعلم يا سيدي الدوق اني في هذه المصلحة
باذل قسماً عظيماً من حياتي وربما كان اهمها والله لي فلا تنوهم ان ما اشترطه يكون
فوق ما يستوجب مقامي وفوق ما يستسهله مثلك

فلم يجب الدوق وقد وضحت عليه امارات القلق والكآبة فقال لوقا
هل تحتاج يا سيدي ان اذكر ما جرى بيننا منذ ايام . فأظن انك ما نسيت شيئاً .
ما نسيت شدة حبي الشريف للسيدة حنة وما نسيت اني توسلت اليك على بذل دمي
بقبولي صهراً . وتذكر الاسباب التي احوجتك الى ردّي خائباً . ثم تذكر جلياً صدق

الوداد الذي اظهرته والوفاء الذي قمت به منذ ذلك العهد حتى اليوم
 - كلا يا سيدي البارون ما نسيت شيئاً كل افضالك راسخة في ذهني وقد سلكت
 مسلك الاشراف والاصدقاء الصادقين

- واني فعلت ما لا يستطيع الانسان اكثر منه في سبيل مصلحتك وعرضت نفسي
 لاختار عظيمة وقضيت مدة اسيراً في خدمتها وانا انظر اليها وكبدي تنفتت ياساً وكثيراً
 ما حاولت اخماد هذه اللوعة فلم يزد الغرام الا اضطراباً . فانا الآن احييها . احييها بعد
 ان خاب منها كل رجاء . وعلوكم ان من احيى مواتاً (١) كانت له . فان لم افعل
 فهل فيها امل هل لاحد مطمع في جثة مسجاة على سرير الموت . فاطلب اليك اذن
 ان تنعم بها علي اذا بذت لاجل حياتها اجل قسم من حياتي . هل تقبل
 وكان الدوق عارفاً ان قصد البارون الوصول الى هذه النتيجة فشر بتأثير شديد
 صدع قلبه فقال له

ما ادري كيف اجاوبك ايها البارون . ما اصعب المركز الذي جعلتني فيه . فمن
 اشد الآلام واعظم الاهوال على والد شريف ان يختار بين حياة بنته وتقض عهده .
 فانت على يقين ان حنة لم تكن تخصني وهي في الحياة لرعين . . .

- ايها الدوق كل شيء في الدنيا حتى الوفاء له حدود . فالحب الشديد الذي يشغل
 فؤادي قد اقترن بنار الغيرة ايضاً فزاد ضرماً على ضرر . فلا يسهل علي ان ابذل
 نصف حياتي لفتاة تكون لغيري فاذا استطاع رعين ان يحييها فيفعل وهي له واذا
 احييها انا فهي لي بحقي

- أفنكون الى هذه الدرجة قاسياً ايها البارون . تقدر على احياء ولدي ولا تفعل
 اذا احييت ارجاعها لخطيئها

- نعم نعم . يا سيدي الدوق وقد اتصلت بي التأثيرات الى ان اختار موتها علي
 احيائها لغيري

- واذا قبلت بما اردت

- فلا يمضي هذا النهار حتى تقف امامك وتضمها الى صدرك

(١) الموات الارض التي ليس بها منفعة يعملها الانسان باذن السلطان ويستولي عليها

- ايها البارون بقي ان اطعمك على شيء وهو ان حنة سئلت في هذا المعنى فاخترت الموت على تقض عهد رعين . فاذا بقيت على عزمها بعد حياتها فلست الام انا ولا اكون مسئولاً بل لوفاء لك

- لا يهمك هذا الامر يا سيدي فان هذا الاكسير يفعل بالقلوب ما يفعل بالنفوس فيغيرها تغييراً تاماً فاذا عادت الى الحياة نسيت كل تأثير كان في قلبها من الهوى والمرجح ان صنبعي يحول التفاتها الي . ومع ذلك فاني احلف لك اعظم الايمان اني لا اشكو خيبي اذا وجدت مصرة على عزمها بل اذا لم تقبلني برضاها التام فسكت الدوق ولوقا بعد هذا الكلام بضع دقائق ثم فتح لوقا الحديث وقال على

ماذا عولت يا سيدي الدوق

- خطيب حنة هنا الآن

- انا عالم بوجوده

- فاحب ان القاه واجثو لديه اذا اقتضى الامر متوسلاً ان يضرب صفحاً عن عهدنا وهو كريم الاخلاق لا يصدني وحينئذ يكون لي حق ان اقبلك صهراً بعده اذا احببتها

- افعل ما تحب وانا مقيم هنا في انتظارك

فضى وهو في اشد الاضطراب بين قدومه على فرح لا يوصف وكدر لا يعرف ما تكون نتيجته

وكانت الدوقة ورعين في مكانهما من المعبد داخل الاستار لا يفوهان بكامة ولا يجدان قوة حتى على الصلاة . فدخل عليهما الدوق وقال يا عزيزتي غرة ويا ولدي الحبيب تعاليا وراي لي معكما حديث فتاما ومشيا وراءه فدخل بهما غرفة كبيرة وجلسوا فوجد الدوق اكبر صعوبة في فتح هذا الحديث المفروح والمكدر معاً . فاحتر كيف يبدأ بالكلام ويخبر هذا الشاب الشريف نسيبه وحبيبه وصهره الذي هو بمثابة ولده ان يتعد عن حنة ويفرح بحياتها وهي مع ذلك تكون لغيره . فكان مجرد افتكاره بهذا الشأن يرجف بدنه ولم يجد وسيلة للدخول في هذا الباب الضيق الا انه اخذ يشرح لرعين بالتدقيق كل الحوادث التي جرت منذ ولادة حنة الى تلك الساعة

واظهر له باوضح عبارة النبوة المنذرة بمصرعها الشديد وكيفية خلاصها من الهلاك المبين
وان البارون الكرجاني ملازم القصر لهذه الغاية وان حياتها الآن متوقفة على قبوله
بعلاً لها . وسرد له كل الحديث الذي دار بينه وبينه

فهنأ يصعب على القلم شرح التأثيرات التي خامرت قلب الدوقة بكلام زوجها
الاخير والصرخة التي صرختها بثورة الفرح عند سماعها ان بنتها تعود الى الحياة مرة
ثانية كما عادت المرة الاولى حين انقذها البارون على اعتقادها من يد اللصوص

واما رعين فكان يسمع وقلبه يتمزق واحتمل بجميل الصبر كل تلك الآلام التي
سببتها الحوادث المذكورة حتى كادت نفسه تزهد . وبقي مع ذلك ساكناً متجلداً لم
يخرج به الحنق عن حدود الشئمة ولا طار اليأس بفؤاده الجزع . واخيراً قال للدوق
يا ابي الحبيب فلتكن ارادتك لا آخذك بالعهد وقد حوت فكري رغماً عما كنت ارجوه
من السعادة . وسأضرب على ذهاب حنة من يدي وهي عندي اعز من حياتي . هكذا
كانت مشيئة الله فلا امنع القضاء والقدر . فلتحي حنة فان فاتتني فلا يفوتني النظر
اليها فاني اختار حياتها ولو صارت لغيري

كان ينطق بهذا الكلام المحزن والعرق البارد يتصبب من جبينه واصفر وجهه
وتغيرت ملامحه من شدة كآبته فوق اتعابه التي قاساها على الطريق وانكسار قلبه من
حزنه حينما رأى حنة في نعشها . فتلاشت قواه وسقط مغمى عليه بين يدي الدوقة
فقام الدوق حينئذ للقاء لوقا وهو كاسف البال زائد البلبال وكان ذاك ينتظر
قدمه بفروغ صبر مع علمه السابق بنجاح مسعاه . فلما دخل قال له عسى ان تكون
البشارة يا سيدي الدوق

- هو ما تأمل ايها البارون احي حنة وهي لك

فبرقت عيناه وابرقت اسرته وقال

لا خلاف بعد الآن احي حنة وهي لي

- لك وحدك ليس بها نصيب لاحد غيرك

- اتقسم لي بشرفك

- بشرفي واعظم

- فالآن اثق بهدك وانجز وعدي اسمح بحياتي غير آسف عليها لمن هي اعز من حياتي وتكون قوام حياتي . ففي هذه الليلة قبل نصف الليل تقرّ عينك ويسرّ قلبك بحياة وحيدتك وركن افتخارك واساس سعادتك وسعادتي معاً . والآن استودعك الله الى هذا المساء .

ثم خرج عاجلاً من غير ان يصغي الى كلام الدوق ولا يلتفت الى شيء . وقصد رأساً المنزل الاحمر

الفصل الخامس والعشرون

« اكسير الحياة »

وبعد ما فارق لوقا الدوق والدوقة بقيا في حالة مبكية مضحكة من تقلب الاحوال الداخلية عليهما . ففي اول الامر بعد ما كانت غيوم الاحزان متكاثفة متلبدة في جو افكارهما وقلبهما اذ بزغت اشعة شمس الآمال وتبددت تلك الغيوم فحييت نفسيهما واتعش قلبيهما . ثم خطر لهما خاطر معاكس فلاح لهما ان البارون يهزأ بهما وانه مخدوع بتصوراته الفارغة وقد خدعها ايضاً . لاي مقصد لا يدريان . واقاما في قلق شديد بين اليأس والرجاء يعدان دقائق ما بقي من ذلك النهار ويحسبان ان دخول الليل عليهما يكون كدخول النور البهي في كهف حالك الظلام . ومع ذلك يرجع الوهم بل حقيقة ما امامهما من هيئة الموت الواضح فتموت الآمال وتحيي الاحزان . حتى ضاق الدوق ذرعاً ودنت الشمس من الغياب ولم يظهر للبارون اثر . ففرغ صبره وضمف عزمه وارسل في الحال احد خدمه الى منزل البارون يدعوه باسرع ما يكون لاسكان ذلك القلق العظيم فمضى وعاد قائلاً ان البارون لم يدخل منزله كل ذلك النهار واما رعين الزهري فكان قد فارق الدوق والدوقة بعد استفاقة من غشيته وخلا بنفسه في الحجرة التي كانت مخصوصة به في ايام نعيمه بالقصر الشميسي وهناك انظرح على سريره والتي وجهه على الوسادة واخذ يتعجب ويقلب افكاره في لجاج الخيبة والاحزان ويتصور فقد ما كان يرجوه من السعادة والافراح

ولما كانت الساعة الاولى من الليل اتى القصر البارون الكرجاني ومعه اثنتان من راهبات الرحمة على كل منهما رداء طويل اسود له قبع كبير يغشى الوجه وفيه ثقبان على محاذاة العينين . فدخلتا وسلمتا تسليم الاحترام ووقفتا في مكان قليل النور وقد احتتا رأسيهما وسترتا ايديهما في جنوب الرداء الواسع الاردان

واما الدوق والدوقة فاتبهجا بدخول البارون وكادا لا يصدقان انه هو هو بعينه فقال لهما لا شيء يمنعني عن الوفاء بوعدتي الا الموت وباذن الله قد بقيت حياً وايتت لانجز الوعد اذ لم يكن من شأني الا خلاف قط . فثبتت بكلامه ثقتهما بصدقه

وقال له الدوق قد شغلت عاقتك فكرنا شغلاً شديداً وانت تعلم ما نحن فيه من مرارة الصبر وحرارة الحزن ولذلك اسأنا الظن فيك فخرجو ان تصفح عن زلتنا . فقال العفويا سيدي الدوق بل انا الذي ارجو المسامحة على ان عاقتي لم تكن عن عبث . وقد اتى وقت العمل الآن فاطلب اليك نعمة وهي ان تجعل لي في قصرك السيادة التامة والامر والنهي مدة بضع ساعات ولا تخلفني في شيء انت ولا سيدتي الدوقة ولو على كره منكما . فبل تطلق لي هذه الحرية التامة

- لك كل سلطان في قصرني تفعل كل ما تختار ولا يعارضك معارض ونكون جميعنا آله بين يديك تديرها حسب ارادتك

- فاريد الآن قبل كل شيء ان لا يبقى احد في المعبد وان يخرج الكهنة جميعهم من القصر

- الآن ابلغهم الامر

- وانت وسيدتي الدوقة ايضاً لا تسمح ان تشهدا العمل في هذا السر العظيم

فقالت الدوقة كيف تحرمني الحضور انا ايضاً

- يا مولاتي في ساعة اتمام العمل ادعو بك لتشاهدي كيفية قيامها واما المبادئ فلا احب ان تقفي عليها . نعم اني اعلم ان افراد شاب شريف بفتاة شريفة في مقصورة واحدة ولا سيما في مثل هذه الظروف مما تابه النفوس الالية ولذلك تدبرت امري باحضارهايتين الراهبتين من اخوات الرحمة لتكونا شاهديتين معي على عملي وهما في اتم لياقة من الوقوف على الاسرار العظيمة وفي اعلى درجة من التقوى والفضيلة

- قد نظرت ايها البارون موضع النظر وحذرت الطف الحذر فاشكر حذقك الدقيق
واباركك من صميم قلبي

- يا سيدتي لا تمضي اربع ساعات حتى تري العجائب من هذا العمل العظيم
وحينئذ اذا باركتني وشكرتني فبحق تفعلين

وعند ذلك كان معبد القصر قد خلا من كل انسي فدخل لوقا والراهبتان «يعمرونه
برؤساء الجن» واغلاق لوقا الباب واقفله ورفع الاستار عن الحيطان ونظر في جهات
المعبد فسد كل نافذة حتى تحقق انه لا يمكن لاحد من الخارج ان ينظر من مثل
خرم الابرة

فلما صاروا في امان تام التفت الى احدي تينك المتلبستين وقال لها كيف ترين
يا بريقة ان امورنا جارية على نجاح اكيد وهل من مانع بعد الآن لنوال بغيقي
- ولن الفضل ومن دبّر هذا التدبير

- الفضل لك على كل حال وبحسن تدبيرك الذي لا انكره يا عزيزتي بريقة فتمعي
الان ما بدأت به

فتقدمت بريقة من نعش حنة واخرجت من جيبتها قممًا منقوشًا من فضة ورفعت
سدادته فانتشرت منه رائحة شديدة عطرية عبق بها المكان وافرغت في راحة يدها
اليسرى بضع قطرات ثم غمست فيها اصبعين من يدها اليمنى وفركت صدغي حنة
وشفتيها ومنخرها وعادت وقالت للوقا قد انتهى الامر فبعد ثلاث ساعات ترى العجب
واما الراهبة الاخرى (قينة طبعًا) فنظرت الى حنة مسجبة على نعشها وقالت
في نفسها «اذا فاجأني الموت وانا نائمة مكانها فما تكون النتيجة ويلاه . لكن قد سمعت
وخطوت خطوة واسعة فلا اخشى التأخر ولا الفشل ولا الخيبة»

ومضت المدة المذكورة وهم في سكوت تام فقالت بريقة للوقا التفت الآن الى
حنة . فنظر شاخصاً فيها وانتظر بضع دقائق واذا بذلك الجسم البارد الجامد قد ارتعش
ورأى اختلاج اجفانها وشفتيها ثم انفصلت يدها المضمومتان على صدرها وتدلتا على
جانبيها ثم فتحت عينيها ورفعت رأسها ونهضت مستوية على نعشها

فقالت بريقة أيقنت بصحة ما قلت لك فما حياتها قد عادت اليها بعد ثلاثة ايام

فقل لي ابن تجمد طبيباً في الدنيا يقدر على هذه المعجزة

- حقاً لا يدون امر مثل هذا في اساطير الاوائل ولا خطر على بال احد من
الواخر . لكن ألا يخشى يا بريقة ان تهتف حنة في دهشتها وتدعو باسم امها فتخوننا
ويحبط مسعانا

- لا خوف من هذا القبيل فانها وان كانت في الحياة فحياتها مجردة عن الادراك
فالقدر مستحوذ على دماغها حتى لا تعقل شيئاً . وعلى عينيها غشاء كثيف حتى لا ترى
ما حولها رؤيية صادقة . وآذانها كأنها صماء حتى لا تسمع فلو كلمتها لم ينطق
لسانها بجواب ولو حضرت امها واجتهدت في تعريفها بنفسها لما فهمت مثل الشعرة
وهكذا كان فان حنة كانت تنظر حولها نظراً شارداً كأنها طفل لا يعي شيئاً مما
يسمع ويرى . فقال لوقا لا تربت يدك يا بريقة ما احذقك في اجلّ الفنون لكن
بجيانك قول لي هل تطول مدتها على هذا الحال من الخمود

- مدة حياتها اي مدة قصيرة

- أقصوت اذن

- لا شك

- متى

- بعد ساعات على الاقل او بعد يومين على الاكثر لان السمّ المعتزج برائحة
الزنبق في تلك الباقية قد افسد جرائم الحياة حتى لا اقدر انا نفسي ان اعيد اليها الحياة
فالآن وقت ما يقال لجلوس ملك على سرير ملك آخر « ماتت حنة الشميسية . عاشت
حنة الشميسية » (اي ماتت حنة وعاشت قينة)

وكانت حنة جالسة في نعشها كما قلنا فدنت منها الغولة وانقضت يدها واخرجتها
من النعش وهي تتحرك بيدها كالالة الحية لكن لا حس ولا فكر . ثم نزعت عنها ثيابها
البيضاء واكيل الزهر وقالت لقينة تعالي الآن فقد جاءت ساعتك فاخلي هذا الثوب
الاسود والبسي البياض . ففعلت بلا تردد ونامت على النعش فكان لا يميز احذق
نظر بينها وبين حنة حينما كانت في مركزها . وألبست الغولة حنة الحلة الرهبانية الكاذبة
وحينئذ كانت ساعة نصف الليل وقد اتهموا من عملهم الشيطاني على اتمّ حال

فاخذت بريقة حنة بيدها واركتها بجانبها في زاوية المبدك كأنهما تصليان وفتح لوقا الباب فوجد الدوق والدوقة ورعيناً وخواص الخدم ينتظرون اتمام هذه المعجزة فقال لهم لوقا ادخلوا كلكم واشهدوا احيائي للسيدة حنة بخسارة قسم كبير من حياتي . بعد ان فارقتها الحياة بثلاثة ايام

فدخل الدوق والدوقة ومكث الباقون خارجاً وقد اخذهم الاندهال والخشية وكان بيد لوقا ذلك الحجر الذي فيه فضلة اكسير الحياة الموهوم ودنا من قينة وسكب بين شفيتها هذا الشراب العجيب . فجمد الدوق والدوقة دهشاً وارتعدت فرائص الواقفين على الباب . وظهرت النتيجة في اقل من دقيقة فان جسم قينة ارتعش ثم اتفض ثم تحركت اليدان كأنهما تطلبان ما تستندان اليه . فتحركت الدوقة هاتفة وارادت الدوق فقال لها لوقا يا سيدتي لم يأت الوقت اهلي دقيقة

وكانت قينة في ذلك المشهد الرهيب تظهر حركات واسارات صناعية غريبة التقليد مطابقة اشد المطابقة لحركات حنة ثم استوت جالسة في العرش وصاحت صوتاً عميقاً مستطيلاً ووثبت واقت نفسها بين ذراعي الدوقة وقد مدت يديها لها واعنقتهما وهي تقول ابي ابي الحنونة

فالتفت لوقا الى الدوق و اشار اليهما وهما متعانتان وقال له « هل وفيت بوعدى يا سيدي الدوق » . قال وانا الاخر يا ولدي لا اخلف وعدي فقد صارت حنة لك خاصة وعلت ضجة الفرح العجيب وفي اثناء ذلك سقط رعين بين الخدم مغمى عليه ولم يشعر به الدوق والدوقة فنهضه اثنان منهم وادخلاه غرفة

وكانت الراهبتان قد خرجتا من القصر بخفة . والدوقة لم ترو غليلها من معانقة بنتها (الكاذبة) وتلك المكارة توافقها على عملها موافقة ابليس في غاية الانفاق حتى لم يبق عندها شك ان ابنتها حنة نُشِرت من قبرها وظنت ان موتها كان من باب الرؤى

الفصل السادس والعشرون

« تغير البواطن »

بعد اتمام ذلك المشروع الشيطاني وانطلاق المحال على الوالدين خرج لوقا من القصر

ليتملى الدوق والدوقة من مشاهدة ابتهما وملاطفتها وموانستها . واما ثاني يوم فرجع عند الضحى وابلغ الدوق قدومه فبرز في الحال لاستقباله وتلقاه بملء ذراعيه كأنه ابنه حقاً وقد صار عنده في ارفع مكان في منزلة ترفع عن منازل البشر . فقال له لوقا يا سيدي الدوق تشرفت الآن بالمثل بين يديك لا تتم فروض الشرف والانسانية . فالعمل الذي عملته لا احد يشك في جلالته واما المكافأة عليه الموعود بها فقد ذكرت لك اني لا اطلبها الا برضى تام من السيدة حنة . انت وعدتني ووفيت واما هي فلم اطع على سريرتها حتى الآن فان احيائي اياها كان على سبيل المقايضة فما احب ان تطاوعك على وفاء وعدك الا عن طيب خاطر فان كان ذلك والا فاني لا انقص حياة من احبها نظير نفسي باكرهاها على الاقتران بي . فارجو الآن يا مولاي ان تجتمع بها وتستشيرها وتصدقني جوابها الصحيح واجتهد ان تستكشف صحة باطنها وصدق ميلها فان كانت بواطنها قد تغيرت كما هو املي فقد صح فألي ونلت السعادة والا فاحتمل مصيبي بالصبر الجليل وما عليك لوم

فقال الدوق وهو يكاد يطير من الاعجاب بشرف نفسه وجلالة آدابه يا ولدي الحبيب ان الذي اتيت به الآن شرف لا يجارى وكرم اخلاق لا يُبَارَى فقد تجاوزت منزلة الاشراف في سمو القدر وعزة النفس . فالآن اقبل حنة ولا اشك انها تكون صادقة الشكر لوفائك العظيم الشأن وتكافئك المكافأة اللاتمة بكرم اخلاقك وشهامتك التي لا نظير لها

كم ينخدع الانسان بالظاهر وكم يفتقر القلب الساذج بزخارف المظاهر . ينسب هذا الشيخ النقي القلب وفاء وشهامة وكرامة اخلاق الى خادع محتمل افك ناسياً ما كان من جوابه وجواب رعين في شأن حياة حنة ومماتها . ساهياً عن قول لوقا « احب اليّ ان تموت حنة من ان تكون لغيري » ومناقضة كلام رعين له بقوله « احب ان تحيا حنة ولو صارت لغيري » غير ان العمل الذي عمله لوقا اعمى بصيرته وقد جاء طبق متمناه . احبي وحيدته من الموت . فكيف يذكر له سيئة بعد هذه الحسنة التي لا يقاس بها شيء من الحسنات العالمية

فقام على الفور يجريه الى حنة (قبينة) واماها وهي تسحر لب الدوقة بتلاعب

احاديثها واتقان تقليدها لكل حركة وتودد لا حظتهما في حنة . ولزيادة الاتقان كان لوقا قد اطلعها على كل دقائق حركاتها واعمالها حتى صارت كأنها نفس حنة في جسدها الصادق . ولشدة دهائها وغزارة فطنها كانت تنفي كل ريب تقع له إشارة في افكار الدوقة اذا ذكرتها بشيء لا تعرف كيف تجيب عنه وتدعي نسيانه والعللة الكبرى التي كانت تعمل بها لا ثبات الانقلاب الذي حصل فيها هي تأثير ذلك الاكسير الذي على زعمها وزعم لوقا يغير البواطن كما يغير الظواهر . فهذا اقتنع الجميع انها اقيمت من تجديد الحياة اطواراً جديدة ونسبت تقريباً كل احوالها القديمة

ودخل الدوق مقصورة امراته فوجدها مع بنتها (هكذا يجب ان ندعوها فيما يلي) فجرى بينهم حديث طويل لا يحفل المقصود منه ولا تنكر نتيجته . فكان خلاصة ما اجابت به حنة ما يأتي « يا ابي يصعب عليّ ان اشرح لك التغير الذي اشعر به في نفسي لانه مبهم عليّ ايضاً فأحس ان قلبي كان منذ قليل يحتوي على ثلاثة أرسام والآن لم يبق فيه الا رسمك ورسم والدتي ومع ذلك لا انكر اني اود رعيناً وداد الاخاء والصدائة الدارحة لانه نسيب لي واما ذلك الحب الداعي للاقتران فقد محبت آثاره محوياً تماماً فلا اعتقده الآن الا حلاًماً عبرت وبقى في مخيلاتي اثره . وما اعتقد انه يتجدد ابداً وقد اسقط هو حقه مني اجابة لطلبك فشكرت فضله . فلنضرب عن ذكره صفحاً بعد الآن وليكن مدار حديثنا على هذا الرجل الشريف البارون الكرجاني المخلص الوداد العزيز النفس الكريم الاخلاق فالذي صنعه بي يعجز عنه كل حي الا الله . وقد وعدته بي واراد ان يستطلع خاطري فاقول لك قول اليقين ان قلبي قد تعلق به الآن والى الا بد وافتخر ان ادعى له زوجة ويحق لي هذا الفخر السامي . ومبلي اليه الآن ليس على سبيل الهوى الصحيح بل عن مجرد الاحترام والشكر واني لواقفة بان هواه سيدخل اعماق قلبي ويمتزج بدمي فقل له اني اتقرب من فلي وارانتي الى هذا الشرف الذي عرضه عليّ بان اصير عروسه

فضمها الدوق الى صدره وقال يا ابنتي العزيزة اذا لم يخني دليل قلبي فاني على يقين انك تكونين معه من اسعد النساء لاني لا اجد في فرنسا اكرم ولا اوفى منه شريفاً فقالت الدوقة في نفسها وقد اخفت زفرتها . مسكين رعين لم يبق لك من يرثي

حلاك غيري نسيك من كنت عندها بمعزة روحها . نسي زوجي ادا بك وافضالك
 وصدق طويتك . فيجب على الاقل ان التفت اليك واعزتي قلبك المنسحق
 وخرجت للوقت ودخلت حجرتة فلم تجده ووبصرت بورقة مطوية وموضوعة على
 الخوان وعليها عنوان الدوقة فتناولتها وفضتها فاذا هو يخبرها بها انه لم يبق له جلد ولا
 قوة على احتمال هذه البلية وما عاد يستطيع ان يلبث في قصر من كانت بالامس خطيبتة
 واليوم عدت عنه الى غيره . وودّع الجميع وداعاً ابدياً

وبينا الدوقة تفكر في ما صار اليه رعين من نكد العيش وسوء الانقلاب وقلبها
 يتصدع شفقة عليه ودمعها ينسكب مدراراً على خديها كان الدوق قد عاد ليشر لوقا
 بالفوز العظيم الذي انفتحت به ابواب سعادته ونعيم حياته

فلما سمع لوقا كلامه تظاهر باندهاش وذهول وانه كاد يعنى عليه من شدة الفرح
 حتى اذا رأى من المناسب التظاهر بسكون وجدو قال للدوق يا سيدي قد نلت حظين
 من اعظم ما يتصور الانسان اولها هو الذي بذلت لاجله حياتي فلت يبذلها حياة
 جديدة مضاعفة وهو الحصول على من كنت اموت لوفاتي نصيبي منها والثاني الفخر
 السامي بان ادعوك ابي

فقال له الدوق تعال يا ولدي ادخل بك مقصورة حنة فتكون بينكما اول مقابلة
 حبيبة على غير علم منها بها
 فمضى وراه ودخلا المقصورة وجلسوا يتحدثون واظهرت حنة (قينة) لخطيبتها
 الجديد ميلاً لم تحف اماراته فاخذ البارون يدها وقبلها وهو يرتعش فاحنت رأسها حياء
 واحمرت وجتها وارتجفت شفتاها . فقال الدوق في نفسه . ها قد وقع الحب بينهما
 منذ الآن . يا لسعادتها ويا لحسن حظي بهذا الصهر العجيب

وفي اثناء هذا المشهد البديع التمثيل ذهبت قينة بافكارها الى امد بعيد من ايامها
 الماضية . فاول ما طرق فكرها تنكريد النجكي وهو جاث امامها يقبل يدها في البيت
 الذي استأجره اخوها في هوانة لاتمام مقاصدها الخبيثة . ثم خطر ببالها انتقالها الى هاور
 واقترانها بلؤلؤ لوليان باسم اينسة الرويرية . مشروعان عظيمان باشرتتهما ثم سقطت
 سقوطاً هائلاً فباشرت هذا الثالث . وكل مساعيها واجتهاداتها كانت غايتها واحدة

وهي البلوغ بالزيجة الى اعلى درجات المجد والغني وقد نالت في الماضي ما هو معلوم من هذا القليل ثم افلتت السعادة من يدها افلات العصفور من الشرك فما ترى يكون نصيبها هذه المرة . لا يعلم الا الله ما يطرأ عليها في المستقبل بعد هذه السعادة القادمة عليها وقد رأت تباشيرها . كل ما جرى لها وما سيجري يُعدُّ بالحقيقة من غرائب الانفاق

الفصل السابع والعشرون

« خفايا الغولة »

كان من عادة لوقا ان لا يخرج من القصر الشمسي قاصداً بيته عند الحاجز البولسي ما لم يعرج على المنزل الاحمر ويطلع الغولة على كل ما يجري بينه وبين اهل القصر . فصرف ذلك النهار مع الدوق و لدوقة وكان اعتبار الدوق له ومحبته يزدادان من ساعة الى ساعة وقد اخذ بمجامع قلبه وسحر له بملاطفاه ورقة احاديثه وشعرت الدوقة بميل اضطراري اليه

وحينما اراد الخروج مساء امسكه الدوق للعشاء فاجاب ولبث هناك الى نصف الليل ثم مضى ودخل المنزل الاحمر

فتنبه العبد لدخوله فعرّفه بنفسه وقال له اعلم بي سيدتك قال لا اقدر يا سيدي البارون فولاتي في القاعة السفلى في شغل لا تحب ان تطلع احداً عليه فقال لوقا في نفسه لا بد من سرّ عظيم لكن يجب ان اعلمه ثم نكص على اقدامه ويده فانوس الحرامية ونزل السلم وقرع الباب ثلاث دفعات فقالت من الطارق . قال انا لوقا وحدي . فأتت وفتحت الباب فقال لها ما هذا العمل الليلي الذي تعانينه يا عزيزتي بريقة فقالت ادخل فترى . فضى وراءها ويده الفانوس وفي القاعة قنديل صغير ضعيف النور ايضاً . وتقدمت به الغولة الى اقصى زاوية من القبو ثم وقفت وقالت انظر . فأحرق لوقا ببصره فرأى منظراً غريباً شغل خاطره . رأى بلاطين كبيرتين مقلوعتين من ارض القبو ومسدنتين الى الحائط وفي مكانهما حفرة عميقة فيها الى ثلثيها تراب مسود وباقى ما يملأها من التراب على شفيرها من الجانبين . وعلى

الارض ادوات حديد مختلفة الحجم والشكل

فبهت لوقا وقد تحير من هذا السرّ فقالت له اترى هذا

- أرى لكن لا أفهم ما معناه
- لأي شيء تكون حفرة مثل هذه
- طبعاً لاخفاء كنز ثمين
- وهو ما تقول خبات فيها كنزاً ليس آمن منه
- ما عسى ان يكون أذهباً أم جواهر
- أعظم من ذلك . سرّ هائل اذا انكشف افتضحنا وهلكنا . فقد دُسّ الآن في هذا القبر ليخفي الى الابد
- أقبره تقولين . ما شأن هذا القبر
- قبر يخفي آلة دسائسنا ويبيدها في مدة قصيرة فلو نبشوه بعد غدٍ لم يجدوا فيه الا التراب ويخفي دسائسنا على كل حي . فقبل مضي عشر ساعات تندثر جثة حنة الشمسية التي دفنتها هنا بين طبقتين من الكلس الحيّ
- فأشعر بدن لوقا عند سماعه هذا الخطاب الفظيع وجرى العرق بارداً من بدنه وقال لها أماتت اذن المسكينة
- وهل كان يمكن ان تبقى حية وقد سرى السم الناقع في عروقها منذ ثلاثة ايام . ومع ذلك ففي بقائها اشدّ الخطر علينا
- فعمجت اذاً بهلاكها
- لا احتياج الى ذلك مع قوة فعل السم فقد استراح بالنا الآن ولم يبق سبب للخوف من كشف الدسيسة

- اسفي على هذه الصبية . ويا لشقاء حظها ذهبت شهيدة الخلداع

- ويالك يا لوقا انت نذل خسيس مرء قاتل . اتشفق على حنة شققة كاذبة وانت قتلها بمكر . أنت انت قدمت لها الباقية المسمومة بجسارة وطمأنينة شيطانية . فلاتفشل بعد حلول النكبة وكن واحداً من هؤلاء الناس الذين يسفكون الدماء البرية ويدوسون جواهر اخصامهم للوصول الى غاياتهم (اعوذ بالله من شرّ الماكرين وخبث المرائين)

أفندمت الآن على جر برتك وانتبهت الى تويخ ضميرك . هذا مما لا اعتقدهُ فيك
ومع ذلك اسفت وندمت ام لا فقد سبق السيف العذل . اردت ان ترى وتعرف
فقد نلت مرادك والآن يجب ان تعينني لاني منذ ساعات اشتغل حتى انهكني التعب
- وما تريد ان اعمل

- خذ المجرفة وردّ هذا التراب

ففعل ما أمرت حتى امتلأت الحفرة فقال وهل بقي شيء . قالت نعم يجب ان
ترصّ التراب دوساً برجليك
فاقشعردنه لعله انه يظاً بجذائه الجسم اللطيف الذي كان يجله ويتعشقه وقد
أبادهُ بخيائته

فتجاهلت بريقة ما شعر به وقالت مالك متوقفاً

- لا شيء

ولم يسهه الا ان يطاوعها واتمّ ما ارادت كرهاً وحواسه تضطرب
ثم تعاونوا على ارجاع البلاطتين كما كانتا . واما فضلة التراب التي شغل مكانها جسم
حنة فألقياه في بئر عميقة كانت في وسط القاعة . وكنسا الارض حتى لم يبق اثر يدل
على شيء مما فعلت الداهية الخبيثة وشريكها اللعين

ثم صعدا الى الطبقة العليا وجلسا يتحدثان ساعة وقام لوقا فذهب الى منزله
فلما خلت بريقة بنفسها اخذت تتأمل في حال هذا المغرور وقالت مسكين الخذوع .
آلة بين يديّ قد سدّت عليه وصار قيادهُ بيدي وهو لا يدري . يمشي كالأعمى في
الطريق التي افتحها له و يظنّ انه يعمل بفكره وحرّيته . فقد صار اسيري لا يستطيع
حركة من نفسه . هذا الدليل الذي لي عليه حين اشاء هلاكه هذا الدليل الذي يزعم
انه باد وخفي اثره القائم على اثبات جنائته باقى الى الآن . سلاح في قبضتي اهلكه
به متى شئت . حنة الشميسية يظن انها دثرت وهي في قيد الحياة تحت امري كل وقت
قالت هذا ودخلت غرفة منامها واغلقت الباب وتقدمت الى زاوية ويدها قنديل
ووضعت يدها على هنة في الحائط فانفتح باب صغير يودي الى مخدع له نافذة واحدة
عالية صغيرة مشبكة بالحديد يدخل منها النور . وكان في المخدع سرير بسيط واشياء

حذيرة لا معنى فيها فتقدمت الى السرير وعليه صبية صفراء نحيلة لا تعي على نفسها
تلفظ بكلام متقطع كأنها في هذيان الحمى وكلامها يدل على الكآبة والويل
فهذه هي حنة الشمسية اسيرة الغولة التي ظن لوقا انها دفنت في ذلك القبر ومحي اثرها
فأمالت الغولة أذنها الى كلامها ولم تسمع الا قولها « أمي . . . رعين » تكراراً
فعبست الغولة ووضعت يدها على كنفها وقالت . حنة اسمعي . أفبقي حنة . فانتبهت
المسكينة مذعورة واستوت جالسة ثم أمالت رأسها الى الوراء مرتعدة وصاحت . أمي أمي
فقالَت بريقة تدعين امك عبثاً فهي لا تسمع ولا تأتي اليك

فنظرت حنة الى وجه الغولة متعجبة ولم تجب بشيء الا قولها « أمي » وزالت عن
وجهها امارات الخوف . فقالت بريقة لم تريني الى الآن ولست تعرفيني لكن منذ الآن
تريني كل يوم لاني أقوم هنا مقام امك

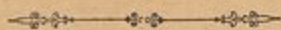
فلم تجب حنة بشيء . فقالت بريقة اما تسمعين . اما تفهمين ما اقول

فبقيت ساكنة وهبتها لا تتغير . فجلست بجانبها وجمعت ذراعها حول كتفها وقالت
لها انا اعلم انك قوية وشجاعتك لم تسقط واريد ان اكشف لك سرّاً يسوءك اطلاقك
عليه يا ابنتي المسكينة . انت الآن هنا في بيتي لان امك ماتت هذه الليلة ياساً لمامها
ان خطيبك رعيناً خانك وتركك ونسي ذكرك وقصده ان يتزوج فتاة اخرى

فلم يحدث تغير في وجه حنة الا انها تبسمت قليلاً عند ذكر الغولة اسم رعين ثم
قالت بصوت منخفض بطيء « البارح كتبت الى رعين . رعين يحبني وعن قريب يكون
عندي غير ان الشقة طويلة وحياتي قصيرة فاخاف ان لا يصل وانا في الحياة . فاذا
اتي وقد فُضي عليّ فارجوك يا امي ان تعزيه »

فحينئذ تحققت الغولة ان الفتاة مختلة لا تعقل شيئاً الا ذكر امور عابرة من مطبوعة
في مخيلتها كآثار الاحلام وكان هذا طبق مراد بريقة فاطمان قلبها . لان غاية ما تمنى
ان تبقى حنة في الحياة فاقدة الادراك

ثم قالت لها نامي يا ابنتي . وخرجت واغلقت الباب وبقيت حنة وحدها كصنم
يتحرك حركة آليّة



الجزء الرابع

غرائب الاتفاق

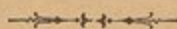
تعريب فقيد النظم والنثر

الروائي الشهير

المرحوم شاكر شقير

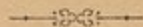
« اللبناني »

« مساعد في تأليف دائرة المعارف سابقاً »



طبعَت ثانيةً على نفقة مكتبة المعارف ومطبعتها

لصاحبها **بِجَيْمِ تَرْيَينِي** بمصر



ان الحكايات كنزٌ يستفيد به ذو الجهل عقلاً واهل العلم آداباً
فاحرز حقايقها واذكر بها حكماً اسرارها فتحت للعقل ابواباً



﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

مطبعة المعارف بأول شارع الفجالة بمصر

سنة ١٩٠٦

الفصل الثامن والعشرون

« القمص الجوسقي ^(١) »

ذكرنا آنفاً انه أغمي على رعين حينما سمع ان حنة صارت تخص لوقا الكرجاني وان اثنين من الخدم اخذاه الى غرفة من القصر وعالجاه حتى استفاق . فشكر صنيعهما وطلب الانفراد . ثم اخذ بيكي ويتحجب واثارت به عواصف الغرام والخبية وصار يحاول النشاط فلا يقدر ويقول في نفسه . آه يا حنة دعوتني فاتيت ولم استطع شيئاً لو كنت ميتة كان يتيسر لي ان ألق بك ونجتمع في دار الآخرة واما الآن وانت في الحياة فقد صرت بعيداً عنك جداً . لكني لا ازال احبك كما كنت لا يتغير عليك قلبي دقيقة الى المات فليسعدك الله ويجعل الفرح نصيب حياتك ويبعد عن فكرك ما اقامي من الآلام لاجلك حتى لا يتكدر صفو عيشك

واخذت منه الحى مأخذاً شديداً وشعر ان رأسه يكاد يتفزر فتقدم الى الشباك وألصق جبينه بزجاجه البارد فوقع نظره بالاتفاق على نور ضعيف آت من نافذة المقصورة التي تنام فيها حنة فاضطرب جداً وما قدر ان يحتمل هذا التذكار الأليم فتراجع عن الشباك وركع ليصلي فما وجد عبارة تعبر عن خشوعه وانكسار قلبه الا ان اسم حنة كان يتردد على لسانه فظن انه يختل وقال يا حبذا في الجنون راحتي وما لذة العيش الا للمجانين . ولم يزل في هذا الانزعاج والقلق حتى انبثق الفجر وتزايد نور الصباح . فعاد الى نفسه واقتكر ماذا يفعل فوجد الصواب في ترك القصر وكتب تلك الرسالة الى الدوقة وخرج هاماً

وكان الناس الى ذلك الوقت نياماً فصار يمشي غير قاصد جهة في الازقة والشوارع الخالية من كل انسي الى ان بلغ ضفة نهر السين فتبع مجرى الماء ولاح له حينئذ ان يطرح نفسه في النهر ويخلص من هذه الحياة الشقية لانه لم يعد له في البقاء فائدة وما نفع العيشة التي لا تأتيه الا بالعذاب والقلق . غير انه خطر بباله ما قاله له الكاهن حينما

(١) القمص ترميز كونت في تواريخ العرب لاهم نقلوه عن كورمس بالانينية . جمعه قامصية

طعن نفسه في المعبد الذي كانت فيه حنة ميتة وهو ان قتل النفس محرّم . وكان رعين على ما نعلم على جانب عظيم من الورع والتقوى . فعدل عن هذا الجنون واتم مسيره ولم يزل ماشياً الى ان انهكته التعب وشعر ان قواه تلاشت لانه منذ ثلاثة ايام لم يذوق طعاماً ولا مناماً وقاسى من مشقات الطريق والاحزان ما زاد ضعفه واضنى جسمه . فوقف متحيراً وصار ينظر الى ما حوله وقد قرب من قصر صديقي له شيخ جليل كان قبطاناً وصاحب رتبة عالية يقال له القمص الجوسقي وكان رعين قد ترشح لفن الملاحظة في سفينه منذ خمس عشرة سنة . وكلما دخل باريس كان يتردد الى بيته ويعتبره اعتبار والد الكريم

فحينئذ اتعش قلب رعين وقال في نفسه هوذا الاتفاق قد اوصاني الى هذا المكان لاذكر خلوص هذا الرجل الجليل الرقيق الفؤاد فيجب ان القاه واشكو اليه مصيبي لان في الشكوى اقتسام المصاب ولعله يرشدني الى ما به مصلحة نفسي قال هذا وتقدم بنشاط وطرق الباب وكان الرجل على عادته قد نهض قبل الشمس ولبس ثيابه فامر الخادم بادخال الطارق . فلما رآه صاح طرباً . واهاً يا ولدي ما هذا الاتفاق السعيد الذي اقدمك في هذا الوقت . وتقدم الى رعين واخذه ملء ذراعيه ثم نظر اليه متعجباً من اصفرار وجهه واحمرار عينيه وقال له مالك يا ولدي في هذه الهيئة الكئيبة شاحب اللون مقرح الاجفان واهي القوى . رعين رعين قل لي يا ولدي ما اصابك ما دهاك

- ياسيدي ووالدي الراوف منذ ثلاثة ايام كنت اسعد الناس وانا الآن اشقى البشر
- ما تقول ويلاه كيف انت اشقى البشر
- هكذا قدر الله واتيته اخفف بأنسك حزاني
- فاسرع بالخبر لاشاطرك حزنك واعزيك جهدي
- ويلاه يا سيدي لا يقدر احد ان يخفف حزاني فالمصاب ثقيل . ثقيل جداً كداء عضال يستحيل علاجه
- ما اعتقد الا ان مصيبتك ناتجة عن الهوى لانه لا يخطر ببال من يعرفك ان تصاب بغير هذا السهم وانت معروف مشهور باستقامتك وسلامة طويتك ولين جانبك

- هو ما تقول يا سيدي ما سبب هواني الا الهوى لكن المصيبة اثقل مما تظن .
 فيها تلف حياتي الباقية فيها انكسار قلب لا جبر له بعد الآن
- هل خاتك من تحبها
- لا يا سيدي بل خانني الدهر
- هل ماتت محبوبتك
- آه ما اصعب هذا الكلام لكن لو ماتت خلقت احزاني شيئاً
- فقل لي يا ولدي قل يا رعين وانت تعلم منزلتك من فؤادي الصادق الوداد
 وتعلم ان شكوى البلوى اقتسامها واني احسبك نظير ابن لي وتعلم خلوصي لك واعلم
 ان لك في ثقة تامة فلا تكتمني شيئاً من اخبارك . لا على سبيل الفضول احب
 الاطلاع على بواطنك بل على سبيل الشفقة والمساعدة اذا امكن الحال
- ولهذا السبب طرقت منزلك يا مولاي لاني على يقين من صدق وودادك وصفاء
 حبك . فاسمع قصتي وارث لبواي
- ثم اخذ يقص عليه ما عرف من تلك الحوادث العجيبة التي نعرف منها فوق ما
 يعرف بكثير لانه لم يطلع الا على نتائجها . فلما انتهى قال له بالحق ان بليتك شديدة
 ونكبت عظيمة وقد اثرت في قلبي اشد تأثير . نعم ان الدهر خانك ومصابك بما لا
 يدفع ولا اجد ما اعزيك به الا جميل الصبر
- وترقق الدمع في عينيه ولبث كلاهما برهة لا يتكلمان . ثم قال لرعين اخبرني
 كل هذه الامور المكدره وما ذكرت لي اسم هذا الشخص العجيب الشان الذي يأمر
 الموت فيطيعه فقال رعين وهو يتمرر وبضطرب . اسمه البارون لوقا الكرجاني
- فاستغرب القمص هذا الجواب وقضى منه اشد العجب وقال لوقا الكرجاني لا غيره
- نعم وهل تعرفه وما سبب عجبك
- اما هو بريتوني
- بلى
- وعمره فوق الخمس والثلاثين
- هكذا يظهر

- ومنزله قصر صغير عند الحاجز البولسي
- ما اعلم . لكن افندي يا سيدي من اين تعرفه
- اعرفه بالاسم لا بالصورة فاني سمعت عنه اشياء كثيرة
- في اي معنى سمعت
- في معنى تستغربه فاني قد تحيرت من اقترانه بفتاة شمسية
- اما هو من الاشراف
- بالنسب نعم فان عائلته من اقدم العيال البريتونية واما حسبه فساقط على ما عرفت
- وما الذي عرفت عنه
- احوالاً غريبة في الخساسة بالنسبة الى مقامه من النسب . فقد بلغني انه في اول دخوله ميدان الاعمال اتلف ثروته بالفساد وهذا بالحقيقة لا يعدُّ امراً كبيراً لان الصباء له حقوق ومهما خرج عن الحدود الانسانية فان الزمان يرد الشاب الى الصواب في سن الكهولة . واما هذا فانه تورط في القبايح وسلك سلوك رعاغ الناس بعد الخراب . فانه عاش عيشة الاغنياء وليست له مداخيل ظاهرة وتظاهر بالترف من اعمال سرية فأغلقت في وجهه ابواب الاشراف وقبضت عن يده كل يد كريمة وتلم صيته تلمساً بيناً بين اهل الادب حتى ما عاد يقبل زيادة هوان
- هذا مما لا يحتمل التصديق يا سيدي كيف يمكن ان تكون احوال مثل هذا الرجل على ما وصفت فلا بد ان في كلامك وهماً وقد نقلت عن السنة الحساد والوشاة . فالرجل المتصف بما ذكرت لا يجسر ان تطمح عينه الى مقام البيت الشميسي الا ويعود خائباً مرذولاً مهاناً محترقاً
- لا يفرك ظاهره فان مثله كثير في الناس يسلكون سبل الخلاعة والحيل والمكر فيلوح لي انه خدع الدوق الشميسي ببعض التدابير الشيطانية حتى اغمض عينيه عن الحق . فبالاختصار لا يعد الا لصاً محتالاً
- من يقول هذا
- كل الناس
- أفلا تعلم ان بعض الظن اثم وان السنة الجمهور كثيراً ما تنطق بالهم حتى يخال

الوم حقيقة

- لكن اذا وضع الدليل بطل الوم
- فهل من دليل على هذا
- دلائل كثيرة من جعلها انه لعب مرة بالقمار وظهر عليه الاختلاس فشتمه خصمه واستحققه فلجأ البارون الى المباراة فانف ذلك الشاب الشريف ان يبارز رجلاً خسيساً
- ومن يكون هذا الشاب يا سيدي البارون
- يقال له الفارس اللوني
- اين مقامه فاني احب ان آخذ منه تقريراً خطأ
- لسوء الحظ قد مات هذا الرجل منذ اربع سنوات
- فهكذا مات معه الدليل فالذى يحاول الآن طعناً في البارون يُعدُّ معتاباً . لكن تبصر يا سيدي أليس عندك دليل آخر
- نعم دليل قاطع وهو ان البارون كان يني ديونه التي تقوم عليه بالتمار بنقود زيوف
- أيقوم على هذا برهان
- اني لمتحقق واما برهان حسي فليس لي
- ثم سكت برهة وهو يفكر وقال فطنت فطنت يا والدي كن مطمئناً وسكن روعك فاقسم لك بالشرف والانسانية ان البارون الكرجاني لا يتزوج حنة الشميسية
- جزاك الله يا سيدي اذا صحت البشارة فمن يمنعه بجياتك
- انا امنعه
- باي وسيلة
- بكشف الغشاء عن اعين الدوق فاني استحلفه بشرفه ان لا يقبل صهرآ له رجلاً مزوراً ولو احيى بنته
- والبرهان يا سيدي . هل تجد البرهان
- احصل عليه اليوم بعد ساعات
- آه يا سيدي اعمل هذا المعروف مع ولدك ورقيقك فتشلني من وهدة الهلاك .

يا سيدي الحبيب يا صديقي يا والدي الحنون لا تحرمني هذه النعمة ليس لي بغيرك
باب للفرج

هذا وقد اشرق على رعين نور الرجاء وطابت نفسه وسكن ببلالهُ بوعد القمص
الجوسقي وعاد الاتعاش الى بدنه وحينئذٍ شعر بلزوم القوت لجسده فطلب الاكل
والتدبُّ به ثم سأل القمص قرصاً فاعطاهُ مئتي دينار . لانه اتى من برست على غير
استعداد كما علمنا سابقاً وبذل ما كان معه من الدنانير في الطريق فوصل صفر اليدين
تقريباً . وما ساعدهُ الوقت ان يستحصل نقوداً من برست في تلك الظروف الضيقة
الصعبة الشديدة الهول . ودعا القمص ان يكون نزيله مدة اقامته في باريس
فاجاب برضى

وبعد الظهر بساعتين امر القمص باعداد عربته وقال لرعين تسير معي يا ولدي

- الى اين يا سيدي

- للقاء صديق لي في غاية ما يكون من الصدق والاستقامة هرم في السن يبلغ الثمانين
لكن له من القوى العقلية والجسدية ما يعجب المختبر . يقال لهذا الرجل المركز الاندري
- اسم شريف طاهر الصيت له مقام سام بين الاعيان على ما اعلم غير اني لم
اشرف بمعرفته ولا هو يعرفني

- اعرفه بك يا ولدي لان مصلحتك بيدم وعلى كلامه تتوقف سعادتك فعندهُ
البرهان القاطع الذي ذكرته لك واذا ادى الشهادة التي نطلبها امام الدوق الشميسي
فلا شك ان النجاح حاصل ولا يتردد الدوق عن قبولها لانه صديقهُ وله في صدق
كلامه اتم الثقة

- جزاك الله خيراً يا سيدي غرتني بافضالك فهياً بنا لا نبطء دقيقة لاني كالجالس
على الجمر حتى اقف على هذه الحقيقة السعيدة العجيبة

فركب كلاهما العربة وجرها فرسان من اكرم الخيل . فلما وصلا استخبرا عن
المركز فقيل لهما انه غائب ولا يعود الا ثاني يوم العصر فقلق رعين اشد القلق وعاد
به القمص الى منزله وهو يسليه ويمنيه بالمواعيد ويثبت له ان لوقالا يتزوج في مدة
قصيرة فباب الامل كبير

الفصل التاسع والعشرون

« معمل الزيوف »

سبقت لنا اشارة خفيفة بهذا المعنى والآن نأتي على ايضاح الكيفية التي بها كان لوقا الكرجاني يتعاطى هذه الصناعة اللصية

كان في منزل لوقا مخدع داخليّ منفرد عن سائر بيوت المنزل له باب سميّك عليه ثلاثة اقفال ومبطن من الداخل ببطانة كثيفة وفي احد جدران المخدع نافذة صغيرة تطل على الدار مشبكة بالحديد ومستورة ايضاً بستار صفيق . وفي سقفه قنديل ذو ثلاث انايب فوقه صفيحة من الفضة صقيلة تعكس النور فيغني نوره الساطع عن ضوء النهار

وفي ذلك المخدع ادوات وآلات كثيرة مختلفة الاشكال فمنها تنور من القرميد كالذي في معمل الغولة بالمنزل الاحمر ومنفخ كبير ككور الحدادين وعلى التنور بواق كثيرة بين كبيرة وصغيرة . وعلى الارض موازين وسدانات ومطارق ومقصات لقطع الفلزات (١) ومبارد وطوابع فولاذ بين ذكر وانثى وسكك ومحكات وسبائك وكثير مثل ذلك

وهناك ايضاً اشكال من القناني والحناجر والبواقيل والقماقم فيها الوان من المستحضرات الكيمية كالحوامض المعدنية والنباتية والسوائل الاكالة والكواشف ونحو ذلك . ومن الآثار كثير من الرماد والخبث (٢) والفضلات الفلزية من جعلتها شذور من فضة وذهب وقطع على هيئة النقود فاسدة الضرب

فهذا هو المعمل الذي اتخذهُ لوقا لضرب الزيوف . والقصد من تستير الباب والنافذة بستائر سميكة عدم نفوذ الصوت الذي ينتج من ضرب السكة وطرق المطارق . وكان وهو يشتغل يلبس لباساً زرياً لا يعرفه به من يراه

وفي ذلك اليوم الذي ذهب فيه رعين والقمص للقاء المركيز الاندري كان لوقا

(١) المعدنيات المتطرة كالحديد والنحاس والذهب والفضة (٢) الخبث ما يطفو على وجه الفلز وهو ذائب

في ذلك المعمل يشتغل وحده . فكان ينفخ بالكور ويضرم النار بشدة حتى ظهر
 البياض على بوتقة فيها من شدة الحرارة وسال الفلز الذي في البوتقة فرفع البوتقة
 وسكب الفلز المائع في مصب مستدير مستطيل كانبوب القصب فجمد وبرد بعد دقائق
 فكسر قالب واخرج السبيكة لامعة صفراء كالذهب الابريز ثم قطع منها قرصاً بالسلك
 المناسب وجعله على طابع السكة وضربه فخرج ديناراً وهاجاً على احد وجهيه علامة
 الملك لويس الخامس عشر وعلى الآخر تاريخ السنة (١٧٧٢) فاخذ يمتحن عياره
 بطرق مختلفة . غمسه اولاً في سائل أكّال فخرج سالماً ثم وزنه بمقابلة دينار صحيح
 فكان بنفس ثقله ثم نظر اليه بالمكبرة فلم يجد في ظواهره فرقاً عن الصحيح ولا بمثل
 الهباءة ووجد زنجيره في غاية الاتقان والاحكام . ثم طرحه على بلاطة رخام فاحدث
 رنة كرنه الذهب الخالص . ثم حكه بالحك ومسحه بالكاشف (حامض الكبريت)
 فلم يظهر شيء من الفساد كانه من اقل عيار . فنبسّم تهماً بحذقه وافتخاراً بصحة
 صناعته وقال يا للفوز العظيم فاما ان الشيطان ساعدني هذه المرة او اكون قد
 اكتشفت سرّ الصناعة بعد العناء العظيم والتجارب الكثيرة فقد صدقت كل امتحاناتي
 فاذا وجدت لهذا صلابه الذهب ومرونته فقد وقعت الى وجود حجر الفلاسفة وصرت
 ملك الدنيا

وحينئذ عزم على الامتحان الاخير ليعرف صلابه ديناره ومرونته فوضعه على
 سندان ورفع بيده مطرقة كبيرة ونزل بها عليه بشدة زنده فاذا به قد تفتت كالزجاج
 وصار طحيناً بعزم الضربة

فعبس لوقا وشم ولعن و بربر حنقاً وقال حبط السعي . كل شيء تم الا هذا ولا بد
 ان اكشف السر وانال السعادة والآن فما كل انسان يظن لصناعتي ويقصد هذا
 الامتحان لان الناس يكتفون باللون والرنة والحك . فمن هذا القبيل لا عيب في زيوفي
 ولو وقعت في يد احنق الصاعه

وبينا هو يفكر في هذه القضية سمع رنة الجرس من الخارج . فتقدم الى الباب
 وزحزح قطعة من الستار ورأى من خلالها من الزائر فاذا هو خادمه مُعبل متريّ بزّي
 قروي من سفلة القوم بحيث لا يعرفه احد ولوعرفه قبلاً . ففتح لوقا الباب فدخل .

فقال له لوقا وكان غيظه لم يخذل من فساد عمله . وياك يا وجه البوم اظن انك آتيني
سكران على عادتك فما يمنعني ان اكسر رأسك بهذه المطرقة واحطم عظامك

- مهلاً يا سيدي فقد ظلمتني

- ما المعنى ألت سكران

- لم اذق طعاماً ولا شرباً منذ الليل البارح قسماً بشرفك

- فمن اين آت الآن

- من السبيل الذي ارسلتني فيه فقد سمعت بما اقتضت اوامر سيدي البارون

- فها ما وجدت بالتدقيق والصدق

- قبل الصباح كنت راصداً امام القصر الشميسي كما فعلت منذ ثلاثة اسابيع

لارتقاب الدوق . فرأيت رعيناً خارجاً والطرق بعد خالية من كل انسي وكان وحده

وظهر متحيراً لا يدري اين يتوجه فقفوت اثره مستتراً بين البيوت بحيث لا يراني وهو

مع ذلك لا يلتفت وراءه لكثرة اشتغال باله ولا خطر يباله ان احداً يرصده . فلما

وصل الى النهر وقف متأملاً في مجرى الماء كأنه يريد ان يلقى نفسه

- ويك يا غبي لِمَ لم تدفعه دفعة ظهر انه يتمناها فنخلص منه بأسهل طريقة

- سيدي لم يأمرني والياً لسهل الامر

- وهل كان احد هناك

- لا حي يلوح لناظر

- أفرأيت ان الفرصة كانت في غاية المناسبة . فامض في حديثك

- ثم تقدم ماشياً الى ان بلغ قصرًا كبيراً علمت انه منزل القمص الجوسقي فطرق

الباب ودخل فعدت انتظر الى ان قرب العصر فخرج القمص ورعين وركبا عربة

فتبعتهما متلصصاً وعلمت انهما قصدا المركيز الاندري

فارتعش لوقا وانخطف لونه وقال هل وجداه في بيته

- لا . فقد سمعت جواب الخادم انه غائب منذ يومين ويعود غداً بعد الظهر

فظهر على لوقا الاتعاش وتنفس نفس الراحة

فقال مُعَبِّئاً ثم رجع كلاهما الى القصر الجوسقي وعلمت ان سيدي البارون

ينتظرنى فأتيت لاخبرك

- حسناً فعلت فلم يبق لبقائك لزوم فقد عرفت ما أريد فأحضر الخيل الآن

أريد الخروج

- هل يأمر سيدي أن اصحبه

- نعم نمضي إلى المنزل الأحمر فغير ثيابك وألحق بي بعد أن أركب

فمضى معيلى ليأتي بالفرسين وأغلق لوقا باب معمله ودخل غرفة الملابس فغير ثيابه ولبس

الزبي الذي يناسبه وما انتهى حتى كان معيلى بالباب فخرج لوقا وركب وسار حثيثاً إلى

أن بلغ زقاق الاستفاضة . فالتقى إلى معيلى اللجام ودخل من الباب الصغير المعهود وهو

مصفرّ الوجه خافق القلب

فلما رآته بريقة تعجبت من حاله وقالت له مالك ضيق الصدر مشغول البال

- شعرت بدسياسة أحب أن تطلعيني على سرّها فرعين الآن يسعى في وجود

وسائل تنكسني

- اعرف ذلك لكنه لا يجد

- هل تعرفين القمص الجوسقي

- لا

- فهذا الرجل صديق رعين وقد مضى به منذ ساعتين إلى بيت المركيز الاندري

- وهل لقياه

- لا ولكن غداً يأتي بعد الظهر

- فبادر بادر حالاً لا يجب أن يلتقى رعيناً . لا يصح أن يواجهه بتأ ولا يقع عليه

بصره ولا يعرف شيئاً من حاله

- ففي رؤيته الخطر المبين

- اشد الاخطار

- وما يعرف المركيز من امرنا

- يعرف كل شيء

- متى عرف ومن اعلمه

- منذ سنين انا اعلمته
- ويحك انت نفسك وكنت قاصدة هلاكي
- ما هذا كان قصدي بل حينما دفعت لك تلك الدراهم واتيبت لي بتوقيعه لم يطمئن قلبي واوجست خيفة التزوير فمضيت اليه لآتحقق فاريته احدى سفاليحك التي عليها توقيعه فنظر اليها وقال ما هذا توقيعي لكن اعطيني هذه الورقة وانا ادفع لك المبلغ ولو كان تزويراً فامتنعت وقلت كيف آخذ منك دراهم لم تكفل صاحبها قال ولو كان الابن شقيقاً فوالده كان رجلاً كريماً الاخلاق ابي النفس فاكراً لصداقته وشرف اسمه لا امتنع عن مساعدة ابنه . ثم الح علي كثيراً حتى سلمتها اليه ودفع المبلغ - اذن يا شقية دفعت اليه آلة هلاكي مع انك كنت دائماً تهددني بالسفجة وهي في يده
- كنت اهددك بسفجة اخرى لا تجهل مبلغها وهي بيدي وانت تعلم علم اليقين ما بيني وبينك من المودة واما هذه المسألة الجديدة فما كنت اتوقع الوصول اليها
- أفظنين ان المركز يحفظ هذه السفجة التي تشهد على تزويري
- يحتمل ذلك كل الاحتمال ومع ذلك فلو فقدت فالمركز لا يتأخر عن اداء الشهادة اذا طلب ليوقف الدوق الشميسي على طويتك فيطردك غير مبال باحيائك ابنته
- فقد خاب كل الامل ووقعت في ورطة وخيمة
- نعم اذا اتفق لرعين ان يقابل المركز غير ان الوقت لم يفت فيجب ان نتدارك الامر
- واي سبيل نسلك
- سبيل منع هذه المقابلة
- وما الوسطة لمنعها
- عليك ان تتدبر
- فما تقولين في تحريض رعين على مبارزتي فاقتله
- بنس الوسطة فان قتله يزيد الامر قلقاً ولا بد ان المركز يقرر حينئذٍ لدى الدوق كل ما يعرف

فافتكر لوقا برهة وهو يضطرب كأنه يحاول الخلاص من شرك ثم جمد ثانية ورفع رأسه وقال يا بريقة . . .

- هل وجدت الواسطة

- ما ارى سبيلاً الا منع المركيز من دخول باريس

- هذه هي بعينها وكنت انا قد عرقها لكني احببت ان تجهد انت بوجودها ليكون لك فضل التدبير

- فهذا المساء اعرف من اي طريق ياتي واذهب للقائه الى مسافة عشرة فراسخ من البلد

- وانت تسمى بنفسك

- هو الاولى . ما حكّ جلدك مثل ظفرك

- لكن المسألة تقتضي فطنةً وحذقاً شديداً لئلاّ يشعر بك احد

- كوني مطمئنة من هذا القبيل

- وانا الاخرى اسمى هنا في ابعاد القمص الجوسقي ورعين فتكفي شرّ الجميع

- واذا تمّ ذلك فهو النجاح المحقق ويكون زمام المستقبل بيدنا



الفصل الثالثون

« السعي الشيطاني »

وحينئذٍ خرج لوقا من عند بريقة وهو مستبشر وامر معيلى ان يذهب الى قصر المركيز ويستعلم عن ساعة مجيئه الصحيحة ومضى هو الى القصر الشميسي فتعشى هناك وقرّ رأيه ورأى الدوق والدوقة ان العقد يكون بعد اسبوع بحضور قليل من الاقارب والاصدقاء لان الدوق كره ان يكون العرس حافلاً لعلم جميع الشرفاء والاعيان ان حنة كانت خطيبة رعين الزهري فيتحدثون طويلاً باسباب هذا الانقلاب ويقع بعض اللوم على شرف العائلة الشميسية وكان هذا طبق ما يتمنى لوقا لانه يخفى على الدوق ما ربما يتفق ابلاغه اليه من اخباره

وفي الساعة الثالثة عاد الى منزله فوجد معيلي في انتظاره ليطلمعه على الاحوال التي علمها فاخبره ان المريكز مضى لغرض الى قصر له في البرية ولم يستصحب الا خادماً واحداً وانه يعود غداً في عجلة البريد ويصل الى باريس العصر تماماً . فاكتفى لوقا بهذا الخبر واخذ يفكر في مسعاه ثاني يوم وامر خادمه ان يوقظه باكراً . وراى في نومه انه ظفر بهرامه .

فلما انشق الفجر قرع معيلي بابه . وكان هو قد امره بذلك فامرته حالاً ان يسرج فرسين ويستعد لصحبته ثم نهض ولبس ثيابه حالاً والحلة التي اتخذها حينئذ حلة سائق ماهر والتحف بكسائه الواسع ودس في جيبه كمية من الدنانير واخذ غدارتين وخرج فوجد معيلي في الدار ويده الاجامان فركبا ومضيا

وكان على الطريق من باريس الى مكان القصر الاندري المار ذكره ثلاث محطات الوسطى منها يقال لها محطة ميخائيل فبلغها لوقا وخادمه قبل الظهر وبقيا على نحو نصف فرسخ منها وكان هناك بيت قديم خرب قد اشتبك العوسج والعليق حول جدرانه وتلبد النبات في داخله ومركز هذا البيت على سفح جبل قائم تمر فيه طريق العجلات وعلى يمين تلك الطريق الضيقة المتعرجة واد عميق في وسطه الصخور الوعرة فاذا اتفق سقوط احد عن الطريق تحطم في ذلك الوادي وهلاك لا محالة

فلما وقع نظر لوقا على ذلك المكان الشديد الخطر لاح بباله ما خطر لقينة اول ما رأت جسر وادي الجن حيث نصبت شركها فتعرقلت به الخيل وسقطت به العجلة التي كان فيها الطرميلي وقارون

فترجل لوقا وقال لمعيلي تكون انت والفرسان في هذه الخربة تبالغ في الاستتار واذا مرت من هنا عجلة البريد تلاحظ السائق ملاحظة حاذق وانا الان ذاهب عنك لاغراض خاصة

ثم مضى قاصداً المحطة المذكورة وكانت في آخر بيت من القرية مما يلي جهة باريس فلما مر بقرب سور المنزل المحقق بمديقة نضرة سمع وراء الباب صوتين رخيمين احدهما صوت شاب والآخر صوت صبوية فوقف واصغى وكان آخر الحديث حينئذ وهو يدل على عتاب غرامي

فكان فحوى ما فهم ان الشاب كان يعاتب محبوبته لانها تظهر ميلاً الى شاب آخر يقال له حنا لويس وانها رقصت معه ثلاث مرات فاجابته قائلة يا قيصر ما رايتك دعوتني مرة الى الرقص معي واما تظاهري بالميل اليه مع اني لا احبه وتعلم ما بيني وبينك لان ارادة ابي ان يزوجني به ولا يقبلك صهراً لانك فقير . فاجابها انه يجتهد جداً في كسب مائة ريال ليكون غنياً مثل حنا لويس على ان لا تنقض عهده وان تمهله الى ان يكون حصل المطلوب فاجابته الى مراده ووعده حفظ الذمام وافترقا

وكان لوقا يسمع هذا الحديث وفهم من مجراه ان هذا الشاب سائق مستخدم في تلك المحطة منذ سنة فلما خرجت الفتاة من الباب اعجب لوقا بمحاسنها واما هي فلما رأت رجلاً غريباً حولت وجهها ومضت كالغزال النافر

ثم تقدم لوقا الى المحطة وكانت ايضاً منزلاً لابناء الطريق فلما دخل استقبلته فتاة وقالت ما يأمر سيدي قال قدحاً من الخمر الجيدة وقطعة لحم فأنت بالمطلوب حالاً فذاق الطعام وجرع جرعة من المدام وقال للفتاة أعندكم هنا فتى سائق اسمه قيصر قالت نعم واليوم دوره في الخدمة فطلب اليها ان تدعوه فخرجت وصاحت به فأتى كهبوب الريح ومثل لدى لوقا قائلاً امرك سيدي

- احب ان احديثك قليلاً على ان لا يسمعنا احد
- عجباً وما شأن هذا الحديث
- انظر هل وراء الباب احد ثم اغلقه وتعال
ففعل ما امره وعاد وجلس بازائه وقال لا يسمعنا احد . فقال لوقا هذا الحديث كبير الفائدة لك

- ما عسى ان تكون هذه الفائدة وسيدي لا يعرفني
- سمعت بخبرك واطلعت على سرائرك فقصدت اعانتك ليسهل اقترانك بجيبتيك
- وي وي من اين تعرف ذلك يا سيدي
- لم يخف عليّ حديثك خلف باب الحديقة . فطلب الآن مائة ريال لتفضلك
جيبتيك على حنا لويس

- نعم لكن واسفاه من اين لي ان احصل عليها باقرب وقت

- وما تقول في من يعطيك أكثر من ذلك
 - آه يا سيدي أكون اسير خاطره وطوع امره مدى حياتي
 - فانا ادفع اليك هذا المبلغ وزيادة
 - يا للعجب اتهزأ بي يا سيدي كيف احصل على الغني دفعة واحدة
 - الآن تتحقق اني اقول الصدق واقرن القول بالفعل
- ثم اخرج من جيبه خمسة عشر ديناراً واراها للفتى وقال على اجابتك تتوقف

سعادتك في خمس دقائق

- فما تريد ان افعل . قل ترني عبداً مطيعاً
- فاحلف لي انك لا تخونني لان ظلي سرّ عظيم الشأن
- فحلف له قيصراً اغلظ الايمان انه لا يطلع على سره احداً ولا محبوبته ايضاً
- فقال لوقا اعلم اني عاشق مثلك فتاة بديعة وابوها قاسي القلب قال انه وعد بها رجلاً لا تحبه وحاولت كثيراً ان يجلس لي جلسة فابي وهو اليوم يمر من هنا ويستأجر خيلاً من عندكم
- نعم وانا اكون السائق

فاحب ان اقبله اليوم واتوسل اليه بالدموع السخية والكلام الملين لعلني اغير فكره واحرك عواطفه

- وما يكون دخلي انا المسكين
- اعظم دخل فانك تسمح لي ان اكون السائق بالنيابة عنك فتني بلغت الغرض
- اوقفت العجلة وتاتي انت وراي فتأخذها « فبنعم » تكون هذه الدنانير في يدك « و بلا »
- تفقد نعيمك وتحرم محبوبتك

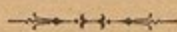
آه يا سيدي يا حبذا لو قدرت على اجابتك بسفك دمعي لكن في هذه المسألة موانع

- ما عسى ان تكون لعلني اتبصر في ازالها
- اولاً يجب ان تكون لابساً زي سائق
- فافرج لوقا جيبه وقال انظر . فدهش الغلام وقد رآه سائقاً لا يعيب فيه فقال حسن .

ثانياً لا يسمح لي الاستاذ ان احمول لغيري ولا بد ان رفاقي يعلمون ويخبرونه فيخرجني
من مصلحتي

- ما عليك من هذا بأس فاني اسبقك الى باب الحديقة فتى وصلت الى هناك
تلقني من يدك السوط مدعياً انه سقط اتفاقاً فنزل لتأخذه فأخذه انا واصعد مكانك
فما يعلم الرجل بشيء . وفي هذه الفترة تسرع الى والد حبيبتك وتريه الدنانير فيسمح
لك بها ثم توافيني بسرعة الى المحطة الاخيرة وتستلم العجلة واكون انا قد اختفيت فما
يشعر احد

فلم يسع المسكين ان يخالف لان المال غرّار . فقال لوقا وهناك ازيدك ديناراً
تشرب به انت واصحابك
فاقتن الفتى ولم يتردد عن قبول طلبه



الفصل الحادي والثلاثون

« مصرع المريكز الاندري »

حالما وقع الاتفاق بين لوقا والسائق على ما ذكرنا سمع في البعد حركة عجلة قادمة
فاطل من الشباك فرأى من داخلها ذلك الشيخ الجليل منفرداً ليس معه احد فتمعجب
لوقا لانه كان يعهد ان خادم غرفته مصاحب له
وسبب ذلك ان الخادم المذكور كان قد بلغ الستين من عمره فاصابه مرض الزمه
البقاء في القصر وما استحسن المريكز ان يستصحب غيره لانه لم يكن في حسابه ان
ابليس يرصده على الطريق . فكان هذا الاتفاق في غاية الموافقة لمقاصد لوقا الخبيثة
فلما وصلت العجلة دُعي قيصر فلبى مسرعاً وسبقه لوقا الى المكان المعين حتى
اذا بلغه اسقط السوط ونزل وهو يشتم ويبرر فاخرج المريكز رأسه وقال ما لك يا غلام
قال يا سيدي سقط السوط ومرّ فوقه الدولار قال لا بأس فادفع لك ريالين اذا
اسرعت . وحينئذ اخذ لوقا السوط وصعد مكانه وساق بسرعة عجيبة حتى سرّ المريكز
واضمر ان يدفع له ثلاث ريبالات

ولما بلغ به الخربة التي في سفح الجبل اوقف المركبة ونزل وامر معيلي ان يقف امام الخيل فظهر معيلي من مكمته وامسك الاعنة واما المركيز فقال ما هذا الوقوف يا فتى . ثم قال عجباً ما انت السائق الذي اتى بي قال لا يا سيدي لكن لي الشرف ان اقابلك هنا

- يا للعجب ومن تكون انت

- عبدك لوقا الكرجاني

- وبي اوصلت الى هذه المنزلة . لكن حسناً عملت فالعيش بالخدمة اولى من سلوك السبيل الذي كنت سالكاً فيه وهكذا سوء التصرف يحبط الانسان
- لم يحبط الدهر منزلتي يا سيدي المركيز وثروتي قد ازدادت ولكنني اتيت بهذا الذي لا تمكن من مشافهتك في هذا المكان الخالي

- وما تريد مني

- لي معك كلام مهم

- فقل اسمع

- علمت يا سيدي ان بيدك شهادة عليّ تقضي بتلف حالي

- أتعني السفتجة المزور فيها توقيعي

- نعم فان شئت ان تدفعها اليّ فادفع لك قيمتها

- لا اسألك عن قيمتها ولم يحظر ذلك بيالي واما السفتجة فاسلمك اياها اي

وقت شئت

- اشكر فضلك واطلب اليك ايضاً ان تكتم امرها اذا سئلت وان لا نوّدي

شهادة بما تعرف من تصرفي الماضي لان انكارك يوقني الى سعادة عظيمة بغناة شريفة

احب ان اتزوجها فاقسم لي بشرفك انك تكتم كل الكتم

- هذا طلب فاحش ايها البارون أيمن ان اسقط بشرفي بالكذب

- نبصّر يا سيدي . لا بد من ذلك

- امر مستحيل ان اكذب واخذع اصحاب الشرف هكذا يقتضي شرف مقامي

وشهرتي بالصدق

- قلت لك لا بد من اجابتي
- والا فما تفعل
- احتفظ على نفسك لان سعادتي متوقفة على كتمك وتلني على كلمة من فيك
- فانا لا اجيبك الى النفاق وافعل ما شئت

فقبض لوقا على ذراع المريكز وقال طوعاً او كرهاً يجب ان تحلف لي انك تكتم امري . فلم يجب المريكز بكلمة فقال لوقا وقد احتدم غيظاً . ايها الشيخ الاعمى البصيرة الفاقدة الرشد اردت ان اشفق على شديتك فاذا انت قد اذلتها وسعيت بقدمك الى هلاكك . ثم انحرف عن المركبة الى جهة اليسار وحول الخيل الى جهة اليمين وصاح بها صيحة هائلة وضربها بالسوط ضرباً عنيفاً وتبعها من جهة اليسار حتى تبقى مائلة الى جهة الوادي فثارت كالعاصفة هائمة في ذلك الشعب المتعرج الى ان مالت قوة الاستمرار بدواليب العجلة الى شفير هارٍ فخسف بها وتحدرت في ذلك السفح الوعر وسقطت الى الوادي فتحطمت وثار حولها غبار كثيف حتى خفيت عن البصر

فقال لوقا بنفسه ستهيج بريقة بفعلي اذ ليس هنا دليل قتل وانما الصدفة ادت الى ذلك ومن يعلم اني انا الداعي اليها . ثم انحدر ليرى هل بقي في المريكز رمق فوجد ان رأسه انقلق والدم يجري منه كسيل متدفق وقد اسلم الروح في رمشة عين . فصعد السفح بجهد وكان معبلي قد اعدَّ الفرسين وهو مقشعر البدن من هذه الفظاعة الجهنمية . فالتفت لوقا بكسائه وركب وركب وراءه معبلي وسارا يهبان الطريق . فلما دخل باريس قصد رأساً المنزل الاحمر وعاد معبلي بالخيل . وجعل لوقا يقصّ على بريقة خبر مصرع المريكز فانتت على حذقه في التدبير وقالت له اما انا فسعيت وبعد ساعة اعرف النتيجة فاذهب الان وغير ملابسك فذهب وقد ايقن بيلوغ المرام

الفصل الثاني والثلاثون

« همّ واهتمام »

ليلة المخابرة التي جرت بين لوقا والغولة بشأن ما فعل ثاني يوم كان رعين في قصر الجوسقي في قلق شديد من غيبة المريكز وما كان يصدق ان النهار يطلع عليه حتى يلقاه

ويأخذ شهادته وكان اسفه على فقد حنة من يده قد زاد بلباله واجرى دموعه ناراً على وجته . وكان معه صورة حنة على صفيحة صغيرة من عاج في ذخيرة لطيفة الصنعة . اهدتها اليه حنة قبل ذلك العهد بسنة . فوضع الصورة امامه وجعل يتأمل فيها وينتحب ويتأفف من خداع الدهر واتقلابه وقال في نفسه لا بد ان يطلبوا مني هذه الصورة اذ لم يبق لي حق بها فيخيب رجائي من رسمها كما خاب من جسمها ويزداد عليّ الهم حتى يقتلني بتاً

فخطر له حينئذ ان يأخذ عنها نسخة مطابقة لها حتى اذا طلبت هذه يعطي النسخة ويتعزى بالنظر الى الاصلية ويجعلها في عنقه تحت كفته يوم موته . فقام صباحاً ومضى الى صديق له من اشهر المصورين وابرعهم في ذلك الزمان . فترحب به ذلك الصديق وسأله عن احواله فشكا اليه حزناً شديداً لم يطلع له على اسبابه ثم طلب اليه ان يصنع له صورة مطابقة تماماً لتي معه فوعده انه بعد يومين يفرغ منها ويسلمها اليه فشكر فضله وخرج قرير العين من هذا القبيل وقصد قصر الجوسقي ليمتعا مشروعهما من جهة لقاء المركز الاندري عصر ذلك النهار

وكان دخوله القصر عند الظهر فوجد الخدم في اضطراب شديد وبلبال زائد فارتاع وسأل ما الخبر فقيل له ان القمص الجوسقي مات فجأة بعلة الصرع فاسودت الدنيا في عينيه وضاعت به على رحبها وصفق كغماً بكف ولطم وبكى وناح نوح الثكلى ووقف رشاده او كاد

وكان سبب هذه الضربة القاضية على القمص انه في ذلك الصباح دخل القصر رجل قبيح المنظر شاحب الجسم عليه هيئة الشيطان (هذا الرجل هو نفس قين أرسل من قبل الغولة) فسلم الى احد الخدم صرتين على احدهما عنوان القمص الجوسقي وعلى الاخرى عنوان رعين الزهري . فدخل بهما الخادم الى سيده فاخذ الصرة المعنونة باسمه وفتح اول مغلف فوجد على الثاني داخله « تذكر من صديقة قديمة » فتعجب وقال من تكون هذه ولعل المرسل وهم ثم شق المغلف الثاني ثم الثالث فوجد علبة صغيرة مغطاة بقطيفة قرمزية فزاد تعجبه . ففتح العلبة فرأى فيها حنجراً صغيراً من بلور سدادته من ذهب ففتحه واستنشق ملياً فاذا رائحة السائل الذي فيه تفوح

بعطر الورد فقال بنفسه ذكرت الآن تلك الصديقة . فلانة التي نسيتهما من مدة طويلة
لا تزال تحفظ ودادي ولعلمها اني افضل الورد على سائر الازهار ارسلت الي هذه الخلاصة
ثم قام الى الجنيحة يتمشى فشرع بخدر في دماغه ودوار خفيف ثم تزايد حتى لم
يستطع ان يمشي ورأى كل شي يدور حوله وشعر ان الارض تخسف به فصاح بخادمه
فأتى واخذ يده ومشي معه قليلاً فتلاشى وسقط في مكانه فأتى بعض الخدم وانهمضوه
واوصلوه الى سريره ومضوا في طلب الطبيب فلما اتى وجد ان الروح قد فارقت الجسد
وقال هذه ضربة صرّع قاتلة وهو شيخ لم يحتمل جسمه قوتها العظيمة
واما الصرة التي باسم رعين فلم يفظن لها احد حينئذٍ لاشتغالهم بالحزن . فقد
انقذه الله بهذا التدبير الالهي من هلاك مبين

وكانت الصرتان المذكورتان قد هيأتهما الغولة بمكرها وجعلت الحنجر في صرة
الجوسقي وفيه ذلك السائل السام القاتل لان مخبرتها في صناعة السموم لا تنكر وقد
تقدمت البراهين عليها . واما في صرة رعين فوضعت علبه صغيرة فضية منقوشة نقشاً
لطيفاً وداخلها خصلة من شعر حنة . ومن المعلوم ان رعيناً يشعر اذا رأى الشعر انه شعر
حييته لان دليل القلب لا يخدع الانسان . وكانت الخصلة المذكورة مضمخة بالطيب
المسوم . فلما اتفق لرعين النظر اليها لضمها الى شفثيه شوقاً واستنشقا شديداً ليحيي
قلبه بريح الحبيب . فكان هلاكه في ذلك قطعاً

وبعد ما ناح رعين على صديقه خرج من القصر اسيفاً كثيراً وهو يقول قد تخلى
الله عني وهدأ اركان رجائي فلنكن مشيئته لانه لا يقصد بالتجارب الا خير المتكابين
عليه . ومع ذلك قصد التوجه بنفسه الى قصر المركز الاندري املاً انه لا يردّه خائباً
اذا اطلعه على احواله

فلما كان العصر وهو وقت وصول المركز دخل القصر وسأل الخدم فاجابوه انه
لم يصل بعد ولا بد ان يصل من دقيقة الى اخرى اضطراراً . فاخبرهم رعين باسمه
ليطلعوا عليه سيدهم ووعد انه يأتي بعد قليل . ومضى هائماً في الشوارع لا يدري ما يعمل
ولا يعرف اين يذهب ولم يزل ماشياً حتى اعبي من التعب ومضى عليه اكثر من
ثلاث ساعات وهو في هذا القلق واخيراً عاد الى قصده وطرق منزل المركز فاجيب

ايضاً بالنفي وان اشتغال البال منتشر بين اهل القصر . فعاد خائباً وهو يقول . آه يا الهي
لم يبق من الامل الا هذا الباب اتأذن بحكمتك ان تسدّه دوني . فليكن اسمك مباركاً
ودخل الليل وكان بارداً جداً فقصد رعين الشارع الانطوني ونزل فندقاً هناك واكل
ما يسد الرمق وانطرح على سريره فاستغرق في النوم لشدة اعيائه فانعش النوم المستطيل
قواه العقلية والجسدية حتى رأى نفسه صباحاً في نشاطه الطبيعي فلبس ثيابه وقصد قصر
الاندرى فبلغه هناك خبر مقتل المركيز وكل الناس يرجحون ان الحادث الذي جرى
له كان اتفاقياً اذ لم يروا دليلاً آخر ووجد المسكين قيصر معلماً بعنقه في شجرة . وذلك
انه لما مضى في اثر العجلة ورأى النكبة التي ألمت بها في ذلك الوادي اخذ سيراً من
لجم الخليل وعلق نفسه ياساً

فلما علم بذلك رعين سقط في يده واتقطع جبل رجائه . فاشتغل بالله من جهة مقتل
هذين الرجلين اللذين عليهما كان اعتماده وداخله ريب في دسيسه لكن لم يكن له
برهان يستند اليه الا دليل قلبه

الفصل الثالث والثلاثون

« لوقا ورعين »

ثم شجع رعين نفسه وقال لم يبق لي شيء من الوسائط الخارجية فيجب ان اعتمد
على ساعدي وحزمي وادعو لوقا للقتال لعل الله ينصفني او يقضي عليّ فراحتي على كلمتا
الحالتين اجدها اما بالظفر او بالموت واخلص من هذه الحياة المرة فركب عجلة وقصد
منزله عند الحاجز البولسي وطرق الباب فظفر له معبلي وعرفه فسأله عن مولاه فقال
ليدخل سيدي الى قاعة الاستقبال فدخل واسرع معبلي الى غرفة مولاه فاخبره فتعجب
غاية العجب من هذه الزيارة ولبس ثيابه وخرج للقاء رعين في القاعة المذكورة
ولما دخل كان رعين واقفاً وبرنيطته في يده فحياه لوقا وقال له قبل كل شيء
ارجو من سيدي المركيز ان يخبرني ما سبب هذه الزيارة التي شرفني بها على غير انتظار .
قال يا سيدي البارون ان حرية الضمير من شئمة الاشراف فلا اكلمك مواربة ولا

- بأساليب اشارية بل اصرح لك رأساً اني آت بصفة عدوّ
- بصفة عدوّ . ما تقول وما السبب الذي جلب عليّ حقدك وانا اعلم نفسي بريئاً
 - أتزعم انك بريء
 - نعم ما اجد سبباً يجعلني عدوّاً لك
 - لِمَ هذا الرياء ايها البارون اما تعلم اني كنت خطيب حنة وقد اختلستها مني مكرّاً
 - ليس للمكر دخل في هذه القضية . واما انا فلما اتممت ما عليّ من خدمة الدوق والدوقة وارتضياني صهرّاً لم يكن بيني وبينك معرفة فمن اين اتت العداوة
 - من كونك سلبتني اياها
 - لم اسلبها وانما هي نزعت نفسها من يدك وسلّمتني اياها عن طيب خاطر
 - لا اسلم بهذه السفسطة
 - فما تحب ان اعمل الآن
 - ان تنقض هذا الزواج وتعديل عنها الى غيرها
 - هه هه . اتظن ان هذا الامر يتم في الحلم
 - يجب ان يتم في اليقظة
 - هذا تعنّت يا سيدي
 - احسبه ما تحسبه فاني مانع هذا الاقتران
 - باي واسطة يا مولاي
 - بواسطة سهلة . ان اقتلك
 - فتدعوني اذاً للمبارزة يا سيدي المركيز
 - هو ما تقول تماماً فقل لي اي يوم واي مكان تختار
 - لا اختار شيئاً ولا اقبل ما تدعوني اليه
 - عجباً عجباً كيف تتمتع
 - اذ لا داعي للمبارزة لست لك عدوّاً ولا لي عليك ثار لا يسرّني ان اقتلك كما اني لا احب ان تقتلني وقد وصلت الى حدود سعادتي فلا اطواعك على هذا الجنون رامياً نفسي بين محالب الموت . اقنعت بهذه الاسباب

فصعد الدم في راس لوقا لهذا الكلام غير انه كظم الغيظ ولزم السكينة وقال ايها
المركز هذه التهمة التي تلقىها عليّ لو سمعها الدوق الشميسي لهزأ بك لانه عرف بالاختبار
اني سللت سيفي مرتين وظفرت باعداء حنة وكانوا عدداً فلذلك ارى انك لست على
هدى بما تتكلم فارثي لحالك واسامحك

فكاد رعين يتميز من شدة الغضب عند سماعه هذا الكلام وقال وهو يزجر
« برثي لي يسامحني هذا الذي لا يقدر شر في قدره وقد علمت خساسته »

- يا سيدي المركز الآن انت في هذيان الحمى الشديدة فانصحك لوجه الله ان
ترجع الى بيتك وتستدعي طبيباً

- أيتهاكم عليّ الشقي ايضاً اما كفاه ما مضى . أيمحقني هذا المزور ويظن ان
احواله خافية عليّ ايها البارون الكرجاني يا اخس سليل من عائلة اهنت اسمها بقبائحك
يجب ان تجيئني الى القتال والا لطمت وجهك بسفاتي كالمزورة كما الطمك بهذا الكف
قال هذا واخرج كفه الجلد من يده ولطم به وجهه

فنزل كلام رعين على قلب لوقا مثل الصاعقة واخرجه بلطمه اياه عن حد
الاعتدال وكاد يثب عليه ويخنقه بيده وتيقن ان من الازوم قتل هذا الرجل الذي
يعرف شيئاً كبيراً عن حاله

غير انه فكر في نفسه ان قتله في بيته يعود عليه باوخم العواقب لانه لا بد من ان
بعض الناس عرفوا بزيارته اياه فكيف يتعذر اذا لم يخرج سالماً وكيف يخفي شلوه اذا
قتله . فآثر ان يعدل عن تقيمه الى وقت مناسب حتى يدبر التدبير اللازم

وكان الدم قد كاد يخنقه من شدة الغيظ فتقدم الى الشباك وتنفس الهواء البارد
ثم عاد الى سكنته وقال لرعين قد تجاوزت الحدود ايها المركز حتى اوجبت المبارزة

- حسناً تكلمت ايها البارون وهي غاية مرادي

- لكن لا ابارذك الا على شروط

- اشترط ما شئت

- نلتقي غداً بعد الظهر ويكون سلاحنا الحراب ولا يكون معنا شهود لئلا نضطر

الى كشف السبب لديهم وهذا لا يوافق

- قبلت بكل ما تريد فاختر الساعة والمكان
- اعرف في باريس مكاناً مسوراً لا يكون فيه انيس وهو قطعة ارض بور قرب شارع الاساوره

- رضيت فهي مكان موافق للاختلاء غير اني لا اعرف المكان
- استنظرك العصر في عطفة الشارع وامضي بك الى هناك
- اصل في الوقت المعين

ثم خرج رعين وشيعه لوقا الى اسفل السلم ولما عاد قال بنفسه غداً يلحق بالقمص الجوسقي والمركز الاندري . وما عليّ اللوم بل على نفسه فهو الساعي الى عدمه بقدمه ولما دخل غرفته حضر لديه معبلى وقال هل يأمر سيدي البارون بشيء

- نعم غير زيك وامض الى حانة جرجور وقل له عن لسان المعلم داود ان يصرف كل من يكون في حانته الساعة الثالثة وان يبقها مفتوحة سائر الليل . ثم تمضي في الساعة المذكورة بزني سائل الى جسر السيدة فتجد تحت اول قنطرة صاحبك القولي فتقول له اني احتاج اليه هذه الليلة وله مني جزاء حسن وتأتي به الى الحانة
- واذا لم اجده هناك

- انتظره الى نصف الليل فان لم يأت فوافني الى الحانة
- السمع والطاعة

وخرج يسعي حسب اشارة مولاه

الفصل الرابع والثلاثون

« رعين وقينه »

بعد ما فارق رعين لوقا قصد غرفته في فندق الشارع الانطوني وخلا بنفسه واستحضر ادوات الكتابة وجلس يكتب وصيته فوقف بها كل ما يملك لفقراء عائلته ووضعها في مغلف وختمه بخاتمه وكتب عليه عنوان الدوق الشميسي ليكون هو القائم بانفاذ وصيته

ثم حول فكره الى جهة حنة وقال كيف اموت تاركاً حنة بين يدي هذا الذئب الضاري ولا اعمل شيئاً يندرهما بالخطر من اقترانها به . فما حيلتي . اذا رفعت الدعوى لا يصدقونني اذ ليس بيدي برهان . فالأوفق ان اكتب لها بتفصيل عن كل ما بلغني من دناءة طبعه وخساسة نفسه ورداءة اخلاقه وليدبرها الله بعد ذلك كيفما يشاء ولا بد ان يكون لكلامي تأثير لما اعهد بها من سلامة الطوية والذوق

وحينئذ سطر لها رسالة طويلة من جملتها ما يأتي

« يا عزيزتي حنة كان يحق لي قبل ايام ان ادعوك خطيبي ولم اعد بعدها الا غريباً لديك او نسياً اذا ارتضيت . اعلمي ان فؤادي الذي لم يكن يتحرك الا لاجلك يكون حين وصول رسالتي هذه قد جمد في باطني . فلا اطلب اليك ان تأسني او تبكي عليّ بعد ان يطعني خصمي الطعنة القاضية . خصمي الخالي من كل شرف ومروءة . واما قصدي الوحيد ان اطالعك على دسائس هذا الخليث واكشف لك الهواية الجهنمية التي انت الآن على شفيرها . حنة استغلفك برب الارباب ان تصغي الى كلامي وتقبلي نصيحتي فالوقت لم يفت . صدقيني لاني اتكلم وقد فارقت الدنيا بحيث لا اهتم بغرض . لا تتورطي مع هذا الرجل الخائن . اتقضى العهد ولا تسلمي اليه نفسك ابدي عنك ابن ابليس وامقتي اسمه وجسمه لانه يدنس شرفك . لا بد انك علمت ما طلب اليّ ابوك من نقض عهدي ليزوجك بهذا الرجل على ان يردك الى الحياة وما كنت اعلم شيئاً عنه ولذلك اجبت طلبه صارخاً من قلب يأس كئيب لتحي حنة وان صارت لغيري واما الآن فقد تغيرت افكاري واقبلت نيقي بعدما عرفت احواله فصرت اقول . ان تموت حنة افضل من ان تتزوج بالكرجاني . لانه خائن خيث وسوف تتحققين »

ثم اخبرها بتفصيل ما عرف عنه بواسطة الجوسقي وما يعرف عنه الاندري . وايد برهانه بالموت الفجائي الذي اصاب هذين الرجلين في يوم واحد وان ذلك لا بد ان يكون بدسية شيطانية خفية جداً لكن الله لا يتركها مستورة الى الابد . ثم قال لها اخيراً « ان كنت لا تطلبين الانفصال عنه فعلى الاقل اجلي الاقتران الى سنة واحدة وهي ماضية بسرعة البرق يا حبيبتي حنة فلا بأس من صبر سنة لكي تنجلي

لك الامور وتقني على الحقائق لانه لا بد من ان الحقيقة تظهر قبل انقضاء المدة المذكورة . افعلي هذا اكراماً لشهيد حبك الذي يتردد اسمك على لسانه وترتعث به شفتاه وهو يعاني سكرات الموت »

ثم طوى الكتاب وختمه بخاتمه من ثلاثة اماكن وقال الآن اطمان قلبي فقد عملت ما علي وعلى الله الاتمام وكشف المستور فاموت قرير العين مطمئن القلب ثم قام ومضى الى منزل المصور فوجد الصورة على اتم منوال مطابقة كل المطابقة للصورة الاصلية حتى لا يفرق بينهما احذق نظر فشكر فضله واثنى على براعته واخذ الصورتين فخبأ الاصلية تحت طوقه وجعل النسخة الجديدة في علبة لطيفة ومضى في طريق القصر الشميسي . فلما دنى من الباب شعر ان قواه تلاشت فقوى عزمه ودخل وامر احد الخدم ان يعلم به سيدة القصر وادخله آخر قاعة الاستقبال

فلما اخبرت الدوقة بوجوده اتت مسرعة ولقيته بلهفة قائلة . ولدي العزيز ولدي الحبيب قدمت خير قدوم ليمجد اسم الرب . لو تعلم ما فعلت باحشائي ما كتبتك لي ليلة رحيلك على اني مع شدة اسفي ما كنت أبأس من لقائك ثانية

- وها قد اتيت يامولاني لان علياً فروضاً ودادية واحترامية لك ولسيدي الدوق وما يخفي علياً الحب الذي لي في فؤادك واذكر مدى الحياة المقام الذي كان لي في قصركم فما استحسنتم ان ابارح هذه الديار قبل اشتغاء قلبي بالوداع

- اقترح لاذن يا ولدي . ترحل عنا

- وما لي والبقاء هنا يا مولاني

- ومتى انت راحل

- هذا اليوم

- الى ابن

- الى مكان قصي لست اعرفه الآن . اسلم نفسي بيد القدر فهو يوديني الى

حيث يشاء

- وقد تأملت جداً يا ولدي ودلائل الالم والكآبة بينة الى الان على وجهك فقد

راعني امرك واخاف عليك من طول الشقة

وكان رعين يعتقد كما نعلم ان حياته لا تطول الى المساء فاجابها قائلاً لم افقد نشاطي يا مولاتي واني اقوى مما تتوهمين فسأصل الى الغاية ولعل بها راحتي
- عسى الله ان يريحك يا ولدي وان ينعم عليك بسلامة النفس والجسد وينسيك هذه البلايا الشديدة

- يحتمل هذا يا مولاتي . فما اصدق قول الشاعر

قل لمن يحمل همًّا ان همًّا لا يدومُ
مثلاً تفنى المسرًّا ت كذا تفنى الهمومُ

وبعد سكوت قليل التفتت الدوقة اليه ومدت يديها والخشوع ظاهر عليها وقالت
رُعين يا ولدي الحبيب اريد ان تصفح عن زلتنا
- ما هذه الزلة التي تذكرينها يا مولاتي

- اسأنا اليك يا ولدي كل الاساءة لكن هذا لم يكن باختيارنا وانما الدهر حكم .
ويشهد الله ان الدوق وانا كنا نودّ لو نفذيك بانفسنا . لو نخسر جزءاً من حياتنا ولا تحرم النعم الذي حرّمته . وانت لسلامة قلبك تعذر والدين يريان ابتهما هالكمة امام اعينهما اذا سمحا بكل شيء على ان تحيي . أيجتمل هذا يا رعين قل لي أيجتمل هذا المصاب يا ولدي

- كلاً يا مولاتي وقد علمت اني اخترت تنغيص عيشي حباً بحياة حنة ولو فقدتها
- أفتصفح عن خطانا

- لو وجد الخطأ لصفحت من كل قلبي

- فاذا رحلت أفلا يبقى في قلبك شيء من الحقد علينا

- بل يكون ذكركم المحبوب في اعماق قلبي وحبكم الطاهر ركن هذيدي

وبعد حديث رقيق اجري دموعها السخية قال لها يا سيدتي لي طلبة واحدة قبل ان ابارح هذا القصر الذي لن تطأه قدمي فيما بعد . ان شئت فانعمي عليّ بمواجهة حنة اقول لها كلمة الوداع الاخير . لم يبق لي في هذه الدنيا منية الا هذه

- حباً وكرامة ان كنت تحتمل مقابلتها بصبر وعزم شديد

- كوني مطمئنة يا مولاتي لست اقصد ان اعاتبها ولا اشكو اليها بليتني بل لها معي

وديعة ان اسلمها اياها وادعو لها بالخير وانصرف

- فاذا كان لا بد من ذلك فاصبر قليلاً لادعوها

ومضت وهي في اشتغال بال من جهة هذه المقابلة والحديث السري العتيد ان

يدور بينهما

وكانت قينة مجتمعة بالدوقة حين وصول رعين فلما خرجت الدوقة لمقابلته اشتغلت افكار قينة جداً من قبيل هذه الزيارة غير المنتظرة وخالجت قلبها هواجس مختلفة وصارت تحدث نفسها بما يكون وما لا يكون قائلة ما عسى ان يكون سبب قدومه الآن ماذا اتى يعمل وقد خرج من القصر يئساً واني لارى في حضوره خطراً على نفسي على اني اجتهد ان لا اراه لاني كيف اطيق ان اكنم بلبالي اذا قابلته وكيف اقدر ان ابقي متخفية لديه خصوصاً اذا جال معي في حديث الايام التي قضاهها مع حنة وقد فرغ صبرى حتى تنحل هذه العقدة الخبيثة . حتى اقترن بالبارون واخرج من القصر فاكون حرّة مطلقّة التصرف والحركة . قد ثقل عليّ هذا التخفي جداً حتى احسّ بقواي ساقطة وتجلدي نافداً . بادرة واحدة تسقط مني تقضي بكشف خيانتى . فتور قليل يبدو بملاطفة الدوقة يسبب تلف حالى . اقل خلل بالصوت او الحركة يظهر خداعي طالما شعرت ان الدوقة تلاحظ فيّ شيئاً من هذه الامور لكن الفضل لحيلة الاكسير الذي ادعى انه غير اطواري النفسانية كما غير الجسدانية لكن اذا طال الامر على هذا القدر انكشف الحجاب

وكان هذا القلق المتزايد قد غير محاسن قينة وانحل بدنها وهي لا تزال تتجلد مثابرة على الرياء تظهر من الضعف قوة غير ان وقت هذا العذاب كان قصيراً وقرب يوم الزفاف الذي به تتخلص من هذه الورطة . فهذا الامل خفف بلائها وانعش فؤادها فقالت صبراً لعل مع العسر يسراً

وبينا هي تقلب افكارها في هذه المباحث دخلت عليها الدوقة وهي في ذلك

الاضطراب فقالت لها قينة يا امي مالي اراك فلقمة ما جرى بينك و بين رعين

- لم يدر حديث جديد يا ولدي

- فليم اراك باكية

- بكيك لعذاب هذا الفتى . قد اتسعت جراحات قلبه فألمتني حتى ما استطعت
امسك دموعي
- وانا الاخرى اشفق عليه يا أمي غير اني لا اقدر ان اداوى داءه
- لكن تقدرين ان تهوئي بليتته
- باي طريقة
- اليوم مزع على الرحيل وبعد ايام يكون قد خرج من حدود فرنسا
- هذا ما يجب ان يكون لان مصلحته تقتضي ان يلازم سفينته
- لكن أيجوز ان نتركه يسافر في اشد الاحزان بلا تعزية على الاقل
- فما ترين اننا تقدر عليه حتى نخفف كرتته
- يطلب بدموع الخشوع ان يشافهك بضع دقائق
فارتعد قلب قينة وكان سحابة غشيت بصيرتها وقالت وهي لا تعي هذا ما كنت
اخشاه وقد دلني عليه قلبي ولكن لا يمكن ان اقبله
- لِمَ تمتنعين يا ولدي
- اذ لا فائدة من هذه المقابلة واجد فيها صعوبة وكدرًا له ولي وليس له معي
كلام الا العتاب فلست اقبله
- ما هذا الجفاء يا حنة كيف صرت تمقتين هذا المحب المسكين
- لا امقته لكن قلبي لا يجبه ولم يجبه
- مع اني سألتك مرة هل تحبين خطيبك فاجبتني لا اكثر منك يا امي بل كما
احبك على اني احبه اكثر من نفسي بألف مرة واحب الي الموت من ان اتخذ عنه
بدلاً . وهو الى الآن لا يزال يهواك
- اقتستحسنيين يا امي ان يجري بيننا حديث الهوى وانا الآن خطيبة البارون
الكرجاني . هذا لا يكون ابداً
- الذي يسمعك يقول انك لا تعرفين هذا الرجل فاذا فقد قلبك شعور الحب
فهل فقد ايضاً شعائر الانسانية . واني ضامنة يا حنة انه لا يدخل معك في عتاب عنيف
- وما المعنى اذن من مقابلته

- معهُ ودیعة تخصك یجب ان یسألهما الیک یداً ید
 - لیسألهما الیک فانا وانتِ سواء
 - ما كنت اعهد فیک یا حنة هذه المساواة . هذا الظلم الغریب لمحِبّ یفدیک بنفسه
 - ما حیاتی هذا ضعف قلب منی وانی لارهب حضوری بین یدیه ویرتجف بدنی
 من سماع کلامه فاتوسل الیک یا امی بدموع الخشوع ان تنقذینی من هذا الشرك
 - یا حبذا لو قدرت یا ولدی فقد وعدته وهو الآن ینتظر قدومک
 - فأخلفی وعدک واعتذری عنی
 - هذا لا یكون منی ابداً کیف اهین شرفی باختلاف الوعد لیدی مرة ثانية ألیق
 بشرفنا ان ننزل هذه المنزلة . وهل یلیق بک انتِ ان تظهری لهُ هذا الکره وتعاملیه
 بهذا العنف الذی لا یطاق وقد کان خطیکِ وحیبکِ وهو لنا حیب ونسیب یبذل
 حیاته حباً بنا . فهل فقدت فطرتک الشمسیة
 فلما رأت قینة شدة الحاح الدوقة وانه لا مناص لها من هذه المقابلة بوجه من
 الوجة اذعت لحکم القدر قائلة ما هذه اول مرة اقمتمت فیها مثل هذه الاهوال
 وکنت دائماً اخرج ظافرة وهذا آخر خطر یقع علیّ فیجب ان اجمع کل قوای واقاوم
 جهدی لکی اتملص مطمئنة
 ثم قالت للدوقة طاعتک فرض علیّ یا امه فاین اجد رعیناً
 - فی القاعة الصغری . یاکِ یا ولدی ان تجافیه بل کونی معهُ لینه الطبع سلسة
 الحدیث لانه معذب لاجلک امرّ العذاب فلا تکسری خاطرهُ ولا تسحقی قلبهُ بجفانک
 - ابذل جهدی فی مرضاته وتطیب خاطرهُ اکراماً لک
 وحينما بلغت باب القاعة وقفت قليلاً وقد خانتها قواها وخشيت ان انقلاب
 سحنتها یکشف شدة قلقها غیر انها استجمعت قواها فی الحال وملکت نفسها وشدت
 عزمها وتدرعت بدرع الکظم والتجلد وفتحت الباب ودخلت . فكان موقفها حينئذٍ
 کموقف لوقا حين دخل علی رعین وهو فی قاعته ای کان قلبها یخفق ورجلاها
 تکادان تلتویان
 فلما وقع نظر رعین علیها ظن ان قوته فارقت جسده واجتمع کل دمه علی قلبه

فزاد خفقانه ووقف فلم تطاوعه رجاله على الثبات فانسند على حرف المتكأ الذي كان فيه وقد تغيرت ملامحه وفي نفسه انها حنة حبيته

ومن المعلوم ان قينة لم تكن ترتكب كل تلك المعاصي لمجرد هوس طبيعي ولا لانها مطبوعة على حب الشر او الفطرة الوحشية بل لانها كانت ذات نفس طاعة وخاطر طموح الى المعالي فلذلك قسا قلبها الاثوي لكثرة ما مرّ عليها من الاهوال وما بقي فيها شيء من الرقة المتصف بها نوعها اللطيف . حتى لو اعترض دون غرضها بحر من الدم لخاضته بسهولة لكي تدرك ذلك الغرض الذي طوَّحها كما علمنا في اقبح الاعمال

غير ان قلب المرأة مهما كان صخرياً فلا بد ان يتأثر بالمظاهر الشديدة وكانت قينة اذا بلغت بعض غاياتها من المعالي تتلين بالتأثير الذي يخامر قلبها في ظروف مؤثرة فلم تنزل امرأة معها اشتد طمعها وصلد قلبها

فالمال وقعت عينها على رعين ولم تكن تعرفه اكبرت جماله الشريف ولانت لآلامه الشديدة وصبره الجميل وقالت في نفسها ها هي الغاية التي يؤدي اليها الحب الصادق فقد كانت حنة محبوبة جاً صحيحاً

وذهبت بافكارها الى ايامها الماضية فتمثل لديها ثلاثة عشاق لها لم تر من واحد منهم هذه الدلائل الحبية التي رأتها في رعين . وهم تكريد النجكي ولؤلؤ لوليان في اول امره والوالي الفرنسي

فعبست في اول الامر ثم باقل من لحظة انكشف ذلك السحاب ببرق خفيف خفي بين شفتيها القرمزيتين لعلمها ان هذا الحب الذي وصل برعين الى هذا الحد من الوفاء يتعلق بها لانها ممثلة لحنة الشمسية اتمّ تمثيل فحينئذ اطمن قلبها وعادت الى اعلى طبقة من كبرياتها وعرفت انه يسهل عليها ان تحده ملياً وهو لا يشك انها نفس حنة وانها لا تتلبك في اكثر اجوبتها ان لم يكن في كلها

فدنت من رعين حتى بقيت على خطوتين منه وقالت بصوت وقور بطيء لا فرق بينه وبين صوت حنة

- يا اخي طلبت مقابلتي وما كانت لك بمصلحة ومع ذلك الحجت فما قد اتيت فقل لي ما تريد مني وما عندك من الحديث يا صديقي فاني اسمع كل ما تقول واهتم

بمصلحتك اهتمام اخت باخبا

فوقع صوتها وكلامها في فؤاده موقع الآلة الكهر بائية وزال منه ذلك الوهن الذي القاه فيه منظرها فقال لها اما تسمحين لي بيدك . قالت ها هي ضمها بيدك فهي يد اخت مخلصه الوداد . فلم يكده يضع يده بيدها حتى تركها قائلاً بنفسه ما تقول . اخي . نعم لها الحق ان لا تدعوني الا اخاها . فقالت له بهيئة متململة الا نشاء يارعين ان اكون لك اختاً . فاحترار ماذا يجيب لم يجد قوة ان يقول لا ولا ارادة ان يقول بلى فقالت له اخبرني امي يا صديقي انك عازم على الرحيل

- وهل تبالين برحيلي او بغيره مما يتعلق بي من احوال الدنيا

- كيف لا ابالي باحوالك يا اخي ولم تظلمني بهذه التهمة اتخالي منحوتة من صخر صلد حتى انسى ما بيننا من القرابة والوداد والصلة الولدية التي استمرت مدة مديدة بيني وبينك . اما تعلم اني لا ازال اهتم بمصلحتك واسعى بما فيه منفعتك واصحبك في اسفارك بافكارى وأدعيتي

فكاد رعين يذوب كمداً من هذا الكلام اللاذع بل الكاوي وما اعتقده الا تهكماً محضاً والا فلم قاطعته بهذا الجفاء القطعي وضربت حجاً كشيافاً دون ذكر تلك الايام الغرامية اللذيذة فقال لها لومت يا حنة اكن تذر فين علي دمة واحدة - ما تقول يارعين لومت لسخوت عليك بدموع عيني وقلي . لكن احسن الحظ انت الآن في سن تكون فيه العافية في معظمها وارجو لك بقاء طويلاً وعيشاً رخياً فقال في نفسه كم ساعة ترى يكون هذا البقاء . الى هذا المساء . ثم قال لها كيفما كان نصيبي في المستقبل فما لنا وله الآن وجل القصد اني اتيت لاراك واكملك المرة الاخيرة اذ لا امل لي بغير هذه المقابلة بعدها والغرض منها الآن ان ارجع اليك كنزاً كان اثن عندي من حياتي ولم يبق لي فيه حق

فاحترار قينة ما عسى ان يكون هذا الكنز . وصبرت من غير ان تبدي كلاماً . فقال رعين اولاً هذه الرسالة (وكانت كتابتها غير واضحة لكثرة ما قبلها وسكب عليها من الدموع) التي كتبها الي واثبت فيها محبتك وقت احتضارك وقد كنت في اشد شوق لحضوري . آه يا حنة ما هذا التبديل السريع العجيب . فما انت الآن

حية في عافية تامة وقد حوّلت عني قلبك وسامت نفسك الى غيري فالآن لم يبق لي
حق ان احفظ هذه الرسالة فخذها

قال هذا وجرت دموعه كوابل المطر وخنقه الاتحاب
فتناولت قينة الرسالة ولم تلق عليها نظراً ودنت من الموقد وطرحتها في النار وعادت
وهي تتظاهر بمتح عينيها الجامدتين وقالت عليك بالصبر يا صاحبي بحياتك تشجع
- شجاع على الموت واما على الحياة فلا

وكانت دموعه تزيد فيضاً ونحيباً يتعالى
وبعد دقائق عاد الى سكنته وقال هذه الرسالة التي اكلتها النار ذكرتي اموراً
عزيزة عندي ومحزنة معاً . والآن اعيد اليك شيئاً اؤمن واعزّ بكثير منها كنت اخال
سعادتي في استصحابه فاحرمتني اياه بجفائك . ألا تذكرين يا حنة ما ظهر عليّ من
السرور والافتخار وما ذقت من اللذة في تلك الساعة المباركة التي فيها قدمت لي على
مرأى من والدتك هذه الذخيرة التي حسبها وثيقة المحبة الخالدة وعربون الصفاء الذي
كدت اصبه . ألا تذكرين ايضاً الكلام الذي انعشت به فؤادي فوق ما انعشته
الذخيرة المذكورة فزادت قيمتها اضعافاً . ألا تذكرين ذلك يا حنة . قولي بحياتك
نعم اذكره

فاضطربت قينة بهذه المسألة وما عرفت كيف تجيب . ثم صار يذكر لها اموراً كثيرة
ما ضية بهذا الشأن ونحوه غير انها لم تكن تعرف شيئاً من هذه الاحوال فازدادت
حيرتها ثم قال لها اقسمت عليك يا حنة بمن احيائك الا تذكرين هذه الامور

فلم يصعب على المحتالة ان تلجأ حالاً الى اخبث الريا واظهرت على نفسها العزة
وكسرت جفنيها وقالت بصوت وقور اما تعلم يا رعين اني لا اريد ان اذكر ما تقول
فسقط عزم المسكين بهذا الجواب السديد وقال صواباً اجبت . ما تريدن ولك
الحق كله وتحيين اخلاءه من فكرك تماماً ومحوت من كتاب ايامك الماضية كل صفحة
يذكر فيها اسمي . فخذني يا حنة هذه العلبة ففيها صورتك التي اتحفنتني بها في زمن
الخير . فمن لم يبق له القلب لا يحق له ان يبق عنده الرسم

فاخذتها وفتحها وجعلت تتأمل في تلك الصورة الممثلة لحنة الشمسية واطالت

التأمل . وكان رعين يتفرس فيها منزعجاً خائفاً ان تنكشف حيلته (لان هذه هي
النسخة التي نقلها صاحبه المصور عن الصورة) وتقول له اردت ان تخدعني فما هذه
صورتى بل منقولة عنها فاعطني الاصلية يا محتمل
غير ان خوفه لم يتحقق لان قينة اطبقت العلبة ووضعتهما في جيبيها . فاطمان باله
وقال لها لم يبق لي منك شيء فكوني مسرورة

- يا صاحبي سلكت مسلك الاستقامة فاشكر صنيعك من صميم قلبي وقد زاد
اعتباري ووداي لك لانك حرمت نفسك من اعز تحفة عندك . نعم ان مصابك آلمني
جداً لكن هذا حكم القضاء ولا مرد للقدر . ولست ألام لانني سلكت بما تقتضيه
واجبات الانسانية

ثم ارادت قينة ان تعجل فض هذه المجلس الذي ظهر لها ان وقتها قد طال فقالت
ذكرت لي امي ان لي بيدك وديعة

- نعم ها هي . واعطاها ذلك المغلف الكبير المحتوم ثلاثة اختام بخاتمه . فنظرت
اليه وقالت ما ارى عليه اسم احد

- لانه لا يجب ان يكون عليه غير اسمك

- فلي حق اذن ان افتحه

- لا الآن

- فمتى

- قبل ان اجيبك تسمحين لي ان اسألك سوألاً

- هات

فتغيرت ظواهر رعين اذ ذلك وامتقع لونه وتلعثم لسانه . غير انه تجلد اخيراً واجهد
نفسه وقال . هل تقرر يوم الزفاف

فرمته قينة بعين التعجب والحذر غير انها رأت عليه الانكسار ولم تشأ ان تصرح
له بجواب وافٍ بالفرض فاقتمصرت على قولها نعم تقرر بعد ثمانية ايام

وكانت كاذبة في هذا الجواب . لان اليوم المعين كان بعد اربعة ايام من ذلك
اليوم . فقال لها . اذن بعد ثلاثة ايام يمكن لك ان تشقي المغلف وتطلعي على ما فيه

لعلّ الله برحمته يلقى نوراً في الظلام الكثيف المحدق بنا ويبعد عنك كل خطر . اسأله
تعالى من صميم فؤادي ان يستجيب طلبي
فاضطر بت قينة وقالت في نفسها لا بد انه عارف ببعض امور مهمة ثم قالت له .
تحت كلامك يا رعين سرّ خفي فامعناك بهذا الظلام وهذا الخطر الذي تطلب الى الله
ان يبعده عني

- ما اقدر ان اجيبك يا حنة لا تلحني عليّ

- ما المانع

- لانك الآن من جملة اولئك الذين ضرب بهم المثل في الكتاب « لهم اعين
ولا يبصرون ولهم آذان ولا يسمعون وقلوبهم بعيدة عني جداً » . فمن المحال ان تصدقي
كلامي الآن

- فقد كتبت في هذه الورقة ما في افكارك

- نعم كتبت كل ما وجدته موافقاً

- فكيف تقول اني اصدق بعد ثلاثة ايام ما لا اصدق الآن

- من رسالتي هذه ايضاً تعلمين السبب

- واذا توسلت اليك ان تخبرني الآن

- لا اجيبك بحرف ولو زاد مقتك لي

- فانا اسأل البارون الكرجاني لاني اعتقد انه يعرف شيئاً من ذلك

- اقسمت عليك يا حنة بكل عزيز عندك ان لا تخونني آمالي . اياك ثم اياك ان تفوهي

امامه بكلمة او تظهرى اقل تلميح بهذا المعنى . وما عليك لو صبرت ثلاثة ايام . واذا

شعر ان معك رسالة مني فانه يبذل كل جهده حتى يقف عليها . فاياك يا حنة بحياتك

والا فيا الضياع كل رجاء

ففظنت قينة ان في الرسالة وشياً بالبارون او نحو ذلك من الارجيف . فوجود

رعين مذ الان صار لديها من اكبر الاخطار . فقالت له بصوت رقيق يا رعين .

يا اخي . يا صاحبي سكن روعك خفض عنك همك لست اخالفك حتى اني لا اطلع

امي على شيء مما دار بيننا وبعد ثلاثة ايام تماماً اقرأ ما كتبت لي

- اتعديني بذلك يا حنة وتصديقين
- اعدك غير مخلفة . وعد شريفة شمسية
- وانا اثق بكلامك يا حنة يا مالكة روحي وقلبي في الامل العظيم بناء على وعدك
- ان اكون في رحبلي مطمئن القلب واودعك الآن الوداع الذي لا لقاء بعده راهناً
- بين يديك صدق ودادي

فقالت في نفسها هذا املي . ثم قالت له لا تقل الوداع الاخير فيسمع الله ان
نلتقي اكثر من مرة

- هبهات فقد فات ما فات

ثم خرج من القصر الشميسي لا كما خرجت امرأة لوط من سدوم . وفي اعتقاده
انه لا يعود اليه الدهر وقال في ذاته عسى موتي ان يكون واسطة خلاصها فاموت
سعيداً قرير العين

واما قينة فلما رأتها خارجاً تنفست الصعداء ونهضت الى الشباك المطل على الدار
وتبعته بنظرها حتى دخل احد الازقة واختفى فقالت الآن استراح بالي فقد احسنت
التصرف ولم يشك اني حنة . فمسكين هذا الرجل كم يقاسي من العذاب فقد اهمني
امرهُ ولو كنت حنة لما تقضت حبه ولو هلكت لاحتمل لاجله اكثر مما احتملت .
غير اني قينة ورعين لا احسبه الا عدواً لي . ولا بد ان في هذه الرسالة افادات كبيرة
والوقت شقت المغلف ونشرت الرسالة واخذت تقرأ . واذا بالباب قد انفتح ودخل
لوقا الكرجاني فتحرك للقائه فوضع اصبعه على شفته ان لا تبدي حركة

وكان من عادة لوقا اذا دخل القصر ان يقابل قينة بحضور ايها او امها او كليهما
فلا يقدر ان يكشف لها اسراره واما هذه المرة فدخل خفية لم يعلم بنفسه احداً .
وذلك انه اتى قبل وقته المعتاد وعرف من الخدم ان رعبناً مجتمع بالدوقة فاهتز بدنه
حنقاً وقال للخادم الذي رآه لا يحسن ان تقطع حديث السيدة مع نسيها . والخادم
يعرف ان البارون خطيب حنة فلم يعترضه بكلمة في دخوله . فبلغ باب القاعة واصفى
فسمع صوت قينة فاستتر بسجف الشباك من الخارج وصار يسمع ما دار بينهما من
الحديث . فلما خرج رعين اظهر نفسه لقينة كما ذكرنا وطلب اليها حالاً ان تسلمه الرسالة

فما ترددت فصار يقرأها وهو يتبسم وقال بالحق ان هذا الرجل عدو مبين وقد عرف
بفطنته اموراً كان قلبه مشتغلاً بها فقالت قينة ما الخبر فاعطاها الرسالة وقال اقرأي
فصارت تقرأ ووجهها يصفرّ وجسمها يرتعش ثم سألت هل في هذه الارجيف صحة

- نعم كلها صحيحة

- فصرنا نخاف الجوسقي والاندري خوفاً شديداً

- لا يرُعك امرهما فقد سمعت انا والغولة باهلاكما في يوم واحد

- وليس خوف من ان يشعر احد

- سلكننا مسلماً اخفى من مدارج النمل فهل عندك شك في حسن تدبيرنا

- ومن اين عرف ذلك رعين

- لا يعرف شيئاً عن يقين لكن على سبيل التخمين وبناء على حدسه حذر هذا

التحذير وهذه فطنة غريبة منه ان يظن ظناً يظهر كاليقين

- نعم نعم وقلبي يقول لي ان نخشى ونحذر جانبه لاني اخال انه يكون سبب هلاكنا

- وقد خانك قلبك لان رعيناً يرحل من الدنيا بعد ساعة

- نعم يقول في رسالته انه سيبارزك

- ويؤكد انه يقتل فكانه نبي جديد

- ومن اين تعرف انت انه يكون المقتول

- لاني لا اعمل شيئاً اتكلاً على التوفيق فقد اخذت الاحتياطات المتكفلة بنجاحي

- فلست تتوقع فشلاً البتة

- كلا فبعد العصر بنصف ساعة تكون نفسه قد فارقت جسده

- وما تفعل برسالته هذه

- لتكن من نصيب النار

- والوصية

- والوصية ايضاً وليتدبر ورثته كيف شاؤا . أمن همنما النظر في مصلحتهم

فالقت قية: تلك الاوراق في النار فاحترقت الا المغلف الذي عليه اسم الدوق

فانه كاد يفنى واذا بالدوقة داخله فعجبت من وجود لوقا غير انها اظهرت له التودد

ولاطفته ثم اخذت بيد قينة على انفراد وقالت لها ما فعل رعين

- مضى في سبيله
- مرتضياً ام غاضباً يئساً
- بين بين والرضى اكثر
- ألم يصادف البارون
- لا والحمد لله
- وهل بقي مصرّاً على الرحيل
- قاطع به وقد صوبت انا فعله
- مسكين رعين ليكن الله له مرشداً وحارساً
- سنصلي لاجله يا امي
- هل اعطاك الوديعه التي ذكرها
- لم تكن الوديعه الاحمجة لفقها لاقابله . ولم يذكر لي عنها شيئاً في اثناء الحديث فلم تزد الدوقة على قينة بحضور البارون فاختلط الثلاثة ودار حديث خفيف لان لوقا لم يشأ ان يتأخر عن ميعاد رعين وقد دخلت ساعة لقاءهما . فكان يسهل عليه ان يغدر به لكن لا يسهل ان يؤخر اهلاكه دقيقة لكي يتخلص من غوائله فاستأذن الدوقة بالانصراف لاغراض موجبة فاذنت له قائلة نحب ان تتعشى عندنا هذه الليلة قال يا سيدتي اتعلمين اني اتعال بالتقصير عن الشرف الذي يكون لي بالاجتماع بكم على المائدة كما اتمناه في كل فرصة ثم قبل يدها ويد قينة وهمس في أذنها قائلاً هذا المساء أخبرك ما يجري بيننا
- وخرج وكان معبلي ينتظره في عرصة الدار ويديه الفرسين فركب وسار مسرعاً لكي لا تفوت دقيقة من ميعاد التقائه برعين . وتبعه معبلي على الفرس الآخر

الفصل الخامس والثلاثون

« الغدر »

كانت الساعة التاسعة من النهار حين وصل لوقا الى منعطف شارع الاساوره فوجد

رعياً في انتظاره فقال له يا سيدي المركزي ان كنت قد تأخرت فارجو عفوك

- لم تتأخر يا سيدي البارون لكن انا سبقت الوقت

- فانا الآن رهين امرك

- وانا الاخر تابع اشارتك . سر امامي

فشي لوقا بجانب رعين يقصد به المكان المعين للمبارزة . فشيأ اكثر من مائتي خطوة على محاذة حائط مرتفع قديم قد تلبد الحشيش اليابس على اسفله ونبت العشب البري على جوانبه واعلاه . ثم وصلا الى باب صغير عتيق يكاد يسقط من كرور الايام فوقف لوقا امامه وقال وصلنا ثم دفعه فانفتح وقال تفضل بالدخول يا سيدي المركزي فدخل رعين وتبعه لوقا واقفل الباب

فلما توسطت تلك البقعة . قال لوقا ترى يا سيدي المركزي اني احسنت النظر باختيار هذه البقعة القفرة لاني لا اجد في انحاء باريس ولا ارباضها اكثر مناسبة منها لمبارزة رجلين شريفيين لا يجبان ان يطلع احد على سبب مبارزتهما ولا يراها يقتلان الا عالم الغيب

- نعم اصبت ايها البارون وخير ما عملت

وكانت تلك الارض قطعة مربعة مستطيلة فسيحة الجوانب فيها بعض اشجار راتينجية متفرقة هنا وهناك وبينها فسحات جرداء وحول الاشجار وعلى الجدار المحيط كثير من اللبلاب ونحوه من النباتات المتعرشة متلبدة متراكبة وعلى الارض تحت الاشجار بساط كثيف من اوراق الصنوبر الابرية اليابسة لا يسمع لمن يدومها حس وطء . وكان على تلك الاشجار سرب من الغربان نفرت عند دخول الخصمين وهي تنعب منذرة بالويل العتيد ان يحل باحدهما ومستبشرة بطعام جديد

فانقبضت نفس رعين بهذه المناظر المحزنة وعلى الخصوص لان الغيوم الدكناء كانت منتشرة في الجو وشمس الاصيل وراءها لا يظهر منها الا نور ضعيف فقال ان الطبيعة قد لبست علي حلة الحداد سلفاً

واما لوقا فلم يكن مكتراً بهذه المظاهر المؤذنة بالكآبة في مثل تلك الساعة الهائلة لانه كان قد ألف تلك الاماكن وعرف ما وراء تدبيره من راحة البال فكان كأنه

قادم الى مكان نزهة . فتقدم بنشاط وقدم ثابتة يتخلل الحمايل والفرج الى ان انتهى الى اكبر فسحة في وسط البقعة كان طولها نحو ثلاثين ذراعاً وعرضها اقل من نصف ذلك واشجار التنوب قائمة حولها كسورٍ متين وفي احد طرفيها سنديانة كبيرة متهدلة الاغصان خلفها عدة سروات متكاثفة مشتبكة بعضها ببعض فهناك وقف لوقا وجعل ينظر حوله وقال اظن ايها المركز اننا لا نجد مكاناً

احسن من هذا

- هو ما تقول فقد استحسنته انا ايضاً

- فلا نسعى في طلب غيره

- لا لزوم

- الارض سلسلة والتربة لينة ليس حصى فنعثر ولا عشب فتزل القدم . وفي هذا المكان ساعدني القدر فاتصرت على ثلاثة اقران بارزتهم فجعلت اقدم عن انفسهم قدّاسات في كل اسبوع . فاذا كنت الرابع يا سيدي المركز فاني اقوم بفروض التقديس عن روحك بمبالغ اكثر مما ابذل عن انفسهم

- اما انا فاعفك ايها البارون من هذه الثقلة . والآن فلنبتدىء بما جئنا لاجله

ان احببت

- لا مانع يا سيدي المركز فاختر موقفك

- ابق في مكاني فالموقف لا يدفع القضاء

ثم استل كل منهما حريته وكان موقف رعين تحت السنديانة التي وراءها تلك

الخميعة من السرو . جرى ذلك بالطف حيلة من لوقا لمقصود سيعلم

وحينئذ اتت اربعة اعرابة ووقعت على اعلى فرع من السنديانة لكن في الحال

نعبت نعاب الانزعاج وطارت فلا بد انها شعرت تحتها بما هالها

فلم يكن وقت لرعين ان يتبصر في هذا الامر لان لوقا لم يمهله واخذ يلعب

بحريته ويحذره

فاشتبكت الحريتان واخذ القرنان يتجاولان ويتطاعنان بحذق وتيقظ . لكن ظهر

ان هذا العمل كان منهما اولاً على سبيل اللعب والمزاح فكأنهما كانا يمتحنان احدهما

مهارة الآخر وقوته . ثم جدَّ بهما الامر واحتدمت نارهما

وكانت القوة بينهما متعادلة لكن المهارة متفاوتة فكان رعين احذق من لوقا ولم يظهر من حركات لوقا الا ما يدلُّ على الدفاع . واما طعناته بشدة ذراعه وقصد المواقع فيها فلا يشك من يشاهدها الا ان تكون الصائبة القاضية

وشعر رعين انه مستطيل بمهارته على قرنه فاحبى الامل نفسه وانعشت الحماسة قلبه وظن انه الظافر اولاً وآخراً . وكان يقول بنفسه الله عادل وهنا يظهر عدل الحق سبحانه . ولا بد ان يقتل احدا فلم اخاف ان اكونه . فاذا اعانني الله وقتلته فقد ازلت الحاجز الذي يفصلي عن حنة وعاقبت رجلاً مدناً بالقبايح مكثرًا من الجرائم والآن قد احببت الحياة اذ لا دليل على كرهها والرب يعينني

وهكذا هبَّ على روحه نسيم الرجاء فبدد غيوم الهواجس التي كانت نغصة حياته وصار لوقا يزداد حماسة ويحتدم غيظاً ويسرع الطعنات فلا تصادف الا درعاً

منيعه من حربة رعين

وفيما هما كذلك رفع لوقا صوته بشيعة فسمع خشيش خلف رعين بين السروات فالتفت رعين لفته كرمشة العين فلم ير شيئاً وانتهز لوقا الفرصة وطعنه في ذراعه فجرحه جرحاً خفيفاً فرأى رعين دمه يجري فاستشاط غضباً وضاعف عزمه واخذ يتناول على قرنه يحيره بطعنات مختلفة ما كان يشك ان واحدة منها تصيبه فتخرق صدره وقد علم من لوقا عجزاً واضحاً وتغيرت الوانه وتضعفت احواله وعلا الزبد شديقه وهو يدافع حائراً دهشاً من مهارة رعين وتيقن انه مقتول فصفر صفره خفيفة فانفرجت اغصان السروات المشتبكة بسرعة وخرج رجلان بيد كل منهما حربة وطعنا رعيناً من وراء دفعة واحدة ووثب عليه لوقا حالاً وهو دهش مرتبك وطعنه في صدره فسقطت حربته من يده وتضعضع وصاح بصوت ضعيف مرتجف « نذل غدار » وتدفق الدم من فيه فلم يقدر ان ينطق بحرف بعدها ووقع على ركبة واحدة اولاً ثم اقلب ووجهه الى السماء وهو يتشحط في دمانه فسمع صوتاً يقول « مات العمين » ورأى شبحين انحيا فوقه فشهد لهما صورتين جهنميتين ثم ما عاد يسمع ولا يرى

وكان هذان الخائنان قيناً والقوئلي

وقال قين لاشلت الانامل غير ان ثلاث طعنات في بدن رجل شريف هذا امر عظيم عظيم . وقال القوقلي سلكت مسلك الامانة فارجو ان تحسن مكافأتي . ثم التفت قين الى لوقا وقال اتعرف ايها البارون ان هذا الرجل خصم الدّ وقرم عنيد فلو تأخرت نصف ثانية عن الاستغاثة لعلم الله ما كان حل بك من الويل . أما انا فقد علمت موقع الخطر ودبرت احسن تدبير فلو لم اسمع صفيرك في وقته ما كنت صبرت والحمد لله قد قضي الامر وسأصلي عن نفس هذا المسكين لسيدتنا الاطوشية وما يعقوب القمبسطلي . فقال لوقا حسناً تفعل ايها السيد الشريف الاندلسي لان غير صلاتك عن نفسه لا تستجاب واما انا فقد وعدته اني اقدم عن روحه عدة قداسات ولا احمل على استهزائه بي حقداً لان من مات لم يبق له عدو وليس في الموت شماتة - والآن ما يأمر سيدي البارون انقل شلوه ام نقيه لهذه الغربان القادمة

تطلب رزقها

- لانبقيه لان ذلك منافٍ للانسانية اولاً وفيه مخافة كشف اعمالنا ثانياً
- وليس عندنا هنا ادوات لنحفر وندفنه
- انا ادبر فلفاه الآن بردائه واحمله واتبعاني
فعلا ما امر ومضيا وراه فصار امامهما الى زاوية هناك بعيدة عن الباب الذي دخل منه هو ورعين فبلغ حفرة صغيرة كانها صهريج او بئر عميقة وفوهتها على مساواة الارض قد اشتبك عليها الحشيش والتف على الجدران السفلى العليق ونحوه من النباتات المتعرشة حتى لا يخرقها النظر الى قعر الحفيرة

فقال قين ما هذا

- هذا صهريج مهجور
- فهنا نطرح المسكين
- لهذا عينه امرت ان تأتيا به
- رأي صائب فهنا له مقرّ امين خالٍ من العذاب والشقاء
وحينئذ القياه في تلك الحفرة فخرق الجسد تلك النباتات وفتح فيها منفذاً سقط منه الى القعر ثم رجعت الاغصان بمرونتها الا انها لم تسد الخرق سداً تاماً لكن نظر

الثلاثة في العمق فلم يقع نظرهما على شيء إلا الظلام في خلال النباتات المتراكبة .
ورأوا آثاراً من الدم عليها

فقال قين ليس تدبير احسن من هذا فمن ترى يحمله الجنون والحق ويأتي الى هنا ليبحث عن جثة رعين فيستدل من اثر الدم . لا يظن ان هذا يخطر ببال احدق الباحثين . فقال لوقا لم يبق لنا هنا مصلحة . ثم مضى ووراءه قين والقوqli فبلغوا الفسحة التي جرت فيها هذه التكبّة الغدرية ولبس لوقا كساءه واعطى رفيقيه عدة دنانير ثم تقدموا جميعاً الى ذلك الباب الصغير فقال لوقا تجسسنا الطريق . فنظروا واذا هي خالية من كل انيس فقال اخرجا اولاً فخرجا فاغلق الباب واقفله من داخل فقال قين وانت يا سيدي البارون انبقي هنا قال لا فاني سائر على اثركما قال وكيف تخرج وقد اقلت الباب فهل تطير من فوق الجدار . فلم يجبه بل مشى خطوات الى جهة اليمين وكان هناك في الجدار تقور منحوتة في الحجارة لوضع الارجل والايدي فصعد لوقا بواسطتها حتى علا الجدار وتزلق بحفته فبلغ الارض سالماً . فقال قين واهاً خلقتك ايها البارون فقد فاقت خفة القرد ونشاط الهرم . لكن لم هذا العناء كله . قال ايها الفاقد الرشد انبقي الباب مفتوحاً ولا نحسب ان فضولياً يدخل ويتمشى فيرى آثار الدم قال واهاً لك تبصر في ادق الامور وليس في هذا العالم من يائلك الا اخي قينه . فسرّ لوقا بهذا المدح وقال وافق شنّ طبقة (١)

الفصل السادس والثلاثون

« سرّ عجيب »

بعد هذه الخدعة الشنيعة سار لوقا رأساً الى القصر الشمسي فتعشى هناك واخبر قينه خفية بكل ما جرى . وفي الساعة الرابعة من الليل قصد المنزل الاحمر وقابل بريقة فاطنبت في الثناء عليه لانه احسن التدبير وكان قين قد بلغها ما توقع لهم فقال لها لوقا الآن اطلب مساعدتك

- اساعدك بكل ما اقدر عليه فقل ما تشاء
 - اسمحي لي بفانوس حرامية والمجرقة والمسحات
 - وما مصلحتك في ذلك
 - اعمل كما عملت لجنة الشمسية
 - ومن الذي تريد دفنهُ
 - رعين الزهري
 - اولاً يوافق المكان الذي القيتهُ فيه
 - لا يوافق لان الصهر يج المذكور هو الذي ذكرته لك مساء الثلاثاء ثالث المرافع
 - واخبرتك انه يتصل بالاقبية التي تحت فندق الشيطان بواسطة دهليز فاذا نقلت اليه
 - ادوات معمل الزيوف لا يحسن ان يوجد لجثة رعين اثر لان منفذ الفعلة يكون من
 - ذلك الصهر يج
 - وابن تحفر له قبراً
 - داخل البربي
 - متى
 - في نفس هذه الليلة
 - انمضي وحدك
 - آخذ معي قيناً ومعيلي
- فقامت واعطته ما طلب فحمل المجرقة وحمل قيناً المسحاة والفانوس وخرجا من الباب الصغير النافذ الى زقاق الاستفاضة . وكانت العجلة التي قدم بها لوقا من القصر الشميسي باقية في آخر الزقاق ومعيلي واقفاً امام الخيل والسائق في مكانه فدخل لوقا وقين وجلس معيلي بجانب السائق . وقال الى ابن يا سيدي قال الى شارع الجحيم فمشت بهم العجلة الى ان بلغوا الوجه الآخر من ذلك الحائط العالي فامر لوقا السائق فوقف فنزل وقال لقين ومعيلي سيرا ورأي . فحمل معيلي الادوات وتقدموا وكان الظلام حالكا فتعجب قين من هذا الخروج الليلي ورأي ان الحائط المذكور ليس له انتهاء لانهم مشوا مسافة طويلة

ثم وصلوا امام باب كبير من خشب ضخيم مبكّل بالحديد وعلى ظاهره مسامير ضخمة بارزة الدمايك . فجعل معبلى يذكر الله ويصلي صلاة يزعم اهل بريتانى انها تدفع اذى الجن والارواح الشريرة . فقال قين ما هذا يا اخي قال هذا منزل الشيطان . وكان لم يسمع قط بهذا الاسم فجزع وقال نوكت على سيدتنا الاطوشبة ومار يعقوب القمبسطاني ليجرساني من الاباسة والجن في هذه الليلة الكريمة

ولم يزالوا يتقدمون حتى انعطفوا الى جهة اخرى من ذلك السور وحصلوا امام باب صغير سرى وراءه باب كبير ذو قفل متين ففتح لوقا الباب المذكور وقال ادخلا فقال معبلى العفو يا سيدي اليس هنا منزل الشيطان قال بلى قال فكيف تأمرنا بدخوله واسمه يوقع الرعب في القلوب

- امرت فلا تراجعني
- امرك على رأسي يا سيدي لو امرتني لطرحت نفسي في النار والماء اما هنا فاخاف ان ادخل

- ويلاك ما هذا الجنون
- ما هو الجنون بل الرعب
- وماذا تظن هنا من المخاوف وهذا المكان مهجور منذ خمسين سنة
- ولنفس هذا الهجران صار مسكوناً بالجن فانخوف منهم لا من البشر
- دع عنك هذه الخزعبلات وانف وساوسك العجوزية . قلت لك فيجب ان تدخل فاني محتاج اليك

فاذعن معبلى كرهاً وجعل يصلي وهو يتردد عن الدخول . فجعل لوقا يبرر ويشتم واخذ غدارة وقال قسماً بشرفي اذا ترددت دقيقة خرقت دماغك وكان معبلى يعرف طبيعة سيده الشريرة وانه متى توعد لا يخلف فوقع بين شرين اختار اهوئهما ودخل وهو يرتعد

واما قين فاقشعرّ بدنه وسمع صوت اصطكاك اسنانه غير ان خوفه الشديد من الغدارة قوى قلبه فتأثر معبلى وهو يتمم بقطع مختلفة من الصلوات التي يحفظها على اسم السيدة الاطوشية ومار يعقوب القمبسطلي . واما لوقا فدخل وراءها واظهر نور

القنديل فسطع في دائرة ضيقة وردّ الظلام اشدّ ادلهاماً . وكانت تظهر به جذوع
 الاشجار الضخمة قائمة كاساطين من الفحم . وتماثل مقطوعة الرؤوس كأنها اشباح
 بيضاء ولم يكن في تلك البقعة طريق ظاهر لان العشب كسا وجه الارض منذ عهد قديم
 وكان لوقا يسير على خط قويم فاذا صادف عليقاً او عوسجاً يجيد قليلاً ويعود الى
 منهجه الاول . ووراءه قين ومعيلي يهتميان بظله وشجاعته من الارواح الموهومة هناك
 وكان لوقا يعرف مسالك ومنافذ ذلك القصر والارض الذي هو فيها فصار يهتدي
 اليها لثلاً كما يهتدي نهراً فدار حول ابنية القصر حتى صار عند الخلفية وبلغ خرقاً كبيراً
 كأنه مكان باب فدخل منه قبواً كبيراً كان في ايام عمران القصر مطبخاً له ثم
 صعد سلهماً تودي الى الطبقة العليا وجعل يطوف المقاصير والحدود والمحادع والقاعات
 الخاوية على عروشها الى ان دخل منزلاً كان معبد القصر وقد فعلت الرطوبة فيه فعلاً
 عظيماً وعشش فيه البوم

كل هذا وقين ومعيلي يمشيان ووراءه وهما يرتجفان من هول هذه المناظر الكثيرة
 غير انهما تعجبا من وجود معبد في منزل الشيطان

وتقدم لوقا امام المذبح الرخامي وجعل يده على صليب من نحاس في وسط البلاطة
 الامامية وكبس عليه ففرق في البلاطة وارجع لوقا يده بها فدار المذبح بتمامه وظهر ووراءه
 في الخائط خرق مربع يدخل منه الرجل وقال لرقيقه ادخلا فتهند معيلي وقال في منفذ
 جهنم ايضاً نخاطر بارواحنا فلم يجبه لوقا الا بامره الجافي فاغمض قين عينيه ودخل وتبعه
 معيلي وهو يتلو صلوات مختلفة لطرده الابالسة وتبعهما لوقا

فنزلا سلهماً طويلاً ذات ستين درجة فبلغوا دهليزاً في طرفيه بابان كبيران مقفلان
 باقفال ضخمة ففتح لوقا الباب الاول ودخلوا في ذلك الظلام الهائل وفتح الباب الآخر
 فحصلوا في برني عظيم فيه مئان من الاساطين والقناطر يمكن لثلاثة آلاف رجل ان
 يكونوا فيه بسعة لاي عمل كان

وكانت ارض ذلك البرني مفروشة بطبقة سميكة من الرمل الناعم حتى لا يسمع
 فيها صوت وطء الاقدام الذي يرجعه الصدى ترجيعاً مخيفاً كما يرجع كل صوت
 باضعاف اضعاف قوته وعطفوا الى اليمين فوصلوا الى فوهة مهواة مشبكة بالحديد كانت

بأباً للقسم من البربي الذي ذكره لوقا لبريقة وأنه يكون معمل الزيوف وهناك سلم ذات
اثنى عشرة درجة تؤدى الى منفذ دهليز ضيق منقور في الصخر يتصل بمقلع قديم
العهد محفور في سهل الجبل الاحمر

فظافوا ذلك البربي طولاً وعرضاً الى ان بلغوا قبة متصلة بالارض تدل على ان
ليس وراءها منفذ

فظن قين ومعيلي ان تطوافهم الخيف قد انتهى غير ان لوقا عطف شمالاً وانتهى
الى شفير بئر ظن انها عميقة جداً ينبعث منها نسيم بارد يجمد الدم في عروق البدن
فالتفت لوقا الى صاحبه وقال اتركنا المجرفة والمسحاة واتبعاني ثم انحدر في تلك الفوهة .
فاشعر بدن الرجلين وقالاه هذه خاتمة مخاوفنا هنا الجحيم لا شك ومقرّ طغيات الابالسة
ولا يمكن ان نخرج بعد من هذه الهاوية فصاح بهما لوقا قائلاً لِمَ هذه المخاوف الخرافية
انزلا ورأيي . فصار قين يلطم ويدق صدره ويقول يا مار يعقوب القمبسطلي الكبير
احرس عبدك الصغير يا سيدتنا مريم الاطوشية لا تتخلي عنا وقال معيلي يا سيدي
البارون ابن انت فقال اما تدري يا انحس خلق الله اين انا اما تسمع صوتي هل يلزم
ان ارجع واجرك باذنك حتى تلحق بي . فحينئذ اطمان بالهما وعرفا ان لوقا لم يصبه
شرّ الشياطين فلا خوف من النزول وراه فنزلا وركبهما ترتجف

والحق ان تلك البئر لم تكن عميقة كما توها بل كان عمقها نحو عشر اقدام فيمكن
النزول الى قعرها اما بوثة واحدة كما فعل لوقا او بواسطة سلم من حديد معلقة في جدارها
وكان في احد جوانبها خرق صغير كالباب يؤدى الى دهليز متسع طويل فولوجه لوقا
امامها وتقدم وشعروا بنسيم بارد يدل على ان الدهليز يؤدى الى الخلاء . وصار
الدهليز يتضايق كلما تقدموا حتى لم يعد رجلا ن يمشيان الواحد بجانب الآخر . فانهوا
الى خرق مسدود باغصان مشبكة من النبات الشديد النمو هناك

فالتفت لوقا الى قين وقال أندري اين نحن الآن قال ويلى من اين لي هذه
المعرفة قال هنا الصهرج الذي القيت فيه جثة رعين وفوقنا الحظيرة التي طعته فيها
بحر بتك النفاذة

ثم زحزح لوقا تلك الاغصان المشبكة ونفذ وتبعه صاحباة فقال لهما هنا الجنة

تقدما ولفأها بالرداء ولزرجع من حيث اتينا ثم وجه اشعة القنديل الى وسط الصهر يج .
فتقدم الرجلان وصارا يبحثان فقال معيلي يا سيدي لا نجد شيئاً
- كيف وبحك لا تجدان شيئاً هذا لا يمكن

- تعال وابحث بنفسك

- يا للعجب العجيب هل اتى الشيطان واحتمل الجثة لا بد من هذا او وجودها

فقال قين لو حسبتها مثل الابرة لما خفيت علينا فعمل الصهر يج غير هذا

- لا صهر يج غيره وما اظن اني غلطان

ثم تقدم وصار يبحث بنفسه فلم يجد شيئاً الا آثار الدم المتجمد على الرمل . فوقع
في حيرة شديدة ووضع يديه على رأسه وقال ما هذا السر العجيب اين اختفت الجثة
من اخذها من هنا ليس الا الشيطان او انا في حلم . يا للعجب ما العمل . لا بد ان
اعرف هذا السر الخفي . فقد اعتراني الخوف والانهال من هذا الاتفاق الغريب
فلاسمع قين ومعيلي هذا الكلام وعلماً شدة حيرته ما عادت ارجلها تحملها من
شدة الخوف وكادا يسقطان مغمى عليهما

الفصل السابع والثلاثون

« التهاويل »

و بعد صمت طويل امر لوقا بالرجوع فإصدق المسكينان ان سمعا هذا الامر
حتى انسلتا باسرع من الطير وودا لو كان لهما اجنحة ليطيرا ويتخلصا من هذه الورطة
الوخيمة . فسبقا لوقا خطوات وكان قين امام رفيقيه فلما توسط الدهليز وقف وصاح
صيحة شديدة وجثا على ركبتيه وفعل معيلي فعله وصارا يتلوان الصلوات المعهودة .
فقال لوقا ما دها كما قال قين انظر يا سيدي آه يا مار يعقوب اشفق علينا

فنظر لوقا واذا في اعماق الدهليز نور ضعيف يلوح كالحجاب

فصاح لوقا طر بآ وقال اصبت الغرض فاني الان اكشف السر وتنجلي لي
الحقيقة . ثم وضع القنديل من يده واستل سيفه وتقدم لا يميل اذناً الى توسلات
قين ومعيلي

ولم يزل جارياً بنشاط حتى قطع مسافة خمسين خطوة فتعزلت رجلاه بشيء امامه
وسقط على طولهِ فنهض حالاً ولم يمسه ضرر واراد تتبع النور فنظر واذا هو قد اختفى
فصار يبرر ويهدم ويترجى ويهدر كالبعير ويقذف بانواع الشتائم ويضرب
الشيء الذي عثر به ووصل قين ومعيلي بالتعديل فنظر واذا هو رداء ملفوف قليلاً
فجسه فوجد عليه خشونة وجفافاً من اثر دم متجمد عليه فحقق النظر فيه فعرف انه
رداء رعين . فازداد حيرة وقال من اين اتى الى هنا كيف وجد في نصف ساعة عثرة
لنا ولم نصادف احداً في مرورنا

ثم اتم سيره وهو شديد الانذهال وخامر قلبه وجيف شديد من المخاوف التي
دعاها خزعبلية وخرافية وتضايق صدره وكاد يفقد رشده
وحينما انتهوا الى البئر التي في رأس الدهليز صعدا السلم الحديدية وكان لوقا قد
امر ان تلقى هناك الحجرة والمحسات عند ما نزلوا فوجه معيلي نور التعديل الى مكانهما
فوجد اثرهما منطبغاً على الرمل وقد فقدتا

فاشتد الخوف بقين ومعيلي حتى تلاصقت احنا كهما واما لوقا فزاد به القلق لكن
قال اذا كان الشيطان يسرق جثة فما اصدق انه يسرق ادوات حفر فما هذا الا عمل
بشر . وكنت اظن ان ليس احد يعرف اسرار هذه البرابي غيري فمن ترى شاركني
في هذه المعرفة . لا بد ان اعلم

وكانوا حينئذ قد توسطوا البربي الكثير الاساطين فسمعوا بغتة حركة عنيفة
فوقفوا كلهم مبهوتين وجد الدم في عروق قين ومعيلي والحركة المذكورة صوت شديد
تردد صدها كهزيم الرعد استدل لوقا انه ناتج عن اغلاق باب حديدي بعنف

فاضطرب اولاً اشد الاضطراب ثم سكن روعه وشد عزمه وقال لرفيقه ارى
ان خوفكما شديد فلم يكن جوابهما الا رجفاناً واضحاً كأن بأيديهما سلك الآلة الكهر بائية
فقال ما عدت احتاج اليكما فاعطيتاني التعديل وامضيا والسلم المؤدية الى المعبد امامكما
تهتديان اليها بسهولة بنور هذا القانوس . فقال معيلي ماذا يا سيدي اتبقى هنا وحدك
قال ما اعمل فقد رأيت الموت مصوراً على وجهي كما . وقال قين ايها البارون ويلي اوآه
أتركنا . أتسلنا الى ايدي الشياطين . قال لست اترككما بل ابعثكما عن مكان

الخطر والمحاوف

وكان هذا الرأي الذي ارتآه لوقا اشدَّ هولاً على المسكينين من اعظم المخاوف
واشنع التهاويل التي شاهدها ويشاهدانها . وعرف لوقا باطنهما من جمودهما كالصنمين
او كسبحين من اخيلة جهنم . فقال ابقيا على ان لا تنطقا بكلمة ولا تبديا اقل حركة
او صراخ ولا تبرحا من ورائي

ثم مال عن المسلك الذي كان آخذاً فيه ودخل في اعماق البربي وبلغ مائدة
من الحجر صخمة حولها مقاعد حجرية ايضاً فجلس على مقعد واخفى نور الفانوس فزاد
ارتعاب قين ومعيلي من كثافة الظلام فصارا يرددان الادعية فقال اما قلت لكما لا تنطقا
بكلمة واريد الآن ان تجبسا انفاسكما والا تركنما وتخلت هذه التعاريج الخفية . فاحنى
كل منهما رأسه بين يديه على المائدة وجدا خامدي الانفاس

واما لوقا فوضع الفانوس تحت المقعد واخذ غدارتيه وحشاشها وجعل اصبعه على
زنبرة احدهما وانتظر مؤملاً ان الذين في ذلك البربي اذا رأوا الظلام حالكاً وان
لا حركة ظهوروا بوجه من الاوجه وربما مروا على مقربة منه فيرميهم بالرصاص
وكان يحدق بعينه ويصغى اتم الاصغاء مترصداً اقل اشارة ومضت ساعة على
هذا النمط فلم يفرغ صبره وبقي راصداً

واخيراً سمع صوت خفي كأنه صوت نغير بعيد ثم تزايد الصوت واختلط كأنه
صوت عدة ابواق فامتلات نفسه هولاً وقلبه رعباً . فاشتدت الاصوات وظهرت لها
ضجة شديدة ادوت لها انحاء البربي وشعر كأن الارض تمور بهم والاساطين والجدران
ترتجف ورجع الصدى يزيد الدوي قوة واقترب جداً من لوقا حتى كأنه صار على
خطوات منهم

فقال لوقا في نفسه ما هذا الويل . أهو الجحيم وقع الآن في هاويته الهائلة وجعل
العرق البارد يتحلب من جبينه وشفتاه ترتجفان وعيناه كأنهما تريان شرراً متطيراً
واما قين ومعيلي فانظرحا على الارض وسداً آذانهما

وبقي ذلك بضعة دقائق ثم صار الصوت يخف ويتباعد الى ان انقطع بالتدرج .
فتنفس لوقا نفس الراحة وقال انقضى الخوف

غير ان ظنه خانه لان تماويل تلك الليلة لم تبلغ غايتها . فلم تمض دقيقة بعد الهدوء حتى دههم رعب جديد . فرأى لوقا على مسافة مئة خطوة نوراً أزرق مزق حجاب الظلام وكان نازلاً من اعالي البربي ثم رأى شيئاً غريباً كجسم مدرج في كفن يتحرك حركة بطيئة في وسط هذا النور وظهر انه متجه نحوه . فعرف لوقا ان هذا الكفن الابيض ليس ضمنه جسم حي وكانت رجلاه لا تصيبان الارض . فشعر لوقا ان الدم جمد في عروقه ووقف شعره حتى صار كالآبر فقال في نفسه ما هذا الحال أفي منام انا ام جننت

واما قين ومعيلي فلما شاهدا ذلك صاح كل منهما صيحة ظن ان روحه خرجت معها . وصار معيلي يستغفر عن ذنوبه واسلم امره لله وعزم قين انه يتوب عن كل معصية اذا قدر الله له ان يرى الشمس ثانية

وبقي الخيال يتقدم والكفن محيط به من قمة رأسه الى اخصيه . ففرغ صبر لوقا واستجمع قوى عقله وقال يجب ان اخلص امألي او علي . فنهض بعزم ثابت وركض نحو الخيال وصاح صيحة شديدة قائلاً . جنُّ ام انس . ثم اطلق غدارتيه معاً فسمعت لهما هزة كهزبة عشرة مدافع تطلق معاً . ولما انطلقا شهاب البارود اختفى الشبح وحللك الظلام . فالتفت لوقا الى ناحية المائدة وقال « معيلي الفانوس » غير ان المسكين كان قد فقد السمع والبصر وسقط لا يعي على شيء ، فكرر نداءه فلم يسمع جواباً فاشتد غضبه وبذلك تجددت قوته . فترجع معسفاً وبلغ المائدة فتناول الفانوس من تحت المقعد وكشف نوره ونظر فاذا قين ومعيلي معي عليهما . فلم يكثرث بهما حينئذٍ ووجه نور الفانوس الى مكان الخيال فظفر فرحاً وقال لا شك اني قتلت او جرحت احداً وقد كشفت السر . فدنا واذا جسم ابيض جامد ملقى على الارض فديده وكشف عنه الكفن ونكص صارخاً بصوت اجش والقي الكفن على ذلك الجسم وذلك انه رأى هيكلاً بشرياً بجمجمة والعظام لا غير . فلم يبقَ عضو من اعضائه الا ارتعد من هذا الهول العظيم واحترق في امره . وكاد يختل من هذا المظهر العجيب الغريب . وشعر ان الارض تجف تحتة وتكاد تحسف وان الاساطين تدور حوله دورة الرحي وقد استولى عليه دُوار شديد وسقط على قفاه غائباً عن الدنيا

وحينما استفاق من غشيته بعد نحو ساعة لم يقع نظره الا على ظلام حالك وطرق
اذنه عويل وانتحاب على مقربة منه فكاد صوابه يطير وقال في منام انا ام ماذا طراً
عليّ واين انا الآن ثم عاد اليه رشفة وتذكر كل ما جرى وصار يتمنى الخروج من
ذلك المكان الملعون لكن خشي ان يقتحم تلك الظلمات ويخوضها على غير هدى فقال
هلكت لا محالة هلكت في الهاوية وبعد هنيهة من هذه الشدة تذكر انه استصحب
زناداً فاورى في الحال واشعل الفانوس وكان قد انظفاً بسقطته فاول ما وقع نظره
على قين ومعيلى وهما يولولان ويعولان ويهتفان بالادعية والصلوات ويستغيثان
بالقدسين والقديسات

واما الهيكل المار ذكره فكان قد اختفى وافتقد لوقا غدارته فلم يقف لهما على اثر
ونظر الى غمد سيفه فلم يجد السيف فيه فزاد به الكرب واشتد القلق واستغرب الحادثة
واكبر الامر وقال يا للاتفاق الغريب كيف سطا الساطي على الاسلحة وترك الكيس وهو
مملؤ ذهباً وموضوع في جيبى

فتقدم الى قين ومعيلى ولم يبق له حق ان يلومها ويعنفها كما كان يفعل وقال تعاليا
نخرج من هذا المكان الجهني فلما سمعا هذه الكلمة اتعشا في الحال وعاد اليهما
نشاطهما مضاعفاً واسرعاً وراءه . فصعدوا السلم الى المعبد ولم يصادفوا ما يعوقهم وارجع
لوقا المذبح كما كان فستر الخرق المربع . ثم تخللوا المقاصير المهدمة وبلغوا القبو الكبير
في الطبقة السفلى وحصلوا في العراء

وكان الفجر قد لاح وانتفى من قلب لوقا الخوف الا آثاره كأنه استيقظ على اثر
حلم هائل . واما قين ومعيلى فكان تأثير تلك التهاويل لم يزل منطبقاً في مخيلتهما فكان
كل منهما « اذا رأى غير شيء ظنّه رجلاً » (١)

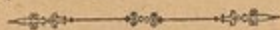
فلما بلغوا باب السور وارادوا الخروج قال لوقا لقين ان بريقة ستسألنا طبعاً عما
فعلنا فإذا تقول لها

- اقول لها انا نزلنا الى مملكة ابليس ولولا سيدتنا الاطوشية الحارسة لنا لما خرجنا .

(١) اوردنا هذا الشطر للمنتهي لا لارادة المعنى الذي قيل لاجله تماماً بل على سبيل التمثيل لان
خوفهما هنا ليس من روية الرجال فقط بل من روية كل شبح وسماع كل صوت

أما هذا هو الحق ؟

- اياك ان تلمح بهذا المعنى بل يجب ان تكتم عنها كل شيء حدث لنا هنا
- فإذا اجيبها اذن
- تجيب اننا كما تعلمين مضيئا لندفن جثة المريكيز رعين ففعلنا ورجعنا لا اكثر ولا اقل . واما منزل الشيطان فهو كغيره من القصور الخالية المتردم بعضها اطول المهجران
- ليكن كما تريد
- فتكون صديقي والآن اضطرت ولو كرهاً ان اخرق صدرك بحر بيتي
- وما الداعي للحرمة يا سيدي البارون وان شئت فاني لا انطق بجمراء ولا خضراء
- تعرف ما عليك فقد انذرتك وكلامي صادق
- وكيف انا اخالفك في هذه المسألة الحقيرة الهينة المأخذ وقد اطعتك في دخول جهنم ثم فتح لوقا الباب وخرجوا ينسلون في شارع الجحيم



الفصل الثامن والثلاثون

« تميم المساعي »

سبقت الاشارة الى ان زفاف حنة الشميسية (الكاذبة) على لوقا الكرجاني يكون بعد اربعة ايام فقط لوقا هذه المدة باضطراب قلب وبلبال زائد وكانت الهواجس تقلقه كل ساعة وهو لا يعلم سببها ويقول في نفسه هل ترى يعترض دون بلوغ المرام شيء خفي . ما اظن وقد حان الاجل ودنت الساعة وبزغت شمس سروري وسطع نجم سعدي

واشد قلقة في آخر ليلة اي ليلة نهار الزفاف وكثر عليه تردد تلك التهاويل التي ازعمته في برى منزل الشيطان فاحيي الليل لم يغمض له جفن . لكن ليقضي الله قضاءه لم يعترض دون مرامه شيء .

فلما حانت ساعة الاكليل اتى الاسقف بنفسه وحضر بعض اعيان الاصحاب وظهرت قينة يبهاء لم يعهد بها قبلاً

وكانت الغولة حاضرة بزبها العجوزي وقين ايضاً بحلة عليها علامة البارون .
 ورادت بريقة ان تشهد بنفسها انحلال هذا المشكل العظيم الذي دبرت له اخبث
 التدابير . وبعد انتهاء صلاة الاكليل وتبريك الناس تبسّمت بريقة بذاتها قائلة .
 مسكين الغبي . يعتقد اني اشتغلت لاجل صوالحه . لا يعرف المجنون ما هو مخبئاً له
 واما قين فقال في ذاته هذا العريس الثالث لاختي قينة . شيء مضحك . وعسى
 ان يكون الخير في الثالثة . ثلاثة ازواج في الحياة . يا عجباً . فلو اتى تنكريد ولو لؤلؤ
 الآن تكون ساعة مبهجة غريبة الحال

ولما اتصف الليل اخذ لوقا عروسه الى قصره عند الحاجز البولسي . وحزنت
 الدوقة لفراق ابنتها حزناً شديداً غير انها تسلّت باقضاء الخطر ونجاتها مرتين من الويل
 (على اعتقادها)

وكان لوقا في ذلك النهار قد اخذ من الدوق حوالة بمليون فرنك كما كان الوعد
 فقبضه من الصيارف ثاني يوم بين عين وسندات وتوجه الى المنزل الاحمر ومعه رزمة
 من السفائح قيمتها ثلاثمائة الف فرنك . وكان يسوءه ان يردّ هذا المبلغ الجسيم الى
 الغولة لكن الظروف لم تيسر له ان يمنعه عنها

فلما دخل قاعة بريقة قالت له سلام على بعل حنة الشميسية وملك باريس الليلية
 فاخذ يدها وقبلها وقال اول الفروض عليّ زيارتك يا مولاتي

- هذا فضل منك ايها البارون لان المثل الدارج يقول « لا تدع لصاحبك
 بالسعادة لئلا تفقده » فكيف انت مع ما نلت من العز والمجد تذكر صديقة قديمة

- لا ينعني المجد مهما عظم ان انسى ما عليّ لهمتك ومساعدتك والاعتراف بجميلك

- انت تعترف بالجميل . انت يا كرجاني . اما تعلم اني ما عدت اعرفك

- عجباً وما تغيرت عما كنت ولن اتغير مهما عظم مجدي

- حقاً ايها البارون انك رجل عجيب الاطوار

- لِمَ هذا التهمك يا عزيزي

- لست اتهمك ايها البارون ولا يجسر احد ان يتخايل رجلاً سامي المقام نظيرك .

غير اني اعرف قلوب البشر عموماً وقلبك خصوصاً

- حبذا ما تقولين فتعرفين شدة احترامي لك وحيي الخالص
- اعرف اسرارك وليست خفايا قلبك مكتومة عليّ . اعرف انك تكرهني كرهاً شديداً
- يا للعجب يا لسوء حظي ما هذه التهمة
- بل هو الصحيح
- ماذا اصابك هل اختللت
- لا بل وافرة العقل
- فما الداعي لان ابغضك
- لاني اشتعلت لاجلك شغلاً عظيماً . فقل لي بحرية ضميرك اني صادقة
- ما اعلم « اية مسلّة تنخسك » وقد ساءني كلامك . ولا بد ان الايام تكشف لك غير ما تتوهمين . والآن فلندع هذا الموضوع ونبحث في امور جدّية
- قل ما بدا لك فاني سامعة مطيعة
- بيننا حساب يجب ان ننظر فيه
- ولاجل هذا الحساب اتيت
- نعم او يليق بي ان لا اوفي عن ذمتي
- اني اعتقد حفظك للذمام غير ان الوقت ما فات ولست اطالبك بشيء الان
- انت لم تطالبيني واما ضميري فيطالبني كل دقيقة فاحب ان اخلص من هذا القلق
- ثقل عليك معروفى
- لا بل يثقل عليّ ذكر احوالي الماضية
- عشت ايها البارون ارى انك عازم ان تسلك سبيل الاستقامة . وهل قبضت المليون
- نعم قبضته اليوم
- فهيناً لك صرت اغنى مما كنت قبل ان يتلف مالك
- هذه الدرجة الاولى من سلم السعادة وسأرقى الى العليا
- انا عالمة بذلك فلا ينقصك شيء من اللوازم . وهل اتيت لي بما يخصني
- نعم اتيت بما لك عليّ
- بثلاثمائة الف فرنك

- هذا هو المبلغ الذي اعهدهُ
 - او تجدهُ كثيراً
 - كيف اجدهُ كثيراً وان كان كثيراً او قليلاً فعليّ ان ادفعهُ اليك
 - أما تعلم ان مليوناً حصلت عليه على غير انتظار كأنهُ من يدي ولولا همتي « ما
 عضضت على رغيف » فيكون حتي ان اطلب نصفهُ لكن لا تخشَ بأساً فليست اطمع
 منك باكثر مما لي من الدّين فاعترف بكرامة اخلاقي وكرم نفسي
 - وانا طوع امرك في كل ما تطلبين
 - هات المال
 فوضع امامها السندات وقال تعلمين ما اطلب عوضاً عنها قالت نعم تطلب السفنجة
 التي عليها توقيع المريكز الاندري . هذا حق . ثم مضت واتت بها وقالت هذه التي
 تقلقك منذ عشر سنوات فخذها وكن مطمئناً . فاخذها بلهفة ومزقها شذر مذر وطرح
 قطعها في النار وقال في نفسه تقطعت الآن حبال الشرك وصرت حرّاً مطلق الحرية
 وفطنت الغولة بفراستها ومن هيئة وجهه ما خطر بباله فقالت في نفسها يا لك من
 غبيّ تظن انك نجوت من فخني وهو اشد قبضاً عليك مما كان
 ثم قالت له الان تخلصت قاتبة من قوب (١) واما الصداقة فباقية
 - بل تزيد في المستقبل وتمكن الى المات (وقال في نفسه الى ممالك انت ولي
 الامل ان يكون قريباً اذا استطعت)
 - فلي الامل يا عزيزي البارون ان تبقى على ثقتك فيّ
 - لي ثقة تامة كوني على يقين وانا الآخر ارجو ان لا تحرميني مشورتك وقت
 الحاجة الى رأيك السديد
 - تراني دائماً موقوفة لمصالحك والآن اسالك سوء الأ
 - سلي مئة اجيبك عن كل شيء
 - ما قصدك ان تعمل الآن
 - انسيت الحديث الطويل الذي دار بيننا بخصوص ضرب الزيوف

(١) الفرخ من البيضه وهو مثل يضرب لتخليص شيء من شيء

- ما نسيت لكن ما ظننت انك باقى على عزمك وانت رجل شريف وقد صرت صاحب ثلاثة ملايين وما عاد يهملك ان تغرّ بريقة الغلوية بهذه الاماني لتقرضك الف دينار

- بل عزمي باقى على حاله وقد اشتدّ ايضاً وصممت على تميم المساعي العظيمة التي باشرت بها وقبل كل شيء اسعى في اتباع منزل الشيطان

- وهل تتيقن انه معروض للبيع

- لا اشك في النجاح

- وهل تسكن هذا المنزل مع ما له من الشهرة الرديئة الخيفة

فارتاع لوقا لتذكره ما شاهد هناك تلك الليلة وظهر عليه الاصرار لكنه قووى

جنانه وقال لها . وانت ايضاً يا بريقة تدخل عقلك هذه الخزعبلات

- لا لكن هذا دائر على السنة الناس والوهم مالىء قلوبهم

- وهل اكثرث بحمق الجهال

- لك الحق اذا اخترت الانفراد مع عروسك لكن اذا احببت عيشة المجد والعزّ

فلا يأتيك احد لان الحمق سائد بين الناس

- ظنك هذا في غير محله فسترين ان الاكابر يتواردون الى ولائمي برغبة شديدة

- وما تفعل بقين الرجل الطماع

- هذا رجل يحب اللعب والسكر والاطعمة الطيبة فاجعل له مصالحة توافق مشربه

واملاً جيبه من دنائيري

- لكن احذر جانبه فانه رجل مخنث

- التدبير في المستقبل . والآن استودعك الله

- تعود بخير . بامان الله

- وتوفيقات مساعيك

وثاني يوم سعى لوقا في شراء المنزل المذكور وتعجب الموكل عليه غاية العجب

من هذا الامر وكان القصد ان يهدموا القائم منه ويجملوا الارض حقلاً تغرس فيه

اشجار ونباتات اخرى . وعرف لوقا ان قيمة انقاض المنزل تبلغ خمسة عشر الف فرنك

فدفع به كما هو عشرين الف فرنك وسجل صك المبيع في المحكمة ومضى لوقا وقبنة ودخله وتخللا مقاصيره وسائر بيوته وكانت قبنة تتعجب من احواله الداخلية لانه كان تقدم العهد مملوءا من العفونات والاوساخ والفزور والشقوق على سائر الجدران وفي السقوف والحاصل انه كان في حالة زرية جدا

وفي ذلك الوقت سعى لوقا باستجلاب الصناع والفعلة من بنائين ونحاتين ونجارين ودهانين وحدادين وفراشين ونحوهم فواظبوا على العمل باجتهاد عظيم وكانوا كثيرين جدا وغرّم لوقا بالاجور حتى لم يمض شهر الا والمزل من اعظم القصور واظرها واعجبها واتقن الزراعون رياضة . وحدائقه وجرّت اليه المياه الغزيرة وقد انفق لوقا على ترميمه نفقات فاحشة

وكان من جملة ما اعتنى بشانه خدر في الطابق العلوي كامل الفرش والزينة في وسطه ثقب متسع كفوهة البئر لها باب من خشب متقن الصنعة وفوقه فرشت طنفسة كبيرة لها آلات من انايب نحاسية ترفع عن الفوهة ويرتفع معها الباب بواسطة تلك الانايب بطريقة سرية سهلة واذا عادت الطنفسة الى مكانها لم يشعر بشيء للناظر الى ظاهر الفرش

وكان القصد من هذا الباب بلوغ البربي الذي تحت القصر وهو المعد لأن يكون معملا لضرب الزبوف . وكان لوقا قد استأجر اثنين من الفعلة الاشداء الماهرين وصار يستخدمهما ليلا في اصلاح شوون ذلك البربي . يدخلهما في اول الليل سرا ولا يدعهما يعرفان السبيل ويخرجهما آخر الليل كذلك

وفيما هما مرة يتقران بعض الجدران السفلية سمعا صوتا وراءه واخبر لوقا لانه كان دائما معهما يناظر على عملهما ويرشدهما الى الوسائط اللازمة لاتمام مقاصده . فتقدم والصق اذنه في الجدار فسمع همسا فتعجب وامرهما ان يخرقا الجدار بلطف بحيث لا يشعر من وراءه . لكن قبل ان نفذ الخرق تهدم قسم من الجدار من اعلى الثقب وثار غبار كثيف . فسمعت في الداخل هدة كاعلاق باب كبير . ثم وسعوا الخرق ودخل لوقا المكان فرأى هناك عجبا . الشيخ الابيض الذي ظهر له في ليلة التهاويل مطروح في زاوية المخدع . وعلى الارض الجرفة والمسحاة اللتين لم يجدهما بعد رجوعه في اول

الدهليز . ورأى سريراً خشناً عليه آثار دم وعلى الارض لطخ ايضاً قديمة العهد فازداد عجبهُ وبقي متحيراً ونظر الى الباب فرآه ضخماً قوياً جداً مقوّى بالحديد فاجتهد الفاعلان في فتحه بخرق ما يجاوره من الحائط فاذا هو يؤدي الى داخلية البربي بطريق سرّية . فحينئذ عرف ان تلك التهاويل التي رآها كانت ناتجة عن سفاهة اللذين يترددون الى ذلك الخدع الخفي . فضاقت صدره حتى ينكشف له شيء من هذا السرّ الغامض ولم يقدر على شيء .

وأخر ليلة اشتغل بها الفاعلان المذكوران اعطاهما الاجرة المتفق عليها وهي خمسة وعشرون ديناراً وزادها خمسة دنانير وقدم لهما قنينة كبيرة من الخمر الاندلسية مع طعام فاخر فاكلا حتى امتلأوا وشربا ما في القنينة حتى خدرا . ثم خرج بهما في مركبة وتركهما داخل المدينة . فصارا يتشاوران في امر هذه الدنانير وشعرا من هيئة البربي والاعمال التي عملها ان المكان يصلح لضرب النقود فاشتغلت افكارهما من جهة الدنانير فدخلتا حانة وشربا ايضاً واعطيا صاحبها ديناراً فلم ترع نفسه اليه فامتحنه بالحك والوزن حتى اطمان (ولم يخطر بباله ان يضربه بمطرقة على سندان . فلو فعل ذلك لاسحقه سحقاً كما هو شان تلك الزيوف الكرجانية) واما الفاعلان فمضيا الى منزلها وناما نومة ما بعدها يقظة وذلك لان لوقا كان قد استحضر من عند الغولة من ذلك الاكسير السامّ القتال ومزجه بالخمر التي ادعى انها اندلسية فكان ذلك الشراب وسيلة هلاك هذين المسكينين لان لوقا خاف ان يبوحا يوماً ما بما شعرا به وهما يشتغلان في البربي لان احدهما اظهر له ان هذا المكان يصلح لضرب النقود فغالطه لوقا بدهائه لكنه بقي في قلق من هذا القبيل فاراد اراحة باله باهلاهما آخر ليلة وهذه المكيدة اي القتل كانت احسن الوسائل المتكفلة بنجاح مساعيه الابليسية

الفصل التاسع والثلاثون

« ظهور رعين »

قد حان الحين ان يرجع كلامنا الآن الى حادثة رعين الزهري بعد ما قتله لوقا غدرًا بواسطة القوقلي وقين وطرحوه في ذلك الجب المشتبك النبات في داخله وسبب

هذا الرجوع الى بيان ما نتج عن تلك الحادثة مزدوج لان لوقا لما ذهب يفتقد الجثة لم يجدها في الصهرنج ثم رأى الجبة التي أُلْفَ بها رعين مطروحة في الدهليز المتطرق اليه فتعجب ثم شعر بوجود ناس هناك ودخل فكره انهم هم الذين سرقوا الجثة . ولما ثقب الحائط الى الخدع السري رأى آثاراً تدل على هؤلاء الناس ولطخ الدم على السرير فلم يخطر بباله حينئذ ان هؤلاء الجماعة هم الذين سرقوا شلورعين وان تلك اللطخ من دمه .

قلنا سابقاً ان رُعيناً طرح قتيلاً في الحب وتركه لوقا وصاحباة فعلى اثر خروجهما من تلك البقعة ظهر انسان قبيح المنظر قزم نحيف عليه اثواب رثة كان محتبئاً في جوف احدى تلك السروات الكثيفة وشاهد المعركة . ثم تقدم الى فوهة الصهرنج وتطلع ورجع الى المكان الذي اتى منه وانحنى الى الارض ورفع بلاطة فلما يهتدي اليها الا الذي يعرف خبرها . فلما انكشفت البلاطة ظهرت تحتها سلم مودية الى الدهليز المتطرق الى الصهرنج المار ذكره . فنزل في تلك السلم وارجع وراءه البلاطة وحصل داخل البرني فخرج من جيبه هنة من معدن ونفخ فخرج منها صوت حاد مستطيل ادوت له جوانب البرني وبعد دقيقة ظهر له من الداخل رجل ضخم الجثة اعور عليه سحنة الشر فقال له الامر ذي شأن دعوت بي والا فلامك على نفسك فاجاب القزم قائلاً لم اكن لا كدر خاطر لك لامر لا طائل تحته . وكان اسم الرجل القزم جبوراً واسم الضخم ابا زرزور فقال له قل ما شأنك قال اعلم ان رجلاً شريفاً قتل اليوم في البقعة التي فوقنا

- كيف قتل في مبارزة ام لا
- نعم ولا . السبب المبارزة لكن القتل كان غدرآ
- وما الضرر اذا فقد واحد من الاشراف وما يهمننا نحن
- اذا عرفت ما فعل القتلة بشلور ترى ان امره مهم لنا
- اظن انهم تركوه حيث قتلوه
- لا بل القوه في الصهرنج الذي ينتهي اليه هذا الدهليز
- وما لنا ولذلك فاننا لا نمر به لا بدخولنا ولا بخروجنا

- هذا صحيح لكن اذا كان الرجل خطيراً كما تدل ظواهره فان الدرك يسمى في البحث عنه وربما اتصل الجماعة الى هنا فمن المحتمل انهم يلقون التهمة علينا
- رأيك صواب يا جبور فكيف العمل حتى نحذر هذا الخطر
- الامر سهل فان القتلة ارادوا اخفاء القتل فنحن نمضي وأخذهُ ونلقيه في نفس المكان الذي قتل فيه فاذا جرى البحث سهل وجودهُ ونجونا من المسؤولية اذا لا يهدون بنا

- ما احسن ما اشرت به وقد اعجبني عقلك
ثم مضى الاثنان واخرجا الشلو من الصهرج والقباه على رمل الدهليز وازاح ابو زررور الجبة عن صدره وقال حقاً ان هذا الرجل كان شاباً لطيفاً ويخطر ببالي اني رأيتهُ مراراً وانه من الاشراف
- هكذا يظهر لي وقد رأيتهُ يدفع دفاع الابطال ولو لم يغيرهُ رجلان من الورا لقتل قرنه

- لا ملام عليهما فانهما ماجوران على ما اعتقد . وهل قتشوا ثيابه
- من الغريب انهم لم يبالوا بذلك
- فهل نعمل ذلك نحن
- ما اعظم فطنتك يا اخي ابا زررور . ثم نحمله الى مكان قتله
وانحنيا على الجثة وجعلنا يقتشان برغبة واعتناء واذا بأبي زررور صاح طرباً فقال له
جبور الغنيمة مشاطرة فارني ما وجدت

فاره كيساً من الحرير مملوءاً تقريباً . وكان ما فيه فضلة الدنانير التي اقترضها رعين من القمص الجوسقي فعدها فوجدها ثمانين ديناراً فاقتمساها وقالوا هذا الغني غنيمة باردة وقال جبور لعل معه شيئاً من الجواهر . وجعل يقتش بين طيات الثياب ووصلت يده الى دبوس في طوق القمص فينما هو ينتزعه صرخ مضطرباً فقال له رفيقه ما الخبر قال ارى ان الرجل لم يمت شعرت بضر بان قلبه

- وي امر غريب بئس النتيجة . وانقبض وجهه دقيقة ثم اشرق جبينه وقال اذا كان فيه رمق فما اسهل الاجهاز عليه . وسحب خنجرًا من منطقتة ورفع يده ليضربه في

قلبه فمسك جبور يدهُ حالاً وقال ماذا تفعل قال اجهز عليه لانه اذا عاد الى الحياة طلب
دنانيره فيضيع ما غنمناه ونذهب بخفي حنين

- بئس الرأي . فانه اذا حيي كان لنا كنزاً لا ينفد لان حياته تكون على يدنا فانت
ترى انه غني فاذا ضمدنا جراحه واعتنينا بشأنه وفزنا بشغائه فاننا لا نطاق سبيله الا
على ضمانه مبلغ جسم يكون لنا به الثروة

- وهل تظن انه يعطينا ما نطلب

- ويشكر فضلنا فوق ذلك

- واذا قرّر عنا لابن الشرطي فاهتدى الى مكاننا

- هذا لا يكون ابدأ . فان المعروف الذي صنعناه معه يلزمه الكتم التام وفضلاً عن
ذلك فانه اذا افاق لا يعرف المكان الذي يكون فيه فاذا برأ عصبته عينيه واخرجه

الى المكان الذي جرت فيه الحادثة ورجعت وقد كفيننا الغوائل

- فانت اذاً تحمل المسؤولية بتمامها

- عليّ الجواب عن كل سؤال فكُن مطمئن القلب

- فدبر كما ترى

- فعاوئي لنحمله الى منزلنا

- انا اخفف عنك هذه الثقلة واحمله وحدي

قال هذا ورفعهُ بين يديه كما يرفع طفلاً واسندهُ على زندهِ الايسر ومضى وجبور
يقفو اثره وسقطت جبة رعين فلم يتبها اليها ودخلا الخدع المار ذكره والقيامه على فراش
من القش ونزع جبور ثيابه ليفحص الجراح وكانت ثلاثة على ما ذكرنا فغسلها جبور
بماء بارد واخذ يمين النظر فيها لانه كان له خبرة بفن الجراحة فقال له رفيقه كيف ترى
قال الجراح بليغة لكنها غير مميتة وان كان الخطر شديداً واطن انه لا يصعب شفاؤه

وفي الحال ظهرت من رعين حركة خفيفة وخرج من صدره نفس رقيق

وكان وجود هذين الرجلين في ذلك البري من الاتفاقات الغريبة وبعناية خاصة
من الله شهد جبور مصرع رعين وألهم ان يقتس ثيابه ثانية لكي يهتدي الى ما فيه من

الرمق ويعتني بأمره هو ورفيقه

ومن اللزوم ان نذكر خبر هذين الرجلين وسبب اقامتهما هناك بوجيز العبارة
كان ابو زرور جدياً في خدمة احد الامراء القواد وكان جباراً عتياً ومارداً
شقيماً اقلق البلاد بقباحاته فلكني سيده الناس شره وجده في غاية المناسبة لحراسة
كلايه وطلب الوحوش بها في غاباته وكان هو مغرمًا بالصيد والقنص فأقام مدة لا يوصل
اذيته الى احد . لكن الطبع يغلب التطبع فشراسة طبعه لم تفارقه بل كانت كامنة فيه .
فاتفق مرة ان بعض رفاقه خاصمه في امر حقير فأدى الامر الى ان قتله ففعا عنه
الامير وقال له اياك ان تعود الى مثل هذه الفظاعة . فلم يكن الا مدة قصيرة حتى فعل
ذنباً آخر عقبه قتل احد اتباع الامير لانه شدد في تعنيفه . ورأى حينئذ ان كل باب
فرج مسدود دونه ففرّ تائماً في الآجام وما معه الا خنجره الضخم الهائل ونفير كبير
كان يستخدمه لتخويف الوحوش وجمع الرفاق وغدارة كبيرة وشيء من البارود
والرصاص . وصار يقطع الطرقات ويأوي الى كهوف لا يعرفها احد غيره فوقع رعبه في
قلوب الناس في جميع تلك الاقطار واخذت الحكومة تسعى في القبض عليه وكثيراً ما
اتفق لبعض الجنود الوقوف على مأواه فاذا وجد نفسه متضيقاً يقتل الجندي الذي
يدنو منه فينهزم الباقون مرتاعين من هولته وبطشه ومتعوذين بالله من شره وفتكهِ
واخيراً اقبلت فرقة من الجنود مع مقدميهم واحتاطوا بالغابة التي كان حينئذ فيها
وصاروا يضيقون الحلقة الى ان رآه بعضهم فقتل احد المتقدمين وركب فرسه وطار به
كهبوب الريح واطلاق الرصاص عليه متواصل لكن بسماح من الله لم يصبه شيء من
الضرر ونجا منهم . ثم سقط الفرس تحته عياءً فمضى راجلاً يمشي في الليل ويكمن في
النهار ويسأل ابناء السبيل الصدقة فلا يجسر احد ان يرده خائباً خوفاً من غائلته
ولم يزل هذا دأبه حتى وصل الى ضواحي باريس فلم يرد اولاً ان يتعاطى
للصوصية لان العيون عليه من قبل الحكومة فدخل في خدمة احد الجزائرين ولم يكن
احد يعرفه حينئذ لكن لم يلبث ان ضمجر من مهنته هذه وخرج هائماً يقطع الطرقات
على عادته ويأوي الى الخربات القديمة والمقالع المهجورة التي تكثر في المكان المعروف
بالجبل الاحمر . فاهتدى يوماً الى المقلع الذي ذكر لوقا لبريقة انه يتصل الى برني
منزل الشيطان بدهلير ضيق . فدخل ذلك الدهليز وحصل في جوف البرني فسرّ اشد

السرور لوجود هذا المأوى الخفي الذي لا يهتدي إليه احد
فاتفق في احدى الليالي المظلمة انه خرج يرتاد من يقتله ويسلب ماله فصادف
رجلاً قروياً سارياً وحده فظن انه يقدر على الفتك به وهجم عليه غير ان الرجل كان
شجاعاً شديد الساعد معه نبوت ضخيم يلعب به كما يلعب بالقصبة الصغيرة فبعد محاولة
عنيفة ضرب به رأس ابي زرزور فشجه وسقط مغمى عليه . ولما استفاق قليلاً وجد
فوق رأسه رجلاً قرماً يغسل جرحه لكي يضمده وهذا هو جبور نفسه كان يقفواثر
الرجل ليفتك به وشهد ما حدث بينه وبين ابي زرزور فتركه يمضي في سبيله والتفت
التفاتاً خاصاً الى هذا اللص الشجاع

« ان الطيور على اشكالها تقع »

وكان جبور هذا في اولية امره كاتباً في احدى الصيدليات ثم توصل الى خدمة
احد الاطباء الماهرين واقام عنده مدة طويلة وكانت نفسه تطمح الى الكسب بأي
وجه كان فصار يستغنى كل فرصة ويسرق من بيت استاذة وكثر منه ذلك حتى لم يعد
الطبيب يطيق ان يبقية عنده فطرده . فصار يتعاطى الحرف الخفية المتعلقة بفن
الطيب واخصها بيع العقاقير ووصف بعض الادوية في القرى والمزارع . غير ان هذا
الدخل لم يكن كافياً ليعيش برحاء . فقصده مدينة باريس لعله يربح ببضاعته لكنها
كانت هناك كاسدة واشتهر انه من الدجالين فتحولت عنه اوجه الناس وازدروه فلم
يجد حرفة يعيش منها . وكان طبقه يميل ميلاً شديداً الى السرقة واللصوصية وله فطنة
وذكاء في التدبير لكن نجافة جسمه كانت تحول دون مرامه فسعى في وجود رفيق له
قوي البنية شجاع فتناك يستعين به على قضاء مصالحه ويرشده هو بحسن تديره .
فقيض له القدر في تلك الليلة وجود مطلوبه وهو ابو زرزور فتقدم اليه وتوسم فيه القوة
فابتهج بمنظره واجتهد في معالجته حتى استفاق

فلما رآه ابو زرزور تعجب غاية العجب من امره ولم يكن يتوقع ان يجد انساناً
يطلب مصالحته وهو مشهور باللصوصية فسأله من انت وما تريد مني فقال جبور صه
يا اخي انا رجل نظيرك اطلب معاشي في السلب والنهب وقد سررتي وجودك لتكون
متصاحبين قادرين على كل شيء انت بجسمك وانا بفطنتي . فاطمان بال ابي زرزور

وحاول النهوض فسقط عياء من شدة الضربة التي شقت جمجمته فقال له جبور اتكى على يدي لنمضي الى منزلك

ولما وصلا الى المقلع سقط ايضاً مغمى عليه فأخرج جبور من جيبه قنينة فيها عرق وسقاه جرعة فاستفاق واخذ القنينة وشرب ما فيها نفساً واحداً فعاد اليه صوابه بتنبه دماغه واتعش جسمه ودخل البرني واطلع جبوراً على اسراره وكشف له الآخر قلبه وشرح له مقاصده وتحالفا على الوفاء واقاما على وفاق تام الواحد يشغل بقوة زنده والاخر بقوة عقله

يرجع كلامنا الى رعين وهو بينهما فانه بعد ان تحرك تلك الحركة الخفيفة ظهر ارتعاش في شفثيه وجفونه ثم فتح عينيه لكنه كان لا يعي على شيء لا يسمع ولا يرى فقال ابو زررور أترى انه يرجي شفاؤه قال يترجح اذا قدرت ان اعالج الحمى القريب انتشارها وازيلها

وحالما نطق بهذا الكلام انتشر الدم في وجه رعين وانغمض عينيه وسخن بدنه وفاه بكلام مبهم متقطع فقال جبور هذه الحمى ظاهرة يصحبها الهذيان ويظهر من ابتداء ظهورها انها تكون شديدة الخطر لكني لا أياس

ومضى ذلك النهار وجبور عاكف على معالجة عليه وهو يداوم وضع خرق مباللة على جبينه الى ان صارت الساعة الثالثة من الليل فأخذ ابو زررور خنجره وعصاه وخرج يطلب رزقه وعاد نصف الليل صفر اليدين لانه لم يصادف احداً من اصحاب البخت المنحوس حتى يبطش به فكدر جداً

ولما دخل العرين وهو ينفخ كنفحيح الافعى وجد جبوراً على حاله من السهر فقال له بعد ان انطرح على فراشه الخشن اما لك غرض في النوم هذه الليلة قال لا اقدر ان اغفل ساعة عن الليل فالخطر شديد . قال فغداً تكلفني مؤونة دفنه فوق تعبنا بنقله الى منزلنا

ولم تمض بعد ذلك خمس دقائق حتى صارت جوانب البرني تدوي من شدة غطيطة المستمر

وحينئذ وثب جبور مضطرباً واصفى اصغاء تاماً فسمع حساً في داخل البرني

فتقدم الى الباب وشقهُ ونظر فاذا ثلاثة اشخاص ظهورهم اليه فأتى وايقظ ابا زرزور وقال له في البربي جماعة اظن انهم من الدرك آتون في طلب القتييل قال وانا اكفيك شرهم بطلقة واحدة من غدارتي قال هذا عين الغلط لانهم لا يكونون وحدهم طبعاً ووراءهم رفاق خارج البربي . لكن يجب ان ادقق النظر فيهم قبل كل شيء . ثم اخذ فانوسه اللبلي وخرج من الباب وتجنس بخنفة وعاد وقال ليسوا من الدرك فاني رأيت خصم الجريج وأحد رفيقيه ورجلاً آخر لا اعرفه

وكان هؤلاء الثلاثة لوقا الكرجاني وخادمه معبلي وقتياً . وحينئذ اظهر لهم جبور ورفيقه تلك التهاويل التي ذكرناها فيما مضى حتى خرجوا وقلوبهم مملوءة رعباً وعاد جبور الى حاله من معالجة رعين

ولم تمض ايام طويلة حتى ظهرت على رعين علامات الشفاء المحقق ولكن الضعف بقي مستحوذاً عليه الى الليلة التي فيها امر لوقا ذينك الفاعلين بمحرق الجدار الذي سمع خلفه حس جبور ورفيقه . فلما شعر هذان بالخطر القريب قال جبور لصاحبه اسرع في الحال واحمل الجريج لم يعد لنا في هذا المكان اقامة فحمله وخرجا في جوف الليل وقصدا المدافن القديمة وكانت مغائر واسعة تحت الارض على مقربة من منزل الشيطان ولما انفتح باب مخدعها وظهر منه النور نظر جبور فرأى لوقا والفاعلين فصرفه وقال لرفيقه الآن كان الاولى بك ان تفتك به لو كانت غدارتك معك فاني ارى هذا الرجل من جنود ابليس وما اعرف ما غرضه في هذا المكان المهجور

الفصل الاربعون

« ليلة حافلة »

بعد مضي شهر من الحوادث المار ذكرها دعا لوقا الكرجاني الى داره جميع ذوي الرتب والمقامات من اصحاب واصحاب اصحاب ومن على شاكلتهم من اهل الشرف والوجاهة واستعد لليلة حافلة لم ير مثلاً في ذلك العصر وكانت الثيران المختلفة في الساعة الثالثة من الليل في اعلى درجة من الاتقان على قصور الفن اذ ذلك . فكنت ترى القناديل الصغيرة على صور القصر كالكيل متواصل من النور وعلى واجهة القصر

مصطفة قناديل أيضاً كسلاسل متصلة ومنقطعة بين مستديرة وزووية واشكال اخرى وجنية القصر مضطربة من كثرة المشاعل وعلى الباب الاكبر اربعة مشاعل كبيرة تكسف نور النهار وتضيء الى مسافة بعيدة . والنيران الملونة بين ازرق واحمر واصفر واخضر تطلق من كل جهات القصر بمظاهر مشككة . والسهام النارية تصعد في الجو كافاع جهنمية وتتساقط كرجوم الليل حتى خيل الناظرين ان الارض تقذف ببراكينها والجو ملتهب فكانت تلك الزينة البهجة على اتم هيئة واكمل رونق

هذه كانت حالة ذلك القصر القديم المهجور المسمى بمنزل الشيطان بعد ان كان قفراً يأوى اليه اليوم وتنقع في جوانبه الغربان ولا يأهله من الحي الآ خشاش الارض (١)

وكانت اقدام المتفرجين تزدهم في طريق القصر حتى انسدت من كثرت الجموع القاصدين تسريح ابصارهم في انواع المركبات الفاخرة القرية الورد . وبين تلك الجموع كان قوم من شبان اشداء في زي واحد وهيئة واحدة تقريباً دالة على كونهم من رعا القوم يتسللون الى داخل القصر من شارع الاساورة حيث ليس شيء من الانوار وكان دخولهم من الباب الصغير الذي في منعطف السور فينقرون الباب ثلاث نقرات خفيفة ويدخلون وفي الداخل عند الباب ثلاثة رجال مسلحون ولباسهم السواد . فحالما يدخل الواحد منهم يسأله احد الرجال الثلاثة ما تطلب فيقول الليل والذهب فيقول من انت فيجب من المشاعلية فيأذن له بالدخول . فيدخل تحت الظلام ويشق في الحديقة الذي جرت فيها المبارزة بين لوقا ورعين الى ان يصل الى الصهريج فيجد قبل الفوهة يبضع خطوات رجلين مع احدهما سيف ومع الآخر قنديل حرامية فيسألانه ما سأله احد الثلاثة عند الباب فينظر اليه صاحب القنديل بالنور فيعرفه من هيئته ويقول انزل فينزل في الصهريج بسلام من حديد ويدخل ذلك الدهليز الذي تقدم ذكره

وكان مثل ذلك يجري في المدخل الآخر الذي في مقلع سهل الجبل الاحمر وكان المقرر ان ابتداء الافراح يكون الساعة الرابعة من الليل . وكانت قينة في

خدرها قد تزينت بملابس فاخرة وحلى نفيسة وحسنت وجوها حتى صارت بهجة
 للناظرين . وصار من يراها لا يقول الاملاك في زي ملكة لان ملابسها كانت على
 زي ملابس ملكة اسبانيا تماماً ومنها جهات كثيرة مرصعة بالحجارة الكريمة ومطرزة
 بالذهب الوهاج وعلى رأسها اكليل مرصع بالجواهر كأحسن تاج ملوكي
 فلما انتهت من زينتها وقفت بازاء مرآة واتممت اتقانها بيدها اللبقة ولم يكن عندها
 اذ ذاك من نساءها الاجارية واحدة . واذا بطارق يطرق الباب فقالت انظري يا برجوت
 من الطارق فتقدمت وفتحت الباب وعادت فقالت سيدي البارون يستأذن بالدخول
 قالت ليدخل فلم يبق مانع

فلما دخل ورآها صاح مبتهجاً واهاً يا حبيبتى حنة ما اجملك بهذا الكسم .
 فالتفت اليه وبهتت وقالت له وانت ما هذا الكسم القبيح الذي اخترته في مثل
 هذه الليلة . قال او ليس هذا منزل الشيطان وانا الآن صاحبه فيجب ان البس ما
 يليق بسمتي

وكان لابساً سترة من حرير اسود واحمر وصدرة مثلها وعليها صور وتقوش
 غريبة الاشكال اشبه بصور شيطانية وعلى رأسه قلنسوة ذات قرون ذهبية وعلى منكبيه
 جناحا خفّاش قائمان منتشران وفي منطقتيه خنجر كلسان النار وعلى مقبضيه نصف وجه
 مسخ من مخمل احمر فكان منظره مخيفاً وان كان وجهه جميلاً وقوامه رشيقاً
 ولما رأى ان قينة لم تستصوب فعلمه قال لها العفو يا عزيزتي حنة ما كنت اظن
 انك تكرهين هذا الزي المستعار غير اني لم استعد لخلافه هذه الليلة ففدأ انزعه واحوز
 رضاك . وانت هل بقي عليك شيء ، قالت لا فقد تمت ما اريد فأخذ بيدها وخرجا
 من الخدر الى قاعة الاستقبال وكانت بقرها قاعات اخرى صغيرة تنطرق اليها حتى
 يكون الجمع كله مشهداً واحداً

وكان ذلك المكان يفوق قصور الملوك بهائنه وروقه وزخرفه والنفقه التي انفقها
 لوقا لتلك الليلة تدل على انه صاحب ملايين كثيرة حتى ان الشموع المئارة بها المنازل
 كانت كلها عطرية كبيرة جداً وملابس الحشم القائمين بالخدمة والاستقبال ونحو ذلك
 كلها كملايس اكبر الناس وهي مختلطة من الحلل التي عليها العلامة الشمسية والتي عليها

العلامة الكرجانية . والازهار التي كانت في كل قاعة كانت كثيرة جداً غريبة الانواع
ثمينة في ذلك الوقت زاهية عطرة بديعة الالوان . حتى يعجز عن مثلها اوسع الامراء
ثروة اذا كان حكيماً في نفقاته

فنظر لوقا الى تلك المناظر البهجة نظر الافتخار وقال مثلي من يعرف ان يتصرف
في انفاق المال وها قد نلت بالحقيقة كل ما كنت احسبه بالوهم فقد تحققت جميع آمالي
وبلغت اعلى ذرى المجد والسعادة

وكان قين في تلك الساعة في القاعة التي امام خدر اخته المذكور وقد لبس بزة
على زي اكابر البلاط في اسبانيا وصار ينظر الى نفسه في المرآة معجباً بكسبه مفتخراً
بتكوين جسمه وعلى جنبه مدلاة حرته في غمد مغشى بالخمل الاحمر وكان لوقا قد
جعله قهرمان يتيه ولقبه بلقب شريف حتى صار يظن نفسه انه بالحقيقة يستحق كل
اعتبار وخيل له انه من الذوات الكبار

فقال له لوقا ايها السيد الشريف انا وشقيقتك نغيب الآن ساعة فبقي انت في
هذه القاعة ولا تسمح لاحد ان يدخل الخدر بأية علة كانت كبيراً كان او صغيراً
غريباً او قريباً . فقال له كن براحة بال ايها البارون وكل من عصى الامر اخرق
صدره بهذه الحربة

فدخل لوقا وقبته الخدر ورفع لوقا السجادة الساترة للباب الخفي المؤدي الى البرني
فقال له قينة اين تذهب بي قال الى برني مملكتك يا ملكتي الجميلة المحبوبة

- غير ان هذا الزي الذي انا فيه لا يوافق على ما ارى لزيارة ليلية

- بل هو في محله لانك انت ملكة تحضرين الآن امام شعبك

- وهل هم الآن مجتمعون في البرني

- نعم لكي يحميوا جلالتك ويعرفوا صورة ملكتهم وهذه الليلة الحافلة افراحها

عامة في القصر المنظور والمملكة الخفية

ثم نزل بها تلك السلم المؤدية الى اوائل البرني ووصلا الى الخدع الذي كان
مأوى ابي زرروز وجبور وكان له باب من حديد من جهتها مقفل فوقف لوقا امام الباب
وقال اسمعي يا حنة . فأملت اذنيها واذا في الداخل اختلاط اصوات كدوي خلايا

النحل الكثير وبينها اصوات اصطكاك الكؤوس ويتخلل ذلك صليل كميات كبيرة من القود تجرف او تفرغ في شيء واصوات مطارق متعددة تختلط بذلك فكانت لكل هذه الامور جلبة عظيمة

فتعجبت قينة من هذا الحال وقالت للوقا ما معنى كل هذا افتح لارى بعيني ما يفعلون ففتح لوقا الباب وكان امامه في الداخل رجل بصفة حارس فصاح بصوت جهير ادوت له جوانب المكان وعلا سائر تلك الاصوات المختلفة وقل ايها المشاعلية هوذا الرئيس والسيد فسمع في الحال ثلثائة صوت خرجت دفعة واحدة قائلة عاش المعلم داود فقالت له قينة او لا يعرفك جماعتك قال سيعرفوني انظري يا عزيزتي حنة انظري وكان المشهد الذي وقعت عليه عينا قينة من اعجب المشاهد واغربها في تلك المملكة الظلامية حتى يصعب على القلم وصفه الا بطريق الاجمال فكان هناك نحو خمسين كورا مستعرة تزيد المنافخ شدة التهايمها فتضيء بها جوانب البرني وزواياه البعيدة وتظهر الاساطين الضخمة من خلال الالهيب كاشباح سوداء كثيفة والالهيب بين احمر واخضر تذبذب به اصناف المعادن و بين ذلك الضباب المتكاثف اشباح من جماعات مختلفة الصور والهيات يموجون كالنمل باختلاط عجيب يعملون اعمالاً مختلفة بين اضرام نار وصب معادن سائلة وغير ذلك وكان في وسط البرني مائدة كبيرة يجلس حولها ثلثائة شخص بسعة وعليها آنية مختلفة الاشكال فضية وبلورية وادوات للزينة والوان عديدة من الاطعمة وقناني الخمر لا تحصى ومئات من الشموع الكبيرة تتلألأ في شماعات معدنية وزجاجية

فقال لوقا لقينة كيف ترين يا عزيزتي حنة

- شيء لم يخطر على بالي
- أفليس من الصواب ان تعادل وليمة شعبك وليمة ضيوفك
- بل يجب ان يتهجوا بها اكثر لان المنفعة من الشعب لا من الاكابر
- حسناً اجبت وهو قصدي

وتقدم الرجل الذي يحرس الباب الى لوقا وسأله اوامره فقال انتهت ساعة الشغل وابتدأت ساعة الطرب فليترك المشاعلية الكيران حتى تنطفئ ويدعوا البواتق

بما فيها وكل ادوات العمل ويجلسوا حول هذه المائدة ويصفوا لما يريد ان اكلمهم . فصاح
الرجل بأعلى صوته قائلاً اسمعوا يا مشاعلية امر المعلم داود ثم سرد لهم عبارته حرفاً
بحرف . ففعلوا في الحال حسب امره وجلسوا حول المائدة بعد ان دبروا تدابير الشغل اللازمة
فتقدم لوقا ووقف على طرف المائدة ونظر اليهم نظراً عاماً وقال ايها المشاعلية
أمنكم احد غائب فنهض الرجلان اللابسان السواد وقالا كلهم هنا وقدما له قائمتين
عليهما اسماء واعداد كثيرة وهذان اللذان كان احدهما يجرس مدخل المقلع والآخر
مدخل الصهر يجرس كما مرت الاشارة

فصاح لوقا بأعلى صوته وتأنى حتى يكون كلامه واضحاً وقال ايها المشاعلية اشكر
همتكم قبل كل شيء لانكم ليتم دعوتي هذه الليلة ووجدتم جميعكم على مائدتي فهذا
اجتماع حافل وقد كان لازماً لكي أبين لكم الثقة التي لي فيكم واطهر لكم القوة التي لكم
ولا تشعرون بها واعرفكم بالرجل السيد والرئيس الذي يعتمد عليكم ككل الاعتماد
وتدعونه بالمعلم داود وهذا الرجل هو الذي منذ سنتين يسعى في طلبكم من كوف
باريس وحاناتها ودساكرها لكي يجملكم عصابة واحدة هنا ويقدر بواسطتكم ومعالي
همتكم ان يحقق آماله القديمة ببلوغ اسمى درجات الغنى والمجد والقوة التي لا حد لها .
وقد بلغ هذا النعيم العظيم لكنكم تشاركونه فيه . هذا النهر الذهبي الذي ينبوعه هنا
ويفيض في انحاء باريس لكم كل الحق ان تردوه وتنهلوا ما استطعتم لتكونوا من
اسياد العالم اي اكابر الاغنياء

فضج الجميع بصوت واحد ضجيج استحسان . ثم قال لوقا . سميت مشاعلية
وليس اسم اليق منه لكم وذلك لانكم ابناء مملكة الليل فكوكبكم الاعظم هو المشعل
الذي بنوره لا بنور كوكب النهار تقومون بأعمالكم العظيمة . واعلموا ان قوتنا عظيمة
جداً غريبة في بابها لا يمكن لعدوان يطرق منازلنا ولا يمكن لواحد ان يخوننا لان
جواسيسنا مائة المدينة حتى في قصور الوزراء وبلاط الملك فلا يخال لاحد ان يسلم
سرّ الخيانة ويكون مطمئناً من الذي يسلم اليه هذا السرّ حاسياً انه ليس من حزب
المشاعلية . فيرى نفسه قد سقط تحت اعظم الضربات قبل ان يتزعزع احقر ركن من
اركان عظمتنا

فضجوا ضجة اخرى ظهر منها الشفقة والاستحسان وكثرت الجلبة بهذا الشأن واستمرت بضع دقائق وبعد ان سكتوا السكوت التام عاد لوقا الى حديثه وقال ايها المشاعلية بقي ان اوضح لكم البيئة التي يجلي بها صدق كلامي وذلك بان اظهر لكم صورتي (لانه كان لابساً حينئذٍ وجهاً صناعياً وكذلك قينة) واعرفكم اسمي الصحيح واسم السيدة التي اتخذتها امرأة لي ملكتكم الليلية التي لها اعظم قوة لتدافع عنا وتمنع كل اذية وتفتح لنا كل ابواب النجاح . ايها المشاعلية هذا البربي الذي جمعتم فيه فوقه القصر المعروف بمنزل الشيطان وعمما قليل يجتمع فوقكم اهل البلاط واعيان الوزراء والشرفاء فانهم في دعوتي هذه الليلة . والمعلم داود القروي القديم لم يعد يوجد اليوم وقام مقامه هذا الرجل الشريف الذي اتحد مع اشرف عيال المملكة فانظروا الى الشريف البارون الكرجاني صهر الشريف الدوق يعقوب الشميسي . قال هذا وكشف وجهه الصناعي . فارتفعت من الجماعة ضجة اهتزت لها جوانب البربي وكررت ثلاث مرات . ثم مديده وانتزع بخفة وجه قينة وقال ايها المشاعلية ابنا الليل هوذا ملكتكم حيوها

وكان خطاب لوقا قدهيج حماسة الجماعة جداً ولما شاهدوا ما لقينة من الجمال الساحر اقبلت حماسهم الى جنون من شدة تأثيره فصاحوا صيحة ملء الحناجر قائلين عاشت ملكتنا . عاشت ملكة الليل . وكرروا ذلك مراراً كثيرة وهم يهتزون وقد اخذت الخلفة منهم مأخذاً عظيماً وسحروا وسكروا من هذا المشهد الجليل فوق ما بهم من سورة المدام والدعارة الطبيعية . وصاروا يزدحمون حولها وتقدم اوقعهم ساجدين لها وامسكوا اذيالها وجعلوا يقبلونها

فكانت اول مرت شعرت بها قينة بعزها وجلالها وظهرت بابهة الملك لقوم من رعاي الناس حسبهم رعيها الامينة وعبيدها الارقاء . فحقق فؤادها من شدة تيهها وترقرقت الدموع في عينيها وفي تلك الدقيقة فقط احبت لوقا الكرجاني حباً صحيحاً لانه سبب لها هذه الاسباب الفخارية . وحينئذٍ كلم لوقا احد الرجال القرييين منه فضى وملاً كاسين من افخر الخمر التي على المائدة واتي بها فناول لوقا قينة احدهما ورفع الاخرى بيده وقال : علي سر المشاعلية وشرب الكاس جرعة واحدة وشربت قينة كحسو

الطير . فارتفعت اصوات الجماعة ايضاً اشدّ من ذي قبل وصفقوا طرباً . فقال لهم لوقا الآن ايها المشاعلية احضروا شيئاً من نتائج اعمالكم لتري ملكتكم فمضى احدهم وكان شديداً وحمل برميلاً مملوءاً الى نصفه دنانير جديدة تبهّر البصر فأخذ لوقا قبضة واراها قينة قائلاً هل ترين يا عزيزتي حنة ما اتمّ هذه الصنعة وما اشدّ المائلة بين هذه الدنانير والتي تخرج من دار الضرب الملوكية ألا يخفى سرّها على احذق الصيارفة فعندنا الآن مليونان وما تكلفت من النفقة اكثر من اربعين الف فرنك . تصوري مقدار ثروتنا . ثم قال للمشاعلية كل ما في هذا البرميل لكم املاً واجيبوكم وانثروا الذهب في شوارع باريس عالمين ان عندكم نبماً لا ينقطع فتقدم الجمهور وانتهب تلك الدنانير وفي بضعة دقائق لم يبق فيه دينار واحد

وكانت قد مضت على لوقا وقينة ساعة وهما في البري وحان وقت صعودهما لمقابلة الضيوف في الساعة الرابعة من الليل كما ذكرنا فودعا جماعتهما ودعوا لهم بليلة هنية مباركة وخرجا . وقال لوقا لقينة قبل ان يصلا الى سلم الخدر قد رأيت يا حنة ان خطوط يدك دلت دلالة صادقة وما غلظت الغولة في انبائها اياك بالحصول على تاج الملك فقالت ولست انسى جميلك لاني انت البستاني هذا التاج ومساعيك اوصلتني الى هذه المنزلة من العزّ والغنى

- وكيف رأيت هذا المشهد الخافل

- رأيت انك قوي ذو سطوة تامة على جماعتك لكنك لم تحسن التصرف في كونك اعلمتهم حقيقة حالك وعرفّتهم اسمك الصحيح لان هذا يسهل الخيانة - والحال ان القضية بعكس ما ارتأيت وما فعلت انا هو الرأي السديد لان ذلك يجعل الخيانة مستحيلة وكل المشاعلية الآن بلا استثناء يعتقدون اني ائتمنتهم على اسراري بكوني كشفت لهم الحقيقة وقد تيقنوا ان الخيانة تعود على الذي يبدأها بالويل الاكيد لتأكدهم ان كل الكبار واصحاب الرتب في الحكومة من اصحابي وان مقدم الدرك يغمض عينيه ويسدّ اذنيه عن كل وشاية بحقي اكراماً لمقامي السامي ونفوذ كلمتي فكوني على ثقة من هذا القبيل كما انت على ثقة من تحصيل المجد والثروة التي لا تضاهيها خزائن الملوك ولا كنوز الارض

وحينئذ بلغا الخدر ورداً لوقا الطنفسة على الباب السري كما كانت ووجد قيناً على الحال التي اوصاه ان يكون عليها من التيقظ في الحراسة فشكر همته وقال له اريد ان لا تبارح القصر لاني احتاج اليك هذه الليلة مراراً فقال له كن مطمئناً فانك تراني كل ساعة قرب خزانة الاطعمة والاشربة والآن يظهر ان اناساً قادمون فاذهب للقائهم فمضى لوقا وقينه واذا بعدة مركبات قادمة تحمل اكابر البلد وقد وقفت مصطفة على الطريق والناس حولها كسورين بشريين والعيون محدقة بكل من يخرج من مركبته ليشاهدوا تلك الابهة التي كان بها اصحاب المقامات في تلك الليلة . فجمعوا يخرجون من المركبات ويدخلون الدار بترتيب وهدوء رجالاً ونساءً ولوقا وقينه يترحبان بالجميع ببشاشة غريبة ممتزجة بالافتخار . وكان لوقا قد قال لقينه وهما خارجان للاستقبال يا عزيزتي حنة الآن انتهت نوبة الملك واتت نوبة الضيافة فاعتبري نفسك سيدة شريفة وصاحبة منزل عظيم . فقالت له ليس مثلي يحتاج الى توصية وقد عملت اعمالاً تعجز عنها دهاة الدنيا

الفصل الحادي والاربعون

« لوقا وابن الشرطي »

ذكرنا فيما مضى ان الغولة حينما قالت للوقا لا يطرق بابك احد في منزل الشيطان اجابها بل يجتمع عندي اهل البلاط وامائل الناس . او ما هو بهذا المعنى . وكان كلام لوقا مصيباً لان اكثر الوجهاء التمسوا بطريقة خفية حظ الدخول في تلك الليلة . واشتغلت باريس كلها بمحدث هذا الانقلاب الذي حدث في منزل الشيطان في مدة وجيزة وبالجملة التي لمشترية بان يجعله من المنازل المنيفة والنفقة الفاحشة التي انفقها عليه وما انشأ فيه من العجائب

وما اتت الساعة السابعة من الليل حتى غصت القاعات بجماهير اعيان باريس اكثر مما يجتمعون في البلاط الملوكي واتي جمهور غفير ايضاً من اطراف البلاد ليشهدوا هذه الليلة الحافلة

وكان معبلي واقفاً بالبواب الخارجي يستلم تذاكر الدعوة وخادم آخر يأخذها الى لوقا ليراها وكانت القاعات الكبرى معدتين للرقص وقاعة اخرى للعب ورابعة للحديث وبعد ذلك قاعة الاكل تليها الغرفة التي فيها خزائن الطعام والمشرب حيث يكون قين في كل وقت يلثمهم التهام الذئب . وزمرة المغنين والآلاتية تشتغل استمراراً . وفي قاعة اللعب عدة مواثد محدقة بها جماعات ممن لهم هوس في اللعب والذهب يجري بين ايديهم كسيل متدفق

واتفق ان لوقا كان جالساً مع الشحنة ابن الشرطي واثنان آخرين وكان هذا الشحنة احذق من انتصب لهذه المصلحة قبله وبعده واشتهرت عنه اعمال عظيمة جداً في صحة البحث والتنقيب حتى لم يكن يخفي عليه شيء مما يجري في باريس والطرق التي كان يتوصل بها الى معرفة كل الامور كانت اخفى من مدارج الخمل وكان الملك يبجل مقامه جداً ويبدل له من المال ما لم يبذل لاحد غيره ولا للوزراء تقريباً لانه ضبط امور المدينة ضبطاً تاماً وانشأ فيها آثار جليلة . وكان يميل الى القمار ويلعب بمبالغ جسيمة

(ما ندرى كيف لا يستنكرون هذه العادة القبيحة وكل انسان يعرف سوء منقلبها وهذا الشر في بلادنا آخذ في الانتشار حتى يخشى ان يصير عادة مألوفة بين الكبار والصغار رجالاً ونساء . نعم انه جار منذ عهد طويل لكنه في هذا الزمان قد بلغ مبلغاً عظيماً حتى تطرقوا اسفاه الى النساء)

واتفق تلك الليلة ان ابن الشرطي كان يربح في كل مرة وكان ما يربحه من لوقا نحو ثلثمائة دينار ولم يظهر على لوقا اقتباض

وفي اثناء اللعب كانوا يتحدثون وكان مدار الحديث غالباً على الجنائيات والتزويرات الجارية في البلد ونحو ذلك مما يتعلق بمصلحة الشحنة فكان يدخل في كلامه باساليب رقيقة لطيفة جداً حتى يتوصل الى مسألة مهمة فقتضى بحسن مدخله ان يسأله لوقا عما هو جاري في ذلك الوقت من المباحث فاجابه على الفور السعي اليوم في الكشف عما يضر بون الزيوف فقال البارون وهو يتعجب وهل الضرب جار الآن

نعم جار بنشاط وهمة غريبة يخرج من الزيوف كل يوم ألوف حتى دهشت

الصيارفة وخافوا خوفاً شديداً من سوء نتائج اشغالهم والتجار لا يزالون كل يوم يبلغوني من هذه الاخبار ويتوسلون اليّ ان ابذل الجهد بكشف هذه الدسيسة الخبيثة

- منذ اي عهد هذا الامر جارٍ
 - منذ خمسة عشر يوماً ولي الامل ان المدة لا تطول حتى اكشف الخبيثة
 - وما هي اصناف النقود المذكورة
 - دنانير مفردة ومزدوجة
 - ألا ينكر شي، على ظاهرها من التقليد
 - مقلدة تقليداً عجبياً حتى ان دار الضرب الملوكية لا تضرب احسن منها ولا
- اصدق ظاهراً

- ووزنها ورتتها
 - على غاية ما يكون من الاتقان
 - هل معك شيء منها الآن
 - معي نعم ستة دنانير هل تشتاق الى رؤية شيء منها ايها البارون
 - بكل رغبة يا سيدي اذا سمحت لي
- فاخرج ابن الشرطي من جيبه تلك الدنانير وجعل لوقا ينظر اليها ويمعن النظر ثم قال حقاً اني قد دهشت حتى يصعب عليّ في كل ساعة ان اميز الصحيحة من الزيوف
- نعم يصعب لمن يكتفي بالنظر الى الظاهر
 - وهل من طريقة تعرف بها
 - نعم اذا وضعت الدينار على سندان وضربته بمطرقة ضربة شديدة يتقمت
 - هذا من اعجب الامور لكن اذا لم يتفق للانسان كل وقت ان يمتحن
- بالمطرقة والسندان

- فلهُ طريقة اخرى سهلة جداً
- فعبس البارون حينئذٍ ولم يكذبك نفسك من الاضطراب وقال بصوت فيه بعض ارتجاف . وما هي هذه الوسطة هل تكرم عليّ بالافادة عنها
- لِمَ لا . اذا وضعت الدينار على لهيب الشمعة او نحوها فانه يذوب بسهولة

فاخذ لوقا ديناراً وادناه من الشمعة حتى كاد يحرق اصبعه في اقل من دقيقة
ذاب فقال ابن الشرطي ترى انه بهذه الطريقة لا يمكن ان ينخدع احد ولو كان من
اغبي الناس

فلم يجب لوقا وقد اكفر و بهت متحيراً اسيفاً

ثم اتوا اللعب الى ان ربح ابن الشرطي من لوقا نحو ثمانية آلاف فرنك فدفعها
اليه ذهباً (اربعمائة دينار) فاخذ ابن الشرطي واحداً منها وادناه من الشمعة فذاب
ثم ادنى آخر وآخر فاخذه العجب . واما لوقا فكظم ما به من الكدر الذي كان يمزق
امعاءه وقال امر غريب ارى ان هذه المصيبة قد عمت حتى لا يهتدي احد الى شيء
من مصادرها وما ادري الى اي حد تنتهي . فنظر اليه ابن الشرطي متفرساً وقال له
من اين لك ايها البارون هذه الدنانير قال اتتني من صيارفة الخزينة ارسلت اليهم
سفائح بقيمة ستين الف فرنك فارسلوها ذهباً واخاف ان كل ما ارسل الي يكون زيوفاً
وكان لوقا صادقاً في كلامه لانه ارسل سفائح بهذه القيمة ودفع اليه المبلغ تقوداً
صحيحة غير انه اخفاها واظهر من تقوده الزائفة

فقال له ابن الشرطي لا تتكدر ايها البارون ففي الغد ارجع كل ما دفع اليك الى
منزلي لانظر في القضية واقبض على وكيل الخزينة لعله يكون من المتداخلين في الخيانة .
ويرجع اليك نفس المبلغ تقوداً صحيحة

فاراد لوقا ان يشكر فضله بما اعتاده من البشاشة والرقه واذا بجلبة قد سمعت في
القاعات القريبة من قاعة اللعب وارتكض جماعة من الاشراف يخبرون لوقا ان السيدة
حنة اغمي عليها . فارتاع لوقا من هذا الخبر وفي معرفته ان قينة ليست من اولئك النساء
اللاتي يتأثرن هذا التأثير من شيء حقير لان عزها شديد وقوة قلبها عجيبة فاستغرب
جداً هذا الحادث ونهض من ساعته وهو في قلق شديد . وتبعه من كان معه في
الغرفة ليعرفوا ما جرى

الفصل الثاني والاربعون

« تمة الخبر عن ظهور رعين »

سبق الكلام ان ابا زررور وجبوراً هربا من البري الى المدافن ومعهما رعين
يحملة ابو زررور . غير ان لوقا اتى ثاني يوم بجماعة من اتباعه ودقق البحث في زوايا
البري ومخافيه ثم تقدم الى المدافن وادخل جماعته يفتشون فاستتر الرجلان مع رعين
خلف حاجز من عظام الموتى فلم يروهم

ولما انصرف الباحثون قال جبور لرفيقه لم يبق لنا هنا اقامة فيجب ان نسعي في
وجود مقر آخر مستور وانا اعرف بيتاً متهدماً مهجوراً لا يلتفت اليه احد وفي الافكار
انه مسكون بالجن لان رجلاً كان يسكنه وجد مقتولاً قتلاً ذريعاً ولم يكن له عدو
يعرف ولا كان صاحب نقود يطمع فيها فمن اصوب الازاء ان نتخذهُ منزلاً لنا . قال
افعل ما بدا لك فلست اخالف تدبير رأيك وعليّ بحمل الجريح حينما انتقلنا

فمضيا الى المكان المذكور وعملا فيه ثلاثة اوطئة من القش واقام جبور على
معالجة رعين حتى تقدم الى الصحة بسرعة وفتح عينيه واجال نظره هنا وهناك وقد عاد
اليه وعيه فقال اين انا فتقدم اليه جبور وقال له لست في قصر يا صاحبي الشريف كما
تري لكن عندك صاحبين بذلا في معالجتك جهداً جيدهاً ولولا همتهمما لكنت الآن من
ابناء الاخرة . فاغض رعين عينيه لان نور النهار ابهر بصره وجعل يجهد ذاكرته
فتذكر ما جرى بينه وبين لوقا الكرجاني وقال علمت ان لوقا الكرجاني طعنني وظننت
اني اموت فقال جبور اعرف الذي غدر بك جسماً لا اسماً

- ماذا تقول غدر بي

- نعم كان قد ارصد لك رجلين من الاشقياء فطعنناك في ظهرك

فتأمل رعين حينئذ وفطن انه رأى صورة قبن والتوقلي حينما انحنيا فوقه وهو على

آخر رمق فقال نعم نعم اذكر هذا وكأني ارى التمتلة وكانت المسألة البارحة

- العفو يا سيدي المسألة منذ خمسة عشر يوماً

- عجباً ما تقول ؟

- اقول الصحيح
- وما جرى عليّ في هذه المدة
- اخذناك من حيث طرحوك واعتنينا بشأنك ولازمنا معالجتك الى ان حصلت في هذه الدرجة من الصحة
- ماذا . عملنا كل ذلك مع رجل لا تعرفانه فاتمنا احسن الناس واكثرها رافة وخيراً
- تتكلم يا سيدي بما فيك فلسنا من الناس الذين ذكرتهم لكن في قلبنا حنواً وقد بدلنا في معالجتك ما لا تبدله الوالدة لولدها
- فاتنا منذ خمسة عشر يوماً تلازمان معالجتني
- ليلاً ونهاراً
- فايّ جميل لكما عليّ وكيف اكافئكما
- المكافأة من شيم امثالك يا سيدي
- فقل في الحال ما تريدان مني
- لا نطلب الا ما نستطيع
- آتحتاجان الى دراهم
- لا تعتقد ان في الدنيا افرق منا
- فكونا براحة بال فاني كثير المال . غنيّ جداً ولا بد ان اكون واسطة غنا كما وسعادتكما باذن الله فاعطيني الآن ثيابي هذه المعلقة في الخائط
- ويحي . ما قصدك يا سيدي . اما تعلم انك لا تستطيع حركة الآن
- ما قصدني الخروج لكن في جيبي كيساً فيه دنانير
- قد صارت في كيسنا يا سيدي من اول يوم وانفقناها على الادوية فهل نلام
- كلا وكان لكما الحق بانفاقها باي سبيل كان
- وما نخشى ان تبقى يدنا فارغة بعدها لان الجميل مع رجل شريف نظيرك يكافأ باضعاف المأمول
- فامعن رعين النظر في صورة الرجلين وعلم من هيتهما انهما لم يقصدا خلاصه من

الموت الا على رجاء جائزة سنوية لكن على كل حال وجد نفسه حياً وهذا مطلوبه لانه محروق الفواد لاخذ ثاره من ذلك الخائن لوقا . فقال لجبور وقد اصبتما باعتمادكما على مروءتي لاني لا اضيع لكما معروفاً وتنانان مني فوق ما ترجوان فقولا لي كم المبلغ الذي تطلبانه فأجيب بلا تردد وازيد ما يقدرني عليه الله . فأشرق جبين جبور طرباً وقال هذا كلام الاشراف وهمس ابو زرزور في اذنه قائلاً هو ذا رجل كريم الاصل . ثم قال لرعين هل تعرف ياسيدي الامير (فلاناً) قال نعم ولي معه صحبة اكيدة وما معنى هذا السؤال

- ألم تأتِ مراراً للصيد في احراش هذا الامير في البلد (الفلاني)
 - نعم اتيت مراراً
 - فهذا ما كنت احسبه وانا متحقق اني رأيتك ولعلي مصيب بان اسمك المركز
- رعين الزهري

- هو ما تقول فقد تعجبت من هذه المعرفة فهل توضح لي سببها
- لا عجب فاني كنت في الزمان احرس كلاب الامير المذكور ولا بد ان تكون سمعت بصيتي فانا ابو زرزور المشهور الذي ملأ قلوب الناس رعباً في تلك الاقطار وقد لاحقوني وكانوا الغاء وانا وحدي وما قدروا عليّ
- فاعترت رعيناً هزّة غير ارادية عند سماعه هذا الكلام لانه كان قد بلغه ما لهذا الرجل الخشن من الاعمال الفظيعة ولحظ منه الرجل ذلك فقال له ما عليك بأس ياسيدي فقال رعين لست ممن يخاف ومع ذلك فقد خلصت حياتي
- برهان كافٍ غير ان لونك تغير بكلامي فأراد رعين ان يجاوبه لكنه لضعف جسمه وشدة تأثره تعذر عليه الكلام وتلاشى فقال جبور ويحك يا خبيث قد اثقلت عليه بالكلام وهو على ما ترى من الوهن فقال له وهو خائف على الجائزة لكن قل لي بحياتك هل عليه خطر
- لا خطر فناولني قنينة العرق فاعطاه اياها وصب منها شيئاً على فم رعين فانتعش فقال له الآن ياسيدي ندعك حتى تأخذ راحتك بالنوم وغداً نتحدث ثم تركه ومضي هو ورفيقه فنام نوماً ثقيلاً

وحينئذ اخذ اللصان يتشاوران في كمية المبلغ الذي يطلبانه فطال الجدل بينهما حتى اتفقا ان يطلبوا عشرين الف درهم غير ان ابا زررور لم يقنع بهذا باطناً فقال له جبور من اللزوم ان نسلك مسلك الاعتدال مع رجل مثل هذا يقدر ان ينفعنا نفعاً عظيماً عند الاقتضاء وقد نخلصنا يوماً ما من القتل اذا وقعنا بيد الحكومة لاني ارى ان كلمته نافذة جداً

ولما كان الغد نهض رعين متعش القوي وكلمه جبور في شأن المبلغ فأظهر الارتضاء التام واما ابو زررور فندم على هذا الطلب وقال اف لجبور فلو طلبنا ضعف القيمة لما تأخر

واخيراً تم الاتفاق بين جبور ورعين ان رعيناً يأتي للقائهما في الليل عند الباب الصغير الذي يؤدي من شارع الاساورة الى الحظيرة التي جرت فيها المبارزة بينه وبين لوقا فهناك يدفع اليهما المطلوب وقد وثقا منه بالوفاء وبعد ثلاثة ايام تعافى واستطاع ان يخرج الى المدينة . فركب مركبة ودخل بيت احد اصدقائه واقترض مبلغاً وافراً وتجنس اخبار لوقا فعرف انه تزوج بحنة الشميسية واشترى منزل الشيطان ورممه حتى صار من اعظم القصور وانه عازم على اقامة وليمة عظيمة جداً يدعو بها الجفلى (١) بموجب تذاكر عمومية فكل من وقعت يده تذكراً اجازة دخل القصر وشهد الوليمة فقلق رعين لهذا وعزم عزمًا يوافق تلك الظروف واستأجر بيتاً مفروشاً في الشارع الكرزي حوله حديقة كبيرة

ولما كان اليوم المعين بينه وبين اللصين وافاهما الى الميعاد ففتح له باب الحظيرة فدخل مطمئناً واعطاها المبلغ الموعودين به فشكراً فضله وجلسوا في خلوة يتحدثون وكان القيم كثيراً يحجب القمر فسأل رعين جبوراً عما جرى له من حين طعنه لوقا وصاحبه الى حين استفاق من غيبوته فجعل جبور يقص عليه كل تلك الحوادث المار ذكرها وما فعلوا بلوقا ليلة التهاويل الى آخر الحديث فأعلمه رعين ان منزل الشيطان اشتراه لوقا واصلحه وداخله ريب شديد من جهة البربي قائلاً لا بد ان يكون لذلك شأن عظيم وان لوقا يجري فيه اعمالاً مهمة

(١) اي دعوة عامة بلا تخصيص واما الخاصة فيقال لها النقرى

ويناهم في الكلام اذ فتح الباب ودخل جماعة تحت الظلام وبلغوا موضع السروات التي كان قين والقوقلي كائنين بينها يوم المبارزة وهناك اختفوا . ثم دخلت جماعة اخرى وفعلا فعلهم . فتمعج رعين وقال ابن يمضي هؤلاء قال الى البربي من منفذ هناك سرري فقال رعين لجبور اسمها يا صاحبي اشير عليكما مشورة لعل بها خيراً لكما ان قبلما قال نحن طوع امرك مر بما تحب قال انما الآن تعيشان عيشة تحت خطر في كل وقت ولا بد ان تؤدي بكما اخيراً الى الهلاك . فاقبلنا مني وكونا في خدمتي استأجر لكما بيتاً في البرية واكلفكنا بمصالحني وقت اللزوم ويكون لكما راتب ثلاثمائة درهم كل شهر واستحصل لكما براءتين فيهما الصفح عن كل ما مضى من ذنوبكما على ان تكونا في كفالتني في المستقبل فاعزما على ذلك وعيشا هنيئاً آمنين . قال تنمى ذلك من صميم قلوبنا وانت صاحب الفضل مقدماً وموخرأ وهذه اكبر نعمة نحصل عليها اذا حصلت البراءتان قال علي ذلك لكن لي شرطاً . قبل كل شيء تتجسسنا لي خبر هذا البربي وما يفعل هناك هؤلاء الناس الذين يدخلون من هذا المنفذ السرري وانا استنظر افادتكما في محلي في الشارع الكرزي علامته كذا وكذا . قال على الرأس والعين . فدفع لهما رعين راتب الشهر الاول سلفاً ومضى في سبيله .

واما هما فتخللا السروات وكنا في مخبأ يتسلمان الاخبار والكلام ويرصدان الحركات وقبل انصرام الاسبوع بلغ رعينا بواسطة هذين الخادمين الامينين ان البربي الذي تحت منزل الشيطان قد جعله لوقا الكرجاني معملاً عظيماً للزئوف

واما الطريقة التي توصلها الي هذه المعرفة المدققة فهي هذه باختصار بينما كانا مستترين في مخبأهما خلف السروات مرت جماعة امامهما ودخلوا جوف الارض من فوهة هناك فسمعا بالاتفاق واحداً يقول لاخر اتذكر كلمة المجاز هذه اليلة قال نعم . يقال لك ذهب ، فتقول « حديد » فدخلوا بهذه الواسطة . وتفحصا هيئة البربي وعرفا ما يعمل فيه من ضرب الزئوف . غير ان الظنون اشتغلت بهما ولحظا ان كل من هناك ينظرون اليهما بعين الريبة وحدث قلق عرف جبور ان عاقبة وخيمة عليهما فانسلأ بخفة وخرجا من البربي بطريق يؤدي الى مقلع سهل الجبل الاحمر . وكانا يعرفان ذلك المر . وهكذا فازا بالنجاة وقد ايقنا ان رعينا سيحجزهما جائرة سنية .

وهكذا كان لان رعيناً ارسل اليهما خمسة وعشرين ديناراً على اثر تبليغها اياه هذا الخبر المفرح والمكدر معاً لانه من جهة كشف خيانة لوقا ومن اخرى اسف على حنة لانها وقعت بيد رجل شقي لص فاحتر في امره وما عرف ما يعمل فاذا اظهر للحكومة دسيسة لوقا بوقع حنة في آلام شديدة لانها لا تعود تحيي فاقدة الشرف من جهة زوجها واذا اخبر ابويهما ينزل شيبتهما بحزن الى القبر . وايضاً اذا ابقى الامر مكتوماً يبقى لوقا مطمئناً فلا سبيل الى نجاة حنة منه . فضاقت به الدنيا وتعرقل عليه المشكل وبعد ثلاثة ايام من التفكير والقلق خطر له خاطر نهائي وهو مقابلة حنة وكشف الحقيقة لها شفاهاً . لكن هنا مشكلاً آخر كيف يتوصل اليها في قصرها اذا عرف لوقا بدخوله يقتله لا محالة واذا كتب اليها يعلمها بأمره تمتنع من مقابلته لانها مظهرة له النفاق سابقاً

فبينما هو على شفير اليأس اذ علم بالوليمة العامة التي اعدتها لوقا في قصره وعلم ان الناس بها يكونون في ازياء مختلفة من التخفي عند اقامة دور الرقص فاذا دخل بزى غير زيه الاصيلي لا يمكن ان يعرفه احد ولا ينكر امره غير انه وجد صعوبة اخرى في استحصال تذكرة الدخول فأمن الفكر طويلاً ولاح له ان يقصد صاحبيه اللصين السابقين ويطلب منهما ان يسعيا جهدهما في تحصيل تذكرة دعوة من الخادم وهو يوزع التذاكر وبالتفاق قدر جبور على ذلك بسهولة فانه غر الخادم بالشرب واخذ تذكرة اخذ الكبار من غير ان يعلم صاحبها واصلها الى رعين فلما كان المساء المعين للوليمة لبس حلة من مخمل اسود وفوقها جبة راهب تستر كل جسده وقبعها الكبير يستر وجهه وتقلد تحتها بسيف وغدارتين حذراً من غدرات الزمان ودخل القصر بعد نصف الليل بساعة ولم يعرفه احد بسبب التذكرة التي معه واحتج عن الابطاء بمذرفقته فلما توسط القاعات انبهر نظره من شدة الانوار وبهاء الزينة والروائح العطرة المنتشرة من الازهار واجساد الغواني (١) الفتانات وما على الناس من الحلال المختلفة

(١) المراد بالغواني النساء الخرائر . وهو معناها الحقيقي

الاشكال والالوان

فجلس برهة مندهلاً ثم صار يترقب مرور حنة بين ذلك الجمهور فما مضى الا القليل حتى وقع نظره عليها وهي بتلك الحلة الملوكية والجمال الفتان وقد اخذت بيد احد الشبان ليرقصا وكانت حركاتها ولفئاتها ونظرها واضحة الغنج والدلال حتى الخلاعة . فدهش رعين من حالها واضطرب اشد الاضطراب ومزقت الغيرة احشاؤه وكاد يسقط مغمى عليه . غير انه تجلد وغالط نفسه وقال لا اصدق ان تكون هذه طباع حنة الشميسية المرباة تربية دينية اديبة شريفة ولعل شدة غيبي صورتي لي اوهاماً لا يجب ان اعتبرها حقائق

وبعد ان انتهت من الرقص ومغازلة أولئك الشبان المحدثين بها اختفت عن عين رعين فجعل يرصدها ثانية الى ان رآها هذه المرة تحدث قيناً وهو بحلته الفاخرة . فلما وقع نظره على تلك السحنة الوحشية اقشعرّ بدنه وقد ذكر ان ذلك الوجه الكريه هو الذي رآه آخر مرأى وهو في نزع الموت على اثر غدر لوقا به في الحظيرة فزاد تعجبه ايضاً من كون حنة تتقرب الى رجل عليه سماء اللصوصية والغدر . وغالط نفسه هذه المرة ايضاً قائلاً انها لا تعرف بواطنه لسلامة قلبها ولكونه من اخضاء لوقا لا بد ان تؤانس على جهلها حقيقة امره

ولحظ ان الشبان سيزدهون على حنة فلا يستطيع ان يكلمها فتقدم اليها بسرعة قبل كل احد وقال لها يا سيدتي هل تسمحين لي بمشافتك دقيقة قالت يا سيدي الراهب مثلك لا يرد وان كان زيك في مثل هذه الليلة الزاهرة يؤذن بالكآبة - نعم يا مولاتي زيي مكدر لكنك اقل تكديراً من الحديث الذي ابته هذه الليلة لحنة الشميسية

فلما سمعت قينة هذا الاسم التي قتلت خيانةً لاجلها خفق قلبها لكنها ملكت نفسها وقالت لرعين لا يخطر على بالي شيئاً في الدنيا يكدرني وانا مع رجل احبه وايامي كلها رخاء وصفاً وافراح متواصلة

- أفليس في ضميرك اذاً ذكر شيء يولد تبكيتاً

- ما هذا التبكيت ايها الاب اما تعرف من تكلم فلا تتجاوز حدّ الحرية وان

كنت متخفياً

- يا حنة الشميسية أمن الصواب ان تحتقري وصية رجل يموت وتخونيه . أليس هذا ذنباً يستوجب التبكيت
- ما ادري ما مرادك ولا افهم معنك
- بل يظهر لي من اضطرابك واصفرار لونك انك فاهمة وقد اتلفت نفسك يا حنة بتسليمك رسالتي الى لوقا الكرجاني وقد كانت متكفلة بخلصك
- فشعرت قينة ان قواها تتلاشى وما فطنت من يكون هذا الرجل العارف بأسرارها ثم يجسر ان يكلمها بهذه القحة كأنه يحتقرها في معظم ابتهتها وسط بيتها وهي مع ذلك على يقين من فناء رعين الزهري منذ ايام . فلم تجب بكلمة وبقيت ذاهلة محتارة
- فقال رعين نعم ان سلامتكم كانت بتلك الرسالة التي خنت بكشفها لعدوي وعدوك ككلام رجل قبره كان مفتوحاً ومعلومك ان وصية الميت تعتبر مقدسة يجب انفاذاها قطعاً . ومع ذلك فقد فات ما فات والآن لم يبق لي انا الذي افديك بحياتي الا رجاء واحد وهو ان تبعدني عنك الخطر القريب وقوعه عليك
- ومن يكون هذا الخطر . عجباً
- من زوجك فقط من لوقا الكرجاني
- كفى ايها الرجل ليس لوقا من يرمى بهذه التهم . واني لا ازال احترمه واحبه ولا اصدق عنه شيئاً من الارجيف . فاقطع هذا الحديث
- بل يجب ان اتمه و يقتضي ان تصدقني ما اقول . فان لوقا الكرجاني مزور خائن غادر مزيف . لوقا الكرجاني رجل شرّ وخيانة من كل وجه . وفي هذه الساعة نفسها بين افراحه واصدقائه يستطيع الدرك ان يأتي ويقبض عليه بكل سهولة ولا من يدافع عنه ولا يمانع . وتحت هذا الفرش الفاخر والزينة الباهرة والاقدام اللطيفة التي تدوس هذه الطنافس الناعمة برّبي فسيح فيه جماعة من اخشن الناس حشدهم لوقا الكرجاني لضرب الزيوف وهم يعملون الان في هذه الدقيقة التي اكلك بها

الفصل الثالث والاربعون

« جزع وقلق »

فبعد ما سمعت قينة هذا الكلام وكان عليها اشد من وقع الحسام ووخز السهام ارتجفت كل اعضائها وامتقع لونها واهتز بدنها وكادت تقع متلاشية غير انها بدهائها شددت عزمها واستجمعت قواها وقالت لرعين بصوت رهيب . ايها الرجل . ان الناصح يُستعملن ولما كرهت يستخفي فاما ان تكون صديقاً مخلصاً او عدواً ألد فاذا رأيت وجهك صدقتك او كذبتك . احترمتك او اهنتك وطردتك من منزلي

فهاج برعين الغيظ والاسف وقال لها . آه ألا تعرفيني اما فطنت لي من صوتي اما شعرت من اشارات كلامي . هذا مما كنت احسبه . ما أنت حنة الشميسية وللوقت رفع عن وجهه القبع الذي كان يستره وظهرت لقينة صورته الذابله . فأثرت هذه البغته بقينة تأثيراً شديداً جداً وما كانت تحسب ولا بالنام ان يقع بصرها على صورة رعين الزهري منشوراً من القبور فصاحت صيحة شديدة وسقطت فاقدة القوة والصواب كما سبق الكلام

واما رعين فلم يعد المقام يحتمل بقاءه هناك فغطى وجهه بقبع الجبة وانسل من بين الجماعة وخرج من القصر من غير معارض
وحينئذ اضطرب الناس وحضر لوقاً منزعجاً مشتغل البال وكاد يفقد رشده حينما رأى قينة على تلك الحال

فأمر ان تفتح النوافذ ليدخل الهواء البارد واخذها بين ذراعيه وادناها من النافذة فاتعشت في اقل من دقيقة وعاد اليها صوابها فأدنى فمها من اذنها وقال لها . ماذا جرى . ماذا رأيت . ماذا علمت . قولي حالاً

- هلكننا . فقدنا عزنا وجاهنا

- ما هذا الكلام . افيتي على نفسك

- هو ما اقول لك

- ما الداعي ما الحادث

- قام الاموات من قبورهم واعترضونا في سبيل المجد . ظهر لي رعين الزهري
- وي . رعين الزهري . هذا امر مستحيل . كذبتك عينك او تحلمين اوتهدين
- ما رأيت الا الحقيقة . وقبل ان كشف لي وجهه حدثني ملياً
- ما قال لك
- قال انك خائن مزور غادر مزيف وانك جعلت البربي الذي تحت قصرك
- معيلاً للزيوف . وحيث لم اعرفه من صوته وطلبت ان ارى وجهه قال هذا ما كنت
- احسبه ما انت حنة الشميسية
- وما كان لابساً
- حلة راهب
- فالخطر علينا شديد فاملكي نفسك الآن واكتنبي جزعك وعودي الى انسك
- ولطفك ومسامرة صواحبك واعتذري عذراً مقبولاً عما جرى لك . انا ذاهب
- الآن لشأن وعما قليل اعود
- وخرج لوقا في الحال الى الدهليز الذي فيه خادمة معيلي يحرس الابواب ويرى
- الداخل والخارج فجره بيده على انفراد وقال له هل رأيت رجلاً دخل بزني راهب
- نعم
- هل كان بيده تذكرة دعوى
- نعم يا مولاي
- متى دخل القصر
- بعد نصف الليل بساعة
- وهل رأيت خرج الآن
- نعم منذ عشر دقائق
- هل ركب مركبة او كان احد ينتظره
- لم ار شيئاً من ذلك
- ابن القولي
- في المخدع هنا

فدخل لوقا المحدع وكلم ذلك اللص كلاماً طويلاً انتهى بهذه العبارة « لك مئة دينار اذا قبضت عليه ومئتان اذا قتلته »

فخرج اللعين يعدو وهو يسأل فتبيل له مرّ رجل بزري راهب من هنا او من هناك. فقفا الاثر الى ان انتهى في آخر المركبات الى مركبة مستعدة للسير وبجانها رجلان جبار وقزم (جبور وابو زرزور) فظنهما خادمين وقال لهما من ركب هذه المركبة السائرة . أليس راهباً . فقال جبور قد يمكن ان يكون . فغضب القوقلي وقال ما هذا الجواب قل نعم او لا حالاً لان المسألة مهمة

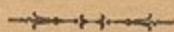
- لكنها لا تمنا نحن

- قاتلك الله يا شقي لو كان الوقت يسمح لي لقاتلتك وقتلتك

ثم مضى فاعترضه ابو زرزور وقال ممنوع المرور . فاستل القوقلي سيفه وقد خنقه الغيظ فقام الجبار في وجهه كالسور المنيع وازدحم الناس على صياحها واشتبك بينهما القتال الى ان استظهر الجبار وضرب بسيفه المتين سيف القوقلي فكسره كالزجاج وطعنه في جنبه الايمن خرج السيف يلمع من منكبهِ الايسر . فخر صريعاً يتشدهط في دمه وقد قال بصوت متقطع قبل ان يغشى عليه ان يحمل الى منزل الشيطان . اي قصر سيده لوقا . واما جبور وصاحبه ففضيا في سبيلهما آمنين

ولما وصلوا بالقوقلي علت الضجة في عرصة القصر . وكان لوقا في القاعة الكبرى مضطرب الافكار من جهة ظهور رعين وما يدري كيف يتدبر اذا نجا من فكك القوقلي تلك الليلة . فلما سمع الضجة خرج بين اليأس والرجاء غير انه لما عرف ان القوقلي أتى به صريعاً ارتاع وخنقه الغيظ . ثم قال اليوم خمر وغداً امر . وعاد الى القاعة قاصداً تسليمة نفسه وازالة الهم الى الصباح ومضى الى خزانة الشراب فشرّب قدحاً من اجود خموره وكان قين هناك يتمتع بمشهياته وقد خلا له الجوؤ

ثم عاد لوقا الى القاعة متعشاً بقوة الخمر ونظر في المرآة فرأى وجهه غير متغير فاطمأن بالله لعلمه ان لا احد يدري بما هو فيه من الهم



الفصل الرابع والاربعون

« مظاهر غريبة »

في غيبة لوقا من بين الجمهور حدث مظهر غريب قضى للناس بالاضطراب والحيرة وكانت بينهم حركة عامة وتوقف الراقصون عن رقصهم وانقطع صدح الموسيقى واجتمع الناس افواجاً افواجاً يتناجون في هذا الشأن

فلما دخل لوقا وحصل بينهم اتاه واحد من اصحابه واخذه بيده على انفراد وقال له ' قد اتيت يا سيدي البارون وقت الازوم فاحب ان تريح افكارنا من قبيل ما نحن مشتغلون فيه فقال لوقا ما هذا الشاغل الذي حير الجميع

- دخلت امرأت ملتحفة بثوب كبير احمر واسود . كأنها ساحرة وعلى رأسها قلنسوة كبيرة كقلانس الجوس عليها صور ورسوم طلسمية غريبة الاشكال
- عجباً لم ار ساحرة في منزلي هذه الليلة فدلتني على هذه المرأة لعل اعرفها
بعض العلامات

فالتفت الرجل واجال نظره في انحاء القاعة وقال لست اراها وقد كانت هناك منذ دقيقتين

- فلنسع في البحث عنها . على اني ما ادري ما الفائدة من معرفتك اسمها
- لي فائدة كبيرة لاني علمت ان هذه المرأة كأن بها روح الجن فهي تعرف كل من هنا تعرف الشخص من تحت ستار وجهه وقد ذكرت لكل منا اموراً عجيبة سرية جرت بيننا وبين عيالنا مما كنا نجهل اكثره . فهل تهتدي من هذه الإشارة الى معرفتها
- زدتني عجباً وجهلاً بها فيجب ان ابحث عنها

ودخل هو والرجل القاعة الثانية واذا بآخر لقيهما على الباب وقال لوقا وهو يضحك . عجباً ايها البارون تدعو الى منزلك اشخاصاً من اغرب الناس . ويلها هذه المرأة ما اذلق لسانها واغرب معرفتها بامور الناس وقد رأيتها تحدث (فلانة وفلانة) فاذا وجناتهما صارت كالقرمز . ما اكثر اطلاعها على اسرار الناس

- من تعني بكلامك يا اخي لملك تقول عن المرأة اللابسة زي ساحرة

- كلاب عن امرأة من زمرة النور لابسة ثوباً اصفر وازرق له اهداب مشكلة
جمعت الوان قوس السحاب وبعض طراز من ذهب
- وابن هي الآن هذه النورية
- ليست بعيدة من هنا
- تعال مهي نفثس عليها
- ومضى الثلاثة يتخللون الجموع الى ان دخلوا قاعة اللعب فلقبهم ابن الشرطي وهو واقف عند موقد النار وقال للوقا يا ليتك سبقت خمس دقائق فكنت سمعت اموراً غريبة تراني الى الآن متعجباً منها مع ان من طبعي كما تعلم ان لا اتمعجب من شيء
- ما عسى ان يكون يا سيدي هذا الحديث
- حديث امرأة عجيبة الحال جميلة صبية تعرف الوجوه من تحت ستاراتها وتعرف عن احوال الناس في باريس اكثر مما اعرف انا بكثير وقد اظهرت لي ان جماعتي الذين هم اقدر درك في الدنيا على كشف الخفايا غير كالملي النظام والمعرفة
- يا للعجب يا للعجب من هذه المرأة السليطة اللسان
- لا تغضب ايها البارون . والاغرب انك لا تعرفها وهي في منزلك
- لا اعرف من حالها شيئاً وكيف كان زبيها ؟ زي ساحرة ام نورية ؟
- لا هذا ولا ذاك بل كانت لابسة حلة بدبعة في شكلها نفيسة في زخرفها تعادل في قيمتها حلة السيدة حنة
- وابن مضت بعد ما كلمتك بهذه الوقاحة
- اخفت من امامي في لحظة كأنها اختطفت او طارت مع الجن
- فارجو من كرم اخلاقك يا سيدي ان تعيني في التفتيش عليها
- وفي الحال اخذ لوقا وابن الشرطي ورهط آخر معهم يسعون في وجود هذه المرأة الغريبة الحال او النساء الثلاث اللواتي معرقهن واحدة على اختلاف ازيائهن وبعد بذل الجهد في التنقيب لم يقفوا على اثر
- فلما ينس لوقا نزل الى الطابق السفلي وسأل معبلي هل رأيت امرأة دخلت او خرجت بازي الفلاني او الفلاني قال لا يا سيدي واني لم انفك عن مراقبة

الداخلين والخارجين من اول الليل الا نحو ربع ساعة حين جيء بالقوqli جريماً
فتحير لوقا وزاد تعجبهُ واستغرب هذه المظاهر السحرية وصعد القاعة فاخبر ابن
الشرطي انه لم يعرف شيئاً من هذا الحال فقال ابن الشرطي هذا امر من خوارق
الطبيعة فقد رأيت ايها البارون ان هذا القصر منزل الشيطان حقاً فان ظهور هذه المرأة
ذات الثلاثة الازياء واختفاءها من غير ان يشعر بها احد لا يعد الا من عمل ابليس
- وانا يا سيدي رأيت من رأيك فما هي الابنت ابليس

وحدث عقب ذلك سكوت طويل وظن الناس انهم يشعرون بنسيم جهنمي
يتخلل شعورهم وللحال تذكروا ذلك الراهب الذي بمجرد كلامه مع السيدة حنة اثر
فيها ذلك التأثير وظنوا ان بينه وبين هذه المرأة المتلوثة كالحرباء علاقة سرّية قضت
للناس بالذهول . ودخل عقولهم ان هذا القصر مسكن الجن الى ذلك الوقت فتجددت
في قلوبهم المخاوف القديمة التي كانت شاغلة كل الخواطر من جهة دخوله



الفصل الخامس والاربعون

« حديث خرافة »

واما ابن الشرطي فعلم بما اثر كلامه هذا في عقول الناس ولحظ ما اصابهم من
الرعب والخمول غير انه لم يكن ممن يبالون بمثل هذه الخرافات فاراد ان يزيد الهول
هولاً بحديث من اغرب الاحاديث

فقال للوقا ايها البارون قد برهنت على شجاعتك ببرهان قاطع وهو ابتياعك منزل
الشيطان واتخاذهُ لك مسكناً على ان العموم يعتقدون انه مسكون بالجن ولهم فيه
حكايات واخبار تقشع منها الابدان حتى لم يكن اشجع الناس يدخله ولو بُدِل له ما
بذل ومعلومك ان اتفاق العموم على شيء يظن الهاماً من الله دلالة على صحة ذلك
الشيء لكن في الواقع لا يكون ذلك مطرداً . أفعلم لاي سبب سمي هذا المسكن
بمنزل الشيطان . قال نعم بناء على حكاية واردة فيه
- أفقرها

- اعرفها حق المعرفة
- الخيفة هي بحد ذاتها وغريبة
- هكذا ارى
- فهل يحسن لديك ان نتحدثنا بها
- لا مانع يا سيدي من اجابة طلبك
- فنحن نصغى الى كلامك اتم الاصفاء لاننا نشاق جداً ان نسمع هذه الحكاية على اصلها
- وانا اشفي الغليل بسردها لكن ملخصة لاني اخشى ملل ضيوفى في مثل هذه الليلة الحافلة بالافراح
- لك امرك على ان لاتهمل شيئاً من الحوادث حتى الدقيقة منها ولو اختصرت ثم جلس ابن الشرطيّ بازاء لوقا وجلس من هناك حلقة حوله وجعل لوقا يتحدثهم قائلاً :

كان هذا القصر الذي شرفني بدخوله اعيان باريس هذه الليلة الانيسة ملكاً في قديم الزمان لرجل من الاشراف يقال له المريكز الجلدي كانت عائلته قد انقرضت ولم يبقَ منها سواه . وكان هذا الرجل غريب الاطوار وحشيّ الطباع متقدماً في السن يعتزل الناس ويكره الزواج لا يخرج من قصره ولا يقبل زيارة احد ويقضي اوقاته بدرس العلوم السحرية والكيمية ليلاً ونهاراً . وزعموا انه كان يبحث عن وجود حجر الفلاسفة اى تحويل المعادن الى ذهب . والصحيح انه كان يجتهد في الوقوف على اسرار السحرة التي بها يستخدمون العناصر والعزائم التي بها يستحضرون الشياطين ويستقصونهم في كل مصلحة والوسائل العجيبة التي بها يولدون الحياة في الجوامد وبناء على ذلك كان يجتهد في جمع مكتبة عزيزة المثال لا يسمع بكتاب قديم او نادر الوجود الا بذل في استحصاله المال الكثير . وكل تلك الكتب التي جمعها كانت في فنون السحر والاطلاسم والكيمياء القديمة والتنجيم وما يتعلق بذلك . فكان كل من عنده كتاب عتيق يريد تصريفه يرسله اليه فيمعن النظر فيه ثم يرده او يشتريه بثقله ذهباً ففي ذات يوم اتى القصر شيخ قد احناه الكبر ويده كتاب كبير جلده احمر

وورقه رقوق قديمة العهد مسطور عليها رسوم وكتابات لا تفهمها العامة وفيه صور واشكال غريبة الهيئة . فاخذه منه الخادم واطلعه الى مولاه وقال ان الرجل طلب فيه عشرة الآف درهم . فلم يبالي المركز بهذا الطلب الفاحش وتناول الكتاب وفتحهُ وحالما راي عنوانهُ وقلب اول ورقة منه تغيرت احواله وبرقت عيناه وصاح عجباً وبقي نصف ساعة يقلّب اوراق الكتاب وهو يظهر الاندهاش واشدّ الطرب . ولما انتهى من تقليب الاوراق نهض حالاً الى خزائنه واخرج النقود وعدّ المبلغ وجعله في صرة وقل للخادم اوصلها الى الرجل صاحب هذا الكتاب وخذ منه وصلاً فخرج الخادم بالصرّة وهو متيقن ان مولاه محبول

واما المركز فاغلق بابه واقفله وقعد يتأمل في ذلك الكتاب العجيب الذي طالما قرأ عنه في الكتب الموجودة عنده واستمرّ يقرأ فيه الى المساء ولم يفتح للخادم حينما اتى واخبره ان العشاء حاضر

وبعد دخول الليل قام الى معمله الكييمي واضرم النار في الكور وملاً البواتق زنبقاً وورصاصاً وعالج الخليط الى ان استحال ذهباً فأخذه الانذهال . وامتحن عمليات اخرى كثيرة بموجب نص ذلك الكتاب فصحت جميعها فكاد يغشى عليه من شدة الفرح واعتقد نفسه انه ملك الدنيا وانه يقدر على ما لا تقدر عليه ملوك الانس وكان الفجر قد انبثق فمضى الى سريره لاخذراحته بالنوم . واستمرّ يومين يمتحن العمليات ولما حصل في ثلثي الكتاب اذا هو بعملية سحرية ادهشته فوقف مبهوتاً وكان لم يابه لها في اثناء تقليب الصفحات . ودقق النظر فيها فعرف طريقة العمل بها بوضوح لكنه بقي جاهلاً نتيجتها

فقام في الحال يجري امتحانها فاضرم في الكور ناراً شديدة ووضع عليها بوتقة كبيرة جداً فيها مواد كثيرة مختلفة على موجب نص الكتاب وقعد ينظر . وبعد مضي بضع دقائق صارت البوتقة تغلي ثم ارتفع منها عمود من الدخان صار يتكاثف ويبدأ رويداً الى ان انتهى بشبح منتصب على شكل امرأة بديعة الجمال ظهرت له انها من لحم ودم لكنها كالصنم لا حراك بها ولا دليل على الحياة فصار ينظر اليها منذهاً وخامر قلبه خشية عظيمة واعجاب شديد وبقي منتظراً الى ان تدب الحياة في هذا الجسم

الذي لا نظير له في جمال نساء العالم السفلي غير انه فرغ صبره ولم تتحرك هذه مخلوقة ولم يجد في الكتاب كلاماً آخر يدل على شيء من ذلك فاستشاط غضباً وسقط عزمه يأساً واستولى الحزن على نفسه حتى كاد يذهب بفضلة حياته لانه شغف بعشق هذه المخلوقة شغفاً شديداً جداً مع انه في طول عمره لم يخطر بباله التقرب من امرأة حتى في عنفوان شبابه

واستمر اياماً يذوب وجداً عند مشاهدتها ويظن ان رشده فارقته وقلبه سال بين قدميه من شدة جواره . فينما هو يوماً في اشد الضيق وقد شعر ان نفسه تزهق لخيبته من حياة معشوقته الجمادة صاح من صميم فؤاده قائلاً ارحموني يا ابالسة الجحيم فقد طال عذابي وفرغ صبري . دعوتك يا شيطان فتعال وانظر اليّ وساعدني على اتمام عملي وانفخ في هذا الضم النعمة الملتبها لتحيا وانا اقدم لك جزاء عمالك حياتي وروحي اذا تمتعت بها يوماً واحداً

فما انتهى من كلامه حتى سمع قصف رعد شديد وظهر على اثره دخان كثيف انتشرت منه رائحة كبريتية ملأت المكان ثم تجمع الدخان وتجسم فرأى شخص ابليس جالسا امامه في كرسي كبير وهيئته لطيفة رضية فقال له ابليس قبل ان سألته المركزها قد حضرت ايها المركز على خلاف القانون الموجب لحضوري فقل ما تشاء ثم دار الحديث بينهما وتم الاتفاق ان الشيطان يعلمه كلاماً يقوله فتحيا تلك المرأة ويتمتع بها زماناً طويلاً الى ان تكرهها نفسه فيقول كلاماً آخر يتلفها به . وبعد ذلك اختفى بالصورة التي ظهر بها

فأسرع المركز الى العمل وهو طائر الفؤاد فرحاً وتلا تلك التعزيمه السحرية واذا بالضم قد تحرك وصار صبوية فتانة المنظر والسحر ملء عيونها واقت نفسها على صدره قائلة . انت احيتني فأنا لك ونفسي تحبك

هنا لا يستطيع القلم ان يصف السرور الذي طفق على قلب ذلك الشيخ العاشق الذي نال بغيته بعد اليأس بطريقتة من اغرب واعجب ما سطر في الحكايات . وما عاد يلتفت الى شيء من العلوم والكتب التي طالما شغف بها بل حوّل كل افكاره وقواه الى التمتع بمحبوبته واتي بها من اللذة ما لم يلقه انسان قبله ولا يلقاه احد بعده

ولم يزل معها بضعة اشهر في اهنأ عيش واصفى اوقات وهي ملازمة داره لا يلوح
بياها معاشره غيره الى ان ملت اخيراً وضجرت نفسها من طول العزلة وقالت له ليس
من العدل ولا الانصاف ان تخص الشمس نورها وبهاها بواحد من الناس . وان
نفسها اشتاقت الى البروز بين الناس ومعاشره أولي الذوق واللهو فأجابها الى سوءها
وخرج بها سرّاً الى بلاد بعيدة وعاد بعد سنة باهية وفخامة مظهراً للناس انه تزوج في
المانيا فتاة بديعة شريفة النسب وانه مستعد من ذلك الوقت ان يفتح ابوابه لتوارد
الناس الى ولائم ومشاركته في افراحه

فتسارعت الناس من كل فج وقامت الولائم بحفلات سامية وكان الناس يتعجبون
ويتعجبون من جمال تلك المرأة وأنسها ولطفها ومضت على ذلك سنة كاملة والشيخ
العاشق لا يلقى الا اسباب السرور والنعمة

واما في السنة التالية فاقلمت الاحوال وانعكست الآمال واستحال صفوه الى
كدر وسعاده الى شقاء . وذلك لان حظيته مالت نفسها الى معاشره الشبان واهل
اللهو والقصف الذين كانوا يكثرن التردد الى القصر ويزدحمون حولها كالحلقة المفرغة
يدهشون بمحاسنها ويفدونها بالارواح وكل منهم يتنى ولو نظرة منها . وظهر منها فتور
نحو الشيخ الوهان فأحرقته الغيرة واراد منع الناس من المجيء فانهته وقلت له يكفيك
اني ادعى امرأتك وانا صبية فتاة وانت شيخ فان أفتحمني لذة صباي

فأخذ ذلك الشيخ بزداد كل يوم وهناً وحسرة وتأسف على تلك الاوقات التي
كان يصرفها في مطالعة كتبه وندم اشد الندم على تسليم نفسه الى الغرام وولعه بهذه
الحلوة الخادعة الخالصة للالباب

ثم ثارت بينه وبينها عواصف الخصام فما قدر على شيء وتهددته بالقتل اذا تجاوز
الحدود في تعنيفها وشهرت عليه خنجراً كان مخبأ تحت ثوبها فثارت به النخوة عند
ذلك وشعر ان الدم يتفجر من عروقه وصاح بها قائلاً ايها الجهنمية الشقية أتقومين
في وجهي بجنونك وما تعلمين ان حياتك في يدي فلا ان اعيدك الى العدم كما اخرجتك منه
فانخطف لونها في الحال وقد وضع لها الحق وعلمت انها لا تستطيع معه دفاعاً
فهدت يديها اليه متوسلة ولكن قبل ان نطقت بكلمة تلا تلك التعزيمه التي علمه اياها

ابليس ليفني عشيقته فصاحت صيحة هائلة وحوالت الخنجر الى صدرها وطمعت به نفسها
فغاص فيها الى قبضته واستلقت على البساط تشحط بدمها

فلما رأى الشيخ ما حلّ بها ندم اشد الندم على اطاعة غضبه واسف على حياته
اسفًا لا مزيد عليه لانه لم يقدر فقط التي كان يحبها فوق محبة نفسه بل علم ان روحه
صارت تخص ابليس كما كان العهد بينهما وانه في اقرب وقت يأتي ويقبضها
فأصابه حينئذ مسٌّ من الجنون وتقدم الى شلوها فأخرج الخنجر من صدرها
واراد ان يطعن به نفسه واذا بالخدم اقبلوا على الصيحة التي صاحتها المرأة واحتاطوا
به واخذوا الخنجر من يده

وبلغ الخبر الحكومة فأرسلت الجند وقبضوا عليه وساقوه الى السجن ثم جرت
محاكمته فانكر انه القاتل وقال انها هي قتلت نفسها بيدها فشدوا عليه بالاستنطاق
فاعترف بما فعل من الاول الى الآخر فصدر الحكم حينئذ باحراقه حيًّا لانه ساحر .
وبينما هو في سجنه يوم اجراء الحكم وهو منتظر قدوم الجند لاجراجه الى المحرقة اذ
شعر بيد لمسته فنظر ورأى نفس الشيطان الذي حضر اولاً وعاهده على ما مر ذكره
فقال له ابليس ايها المركيز اظن انك تنتظرني فقد دنت الساعة وحان انجاز العهد بيننا

لما انتهى لوقا الكرجاني الى هذا الحد من حديثه حدث اضطراب في السامعين
ورفعوا رؤوسهم مندهشين وقد رأوا شخصاً لا بساً زياً شيطانياً اي ثياباً حمراء وسوداء
والشكل يدل على ان الشخص امرأة

وشعر بيد وضعت على كتفه وصوت يعيد عبارته الاخيرة وهي « ايها البارون
اظن انك تنتظرني فقد دنت الساعة وحان انجاز العهد بيننا » فاضطرب لوقا ونظر
منذهاً من هذه المرأة التي تخلت الجموع حتى وصلت اليه ولم يرها احد غير انه كظم
قلقه وقال لها مازحاً ما تريد مني ايها الشيطان اللطيف أنفسي تطلب بهد ام قلبي
فضحكت المرأة وقالت لست بعيداً عن الصواب . المطلوب عقد ميثاق بيننا ولي في
فؤادك مطعم واما الآن فأريد مسارنك حصه من الوقت قال اني اسرّ جداً بهذا
الحديث السري ايها الشيطان البديع فهل معي الى الخلد فنجد خلوة موافقة

فأخذت المرأة يدهُ ودخلا فقال بعض الحاضرين هذه هي بعينها وقال آخرون
نعم عرفنا صوتها هذه الساحرة وقال البعض بل هي الملكة والبعض بل هي النورية
فاعترض ابن الشرطي قائلاً هي كل من الثلاث والثلاث واحدة يا اصحابي
واما لوقا فكان لما سمع صوتها قد ارتمش بدنه وقال في نفسه هذه الغولة الخبيثة
وما تريد مني الآن

الفصل السادس والاربعون

« امانى بريقة »

من طبع الانسان الطموح الى المعالي . لم تكتفِ بريقة بما حصلت عليه من العزِّ
المادي بل طمعت ببلوغ ذرى العزِّ الادبي ولذلك بادرت الى لوقا الكرجاني وقد ادرك
اوج مجده لتكشف له ضميرها من هذا القبيل . فلما دخلت واياه الخدر وجلسا بدأتُه
بحديثها واطهرت له رغبتهما في ان تصير امرأته لتحظى بشرف اسمه وتعيش معه عيشة
هنية (في الظاهر) فامتنع لوقا اولاً من اجابته متعجباً من غرابة طلبها وطال الجدل
بينهما حتى بينت له وجوب الاقتران به لان هذه ارادتها وانهُ لا يقدر ان يخالفها
لا سباب كثيرة اخصها ان حنة الشميسية باقية في قيد الحياة فتستطيع بواسطتها ان
تكشف خيانتة الماضية وتدعي انها هي خلصتها من يده حينما عزم على اهلاكها فيقع
تحت طائلة العقاب وتخلص هي نفسها بحجج واضحة وبراهين قاطعة . واطمعت في ما
عندعا من النقود وكانت كميتها تزيد عن المليون . وانها اذا طاوعها تعمل على اهلاك
حنة ووالديها فيضع يدهُ على ميراث العائلة الشميسية . وعلى اهلاك قينة ليصح اقترانهُ
بها بعد ستة اشهر . فاضطر لوقا في الظاهر ان يطاوعها فأعطته حنجرين في احدهما سم
احمر ليقدمه للذوق والدوقة فيموتان بعد شهرين وفي الآخر سم ابيض يسقيه قينة
فتموت بعد ثلاثة اشهر ولا يظهر ان الموت ناتج عن فعل سم
فلما تم الاتفاق بينهما على ما ذكر خرجت من قصره رأساً الى المنزل الاحمر
وهي مع ذلك متحسبة من غوائل لوقا ولذلك امرت العبد الذي عندها ان ينام تلك
الليلة امام باب

ثم اقلت ابوابها وخلعت ثيابها الخارجية وتقدمت الى الباب السري المؤدي الى المخدع الذي فيه حنة الشمسية ففتحته ودخلت

وكانت حنة في تلك الساعة مستغرقة في نوم ثقيل فوقفت بازائها وجعلت تتأمل فيها فرأت ان ملامح الجمال باقية فيها وان كان الوهن قد حط جسمها وانحل بدنها حتى غرق خذاها وبرزت وجنتاها وخط السقم هالة زرقاء حول جفونها وصار وجهها كأنه تمثال من مؤوم (١) نقي ضمن حطار ابنوسي من شعرها الاسود المنسدل على كتفيها. ووضعت عروق عنقها تجري فيها فضلة ماء الحياة. وبالاجمل كانت كفتاة مصدورة (٢) انتصب لها مثال الموت في ريعان صباها فلا ترجى حياتها

فقال بريقة في نفسها هوذا المسكينة على شفير الفناء وقد اسرع فيها فعل ذلك الاكسير اكثر مما كنت احسب. لكن يجب ان تبقى حية على الاقل ستة اشهر اقامة لمصلحتي اذ ليس لي غنى عن وجودها بلوغ غايي من لوقا الكرجاني. وفي الحال عطفت الى غرفة اخرى وتناولت قممًا اسود وقدحًا صغيرًا فسكبت فيه من القمم بضع قطرات وعادت الى حنة ووضعت يدها على ذراعها فانتهت لكن على غير شعور عقلي فقالت لها الغولة هل تشكين الماء. فلم تفهم ولم تجب. فوضعت يدها على صدرها فشعرت باشتداد خفقان قلبها فارتجفت حنة وتهدت قالت « نار. نار. احترقت يا امي الا تأتين وتعيني ليسرع الي الموت » فقالت بريقة لا تموتين يا بنية وقد ارسلني امك لاطفي هذه النار التي تحرقك. اشربي هذا تسريحي. وادنت القدح من شفتيها وافرغت ما فيه بغيرها فلم تظهر المسكينة اقل نفور ولا امتناع. ثم اغمضت عينيها ونامت ومكثت بريقة برهة تشاهدها فظهر لها ان احوالها تغيرت. تحسن لون وجهها وزالت الهالة الزرقاء التي كانت حول جفونها وصفاء لون خدودها وعنقها وصار تنفسها منتظمًا. فاطمان قلب بريقة وافترخت بنفسها وقالت لا اشك انها تعيش اكثر من ستة اشهر. ثم خرجت من عندها لاعمال اخرى

فدخلت معمليًا الزجاجي الذي تطبخ فيه السموم ووضعت فحمًا في المواقد واضرمت النار وجعلت عليها انابيب مختلفة فيها انواع المقاقير والسوائل وعلقت على وجهها الوجه

الزجاجي منعاً لاستنشاق البخارات السامة النفاذة وقعدت تأمل في احوالها الماضية فصارت تقول ما اصدق ما قاله لي استاذي ذلك الشيخ الحكيم اسحاق الالاماني انه اعطاني مفتاح الغنى الحقيقي . الطلسم الوحيد الذي لا نظير له وهو علم الشر . اي طبخ السموم . واني اذا بحثت في التراب اجد الذهب وتكون ثروتي واسعة وسطوتي نافذة وان المنجم الذي ابشر العمل فيه لم تمد اليه يد وانه مملوء من النفائس . كنز لا ينفد . والذهب والعلم هما ركن الحياة حتمية . حقاً انه تكلم كني لان قبائح الناس وشروهم قد فتحت لي ابواب الخيرات المتدفقة . وعا قريب سائل السلطة الشديدة لاني على وشك الانحراط في سلك فخفخات العالم والخوض في ميدان الشرف والسيادة . في ستة اشهر اكون زوجة البارون الكرجاني واحظى بشرف هذا اللقب الذي كان آباي عبيداً لاصحابه

وهذا الرجل لوقا نعم انه شريف النسب لكنه نذل خسيس ولو لم يكن كذلك لما عزم ان يتزوجني . ومع ذلك فآبائي لان غاية مرادي ان احصل على اللقب لاني احترمه اكثر مما يكرهني . وهو الآن يتبصر في طريقة لاهلاكي على اني سأسبقه فلا اصير امرأته الا مدة قصيرة فاسمى حالاً بالتخلص منه

وبينا هي تناجي نفسها بهذه الالاماني كان الفحم يزداد اضطراراً والشرر يطناير بشدة غير انها وجدت ان فعل النار بطيء فقامت واخذت منفخاً وصارت تنفخ على الحجر واذا بها جهدت والقت المنفخ من يدها واسرعت الى نافذة العمل لان اذنها اسمعتها صوت فتح باب واغلاقه من جهة زقاق الاستفاضة . فأطلت من النافذة فلم تسمع شيئاً وكان الليل هادئاً وكبُ ينبج على بعد وليس حول منزلها بيوت جيران فأغلقت النافذة وبادرت الى شبك القاعة واصغت فسمعت خطيط عبدها امام الباب فقالت ما هو الا وهم فان الليل من طبعه ان يُسمع الانسان اشياء كثيرة لا حقيقة لها . ومع ذلك فابوأي مقفلة ومنزلي حصين وليس يجسر احد ان يطرق المنزل الاحمر لان صيته الخيف مشهور عند كل الناس ولا لاحد عندي شغل في هذه الساعة من الليل وهكذا اطمان بالها وعادت الى معملها تفتقد الانايق وتدبر العقاقير . ثم جلست ورجعت الى تأملاتها المار ذكرها

الفصل السابع والاربعون

« احتراق المنزل الاحمر »

بعد انصراف الغولة من قصر لوقا تقدم الناس وصاروا يسألونه بالخاح من تكون هذه المرأة العجيبة فاعتذر اليهم انه لا يقدر ان يكشف لهم هذا السر. وشعر هو بنفسه بقلق شديد وسقوط عزم تام وخمود قواه العقلية

فلما انقطعت عنه اسئلة الناس والنهوا بالافراح ورأى نفسه حرّاً دخل غرفته الخاصة وانطرح على مقعد وصار يفكر. فشعر بشدة الخطر الواقع عليه بعد ان كان قبل ساعة في طمأنينة تامة لانه كان يعتقد ان كل ما يوقع عليه مما يخشى قد اتفى فان رعيناً قتل وبريقة لا تستطيع شيئاً. ثم وجد انه كان مخدوعاً بنفسه فان رعيناً ظهر واطلع على كل خفاياه وبريقة اتته بالتهديد واطهرت له مقدراتها على الاساءة اليه بوجود حنة في منزلها

فطارت نفسه شعاعاً والتهب صدره غيظاً واحس ان مقتله واحتقاره للغولة تضاعفا في فؤاده ومع ذلك فخوفه من دائها شديد ولا يجسر ان يخالفها. فكيف يتخلص منها. وقد علم انها لم تطلب الاقتران به الا رغبة في شرف اسمه وانها حاملما تسنح لها الفرصة تعمل على هلاكه والوسائط الفعالة التي بيدها كثيرة مختلفة الاساليب

فنهض حنقاً وصار يتمشى في غرفته بسرعة الغضوب الحيران ويبربر ويقول .
ايها الساحرة الممقوتة والمشعوذة الشقية والافهى السامة القاتلة الغادرة. تطلبن مصارعتي
فها انا منذ الليلة آخذ معك في ميدان الصراع ونرى هل تدفع عنك سمومك ودهاوك
ثم تقدم الى خزانة وفتح جراباً فيها وفتش فيه وصاح طرباً وقد تناول منه
مفتاحاً علاه الصدا

وهذا المفتاح هو الذي سألته عنه الغولة ليلة ثلاثاء المرافع فقال انه اضاعه. ثم تنويسي امره وعملت الغولة مفتاحاً آخر. فبالاتفاق الغريب فطن لوقا انه القاه في هذا الجرار ونسي امره لانه لم يحتج اليه بعد اقترانه ببقينه والمفتاح الذي كانت بريقة اعطته اياه ليدخل حينها يريد من باب زقاق الاستفاضة كانت قد طلبته منه فاعطاها اياه.

فلما وجد هذا المفتاح طرب اشد الطرب لانه صار ممكناً له دخول المنزل الاحمر خفيةً واتمام المسعى الذي خطر له في تلك الساعة

فخرج في الحال متسللاً بين الجمهور وأسراً الى بعض الخدم ان يدعوا معبلي فلم يبطئ الخادم واقبل معبلي في اقل من دقيقتين فقال له لوقا خذ ثلاثة افراس وانتظر في شارع الجحيم وقل للسيد قين ان يلبس ثوباً اسود ويوافيني الى هناك

ثم عاد لوقا الى القاعة واعلم قينة انه يغيب نحو ساعتين لمصلحة عظيمة الشأن وبعد رجوعه يخبرها بما يكون . ودخل غرفته فلبس السواد واخذ غدارتين وسيفاً وفانوس حرامية ومطرقة ثقيلة والتف برداء كبير وخرج فوجد قيناً ومعبلي في المكان المعين فركب الثلاثة ومضوا بخفة

فلما بلغوا زقاق الاستفاضة ترجلوا وامر لوقا قيناً ان يمسك اللجم ويجلس هناك ولا يدي حركة . وتقدم هو ومعبلي الى الباب السري واخرج لوقا المفتاح من جيبه والتفت الى معبلي وقال له انجني يا معبلي حياً صحيحاً بلا رياء قال ألا يعلم سيدي علم اليقين اني ابذل نفسي في رضاه . قال فهذه الليلة يجب ان تبذل الجهد في خدمتي لان الغولة صارت لي العدو الاكبر فاذا بقيت الى الغد في قيد الحياة فهو هلاك المبين وبعد ان نقلها نضرم النار في جوانب هذا المنزل الردي الملعون

وكان قصده باحراق المنزل الاحمر ان يتحقق موتها ويقتل معها حرقاً حنة الشمسية فقال معبلي لا يجهد احد ان نصيب السحرة النار منذ قديم الزمان والى ما شاء الله ثم فتح لوقا الباب بقدر ما يمكن من الهدوء ودخل هو ومعبلي واقفله وراءه وهذا هو الصوت الخفيف الذي سمعته الغولة من معملها الزجاجي وظنت انها تسمع ما لا حقيقة له فسكنت

ولما تخللا الطابق الاسفل رأى لوقا نوراً ساطعاً في القاعة العليا وشعر بوطء الغولة حينما اطلت من الشباك . فوقف جامداً ووضع يده على فم معبلي وحينما انقطعت كل حركة تقدم وقد خلع رداءه فسمع غطيط العبد على الباب فوضع السيف في فمها ووطئه وطأة شديدة فانفصل رأسه عن بدنه ولم يسمع له صوت ولا حركة الا تنفساً دفعة واحدة اشبه بفتح الافعى . وكان ذلك كافيّاً لان تسمعه

بريقة فأقبلت الى الباب ودعت العبد باسمه اولاً وثانياً وثالثاً فلم يجب بشيء فخالج قلبها توقع خطر جسم فجزعت ونكصت مسرعة الى معملها لتختبئ

وحينئذ رفع لوقا يده بالمطرقة وضرب قفل الباب ودفع معبلى خشبه دفعة شديدة فسقط مشقاً ودخلاً فصاحت بريقة صبيحة شديدة . فتقدم لوقا وبيديه غدارتان ولكن حالما تنفس الهواء الساكن ارتجع مضطرباً لان بخارات العقاقير السامة التي كانت الغولة تطبخها كانت منتشرة في كل المنزل الداخلي . فهدأ روع بريقة قليلاً بهذا الاتفق الغريب الذي اوقف عنها قاتلها فقالت للوقا . ايها البارون الكرجاني ظننت انك ظفرت بي مع اني انا الظافرة بك . اتيت لتقتلني فلا تخرج من هنا حياً

وكانت قد اخذت كرة من زجاج فيها بخار كثيف ولها سدادة من فضة ورفعت يدها لترميها بها فانها اذا انفجرت امامه انتشر منها ذلك البخار وقتله لانه سم ساعة . واما لوقا فشعر بذلك وحسب ما ياول اليه قذف تلك الكرة فبادر في الحل قبل ان انتهت من كلامها واطلق عليها الغدارتين معاً وارتجع بخفة الى السلم خارج باب القاعة فنظراً لاضطرابه لم يصب الرصاص بريقة بل اصاب الاناييق التي على الموقد فتكسرت وحدثت منها نتيجة اشدّ هولاً بأضعاف اضعاف مما كان لوقا ينتظر . فان السوائل التي كانت فيها انسكبت على الحجر فالتهب وسمع صوت انفجار يصم الآذان وانفجر المعمل الزجاجي دفعة واحدة واهتزت اركان المنزل كما لو حدث تحته انفجار بركان وسقطت جدران الطابق العلوي الى الازقة جارة معها السقف بتمامه

وفي نفس الوقت تفجرت كل الآنية التي فيها ارواح وخلاصات وما شاكلها من السوائل القابلة للانتهاب . فانفجرت ملتتهبة في كل ارض الطابق العلوي وصارت لا تمر بشيء الا اكله لهيبها وجرت ايضاً الى السلم نازلة فيه كسيل من لهيب حتى كادت تدرك لوقا ومعبلى وهما راكضان مذعورين . وهكذا استعرت النار في اربعة جوانب المنزل الاحمر بسرعة كان يقصر عنها لوقا باضرامها . فصار كل المنزل الاحمر ملتتهباً وحجب الالهيب وجه السماء فكان له منظر هائل جداً يفوق الوصف

فصار لوقا ينظر من بعيد الى هذه الحريقة الخفيفة ويقول في نفسه هوذا قد جاءني الامر طبق ما كنت اتخى فقد استراح فكري من جهة الغولة وحنة الشمسية وغداً

اسعى في هلاك رعين وقد بلغت ذرى السعادة
وسار رأساً الى قصره فوجد الناس يستعدون للجلوس على المائدة ولم يشعروا
بشيء مما اجراه لوقا
وبعد انتهاء الاكل عادوا الى الرقص والطرب واحيوا ذلك الليل بأبهج الافراح
وعند السحر انصرفوا شاكرين لافضال لوقا وانسه
وبعد انصراف الجميع اطلع لوقا قينة على كل الاسرار التي حدثت في تلك الليلة
العجيبة الشأن

الفصل الثامن والاربعون

« نجاة بريقة وحنة »

قلنا ان صوت الانفجار الذي حدث في المنزل الاحمر كان عظيماً جداً حتى تنزل
المكان من اسمه وتلا ذلك سقوط الجدران والسقف فكانت الهدية اشبه بدوي رعد
شديد وظهر على اثر ذلك لهيب ودخان كثيف لحق بعنان السماء . فهذه الامور نهت
الناس عن بُعد وان كان منزل الغولة في عزلة تقريباً عن جيرة قريية
فصارت الشبايك تفتح وتظهر منها رؤوس الناس . ثم كثر القيل والقال وتصايح
الجيران وارتكض الرجال والنساء من كل ناحية لعلمهم يخلصون من يتفق وجوده في
دائرة هذه التكة ويتساعدون على اخماد النيران اختشاء من امتدادها . وما عدت
تسمع الا قولهم « النار . النار هلم يا اهل الغيرة والمرؤة » ونحو ذلك من التحضيضات
ولم يمض ربع ساعة حتى غصّ شارع السنونو وزقاق الاستفاضة بالجماهير المتراكبة
وفيما هم يتحاثون على الاقدام ويتطلعون في انحاء المنزل لعلمهم يجدون سبيلاً
للعمل اذ رأى بعضهم فوق اقناص الجدران والسقف المتراكمة في شارع السنونو جسداً
بشرياً . فتشجع ثلاثة رجال من اصحاب النخوة وصعدوا فوق تلك الردهة من الانتاض
وخلصوا ذلك الجسد وكان بغريب الاتفاق ممجياً بواسطة روافد من الخشب مشبكة
فوقه بعضها على بعض

ولما حصل ذلك الجسد بين الجمهور احتاطوا به من كل جهة وامنعوا النظر فاذا هو جسد امرأة قد احترق بعض شعرها وقسم كبير من ثيابها واتصل الالتهيب الى وجهها فشوهه تشويهاً هائلاً تقشعراً من منظره الابدان

فصار الناس يتساءلون من تكون هذه المرأة فقال البعض لعلمها الغولة وقد نالت بحق عقابها . فاعترضت احدى النساء قائلة ليست هذه الغولة فاني اعرفها بنت مئة سنة وهذه تظهر فتاة وعلما كانت مارة من هنا فدهمها الالتهيب وتعرقلت بالانقاض فلبثت مكانها لا تقدر على الفرار

فقال احد محبي الخير على كل حال يجب ان نبادر الى معالجتها فاجاب آخر وقال العلاج الوحيد تهئية الكفن لاننا ما نرى فيها آثار الحياة ولم تكن دقيقة حتى فتحت بريقة عينيها وتحركت واستوت جالسة ونظرت نحو المنزل الاحمر فرأت النار تقترسه فصاحت صيحة الكآبة واليأس واستلقت على ظهرها وقد غشي عليها

وبينما هذا الامر جارٍ في شارع السنونو كان الناس في زقاق الاستفاضة قد شاهدوا امرأ آخر اعجب منه استمال القلوب الصخرية شفقة وحرناً وذلك ان الجدران والسقف لما تقوضت وسقطت انكشفت عن مخدع داخلي سرّي في وسط الطابق العلوي من المنزل الاحمر يطل على جهة زقاق الاستفاضة كانت النار لم تتصل اليه بل محدقة به

فظهر للناظرين في ذلك المكان شبح فتاة جميلة بيضاء الثياب منسدلة الشعر واقفة ورافعة عينيها الى السماء وهي كأنها غير مبالية بالبلية المحيطة بها . ثم لما اتصلت اليها السنة الالتهيب كالافاعي الجهنمية صارت تتراجع هرّباً منها وكان وراءها خلاء مسبب عن سقوط الجدران بحيث اذا تراجعت عشر خطوات تسقط في تلك الوهدة الى ارض الطابق السفلي ولما رأى الجمهور شدة الخطر المشرفة عليه صاحوا بها بصوت عام . قفي . وراءك الهلاك . لكن المسكينة « حنة الشميسية » لم تكن تسمع ولا تفهم ما يقال لها لعارض الاختلال المصابة به غير ان الاحساس الطبيعي كان يضطرها الى الهرب من النار فلم تزل تتراجع حتى سقطت عن مثل جرف هارٍ من الاخشاب متدرجة الى اسفل

المكان بين الاقراض المترامة

فصاحت الجماعة لله اكبر هلكت المسكينة وارتكضوا اليها وهم يلشون
غير ان العناية الالهية اذنت ان سقوطها كان على التراب المتجمع لم يصدم جسدها
شيء صلب فكانت الرضة خفيفة جداً
فاختطفوها حالاً وخرجوا بها من دائرة الويل وهي لا تعي على شيء من هول
السقطة وعوارض المرض الموهن قواها

ثم ازدحموا حولها يتأملون فيها ويترحمون عليها وبعد التدقيق وجدوا فيها بقية من
الرمق فتحققوا انها حية فقالت امرأة كانت هناك . ايها الاخوان قد صنع الله فينا
عجيبية واني قد صممت ان اخص نفسي بهذه الفتاة اكراماً لمحبة الله فخذوها الى منزلي
لا نظر في امرها

وكانت هذه المرأة ارملة لا ولد لها واقفة حياتها على الاحسان الى المحتاجين واغاثة
الملهوفين . ولم تكن لها ثروة تفي بكل مقاصدها غير انها كانت لا تألوا جهداً في كل
مسمى مبرور لتنفيذ ما ربهما الخيرية . وسيأتي ذكرها في فصل آخر
فحمل الناس حنة الشميسية الى منزلها الحقيق

واما الغولة فكان القلوب قست عليها وان كانت لم تعرف . وذلك لسببين
طبيعيين الاول ان الابدان اقشعرت من تشويه وجهها الخيف والثاني ان الصيحة
التي صاحتها كانت اشبه بعوي ذئب خمضان (١) فنفرت منها النفوس . فلم يجدوا
طريقة لا تقاؤها من ويلها الا حملها الى المستشفى القريب تقيم فيه الى ان تشفى او تموت
واما النار فلم تزداد استعارةً والمنزل الاحمر يتساقط متردماً بعضه فوق بعض
ويحترق منه كل قابل للاحتراق حتى صار الى الغناء كل ما جمعه الغولة من الاسرار
والذخائر . واصبح في الغد اثراً بعد عين . خربة تنفس بدخان ممزوج ببخارات
كريمة الروائح

واقامت بريقة في المستشفى مدة غير طويلة وهي تقاسي انواع العذاب الحسي
والعقلي مما اصابها من النكبة والمرض . حتى اذا تم شفاؤها اعطاها الطبيب ورقة

الانصراف وكان قد رُق لحالها حينما عرف انها منقطعة لا زوج لها ولا اقرباء ولا بيدها مال ولا ملبوس الا ما ابقته عليه النار مما على بدنها . فسألها اين تمضي وكيف تعيش وما تقدر ان تعمل لعله يستطيع مساعدتها في شيء فجاوبته اجوبة غير مرضية بل خشنة وخرجت من المستشفى سائرة وجهها يبرقع اسود اعطاها اياه وكيل المستشفى . وتمتت هاتمة في شوارع باريس وازقتها لا تدري اين تستقر وتتأمل في احوالها الماضية العجيبة وما صارت اليه من الحقارة والذل

ثم جلست في عطفة لتستريح لانها كانت لم تزل ضعيفة . ووجهت بكل قوى عقلها الى كيفية الانتقام من لوقا الكرجاني فلم تهتدي الى واسطة لانها عاجزة عن كل ما يمكنها من بلوغ هذا المقصد العظيم لسقوط الادلة التي بيدها اذا ارادت الوشاية به الى الحكومة . فقامت حزينه النفس منسحقة القلب وتمشت الى أن بلغت شارع السنونو فنظرت الى المكان الذي كان المنزل الاحمر قائماً فيه بعزوه ومجده وقد صار الآن رسماً دارساً . فجلست كثيبة وجعلت رأسها بين يديها وصارت تتأمل في صروف الدهر وتقلبات الايام وما يلاقي الانسان من البؤس والنعيم بغير حساب وتردد بصوت ضعيف هذه الايات التي ألهمها اياها ذل نفسها وانكسار قلبها وضيق ذات يدها وقد تحققت انها في ثاني يوم تمدت يدها بالسؤال ان لم تمدّها في تلك الساعة التي هي فيها

رجاء في صروف الدهر طالا	ونلقى وعده ابدأ مطالا
اقلب في وجود الكون طرفاً	فلا اني به الا المحالا
رقاد لا يلم به انتباه	ويخدعنا برويانا الخيالا
تربني لذة العيش الاماني	باوله فاطمع ان يطالا
اذا رأت الهلال تقرّ عيني	رجاء ان يلي البدر الهلالا
وانسى ان كلاً متناه	لنقص بعد ما نال الكمالا
فليت اوائل ليست تليها	اواخر تقتضي منها الزوالا
حسبت نوال ذي الدنيا صحيحاً	وجدت نوالها ان لا تنالا
كثير النار يحرقني واني	لأدفاً بالقليل اذا توالى
جمعت المال في قصري كنوزاً	فخبث وكان للنار ابتذالا

وما الاموال الا الآل يزهو
 يجده اليه كل مطمئناً
 وذو الاموال يجمعها لذخر
 اذا انا ما اعنت اخي بمالي
 يحس بما جاتي شخص نظيري
 رويدك جامع الاموال هلا
 اتسرى في السفينة مطمئناً

فمن يبني على امل طويل
 ومن عن حاضر قد غص طرفاً
 ومن يبني النجاح بغير فكر
 متى نضجت ثمارك فاقطفها
 تمسك مذ ترى جبلاً متيناً
 وفرصتك الوحيدة فاغتنمها
 يضيع الوقت مع طول الاماني
 ومن يكيل الامور له تعالى
 كجاعل اس ما يبني الرمالا
 فلا يدري الذي يأتي اقتبالا
 كمن يبني بلا سيف قتالا
 وان تلق التيسر فاسع حالا
 بتوطيد الرجا ودع التلالا
 ولا تطمع بأحسنها نوالا
 وذو طمع يسو به مآلا
 على خير فقد حسن انكالا

الفصل التاسع والاربعون

« احياء الامل »

علمنا ان بريقة كانت في اشد الاشواق لاخذ ثارها من لوقا الكرجاني ولو كلفها ذلك بذل حياتها وانها امعت الفكر في وجود طريقة لنوال مرادها فرأت نفسها مقصرة فينما هي تبصر في احوالها وتردد الايات المار ذكرها وهي ذاهلة عن الوجود غائصة في لبح الآمال طرق اذنها صوت اجش وكان النهار قد زال واخذ الليل يرخي سدوله. فانتبهت والتفت فرأت رجلاً من عامة الناس فظ المنظر يقول لها
 مالك يا خالتي العجوز هنا شاخصة في منزل الساحرة لعلك من صواحب مولانا

الشیطان . فاحذري ان یصیبك يوماً ما اصاب الغولة . فان السحرة عاقبتهم الحریق كما ترين ولا یجزی الشیطان جنوده الا جزاء سنمآر (١) لذلك اتى بنفسه واحرق منزل الغولة خصیصته

- ما معنی كلامك ایها الرجل فهل وجودي هنا جالسة لاستریح داعٍ لأن تكلمني بأمرٍ لا اعرف منها شيئاً

- فلست من هذه البقعة

- لا بل من ارض بعيدة

- فحيث ان الامر كذلك فأنا اخبرك بما جرى هنا لاني رأيت بعيني . كنت شاهداً مع الجمهور الكبير لما حدث من العجائب

واخذ یقص عليها ذلك الخبر الهائل ویبالغ في شتم الغولة الساحرة ولعنها . فقالت له أخيراً هل ثبت ان الغولة هلكت هنا بالنار

- لم یكن اقل ريب في ذلك وكان الشیطان قد وقص عنقها (٢) حال شوبوب النار لئلا تهرب وحسناً عمل . وبالانفاق كانت امرأة مارة من هنا فدهمتها النار

وخلصوها وقد احترق ثلاثة ارباعها ومضوا بها الى المستشفى ولا اشك انها ماتت . ومن اغرب ما اتفق حادث غريب . غريب جداً . فكان یقال ان تلك الغولة

الساحرة المشعوذة الملعونة كانت تسرق الفتيات لكي تستخدم دماءهن في اعمالها الشعوذية . فبالانفاق وجدت في منزلها تلك الليلة صبية كالعمر في نصف نisan فلما

قبض الشیطان على خادمته واخذها الى جهنم ليشويها وجمعها وليمة لجنوده ارسل الله ملاكاً من السماء الى الفتاة المذكورة فاحتملها من بين اللهب على جناحيه وطار بها

وانزلها بهدوء الى الارض فأتى الناس واحتاطوا بها واخذتها الشيخة الصالحة الى بيتها . وهي لم یسها شيء من الضرر . شعرة من رأسها لم تحترق

فدهشت الغولة وظنت ان صوابها فارقتها وقالت له . فنجت اذن تلك الفتاة . يا للعجب . ومن تكون تلك الشيخة الصالحة التي ذكرتها

- هي ام الايتام ومواسية الغرباء ومعينة المحتاجين ومعيشة الملهوفين . اعمالها الخيرية (١) رجل بنی قصر للنعمان فرماه من اعلاه اثلا بيني مثله لغيره (٢) أي كسر رقبته

مشهورة في هذه الارض

- واين بيتها فقد شوقني جداً الى مشاهدتها والتبرك بتقبيل يديها . واني في غاية

الاحتياج الى شيء من صدقاتها

- عافاك الله ايها الخالة المسكينة فقد سررتي كلامك . بيتها في طرف هذا الشارع

الذي نحن فيه بازاء كنيسة سيدة الالام وفوق بابها صليب من حجر

قمامت بريقة من ساعتها وهي كالغير المصدقة ما سمعت . فان هذا الاتفاق

الغريب أحبي أمالها التي كانت قد سخرت . وعرفت ان الامور تسهلت لديها لاخذ

ثاها من لوقا الكرجاني وصارت تقول بنفسها اذا صح ان حنة الشميسية حية فقد نلت

كل ما اتنى . ادوس هامة لوقا واكشف حجاب قينة واتقدم الى الدوق والدوقة

بجياة ابنتهما فلا بد ان يكافئاني وعندني الف عذر يقوم لديهما احسن قيام

ولم تزل تهزول حتى بلغت الباب المذكور فارادت ان تقرعه فرأت الظلام في

داخل البيت حالكاً فقالت قد نام الجماعة وليس من الصواب ان اوقظهم فيحسبون

قدومي شوماً . وفي الغد اتى ولا يفوت شيء مما اريد

ومضت من ساعتها تفتش على مكان تأوي اليه تلك الليلة

والشيخة الصالحة لقب جرى على تلك الارملة التي اخذت حنة الى بيتها لكثرة

صدقاتها واحسانها الى المصابين والعاجزين والفقراء . وقلنا انها لم تكن ذات ثروة تقوم

بجزء من نفقاتها الخيرية غير انها كانت ذات غير حارة وتعودت ان تطرق ابواب

الاغنياء والسيدات الشريقات فتأين بكلامها اقصى القلوب وتنال اكثر مما تطلب

لسد تلك الاحتياجات . وكانت الدوقة الشميسية والدة حنة من جملة أولئك النساء

الفاضلات اللواتي يبسطن لها اكفهن بالعتاء وقد عينت لها راتباً شهرياً عظيماً وكل

سنة كانت تدخل منزلها عدة مرار لافتقاد من عندها من المصابين . ولذلك كان

للسيخة الصالحة عليها دالة كثيرة

وكانت ايضاً قد استمالت قلب طيب حاذق كان يأتي منزلها كلما دعتة ويعالج

من عندها مجاناً من مرضى وجرحى وكان بينها مؤلفاً من ثلاثة منازل منها اثنان في كل

منهما سرير لمرضى او جريح

فلما حصلت حنة عندها اهتمت بها اهتماماً عظيماً لعواطف سرية استمالها اليها . وكان الطبيب يأتي كل يوم ويشاهدها الى ان مضى على ذلك اثنا عشر يوماً . فرأى اخيراً ان صحتها الجسدية حسنة لكن الاختلال في عقلها لم يزل كما كان في اول يوم . وكانت تقدر ان تقوم من سريرها وتمشي في البيت بسهولة وكل حركاتها تدل على عافية طيبة لكن اذا كُلمت لم تكن تفهم ما يقال لها وكانت تارة تقول « رعين ... امي ... لا سوى

ففي ذلك اليوم الذي خرجت فيه بريقة من المستشفى وعرفت من الرجل العامي بوجود حنة في بيت الشيخة الصالحة فقصدته مساءً ورجعت موجهة زيارتها الى الغد كان الطبيب قد اتى البيت وجلس يفحص حنة فلم يجد شيئاً جديداً وكانت الشيخة الصالحة تخبره بكل ما تعرف من احوال عقلها وكلامها حتى ظهر اليأس من شفائها الا بمعجزة او اتفاق غريب . فقال لها اخيراً احسن واسطة ان نبعث بها الى المارستان العام . فارتاعت عند ذكر هذا الاسم وقالت كلاً هذا لا يكون ابداً لاني اعرف هذا المكان مقرّ عذاب وشقاء لا مقرّ رحمة واعتناء . غير اني اعرف في باريس منازل كثيرة لاطباء مخصوصين يعالجون فيها المجانين . قال نعم لكن النفقة في تلك البيوت فاحشة فهل في امكانك ان تدفعي كل شهر خمسين ريالاً . فهتت دقيقة محتارة ثم قالت يعينني الله فاني اعرف سيدة في هذه الجيرة واسعة الثروة كثيرة الرحمة غزيرة الصدقات يقال لها الدوقة الشميسية فغداً اذهب اليها واخبرها بالحال واتوسل اليها ان تأتي وترى هذه الفتاة المسكينة فلا بد انها تعطف عليها ويرق قلبها لحالتها فلا تبخل علي بما اطلب وعن طيب خاطر تبذل الخمسين والمئة . فصوّب الطبيب رأبها هذا . وبناء عليه عزمتم ان تقصد الدوقة في الغد

الفصل الخمسون

« فقد حنة »

سبقت الاشارة الى ان الغزوة وعدت نفسها ان تأتي ثاني يوم صباحاً الى بيت الشيخة الصالحة . وعلمنا في آخر الفصل السابق ان هذه المرأة عزمتم ان تأتي قصر الدوقة

في نفس هذا الصباح

فقبل الضحى نهضت الشبيخة الصالحة وقصدت القصر الشميسي واخبرت الدوقة
بواقعة الحال وسألته الامداد وان تأتي وترى تلك الفتاة المجنونة في بيتها . فأجابته
الدوقة الى طلبها وامرت بمركبة خفيفة وركبت واركبتها بجانبها وسارتا

وفي وقت وصولهما امام بيت الشبيخة الصالحة وخروجها من المركبة اقبلت بريقة
ورأت الدوقة من بعيد فاضطربت وقالت ساء فألي فان الدوقة ترى الآن ابنتها وتعرفها
ثم راجعت فكرها فقالت لا بل الاولى ان اتقدم لان الدوقة لا ترى من بنتها الاجسداً
متحركاً لا عقل فيه واعرفها بنفسي واني انا وحدي قادرة على ارجاع عقلها اليها فلا بد
ان تتراحمي على اقدامي وتهمني كل ما سألهما

وبعد دخول الدوقة والشبيخة الصالحة دخلت بريقة فرأت الشبيخة واقفة محتارة
تلطم وتناوه والدوقة تلاطفها وتسليها . وحنة غير موجودة . فتمزقت احشاؤها كدراراً
وانصدع قلبها اسفاً لانها بعد ما املت ببلوغ غايتها اعترضها الدهر وسدّ دونها النجاح
بافلات حنة ثانية من يدها

وكانت الشبيخة الصالحة حالما رأتهما سألتها هل رأيتها . هل علمت اين ذهبت .
فاجابت وهي كأنها حيرى : عنم تسألين يا مولاتي

- عنها . عن الفتاة اللطيفة ابنتي المحبوبة الصبية المجنونة التي كانت هنا في منزلي
- لست اعرف من تكون هذه الصبية ياسيدي ولا رأيت فتاة لطيفة ولا مجنونة
- فما مرادك بالمجيء الى هنا

- سمعت انك امرأة صالحة تفعلين الخير وانا امرأة فقيرة حقيرة محتاجة الى
الصدقة فقصديك عالمة اني لا اعود خائبة

- اذن لا تواخذيني على كلامي الجافي لاني على غير هدى لفقد هذه الفتاة
- فاعلميني بصفاتهما لعلني اذا خرجت للبحث عنها اجدها وآتيك بها لاني متعودة
الجولان في انحاء باريس واعرف كل زواياها

- حسناً تفعلين وقد سررت قلبي بهذا الخاطر الذي خطر لك . وليبارك الله مسعاك
وشرعت تصف لها اوصاف حنة وملايسها . وبريقة تنظر الى الدوقة بطرف خفي

لعلها ترى منها علامة تدل على انتباهها الى صفات بنتها . فلم يكن شيء من ذلك لان
في مدينة مثل باريس فتيات كثيرات من امثال حنة الشميسية بالجمال وحوار العين .
ومع ذلك فالدوقة عالمة ان بنتها حينئذ امرأة لوقا الكرجاني
وبعد ان انتهت الشيخة الصالحة من كلامها القت الدوقة دينارين في كف بريقة
وقالت اذهبي بسلام انجح الله مساعيك

فخرجت وهي في اكبر أمل ان الزمان يسعدها بمرادها

وكان السبب في فقد حنة من الاتفاقات الغريبة . وذلك ان الشيخة الصالحة قبل
ان تمضي الى القصر الشميسي دخلت عند احدي جاراتها وطلبت اليها ان تبعث بابنتها
لتجلس بجانب سرير حنة وتسلية بالحديث والترتيل وتلاحظ حركاتها لئلا تفعل شيئاً
يؤذيها لسبب فقد عقلها . فاجابتها الجارة الى طلبها وارسلت بنتها الصغيرة فجلست عند
سريرها وصارت تسلي نفسها بالتطريز وتسلي حنة بالترتيل

وفي تلك الساعة مرّت فرقة من الجنود المنظمة والموسيقى تصدح امامهم بالحن
مطربة جداً موقعة على آلات مختلفة النغمات والاشكال . فطربت بنت الجارة وقامت
الى الباب تشاهد العسكر وتسمع الالحان . وبينما هي واقفة على الباب والموسيقى قد
صارت على بعد منها اذ مرت بها اربع بنات من صواحبها وقلن لها ان تمضي معهن
للسماع فترددت اولاً محافظة على ما امنت عليه من حراسة المجنونة غير ان واحدة من
البنات امسكتها بيدها والحلت عليها ان تمضي معها ولو دقيقة فذهبت . وبعد خروجها
ظهرت حنة على الباب لانها كانت قد نهضت من سريرها عند سماع الانغام وسارت
وراءها وهي لا تشعر بها

من المعلوم ان الاصوات الموسيقية تؤثر في النفوس تأثيراً حميداً ولا سيما نفوس
الجانين وان كانوا لا يدركون لذتها الحقيقية . ودليل ذلك شاول فانه كان يسكن
جنونه اذا سمع نغمات عود داود . هكذا حصل اتعاش في نفس حنة من تلك الالحان
المطربة والنغمات الرنانة فاستماتها السليقة الى الخروج واذ لم تجد مانعاً ولا معارضاً
بقيت تتمشى وراء العسكر الى ان صارت على مسافة بعيدة من البيت

ورجعت بنت الجارة وكانها لالتها بما برفقتها لم تنبه الى حنة . وكذلك الناس

الذين رأوها لم يبالوا بها لانها كانت تمشي مشية بطيئة وليس لبسها مما يستميل الانظار
ولا لها حركات يعبأ بها المارة

وهكذا استمرت حنة الشمسية ماشية في شوارع باريس من شارع الى شارع
ومن زقاق الى آخر معتسفة لا تعلم كيف تسير ولا اين تمضي بل هائمة اتباعاً لدليل
عينها فقط . ولم تزل كذلك حتى خرجت من شوارع باريس وحصلت في الارياض .
فاعياها التعب والجوع فجلست تبكي وهي لا تعرف ما بها ثم قامت وتمشت الى ان
بلغت دار معبد قديم بقرب نهر السين فدخلت وكان الظلام قد خيم فعدت تحت
رواق ونامت وهي تتضور من غير ان تعلم ما اصابها ولا اين هي من الدنيا

وعند الساعة الخامسة من الليل انتبهت مذعورة برنين ساعة كبيرة معلقة في قبة
المعبد . وكان الظلام حالكاً وبعض انوار على جوانب الطرقات موضوعة لهداية
السايرين . فمشت حنة متبعة تلك الانوار الضعيفة الى ان بلغت جسراً على نهر السين
يقال له جسر السيدة

وكان تحت القنطرة الاولى منه جماعة من اللصوص جلوساً حول نار كبيرة يطبخون
عليها طعامهم ويتحدثون (وكان الماء لا يصل الى تلك القنطرة الا وقت الفيض)
فاستمال لهيب النار نظر حنة واحوجها برد الليل ان تطلب الاستدفاء فتقدمت نحو
القنطرة ونزات درجاً من حجر يؤدي الى مكان اللصوص
فلما رآها هؤلاء استغربوا امرها وصاحوا طرباً هوذا امرأة جميلة . تحفة لنا هذه الليلة
وبقيت هي تتقدم الى ان بلغت النار . فجلست مستوفزة تصطلي . فكلما
الجماعة فلم تجب بكلمة

وحينئذٍ ثار الخصام بينهم بسببها . لان واحداً منهم اراد ان يخلص نفسه بها
فقاومه آخر فتقاتلا وقتل احدهما فقام الباقيون على القاتل وقد تجبر وقال لا يمسه احد
غيري . فعلا صياحهم واشتبك القتال بينهم واشتدت حركاتهم العنيفة فخافت حنة مما
يجري حولها خوفاً لا عن عقل بل عن حس لانهم كادوا يدوسونها بأرجلهم ففررت
مرتعة وركضت هائمة

واتفق انه كان على النهر تحت ذلك الجسر بناء من خشب اقيم لرفع الماء وجره

الى ضفتي النهر . وهو مؤلف من دواليب ورواقد وعضائد واوتاد مفروسة في قعر النهر
والماء يجري بين هذه الاخشاب بعنف شديد وضجة هائلة كأن شلالاً عظيماً يتحدّر
بين صخور مستوعرة

فشت حنة وهي لا تعقل على خشبة طويلة ضيقة متصلة من القنطرة الى قرب
الدواليب وبينها وبينها فرجة وهناك خشبة اخرى قصيرة لاصقة بالدواليب فوثبت
من الخشبة الطويلة الى القصيرة فزلقت رجلها وسقطت في الماء غير ان سليقتها الهمتها
ان تنثبث بوتد عثرت به وضمته بين ذراعيها وصارت معلقة تتقاذبها المياه وهي تصيح
صياحاً شديداً من شدة خوفها ولم يبق لها عزم ولا لها تدبير . ولو كان امهر السباحين
في مكانها لعجز عن التخلص

وبينا اولئك اللصوص في اشد الخصاص اذ سمعوا صوتاً جهوراً يصبح بهم من
اعلى الدرَج قائلاً . هيا رفاقي ما هذا القتال . كفوا ويلكم واحقنوا دماءكم . فتوقفوا
ونظروا فاذا القوقلي مقبل اليهم . فصرخوا جميعهم قائلين . وي هذا صاحبنا القوقلي
وكنا قد ظننا انه هلك

وسبب مجيء القوقلي في تلك الساعة هو ان سيده لوقا الكرجاني كان لا يقر له
قرار بعد ليلة الوليمة لان رعيماً الزهري في الوجود فصار يجتهد في البحث عنه ليظفر به
فلم يقف له على اثر فكاد يذوب كمداً من كثرة همه وهو اجسه

ففي ذلك اليوم زاد بلباله وعدم الصبر وقد علم ان عدوه يسعى في التدبير على
كشف خياناته واهلاكه . فاستدعى معلى خادمه الامين وقال كيف القوقلي اليوم
قال بخير يا مولاي صار يقدر على المشي وقضاء الاغراض

وذلك لان الطعنة التي طعنه اياها ابو زرزور الجبار ليلة الوليمة لم تكن قاضية فبقي
في قصر لوقا يعالج كل تلك المدة الى ان شفي تماماً في اليوم الذي شفيت به الغولة
وخرجت من المستشفى

فاستحضره لوقا في تلك الليلة التي تاهت بها حنة وقال له ان يمضي الى رفاقه
اللصوص (لانه كان من جملتهم قبل ان خص بخدمة لوقا) ويحتم على التمجس في
كل انحاء باريس لعلهم يهتدون الى مكان رعين وان يبذل لهم من المال ما يطلبون

وأكثر . واعطاهُ كيساً اعجز (١) من تلك الدنانير الوهاجة التي تخرج من معمله
ووعدهُ ان يهبهُ خمسمائة دينار خاصة اذا عرف مقرر عين والى دينار اذا اتاه به قتيلاً
او جريحاً . وان هذه الدنانير تكون صحيحة

فخرج القوقلي طائراً بجناح الطرب وقصد الجماعة المذكورة تحت قنطرة جسر
السيدة على نهر السين ورأى من حالهم ما رأى وكفهم عن القتال وسألهم عن سبب
خصامهم فاخبروه بالخبر على جليته . فقال لهم ويحكم ما ارى هنا فتاة وانتم تختصمون
للوهم . فنظروا جميعهم فلم يروا حنة وكانوا لم يشعروا بفرارها لاشتغالهم بالقتال ولم يسمعوا
صراخها لكثرة ضجعتهم وقعقة السلاح . ولكن حينما سكنت الضجة بوجود القوقلي
وانتهوا اليها بكلامه هذا التفتوا هنا وهنا فسمعوا صراخها ممزجاً بهدير امواج النهر
وهو اشبه بالانين فالتقوا الحطب في النار فاستعرت وارتفع لها لهيب ساطع ونظروا
فأروها في تلك الحالة فاقشعرت ابدانهم من مجرد النظر اليها

فصاح بهم القوقلي ويلكم اليس من يقدر ان ينقذها من هذا الهلاك المبين . فسكتوا
خوفاً فقال للوص الذي قتل رفيقه بسببها . وانت يا صاحب الحماسة تقتل لاجلها رفيقك
وتعود الى قتال الباقيين لاجلها فاين همتك وغيرتك الآن . قال اقتحام الهلاك تحت
السيوف هيّن جداً بالنسبة الى اقتحام هذا الهول هنا . فاخرج القوقلي دينارين وقال هما
لك ان بادرت الى خلاصها . فابتهج الرجل بهما لانه كان لم ير في زمانه ديناراً في كفه
حينئذ تقدم بعزم ثابت ومشي متأنياً على تلك الخشبة حتى بلغ طرفها وهناك وقف
متحيراً كيف يمكنه التوصل الى حنة ورأى انه مضطر ان ينحني انحناء شديداً فوق
الجمّة المضطربة (لا يحتمل العاقل ما يحتمله المجنون من المناظر الهائلة . امر معروف)
لكنه لم يرد ان يرجع خائباً خوفاً من التعيير . فركب الخشبة بتأن تام وانحنى عليها
بكل تحفظ ومدّ يده الواحدة الى حنة ليمسكها وبقي متشبهاً بالخشبة باليد الثانية
لكنه بعد ان قبض على ذراعها وجذبها اليه جرّه ثقلاً المسبب بزيادة عن عنف
جري الماء فأختلّت الموازنة وسقط واياها في النهر . فصرخ الجماعة وهم يشاهدون
ويقشعرون « يا للغبينة هلك الاثنان معاً

وهكذا يُسوا من رفيقهم والفتاة وحولوا عنهما فكرهم وجعل القوقلي عند ذلك يحدثهم بالشان الذي لاجله قصد مكانهم ووعدهم بالمال الكثير ونقد كلاً منهم ثلاثة دنانير (زيوف كما اشرنا) رعبوناً . فاقسموا له اغانظ الاقسام انهم يرجعون بخبر رعين او به قتيلاً

ثم مضى القوقلي مسروراً وعاد الجماعة الى تدبير امورهم فنزعوا عن رفيقهم القتييل الاول ثيابه واقسموها والقوه في النهر وناموا

واما القوقلي فتوجه الى حانة المعلم جرجور (وقد مر ذكره في الفصول الاولى من الجزء الثالث) فطرق الباب فاجابته الخادمة فسألها عنه فقالت خرج هذه الليلة للصيد في النهر اذ لم يبق عندنا سمك في الحوض لطعام الغد . فقال متى رجع فاخبر به ان القوقلي اتى يكلمه من قبل المعلم داود . وغداً اعود



الفصل الحادي والخمسون

« صيد عجيب واتفاق غريب »

كان من عادة المعلم جرجور المار ذكره اذا تنصف الليل وخلت حاتته من الناس ان يمضي الى النهر ليصطاد السمك بقارب صغير . وبهذه الحجة عينها كان يتلصص في النهر فاذا وجد زورقاً فيه شيء ينفعه كبرميل خمر او نحوه يسرقه ويسيره امامه في النهر ويحمله على عجلة ذات دولابين الى حاتته . ولذلك كان يختار الليالي المظلمة حتى لا يراه احد واذا اتفق لاحد ان يشعر به من اصحاب الزوارق والقوارب يسرع بالتجذيف في عرض النهر فيختفي عن البصر بشدة الظلام فقد صدق فيه المثل « الرامي بعلة الوردشان يأكل رطب المشان »

ولاجل هذه الغاية كان يأخذ معه عصاً طويلة في طرفها كلاب كبير يطرحه على ما يصادف في النهر من الاشباح ويبحره

ففي تلك الليلة التي سقط فيها الثص وحنة في النهر ثم رمي القتييل الآخر كان جرجور يحاول الصيد على عادته كما اخبرت خادمتة القوقلي

غير انه لم يكن قاصداً سرقة حينئذٍ ولذلك كان قد وضع مشعلاً كبيراً في مقدم
سفينته يهر بنوره الساطع السمك الذي يتفق وجوده بمجاورته فيطرح عليه الشبكة
وكان قد تقدم قليلاً الى جهة جسر السيدة فرأى ناراً مضرمة ثم سمع ضجة
عظيمة (معروف سبها) فلم يهتم لذلك واقام يترصد السمك واقفاً في سفينه
وبينا هو ينظر الى جهة الجسر رأى من بعيد شعباً ساجداً تحت سطح الماء فاسرع
في الحال واخذ العصا ذات الكلاب وانتظر الى ان قرب الشبح ووضح بنور المشعل
فاذا هو جسد بشري فد العصا اليه فعلق الكلاب بالثياب فجذبته حتى طفا على وجه
الماء لكن حرق الثوب المعلق به الكلاب وافلت الجسد فجرته المياه بشدة جريها
وبعد نحو ربع دقيقة رأى شعباً آخر قادماً فحتمق النظر فرأى جسماً عليه ثياب
امرأة وهي منقلبة على ظهرها وقد اعانها فسطانها على العموم لسعته وانتفاخه بالماء . فقال
وي ما ارى هذه الليلة . لا يجرّ النهر الا جنناً فاذا حدث . ثم مدّ العصا وقد قربت
المرأة منه لكنه لم يعلق الكلاب بثيابها لئلا يحدث كما حدث اولاً بل جرّها بقوة
العصا بتأن الى ان قدر ان يتناولها فمدّ يديه وسحبها واضجعها في السفينة وصار يتأمل
فيها ويتعجب من حسنها واعتدال قدها ولطف هيئتها . واراد ان ينزع ثيابها وي طرحها
في النهر فشعر منها بحركة خفيفة فهبت وقال باقية في الحياة المسكينة وعل لها والدين
غنيين كما تدل هيئتها فيجب ان آخذها الى منزلي واعالجها
وفي الحال وجه سفينه الى الشاطئ . ويا للعجب فانه رأى جثة اخرى ساجدة
في النهر فازداد حيرة وقال هذه ليلة شؤم لا اصطاد الا الغرقى . صيد عجيب
وكانت الجثة المذكورة عارية من الملابس وفي الصدر شق عميق اقتطع منه نرف
الدم . وهذا هو اللص القليل الذي رماه رفاقه قبل ان ناموا
وعاد جرجور في الحال الى حاتته حاملاً على منكبيه حنة الشميسية مغمى عليها
وقد نجت المرة الثانية من الهلاك المبين . باتفاق غريب
ولما دخل منزله ايقظ خادمتة وامرها ان تنزع عن المرأة ثيابها المبللة وتلبسها حلة
موافقة ثم جعل يهتم بطريقة معالجتها الى ان استفاقت من غشيتها ونظرت حولها وقالت
« رعين ... امي » حسب عاداتها . فقال جرجور يا سعد البخت هوذا الفتاة تذكر

أما فيظهر أنها بنت عائلة . وأما رعين هذا فما اظن الا انه عشيقها وقد حدث لها معه
او بسببه ما أدى الى اختلال عقلها فطرحت نفسها في النهر . هذا ذاب الصبايا
العاشقات القليلات العقل والتدبير . وجعل يكلمها فلا ترد جواباً وظهر له انها لا تعي
ما يقول فقال ندعها الى الغد حتى يصفو دماغها . وقام فاني بشيء من العرق وجعل
يسقيها قطرة فقطرة قصداً للتخدير والتدفئة لانها كانت ترتعد من البرد وعلى اثر ذلك
استغرقت في النوم فتركها وقام لينام . وحينئذ اخبرته الخادمة بما قال لها القوقلي . فلم
مسروراً لعله ان المعلم داود محتاج اليه وكان يعرف انه كريم اليد

وفي الصباح قام ودخل على حنة وجعل يكلمها فلا يسمع منها الا كلاماً مبهماً
متقطعاً ولم يعلم انها مجنونة فظن انها لا تريد ان تجاوبه فاستشاط غضباً وجعل يبرر
ويتهددها بجفاء فجنح فوادها واضطربت وصارت الدموع تجري على وجهها المكتئب
فاحتار في امرها وقال حقاً انها مجنونة فلا تقدر ان تفيدني شيئاً عن حال عائلتها وقد
خسرت ما رجوت من الجزاء . فصار يلاطفها لعلها تسكن لكنها ازدادت خوفاً ونهضت
حاملة لحافها على ظهرها وركضت الى زاوية المنزل . فازداد حنفاً وقال تباً لمن يتداخل
في ما لا يعنيه ومد الآن سأدع الناس يفرقون . شئت يميني ان كنت اخلص احداً
بعد هذه المرة

ثم تركها وخرج للقاء جماعة ممن تعودوا الشرب في حانته واوصى الخادمة ان
تقوم باحتياجاتها . وعند المساء توارد الشرب (١) الى تلك الحانة حتى غصت بهم
وكانوا اشكلاً والواناً من اهل الشبهات واطلع لهم جرجور براميل الخمر المختلفة
وصاروا يشربون ويدخنون حتى امتلأ المكان بالدخان الكثيف وكثر بينهم الهرج
واختلط صخبهم المقلق فقال جرجور في نفسه متكبهاً هوذا اليوم نجبة القوم . لم ار في
زماني اجتماعاً عندي مثل هذا ويا حبذا لواتي القوقلي الآن فيجد فوق مطوبيه وكلهم
على شاكلة رعاغ سفهاء لصوص عيارون

وبينما هو يتكلم انفتح الباب فالتفت وقد ظن انه القوقلي فاذا هي امرأة لابسة
ثياباً حقيرة تتوكأ على عصاً بيضاء كأنها عجوز وعلى وجهها برقع كشيء اسود فاجالت

(١) جمع شارب . يراد بهم الذين يشربون في تلك الحانة

نظرها في المكان ورأت خواناً صغيراً ليس عنده احد فتقدمت وجلست وطلبت اكلًا
 وخمراً فقدّم لها جرجور وقد تعجب من حالها لانه لم يعرفها قط
 ولا يجهل احد من القراء ان هذه المرأة هي بريقة بعينها . كانت قد طافت أنحاء
 باريس ذلك اليوم والذي قبله وهي تسأل كل حي وتدقق في البحث والتنقيب ولم تقف
 لحنة على اثر فاعياها المشي المستطيل واليأس الشديد وفعل الجوع باحشائها فعل سيف
 ذي حدّين ولم تعد تستطيع المشي فسمعت الجلبة في تلك الحانة فدخلت غير مبالية
 لتسدّ رمقتها بكسرة خبز وقطعة لحم وجرعة خمر

ومن العجب ان حنة في غرفة محاذية لها وهي تجهل وان القوقلي على وشك القدوم
 وهو جاسوس لوقا فاذا علم بوجود حنة هناك اخبر مولاه فكان بذلك هلاك المسكينة
 قطعاً وقد خاب كل رجاء من رعين والغولة . اتفاقات غريبة

وبعد نحو خمس دقائق فتح الباب ثانية ودخل رجل فحسب الجماعة فظربوا لمحضره
 فنظرت الغولة متأملة فاذا هو القوقلي فارتاعت لكنها كظمت ما في نفسها لعلمها انه
 لا يعرفها

وكان جرجور قد خرج ليأتي بقناني الخمر فلما دخل ابتهج بروية القوقلي فسأله
 القوقلي من تكون هذه المرأة . قال لا اعرفها

- ألا يمكن اخراجها من هنا
- لا يمكن لانها دفعت ما عليها سلفاً وتنتظر الطعام
- فخذ لها الطعام الى الخدع الداخلي
- لا استطيع لان هناك فتاة مجنونة
- وما شأن المجانين في منزلك . ألا لانك نظيرهم . فعجل بالطعام لهذه المرأة
 لتخرج من هنا

وكانت بريقة قد اصغت للحديث اصغاء تاماً ومن له غرض في كلام تكون اذنه
 اسمع من اذن الفرس . فسمعت بعض من حديثها الشبيه بالسري واستنتجت
 نتيجة كبرى

ولما اشرق عليها نور الامل بوجود حنة هناك صارت ترغب في البقاء ولو خسارة

واحتمال اهانة . و ارادت ان تتدارك امرها مع القوقلي لعلمها انه يطردها اذا طال بقاءها فلا
تقدر ان تدافع عن نفسها فقامت اليه ونهته بوضع يدها على كتفه وقالت له لست تعلم
يا اخي اني اسمع من الخلد فلم يفتني ما دار بينكما من الحديث غير ان ظنك بي سوءا في
غير محله فكن مطمئناً من هذا القبيل وسل عني البارون لوقا الكرجاني اذا كنت في شك
من صحة كلامي فهو يخبرك بمنزاتي . فتمعجب القوقلي وقال أتعرفن البارون قالت نعم
واعرفك ايضاً قال اذا كان الامر كذلك فاجلسي في مكانك ما اردت ولا يفوتك
يا خالتي نصيبك من هذه الليلة

وعند ذلك اعلن القوقلي للجماعة ما في نفسه من طلب التفتيش على رعين الزهري
ووعدهم بالجوائز السنية ثم دار بوزع عليهم ديناراً ديناراً وامر لهم ببرميلين من اجود الخمر
ولما سمعت بريقة اسم رعين وما هو معد له من المكيدة جزعت وطربت معاً
وقالت في نفسها هذا باب الرجاء قد انفتح لا محالة فان هذا يطلب رعيناً ليقتله واما
انا فاطلبه لاجيبه واحيي به

وتقدم القوقلي اليها وقال هوذا يا خالتي دينار لك ايضاً فتسعين مسعاهم . قالت
اشكر فضلك يا ابن اختي وان مسعاهي هو الذي يبلغك المراد
- كيف ذلك

- لاني اعرف الناس برعين الزهري . ولو كان صاحبك ابو بدر المرحوم حياً
هنا لصوب مقالي

- عجباً . عجباً تعرفين كل الناس كأنك ساحرة . فهوذا دينار آخر وارجوان
التي المطلوب بهمتك العلية فيكون لك احسن جزاء بعد ذلك

ثم خرج يطلب امثال هؤلاء اللصوص في كل دسكرة ومحل شبهة ليطلب اليهم
قضاء هذه المصلحة العظيمة الشأن وكان قد اعطى جرجور ثلاثة دنانير (وكل تلك
الدنانير التي وزعها زيوف على ما مر)

وبعد خروج القوقلي اشارت بريقة الى جرجور ان يدنو منها فأتى وقال ما احسن
حظك هذه الليلة في منزلي ارايت انك دخلت فارغة الجيب وتخرجين مفعمة الاردان .
قالت نعم ان دينارين لامرأة فقيرة مثلي ثروة عظيمة علي اني ابذلها عن طيب خاطر

لمن يفض لي مشكلاً قد حيرني

- فهل اقدر انا على ذلك

- نعم تقدر

- أعطيني الدينارين

- سلفاً . وكرامة

فكاد يطير من الفرح وقال عبدك وخصيصةك فما حاجتك

- سمعتك تذكر فتاة مجنونة في منزلك

- نعم وهل تعرفينها

- لعلها التي هربت من بيتي البارح صباحاً وقد اعيايتي التعب وانا افتش عليها في

انحاء باريس حتى وصلت الى هنا على آخر رمق

- وانا وجدت هذه التي عندي في الليلة البارحة فضفيها لي

- فتاة تناهز العشرين بيضاء اللون مصفرة من المرض سوداء الشعر نجلاء العينين

لابسة ما هو كذا وكذا

- نعم نعم وصفتها اصدق وصف حتى كاني اراها امامي

- واذا سئلت لا تجيب . كلامها نزر وغالباً تقول « رعين . . . امي . . . »

فصفتك جرجور يديه عجباً وقال لم يبق شك فهي هي بعينها . وهذا من اغرب

الاتفاقات . ويجب ان تتحفيني بجائزة سنوية اذا رددتها اليك . لا تعلمين اين وجدتتها

- ما لم تقل

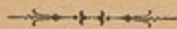
فجعل يقص عليها الخبر حتى ذهت وقالت له لا شئت يدك ولا عدمنا غيرتك

يا ابا الهمم فخذني اليها في الحال لامضي بها الى منزلي

- حباً وكرامة فتعالي معي

فسعت وراءه وهي لا تكاد تصدق ان تراها لشدة اندهاشها وفرط سرورها .

وقد ايقنت انها نالت اقصى مظالبيها



الفصل الثاني والخمسون

« مفاجأة الدرك »

من الامثال الدارجة « عروس تحت الاكليل لا تعرف لمن تصير . ولقمة في يدك قد تصير الى فم غيرك . ولا تقل فول حتى يصير في المكيول » ما اصدق هذه الامثال في مثل هذا المقام . فحالما وصل جرجور الى باب المخدع واخرج المفتاح ليفتحه اذا برجل لا بس لبس رؤساء الدرك دخل من الباب العام ووراءه رهط من جماعته فصاح بصوت عالٍ قائلاً بأمر جلاله الملك لا يخرج احد من هذا المكان . ودخلوا فتغيرت الوان الجميع واضطربوا اضطراباً شديداً وحمد جرجور وبريقه مبهوتين . واراد جماعة من الموجودين ان يفروا من الشبايك فوجدوا الجنود محيطة بالمكان وبايدهم البنادق مصوَّبة . وقال الرئيس من حاول الفرار فما امامه الا الموت فالزموا امكتكم . فجلسوا جميعهم صامتين كأنهم اشباح بلا ارواح . ووقع الرعب في قلب بريقة وعضت اناملها اسفاً وحضر جرجور امام الرئيس

فجلس الرئيس واصطفت الجنود في المنزل يحرسون الناس ووقف بجانب الرئيس اثنان منهم . فوجه كلامه الى جرجور وقال اتدري ايها الخبيث ان الزيوف تجري في منزلك وانت تساعد على تنفيذها

فارتبك المسكين من هذا السؤال الغريب وجعل يتنصّل لانه لم يخطر في باله

شيء من ذلك

فأمر الرئيس جنوده ان يفتشوا القوم فجعلوا يفتشون كلاً بمفرده ويخرجون ما في جيوبهم . فتمعجب الرئيس وقد وجد مع كل منهم دينار وهاج . وفتشت الغولة فوجد معها اثنان (هما اللذان اعطتها اياهما الدوقه حينما خرجت في طلب حنة . وكانا صحبيين) ووجد مع جرجور خمسة دنانير (ثلاثة من القوقلي والاثنان اللذان اخذهما من بريقة)

ثم امر الرئيس فوضعت امامه على الخوان فلسكة من حديد وزنها نحو رطلين ومطرقة متوسطة الحجم . وجعل يضع ديناراً بعد دينار على الفلسكة ويضربه بالمطرقة فينسحق

غير ان دينارِي بريقة بقيا سالمين . فأمر حينئذٍ ان يقيد كل من هناك بسلسلة من حديد حول معصميه

ولما وصل الدور الى جرجور صاح قائلاً يا سيدي اسمح لي ان اتكلم فكل هذه الدنانير التي هنا اعطانا اياها القوقلي واعطى هذه المرأة دينارين فاعطتني اياهما واعطاني القوقلي ثلاثة

وكانت بريقة قد طلبت الى الرئيس ان يطلق سبيلها اذ ليس معها زيوف لكن عند ما تكلم جرجور بما ذكر امر ان تقيّد مع الباقين ولم يغد تنصلها شيئاً فسأل الرئيس من القوقلي هذا فأخبره جرجور انه رجل طويل السيف عليه هيئة العيَّارين يسعى في القبض على المركزي رعين الزهري . وانه لا يعرف مكانه ولا من كلفه بذلك . فقالت بريقة للرئيس اذا انت اطلقتني اخبرتك بحقيقة هذا الرجل ومولاه ومكان ضرب الزيوف المألثة باريس في هذه الايام

فلم تنتهِ من كلامها حتى شعرت بوخزة في ظهرها وسمعت صوتاً يهمس في اذنها قائلاً : باؤل كلمة تهككين وان كنتم نجوت . فقالت للرئيس بعد هنيهة كذبت يا مولاي فلا اعرف شيئاً

وحينئذٍ امر الجنود ان تذهب بالمقيدين الى السجن ليحاكموا في الغد . وقي هو في منزل جرجور مع اربعة من الجنود ليفتش خباياه لعله يقف على شيء مما يوقع الريبة ولما صار الجنود في الطريق كان الجندي الذي كلم بريقة بما مرّ من الوعد والوعيد موكلاً بحراستها في الطريق فاطلق سبيلها حتى اذا ابتعدت بضع خطوات صاح « النار . افلتت الاسيرة من يدي » وكان الظلام حالكاً والرجل متأخراً عن رفاقه لهذه الغاية . فمظفوا حالاً واطلقوا بنادقهم فأصاب الرصاص الرجل ونجت بريقة في عطفات تلك الازقة المتعرجة

وكان الرجل المذكور نقولا بربط الذي قدّم لمقدم الدرك التقرير الذي كتبه لوقا بيده عن نفسه ليعث به الى الدوق يعقوب الشميسي (راجع الفصل الحادي عشر) دخل مؤخراً في خدمة لوقا من جملة المشاعلية . فلقي الآن جزءاً من حياته واما الرئيس ففتش بيت جرجور وحجز ما فيه وطرده الخادمة منه وختمه بخاتم

الحكومة وعاد مع جنوده وقد اخذوا حنة الشمسية الى السجن وثاني يوم تحققوا جنونها وأرسلت الى المارستان العام الذي اقشعرَّ من مجرد ذكره بدون الشيخة الصالحة .
وسباني خبرها هناك في مكانه

الفصل الثالث والخمسون

« البحث من جهتين »

مضت عشرة ايام بعد كبس منزل جرجور والبحث عن رعين جارٍ من جهتين متناقضتين من جهة لوقا الكرجاني ليظفر به ويهلكه ومن جهة بريقة لتحظى به وتتفق معه على اخذ الثار من لوقا

وكان رعين في اثناء ذلك قد كلف صنيعته جبوراً و ابا زرزور ان يتجسسا احوال لوقا ويدخلا معمل الزيوف ليديرا التدبير الموافق لدخول قصره والقبض عليه . واعدأ اياهما باعطاءهما البراءتين ليخلصا من ملاحقة الحكومة لاشتهارهما باللصوصية . وكان قبل ذلك العهد قد تقدم الى ابن الشرطي بطلب البراءتين واعلمه ان له بهما غاية عظمى وهي كشف معمل الزيوف والقبض على الرجل الخائن الذي ارتكب الفظائع العظيمة في قلب مدينة باريس . لكنه لم يعلمه باسمه ولا باسم الاشخاص الذين وقع معهم او عليهم ذلك الخداع بل تكفل بكشف تلك الدسائس بسعيه فقط اذا منحه البراءتين . فلم يتردد ابن الشرطي عن اجابته

ومن ثم اراهما الرجلين القزم والجبار ففرحا اشد الفرح وخرجا يبحثان ويتجسسان الى ان تيسر لهما دخول معمل الزيوف والوقوف على اسراره وانضموا الى المشاعلية وصارا يشتغلان بهمة ونشاط حتى اعجب بهما لوقا الكرجاني ولم يعلم شيئاً من حالهما في اول الامر

وكان رعين في كل تلك المدة يبالح في الاستتار في منزله الخفي من الشارع الكرزوي وارسل الى مدينة برست سرّاً واستدعى خادمه الخاص ليقضي حوائجه . وهكذا جرت الأمور احسن مجرّى ولوقا الكرجاني فاقد الهدى والراحة من عدم وقوفه

على مكان رعين مع ما اتخذ من الوسائط الفعالة للبحث عنه . فلم يكن يقرّ له قرار لشدة حذره من غائلته لانه يعلم قدرته وقد وقف على اسراره وصار يتوقع الغوائل ساعة بعد ساعة ليلاً ونهاراً

فلما كان اليوم الحادي عشر حضر الى رعين جبور وابوزرزور ومعهما مفتاحان جديدان وقالاه هوذا قد تم كل شيء وهذان المفتاحان احدهما للباب الخارجي والآخر للباب الداخلي من الدهليز الواصل بين قصر البارون وبرني الزيوف تم صنعها اليوم وفي هذه الليلة تجربهما والليلة القادمة توافينا الى باب الحظيرة في شارع الاساورة بزبي يشبه زي المشاعلية فندخلك ونخفيك الى ان تطمئن القلوب ويلتهي الفعلة بعملهم فناخذ المفتاحين وتسلل ففتح البابين ونخرج وقد صرنا في دار القصر ويكون خادمك معك وخدم القصر نياماً ونحن اربعة فنصعد القصر ونفتك بمن يعارضنا

فاستصوب رعين هذا الرأي وسرّ سروراً لا مزيد عليه وامل بنول مراره في الليلة القادمة واحسن الى الرجلين وصرّفهما ليتمما شغلها

ففضى الرجلان لشأهما ودخلا البرني على عادتتهما واقاما يشتغلان الى ان كان نصف الليل وحينئذ دخل لوقا الكرجاني لانه كان يأتي كل ليلة تقريباً ليناظر على الاعمال . وكان معه مفتاحان اللابيين المذكورين فيقفلهما كلما دخل

فاستغتم جبور فرصة التهاء الناس به وتسلل بخفة وقصد تجريب المفتاحين الجديدين ففتح الباب الاول الداخلي وتقدم الى الباب الخارجي وادخل المفتاح في القفل فجاء طبق الاصل ففتح الباب

وفي تلك الدقيقة رأى على ضوء مصباح ضعيف معلق في سقف الدهليز شبهاً بشرياً آتياً نحوه . فارتاع واراد ان يدخل فصاح به الرجل قائلاً من انت قل ما هذا السؤال . واحد من المشاعلية

- وما تصنع هنا

- يا اخي ان كان الكذب مهلكة فالصدق منجاة . رأيت الباب مفتوحاً فسوّل

لي فضولي ان اعرف الى اين يخرج منه

- أما تعلم ان البارون لا يحب الفضولي فادخل الى عمك ولا تعاود هذا الفعل

القبیح . فدخل جبور ولم يدركه

ومن غريب الاتفاق ان الرجل المذكور كان القوقلي نفسه . اتى تلك الليلة ليبلغ مولاه ما عمل من التدابير الاخيرة بشأن البحث عن رعين فسأل عنه في القصر فاخبره قين انه في البربي فتبعه ورأى جبوراً على ما ذكرنا فقال في نفسه يلوح لي اني رأيت هذا الانسان مرة . وتقدم وراءه بعد ما دخل واجال نظره في الجموع فوق حالاً على ابي زرزور ذلك الجبار الذي اذا رآه الانسان مرة لا ينساه طول حياته . وكان القوقلي لم يدخل البربي من حين دخل جبور وابو زرزور في الخدمة . ثم نظر الى الرجل الذي كان على الباب فعرف انه رفيق الجبار الذي طعنه تلك الطعنة في ليلة الولىمة . فاكفهر وجهه وجعل يهتهم وقد داخل قلبه ان وجود هذين الرجلين هنا ليس عن عبث لانهما من اتباع رعين الزهري

وحينئذ تقدم الى لوقا واخذه على انفراد واخبره بما كان آتياً لاجله ثم قال له أتعلم يا سيدي ان في هذا المسكان خيانة . فاضطرب لوقا وقال كيف يكون ذلك وانا على يقين من كل شخص في خدمتي - كلاً لست على ثقة من نفسك فاني اعرف هنا رجلاين جاسوسين خائنين من

اتباع رعين الزهري

فأربد وجه لوقا وظن ان عقله فارقه وقال ويك ابن هذان الرجلان داني

عليهما في الحال

- أمر ان تُسدَّ كل المنافذ ولا يبرح احد من مكانه

فاصدر لوقا امره النافذ ثم اشار القوقلي الى جبور وابي زرزور وهما غافلان عما جرى وقال هذا القزم وذلك الجبار . فقال لوقا يا للعجب كيف يكون ذلك وانا ارى

منهما غير حارة وهمة عالية في الخدمة وفي عزمي ان ارقبهما وازيد اجرهما

- لا يعرفك ظاهرهما يا مولاي في بينات واضحة تثبت انهما خائنان وان شئت

فمر بالقبض عليهما وسل كلاً منهما على انفراد . فامر لوقا بان يقبض عليهما ويقيداً

فتقدم ستة رجال الى الجبار وهو ملتئ بهمليه وطرحوه على الارض بقتة واوثقوه وثاقات

شديدة . وتقدم ثلاثة الى القزم وشدوا وثاقه

فتمعجب الحاضرون من هذا الحادث الفجائي وصاروا يتساءلون واتقطعوا عن العمل وقامت لهم ضوضاء عظيمة

ثم جلس لوقا وامر بسكوت تام وان يقدم اليه جيور اولاً ليستنطقه فلما حصل المسكين بحضرتيه جثا على ركبتيه وصار يبكي ويتنصل ويسترحم . واخذ لوقا يسأله اسئلة مختلفة وهو يجيب عن كل سؤال بما ينفي عنه الشبهة . وبكثرت السؤالات والحذق في الاستنطاق تبين للوقاشي من الحقيقة لانه عرف انه كان مقيماً في البربي حينما كان مهجوراً وشعر انه هو الذي احدث له تلك التهاويل والذي عثر على رعين في الصهريج وخلصه وعالجته ثم صار خصيصاً له ودخل في جملة المشاعلية ليتجسس له . كل ذلك شعر به بمجرد فطنته وان كانت الدلائل مبهمه وكان الرجل مصرّاً على الانكار

ثم امر بتقديم الجبار وسأله فلم ينطق بكلمة لانه خشي اذا تكلم ان يزل لسانه بشيء وقال في نفسه ان كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب فلما يس لوقا من اقرارها بمجرد الاستنطاق لجأ الى واسطة فعالة علم انه لا يخيب بها من الوقوف على الحقيقة . فامر ان يُنقر في الحائط قرناً طوله ست اذرع وعرضه ثلاث وعمقه ذراع وامر ان يوضع فيه ابو زرزور ويُسَدَّ عليه بالحجر والطين . فبادروا الى الاجراء وشرعوا في البناء الى ان بلغ عنقه فشعر المسكين بشدة الخطر وضاعت نفسه وتعسر نفسه فصاح الصنعية الصنعية . اقولوني بغير هذه الطريقة هذا عذاب لا يطاق . فقال له لوقا أنتكلم اذا سئلت قال نعم اعترف لك بكل ما اعرف على ان تفرج عني فاني اختنق . قال فانا اصبر عليك خمس دقائق حتى تستجمع افكارك وتذكر الحوادث المزمع ان تقررها

ثم تقدم لوقا الى المكان الذي ألقى فيه جيور وكان بعيداً عن مكان رفيقه بحيث لم يسمع ولم ير شيئاً مما جرى . وهناك اصدر الامر ان يجر المسكين الى المقطع (وهو آلة كبيرة من حديد مؤلفة من قطعتين تقع الواحدة على الاخرى بواسطة دولاب متين وفي العليا مقطع من فولاذ حاد لقطع السبائك) فأخذه وطرحه تحت ذلك المقطع الهائل . فقال لوقا الآن أسألك فكلمنا اجبت جواباً غير مرضي ينزل المقطع

شيئاً الى ان يبلغ عتقك فاذا بقيت منكراً فهناك آخر دقيقة من حياتك . فارتعدت فرائص
جبور وما عرفت كيف يتخلص من هذه الورطة الوخيمة

فقال له ألت تعرف المركز زرعينا الزهري . فسكت متحيراً فأنزل المقطع الى
ان قارب رقبته . ثم قال ألت هنا جاسوساً لرعين الزهري . فلم يجب ايضاً وازداد
حيرة وصار يتامل . فأنزل المقطع الى ان مس رقبته وجرحه جرحاً خفيفاً . فصاح
ارحمي ياسيدي ذقت العذاب . اعترف بكل ما تريد فلترفع عني هذه الالة الشيطانية .
فامر لوقا برفها وقال أتعرف رعيناً وانت هنا جاسوس له وتعرف مقره . قال نعم .
ثم اخبره بحقيقة التدبير الذي دبره رعين وأنه يأتي في الليلة القادمة ليدخل القصر
ويقضي مراده

فحضر لوقا حينئذ وسأل ابا زرزور كما سأل جبوراً فافاده نفس الافادة فتحقق
من مطابقة قراريهما انه وقف على الحقيقة . فعاد الى جبور واتفق معه ان يستنظر
رعيناً هو ورفيقه في الميعاد . وان جماعة من اصحاب لوقا يكمنون له فيقبضون عليه
حال وصوله . واخيراً قال له اذا خطر لك ان تخونني فتأكد انك لست ناجياً من
غائتي على ان الكمين الذي اقيمته يتكفل بملاحظتك وملاحظة رفيقك وان انت
سلكت معي مسلك الوفاء فجزائك فوق ما تمنى وانت تعلم مقدار سطوتي ونفوذتي
ومقدرتي . واما البراءة التي قيدتك بخدمة رعين فليست ذات شأن اذا كنت في
خدمتي فاني قادر ان اريك كل بأس ومع ذلك تقدر ان تحصل عليها متى صار رعين
في قبضتي وامنحك فوقها كل ما في بيته

قال انا على كل حال بين يديك ولا بد ان المركز يصير في قبضتك في الليلة
القادمة نصف الليل

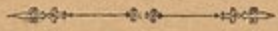
فبينما لوقا واصحابه كامنون في الوقت المذكور وجبور وابوزرزور قرب الباب
الصغير جالسان لا يريان كلاماً ولا حركة والظلام مدهم بحيث لا يرى الانسان
آخر على قيد ذراع اذا بصوت وطء قد سمع من بعيد فقال جبور هوذا الرجل مقبل
هلك ونجونا فاجاب ابوزرزور . ان شاء الله

ولم يزل ذلك القادم يتقدم الى ان بلغ المكان فوقف على مسافة خطوتين من

الباب . وكان الباب قد فتح قليلاً وخرج شخص بخفة وجلس بين جبور وابي زرزور . فتكلم الشخص القادم وقال أهنا صاحبانا يسمعان كلامي واراد جبور ان يجب واذا بيد الشخص الذي جلس بجانبه قد وضعت على فيه وقال انا جبور ورفيقي بجانبني نسمع . وكان صوت الشخص المتكلم صوت امرأة وصوت المجاوب صوت لوقا الكرجاني . فقال لها ما انت الشخص الذي تنتظره

- لا . لانه لم يقدر ان يخرج هذه الليلة فارسلني اخبركما حتى لا تنتظراه
- لاي سبب لم يقدر ان يأتي
- سقط عن السلم فكاد يتكسر ولزم سريره
- أينجو من هذه السقطة
- نعم على ما اخبر الطيب لكن لا يقدر ان يخرج قبل اسبوع
- ومن انت ايها المرأة
- جارة امرني الطيب ان اسهر عليه تحت اجرة مرضية
- وما الداعي لمجيئك انت دون احد خدمه
- خدمه غرباء في هذه المدينة لا يعرفون المسالك ورأيت ان اخلااله بالوعد اقلقه فاستأذنته بقضاء هذه المصلحة فاذن لي ووعدني بدينار
- وكيف نعمل الآن ونحن في غاية الاحتياج ان تقابله ونكلمه
- قل لي ما اردت وانا اخبره حرفاً بحرف
- هذا لا يمكن لان المسألة سرية لا يمكن ان يطلع عليها احد غيره ولا غنى عن ابلاغه ما في فكرنا
- فغداً تذهبان وتكلمان
- لا يصح الا في هذا الليل والا كانت العاقبة وخيمة
- فكيف التدبير وبلي
- لنا طريقة سهلة . فاذا رجعت فاتركي الباب مفتوحاً واعلميه ان خادميه الامينين جبوراً و ابا زرزور قدامان اليه لمصلحة عظيمة الشأن ونحن نقرع باب الدار ثلاثاً
- وانا ابادر وافتح لكما

- حسناً ففعلين وسينالك من ذلك فائدة حسنة فارجمي حالاً واعلميه
فكصت على اعقابها لا تلوي على شيء وقد تحققت وقوع العوائل



الفصل الرابع والخمسون

« تمة البحث »

عرفنا في الفصل السابق كيف اتصل لوقا الكرجاني بأبحاثه الى معرفة مقر رعين
الزهري والعزم الذي عزمه بواسطة هذه المرأة من الهجوم على دار رعين والفتك به
وكانت المرأة المذكورة هي نفس الغولة الداهية الكبرى . فقد بقي علينا ان نشرح
هنا كيف اتصلت هي ايضاً الى معرفة رعين ولأى سبب اتت دونه الى الميعاد . كل
ذلك من غرائب الاتفاق

ذكرنا في فصل سابق ان الغولة افلتت من يد الدرك بخيانة من لقي جزاء خيائته
وجرت تعسف في ذلك الليل الهادي وهي ذاهلة من شدة خوفها . وبعد نصف ساعة
من العدو اعيها التعب فجمت امام بيت لا تعرف في اي شارع هو ومكثت في
مكانها الى الفجر تتأمل في احوالها فلا تجد الا تعربساً في افكارها . وقامت صباحاً
تسعى في طلب حنة لانها لم تدر ما جرى عليها وقرب الظهر شعرت بألم الجوع ولم يكن
معها فلس فصارت تتسول . وبقيت مدة تقاسي اشد عذابات الجوع والوني حتى هزل
جسمها وانحطت قواها وهي هائمة في انحاء باريس

فاتفق يوماً انها كانت جالسة عند الحاجز البولسي قرب القصر الذي كان يسكنه
لوقا الكرجاني وهي تنن وتناوه وقد خيم الغسق . فسمعت قائلاً يقول لها من انت ابنتها
المرأة المتألمة

- امرأة خانها الدهر وتطلب الموت فلا يأتي
- وما اصابك من الاحزان
- اشد الاوجاع الحاضرة . فلبيتي الوحيدة الآن هي الجوع
- عجباً أمن الجوع تظنين انك تموتين وانت في قلب باريس

- لو كنت في قرية حقيرة لاغانني اهلها عن السؤال وانما مصيبتني لاني في مدينة
تضيع فيها الوف من المتسولين
- فما عليك بأس فانا اتقذك
- مالي وللحياة بعد . اذا اتقذتني اليوم اموت غداً . آه ما اصعب لقمة التسول
وما امرها . فدعني وشأني ايها الفتي فاموت بسلام
- لا اتركك ايتها المسكينة وما ارسلني الله اليك الا لاخلصك فقيمين عندي
واغنيك عن مهنة السؤال لاني واسع الثروة جداً والقي تعزيتي الوحيدة في هذه الدنيا
الاحسان الى المحتاجين
- أما تعلم ان الانسان ثقيل ولو عند ابيه
- لا يهملك هذا فان استقلت نفسك فان عندي عملاً تستحقين به اجرک
- وما الذي اقدر عمله وانا على ما ترى
- تكفيني صلواتك
- فضحكت الغولة في نفسها حتى كادت تبجر بالحقبة . ثم قالت وما استطع مشياً
فكيف امضي معك
- يكفي ان تقني وتسندي الى ذراعي والا فانا احملك اذا لم نجد عجلة اجرة الآن
فهضت بريقة ممسكة بيديه ولم يأنف هذا المحسن من ان يضع يده الواحدة
تحت يديها ويده الاخرى على كتفيها ويماشيها برفق وحنو كأنها أمه
- وينما هما ماشيان وصلا الى مكان فيه فانوس معلق لانارة ابناء السبيل فنظر الرجل
الى بريقة ورأى على وجهها ذلك البرقع الاسود الكثيف فقال لها لم التحجب ياخالتي
وخصوصاً في مثل هذا الوقت
- لانك اذا رأيتني ترتاع ولو كان قلبك كالحديد
- من اين تعلمين اني ارتاع فاذا كان مشوهاً فهو يدعوني الى الشفقة
- لا تقدر ان تتحاشى الخوف وان كنت في ريب فتفرس
- قالت هذا ورفعت النقاب عن وجهها ونظرت اليه فرأى كل منهما الآخر وخرج
من كل منهما صوت شديد وارتجفا . فاما صوت الغولة فدل على اندهاش واما صوت

الرجل فعبّر عن شدة تأثره الخفيف من منظرها. وقالت بريقة على اثر ذلك. يا للعجب ماذا ارى . اما انت المرکيز رعين الزهري . بلى انت هو بعينه . وا طر باه

وكان سبب هذه المصادفة ان رعيناً كان قد اتفق مع جبور وابي زرزور ان يوافيهما في الليلة التالية لليلة مقابلهما اياه الى باب الحظيرة ليخلاه به منزل الشيطان كما مرّ . فقام ثاني يوم وقضى نهاره وهو يتعلّى على نار الانتظار وما كان يصدق ان تلك الساعة تأتي لينال اربه من لوقا الكرجاني . وضاق صدره العصر حتى لم يطق المكث في منزله فخرج قبل الغروب بساعة ملتقاً بكساء كبير له قبع طويل ستر به نصف وجهه وجعل يتمشى في ازقة باريس على غير هدى حتى اوصلته التقادير وقت العشاء الى المكان الذي وجد فيه بريقة

فلما سمع كلامها الاخير اخذه العجب وقال من اين تعرفيني ايها المرأة . قالت كيف لا اعرفك وانا ابحت عنك منذ ايام ولولا املي بلقائك اتفاناً لما اردت البقاء

- هذا اعجب وما غرضك من وجودي

- آه غرض كبير يا سيدي غرض ليس اعظم منه غرض . فعلى وجودك تتوقف حياتي وسعادة ايامي . آه يا اله السماء ما اعظم قدرتك ما اجل اسمك العظيم . كنت اكفر بك ولا اعترف بجلال مجدك . والآن قد انسحق قلبي خشوعاً بعظيم رحمتك . افضت عليّ نعمتك وانا ضالّة . انتشلتني يمينك وانا غارقة في لجة كفري . اغفر لي يا الله اغفر لي ولا تؤاخذني بآثمي وها انا اجثو لدى جلالك العظيم واسبحك واشكرك وبارك اسمك القدوس

هذا الكلام قائلته بريقة من فؤاد صادق وركعت ورفعت يديها الى السماء وتلت صلاة شكر شديدة التأثير . فقال رعين في نفسه حقاً ان هذه المرأة مجنونة

فلم تسمع بريقة كلامه لكنها فطنت لما في ضميره فقالت كأنها سمعته . لا تظن ايها الفتى اني فاقدة العقل وستضح لك الينبات

- فخذني يدي وانهضي لنمضي في سبيلنا

- ماذا تقول . آخذ يدك . اتظن ان احتاج الآن الى معونة . عاد اليّ نشاطي واضمحت كل احزاني واتعابي والبرهان ما ترى

ووثبت قامة على اقدامها كأنما أنشطت من عقال وتمشت بخطوات ثابتة حتى بقي
رعين ذاهلاً وهو يقول ما ادري أحقيقة أرى ام اضغاث احلام . ارى بعيني وعقلي
لا يصدق

- لا تذهل ولا تندهش ايها المركز فاذا ظهر السبب بطل العجب
- ويالك منذ دقيقة كنت تنجربين كالهزيمة الفانية فكيف عاد اليك هذا النشاط
- بمجرد وجودك اعاد الي الحياة والنشاط
- فحقاً انت تبحثين عني فما تطلبين
- اريد ان اوصلك الى نعيمين هما اعظم وألذ نعيم في الدنيا ولولا وجودي ما
حصلت عليهما طول الدهر

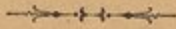
- ما عسى ان يكونا
- وصال الحبيب وادراك النار
- ايها المرأة تسخرين بي ام خدعتك نفسك . ليس لي في الدنيا أعدو واحد
وحيدة واحدة وما اخالك تعرفينهما
- افق على نفسك . واعلم انك انت المخدوع في نفسك لا انا . اسمع وعِ قولي .
الرجل الوحيد الذي تطلب الانتقام منه وانا اسلمه اليك هو البارون لوقا الكرجاني والفتاة
الوحيدة التي تذبذب وجداً لاجلها ولا تستطيع الوصول اليها الا بي هي السيدة حنة
الشمسية . أفهمت الآن وعلمت اليقين

فلما سمع رعين هذا الكلام شعر بخفقان كاد يشق صدره واعتراه ذهول كاد
يذهب بعقله لانه كان يعتقد ان ليس في الدنيا بشر مطلع على اسراره فصاح كلما خوذ
وقال . باسم الله الحي . اقسمت عليك باسم الاله الحي ايها المرأة الا اخبرتني من
انت أمن البشر أم ملاك من السماء

- ستعرف ايها المركز ستعرف قريباً وتصيب علي لعنتك وتقمتمك وبركتك
ورحمتك معاً لان الشر الذي عملته والذنب الذي ارتكبته لا يقدر احد في الدنيا ان
يعيدها صلاحاً غيري . واما الآن فلا استطيع الكلام فأسرع بي الى منزلك لأمسك روقي
فتقدما نحو مئة خطوة واذا بالغولة سقطت متلاشية برد الفعل لان تلك القوة التي

حصلت عليها تلاشت بخمود سببها . فاتفق مرور عجلة من هناك فركبها ولما وصلا الى البيت اغمي على الغولة من شدة فعل الجوع والتعب فبادر رعين الى تلافى الامر وامر خادمه ان يضع على النار مرقاً وخمراً ثم سقاها شيئاً من الارواح المنعشة ولما سخن المرق فت لها قليلاً من الخبز فساكت وكانت قد استفاقت بفعل المنمش . وشربت شيئاً من الخمر فتقوت

وحينئذ قالت له الآن استطيع ان اتكلم لكن اشرط عليك ان تملك غضبك ولا تصب عليّ تهمتكم . لثلا تتقد ما تامل الحصول عليه فحياتي ازم لك من الطعام ثم جعلت تقص عليه اخبارها مع لوقا وقينة وحنة بوجيز العبارة وهو يتلظى غيظاً ويكاد يبطش بها لكنه يملك نفسه صابراً الى النهاية . واخيراً اخبرته ان حنة في الحياة لكنها مجنونة . فكاد صوابه يطير . فسكته وقالت ما في هذا بأس لاني انا صنعت الدواء الذي اورثها الجنون وقادرة ان اصنع ضده فتعود الى عقلها الطبيعي . غير انه قلق قلقاً شديداً لانها لم تعرف مكانها فريحت فكره بقولها ان الله القادر على كل شيء الذي دبر كل هذه الامور بحكمة سامية وعاقب المجرمين العقاب الذي يستحقونه وخلص حنة من كل المهالك التي عرضت لها قادر ايضاً ان يوفقنا الى لقاءها



الفصل الخامس والخمسون

« آراء الغولة وتديرها »

بعد هذا الحديث الطويل اصفي رعين نيتة لبريقة كما اصفت له نيتها وقالت له لست اطلب الحياة منذ الآن الا لغرضين عظيمين الوفاء لك والانتقام من لوقا اللعين فقال لها ابشري من جهة الغرض الثاني ففي هذه الليلة يكون ما تطلين

- ما مرادك بهذا الكلام
- مرادي اني في هذه الليلة اقبض على لوقا
- عجباً وبأي طريقة
- ادخل قصره غير خائف كثيرة جنوده الليلية

- اخاف عليك ايها المرکز . اتبذل نفسك للهلكة
- ليس ما يخشى فقد اتخذت الاحتياطات الكافية

واخبرها بما دبر جبور وابوزرور . فبقيت محتارة تراجع افكارها ثم قالت له
اقسمت عليك بحياة حنة يا سيدي ان لا تخاطر بروحك . فان قلبي يحدثني بمكيدة .
لا تستخف ايها المرکز بدليل القلب واني اخبر الناس بلوقا الكرجاني فلا بد ان يكون
قد نصب لك شركاً ولا اتكل على مروءة صاحبك فقد يتفق لهما ما يضطرهما الى اباحة
سرك فتقع في اسوأ العواقب

وكان رعين يتوسم الجدة والحذق والتعقل في كلام بريقة وهيئة وجهها غير انه بقي
متردداً فقالت له اذا لم يكن بد من ذهابك هذه الليلة فلا ادعك تذهب وحدك .
اركب واياك عجلة ويصبحنا خادمك فتقفان على مسافة بعيدة من الميعاد واذهب انا
بنفسي فارى ما يكون هناك . فان صادفت نجاحاً كان خيراً والا فما حياتي بنافعة فافديك
بنفسي لان حنة في غاية الاحتياج اليك ولا تطبيق البقاء بعدك

- فاذا صادفت فشلاً ووقعت في مهلكة فاذا استفيد من حنة وهي مجنونة

- هذا لك به حق فالآن اكتب لك رقعة فيها وصف الدواء الذي يعيد اليها
عقلها تاخذ بطاقتي الى الصيدلاني فيركب لك الدواء ويضعه في حنجر بلور فتلقي منه
قطرتين على جبينها وتفركه وتنشقها رائحة الدواء ملياً فيزول جنونها في برهة قصيرة .
هذا اذا اتفق لك وجودها واسأل الله ان يقدر لك الخير بسلامتها

- فالآن اجيبك الى صحبتي وقد زادت ثقتي فيك

ولما كان نصف الليل ركبنا العجلة وصحبهما الخادم وصارت بريقة توصي رعيناً
بالتحفظات الواقية اذا دُهمت . ووصلت المركبة الى عطفة في شارع الاساورة فامرت
بريقة ان تقف هناك وتنتظر . ثم تقدمت الى ان بلغت باب الحظيرة وجرى بينها
وبين لوقا ما تقدم ذكره

وعادت الى رعين مضطربة الحواس واجفة الفؤاد مما هم به ذلك الخبيث .
فقصت عليه خبرها معه واعلمته بما دبر من الخيلة للفتك برعين . ثم قالت له ارايت ان
ظني اصاب موضعه ولولا ذلك لكنت الان مهتماً بين مخالب اولئك الذئاب . والآن

يجب ان نبادر الى الفرار لانهم بعد ساعة يهجمون على منزلك قال فما الداعي الى الفرار
عندي في منزلي اسلحة كثيرة تقدر ان تدافع بها دفاع الابطال فنردّهم عنا خاسئين
- هذا ضرب من الجنون هل يقدر اثنان على عشرين . وضعيفان يغلبان قوياً
- فرأيتك ان اخلي لهم المكان يفعلون فعل الاوباش الانذال
- هو ما تقول على ان تنجو بنفسك « ليس المخاطر محموداً ولو سلما » فاذا ذكر هل
لك شيء ثمين تريد تخلصه من عين وورق ونحو ذلك

- نعم نعم . وعلى الخصوص البراءتان فاجلسي هنارثما ادخل غرفتي واقضي حاجتي
فعمدت بريقة ترقب في ذلك الظلام الحالك ودخل رعين غرفته وقضى ما عن
له وعاد في اقل من ربع ساعة . وقال لبريقة ما نعمل الآن قالت تسعى في وجود
فندق تبنت فيه هذه الليلة وغداً نستأجر بيتاً موافقاً
- لكن قبل ان نمضي احب ان ارى هؤلاء اللصوص واقف على اعمالهم
- لا بأس فنذهب بالمركبة الى عطفة الشارع وتقف هناك نراقبهم
- نعم الرأي

و بعد نصف ساعة من وقوفهم هناك اقبل نحو باب الجنيئة ثلاثة رجال فعرف
رعين صاحبيه القرم والجبار من شكلهما وان رفيقهما لوقا الكرجاني طبعاً . ثم اقبل وراءهم
رهط آخر ثم رهط ثالث فقدر رعين عددهم فوق الخمسة عشر
ولما بلغ لوقا وصاحباها الباب قال لجبور انظر هل هذا الباب مفتوح فتقدم وجسه
ودفعه فانفتح فقال لوقا حقاً ان تلك المرأة صدقت . « انجز حرثاً ما وعد » ثم قال للقولي
ابق هنا انت والجماعة راصدين ودخل هو وجبور وابوزرزور وبلغوا باب الدار فدفعه
جبور فانفتح فتعجب لوقا وقال عملت المسكينة اكثر مما طلبت اليها ولكن لا يكون
جزاؤها الا جزاء سنار خوفاً من وشايتها اذا طلع النهار

دخلوا الدار فوجدوها تتلألاً بانوار ساطعة كأن هناك وليمة وافراحاً وعلى علم لوقا
ان رعيناً طرح الفراش فما الداعي لكل هذه الانوار . فدخل لوقا القاعة فوجد انوارها
اشد سطوعاً فاحترار وخصوصاً لانه لم يجد احداً ولا سمع ركراً (١) فتجول في انحاء

(١) الزكر الصوت الخفي

القاعة فاستمال نظره مغلف كبير موضوع على مائدة في وسط القاعة فتقدم ونظر فارتعش بدنه . رأى على المغلف هذا العنوان « برسم البارون الكرجاني » فهاله هذا الاتفاق الغريب وهذا السرّ العجيب وقال ما ترى يكون هذا . رسالة باسمي في هذا المكان يا للعجب يا للحيرة . ثم شقّ المغلف ونشر البطاقة التي فيه وقرأ ما يأتي « طبعاً أيها البارون لا تستطيع ان تقتلني هذه الليلة وعسى الله ان يجمعنا وسيفعل » (رعين)

فذهل لوقا عند ذلك وقال من اين عرف هذا الساحر . حبط المسعى وخاب الرجاء . فلا بد ان يكون للشيطان دخل في هذه المسألة وتقدم رفاقه وسألوه ما الخبر فلم يجب بكلمة واخذ قنديلاً وصعد السلم الى الطابق العلوي وطاف كل المقاصير بسرعة غضوب فلم يجد دياراً وفي هذه الفترة تقدم جبور وابوزرور الى خزانة رعين التي كان قد وضع فيها البراءتين وكسرا القفل وقتشا فلم يجداها فالتفتا الى الموقد فرأيا آثارها محترقة وذلك لان رعيناً حسب هذا الحساب فرقهما وطرحهما في النار ثم عاد لوقا الى القاعة مكسوف الوجه متقد العينين خافق القلب من هذه الحادثة الغريبة التي لم يدرك كنهها ولا اعتقد صحتها بوجه طبيعي . وقال لجماعته هيا بنا نخرج من هذا المكان المسحور والا سقط علينا سقفه وابادنا . واخاف فيه مكيدة شيطانية فتقهقر الجماعة مذعورين وقد اربعهم كلام لوقا وازدحموا على الباب ليخرجوا . والسابق الناجي

وبقي لوقا وحده حائراً فقل في نفسه يجب على الاقل ان ابقي هنا اثرأ مشوماً ولا ادع رعيناً يتمتع بتمام السلامة

واخذ الشمعة وادناها من سجوف الشبايك واشعلها فلأ لهيها القاعة في اقل من دقيقة وخرج عاجلاً فاتصلت النار بنخشب السقف فاحترق وامتد الحريق في أنحاء ذلك المنزل . واسرع الى اصحابه وعاد بهم الى منزله . واما رعين فجرى بمركبته في غير طريق وقد شاهد بعينه احتراق بيته

وترا كض الناس حينئذٍ وهم يتصاحجون النار . النار . لكنهم لم يستطيعوا اطفاءها الا
بعد ان تردم المنزل وذهب ما فيه ضياعاً

الفصل السادس والخمسون

« صورة حنة »

ثاني يوم الحريقة استأجر رعين يتناً صغيراً في عزلة عن بيوت الاشراف لكي
يخفي فيه نفسه الى ان يدبر الله ما يفتح له باب الرجاء . واقام مدة هو والغولة يترقبان
الاحوال ويتنسمان الاخبار عن مكان حنة . وسيراً في انحاء المدينة جماعة مخصوصين
يسعون سرّاً في التنقيب وبذل لهم رعين المال الكثير . وكانت بريقة ايضاً لا تكلّ
ولا تملّ من البحث . ومضت عدة ايام ولم يظفر احد بطائل . فضاقت صدر رعين حزناً
ولقي من الهم ما انحل بدنه وحط قواه واعتزته حتى مطبقة بضعة ايام حتى وهن ضنيّ
واضطربت افكاره وجزعت نفسه

ففي ذات يوم بمد ان فارقه الحمي واخذ في التقه قالت له بريقة ايها المركيز كل
ما تعمله ليس بصواب ما ارى التعب الا ذاهباً سدّى فان الذين يبحثون لا يمكنهم
ابداً الوقوف على اخبار حنة وقد يفتق لهم ان يصادفوها في الطريق ولا يعرفوها فما
بقي لنا الا طريقة واحدة اذا صحت فزنا باذن الله . والطريقة المذكورة هي ان نحصل
على صورتها ونريهم اياها حتى اذا رأوها عرفوها من ملاحظتها . فهل تستطيع هذا

قال نعم معي صورة حنة اذا اغنت فيا حبذا . واخرج من تحت طوقه تلك
الصورة التي نقل عنها صاحبها المصور النسخة التي اعطاها لقينته وهو يعتقد انها حنة .
وقدمر ذكر ذلك في مكانه

فاخذت بريقة الصورة وتأملتها وقالت واسفاه ايها المركيز هذه صورة حنة في
عزها ومجدها وكمال بهائها وروثي جمالها فاين المشابهة بين هذه الصورة وهيئتها الحالية
نحيلة كاسفة اللون شاردة النظر زرية اللباس محتلة النظام حزينة الهيئة . فهل تعرف احداً
من حذاق المصورين قال نعم اعرف صديقاً نسخ عن هذه نسخة مطابقة لها كل
المطابقة قالت فاذهب اليه اليوم واطلب اليه ان ينسخ عنها نسخة مكبرة بحيث تكون

في قدر الجسم الطبيعي لكن لا على مثال هذه الهيئة بل يجب ان يغيرها بحسب ذوقه
وحذقه في صناعته حتى تقرب من هيئة حنة في هذه الايام فاذا اراد الله امرأ فهذه
الصورة هي الوسيلة الوحيدة

فقام من ساعتِه ومضى الى منزل المصور المذكور واخبره بمراده في حديث طويل
وبينما كان رعين يتكلم ويصف له الهيئة المطلوبة من الصورة كانت علامات
الاندهاش تظهر على المصور حتى اعتراه الدهول فقال رعين مالك يا صاحبي مبهوتاً
قال اتفاق غريب . تعال وانظر ولا تسألني

ثم اخذه بيده وادخله غرفة وتقدم الى حائط معلقة عليه صورة كبيرة مغطاة
بملاء سوداء فديده وكشف الملاءة وقال انظر يا اخي

فالحالما وقع نظر رعين على الصورة ارتعش كل بدنه وتغيرت الوانه وتضاعف نبضان
قلبه وقال بجمياتك يا اخي قل لي من اين لك هذا المثل قال نقلته عن فتاة ولم اغير
عن الاصل شيئاً

- أرايتها هذه الفتاة وهي موجودة الآن
- رأيتها بعيني نعم وجلست امامي يومين على الحالة التي تراها فيها الآن لكن
واسفاه الجسم موجود والعقل مفقود
- يا للغيبة واين هذه الفتاة الآن
- في المارستان تقاسي انواع العذاب

فلما سمع رعين ذلك خائته قواه وما استطاع ان يملك نفسه فصاح صيحة شديدة
وسقط مغمى عليه . فاضطرب المصور وتعجب غاية العجب وبادر الى المنعشات
والمفرحات ونشقه ملياً حتى استفاق وسكن روعه قليلاً قليلاً

ومن غرائب الاتفاق ان هذا المصور كان يتطلب الطرف ليشكل انموذجات
صناعته فطلب يوماً دخول المارستان لعله يصادف مثلاً يوافق مطالبه فاتفق انهم
اروه حنة الشميسية فتعجب جداً من حالها ونسخ عنها الصورة المذكورة . فلما حصل
لرعين ما حصل ورأى ما بينها وبين الصورة التي معه من المائلة الطبيعية تذكر ان هذه
محبوبته التي علم بحسرتِه عليها وقد ظن انها ماتت . ومع ذلك لم يكشفه رعين بحقيقة

حاله بل قال . يا اخي قد صار لي شوق شديد جداً ان ادخل المارستان وارى هذه
الصبية فقال له مالك وما لدخول هذا المكان يا اخي فهناك مناظر تقشعراً منها الابدان
وتسيل النفوس كمداً

- لا بد من ذلك وليكون ما يكون
- لكن اظن انه لا استطاع لاحد الدخول الا باذن خاص
- قل لي ممن التمس هذا الاذن ولو كلفت مالاً وجيلاً
- الاذن يطلب من الناظر العام غير انه يكن لي ان اخفف عنك بعض الثقلة
- يا حبذا فتحملني جيلاً فوق جميل فهل لك من واسطة سهلة
- يلني وبين الناظر صداقة اكيدة ولي عليه دالة عظيمة فبمجرد حضوري تدخل
بسهولة فاذا لم يكن بد من ذهابك فانا اصحبك
- الف شكر لفضلك يا سيدي واخي العزيز على اني اوثر ان اكون وحدي ولا
يشاركني احد في تلك الاحزان المتأنية عن المناظر الكثبية فأخفف عنك هذه الثقلة
والتمس منك تذكرة لصاحبك فيسمح لي بالدخول
- حباً وكرامة . متى تريدها
- في هذه الدقيقة فقد فرغ صبري . لكن احب ان لا تصرح باسمي بل تقول
له رجل شريف من اصدقائي يلتمس دخول المكان والتجول فيه ما اراد
فأخذ المصور ورقة وكتب عليها بضعة اسطر واعطاها لرعين ودله على المكان
الموجودة فيه صاحبة الصورة
- فادى اليه واجبات الامتان وفروض الشكر وخرج طائر الفؤاد فركب فرسه
وسار ينتهب الطريق كالمجنون

الفصل السابع والخمسون

« المارستان العام »

هو منزل في باريس خاص بالنساء لكنه عام بالنسبة الى احوالهن فيضعون فيه
كل مصابة بمرض عقلي وعلّة بدنية وعجز شيخوخة ونحو ذلك . وكان في زمان مجرى

هذه الحوادث مكان عذاب وشقاء يضرب فيه المثل في شدة أهواله وسوء
معاملة من فيه

وكان مؤلفاً من غرف عديدة ومطابق (١) لا تدخلها الشمس ولا الهواء النظيف
الناشف مظلمة كثيرة الرطوبة والعفن والروائح الكريهة كالتعبور تحت الارض . وكانت
الشراسة والجفاء والفظاظة والجور والعسف والضرب بالسياط والتغطيس بالماء البارد
ونحو ذلك من الاضطهادات اخص الوسائل التي قضى على اولئك المجنونات المتكودات
الخط ان يقاسين عذابها فكان يزداد وبالهن وبالآ وجنونهن جنوناً ولم يعرف ان
واحدة منهن خرجت مشفية من علمها ما لم يحسم داءها دواء الموت . يجار عليهن بهذه
العذابات الاليمة العنيفة وهن لم يجنين ذنباً الا ما قدره الله عليهن من فقد الجوهرة
الانسانية فلا يعقلن ما يفعلن ولذلك لا يؤثر فيهن تأديب

فكنت تراهن يرتعدن خوفاً امام الموكلين بهن لانهم لا يقابلونهن الا بأقبح
الشتم والسياط فصرن يمتنهن مقتاً شديداً . سايقة فيهن لا عن قصد . فاذا اتفقت
لهن فرصة الانتقام يظهرن فواحش الاعمال وكثيراً ما سفكن الدماء عند الاستطاعة
ولا لزوم ان تأتي هنا على شرح تلك الفظائع التي كانت النساء يفعلنها ولا العذابات
التي كن يقاسينها من . معاملة اولئك الخشنين الموكلين عليهن من رجال ونساء بل
يكفيها شاهداً ان نذكر بتلخيص ما جرى على حنة الشمسية حينما ادخلوها ذلك المنزل
الجهنمي القائم بادارته رؤساء الابالسة

لكن يجب ان نذكر اولاً حادثة هائلة كانت سبباً لتشديد الصرامة قبل دخول
حنة بيوم . وذلك انه كان من العادة ان يجعلوا على مناظرة المجنونات نساء شداداً
جافيات الطبع والجسد . فكانت كبراهن واشدهن بطشاً قد اقلت الرعب في قلوب
الموكلة عليهن وكان من جملتهن اثنتان متبتتا العضل شرستا الجنون ترتعد فرائصهما
عند مقابلة الحارسة المذكورة ففي ذات يوم تلصصت احداهما ووثبت على الحارسة من
وراءها وضربت بها بقطعة من خشب على رأسها ضرباً متوالياً حتى صرعتها واصابتها

(١) جمع مطبق وهو السجن تحت الارض كما ورد في اساس البلاغة للزمخشري . وورد
ايضاً في نواريز بعض الائمة كابن الاثير وابن خلدون

ضربة عنيفة على صدغها ففارقت الحياة . وحينئذٍ ثارت سائر المجنونات وصرن يهشن
شلوها ويخمشنه حتى تقطع

وكان مع الحارسة مفاتيح ابواب الدار ففتحن الابواب وخرجن هائمات وهن
يفتكن بكل من اتفق مروره في طريقهن الى ان قبض عليهن الجنود بعد ان قتلن منهم
واحداً . وكانت جملة القتلى بأيديهن ستة بين رجال ونساء . فأرسل ابن الشرطي شحنة
المدينة الى الناظر العام يعنفه على قلة اهتمامه . ويتوعده بالعزل والقصاص اذا جرى
حادث آخر مثل هذا فاستحضر الناظر للحراسة عوض النساء رجالاً كالوحوش الضارية
واعلن امره بالتشديد العنيف على كل مجنونة يظهر منها اقل نفور او شراسة وان التي
لا تستقر بالضرب تطرح في المطبق الى ما شاء الله

فثاني يوم وصل الجنود الى المارستان بثلاث نساء مجنونات منهن حنة الشميسية
اخذوها من حانة المعلم جرجور كما سبقت الاشارة . فخروهن بعنف الى داخل
المارستان وكانت حنة كالصم لا تنطق بكلمة ولا تبدي صوتاً ولا حركة . وكانت
الغرفة التي ادخلتها هي التي جرت فيها تلك الحادثة المريعة . والرجل الذي اقيم مقام
الحارسة التي قتلت كان من افطع خلق الله خلقاً وخلقاً قد يرحم الذئب الكاسر
فريسته واما هذا فلم يشعر في حياته بمعنى رحمة ولا شفقة . وكان في يده سوت متين
وفي منطقتيه قضيب مرن من الفولاذ يتخذه بعض الناس لقهر الوحوش الكاسرة في
المرايض الصناعية

وكان قد صمم النية من اول يوم دخوله ان يلقي اشدّ الرعب في قلوب المجنونات
حتى يصرن من نظرة واحدة منه يرتجفن خوفاً

فلما دخلوا بحنة قيل للحارس هوذا مجنونة تظهر وديعة لكن احترس « لا يفرك
النهر الهادي » ويكون مقرّها في الخدع الذي عدده ٩١٣

وقبل ان استقرت تقدمت اليها المجنونات كأنهن رأين عجباً فصاح بهن الحارس
مكانكن يا خبيثات . وكان صوته يدوي كالرعد . غير ان صياح المجنونات كان شديداً
جداً وقد التهن عن الحارس بحنة فلم ينكفئن . فتقدم اليهن حنقاً ورفع يده بذلك
السوط ونزل عليهن ضرباً متواتراً على اكتفاهن ووجوههن وحيثما اتفق له فتفرقن

مترا كضات وهن يعولن ويعوين كالذئاب

ولما شاهدت حنة هذا المشهد الهائل ارتاعت وصرخت وسقطت على الارض
رعدةً وضعفاً فقال لها الحارس وانت يا خبيثة تلقين السجس في المكان . لا وذبك
تأديباً . ثم رفعها يديه كالريشة وغطسها في جرن كبير مملوء ماء بارداً كذوب الثلج
فجعلت المسكينة تضطرب فيه والوحش واقف امامها مسروراً بظفره الى ان استرخت
وتلاشت قواها فرفعها من الجرن وطرحها على البلاط فاختلجت قليلاً ثم غشي عليها
وبعد ربع ساعة اقبل الطبيب حسب عادته ورأى حنة في تلك الحالة المحزنة
فجس نبضها وقال لا يجوز ان نترك هذه المسكينة فحالا انزعوا عنها هذه الثياب
المبللة والبسوها ثوباً ناشفاً والا فبعد ساعة تموت

وكان الناظر العام بصحبته فأمر بتغيير ثيابها وقال للحارس اذا رأيتها مستعصية
فادخلها المطبق واسترح من شرها قال هكذا كان عزمي

وبعد خروج الطبيب وانفاذ امره استفاقت حنة فأخذها الحارس الى مطبق مجاور
للمطبخ الذي فيه المجنوتان اللتان قتلتا الحارسة . وكانتا تصيحان صياحاً كالوحوش
وتقدفان اقبح الشاتم . فبقيت حنة ثلاثة ايام لا تذوق نوماً من شدة صياحها
وفي اليوم الرابع دخل اليها الحارس وجرها بيدها ليخرجها برهة فكأنها تأخرت
قليلاً فجرها بعنف الى آخر السلم

فلما رأت نور النهار واستنشقت هواء نظيفاً تنهدت ووقعت على الارض فانهضها
الرجل بجفاء وقال لا نجد بك نفعاً هذه الحيلة فلي لا تسلك حيلة ثم تركها فلم تستطع
وقوفاً لضعف جسمها وزحفت زحفاً الى ان حصلت في نور الشمس في دار المنزل
ونامت فبقيت مستغرقة في نومها عدة ساعات

وكان منظرها على اثر تلك الاهوال التي مرت عليها مما يفتت قلب الجواد حزناً
وعند الغروب قرع حرس المارستان اشارة الى دخول المجنونات منازلهن
لانهم كانوا يسمحون لهن بالخروج الى الدار العامة

وجرين على هذه العادة ان يدخلن حالما يسمعن قرع الجرس . فكان الحارس
الوحشي واقفاً على الباب يعدهن . فوجد اخيراً ان واحدة منهن لم تدخل . فصار

يبربر ويشتم واخذ السوط بيده وخرج الى الدار . فرأى حنة نائمة عند جذع شجرة فصاح بها قائلاً انت هنا الى الآن يا شقية أما عرفت القانون وكان نوم حنة حينئذٍ ثقيلاً فلم تسمع فاستشاط غضباً وعبس كالنمر الحردان ورفع يده بالسوط وضربها على جبينها ضربة كادت تغلغه فاجفلت مرتاعة وصاحت من الألم فقال لها بحتقه ألا تسمعين . اذا امرت فاطيبي حالاً ورفع السوط ثانية ليضربها فقامت وهي ترتعد فخانتها قواها وسقطت فازداد غضبه وتقدم فلف شعرها على يده وجرها كالحمل للذبح ووصل الى باب المطبق فقذف بها هناك واقفل الباب قائلاً هذا قبرك ومنه لا تخرجين

الفصل الثامن والخمسون

« نور الرجاء »

هذه كانت حالة حنة الشميسية بنت المجد والشرف بنت العز والدلال خطيبة المركزين رعين الزهري وفريسة البارون لوقا الكرجاني وبريقة الداهية يوم قصد رعين مقابلتها في المارستان الجهنمي

فلما وصل قابله البواب وقال ما يريد المولى . فناوله ديناراً وقال احبان توصل هذه الرقعة الى الناظر العام . فتعجب البواب اشد عجب من هذا الكرم الحاتمي واسرع كالبرق الى غرفة الناظر وناوله الرقعة فوجد فيها توقيع صديقه المصور . فقال للبواب اعتذر عني لهذا الشريف اني مريض لا اقدر ان اتشرف بخدمته واخبر المحافظ ان يصحبه حيثما طلب

ففعل البواب ما امره واتى المحافظ حالاً ومشى امام رعين قائلاً اي منزل تقصد يا سيدي قال منازل القسم الاولى فمضى به الى ان بلغا الدار وكانت المجنونات هناك حسب العادة فصار رعين ينظر ونفسه تضطرب من وجهه وقلبه يخفق من آخر . اثرت فيه تلك المناظر اشد تأثير وامله برؤية حنة بعد ذلك اليأس الطويل لاشئ قواه بازدهام الحزن والفرح معاً على قلبه

وبينما هو يجيل نظره و يتمشى رأى في طرف الدار امرأة جالسة ورأسها بين يديها وهي مطرقة الى الارض لا يظهر وجهها . فزاد خفقان قلبه وقال ان صدق دليل القلب فهذه هي بعينها . وتقدم الى ان وصل اليها فلم تنتبه فقال لها . حنة . حبيبي . انظري الي . فانتبهت للصوت ورفعت رأسها ونظرت اليه لكنها كانت كالصنم لم يظهر عليها دليل شيء من التأثيرات

فانصرف قلب رعين وضاق صدره حتى ظن انه مخنوق وشعر كأن روحه تخرج من جسده وصارت دموعه تجري كالنار وكاد الاتحاب يخونه ثم صار يحاول تسكين جأشه نحو دقيقتين الى ان استطاع الكلام فقال لها . حنة حبيبي الى متى تقاسين العذاب الاليم افرحي وتطب نفسك فيها انا بجانبك انا الذي ذاب قلبي لاجلك ولا ازال واقفاً حياتي على حبك . ألا تعرفيني يا حنة ألا تعرفين رعيناً خطيبك الذي سيوصلك الى أمك ويردك اليك النعيم

فلما سمعت حنة كلامه الاخير اختلجت وقد انتبهت ذاكرتها الطبيعية بذكر أمها ورعين وكانت منذ وقوعها في مخالب ذلك الحارس الوحشي واحتمال ما اوقع عليها من العذابات الشديدة قد لزمت السكوت التام لم تحرك شفيتها مرة بحرف فكلام رعين نبه ذاكرتها كما قلنا وقالت كما يتكلم الولد في اول انطلاق لسانه (رعين ... أمي) فخنقت رعيناً عبرته وشعر بنار تضطرم في صدره وانعقد لسانه من شدة تأثره . وقد توهم ان وجوده اعاد الى حبيته عقلها واطلق لسانها ولم يكن يعلم ان هذه عادة قديمة مع حنة تلفظ في بعض الاحيان هاتين الكلمتين عن غير تعقل ثم عادت حنة الى حالتها الاولى من الخمول والسكوت واحتت رأسها على صدرها وجمدت . فسالت نفس رعين كمدأ ويئس من الحصول على بغيته وصار يشتم بريقة في نفسه لانها كانت السبب الاكبر في هذه الحوادث المريعة . ثم قام ودموعه تنسكب وفارق حنة جسماً لا روحاً وصار معظم اهتمامه سرعة الوصول الى بيته ليشر بريقة بوجود حنة ويخبرها بما هي عليه

وحالما وصل بادر رأساً الى العرفة التي يعهد ان بريقة تنتظره فيها فما وجدها . فاشتغل باله وتعجب من غيابها وخالج قلبه انها خاتته وانها لعلمها بمجزها عن شفاء حنة

هربت في غيبته ذلك اليوم فاسودت الدنيا في عينيه وبقي محتاراً يئساً وتقدم الى الباب ليسأل خادماً فوقع نظره على مغلف امام العتبة مكتوب عليه اسمه فشقهُ وقرأ الرقعة التي فيه فاذا هي من بريقة تخبره بها انها خرجت لتسعى مسعىً جديداً وتعود مساءً فانظرها بقية ذلك النهار وهو كأنه على النار

فلما كان العشاء اقبلت الغولة مهرولة وقبل ان بلغت باب الغرفة التي كان فيها صاحت قائلة الحمد لله ايها المركيز وفق الله مسعاي اليوم واتيتك باخبار سارة فتلقاها بفرح شديد وقال ما هي اشد سروراً من اخباري . وجعل يقص عليها ما جرى له فتنفست الصعداء وقالت الحمد والشكر للعزير الجبار . اشرق نور الرجاء ايها المركيز . اتم الله مسعانا على سلامة

فقال رعين والآن ما العمل ما الحيلة وكيف التديير . يجب قبل كل شيء ان نسعى في اخراجها من ذلك المكان الخبيث . قالت يلوح لي ان الامر سهل - حبذا . حبذا . آه . والى روجي فداء . فما الذي خطر لك . نفسي كرتي وافتلي لوعتي واطفتي حرقتي . كمفاني العذاب القديم

- انت رجل شريف وافر الغنى لك علاقات مع اشرف عيال فرنسا واتصالات مع اقدر ارباب السياسة فلو مضيت الى ابن الشرطي والتمست منه امرأً لناظر المارستان بتسليم حنة اليك لم يصدك

- بس الرأي . هذا لا يكون ابداً . لا احب ان اعرف احداً من الناس ان حنة الشميسية كانت مجنونة وكيف يصح ان اوقف ابن الشرطي على كل تلك الحوادث . وكيف تسمح عزة نفسي ان استمدت نفوذ الدرك لبلوغ مراعي من تخليص حنة وقتل الكرجاني

- فهمت مرادك وصوبت مقالك فيجب ان نسعى بانفسنا غير مستعدين الامعونة الله . فما تظن موافقاً ان نفعل

- رأيت ان ابذل المال فالمثل يقول (في اصطلاح الفرنسية) مفتاح من ذهب يفتح كل الابواب . فاغرض بالذهب من يقدر ان يساعدني من خدام المارستان واخرج حنة خفية ولو انفقت نصف ثروتي

- بس الرأي ايضاً كيف تثق بهؤلاء الا وباش ان يكتموا اسرارك أو ان يحفظوا
ذمامك بعد ان ينالوا رشوتك

- فما الطريقة إذن على كل حال لا يصح الا ان ندخل من باب الحيل بحيث
لا يشعر بنا احد

فلم تجب بريقة وجعلت رأسها بين يديها وغاصت في لجة الآمال . وراعى رعين
سكوتها فلم يبد حركة ولا كلمة . وبعد خمس دقائق رفعت رأسها مشرقة الجبين طرباً
وقالت . . الهمني الله . نجت حنة

فطفح السرور على وجه رعين وقال ما بدا لك من التدبير لنعجل المسير .
فجعلت تبسط له ما خطر لها من التدابير التي لا يشك في نجاحها . ولا لزوم الآن
لشرحها لان سياق الحديث في الفصول التالية بذكر كيفية العمل يوضحها ايضاً كافياً
ثم قالت له يلزم ان احبي هذه الليلة بتمامها في هذه الغرفة وحدي والآن اكتب
قائمة في كل العقاقير والمواد الكيمية التي احتاج اليها وترسل خادمك ليأتي بها . قال
افعلي وقام فدعا بالخادم فكتبت بريقة لوازمها وناولته القائمة

وفي مدة غيابه قال لها رعين قلت لي انك وقفت على اخبار سارة فما هي

- هي اني دبرت حيلة للقبض على قين الخنث اخي قينه فهو رجل خسيس النفس
جبان نذل ويعرف كل اسرار منزل الشيطان ونحساسة نفسه يخون اخته وتقدر ان
تنصرف به كيفاً شئنا . وهو كل ليلة يلعب القمار في دسكرة امرأة لي عليها فضل عظيم
وزمام حياتها بيدي فهي تسلمه الي حينما اطلب

- قد حيرتني بهذا التدبير لكي اسلم لك بكل ما تفعلين وانت اخبر بمسماك

ولم تمض ساعتان حتى عاد الخادم باحتياجات بريقة فاقامت على العمل الى
الصباح حتى دبرت كل ما ارادت

الفصل التاسع والخمسون

« مباشرة العمل »

لما تضحى النهار ارسلت بريقة خادم رعين ليأتي بركبة اجرة ثم ركبت هي ورعين

الى المارستان . وكانت قد لبست حلة سوداء متقنة الهندمة وارخت على وجهها نقاباً اسود فظهرت كأنها من نساء الاشراف

وعند نزولها من المركبة امام الباب عرف البواب رعيناً وكان يعلم فرط سخائه فاسرع حالاً ودعا بالمحافظ وكان رعين قد ملأ يده ذهباً في المرة الاولى عند خروجه من المارستان . وهناك رأت الغولة ما صارت اليه حنة من الذل والشحوب فاغرورقت عينها بالدموع . ثم صارت تطوف في انحاء الدار وتلاحظ حالة الجدران فرأت ان الجدار المشرف على الطريق في ارض بور ناقص حجراً من اعلاه وفي مكان ذلك الحجر عشب كثيف يتدلى على جانبي الجدار . ثم دخلت الغرف وفحصت المطابق ودققت النظر في كل ما كانت تراه

ولما اطأن قلبها من جهة ما هي عازمة عليه خرجت هي ورعين وطافا حول سور المارستان الى ان بلغا مكان الحجر المفقود من الجدار فقالت لرعين انظر الى هذا العشب وان كنت لا تراه ليلاً فاني اخطئ على الحائط هنا علامة تهتدي بها تراها على نور الفانوس الذي يكون معك . وفي الساعة الثالثة من هذا الليل توافيني الى هنا فاصفق براحتي ثلاث مرات فاجيني بمثل ذلك لاعلم انك هنا

فحفظ رعين ما قالت له وهو لا يعرف سرّ تدبيرها . ثم قالت له امض الآن بالمركبة ودعني وشأني

فضى رعين في سبيله وذهبت بريقة الى خلوة فنزعت ما عليها من الثياب فظهرت تحنها حلة رثة وسخة فلبست تحتها الحلة السوداء وادت الى جوار المارستان وصارت تصيح وتنضوّر وتعمل حركات دالة على جنون واضح وتظهر مع ذلك ضعفاً في حركاتها كأنها مريضة وقد كشفت وجهها فكان من يرى ذلك التشويه يقشعرّ بدنه فاقبل اليها بعض الناس واخذوها الى المارستان وقالوا للناظر انا وجدنا هذه المجنونة في الطريق . فأمر ان تؤخذ الى القسم الاول وهو الذي فيه مطبق حنة . وكانت تصيح صياحاً مقلقاً فحالما ادخلت وصارت بحضرة ذلك الحارس الجاني ضربها بالسوط ضرباً يائماً فسكتت ولم تنطق بكلمة ولا تحركت . فقال مفتخراً بنفسه هذا الدواء الشافي من هذا الداء

وكانت المجنونات في الدار على العادة فصارت بريقة تزحف ببطء الى ان صارت امام حنة الشميسية فمكثت هناك نائمة عند قدميها

ولما قرع جرس الدخول وقف الحارس على الباب يعدّ الداخلات فلم يجد العدد كاملاً فخرج الى الدار ورفع السوط ليضرب حنة فحالت دونها بريقة بنخفة الحيلة فوقع السوط عليها . ثم ساق الاثنتين امامه وهو يشتم

وكانت العادة بعد ان تناول المجنونات الطعام ان يعمل لهنّ الحارس اشارة واضحة فتدخل كل منهنّ مكانها من غرفة او مطبق

وكانوا قد عينوا البريقة مطبقاً بقرب مطبق حنة ففرحت في باطنها فرحاً شديداً وبعد دخول المجنونات الى اماكنهنّ بقيت حنة والغولة في محل المائدة لان حنة لا تعرف تلك الاشارة فكان الحارس يسوقها عنفاً . فتقدم اليها وجرها من يدها وادخلها مطبقها . وكانت بريقة قد سارت وراءه الى ان بلغت رأس السلم المؤدية الى المطبق . وبعد ان اقفل الحارس باب مطبق حنة عاد الى بريقة ليدخلها مطبقها . وحالما دنا منها سمع رنيناً متتابعاً كسقوط تقود على الحجارة . وكان الامر كذلك فانه انحنى بالفانوس الى الارض فوجد عدة دنائير تنتثر من بين اصابع المجنونة الجديدة . فتمعجب غاية العجب وما كاد يصدق عينيه وصار يلتقط تلك الدنائير ويلتفت الى يدي بريقة حتى لم يبق فيهما شيء . فدنا منها وسألها متلطفاً هذه المرّة . اباق معك شيء يا مجنونة فهدت يدها الى جيبها واخرجت صرة بيضاء والقها في اسفل السلم ففضى الحارس واخذها وصار يحاول حلّ عقدها باصابعه فامتنعت عليه فادناها من فيه وعضها باسنانه ليحلها . فلم تمض دقيقة حتى سقط فاقد الرشد لان بخاراً نفاذاً حاداً عبق من تلك الصرة وملاً خياشيمه (كانت بريقة قد استحضرت هذا الدواء لهذه الغاية . وهو المعروف اليوم باسم كلرورفرم) وتراجعت بريقة حذراً من تلك الرائحة وفتحت باب الدهليز واستنشقت الهواء وبعد ربع ساعة تبدد البخار وتلاشت الرائحة فتقدمت الى الحارس ودحرجته الى المطبق الذي كان معداً لها

ثم تقدمت الى مطبق حنة وفتحت الباب ودخلت فانهمضها بين ذراعيها وخرجت بها رويداً رويداً الى الدار ووقفت بها عند الجدار تحت العشب النبات مكان الحجر

المقلوع . وكانت الساعة المعينة بينها وبين رعين قد حانت فصفت ثلاثاً فسمعت مثلها من تحت الجدار ورأت شنكلاً من حديد قد تعلق بأعلى الجدار وكان معلقاً فيه حبل على شكل سلم وبعد دقيقة رأت شبح رعين فكلمته فاجابها ورفع الحبل ورماه على الجدار من جهة الدار ونزل عليه وبلغ مكان بريقة وحنة فتقدم الى الحبيبة وضماها الى صدره ضمة كانت تطبق جدران صدرها فأنت أنة خفيفة فقالت الغولة ليس هذا وقت العناق يا بارد فاحملها حالاً واصعد بها الحبل وانا اصعد على اترك فقد تأتي الدقائق بأعظم الاخطار . فصعد بحنة وهي بين يديه اخف من الريشة وصعدت وراه الغولة ثم رفع الحبل والقاء على الجهة الخارجية من الجدار ونزل بسهولة ووراءه بريقة وحصل الثلاثة على الارض البور بسلامة وامان

وكانت مركبة واقفة في انتظارهم على مسافة خمسين خطوة فركبها وسارت بهم تسابق الرياح

ودخلوا البيت ورعين طائر الفؤاد من شدة فرجه ولو اردنا ان نشرح ما خامر ذلك الرجل من احساسات السرور والشكر لعناية الله وتدابير الغولة لضاق بنا المقام فاوقد الشموع واضرم النار وقال لبريقة « انجز حرّ ما وعد » قالت سكن روعك في ربع ساعة تطيب نفسك وتقر عينك

واخرجت من جيها قنينة صغيرة ودنت من حنة وهي مسندة على اريكة من الحرير الناعم وصبت في راحتها قطرتين مما في القنينة وصارت تفرك صدغيها ثم نشقتها من القنينة . فانتشرت في الغرفة رائحة عطرية من اذكي ما يكون . وقالت لرعين ابها المركيز اعلم ان حنة الآن تستفيق وعقلها تام كمن ينهض على اثر حلم لانها لا تعرف شيئاً البتة من كل ما جرى عليها من حين ظن انها ماتت الى هذه الدقيقة . وحيث ان دماغها باق ضعيفاً من فعل الدواء الذي كنت قد اسقيتها اياه فبأقل تأثير يحدث لها تختل ولا يعود ممكناً ارجاع عقلها فايك ثم اياك ان تكشف لها شيئاً من هذه الاسرار الا بعد ان تتمكن من صوابها . واذا سألتك شيئاً فوره عليها وجاوب بحسب فطنتك بحيث تبقى مستريحة الفكر

وكان رعين يتفرد في ذلك الوجه الصبح المتدفق نوراً على ما به من الاصفرار والهزال

والغولة تراقب كل حركة تظهر منها . ولما عرفت ان وقت استفاقتها قريب نهضت وقالت لا يوافق ان يقع نظرها عليّ من اول وهلة لئلا ترتاع من تشويه وجهي . وقامت الى غرفة اخرى وبقي رعيناً يقرب حنة واذا بها قد فصلت يديها المنضمتين على صدرها ودلت احدهما واختلجت اجفانها وظهر نور الحياة على وجهها وتلوّنت وجنتاها باون وردي خفيف . ثم تهتدت وفتحت عينيها فوقع نظرها على رعين فرأى ما بهما من ماء الحياة ونور الفهم فكاد يغمى عليه من شدة الفرح

فقال له . رعين ها انت قد اتيت قبل فوات الوقت واشكر الله لاني رأيتك قبل انقضاء الاجل . فعرف رعين حقاً ان حنة لم يكن لها اقل الملم بما جرى وانها معتقدة ان ذلك الوقت هو ثاني يوم كتبت اليه تلك الرسالة التي تحته بها على القدوم . فقال لها يا قرة العين لا تراعي فقد زال الخطر ونجوت باذن الله

- أحقاً اني لا اموت . نعم ارى في نفسي بعض راحة وكنت متيقنة اني مفارقة

الحياة والحياة لذيذة يا رعين في نضرة الشباب واشتغال القلب بالحب

- فاطمئي يا روحي يا حياتي شفيت وستمتعين بلذة الحب الطاهر

- واين هي أمي يا رعين لم اراها عند سريري

- قريباً تأتي امك يا حبيبتي وتسر لسرورك وسروري بحياتك الثمينة

- عجباً واين انا الآن فما ارى شيئاً مما في مقصورتني

- انت في منزلي يا حنة عند حبييك

- عجباً وكيف وقع هذا قد ارتعت . رعين اخبرني بحياتي افي حلم انا ام اختلت

- لست في حلم يا حنة ولا تعجبي من وجودك هنا

- كيف لا ارتاع ابن امي وابي هل دهمهما خطب وانت تكتم عني واتيت بي الى

منزلك لتسكن لوعة حزني

- كلاً كلاً يا حبيبتني امك وابوك سالمان معافيان وحياة عينيك ليس الامر

كما توهمت

- فاذا كان ما تقول صحيحاً فخذني الى امي لاراها واعانقها

- لا تقدرين ان تمضي اليها لكن هي تأتي اليك

- فاذهب وادعها في الحال قد فرغ صبري ولا تخدعني
- ها أنا منطلق اليها في هذه الساعة
- فأبقى وحدي هنا . لكن قبل ان تذهب اخبرني لماذا انا هنا
- بجيانك يا حنة بجيانك لا تسأليني هذا السؤال فاذا اتت امك فهي تخبرك
- وحينئذ دخلت بريقة فاضطربت حنة من رؤيتها وقالت . رُعين من هذه المرأة . فقالت بريقة يا سيدتي انا امرأة فقيرة حقيرة ابذل نفسي في خدمتك ورضاك .
- وقال رعين نعم يا حبيبتى حنة هذه المرأة عظيمة الفضل طيبة النفس صادقة الوداد فكوني معها مطمئنة مسرورة قالت ما افهم شيئاً من هذه الاسرار لكنني اصدقك واطمئن بكلامك

وكان بيد الغولة قدح فيه شراب فقدمته الى حنة وقالت اشربي يا سيدتي فقالت ما هذا ولم تمدد يدها . فقال رعين اشربي يا عزيزتي بجيائي . فتناولت الكأس وشربت ما فيها جرعة واحدة وقالت ما هذه المرارة الكريهة

ولم يستقر الشراب في جوفها حتى استرخت وانغمضت عينيها واستغرقت في سبات ثقيل . فارتاع رعين وقال . بريقة ويحك ما فعلت . قالت كن براحة بال ايها المركيز حنة الآن على غير استواء وقد ظهر فيها اضطراب وشعرت بانتشار الحمى في بدنها والحمى يصحبها الهذيان والهذيان يأول الى جنون . فسقيتها هذا الدواء حتى تمام قستريح عقلاً وتنتفع جسماً ولا تستفيق الا بعد ساعتين فامض وادع اباها وامها حتى اذا استفاقت رأتهما بجانبها فتسر نفسها

فوثق رعين بقولها ولم يخالفها ومضى ينهب الطريق الى القصر الشميسي نصف الليل وبوصوله اعترضه الخدم على الباب الخارجي اولاً ثم على الداخلي وصار رعين يكلم الخادم بحدة واخيراً اضطرا ان يلجأ الى الوعيد . والخادم لم يعرفوه ولم يصدقوه حينما قال لهم انه رعين . فبالاتفاق طلت من شباك القصر احدي الجوارى وكانت تعرف رعيناً وسمعت الجلبة فاخبرت مولاتها في الحال فقالت قولي للخدم ان يفتحوا له الابواب واخبري سيدك بقدمه فضت الجارية وفعلت ما امرت سيدتها فدخل رعين واستقبلته الدوقة بفرح واندھاش وقالت اشكر الله يا ولدي الحبيب اذ اراني

وَجِبْكَ بِخَيْرٍ بَعْدَ هَذِهِ الْغَيْبَةِ الطَّوِيلَةِ . فَقَالَ يَا سَيِّدِي لِمَ أَبَارِحُ بَارِيسَ كُلِّ هَذِهِ الْمُدَّةِ
 - فَكَيْفَ أُذِنَ يَا قَاسِي الْقَلْبِ يَا قَلِيلَ الْوَدَادِ تَكُونُ فِي قَلْبِ بَارِيسَ وَلَا تَذْكُرُنَا
 وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَنْزِلَتَكَ مِنْ قُلُوبِنَا

- يَا سَيِّدِي لَا تَوَاخِذْنِي لِأَنِّي قَصِدْتُ أَنْ لَا أَوَاجِهُكُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَتِمَّ أَعْمَالِي
 - مَا هَذِهِ الْأَعْمَالُ الْعَظِيمَةُ

- مَسْعَايَ فِي رَدِّ ابْنَتِكُمُ الْيَمِّ

وَكَانَ الدُّوقُ يَعْقُوبُ قَدْ دَخَلَ حِينئِذٍ فَالْتَقَتَتْ إِلَيْهِ الدُّوقَةُ مَتَحِيرَةً وَانْعَقَدَ لِسَانُهَا وَقَدْ
 ظَنَّتْ أَنْ رَعِينًا مَحْتَلًّا

فَقَالَ لَهُ الدُّوقُ مَا الْمَعْنَى مِنْ كَلَامِكَ . كَيْفَ تَرَدُّ الْبِنَا ابْنَتِنَا وَهِيَ عِنْدَنَا فَهَلْ جَدُّ
 عَلَيْهَا خَطَرَ حَتَّى تَتَدَارَكَ الْأَمْرَ

فَقَالَ رَعِينٌ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَتَوَهَّمُ يَا سَيِّدِي لَكِنَّ حِجَابًا كَشِيفًا كَانَ يَحْجُبُ عَنْ
 أَعْيُنِكُمُ الْهَآوِيَةَ الَّتِي سَدَرْتُ أَعْمَاقَهَا

- حَتَّى الْآنَ لَا أَفْهَمُ شَيْئًا مِنَ الْغَازِكِ فَصَرَّحَ يَا وَلَدِي

- سَاصَرَّحَ يَا سَيِّدِي لَكِنْ أَرْجُو قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ تَأْمُرَ سَائِقَ مَرَكَبَتِكَ بِتَحْضِيرِهَا
 الْآنَ لِتَذْهَبَا مَعِي بِلَا إِبْطَاءٍ

فَبَقِيَ الدُّوقُ مَتَحِيرًا وَقَدْ أَيَقَنُ فِي نَفْسِهِ أَنْ رَعِينًا مَحْتَلِّطَ الْعَقْلَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِسَبَبِ
 الْحُزْنِ الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَيْهِ بِذَهَابِ حَنَّةٍ مِنْ يَدِهِ إِلَى يَدِ خَصْمِهِ . غَيْرَ أَنَّهُ أَمْرُ السَّائِقِ
 أَنْ يَهْبِيءَ الْمَرْكَبَةَ لِيَرَى مَا تَكُونُ النِّهَايَةُ ثُمَّ قَالَ لِرَعِينٍ وَالْآنَ مَا تَرِيدُ يَا وَلَدِي فَالْمَرْكَبَةُ
 تَكُونُ حَاضِرَةً بَعْدَ رُبْعِ سَاعَةٍ . قَالَ وَلِهَذَا عَيْنُهُ أَتَيْتَ لَكِنْ اسْتَحْلَفَكُمَا بِالشَّرْفِ وَالْوَدَادِ
 أَنْ تَتَدَرَعَا بِالْجُلْدِ وَتَحَافِظَا عَلَى السَّكِينَةِ حَتَّى لَا تَسْقُطَا تَحْتَ ثِقَلِ التَّأثيرَاتِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي
 سَتَصَادِقَانَهَا . لَا تَخَافَا . لَا تَخْشِيَا بَأْسًا . خَبِرْتُ مَفْرَحَ أَتَيْتَ بِهِ فَا مَلِكَا أَنْفُسِكُمَا لِأَنَّ عَدْلَ
 اللَّهِ قَدْ اسْتَمْلَنَ وَعَادَ السَّيْفَ إِلَى قَرَابِهِ

وَكَانَ كَلَامَ رَعِينٍ بِجَمَاسَةٍ وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِ وَهَيْئَتِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْاِخْتِلَالِ .
 فَاضْطَرَبَ الدُّوقُ وَالدُّوقَةُ وَجَمَدَا كَالصَّنْمِيِّينَ لَا يَدْرِيبَانِ مَا يَفْتَكِرَانِ وَلَا مَا يَقُولَانِ .
 وَشَعَرَ رَعِينٌ بِذَهْوِهَا فَقَالَ حَنَّةُ الشَّمْسِيَّةِ بَاقِيَةٌ فِي قَيْدِ الْحَيَاةِ تَدْعُو أَبَاهَا وَامَهَا لِتَبْرَّرَ غَلِيلَ

شوقها بتقبيلهما . في اقل من ساعة تعنتقناهما . لا في شارع الجحيم تلتقيان بهما لان تلك الكاذبة الافاكة الماكرة الخبيثة امرأة الخائن الكرجاني ليست حنة الشميسية بل هي امرأة خداعة مذافة انتحلت اسم حنة وغرّتكا بالمشابهة وفازت برضاكما وما لكما وهذه يقال لها قينة الرقاصة

فلما سمع الدوق والدوقة هذا الكلام بقيا كصنمين وفقدوا الصواب . وظنا انهما في حلم هائل وانجس لساناهما وصار احدهما ينظر الى الاخر ذاهلاً
فقال رعين استغربتما هذا الامر وقد خرج بكما الدهول الى حد البكم والجود .
والذي يقول كلاماً مثل هذا فاما ان يكون مجنوناً او تكون في يده البراهين القاطعة
ولست انا مجنوناً والبراهين التي بيدي هي هذه

وجعل يقص عليهما اخبار تلك الحوادث التي جرت على حنة من حين خروجها
من القصر . فوضح لهما الامر وانجحت كل الشكوك وتيقنا انهما خدعا خدعة لم يسبق
لها مثيل

وفي الحال ركب الثلاثة المركبة وساروا مسرعين وفي اثناء الطريق قال لهما رعين
ما قالت له الغولة انه لا يوافق ان تطلع حنة على اسرار تلك الحوادث . فقال الدوق
وكيف نحتج بوجودها في بيتك

وبعد تأمل قليل قالت الدوقة انا اقول لحنة انها كانت معرضة لخطر مبين حسب
انذار نبوة تلك الكاهنة . ثم لما اشرفت على الخطر استنطقت صاحبة النبوة فاخبرتني
ان حنة لا تنجو الا اذا مكثت مدة في بيت خطيبها

فوجد هذا الرأي في غاية ما يكون من الاصابة واعتقدت حنة بعد ذلك صحة
هذا التعليل

واما ما كان من افراح هذه العائلة المباركة عند الاجتماع بعد طول اليأس فهو ما
لا يستطيع القلم وصفه
وبعد ان سكنت النفوس واطمأنت القلوب واخذت تأثيرات الفرح مأخذها قال
الدوق لرعين . والآن يا ولدي الحبيب ما عزمك ان تفعل فقال له يا سيدي وابي
الحنون اذا قصدنا كشف السر عن هذه الرقاصة الخائنة لا يبقى عند الجمهور شك في

فعلنا وقولنا ولا بد ان محكمة ننت تعود الى انفاذ حكمها باعدام اللعينة لكنني ارى في ذلك ما لا يليق باسم العائلة الشميسية فالاولى اني انا اكمل المشروع الذي باشرته وابقى الامر مكتوماً . والرب العادل الذي دبّرني وساعدني فيما مضى يسهل خطواتي فيما يأتي فأول كل شيء يجب ان اقتل الكرجاني الماكر واطفي خبر تلك اللعينة الخائنة وقد استرحنا من القيل والقال وفزنا بالسعادة والهناء وذلك لانه من الخلل في ناموسنا ان تظهر حنة الشميسية وتلك موجودة فرأيتي الآن ان تسيرا بابتكما الى بعض الاطراف حيث لكما املاك وتقيموا اياها هناك الى ان اقضي انا حاجتي هذه ثم اوافيكم ويدبر الله ما يشاء فاستصوب الدوق والدوقة هذا الرأي . وقد علما انه لا بد لرعين من اتمام عمله والانتقام من عدويه الاكبرين

الفصل الستون

« اتمام المشروع »

ان ما علمته بريقة من اعمال قين واحواله واطلعت عليه رعيتنا كان واقعاً فعلاً . فانه كان كل ليلة يملأ جيوبه دنانير زائفة ويقصد دسكرة امرأة فيها شيء من نضارة الشباب ولحمة من الجمال وكان رعا القوم يجتمعون عندها ويلعبون بالقمار فثاني ليلة من اجتماع العائلة الشميسية كما ذكرنا ذهبت الغولة ورعين الى الدسكرة المذكورة فأخفتها صاحبها في غرفة ملاصقة لقاعة اللعب خلف ستار صفيق مشقوق قليلاً بحيث يرى منه كل من في قاعة اللعب ويسمع حديثهم وكانت المرأة المذكورة ذات سيرة فاسدة واعمال فظيعة في ايامها الاولى واركتبت بمساعدة بريقة ذنباً من اعظم الذنوب التي يستوجب صاحبها طائلة العقاب بالموت ولذلك كانت تراعي جانب بريقة وتحب ان تخدمها جهدها فبعد اجتماع المقامر من وحضور قين قالت الغولة لرعين هوذا الرجل الذي اخبرتك عنه . فنظر اليه رعين وارتجف وقال رأيت هذا الخبيث مرتين مرة كان بها شريكاً في الغدر بي ومرة ليلة الوليمة في القصر وقد اقشعر بدني من منظره فقومي بنا لا اطيق ان ابقى هنا

وبعد خروجها بساعة اي الساعة السادسة من الليل دخلت صاحبة الدسكرة قاعة
اللعب وقالت لقين سرًا . ايها السيد الشريف في الطريق مركبة فيها سيدة شريفة
تطلب مقابلتك يقال لها البارونة وقصرها في شارع الجحيم
فاندھش قين بهذا الخبر وقال في نفسه ان صح ظني فما هي الا اختي قينة وما
عن عبث انت تطلبني في نصف الليل فلا بد حادث غريب الشأن
وقام من ساعتہ وخرج . وكان الظلام حالسكاً فرأى نور المركبة عن بعد وتقدم
وهو نشوان لا يرى ما امامه وصعد المركبة قائلاً ها قد حضرت ايها البارونة
العزيرة فما الخبر

وللحال شعر بفوهة غدارة قد وضعت على صدغه وسمع صوت رجل يقول له اذا
صحت او عاجلت الفرار فلا تخطو خطوة وانت في الحياة

فسقط قلب المسكين جزعاً واحتار في امره من هذه البغته العظيمة وقال وهو
يرتعد وبلي ما تريدون مني . يا سيدي . ان كان لكم غرض في النقود فمعي شيء كثير
ودعوني وشأني . فقال له الرجل اخرس يا شقي ما لنا حاجة في النقود

فهلع فؤاد قين من شدة خوفه وقال نفسي يطلبون ويلاه يا ماري يعقوب القمبسطلي
اليك سلامت روحي . ثم قال لمخاطبه يا سيدي ما ذنبي ما الذي جنيت عليكم ارحموني .
آه . ارحموني ليس لي ذنب

فقال الرجل الى كم تطيل الفشار اصمت والا ذهبت نفسك . فسكت وهو يرتعد
ولما وصلت المركبة امام بيت رعين (وكان رعين والغولة قد نصبا لقين هذا الفخ
اللطيف فوقع فيه مطمئناً) ادخله رعين مخدعاً مظالمًا واغلق الباب وصعد هو والغولة
الى العلية

فاقام قين يحسب الحسابات وتتجاذبه الهواجس والمخاوف وهو لا يستقر على رأي
بل كان المرجح عنده ان الشيطان لا يساعده هذه المرة على الافلات من الهلاك
كما ساعده عدة مرار سابقاً

وبعد نصف ساعة اتى رعين وقال ايها الشريف الاندلسي تعال ورأي . فقام
وتبعه وهو يرتجف ودخل به العلية . فرأى قين هناك ما راعه واجهد الدم في عرقه

وكانت الغولة محجبة لابسة السواد وجالسة في آخر العلية وبجانبا جلس رعين
وعلى وجهه ستر مخلي وبقربهما موقد مملوء جراً وفي الحجر قطع مختلفة من الحديد محماة
الى قرب درجة البياض . وقرب الموقد غلام رعين لابساً ثوباً احمر كالجلاد دين وبيده
سيف كالسيف الذي يضربون به اعناق المجرمين

فقال رعين ما اسمك ايها الشريف الاندلسي . قال اسمي هو ما تقول . قال
كذبت اما اسمك قين ولك اخت رقاصة اسمها قينة وكلاكما من هجج النور . قال كلا
يا سيدي وحياة سيدتنا الاطوشية ومار يعقوب القمبسطلي . . .

- لا تكذب يا افاك . ألسنت انت واخنتك المحكوم عليكما بالاعدام في مجلس ننت
- ما هذه التهمة يا سيدي

فقامت الغولة وانتصبت امامه وقالت وامامي ايضاً تكذب يا مخنث . فلما سمع
صوتها عرفه وتقهقر وقال لها من انتِ قالت انا الغولة صاحبة المنزل الاحمر فتلاشى عزمه
وقال في نفسه . يا للعجب ايقوم الموتى من قبورهم وينجو الانسان من نيران الاتاتين .
ما هذه الساحرة . حقاً انها ساحرة وجنودها الابالسة . ثم قال لها العفويا مولاتي لا
انكر . اعترف بكل شيء . نعم اسمي قين وقينة اختي وقد حكم علينا في مجمع ننت لكن
الناس كثيراً ما يأخذون البرى بجزيرة السقيم . فقال رعين أنزعم انكما بريتان من
تلك التهمة

- نعم يا سيدي اقسم لك بما تحب

- اظن ان براءتكما من تلك الجزيرة كبراءتك من الغدر برعين الزهري في حظيرة

شارع الاساورة

فامتتع لون قين واصطكت اسنانه وقال ويلاه هذه تهمة جديدة لا علم لي بها
فاقتلع رعين الوجه المستعار عن وجهه وقال انظر ايها المتهم البرى . اما ترى
رعيناً امامك

فانقضت صاعقة الويل على المسكين وخدة انفاسه . كان يعتقد اولاً ان الغولة
احترقت فظهرت له كأنما نشرت من قبرها . وما كان يدخل فكره انها تجتمع برعين
فراى خصمين الدين مجتمعين على اهلاكه باتفاق غريب . فمن اين بقي له رجاء في

الخلاص . فأيقن بانصرام عمره وما عاد يحاول كذباً ولا احتيلاً وطأطأ رأسه الى الارض صاغراً منتظراً حلول اجله .

وما كان الامر كما توقع لان ساعته لم تأت بعد .

فقال رعين ادنُ مني فدنا وهو يرتجف فقال هذه الورقة مكتوب فيها كل ما جنيت من الذنوب في حياتك . اقراراً عن لسانك . فضع عليها توقيعك بخطك فأخذ القلم واوشك ان يفعل ثم خطر له ان الموت لا يكون مرتين فقال مهما اردتم فافعلوا لا اضع توقيعى

فنظر رعين الى الخادم وقال أحمي الحديد قال نعم يا مولاي . قال جرد هذا الماكر من ثيابه واكوه في ظهره وبطنه وساقيه وذراعيه الى ان يضع توقيعهُ وما كان قصد رعين ان يقدم على هذا التعذيب الفظيع بل كان عالماً ان مجرد الوعيد كافٍ لاذلال نفس قين الخسيسة . فصاح قين مذعوراً سيدي سيدي لا تفعل اضع توقيعى . وتقدم في الحال وكتب اسمه في ذيل الاقرار باحرف كبيرة ثم قال اطفىء ياسيدي هذه النار فقد اربعبتنى . قال ما الآن وقت اطفالها فلعلنا نحتاج اليها قال كلاً ياسيدي انت عنها في غنى تام فسلى ما احببت اجبك بلا تردد بصريح العبارة والصدق التام

فجعل رعين يستنطقه مدة ساعة فأقرّ بكل ما كان يعرف من الحوادث المار ذكرها في هذا الكتاب واخيراً قال له كيف احوال معمل الزيوف الآن

- لم يبقَ للزيوف معمل ياسيدي
- اتحاول الانكار . النار يا غلام
- كلاً ياسيدي لست انطق الا بالصواب . وقانا الله من شرّ البهتان . بطل العمل وألغيت الشركة وُسدت منافذ البرنى الثلاثة ولم يبقَ لما كان اثر
- هذا مما لا يحتمل التصديق
- بل هو الحق كل الحق ياسيدي
- ومتى جرى ذلك
- في الليلة الماضية

- ولاي سبب

- لان البارون منذ ايام لم يكن يقر له قرار من شدة خوفه من اكتشاف الدسيسة وقد صار في غنى عن هذا العمل الذي يجرمه لذة الرقاد وهناء العيش لانه جمع بواسطته اموالا من سكة صحيحة كما تجمع خزائن الملوك وعزم ان يسافر الى لندن ويعيش هناك بهناء وراحة بال

- متى يكون رحيله

- في الليلة القابلة

- من يصحبه

- امرأته وغلماة

- وما سبب هذا الرحيل

- هو ما ذكرته لك هو اجسه الخيفة وقلقه المستمر

- وانت ما يصنعون بك

- عزم ان يقيني في قصره ناظراً وابعث اليه بتفاصيل ما يجد من الاخبار لكن لسوء الحظ قد انقلب نجمي نحساً فصار يقتضي له ان يقيم وكيلاً آخر غير قين المسكين فسكت رعين برهة ثم جعل يكلم الغولة سرّاً ثم قال لقين . استوجبت الموت ايها الخبيث اكثر من عشرين مرة وكان في عزمي ان اضرب عنقك بيدي لكن الاتفاقات تأتي بالعجائب فتستطيع الآن ان تفدي حياتك

فأشرق جبين قين بهذا الكلام واتعش قلبه وما كان يظن انه ينجو من الهلاك ثم قال لرعين مرني يا سيدي بما تحب فتجدني اطوع لك من بنائك . فقال له هل لك من طريقة تدخل بها القصر من غير ان توقظ الخدم قال نعم معي مفتاح الباب الصغير باب الجنينة ومفتاح عام لغرف القصر الداخلية . قال فاذا ادخلتني القصر واوقفتني امام غرفة البارون وامرأته هذه الليلة فلك بمدها مطلق الحرية وحسن الجزاء فوقها فاقشعر بدن قين لهذا الخطاب لكنه لم يسهه ان يخالف الامر جاً بالحياة فقام رعين وبريقة وقين وركبوا المركبة التي اتوا بها قبل ذلك بساعتين . ولما بلغوا المكان فتح قين الباب ودخل وتبعه رعين وبريقة وقال له رعين اسلك معي

مسلك الصدق والا فباقل دليل من الخيانة اقتلاك شر قتلة . قال وما الداعي للخيانة يا سيدي المركز فانت الآن انفع لي من اختي وصهرى هما يتركاني ويسافران فلا يبقى لي تدبير وانت لي اولى بعد ذلك . فقد نفضت طوقى مذ الآن وغسلت يدي من دم هذين الشريرين والمثل الدارج يقول « من بعد نفسك عز صديقك » وليس للانسان ابقى من نفسه

ولم يزالوا يتقدمون من باب الى آخر ويمرون في دهليز بعد دهليز ويرقون سلهماً بعد سلم الى ان انتهوا الى باب غرفة لوقا فوقف قين وقل هنا الغرفة الخارجية ومبيتة في غرفة داخلها وقبنة في مقصورة وراءها فقال رعين افتح لنا هذه بالمفتاح العام ففتحتها ووصل الى الباب الداخلي وادار المفتاح في القفل لكن كان للباب زلاج من الداخل فلم يفتح

وبهذه الحركة استيقظ لوقا وكان نومه خفيفاً والطاق أخذ منه كل مأخذ . فصرخ قائلاً من بالباب . فقال رعين لقين اجبه في الحال فاجاب قين انا يا سيدي آت في مصلحة كبيرة الشأن أتساء ان تفتح الباب قل نعم اصبر دقيقة ثم فتح كوة صغيرة من الباب واطهر منها رأسه فصاح . يا للخيانة يا للخيانة . ما كنت احسب هذا منك يا قين الخبيث فخذ جزء خياتك . واطلق عليه غدارة فوقع قين على الطنفسة وفي الحال تقدم رعين والغولة ودفعا الباب بشدة حنقهما فانكسر ودخل رعين شاهراً سيفه فالتقاه لوقا بسيفه ايضاً وغدارة في يساره

فقال رعين سلم الي نفسك ايها البارون انا رعين الزهري وليس معك جماعتك الغادرون لتقتلني هنا وانت تعرف انك لا تقدر علي وحدك

- كذبت وخذعتك الاوهام قتات خطيتك والآن الحقتك بها
- خسئت يا نذل الرجال . خطيتي في قيد الحياة والعافية والآن اخذ الثار منك يا غدار وكان السيفان قد اشتبكافضرب رعين سيف لوقا فكسره فاطلق عليه لوقا الغدارة لكن لاضطراب يده اخطأه وحس الرصاص شعره ففقطع منه خصلة ومس شهاب البارود جيئنه . فصرخ صرخة الاسد الكاسر وقال تجاوزت حد الغدر والحساسة يا اردأ خلق الله . وليجر الله فيك عدله فعليه توكت . وطعنه بالسيف في صدره فخرج

يلمع من ظهره فصاح لوقا مزججراً كما يخور الثور وقذف بشتيمة لم يستطع أن يتمها وسقط
 يختبط بدمه فتقدمت الغولة وجثمت على صدره كالبوة الفاقدة اشبالها وبردت غليلها
 بجرعة من دمه وجعلت فما قرب اذنه وقالت ابها البارون الكرجاني حنة الشميسية حية
 وانت تموت . كل من طلبت هلاكه نجبا وانت الهالك . أعرفني . انا صديقتك بريقة
 اكاثك على اعمالك عوض الواحدة مئة فما انا اجهز عليك وارثوي من دمك النجس
 ومدت مخالبها الى الجرح فوسعت فوهته وجعلت تمص الدم وتنهش اللحم

هنا وافق اللقب صاحبه . غولة وافظع من الغيلان

وبعد نحو دقيقة اسلم لوقا روحه الشريرة الى ابالسة جهنم

كل هذا جرى باسرع مما يحتاج من الوقت الى قراءته

وحينئذ تقدم رعين الى مقصورة قينة فوجدها خالية وشراشف السرير مفقودة
 والشباك مفتوحاً فنظر واذا الشراشف موصولة بعضها ببعض ومعلقة في الشباك فقال
 للغولة نجت الخبيثة قالت علي ان اجدها فلا نفوتني باذن الله

وكان خدم القصر قد سمعوا الصراخ واطلاق الغدارة مرتين فانتهبوا مذعورين
 وجعلوا يترا كضون . فقال رعين لبريقة وقعنا في شرك اردأ فما الحيلة الآن انسفك دمأ
 برياً . قالت لا تضق بك الحيل فالرجال عند الشدائد ما لك لا تظن لما فطنت له
 قينة قال نعم واسرع واياها الى مقصورة قينة وتديا بتلك الشراشف الموصلة وما
 بلغا الارض حتى سمعا ضجة الخدم في المقصورة فاسرعا الخطى وتخللا الجنيحة وخرجا
 من الباب الصغير وفاقا بالنجاة آمنين

الفصل الحادي والستون

« عينٌ بعينٌ وسنٌ بسنٌ »

يرجع حديثنا الآن الى قين وقينة وما جرى لهما في تلك المعركة وعلى اثرها
 فاما قينة فكانت قد نجت بتلك الحيلة التي اشرنا اليها حالما تحققت وقوع الخطر
 الملم بها . وخرجت من الباب الصغير (وكان رعين قد ابقاه مفتوحاً لسهولة الفرار

إذا اقتضى الحال . وقد صح ما وقع في حسابيه (وسارت هائمة بقية الليل في شوارع باريس وهي في قيص النوم حافية مكشوفة الرأس حتى اعيهاها التعب فوق ما بنفسها من ألم الخوف والكآبة

وعند اول الصباح وصلت الى زقاق وحل على جانبيه صفان مستطيلان من الاشجار وازائه بيت فسيح الجوانب كثير النوافذ له باب كبير فوقه كتابة بحروف كبيرة . ورات تحت بعض الاشجار مقاعد من خشب فرمت نفسها على مقعد طلباً للراحة وقد كلت رجلاها من تخديش الحجارة وكثرة المشي واصفر وجهها وبان عليه الهزال وغارت عيناها في محجرهما من شدة ما اصابها من ألم البرد والجوع فوق العياء . وبعد بضع دقائق اغمضت عينيها واستغرقت في النوم

فلما طلعت الشمس وخرج الناس لاعمالهم صاروا ينظرون الى هذه المرأة الغريبة الحال ويتعجبون واجتمعوا حولها يتساءلون وترجح عندهم انها مجنونة . وبينما هم كذلك اذ تقدم واحد كبير الجثة ضخم الرأس عريض المنكبين مقتول الذراعين عليه هيئة الوحوش الكاسرة فتفرس في قينة وصار يزجر وثار اليها كالمجنون ولف شعرها المحلول على ذراعه وصرخ بها بصوت كالرعد قائلاً . ها قد رجعت الى قبضتي يا خبيثة يا مخشبة فمن بعد يخلصك من يدي . فهضت قينة مذعورة وصاحت من شدة ألمها ويك مالك ولي ايها الرجل من اين تعرفني . قال ها قد صرت تتكلمين الآن وتقولين انك لا تعرفيني . واما انا فاعرفك . قومي حالا الى مكانك

فعجب الناس من حال هذا الرجل وقالوا له اي سلطان لك على هذه المسكينة حتى تعاملها بهذا الجفاء فقال أما تعرفون اي سلطان لي انا الحارس الاعظم في القسم الاول من المارستان وهذه الخبيثة هربت ما اعرف بأي حيلة والآن قد وجدتها ولأذيقنها امر العذاب . وكانت قينة في اثناء ذلك تصيح وتتنحب ولا يلتفت احد اليها وقد صدقوا كلام هذا الرجل

لعل البعض نسوا شدة المشابهة بين حنة وقينة في الصورة وهذا الذي سهل لها التحال اسمها ومنزلتها فنالت ما نالت من المجد . فلينذكر الآن اولو الالباب اي عوض استعاضت من ذلك التحال فانه اورثها مطبق حنة في المارستان والعذاب الاليم من

سياط الحارس الوحشي

وكان هذا الرجل قد استفاق صباحاً من فعل دواء الغولة وعرف المكيدة التي وقع فيها فقامت عيناه في أم رأسه وصار يهدر كالبعير وآلى ليسعين في طلب المجنونة (حناة) ويفعلن ويفعلن. فالاتفاق الغريب . بل العناية الالهية هنا قدرت هذا التقدير لكي يعتبر الكافرون . والذي زاد غضبه ان الناظر الزمهُ بفرامة عظيمة بسبب افلات مجنونتين من وكالتِه فجرّها بشعرها الى ذلك المطبق الخيف وصار لا يفتر من تعذيبها ولا يلينهُ نحيبها ولا كلامها

واما قين فان رصاص لوقا لم يصبه حين اطلق عليه الغدارة من كوة الباب لكنه وقع حتى يوهم انه اصيب فلما اشتبك القتال بين رعين ولوقا قام واطلق ساقيه للريح وخرج من الباب الصغير وبقي في باريس هائماً بضعة ايام يقصد المنازل السرية يأكل ويبيت فيها وينفق من النقود التي كانت معه في نفس الليلة التي جرى فيها ما مر ذكره وكانت بريقة ايضاً تفعل فعله متجسسه اخباره . فاتفق انها التقت به ذات يوم فتقدم اليها حنقاً وقال هوذا قد صرت في قبضتي ولا بد ان اقبض عليك واسلمك الى الدرك واقرب عنك انك الساحرة الداهية فيحرقونك حرقاً . قالت خفض عليك فما ذنبي لديك ألم نلحم الصداقة آخر مرة

- بلى لحتما بقتلي وقتل اختي وصهري

- وما تقول اذا اعطيتك تحفة من انفس التحف

- اذا وجدتها كما تقولين اطلقت سبيلك

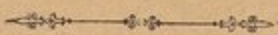
فدت اليه يدها وقالت ايمعجبك هذا الخاتم . وكشفت غطاء صغيراً في فسه تحت حجر الماس يهر البصر ببريقه . وكان تحت الفص علبه صغيرة كفلقة العدس ضمنها سم قتال وفي وسطها ابرة صغيرة دقيقة جداً كحمة النحلة لها من داخل العلبه زنبرك ينسد به الثقب الداخلة منه الابرة فاذا ضغطت الابرة ارتفعت بواسطة الزنبك فيجري السم من الثقب بارتفاع الزنبك وينزل في الجرح الذي يتسبب عن وخز الابرة فلما رأى قين بريق الخاتم حلق بعينه دهشاً وقال هاتي الخاتم وامضي في سبيلك .

قالت انا اضعه في اصبعك واعلم انه يساوي الفين وخمسمائة فرنك

فصار يرقص طرباً وقال اجعلي لي هذه البركة من كفك . فادخلت اصبع قين في ذلك الخاتم المسحور وضغطت الفص ضغطة خفيفة فشعر قين بوخز الابرة لكنه لم يبالي لشدة فرجه . فقالت له ليهنتك المغم البارد قال ورب ساع لتاعد . قالت فمت كمداً بشر اعمالك . ولم تم كلامها حتى شعر بلهيب السم منتشراً في دمه واسودت الدنيا في عينه وشعر بالدسيسة فاخرج في الحال غدارة من منطقتيه وافرغها في صدر الغولة فخرت صريعة ووقع هو ايضاً غائباً عن الوجود وفي دقيقة واحدة قضى كل من الخيئين نحبهُ

واما رعين فمضى ذلك اليوم الى ابن الشرطي ووقفه على اخبار كل هذه الحوادث حتى قضى منها اعجب العجب ومضى مع جماعة الى قصر لوقا وخرقوا حائط البري الذي بني على منفذه لينظر هل هناك اثر باق فحالما دخلوا رأوا جثتين معلقتين . وهما جثتا جبور وابي زرزور لان لوقا اشتد غضبه عليهما لما خاب امه من الفتك برعين وعلقهما هناك وسد عليهما منافذ البري فماتا من الجوع

ثم عاد ابن الشرطي وفرق جماعته في باريس يبحثون عن قينة فلم يقفوا لها على اثر اذ لم يخطر ببالهم وجودها في المارستان . وستأتي بقية خبرها
واما رعين فمضى الى حيث العائلة الشمسية وتزوج حنة ورحل بها الى بلاد بعيدة فقمضيا هنا عيش وصفا لها الزمان . وقد نال كل ما يستحقه من الجزاء



(١) الفصل الثاني والستون

« نفي قينة »

مكثت قينة في المارستان شهرين في اشد الاضطهادات وامر العذابات وذلك الرجل العاتي يزداد قساوة وفضاعة لا يعرف رحمة ولا في قلبه شفقة وكلما كانت تصبح

(١) هذا الفصل وما يليه زيادة عن الاصل . فان المؤلف في الاصل ختم الرواية ببقاء حنة في المارستان الى ان جنت ثم ماتت . والنوالة ايضاً ابقاها حية تعاني شظف العيش الى ان ماتت حتف انهما . وهذا غير مطابق للعقل لان رعيناً كان يجب ان يهتم بها اشد اهتمام لو صح ابقاؤها في الحياة

من الم الضرب والتعطيس في جرن الماء البارد كان يزيد تعذيبها حتى صار كل بدنها
مخدشاً بل مهشماً من تأثيرات ذلك القضيبي الفولاذي . وكان ايضاً قد شدد عليها
الحجر في المطبق لا يدعها تخرج الى الدار مع بقية المجنونات بل يخرجها فقط ساعة
الطعام الى المائدة ويعيدها ذليلة مهانة الى المطبق

فلما صارت قينة في تلك الحالة الشقية ورأت انها ما عادت تطبق شدة ذلك
العذاب وانها اصيحت على شفير الهلاك ولم تعد تجسر ان تكلم ذلك الحارس كلمة
واحدة لزمت الصمت وجعلت تبصر في طريقة تنجوها من ذلك الوحش الضاري
فاستجمعت قوى عقلها وسبرت اعماق فطنها وجست ابواب الحبل فلم تهدي الى شيء
ففي ذات يوم بينما هي على المائدة وقت العشاء صارت تلتفت يمينا ويساراً فرأت
خزانة صغيرة مفتوحة فيها خبز مقطع فيعد انتما العشاء قامت المجنونات ليدخلن منازلهن
فعاقلت الحارس وهو ملتئ بهن وبادرت الى تلك الخزانة فوجدت فيها سكيناً لتقطع
الخبز فاخذتها ودستها تحت ثوبها وخرجت الى مطبقها واخفتها تحت فراش القش الذي
كانت تنام عليه

وبعد انصرام الشهرين وجد الحارس انها ملازمة الصمت والسكينة ذليلة مطيعة
لا يحتاج معها الى اشارة لسلك السبيل المعهود من الطاعة فكان جرة حقنه خدمت
قليلاً ورأى من العوالب ان يسمح لها بالخروج الى الدار مع المجنونات . وكان ذلك
قبل ان اخذت السكين بيضعة ايام

فاتفق ثاني يوم ان الحارس اضطر الى تسكين المجنونات بداعي خصام وقع بينهن
فقامت قينة من ساعتها وتسالت من ورائه وهو لا يشعر ورفعت يدها بالسكين وشكنتها
في صدغه ففرقت الى قبضتها وسقط العين صريعاً خامد الانفاس فبادرت في الحال
الى دخول مطبقها

وعند مجيء الطيب على عادته مع الناظر العام رأيا الحارس صريعاً والمجنونات
في هياج شديد وقد ازدحمن على ذلك الوحش يمزقن جلده وينهشن لحمه . فدعا
الناظر بحارس آخر لتسكينهن وادخلهن الى المنازل وجعل هو والطيب والحارس يجولون
في المحاجر والمطابق ليعرفوا عدد المجنونات ولم يكن لهم علم بحالة قينة لان الحارس الاول

لم يكن يدعها تخرج كما ذكرنا ولا تواجه الطيب ولا الناظر . فلما اتتوا الى مطبقها رأوها منظرحة على فراشها نثن وتتصوّر فقال الطيب مالي لم ارا هذه المجنونة الا مرة واحدة قال الناظر لانها اضطرت الحارس بخشونتها وعصيانها ان يحجر عليها في هذا المطبق وخصوصاً لانها هربت مرة

فجلست قينة حينئذ ومدت يديها متوسلة وقالت ياسيدي الطيب . يا سيدي الناظر أليس في هذا المكان رحمة أليس في اهله قلب بشري . أليس يد قوية تنقذني من ظلم هذا الوحش الضاري . وصارت تنتحب . فتعجب الطيب من كلامها وقال لها مالك يا امرأة وما شأنك قالت ياسيدي لست مجنونة وما بي اقل اختلال وقد وجدني هذا الحارس في الطريق نائمة من شدة تعبي فقبض عليّ واتى بي ولم يسمع كلامي ولا اكرث بتوسلاتي

- فمن انت اذن وكيف اتصل اليك وكيف ظنك مجنونة هذا مما لا يصدق
- أنرى ياسيدي ان كلامي كلام مجانين فاخرجني من هنا وكلمي ما شئت
فاخبرك بقصتي

- فقولي لنا اولاً ما اسمك
- اسمي قينة الاندلسية امرأة لوقا الكرجاني دهمنا اللصوص ليلاً وقتلوا زوجي وفررت انا متدلية من شبك مقصورتي وهمت الليل في الشوارع واصبحت هالكة من التعب والجوع والبرد

ثم اتت له الحديث كما ذكرناه
فحمد الطيب دهشاً وقال أنت قينة . انت صاحبة منزل الشيطان . موجودة هنا والدرك يتجول من مكان الى آخر في طلبك . اخرجها ايها الناظر لنسلمها الى ابن الشرطي ينظر في حالها

فاخرجت قينة وألبست ثياباً لائقة بسيطة وارسلت صحبة الجنود الى ابن الشرطي فاتبهج بلقائها باتفاق غريب واجريت محاكمتها فاعترفت بكل ما جرى لها من الاول الى الآخر فحك عليها بالقتل . فقالت للقاضي ما ينفعكم قتلي ياسيدي اذا كنتم تريدون التخلص من الاشرار وتجملوني عبدة لامثالي فاخرجني من البلاد ايسر عليكم واعظم

فضلاً . اعيش في بلاد بعيدة فقيرة حقيرة ذليلة متسولة انتفع بصدقات الناس فيكون
عذابي اشد من القتل ولعلي اتوب الى الله فتكونون قد خلصتم نفساً من هلاك الدنيا
والآخرة والله لا يريد هلاك النفوس

بعد المباحثة والتروي قالوا هذه المرأة ما بقي لها شأن يقوم ولا بشر تعتمد عليه .
فعوض ان ندنس بدنا بدمها الخبيث نرى من وجه اولي ان ننفخها الى سواحل افريقية
تعيش بين امثالها من اهلها فاما ان تموت من اضطهادهم فيكون تأديبها اشد تأثيراً واما
ان تعيش ذليلة بينهم وتخلص التوبة فيكون لنا بذلك اجر
وهكذا قرر القرار ان تنفي قينة الى بلاد المغرب فسألوا عن سفينة تسافر الى تلك
الجهات وارسالها فيها

فلما خرجت السفينة من بوغاز جبل طارق وقابلت سواحل بلاد المغرب من شمال
افريقية لقيتها سفينة قرصانية واشتبك القتال بين السفينتين فقتل القرصان اهل السفينة
الفرنسوية واخذوا السفينة بما فيها من الشحن ووجدوا هذه المرأة ذليلة تصيح وتستغيث
فاخذوها سبيةً ورأوا ما بها من حسن الصورة فقالوا نخص انفسنا بها . هذه جارية
افريقية تنفعنا في الخدمة واللذة

وكان هؤلاء القرصان من بلاد الجزائر يسكنون قرية في اطراف البلاد ويعززون
في البحر يسلبون ويسبون

فاخذوا قينة الى منزلهم وجعلوا يفجرون بها ويحملونها مشقات الخدمة فذلت
نفسها ذلاً لم يكن يخطر لها ولا في المنام وصارت تطلب الموت كل يوم الف مرة وهو
لا يجيبها وما بقي في يدها حيلة للخلاص من هذا الشر العظيم والويل الشديد

وبقيت عند هؤلاء الجماعة العتاة الطغاة سنة كاملة تقاسى انواع البلايا وصارت
في آخر هذه المدة تحسن التكلم بالعربية المغربية . وكانت تسمع اولئك الجماعة
يتحدثون ويذكرون مراراً اسم شيخ من تلك الاقطار يقال له الشيخ محمود الساحر
فانفتح لقينة باب صغير من الامل وقالت في نفسها اذا نجاني الله من هذا الاسر
قصدت ذلك الشيخ وتراميت على قدميه لعله يرثي لحالتي ويتخذني امة له لاني اسمع
ان الناس تحبه وتمناه وله اعمال حسنة

فاتفق لها مرة ان القرصان خرجوا لمصلحتهم وتركوها وحدها في المنزل مع بعض العبيد فاستغنمت فرصة غيابهم وقدحت زناد فكرتها فاهتدت الى حيلة استطاعت بها الفرار فخرجت هائمة عند انبثاق السحر

الفصل الثالث والستون

« الشيخ الساحر »

كان ذلك الشيخ قد اشتهر في تلك البلاد بالاعمال السحرية والطلسمات والتنجيم واستخراج الادوية من العقاقير ونحو ذلك حتى طار صيته في الآفاق وتحدثوا به في الامصار فصار الجميع يحترمونه ويهابونه ويجلون شأنه . وكان مقامه في بلدة يقال لها القلعة على مسيرة نحو مرحلة من قرية القرصان وكانت امرأته قد ماتت وخلفت له بنتاً يقال لها امينة عمرها اذ ذلك ست سنوات وعمره نحو اربعين . وله اخ يقال له مصطفى يناهز الثلاثين

وكانت قبنة قبل خروجها من منزل القرصان قد تزودت من الطعام ما يكفيها نهراً كاملاً . فلما تضاحى النهار وهي هائمة في تلك البراري رأت ركباً في الطريق قادمين نحوها فتقدمت اليهم متخضعة متذلة باكية وسألتهم ان يرحمها فاستنطقوها فقالت انها كانت اسيرة عند جماعة من القرصان يعذبونها اشد العذاب وانها سمعت بذكر الشيخ الساحر ففرّت قاصدة الوصول اليه لعله يشفق عليها ويتخذها امة له فتنجو من شر مضطهدها

فبالاتفاق كان مسيرهم الى القلعة فاخذوها معهم وقدموها للشيخ المذكور فجعلت تشكو اليه مسكنتها وذلها واقطاعها ووحشتها في غربتها فرق لها وقد اعجبه جمال صورتها فاقامت عنده بصفاء العيش مدة طويلة وهي تحسن معاملة ابنته امينة وتلاطف اخاه وتقوم بالخدمة احسن قيام

وعلى توالي الايام وكثرة الالفة احبها ذلك الشيخ واراد ان يتزوجها فقبلت فتزوجها وسماها فاتنة وصار يعلمها فنون السحر وصناعة الادوية ونحو ذلك من علومه

فمجب من فرط ذكائها وسرعة اقتباسها . وصارت النساء يعجبن بها ويكبرن امرها
فنات شهرة عظيمة

وكان من عادة اهل البلاد ان يحتفلوا كل سنة بموسم عام يجتمع اليه ارباب
الفراسة واصحاب الطعن والضرب والسباق والسحر ونحوهم فيظهر كل منهم ما عنده
من البراعة في اعماله . وكان للشيخ محمود المقام الارفع بين تلك الطبقات لانه فاق
باعماله السحرية سائر المغاربة وكان كل سنة يعمل اعمالاً تحير الناس ولذلك كثرت
حسادته واعدائه من اهل صناعته وصاروا يطلبون حيلة يهلكونه بها وكان المتحزون
له اكثر من المتحزين عليه

فلما كان يوم الموسم اقبل الجماهير من الاقطار واجتمع الناس في ميدان فسيح
وصاروا يلعبون ويتسابقون ويتطاعنون ويتضاربون ويظهر كل واحد ما عنده من
الفنون في ابواب الحرب والصناعة وهلم جرا

واخيراً قرب العصر جاءت نوبة الشيخ محمود للعمل فاصطفت الجيوش وتطاولت
اليه الاعناق فوقف على اكمة وصار يظهر الاعمال العجيبة الغربية حتى تحير الناس
واخيراً مديده الى سلة مع احد غلمانه واخرج منها افعى وصار يلعب بها كأنها رمة
حبل وهي تتلوى بين يديه وتنهشه حينما اتفق لها فلا يلحق به اقل اذى

فحينئذ تقدم واحد من جماعة حساده وقال الى متى يحتال علينا هذا الشيخ
ياخذ حية غير سامة ويوهم انه بقوة سحره لا يتأذى بسمها . فان كان ما يدعي صحيحاً
فنحن نقدم له افعى يفعل بها كما فعل بتلك فترون ما يفعل به سمها . فاضطرب الشيخ
في باطنه وعلم ان ساعته قد جاءت ولم يرد ان يظهر عجزه فراراً من العار العظيم الذي
يلحق به ولذلك اظهر السكينة وقال قدموا اليّ الافعى فاذا حيت بعد لدغتها نصف
ساعة يقتل هذا الحاسد والا فقد قضي عليّ وما عليه بأس فقال الرجل قبلت بما اشترط
وتناول جراباً فيه افعى كبيرة ضمن شبكة تقدر ان تجول فيها ولا تنجو منها فاخرجها
من الجراب والقها على الارض فتقدم الشيخ واخذ الشبكة وقبض على عنق الافعى
واخرجها من الشبكة وعضها باسنانه وقدم لها يده اليسرى فتهشته وافرغت في الجرح
سمها القتال

وكان قد ربط معصمه بسير دقيق وشده حتى يبطئ سريان السم ثم ادلى يده لتقل سرعة دورة الدم الى الاعلى . ووقف ينظر الى الجموع بعزم ثابت وكانت قينة حينئذٍ جالسة في خباء قد ضرب لها في طرف الميدان وامينة تلعب مع البنات قرب الخباء غير مبالية بما يجري . ولم يفت قينة شيء من تلك المشاهد وصارت بعد نهشة الافعى تتوقع هلاك زوجها وقلبها يخفق جزعاً

فلما اتقضى الاجل المضروب ولم يمض الشيخ تقدم احد اتباعه الى ذلك الرجل الحاسد وطعنه بسكين في صدره فسقط يختبط بدمه وهجم بقية حزب الشيخ على حزب الحاسدين واستلحموهم فاضطربت الناس وكثر الهرج واشتدت الممعة واختلط الرجال بالفرسان واقبل الجنود ففصلوا الاعداء بعضهم عن البعض . وطلب الجماعة الشيخ فلم يقفوا له على اثر لا ميتاً ولا حياً

فخرجت قينة من خبايها وصارت تجول بين الجموع وتسال عن زوجها فلا يعرف احد مكانه ولا ما صار اليه . فهلع فوادها وهامت طائفة في انحاء المدينة الى ان التقت عند الغروب بمصطفى اخي الشيخ فسألته عنه فقال سأخبرك في البيت فهناك قال لها ان الشيخ مضى ولا يعود وقد اوصاني بك وان آخذك الى مكانه بعد خمسة عشر يوماً . فالتحت عليه ان يطعمها على جليلة الخبر فلم يشأ وقال من الضرورة ان احفظ وصيته فانه اوصاني ان لا اخبرك ولا اخبر احداً بامره ولكن بعد اسبوعين آخذك اليه وهذا خاتمه يشهد بصحة كلامي

فلما كان اليوم الخامس عشر قال لها مصطفى هياً بنا . واحضر لها بغلة فركبت وركب فرسه وسارا في آخر الليل وتحللا الجبال الممتدة من القليعة الى سهل متجه ثم اشرفا على واد عميق مستوعر يقال له عقبه الجن وكان الناس يزعمون ان الجن والغيلان تسكن ذلك الوادي وسمت قينة بخبره قبلاً فقالت له وبلي الى اين تمضي بي اما هذا وادي الجن قال لا تخافي فما هي الا اوهام وليس هنا الا وحوش البر تأتي ليلاً وتسرح نهاراً . ثم نزل بها في تلك العقبة بمشقة عظيمة وبلغ كهفاً فقال تعالي وانظري فرأت هناك ما يقشع البدن رمة زوجها بالية وحوله رمم الحيوانات البرية فقال لها هذه الحيوانات اكلت شلوه فماتت بالسم وقد اختار اخي ان يموت هنا لثلاث

يفتضح بين الناس . تسأل من المعمة وتبعته واركبته بغلة واتيت به الى هنا فاوصاني
بما اخبرتك فيايك ان تفشي هذا السر لان بافشائه دمارنا وابقى محافظة على الرزاة
والسكينة ووجهي اهتمامك الى تربية امينة حسب وصيته . فجعلت قينة تنوح على
زوجها وتندب سوء حظها وتذكر تلك المصائب التي صبتها عليها العدالة الالهية . ثم
حفر مصطفى حفرة ودفن فيها عظام اخيه ورجع هو وقينة الى البيت

الفصل الرابع والستون

« غرام جديد »

مضى على قينة حول كامل وهي في خلوة تامة وهم متزايد ليس لها تعزية ولا سلوى
الا امينة الفتاة اللطيفة فكانت قاصرة عليها محبتها واهتمامها وتمكنت العلاقة الحبية
بينهما الى درجة تفوق الوصف

وكانت امينة تكثر التردد الى بيت جارٍ هناك يقال له الشاعر السماوي . وهو
شاب لطيف المعشر ظريف الهيئة مولع بنظم الشعر وضرب الرباب وليس عنده في
بيته احد الا خادم وسائس وله ثروة كافية

فكانت امينة تسرّ جداً بسماع اشعاره وانغام ربابه . وكل يوم تأتي وتخبّر قينة
بما يقول وترغبها في سماع الحانو وهي لا تكترث بذلك لاشتغال فكرها في مصيبتها
الا انها الحت عليها مرة ان تصعد السطح في ضوء القمر وتسمع شيئاً فطاوعتها فغنى
الشاعر شعراً ملح فيه عن غرامه

وكان قبل ذلك يعلم امينة ضرب الرباب وحفظت كثيراً من منظوماته
فبعد يومين من صعود قينة الى السطح نظم قصيدة وعلمها لحناً تغني به على الرباب
وقال لها خذي الرباب واسمعيها فاتنه رابتك (اي زوجة ابيك) فأتت الفتاة طائرة
الفؤاد من الفرح وقالت لها اسمعي يا أمي ما تعلمت اليوم وما الطف هذا الشعر
واللحن . وجسّت اوتار الرباب واصلحتها وصارت تشد هذه الايات

بدت لنا في الدجى والبدري في كدر غيداء تفتقر عن برق بلا مطر

واقبلت تنجلي تبهياً بيهجتها
 مالت وماست وولت كالظباء اذا
 ولاعبت خصرها كالغصن لاعبه
 وابرزت من ثناياها لنا درراً
 وارسلت حول خديها ذوائبها
 ومذ تبدى لي النهدان خلتها
 شبهت خالاً لها في صحن وجنتها
 فقلت لما بدا هذا الجمال على
 هذي التي تخجل الاقار طلعتها
 عاشت بقاتتي الآمال واتعشت
 فقلت لها قينة حينئذ اسكتي يا امينة كفى فما هذا الكلام البارد قالت كيف
 يا أمي بارد وهو موجه اليك خاصة فما اقول لصاحبنا قالت لا تقولي له شيئاً واياك ان
 يعرف احد هذا السر

وهكذا صارت الايام تمضي والليالي تنطوي والشاعر كل يوم يقول لامينة شيئاً
 يتضمن تلميحاً وتعريضات سرية . فع تكرار ذلك اشتغل بال قينة وانفتح في
 فؤادها باب الهوى وصارت تكثر من الصعود على السطح في ضوء القمر والليالي المظلمة
 وتبيت هي وامينة اكثر الليالي لان الحر كان شديداً لا يطاق داخل البيوت . وكان
 الشاعر السماوي يكثر من التلميحات حتى ضاق صدره وما كانت قينة تكلمه كلمة ولا
 تظهر له اشارة

ففي احدى الليالي باتت قينة وامينة على السطح ولما نهضت صباحاً وجدت على
 فراشها باقة زهور مر بوظة فيها رقعة فنشرت تلك الرقعة واذا فيها هذه الايات
 طال اشتياقي والزمان يخون
 لو كان يسمح لي الزمان بنظرة
 يا طالما ابصرت طيفك في الكرى
 وتحسرت وتهدت وتلهف
 وتقرحت بدم الدموع جفون
 يشفي بها قلبك لديك رهين
 فازداد في تحرق وشجون
 ولهيب اشواق نعم وجنون

واذا جنت بحب مثلك يامني روجي فليس ملوماً المجنونُ
 شبتت بقلبي نار شوقٍ للقفا حُرمت به طيب الرقاد عيونُ
 والشوق مهماز يحرّكهُ الجوى ابدأً وما للوجد في سكونُ
 فاذا بكيت يسيل دمعي من دمي فلقد ضنيت وما لدي معينُ
 واذا نظرت ترين جسمي ذائباً والحب في قلبي الحزين مكينُ
 قد لان قلب الصخر مما حلّ بي لكن قلب الدهر ليس يلين

فاضرمت هذه الايات في فؤاد قينة نار غرام صحيح ووجد شديد وتزايد قلبها من ذلك الوقت وصارت تحاول ان ترى الفتى كل يوم وتطفئ لهيب شوقها ولو بنظرة وكانت ثاني يوم وقوفها على هذه الايات ارادت ان تفتح له باب الرجاء فقالت لامينة قولي لصاحبك السماوي ان يغني هذه الليلة الاشعار التي نظمها البارحة فمضت في الحال واخبرته فكاد قلبه ينفطر من شدة فرجه . وفي جوف الليل الهادي جالس في نافذة يته يترنم بها بلحن شجي يتحرك له الجماد وقلب قينة في مكانه يتأظى وجداً ويخفق لذة من نغمت الحبيب وهي تنهد وتترنح

وكان مصطفى في تلك المدة قد شعر من قينة بهم غير الهم السابق لانها كانت قد سلت زوجها وصار يلحظ منها سهوات كثيرة تدل على اشتغال بال سرّي . ففكر مراقبتها سرّاً الى ان شعر تلك الليلة بما هي فيه وسمع الحان الشاعر السماوي وفهم تعريضه فصعد الى حافة السطح ورأى قينة في الحال التي ذكرنا فشبث في فؤاده نار الغيرة والحسد لانه كان قد أغرم بها منذ اشهر وعزم ان يكشفها بحبه لعالمها تقبل ان تتزوج به لكنه كان يراعي اشتغالها بحزنها ويصبر على الايام الى ان تأثني باتفاق مناسب ولما كان الغد رأى على وجهها علامات السكينة والسرور فتحقق انها مفرمة بالشاعر وان هذه الراحة نتيجة مواصلة العواطف في الليلة السابقة فتمزقت احشاؤه من شدة غيظه ونار غيرته واراد ان يبت معها امره فطلب اليها خلوة ساعة وكشفها باسراجه بأسلوب رقيق واشارات لطيفة وقال لها اخيراً اعلمي اني قد وقفت حياتي على حبك فاذا قبلت ان تقترني بي فخبذا والا فلا يمكن ان تكوني لغيري وانت على حال لا تستغنين عن بعلي لانك وحيدة قتيبة فاختراري احد الامرين وصرّحي لي بأفكارك لكي

اعرف الى اي حال يا اول بي الامر
 فاختلفت احوال قينة واصفر وجهها ووضحت عليها الكآبة ولم تجب بكلمة ولا
 رفعت نظرها اليه فقام مغضباً وخرج متوعداً . فعلمت قينة شرّ الورطة التي وقعت فيها
 وصارت تتوقع سوء المنقلب
 ومضت عدة ايام وهي في قلق شديد وقال لها مصطفي يوماً ان الليالي قد صارت
 باردة فلا لزوم بعد الآن ان تصعدي على السطح فاطاعت بلا اعتراض
 وفي ذات يوم دخلت عليها امينة حزينه فقالت لها مالك يا حبيبي قالت صاحبنا
 مريض وما عاد يتناول من الطعام الا الحشيشة (هي الحشيشة المخدرة وكان من
 عادته ان يخدر دماغه بها) وقال لي ان ذئب الكهوف اين قلباً منك وبناء عليه قد
 اختار الموت بالصفة المذكورة

وكان مصطفي في تلك الاثناء يحاول فرصة ليقتل الفقى وفطنت قينة لما اضر
 ولذلك حجبت نفسها عنه حجياً تاماً حتى اضناه الوجد وانهمكه السقام وارسل يخبرها
 بحاله بلسان امينة فضاقت صدرها وجرت دموعها وصارت محتارة بين ويلين عظيمين

الفصل الخامس والستون

« الأجل المحتوم »

ويوما قينة ذات يوم غارقة في بحر الهموم والهواجس اذ دخلت امينة وجلست
 تنظر اليها نظر الاسيف وقالت لها تحبيني يا أمي . فلم تجب قينة بل لكي تفرّج همها
 وتطفي نار شوقها اعتنقت الفتاة وصارت تقبلها ودموعها تجري . فقالت امينة ما هذا
 البكاء يا أماء تحبين ان اطالعك على شيء يسليك . فأخنت رأسها اشارة الى الايجاب
 فأخرجت امينة من جيبها ورقة وناولتها اياها فرأت فيها هذه الايات

طال الفراق فطال فيه سهادي	حتى حرمت ملذّتي ورشادي
يا من بلطفك قد ملكت حشاشتي	وهو لك غلّ القلب بالاصفاد
تفديك روح بالفراق قتلتها	يجوز للمفديّ قتل الفادي

قد ذبت من شوقي الشديد وما بدا
عجباً فذاك النار في ايقاد
قسماً بـجـبـك ان صبري عنك في
وادٍ وقلبي هائمٌ في وادٍ
شمت العذول بـعدنا لـكنه
لم يدر ان القلب بالمرصاد
فحجبت عن عيني ولكن في الحشى
عينٌ تراك هناك في الابعاد
ان فرّقوا الجسمين ليس بمبعدي
قلبي عن الايام والترداد
ان لم ترني جسيمي بعينك فانظري
وهماً بعين الفكر معك فوادي
ان يحجبوك فان ذكرك في في
وهواك بين جوارح الاكباد
وخيال شخصك بين اجفاني ثوى
فلذاك ليس النوم لي بمراد
ومنى فوادي من جمالك نظرة
وكفى بها لشقاء قلبي الصادي
واهاً لا يام اللقاء وآه من
جور النوى وشماتة الحساد
فانا احبك والعواذل والحواء
سُدُّ والرقيب قلوبهم كرماد
فاشدد تأثير قينة وما قدرت ان تملك
زفراتها واخذت رقعة وكتبت ما يأتي

لقد ربط الاله لنا قلوباً
صفت في الحب بالحبل المتين
وخان الدهر حتى فرقتنا
يد الحساد والزمن الخوون
فانت من الفؤاد اذا افترقنا
بمنزلة السواد من العيون

ثم ختمت الرقعة واعطتها لامينة فاوصلتها حالاً الى الشاعر السماوي فرقص فواده
طرباً واكثر ذلك اليوم من تناول الحشيشة لزيادة لذته ومضاعفة افراحه

وفي ذلك المساء كانت ليلة حافلة بالافراح في بيت مجاور لبيت قينة فلما تنفي
قينة كل ريبة امتنعت عن الحضور واما امينة فلم يطاوعها قلبها ان تغوتم تلك الليلة
البهجة فقبلت راببتها ومضت من اول الليل . وبادرت قينة الى سريرها فنامت نوماً
هيناً لم تذقهُ منذ نحو سنتين

وبعد بضع ساعات استيقظت مدعورة بصراخ مريع وضجة هائلة فخرجت من
غرفتها ورأت سطوع نار عظيمة جداً كانت قد استعرت في البيت المذكور فصاحت
« امينة امينة . اين هي » وارادت الخروج من باب الدار فاعترضها مصطفى وقال
معيب بنا ان نحضر ولا نقدر على اخماد النار واما امينة فاذا ماتت فهو عليها مقدّر ولا

يُدفع القدر باهتمام البشر

فرجعت اسيفة وصعدت السطح فرأت الحريقة وعلمت شدة هولها وكانت تسمع
من النحيب والويل والالين ما يفتت الالكباد ورأت الشاعر السماوي على سطحه جامداً
ينظر نظر الذهول لان فعل الحشيشة كان قد اخمد حسه البشري فصاحت به قينة
« سماوي سماوي . امينة وسط النار بادر الى نجاتها وفر برضاي وحبي » فتنبه الفتى
بصوتها الرخيم وعرفها فطار الى البيت المحترق بجناح الحمية والوجد ودخل البيت فسمع
صراخ الفتاة في غرفة وصلت اليها النار فوج للهب بسرعة البرق واختطف الفتاة
وخرج وقد احترق نصف ثيابه فتبادر اليه الناس واطفأوا ناره وصبوا عليه الماء غزيراً
فاتعش واسبغ بامينة الى بيتها ودفع الباب وكانت قينة قد نزلت لاستقباله فوضع الفتاة
امامها فقالت له قد تعاضم حبك في قلبي لشجاعتك العجيبة فلا شلت يمينك . واعلم
ان مصطفى يبغضك ويريد ان يتزوجني واما انا فقسماً بجياتك لا اتخذت غيرك اليماً
فاذهب الآن لئلا يدخل مصطفى وبراك

وكان مصطفى قد خرج من البيت حينما صعدت قينة السطح

فاراد الفتى الانصراف وكان السكر قد اوهى قواه فقال لقينة اذكري وعدك
وعطف نحو الباب واذا بمصطفى قد دخل مكفهاً فقالت له قينة اين كنت يا قاسي
القلب حين كادت النار تأكل امينة فلولا همة هذا الفتى الباسل الغيور لذهب دمها
هدراً . فقد احببتُه ولا اتزوج سواه

قال نعم اعرف هذا قبل الآن لكن لا يمكن ان تتزوجي هذا الحشاش ولا بد
ان اقتله غير اني الآن لا ادنس بيت اخي بدمه

ثم خرج ولم يسمع لها كلمة اخرى

واما الشاعر فتنبه قليلاً من سكره عندما سمع وعيد مصطفى ثم عاد الى الخمول
فتقدمت اليه قينة وكنته فلم يسمع كلامها فارتاعت وظنت انه هالك فسقطت بجانبه
متلاشية من الخوف والحزن . وكانت امينه قد نامت

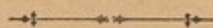
و بعد نحو دقيقة استفاق الشاعر وصار يقول . تتوعدي يا مصطفى فلا بد يا ابن
ابليس ان اروّي خنجري من دمك . وحينئذ شعر بقينة بجانبه فاستلّ خنجره وقال

أفلا تخاف ان تبقى بجانبها الخبيث . وطعن قينة في صدرها فصاحت آه يا حبيبي
 قتلتنى وصارت تشحط بدمها . ولم تكن الضربة قاضية في ساعتها فدهش الفتى بصوتها
 وحقق النظر فطار السكر من رأسه وصاح من صميم فؤاده . آه والوعتي شلت اناملي
 قتلت بيدي حبيبتى . فصارت قينة تن وتضور وقالت بصوت ضعيف متقطع . خاب
 الرجاء وحان الاجل المحتوم . فقال كيف تطيب لي الحياة بعدك ثم طعن صدره بذلك
 الخنجر وسقط بجانبها صريعاً « الى حيث التت »

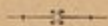
و بعد هنيهة دخل مصطفى فرأى ذلك الدم المتدفق والفتى والغتاة صريعين .
 فحمل امينة الى بيت الجيران والتمس ان يستوصوا بها . ثم نقل الى البيت كمية من
 الحطب واضرم النار والقي على الحطب جثتي الشاعر السماوي وقينة ام الدواهي وفاتنة
 الالباب وخرج هائماً على وجهه ولم يعرف بعد ذلك خبره

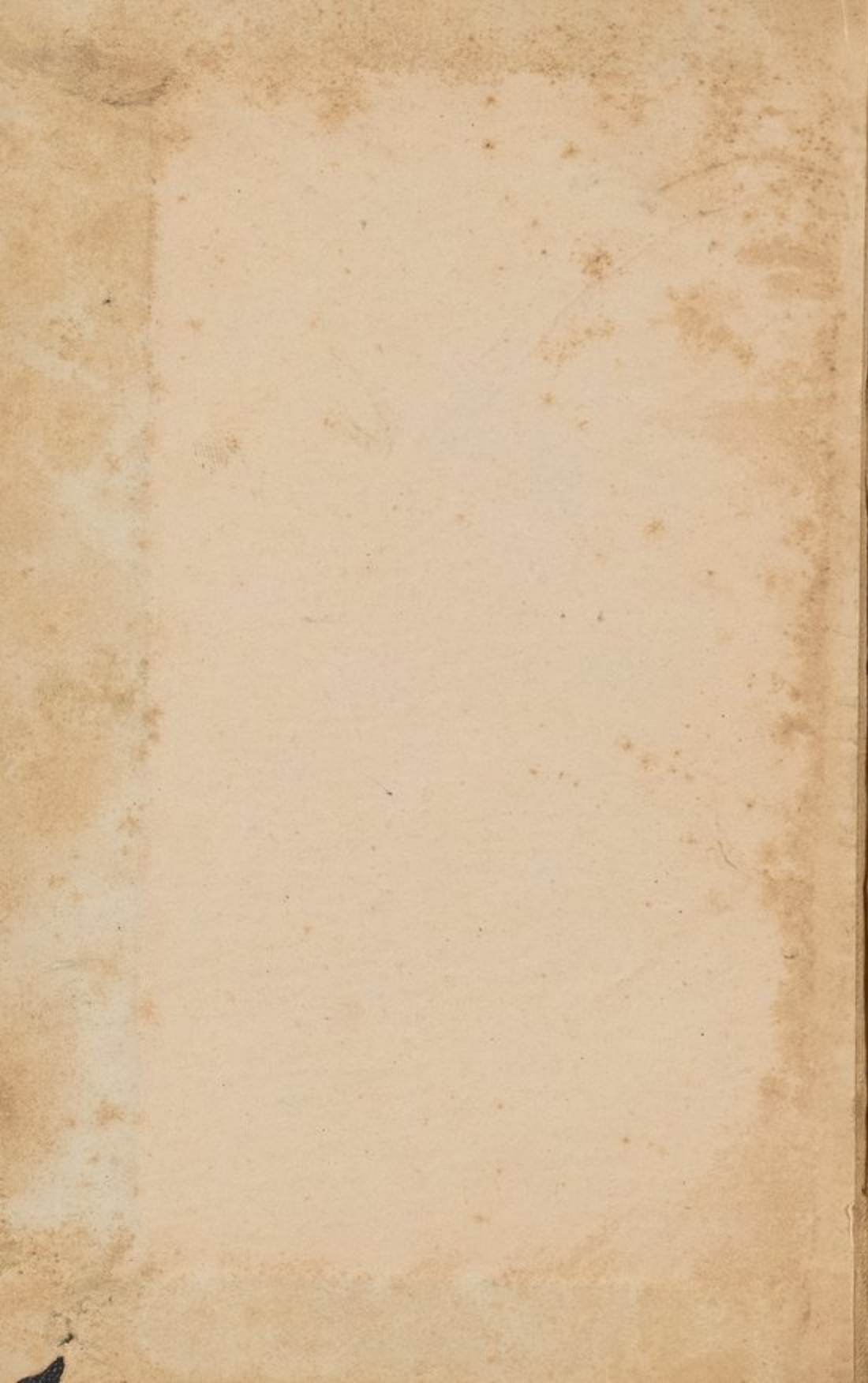


انتهى الجزء الرابع من رواية غرائب الاتفاق وبه تمام هذه القصة
 العجيبة الشؤن الكثرية الفنون



واما الاغلاط التي وقعت فيها فترجو اصحاب الذوق ان يعترفوها
 ويصلحوها ويعلموا انها سهوية او مطبعية . ولا
 ندعي العصمة على كل حال . لان
 لله وحده العصمة
 والكمال





Princeton University Library



32101 063933228